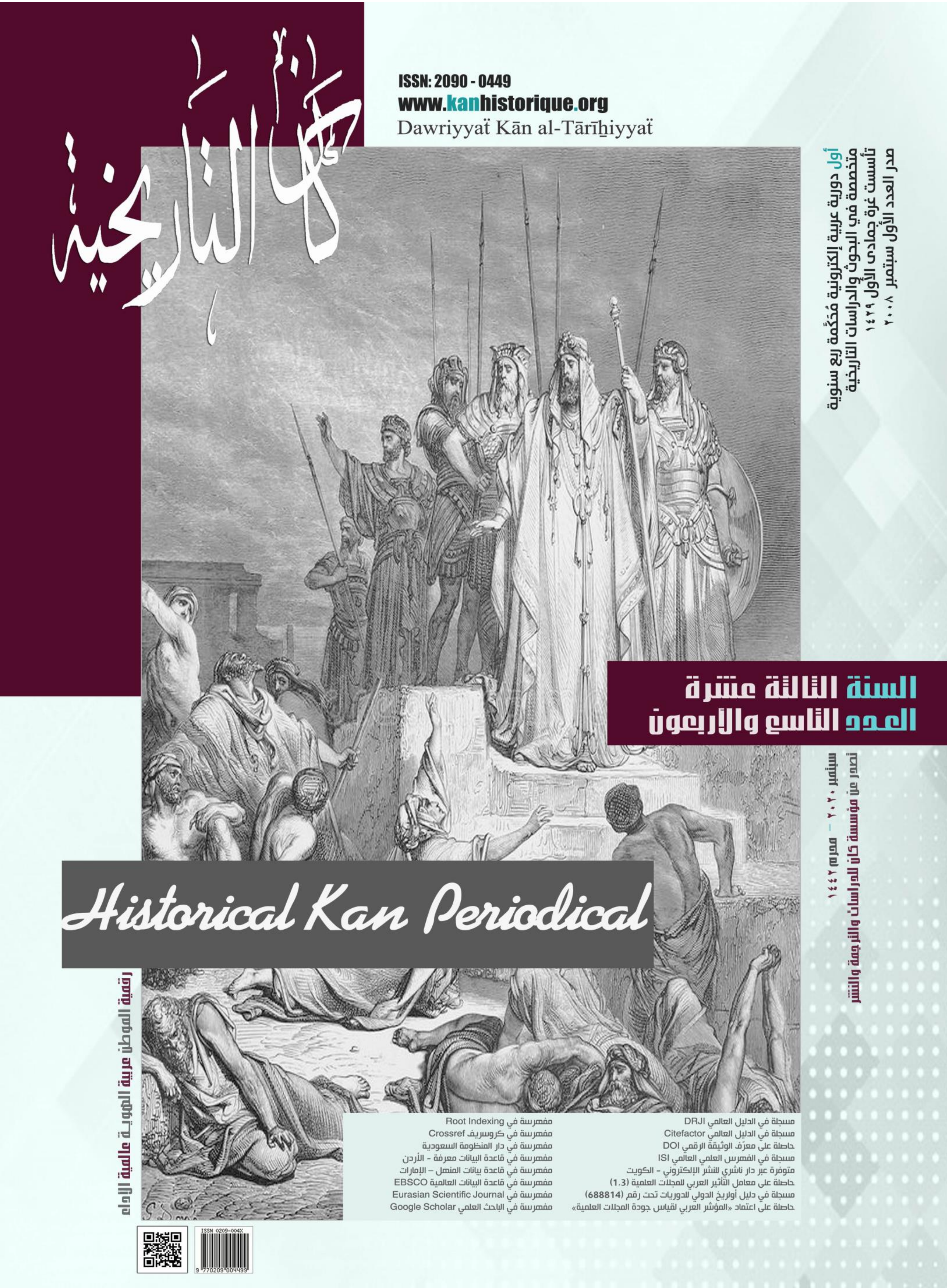


كان التاريخية
ISSN: 2090 - 0449
www.kanhistorique.org
Dawriyyaẗ Kān al-Tārīẖiyyaẗ
أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨
السنة الثالثة عشرة
العدد التاسع والأربعون
سبتمبر ٢٠٢٠ – محرم ١٤٤٢
تصدر عن مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر
Historical Kan Periodical
رقمية الموطن عربية الهويـة عالمية الأداء
مسجلة في الدليل العالمي DRJI
مسجلة في الدليل العالمي Citefactor
حاصلة على معرّف الوثيقة الرقمي DOI
مسجلة في الفهرس العلمي العالمي ISI
متوفرة عبر دار ناشري للنشر الإلكتروني - الكويت
حاصلة على معامل التأثير العربي للمجلات العلمية (1.3)
مسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (688814)
حاصلة على اعتماد «المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية»
مفهرسة في Root Indexing
مفهرسة في كروسريف Crossref
مفهرسة في دار المنظومة السعودية
مفهرسة في قاعدة البيانات معرفة - الأردن
مفهرسة في قاعدة بيانات المنهل – الإمارات
مفهرسة في قاعدة البيانات العالمية EBSCO
مفهرسة في Eurasian Scientific Journal
مفهرسة في الباحث العلمي Google Scholar
ISSN 0209-004X



دورية كان التاريخية.- س١٣، ع٤٩ (سبتمبر ٢٠٢٠/ محرم ١٤٤٢)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīẖiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 13, no. 49 [September 2020]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
http://www.kanhistorique.org
Information on this issue: https://kan.journals.ekb.eg

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠٢٠.

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ　　　٢- الآثار

٣- التراجم　　　٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical

Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2020.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

أول دورية عربية إلكترونية محكمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م



ISSN: 2090 – 0449 Online



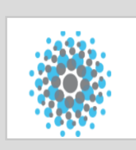
أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



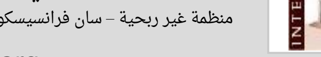
دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org



معتمدة من مركز مؤشر - برلين:
المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالميًا.
https://indexpolls.de



مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات البيليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

www.kanhistorique.org

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية. "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.



حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المُحَكَّمة

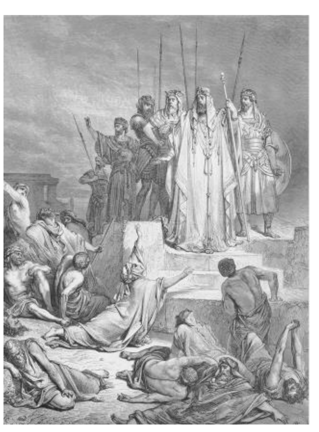
مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد

أستاذ مشارك تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد

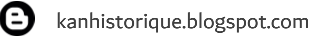


The Famine in Samaria - Picture from The Holy Scriptures, Old and New Testaments books collection published in 1885
Stuttgart-Germany. Drawings
By Gustave Dore (1832 - 1883).

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

 historicalkan
 groups/kanhistorique
 kanhistorique
 kanhistorique.blogspot.com
 goodreads.com/kanhistorique
 www.kan.nashiri.net

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرنسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.

GO GREEN GO PAPERLESS

الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

أخلاقيات النشر والنزاهة العلمية

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهمّ محرري المجلاّت العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللاّزمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرّح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

كان التّاريْخية هي أول دورية عربية مُحكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨ . كان التّاريْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية من متخصّصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسة أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكّمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحرّرين الآخرين أو المحكّمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدّم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكّمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنّية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية.

يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكّمين اثنين على الأقل ممّنْ لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكّمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكّمين أو طلبهم ألا يقوم محكّمون معينون بمراجعة أوراقهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيزة.

COPE

دَّورية كـان التَّاريْخيـة هـي دوريـة علميـة عالميـة مُحَكَّمـة تعتمـد سياســة المراجعــة المزدوجــة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمــة والنشر. إن الهــدف الـرئيس مـن الدوريـة هـو دعـم الدراسـات التاريخيـة المتخصصـة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعـة أعـداد في السـنة وتقبـل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربيـة والإنجليزيـة. كمـا تنشر الدوريـة مقـالات أصليـة وعاليـة الجــودة في مجــالات العلــوم المسـاعدة ذات العلاقـة، ويشـمل ذلـك كـل العلـوم نظـرًا لطبيعـة التَّـاريْخ كعلـم يتنـاول النشـاط الإنسـاني كافـة. ويشـمل ذلـك مجموعـة واسـعة مـن مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيــف كبــير مــن القــراء ذوي التخصصات المتعددة.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.

الأصالة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأً فادحًا في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعملهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية، وتُوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقًا صحيحًا وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكّمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكّمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على أي محكّم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المُحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكّمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكّمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكّمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكّمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السريّة، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكّمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجّهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكّمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

شرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

دَورية كان التَّاريْخية مفهرسة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرة التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال/ دراسة/ ترجمة/ تقرير/ عرض كتاب/ عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال/ الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعون.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وبتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دَّوريةُ كَان التَّاريْخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممَنْ عُرِفوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممَنْ أصدروا كتبًا أو أبحاثًا علميَّةً متميزة في تخصُّص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ العالم القديم.
- التراجم والأنساب.
- التاريخ المقارن.
- التاريخ الحديث والمعاصر.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- منهج البحث التاريخي.
- المستكشفون والرحالة.
- العمارة والعمران والمدن.
- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.

المُقيمّون والمُحكّمون

" حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَّشْرِ

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألاّ يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

- **موضوع البحث:**

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

- **المراجع:**

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَّشَرِ

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّوريةُ كَان التَّاريْخية أربع مرات في السنة: (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات للبريد الإلكتروني: **info@kanhistorique.org**
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير: **mr.ashraf.salih@gmail.com**

مُحتَوَيَاتُ العَدَدِ

كُتَّابُ العَدَدِ

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

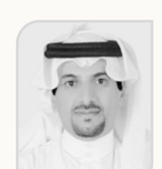
نجران في التراث السرياني
منذ وصول النصرانية وحتى عشية ظهور الإسلام (٤١٩-٦١٠م)
دراسة نقدية في ضوء المصادر الموازية

د.عوض بن عبد الله بن سعد بن ناحي

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

كلية العلوم والآداب – جامعة نجران

المملكة العربية السعودية



مُلَخّصْ

نبحث هذه الدراسة في تاريخ نجران في ضوء المصادر السريانية النصرانية منذ وصول النصرانية وحتى عشية ظهور الإسلام حيث تعالج أسئلة رئيسة في مقدمتها أصل النصرانية في نجران والسياق التاريخي لحادثة الأخدود كما صوّرتها المصادر السريانية، ثم أحوال النصرانية بنجران بعد حادثة الأخدود وحتى ظهور الإسلام، إضافة إلى إلقاء الضوء على ما كتبته المصادر السريانية عن تاريخ اليهودية بنجران خلال مرحلة الدراسة. وقد تضمنت الدراسة خمسة مباحث رئيسة إضافة إلى المقدمة والخاتمة، حيث ستعرّف الدراسة بأهم مصادر التراث التاريخي السرياني الذي عُني بنجران منذ القرن السادس الميلادي. يلي ذلك مناقشة جدلية قصة وصول النصرانية إلى نجران في ضوء الرواية السريانية مع مقارنتها بما ورد في روايات المصادر اليونانية، والحبشية، والإسلامية. وستبحث الدراسة في محنة نصارى نجران في ضوء المصادر السابقة إضافة إلى النقوش الجنوبية مع الحرص على تقديم مقاربة تاريخية للأحداث ونتائجها. وسيركز المبحث الثالث على أحوال النصرانية في نجران في المرحلة التي تلت حادثة الأخدود وصولاً إلى السنوات التي سبقت ظهور الإسلام، وتختتم الدراسة مباحثها الرئيسة بتسليط الضوء على أحوال يهود نجران كما صورتها المصادر السريانية. أما نتائج الدراسة فقد تضمنت خلاصة ما توصل إليه الباحث وفي مقدمتها تحديد المرحلة الزمنية لبداية اهتمام المصادر السريانية بنجران، والسبب الرئيس الذي كان وراء ذلك الاهتمام. وتمثل إشكالية وصول النصرانية إلى نجران في ظل اختلاف الرواية السريانية مع نظيراتها الإسلامية واليونانية والحبشية استنتاجًا آخر خرجت به الدراسة الحالية، غير أن حادثة الأخدود كشفت عن مدى دقة الموارد السريانية في تصوير تفاصيل الأحداث مقارنة مع غيرهما من المصادر. ولقد ساعدت المصادر السريانية الباحث في الوصول إلى صورة معقولة لأوضاع النصرانية خلال الحقبة التي تلت حادثة الأخدود، غير أنها -أي المصادر السريانية-لم تسعفنا من خلال الدراسة بمعلومات شافية عن تاريخ اليهودية في المنطقة طوال مرحلة الدراسة. وخلصت الدراسة إلى أن المصادر السريانية تمثل مصدرًا ثمينًا لتاريخ نجران خاصة وجزيرة العرب عامة جدير بالاهتمام على كل الأصعدة البحثية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٨	يوليو	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٠٣	أغسطس	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

نجران؛ سريان؛ نصارى؛ يهود؛ الإسلام؛ مصادر

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.182453

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عوض بن عبد الله بن سعد بن ناحي. "نجران في التراث السرياني منذ وصول النصرانية وحتى عشية ظهور الإسلام (٤١٩-٦١٠م): دراسة نقدية في ضوء المصادر الموازية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ١٤ – ٣٠.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: aaalasiri@nu.edu.sa

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةُ

أظهرت التواريخ غير الإسلامية اهتمامًا ملحوظًا بنجران منذ عصور ما قبل الميلاد وهو ما يتضح في الكتابات الكلاسيكية (يونانية-لاتينية)، إذ مثلت أهمية اقتصادية بالغة كونها أحد أهم المدن الواقعة على طريق تجارة البخور والتوابل (Craven Route)[١]. ثم كانت موضع اهتمام آخر للتواريخ النصرانية الشرقية (Eastern Christian Chronicles) على اختلاف لغاتها فقد كانت نجران أهم مركز للنصرانية في جنوب جزيرة العرب طوال القرنين السادس والسابع الميلاديين.

وتمثل المصادر السريانية (Syriac Sources) التي دُوِّنت في بلاد الرافدين والشام مصدرًا ثريًّا لتاريخ منطقة نجران منذ القرن الخامس الميلادي. فقد أرّخت هذه المصادر لجوانب كثيرة من أحوال المنطقة الدينية، والسياسية منذ دخول النصرانية إلى المنطقة وحتى ظهور الإسلام. لكن الحق يقال فإن تركيز هذه المصادر انصب على وصف أوضاع النصرانية بالمنطقة وعلاقتها بالقوى السياسية ذات العلاقة بالمنطقة حتى ظهور الإسلام.

والحق أن نجران حظيت باهتمام متصاعد في البحث التاريخي الحديث فظهرت أكثر من دراسة جادة أولت المصادر غير العربية المكتوبة بالسريانية، واليونانية، واللاتينية، والحبشية اهتمامًا لافتًا وجعلت منها مواد رئيسة في مصادرها الأولية. إلا أن ثمة إشكالية ظلت صفة مشتركة بين هذه الدراسات، فقد أولت معظم تلك الدراسات معظم اهتمامها لمسألتين رئيستين أولها عن جدلية وصول النصرانية إلى نجران، وثانيها عن حادثة اضطهاد نصارى نجران المعروفة تاريخيًا بـ "حادثة الأخدود"، وقليلاً منها من تحدث عن نجران أثناء وجود الحملة الحبشية[٢]. ورغم كثافة النقاش في المسألتين -أي وصول النصرانية وقصة الأخدود – وتعدد المصادر الأولية، إلا أنهما ظلتا أسئلة مفتوحة تبحث عن إجابة وتستحق مزيدًا من البحث في نظر الباحثين الذين ذهب بعضهم إلى التشكيك في هوية من وقع عليهم الاضطهاد في الأخدود[٣].

كل ما سبق يثير أسئلة تبحث عن إجابة وفي مقدمتها أحوال الطائفة النصرانية في نجران بعد حادثة الأخدود حتى ظهور الإسلام كما صورتها المصادر السريانية. وثاني هذه الأسئلة يتمثل في مدى قيمة الرواية السريانية في ضوء المصادر الأخرى في ذات المسألتين، أي أصل النصرانية في نجران والسياق التاريخي لحادثة الأخدود. وهو ما سيسعى الباحث لإعادة قراءته بمنهجية مقارنة تعتمد على التسلسل الزمني وربط الأحداث بالأوضاع السياسية والاقتصادية والدينية في الجزيرة العربية والشرق الأدنى القديم. لذلك انقسمت الدراسة إلى خمسة مباحث رئيسة تبدأ بالتعريف بالمصادر، ثم تتبُّع تاريخ النصرانية في نجران من البدايات حتى الاضطهاد الذي ستتناوله في مبحث خاص، يلي ذلك دراسة تاريخ النصرانية في المرحلة الزمنية التي أعقبت حادثة الاضطهاد، ثم تعرج الدراسة على تاريخ اليهودية في المنطقة في ضوء المصادر السريانية المتاحة في هذه الدراسة.

أولاً: التعريف بأهم المصادر

بدأ اهتمام المصادر السريانية بنجران منذ الربع الأول للقرن السادس الميلادي، وهي حقبة مبكرة للغاية أي منذ المرحلة التي وقعت فيها المحرقة. وهذا ما يجعل من المفيد عرض نبذة عن أهم هذه المصادر قبل الولوج إلى صلب الدراسة حيث سينحصر النقاش هنا عن المصادر الأولية الأصيلة، أو تلك التي تفردت بمعلومات نقل عنها من جاء بعدها.

وتكاد تكون رسالتي **"شمعون أسقف بيت أرشام"** (Simeon of Bêth Arshām) الأقدم في هذا الباب. وشمعون هذا رجل دين نصراني من اتباع المذهب اليعقوبي (Jacobite) أو مذهب الطبيعة الواحد المسمى بالمونوفيزتي (Monophysitism). عاش في النصف الأول من القرن السادس الميلادي وكان أسقفًا لبلدة بيت أرشام الواقعة على نهر دجلة بالقرب من مدينة سلوقية التي كانت تحت الحكم الفارسي الساساني في عصره[٤]. وقد حفظت المصادر السريانية المبكرة مثل تواريخ "يوحنا الآسيوي" (John of Ephesus)، و"زكريا الفصيح" (Zacharias of Mytilene)، و"الراهب الزوقنيني" (Zūqnīn Monastery) نص الرسالة الأولى[٥]. أما الرسالة الثانية فقد أخرجها للعلن "عرفان شهيد" في كتابه "**شهداء نجران**" مطلع سبعينات القرن المنصرم[٦]. وتتشابه كثيرًا مع الرسالة الأولى من حيث المضمون وتسجيل شهادات الناجين من المحرقة، إلا أنها تتضمن معلومات إضافية عن ضحايا المحرقة سواء من عامة النصارى النجرانيين أو رجال الكنيسة الذين قضوا في المحرقة.

تنبع أهمية رسالتي الأرشمي من كونهما دُوِّنتا بُعيد حادثة الأخدود بزمن قليل، إضافة إلى أن السبب في تدوينهما يعود إلى الحادثة نفسها، حيث تضمنت الرسالتين تسجيل شهادات عيان لنصارى نجرانيين نجو من حادثة الاضطهاد، فكتب الأرشمي رسالته الأولى ثم أعقبها برسالة ثانية منددًا بما فعله الملك الحميري، وحاثًا ملوك العالم النصراني حينها بالتدخل لحماية

نصارى "البلاد الحميرية" على حد تعبيره[٧]. وتحوي الرسالتين معلومات ثمينة عن طبيعة المجتمع النصراني في نجران قبيل وأثناء الحادثة من حيث طقوس العبادة، والمعتقدات اللاهوتية، والمؤسسة الدينية. إلا أن التعامل مع محتوى الرسالتين ينبغي أن يكون بحذر كونهما تنطلقان من وجهة نظر مذهبية يعقوبية مونوفيزتية بحتة لتفسير الوجود النصراني بنجران. ذلك أن طبيعة الكتابة التاريخية في القرن الخامس الميلادي تغلب عليها العاطفة الدينية أكثر من الموضوعية، إضافة إلى أن أحد أسباب كتابتها تهييج العاطفة الدينية في العالم النصراني للضغط على السلطة السياسية حتى تتخذ موقفًا عسكريًا حاسمًا تجاه الملك الحميري كما سيتضح أدناه.

وثاني أقدم هذه المصادر وأهمها هو" **كتاب الشهداء الحميريين**" (The Book of The Ḥimyarites) لمؤلف مجهول، ويتكوّن من مقدمة وتسعة أربعين فصلاً فُقد منها أربعة وعشرين فصلاً، والمؤسف أن ما فقد منها تضمن معلومات مفصلة عن التاريخ المبكر لليهودية والنصرانية إلى نجران[٨]. وقد خرج الكتاب لأول مرة عام ١٩٢٤م بتحقيق المستشرق السويدي "أكسل مومبرج" (Axel Moberg)[٩]، لكن الكتاب حظي بدراستين لاحقتين عن طريق "أغناطيوس يعقوب" و"عرفان شهيد" تضمنتا استدراكات هامة على نص المخطوط، ونقاشًا على هوية مؤلف الكتاب. إذ يتفق أغناطيوس يعقوب وعرفان شهيد أن "شمعون الأرشمي" هو من ألّف الكتاب[١٠]، على عكس مومبرج الذي يزعم أن "سرجيس الرصافي" (Sargis of Resafa) كان المؤلف الحقيقي لكتاب الحميريين[١١]. ومن الواضح أن كتاب الحميريين قد دُوّن عقب انتصار الأحباش على مملكة حمير واستقرار الأمور لهم هناك مما يعني أنه مصدر مبكر للغاية، ودلالة ذلك حديثه عن الأعمال التي قام بها الأحباش في نجران في سبيل إحياء الوجود النصراني كما سيتضح في حينه[١٢]. وقد اعتمد المؤلف على مصادر شفهية قدِمت من نجران وأحدهم ذكره باسم "عبد الله بن أفعو" والذي نقل إليه قائمة بأسماء الشهداء مطابقة إلى حد بعيد تلك التي رواها الأرشمي[١٣]. ورغم كل ما سبق فإن هذا المصدر يزودنا بتفاصيل غاية في الأهمية في مقدمتها طبيعة التنظيم الكهنوتي للمؤسسة الدينية النصرانية في نجران قبل وبعد غزو الأحباش، ودُوُر العبادة، إضافة إلى توضيح حجم الوجود اليهودي في نجران. لكن ذلك لا يعني الأخذ بكل ما رواه مؤلف الكتاب على عواهنه، ذلك أن الروح المذهبية تبدو لغة واضحة من خلال عبارات المؤلف ونسبه عبارات دينية ذات خلفية "يعقوبية واضحة[١٤].

ومن المصادر التي لا غنى عنها في هذه الدراسة " **تاريخ سعرّت**" (The Chronicle of Seert)، لمؤلف نسطوري مجهول عاش بين القرنين التاسع والعاشر الميلاديين/ الثالث والرابع الهجريين تقريبًا[١٥]. ورغم أن أصل مخطوط هذا التاريخ كُتب بالعربية إلا أن ثمة أسباب تجعل من الضرورة ضمه لقائمة المصادر السريانية المعتمدة في هذه الدراسة[١٦]. فقد اتضح لمن درس "تاريخ سعرّت" أن مؤلفه نقل كثيرًا من تواريخ سريانية مبكرة بعضها مفقود وتعود إلى القرن السابع على أقل تقدير[١٧]. بل إن "مومبرج"، و"عرفان شهيد" توصلا إلى نتيجة مفادها أن مؤلف تاريخ سعرّت المجهول استقى قصة اعتناق التاجر النجراني "حيّان" للنصرانية على الأرجح من الجزء المفقود من كتاب الحميريين خاصة إذا ما علمنا أن "حفصة" ابنة أو حفيدة "حيّان" يرد ذكرها كثيرًا في كتاب الحميريين كأحد أبطال قصة الاستشهاد[١٨]، وذات الحال ينطبق على استخدم مفردة "مسروق" للإشارة إلى اسم الملك الحميري الذي ارتكب حادثة الاضطهاد[١٩].

والحق أن ذلك رأي قريب للصحة إذ نجد القصة تتكرر بكامل تفاصيلها في "**أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل**" لماري بن سليمان الذي يعد من أهم المصادر السريانية التي ترد في هذه الدراسة رغم أنه أُلّف في زمن متأخر نسبيًا – القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري -[٢٠]. إلا أن أهميته هنا تكمن في حفظه للرواية السريانية حول وصول النصرانية إلى نجران والذي نقله على ما يبدو من خلال الجزء المفقود في "كتاب الشهداء الحميريين". ذلك أنه يورد نفس القصة التي وردت في "تاريخ سعرّت" دون تغيير يستحق الذكر. إلا أن ثمة إشكالية تواجه الباحث في هذا الجزء من "كتاب المجدل" تحديدًا فقد وصلنا بنسختين تتضمنان كثيرًا من الاختلاف والتشابه في آن معًا، حيث وصل إلينا متن الكتاب في النسخة الأولى كاملاً بترجمة "صليبا بن يوحنا الموصلي"، أما في الثانية فقد قام "عمرو بن متى الطيرهاني" باختصار متن الكتاب وترجمته إلى العربية[٢١]. إلا أن مسألة مهمة يجب أخذها في الاعتبار هنا وهي وجود تباين حقيقي بين نسختي المجدل، وأحد أسباب ذلك اعتماد مترجمي الكتاب على نسخ مختلفة لأصل الكتاب وهو ما يعترف به ناشر النسخة التي ترجمها صليبا بن يوحنا حينما أشار في مقدمة الكتاب إلى اعتماده على نسخة "سقيمة"[٢٢].

وبعد كل ما سبق، يبدو واضحًا أنه على الرغم من الاهتمام الذي أبداه المؤرخون السريان بنجران، إلا أن ذلك الاهتمام انحصر في معظمه على تسليط الضوء على أحوال النصرانية في المنطقة عبر مراحلها التاريخية المتعاقبة. ومن المهم هنا التنويه إلى أن هذه الدراسة لا تطرح المصادر السريانية كبديل لمصادر التراث الإسلامي كما قد يظن البعض، بل إن الهدف الرئيسي هنا البحث عن معلومات إضافية وجديدة تساهم في خدمة المحتوى التاريخي لمنطقة نجران خلال مرحلتين أولهما قبل المحرقة وثانيهما بعد المحرقة حتى ظهور الإسلام.

ثانيًا: جذور النصرانية في نجران (من التبشير حتى الانتشار)

بدأ اهتمام المصادر السريانية بنجران منذ المحاولات الأولى لنشر النصرانية في هذا الإقليم البعيد عن مراكز النصرانية الكبرى في الهلال الخصيب. ففي كتاب المجدل لابن متى رواية تشير إلى إرسال "مار ماري" أحد تلاميذ السيد المسيح – عليه السلام -بعثة تنصيرية إلى "**...ساكني الخيام ونجران وجزائر بحر اليمن ...**"[٣٣]. وهي رواية لا يمكن الركون إليها إذ لا تخلوا من الطابع الأسطوري. بل إن نفس المؤلف يعود في موضع آخر من كتابه فيشير إلى "... **تنصّر أهل نجران**..." أيام الملك الفارسي "يزدجرد الأول" (٣٩٩- ٤٢٠م)[٣٤]. وهي الرواية التي نجدها أكثر وضوحًا في النسخة الأخرى من كتاب المجدل التي تحدث عن وصول النصرانية إلى نجران في نفس الحقبة عن طريق تاجر اسمه "...**حيّان، خرج إلى القسطنطينية واجتاز بالحيرة وشاهد جموع النصارى وحسن إيمانهم فتنصّر ولما عاد أعمد أهله وتنصر على يده خلق كثير...**"[٣٥].

وراوية "المجدل" هنا تكاد تكون مستنسخة تمامًا من "تاريخ سعرّت" الأقدم الذي أورد القصة بنفس التفاصيل وإن أشار إلى قيام "حيّان" بنشاط تنصيري أوسع في جنوب جزيرة العرب[٣٦]. ومن حيث المبدأ تبدو قصة "حيّان" أقرب للواقع منها إلى الأسطورة، فالقصة هنا لم تتضمن ما يشبه تلك المعجزات والحكايات الأسطورية التي حفلت بها كتب سير القديسين والقصص الديني (Hagiography). والملاحظ أن القصة تربط انتشار النصرانية في نجران بالعامل التجاري وهذا ما يقوي صحتها. فقد كانت نجران ذات أهمية اقتصادية كبيرة وخاصة على الصعيد التجاري، إذ تقع على طريق تجارة البخور والتوابل وقد عرف عن أهلها اشتغالهم بالتجارة في عصور ما قبل الإسلام[٣٧]. فلا غرابة أن يرتحل أحد أبنائها إلى بلاد الروم وفارس لتسويق بضائع وجلب أخرى.

أما الزمن الذ وقعت فيه هذه القصة فثمة جدل بين الباحثين حول هوية "يزدجرد" فيما إذا كان "يزدجرد الأول" (Yazdegerd I) الذي حكم بداية القرن الخامس الميلادي، أو "يزدجرد الثاني" (Yazdegerd II) الذي حكم بين عامي ٤٣٨-٤٥٧م. وقد رجح عدد من الباحثين مثل "عرفان شهيد"، و"جواد علي"، و"ابوجودة" وغيرهم أن قصة "حيّان" تلك وقعت أيام "يزدجرد الأول"[٣٨]، بينما لا يتفق معهم "كريستيان روبن" (Christian Robin) الذي يرجح وقوع قصة "حيّان" في عهد "يزدجرد الثاني"[٣٩]. لكن الدراسة الحالية تذهب إلى ترجيح الرأي الأول إذ أن مؤلف "تاريخ سعرّت" المجهول أشار إلى "يزدجرد" فقط ولم يميزه عن "يزدجرد الثاني بن بهرام"، إضافة إلى أن هذا المؤرخ تحدث بعد قصة "حيّان" مباشرة عن وفاة "يزدجرد" وحزن النصارى عليه بسبب ما أبداه من تسامح كبير تجاههم، وهي واحدة من أبرز السمات التي سجلها المؤرخون عن "يزدجرد الأول"[٣٠]. على أنه من المهم استدراك مسألة هامة أشار إليها "عرفان شهيد"، وهي أن قصة اعتناق "حيّان" للنصرانية حدث قبل عقد "مجمع أفسوس الكنسي" (Council of Ephesus) عام ٤٣١م، و"مجمع خلقدونية" (Council of Chalcedon) عام ٤٥١م[٣١]، أي قبل الانشقاق الكنسي وظهور المذهبين النسطوري (Nestorian) والمونوفيزتي – أو اليعقوبي لاحقًا-، وهذه مسألة غاية في الأهمية عند الحديث عن التاريخ العقائدي لنصارى نجران.

لكن ما سبق لا يكفي للجزم بصحة خبر وصول النصرانية إلى نجران، إذ تقدم المصادر الموازية سواء النصرانية أو الإسلامية سرديات أخرى تحوي كثيرًا من الاختلاف. فمصادر التاريخ الكنسي البيزنطية تقدم هي الأخرى رواياتها التي لا تخلوا من الاضطراب والمبالغة رغم أنها أقدم من الرواية السريانية. فقد تحدث "يوسابيوس القيصري" (Eusebius of Caesarea) عن بعثة تنصيرية قام بها "بانتينس" (Pantaenus) رئيس مدرسة الإسكندرية اللاهوتية إلى بلاد الهند فوجد أن بعض أهلها قد دخل في دين المسيح بالفعل ووجد لديهم نسخة من "إنجيل متّى" (Gospel of Matthew) باللغة العبرية حيث أخبره بعضهم أن منصّرًا اسمه "برتلماوس" (Bartholomew) جلبه إليهم[٣٢]. وقد ناقش أكثر من باحث هذه الرواية التاريخية فوجدوا أن "روفينوس الأكويلي" (Rufinus of Aquileia)، "وجيروم" (Jerome)، و"سقراط الدارس"

(Socrates Scholasticus) اللذين تحدثوا عن نفس البعثة أسموا هذه الأرض "بلاد الهند القريبة" أو "السعيدة"، وهو ما يقوّي الرأي القائل إن المؤلف كان يقصد على الأرجح جنوب بلاد العرب[٣٣]. وعلى الرغم من أهمية النتيجة التي توصل إليها هؤلاء الباحثين، إلا أن هذه الرواية يبدو عليها الغموض والاضطراب فهي لم تشر إلى شيء يخص نجران تحديدًا مما يجعل من الصعب الركون إليها.

أما المؤرخ الكنسي الآخر "فيلوستورغيوس" (Philostorgius) فيقدم رواية أكثر وضوحًا يزعم فيها أن الامبراطور البيزنطي " قسطنطيوس الثاني" (Constantius II) أرسل "ثيوفيل الهندي" (Theophilus of India) في العام ٣٥٦م على رأس بعثة تنصيرية إلى "بلاد سبأ" فاستقبله ملكها ورحب به وحصل على إذنه لتأسيس ثلاث كنائس في عدن، وظفار، ونجران التي اقبل أهلها على اعتناق الإيمان الصحيح - يقصد النصرانية -[٣٤].

ويميل عدد من الباحثين المحدثين إلى قبول الرواية السريانية على حساب نظيرتها البيزنطية، إذ يرى "عرفان شهيد" و "أبو جودة" تحديدًا أن هذه البعثات التنصيرية لم تنجح في تأسيس وجود حقيقي ومؤثر للنصرانية في جنوب جزيرة العرب[٣٥]، وهو ما يتفق معه "أثناسيوس باباثناسيو" (Athanasios N. Papathanassiou) الذي يرى أن الرواية البيزنطية لم تكن أكثر من مجرد محاولة غير ناجحة لإيجاد موطئ قدم حقيقي للنصرانية في جنوب جزيرة العرب[٣٦].

لم تكن الروايتان السريانية والبيزنطية الوحيدتين في دعاوى نشر النصرانية في نجران، فللأحباش روايتهم أيضًا التي كان بطلها " الأسقف أزكير" (The Priest Azqir) الذي تزعُم أنه أسس كنيسة في نجران ونجح في تنصير ثمانية وثلاثين شخصًا من أهل نجران قبل أن يلقى حتفه لاحقًا على يد ملك الحميريين[٣٧]. ولم يستبعد "بيستون" (Beeston) صحة هذه الرواية في ظل وجود نفوذ فعلي للأحباش في المنطقة سبق الغزو الحبشي بمرحلة من الزمن، لكنها في وجهة نظره ليست سوى حادثة منعزلة لا أثر لها في السياسة الدولية وقت حدوثها[٣٨]. والواضح لدينا من خلال قراءة أحداث المحرقة التي حدثت لاحقًا أن ثمة رجل دين حبشي ضمن ضحايا المحرقة مما يؤيد ما ذكره "بيستون" حول طبيعة النفوذ الحبشي في المنطقة قبل أن يغزوها الأحباش[٣٩].

وكل ما سبق من روايات نصرانية على اختلافها لا يغني عن الرجوع إلى الرواية الإسلامية حول قصة وصول النصرانية إلى نجران، والتي يسندها "**محمد بن إسحاق**" إلى "**وهب بن منبه الأبناوي**"[٤٠]، و"**محمد بن كعب القرظي**"[٤١]، و"**بعض أهل نجران**"، ومفادها أن رجلاً زاهدًا اسمه "**فيميون**" قدم من بلاد الشام إلى نجران وابتنى خيمة يتعبد فيها لله، و كان أهل نجران وقتها أهل وثنية يعبدون نخلة طويلة، و كان عدد من نبلائهم يرسلون أبنائهم إلى "**ساحر القرية العظمى**" أي نجران حتى يعلمهم السحر وحدث أن أحدهم ويقال له "**عبدالله بن الثامر**" مر بـ"فيميون" وهو يصلي ويتعبد لله فأعجبته صلاته وجعل يجلس إليه حتى أسلم ودخل في دينه وتعلم فرائضه حتى فقه في الدين[٤٢].

وتستمر الرواية بطابع لا يخلو من السرد الأسطوري والمبالغة حيث يرد فيها أن "ابن الثامر" جهر بدعوة أهل نجران، و"...جَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الثَّامِرِ إذَا دَخَلَ نَجْرَانَ لَمْ يَلْقَ أَحَدًا بِهِ ضُرٌّ إلَّا قَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَتُوَحِّدُ اللَّهَ وَتَدْخُلُ فِي دِينِي وَأَدْعُو اللَّهَ فَيُعَافِيكَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ مِنْ الْبَلَاءِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُوَحِّدُ اللَّهَ وَيُسْلِمُ، وَيَدْعُو لَهُ فَيُشْفَى، حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِنَجْرَانَ أَحَدٌ بِهِ ضُرٌّ إلَّا أَتَاهُ فَاتَّبَعَهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَدَعَا لَهُ فَعُوفِيَ حَتَّى رُفِعَ شَأْنُهُ إلَى مَلِكِ نَجْرَانَ، فَدَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: أَفْسَدْتَ عَلَيَّ أَهْلَ قَرْيَتِي، وَخَالَفْتَ دِينِي وَدِينَ آبَائِي، لَأُمَثِّلَنَّ بِكَ، قَالَ: لَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ. قَالَ: فَجَعَلَ يُرْسِلُ بِهِ إلَى الْجَبَلِ الطَّوِيلِ فَيُطْرَحُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَقَعُ إلَى الْأَرْضِ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ، وَجَعَلَ يَبْعَثُ بِهِ إلَى مِيَاهٍ بِنَجْرَانَ، بُحُورٍ لَا يَقَعُ فِيهَا شَيْءٌ إلَّا هَلَكَ، فَيُلْقَى فِيهَا فَيَخْرُجُ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ. فَلَمَّا غَلَبَهُ قَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الثَّامِرِ: إنَّكَ وَاَللَّهِ لَنْ تَقْدِرَ عَلَى قَتْلِي حَتَّى تُوَحِّدَ اللَّهَ فَتُؤْمِنَ بِمَا آمَنْتُ بِهِ، فَإِنَّكَ إنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ سُلِّطْتَ عَلَيَّ فَقَتَلْتنِي. قَالَ: فَوَحَّدَ اللَّهَ تَعَالَى ذَلِكَ الْمَلِكُ، وَشَهِدَ شَهَادَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الثَّامِرِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ بِعَصًا فِي يَدِهِ فَشَجَّهُ شَجَّةً غَيْرَ كَبِيرَةٍ، فَقَتَلَهُ، ثُمَّ هَلَكَ الْمَلِكُ مَكَانَهُ، وَاسْتَجْمَعَ أَهْلُ نَجْرَانَ عَلَى دِينِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الثَّامِرِ، وَكَانَ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ عِيسَى بن مَرْيَمَ مِنْ الْإِنْجِيلِ وَحُكْمِهِ، ثُمَّ أَصَابَهُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ أَهْلَ دِينِهِمْ مِنْ الْأَحْدَاثِ، فَمِنْ هُنَالِكَ كَانَ أَصْلُ النَّصْرَانِيَّةِ بِنَجْرَانَ..."[٤٣].

وفي رأي "انطونيوس غويدي" (Antonius Guidi) و"مومبرج" و "أبو جودة" فإن هذه الرواية تتشابه في كثير من عناصرها الرئيسة مع نظيرتها السريانية مما يعني في رأيهم أن الرواية الإسلامية هنا أستُقيت من موارد نسطورية نصرانية أقدم، ويقصدون بذلك على الأرجح قصة "التاجر "حيّان"[٤٤]. بينما يشكك "ابن جريس" في رواية ابن إسحاق مُرجحًا وصول

النصرانية إلى نجران قبل أن وقوع قصة ابن "الثامر" و"فيميون" بوقت طويل[٤٥].

وفي رأي الباحث فإن كل هذه الآراء محل نظر، فرواية تنصّر أهلها نجران التي وردت عند ابن إسحاق يسندها إلى "وهب بن منبه الأبناوي"، و "محمد بن كعب القرظي" وكلاهما تابعي من الرواة الثقاة عند أهل الحديث[٤٦]، ويسندها – أي ابن اسحاق - في حين آخر إلى "**بعض أهل نجران**"[٤٧]. وبالتالي فإن مسألة اقتباس الرواية الإسلامية من موارد نسطورية سريانية تبدو مستبعدة، فاختلاف أسماء الرواة التي وردت في كلا القصتين أبرز الأدلة على اختلاف أصول الروايتين الإسلامية والسريانية حتى وإن حاول مومبرج وغويدي التقليل من هذه المسألة تحديدًا، ووضوح مصادر ابن إسحاق هنا مسألة لم تأخذ حقها الكافي من الاعتبار في نقاشاتهم السابقة.

إضافة إلى ما سبق فإن مسألة التشكيك في الرواية الإسلامية لا يجب أن يفضي إلى استبعادها، بل الأجدى أن يتجه النقاش إلى دراسة ثمة إشكالية تبرز فيها وتتمثل في التسلسل الزمني للأحداث الذي يعاني خللاً واضحًا، على عكس نظيرتها السريانية التي يبدو التسلسل الزمني فيها مقنعًا، فالرواية الإسلامية تتحدث عن تسلسل سريع للأحداث بدء بقتل الغلام –عبد الله بن الثامر - ثم اضطهاد أهل نجران، وهذا يعني اختزال النطاق الزمني بين انتشار النصرانية في نجران وواقعة الأخدود. لكن المتمعن جيدًا لرواية ابن إسحاق التي يلفها الاضطراب سيجد الإجابة في نص قصير يسنده ابن إسحاق إلى "وهب بن منبه" في قصة النخلة التي كان يعبدها أهل نجران ثم دعا عليها فيميون:"... **فَاتَّبَعَهُ عِنْدَ ذَلِكَ أَهْلُ نَجْرَانَ عَلَى دِينِهِ، فَحَمَلَهُمْ عَلَى الشَّرِيعَةِ مِنْ دِينِ عِيسَى بْن مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ الْأَحْدَاثُ الَّتِي دَخَلَتْ عَلَى أَهْلِ دِينِهِمْ بِكُلِّ أَرْضٍ، فَمِنْ هُنَالِكَ كَانَتْ النَّصْرَانِيَّةُ بِنَجْرَانَ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ**"[٤٨].

تؤكد رواية وهب التي نقلها ابن إسحاق هنا أن ثمة فاصل زمني تجاهله الرواة بين قصة اعتناق أهل نجران للنصرانية وقصة الأخدود التي حدثت لاحقًا فإذا كانت قد " **دخلت عليهم الأحداث**" كما يقول "وهب بن منبه"، فإن ذلك يوحي بمرور مرحلة من الزمن قبل أن تقع المحرقة، وتؤكد صحة ما نرمي إليه حول وجوب إعادة ضبط التسلسل الزمني في الرواية الإسلامية.

وبالتالي فإنه يمكن القول إن ما سبق من روايات حول انتشار النصرانية في نجران تحديدًا وخاصة الروايتين السريانية والإسلامية يعكس حقيقة واحدة يمكن استخلاصها وهي أن ثمة نشاط تنصيري محموم وصل إلى المنطقة نتيجة لعلاقاتها التجارية الواسعة وأهميتها الاقتصادية الدولية البالغة الأهمية كمركز رئيس على طرق تجارة البخور. ويعلق "جواد علي" على الروايات السابقة بأنها دليل على " **أن النصرانية لم تدخل العربية الجنوبية من طريق واحد**"[٤٩]. وإذا كان جواد علي قد عمم هذا الاستنتاج على نطاق جغرافي واسع، فإنه أحرى أن ينطبق بشكل أدق على قصة النصرانية في نجران التي وصلت على الأرجح عبر أكثر من شخص وطريق إلى المنطقة مما جعلها تنمو وتنتشر بين نسبة كبيرة من أهل نجران مما شكل تحديًا أمنيًا وسياسيًا ودينيًا للسلطة الحميرية كما سيتضح في المبحث التالي.

ثالثًا: محنة النصرانية في نجران (من الانتشار إلى الاضطهاد)

تحدثت المصادر السريانية عن حادثة اضطهاد نصارى نجران باستفاضة كبيرة وتفاصيل دقيقة لا تخلوا من التصوير المأساوي والعاطفة الدينية المتّقدة. فقد وردت حادثة اضطهاد نصارى نجران عند أكثر من مؤرخ سرياني متقدم كواحدة من أهم حوادث السنين التي أرّخوا لها مثل "يعقوب الرهاوي" (Jacob of Edessa)، و"الراهب القرطميني" (Qarṭmīn Monastery)، و"غريغوريوس بن العبري" (Bar Hebraeus) وغيرهم[٥٠]. لكن ثمة مصادر أقدم كُتبت خصيصًا في مناسبة هذه الحادثة، وتعد "رسالتي الأرشمي" و"كتاب الشهداء الحميريين" أهم و أقدم ما وصلنا عن هذا الحدث، وقد تحدث فيها الأرشمي عن تلقيه أخبار المجزرة المروعة حينما كان في زيارة لملك الحيرة المنذر بن ماء السماء[٥١]، ومصادفته وصول مندوب أرسله ملك الحميريين يوضح له تفاصيل ما فعله تجاه الوجود النصراني مملكته ومن ضمنها نجران التي ارتكب فيها "**مجزرة رهيبة**" وقيامه بإحراق كنيستها وأسقفها بولس وعدد كبير من "**الأشراف النجرانيين**"، وفي نهاية رسالته – أي الملك الحميري - حث الملك "المنذر" الذي كان لا يزال وثنيًا وقتها على اتخاذ نفس الإجراءات تجاه رعاياه النصارى[٥٢]. وفي باقي "رسالة الأرشمي" تفاصيل نقلها له شهود عيان عن الحوار الذي دار بين كبير نصارى نجران - الحارث بن كعب- والملك الحميري الذي أسماه الأرشمي بـ "مسروق"، حيث انتهى الحوار بإعدام الشيخ النجراني ومعه جمع من أبناء طائفته، فقد قطعت رؤوسهم وأُلقيت جثثهم في الكنيسة قبل حرقها لاحقًا. كما تضمنت الرسالة تسجيل

حوادث استشهاد نساء أخريات رفضن الارتداد عن دين المسيح مثل "**رهم** (رومي) **بنت أزمع**"، و"**حفصة** (حبصة) **بنت حيّان**"، إضافة إلى قصة الطفل الذي حث أمه على عدم الارتداد عن دينها[٥٣]. وختم الأرشمي رسالته بأن حث أساقفة الإسكندرية أن يكتبوا بدورهم إلى ملك الحبشة لنجدة نصارى نجران، كما دعا إلى نقل أخبار الحادثة إلى أهم مدن العالم النصراني في ذلك الوقت محملاً يهود طبرية تحديدًا دورًا تحريضيًا تجاه ما حدث من اضطهاد للنصارى في "بلاد الحميريين"[٥٤].

أما الرسالة الثانية المنسوبة إلى الأرشمي، و"كتاب الحميريين" فقد تضمن كلاهما معلومات مشابهة لما ورد في "الرسالة الأولى" لكنها تبدو أكثر وضوحًا إذ تحدثا عن إرسال الملك الحميري لحملة عسكرية يتزعمها ثلاثة من كبار قادته حيث حاصرت المدينة لكنها فشلت في تحقيق مرادها قبل أن يقود الملك بنفسه حملة أكبر قدّرها الأرشمي بـ ١٢٠ الف مقاتل، وقد استطاعت إجبار أهل المدينة على الاستسلام بعد أن أقسم لهم الملك الحميري (بالرحمن وشرائع موسى) بعدم المساس بهم حيث أدى بعض الكهنة اليهود - من طبرية – دور الوسيط في هذا الصلح[٥٥]. ثم يتحدث الأرشمي ومؤلف "كتاب الحميريين" عن غدر الملك الحميري بأهل نجران، ويصفان الطريقة التي قُتل بها النصارى حيث أمر بتصفية جميع من استسلم وجمع جثثهم في الكنيسة الكبرى للمدينة، ثم دعا برجال الدين من قساوسة وشمامسة وأفراد آخرين قُبض عليهم لاحقًا وزُج بهم أيضًا في الكنيسة قبل أن تصدر أوامر الملك بحرق الكنيسة على من فيها[٥٦].

كما تضمنت "رسالة الأرشمي الثانية" معلومات لا تخلوا من الغرابة والمبالغة حيث تشير إلى مجموعة من النساء النصرانيات اللاتي رمين بأنفسهن في النار بعدما شاهدن مصير من سبقهن. كما يتحدث المصدران - رسالة الأرشمي الثانية وكتاب الحميريين - مرة أخرى عن الحوار الذي دار بين الملك الحميري وزعيم النصارى النجرانيين، وقصة رهم وحفصة إضافة إلى شخصيات أخرى تعرضت للمساومة على ترك دينها والقتل لاحقًا[٥٧]. وتتضمن الرسالة بعض أصناف التعذيب والقتل التي تعرض لها النصارى النجرانيين مثل قطع الأعناق، والحرق بالنار، والرشق بالحجارة، وربط الضحايا بالحيوانات ثم جرّهم حتى الموت[٥٨].

إلا أن ثمة إشارة مهمة ترد في كتاب الحميريين في ثنايا حوار "حفصة" مع الملك الحميري حيث كانت تفتخر بأن والدها – أو جدها – "حيّان" قد قام بحرق كنيس يهودي قبل موته، وهو ما اعتبره "مومبرج" دليلاً واضحًا على حدوث صراع يهودي- نصراني في نجران قبل أن يغزوها ذو نواس[٥٩]، وهو رأي محل اتفاق بعض المؤرخين المسلمين ذلك أن الدينوري والطبري أشارا إلى أن أحد أسباب مجيء ذو نواس إلى نجران هو ما تعرض له بعض يهودها من اضطهاد النصارى النجرانيين[٦٠]، وهو ما يعني وقوع صراع طائفي خطير دفعت جنوب الجزيرة العربية بأسرها ثمنه غاليًا فيما بعد.

وإذا كان الطابع المأساوي والعاطفة الدينية قد طغت على "رسالتي الأرشمي" و"كتاب الحميريين"، فإن الخلفية المذهبية للمؤلفين كانت سمة واضحة في ثنايا تصويرهما عبارات الشهداء النجرانيين التي حفلت بعبارات التثليث والطبيعة الإلهية للسيد المسيح -عليه السلام -كما يصورها المذهب اليعقوبي المونوفيزتي[٦١]، وهو ما يجعل مسألة قبولها محل تحفّظ فقد غلبت عليها العاطفة الدينية والغرض الذي كُتبت من أجله وهو تحريض العالم النصراني ضد الملك الحميري كما سبق توضيحه.

وبينما يتوقف التسلسل الزمني للأحداث عند الأرشمي في رسالتيه عند حث أساقفة الإسكندرية أن يكتبوا بدورهم إلى ملك الحبشة، يستمر مؤلف "كتاب الحميريين" في سرد بقية الأحداث حيث وضع في مقدمة محتويات كتابه عنوانًا عن الفصل الرابع الذي تحدث فيه عن ذهاب أسقف نجران واسمه "توما" إلى الحبشة ناقلاً معه أخبار المحرقة[٦٢]، لكن المؤلف نفسه تحدث في موضع آخر من كتابه عن عريضة تقدم بها نجراني آخر اسمه "معاوية" إلى بلاط الملك الحبشي "كالب الأصبحة" (Kāleb the Elesbaan) طالبًا النجدة لأبناء ملته، لكن هذا الفصل سقط ضمن الفصول المفقودة [٦٣]. غير أن بقية أجزاء الكتاب تتحدث عما بعد الانتصار الذي حققته الحملة العسكرية التي قادها كالب بنفسه، حيث وصل بجيشه إلى نجران وامتحن ديانة أهلها، فقد ذكر المؤلف أن كثيرًا من الحميريين نجو من الانتقام حينما وشموا أيديهم بعلامة الصليب زاعمًا أن كثيرًا منهم كانوا يهودًا. ثم أقام سبعة أشهر قام خلالها بإعادة ترميم كنائسها وبنى كنائس جديدة، وعين رجال دين جدد، ثم اختتمها بتعيين حاكم جديد للبلاد وفرض جزية مالية تُدع له مقابل التبعية، ثم عاد إلى الحبشة[٦٤].

يتفق هذا النص التاريخي مع كل الروايات الإسلامية والحبشية واليونانية في أن الأحباش قد غزوا بلاد حمير وقضوا على آخر ملوكها نتيجة لما قام به تجاه نصارى نجران، إلا أن ثمة اختلافات في التفاصيل تتضح من خلال تلك الروايات. فالرواية

الحبشـية الـتي دوِّنـت في "سـير القديسـين الأثيـوبيين، **السنسكار**" (Synaxarium) تُظهِر تشابهًا كبيرًا مع ما ذكره مؤلف "كتاب الحميريين"، إذ تشير إلى ما فعله ملك بلاد "سبأ" اليهودي بأهل نجران عندما حاصرهم بأن أقسم لهم بالتوراة ألا يغدر بهم، ولكنه نكث بعهده وقتلهم وعلى رأسهم "القديس حارثة بن كعب". وقد وصلت أصداء هذه المذبحة إلى "جستين الأول" (Justin I) ملك الروم الذي بعث رسالة إلى "تيموثاوس" (Timothy) رئيس أساقفة الكنسية القبطية بالإسكندرية أن يكتب إلى ملك أكسوم (الحبشة) حتى ينقذ نصارى نجران من مجازر الملك اليهودي، وبالفعل استجاب الملك الحبشي وقاد حملة كبيرة قضى خلالها على الملك اليهودي وأعاد ترميم كنيسة نجران وجعل منها مزارًا للحج الكنسي (Commemoration)[٦٥].

لا تحمل الرواية الحبشية هنا شيئًا من الاختلاف مع الرواية السريانية سوى في ذكر السبب الذي دفع ملك الحبشة إلى التدخل وهي رسالة الإمبراطور جستين. هذا الاختلاف البسيط يقودنا للبحث عن مصدر الرواية الحبشية التي تكاد تكون مستنسخة من مصدر أقدم وهو رواية "**استشهاد القديس الحارث**" وهي رواية كتبها مؤلف مجهول يجيد اليونانية في القرن السادس الميلادي، ثم ترجمت لاحقًا إلى عدة لغات بينها "الجعزية" الحبشية باسم "**سيرة حيروت**"[٦٦]، بل إن أكبر دلالات اعتماد الرواية الحبشية على رواية "**استشهاد القديس الحارث**" استخدام نفس المصطلح السياسي الذي عرّف به مؤلف الرواية ذو نواس حينما أسماه بـ "**ملك سبأ**" بدلاً عن "**ملك حمير**"[٦٧]، وهذا ما يفضي إلى نتيجة مفادها أن الرواية الحبشية هنا لا تبدو أصيلة مثل نظيرتها السريانية.

لكن رواية "استشهاد الحارث" تبدو ذات أهمية بالغة هنا، إذ تنقل تفاصيل تجاوزتها الروايتين الحبشية، والسريانية، فقد تحدثت بتفاصيل مستفيضة ذات تصوير أسطوري ومأساوي عن أوامر الملك اليهودي إلى جنوده بحفر حفرة كبيرة على أطراف الوادي وإيقاد نار كبيرة ألقي فيها عدد كبير النصارى المضطهدين ليلقوا مصيرهم حرقا وهو ما تنص عليه الرواية الإسلامية أيضًا[٦٨]. كما اصطلحت على تسمية الملك الحميري بـ "**دنحاس**" القريبة من "**ذو نواس**" الذي تقدمه الرواية الإسلامية، وليس "**مسروق**" كما في الرواية السريانية مادة هذه الدراسة الرئيسة[٦٩]. ولعل ذلك ما يجعل من نافلة القول إن الرواية الحبشية هنا تبدو أقرب للرواية الإسلامية في المسألتين السابقتين، وهو ما يعني أن كاتبها اعتمد على مصادر قريبة من نظيرتها الإسلامية والأرجح أنها نجرانية ذلك أنه تحدث عما دار في بلاط ملك الحيرة حينما وصلته رسالة الملك الحميري بخبر اضطهاد نصارى نجران. ولا أدل على ذلك من أن رواية "استشهاد الحارث" تظهر تطابقًا لافتًا مع الرواية السريانية -رسالتي الأرشمي وكتاب الحميريين- التي استقت بدورها معلومات الحادثة من ناجين من المحرقة قدموا من نجران، وذلك ما يتبين في عناصر رئيسة في سردية الاضطهاد مثل الإشارة إلى نكث الملك اليهودي باليمين الذي قطعه لأهل نجران، ونبشه عظام أسقفهم "بولس"، وحرق رجال الدين في الكنيسة، وشخصية "القديس الحارث"، وقصة "**رهم بنت أزمع**" التي اسماها "**دهم**"، وحادثة الطفل الصغير مع الملك، ورسالة الملك الحميري إلى ملك الحيرة، واسم الملك الحبشي "**الأصبحة**"[٧٠].

لكن ثمة مسألة هنا ينبغي التوقف عندها وتتعلق باسم الملك الحميري الذي اقترف مأساة الاضطهاد، وزعيم النصارى النجرانيين الذي تقدمه الرواية السريانية ونظيراتها النصرانية باسم "الحارث" أو "حارثة" بن كعب. وفي هذا الصدد يعلل "عصام سخنيني" سبب تبني الرواية السريانية "مسروق" بدلاً من "ذو نواس" أو "يوسف" الذي نصت عليه الرواية الإسلامية والنقوش بأنه تحريف متعمد لما يحظى به اسم "يوسف" من ذاكرة تبجيلية في تاريخ النصرانية، ولذلك ربما تبنت "مسروق" التي تعني عديم القيمة في السريانية بهدف التحقير من اسمه[٧١].

وأيًا كان التعليل فإن الواضح أن اسم "مسروق" يتردد بإجماع كبير في الموارد السريانية، لكن ذلك لا يتفق مع ما تظهره الدراسات الأثرية التي أجريت في المنطقة، وأسفرت عن اكتشاف نقوش تحوي نصوصًا بالغة الأهمية وذات علاقة مباشرة بالمحرقة. فقد وردت الإشارة صريحة إلى الملك "يوسف أسار" في ثلاثة نقوش في "آبار حما" (ريكمانز٥٠٧-507 ، Ryckmans وجام ١٠٢٨- 1028 Jamme) و"جبل الكوكب" (ريكمانز ٥٠٨- Ryckmans 508)، الواقعة إلى الشمال الشرقي من نجران، حيث دُوِّن أحدها بتاريخ يوليو ٦٣٣حميري/ ٥٢٣م تقريبًا، وتوثّق النقوش الثلاثة جميعها العمليات العسكرية التي خاضها الملك "يوسف أسار يثأر" ضد أشكال الوجود الحبشي في جنوب جزيرة العرب مثل حرق الكنائس، وتأديب القبائل المتحالفة معهم، ومصادرة الأموال وغيرها، كما تشير بوضوح إلى تلك الحملة العسكرية التي أرسلها إلى نجران وتحقيقها انتصارًا كبيرًا على النجرانيين وحلفائهم الأحباش[٧٢].

كل ما سبق إذًا يظهر توافقًا لافتًا مع الخط العام للرواية السريانية التي تتهم الملك الحميري بارتكاب أعمال تطهير ديني

ضد الوجود النصراني في حواضر أخرى غير نجران مثل ظفار والمخا وعدن ومنها القتل على الهوية الدينية، وقتل رجال الكنيسة الأحباش، وحرق الكنائس. علاوة على ما سبق، تتفق النقوش المسندية بشكل لافت مع الطبري والمسعودي الذين أشارا صراحة إلى أن ذو نواس اتخذ "يوسف" اسمًا له بعد أن تهوّد[٧٣]، بينما كان الأخير -أي ذو نواس -لقب أُطلق عليه لذؤابتان كانتا تتدليان على رأسه[٧٤]. وهكذا فإن كل هذه التفاصيل تجلي الغموض حول اسم الملك الحميري.

والحديث عما ورد في النقوش الثلاثة يأخذ النقاش إلى ثمة مسألة جديرة بالتوقف عندها، إذ اعتبرت دراستين حديثتين عدم إشارة النقوش الثلاثة إلى حفر الأخدود، أو ارتكاب مذبحة في نجران دليلاً على نفي صلة قصة الأخدود بنصارى نجران[٧٥]. ومسألة عدم الإشارة إلى حفر الأخدود، أو حتى الهوية الدينية لنصارى نجران واضحة في النقوش الثلاثة، لكن ذلك لا يعد دليلاً كافيًا على نفي الارتباط بين نجران وقصة الأخدود، ذلك أن المصادر الإسلامية ونظيرتها النصرانية -السريانية واليونانية- أثبتت مصداقية عالية في تسجيل الأحداث رغم ما يعتريها من ملاحظات سبق الإشارة إليها في حينه. وإذا كانت الرواية الإسلامية لا تقدم دليلاً كافيًا على أن نصارى نجران هم شهداء الأخدود بالنسبة للباحثتين، فإن ما ذكره مؤلف " سيرة القديس الحارث" حول أوامر الملك اليهودي بحفر الأخدود على أطراف الوادي يثير تساؤلاً جديرًا بالأخذ به، ذلك أنه لا يبدي تطابقًا صريحًا مع الرواية الإسلامية المبنية أصلاً على ما ورد في القرآن الكريم حول قصة " أصحاب الأخدود" فحسب، بل لأنه اعتمد على مصادر مستقلة وبعضها شهود عيان مما ساعده على تكوين رواية تتطابق كثير من تفاصيلها مع نظيرتيها السريانية والإسلامية كما سبق توضيحه[٧٦]. كما فات على الباحثتين مسألة أخرى مهمة وهي أن تواريخ العالم القديم في بلاد الرافدين، وفارس، والتواريخ النصرانية لم تتحدث عن قصة أخدود مشابهة لما وقع في نجران، رغم حوادث الاضطهاد الديني التي سجلتها تلك التواريخ بتفاصيل كثيرة[٧٧].

وإذا ما تناولنا الجانب الديني في هذا النقاش، فإن النصرانية ديانة سماوية تتفق في أصولها الأولى مع جوهر العقيدة الإسلامية القائمة على "التوحيد" وبشرية السيد المسيح - عليه السلام -، وقد رجّحت الدراسة الحالية وصولها - أي النصرانية - إلى نجران قبل الانشقاق الكنسي، أي قبل بروز الصراع الديني في الكنائس الشرقية حول طبيعة السيد المسيح - عليه السلام -، فهل يمكن الاطمئنان للمصادر النصرانية في تعريفها لعقيدة نصارى نجران في السيد المسيح - عليه السلام - التي ذكرنا فيما سبق أن تناولها كان من خلال الخلفية العقائدية للمؤرخين النصارى أكثر من الموضوعية التاريخية. وبالتالي فإنه ليس من الموضوعية في شيء الجزم بأن من تعرض للاضطهاد من نصارى نجران كانوا على المذهب اليعقوبي المنوفيزتي في ظل طغيان العاطفة الدينية على المصادر النصرانية واختلافها الكلي مع نظيرتها الإسلامية التي تقدم تعريفًا إسلاميًا -إذا صح التعبير-عن عقيدة نصارى نجران في السيد المسيح -عليه السلام -. وعليه فإن كل القرائن السابقة تؤكد الارتباط التاريخي بين قصة الأخدود ونصارى نجران، أما غير ذلك فهو مجافاة للحقيقة، إلّا أن يتوفر دليل واضح حول عقيدة النصارى النجرانيين الأوائل في المسيح -عليه السلام -.

أما اسم زعيم النصارى النجرانيين فهي مسألة أخرى جديرة بالبحث ذلك أن ثمة جدل يُثار حولها، فقد اعتبره "مومبرج" سؤالاً مفتوحًا ذلك أن اسم "الحارث" ظل متكررًا في كتاب الحميريين دون دليل كاف يربطه بعبدالله بن الثامر أو حتى "الحارث بن كعب" القبيلة المشهورة[٧٨]. إلا أن "سخنيني" عد تكرار المصادر النصرانية لاسم "الحارث بن كعب" دليلاً يؤكد انه -أي الحارث -كان المتولي لزعامة النصارى المضطهدين في نجران[٧٩]، وهو ما لا يتفق معه "أبو جودة" الذي يرى فيه اسم القبيلة أكثر منه اسم الشخص[٨٠]. والواقع أن الحقيقة المتواترة تاريخيًا تؤكد أن "الحارث بن كعب" اسم قبيلة كبيرة استوطنت منطقة نجران والمناطق القريبة منها بإجماع مصادر التراث الإسلامي[٨١]، بل إن أحد النقوش المسندية تحدث صراحة عن الحملة العسكرية التي أرسلها الملك الحميري "**شمر يهرعش**" الذي عاش حتى نهاية القرن الثالث الميلادي ضد قبيلة "**حارثتن بن كعبم**" (أي الحارث بن كعب)[٨٢]. وهذا ما يعني أن قبيلة بني الحارث بن كعب كانت معروفة خلال القرن الرابع الميلادي على أقل تقدير. والأرجح أن زعيم الطائفة النجرانية ينتمي إلى قبيلة بني الحارث بن كعب وليس اسمه ما نصت عليه المصادر السريانية -وحتى اليونانية والحبشية -. لذلك ليس مستبعدًا أن تقع المصادر السريانية وغيرها من التواريخ النصرانية في خلط كهذا، خاصة وأنها اعتمدت على مصادر شفهية وبلغات مختلفة فأسباب الخطأ واردة إذًا.

أما الجزئية الأخيرة الخاصة بما قام به الملك الحبشي في نجران فلا نجد فارقًا كبيرًا بين الروايتين السريانية واليونانية إذ يشير مؤلف رواية "استشهاد الحارث" إلى قيام الملك الحبشي بترميم ما دُمِّر من كنائس وجعل أحدها مزارًا للشهداء، كما قام بتعيين

رجال دين جدد كان أسقف الإسكندرية قد بعث بهم[٨٣]. وهو ما يتطابق كثيرًا مع ما أشار له مصدر يوناني آخر هو "**أعمال الأسقف جريجنتوس**" (The Acts of Gregentios) لمؤلف مجهول من القرن ١٠م على أقل تقدير[٨٤]، حيث تحدث فيه عن رحلة "جريجنتوس" إلى جنوب الجزيرة العربية ووصوله إلى نجران في أعقاب انتصار الأحباش، وأشار إلى قيام ملك الأحباش "كالب" ببناء ثلاث كنائس كبرى أحدها بُنيت في نفس موضع الكنيسة التي أُحرق فيها الشهداء النجرانيين[٨٥].

إلا أن ثمة اختلاف عما سبق ينفرد به مؤلف رواية "استشهاد الحارث" الذي يشير إلى قيام الملك الحبشي بتعيين ابن "القديس الحارث" حاكمًا محليا على نجران، والذي لا يرد له ذكر في الرواية السريانية، أو حتى في "أعمال جريجنتوس" مما يعيدنا إلى مسألة الاختلاف الجزئي في الموارد التي اعتمدت عليها كلا الروايتين في بعض تفاصيل الحدث[٨٦].

لكن كلا الروايتين السريانية واليونانية تختلف تمامًا مع المصادر الإسلامية في تحديد اسم ومنصب الرجل الذي قاد الحملة الحبشية على مملكة حمير، إذ تقول الرواية الإسلامية إن "أرياط" أحد قادة الملك الحبشي الكبار وليس الملك نفسه هو من قاد الجيش الحبشي إلى الانتصار والقضاء على الملك الحميري[٨٧]. غير أن الرواية الإسلامية توقفت عن ذكر أي تفاصيل تخص وصول الملك الحبشي إلى نجران، واكتفت بالحديث عن نجاح الحملة التي يقودها "أرياط" في الانتصار على الملك الحميري وقتله وإسقاط دولته. لكن ذلك لا ينفي أن الأحباش لم يصلوا إلى نجران، بل إن العكس صحيح، خاصة إذا ما علمنا أن السبب الديني المعلن لهذه الحرب يتمثل في نصرة الأحباش لإخوتهم في الدين من نصارى نجران. فمن الطبيعي أن يكون لهم دور مفصلي في إعادة إنعاش الوجود النصراني في نجران والذي كان ملموسًا لاحقًا في مسألة إعادة صياغة الهوية المذهبية لنصارى نجران كما سيتضح أدناه.

رابعًا: النصرانية في نجران بعد المحرقة وحتى ظهور الإسلام

رغم ما مر بها من امتحان عصيب، إلا أن النصرانية في نجران عادت للازدهار حتى أصبحت نجران أكبر مركز للنصرانية في جنوب غرب جزيرة العرب حتى ظهور الإسلام. غير أن هذا الازدهار اصطبغ بصبغة مذهبية "منوفيزيتية" أو "يعقوبية" على وجه التحديد، ذلك أن الأحباش فيما يبدو حرصوا على نشر عقيدتهم اللاهوتية في مناطق التواجد النصراني جنوب جزيرة العرب وفي مقدمتها نجران[٨٨]. ومن علامات هذا الازدهار عودة وتوسع مؤسسة الكهنوت الديني لرجل الدين النصارى في نجران، ورغم أن أحداث المحرقة كشفت عن مقتل عدد من رجال الكهنوت القساوسة والرهبان وحرق عظام أسقف نجران السابق "بولس"، فإن "كتاب الحميريين" يتحدث عن جلب الملك الحبشي "كالب" عددًا من رجال الدين على رأسهم أسقف يعقوبي المذهب للعمل في الكنيسة النجرانية[٨٩].

وينفرد مؤلف "أعمال جريجنتوس" بتفاصيل دقيقة حول السياسة الدينية، والسياسية، والاقتصادي، والاجتماعية التي وضعها الأحباش لإدارة المجتمع النجراني، وهي التنظيمات التي عُرفت تاريخيًا بـ "القوانين الحميرية" (The Laws of the Ḥimyarites)[٩٠]. وقد تضمنت أربعة وستين قانونًا نصت على ضرورة احترام المناسبات الدينية، وتحريم الأنشطة التجارية أيام الأحد، والمواظبة على أداء الصلوات في الكنائس، ومراقبة الأنشطة التجارية، وعقوبات للجرائم من قتل زنا وسرقة ونحوها[٩١]. ورغم أن هذه القوانين انطلقت من خلفية دينية نصرانية واضحة، إلا أنها لم تتضمن موقفًا واضحًا تجاه معتنقي الديانات الأخرى سواء اليهود أو الوثنيين. وعدم ورودها في الموارد السريانية لا ينفي صحة سياقها التاريخي العام ذلك أن مؤلف "أعمال جريجنتوس" كان معايشًا للحدث فيما يبدو، أو أنه نقل عن مصدر محلي نجراني مختلف على أقل تقدير عن تلك المصادر النجرانية التي نقلت تفاصيل المحرقة إلى الأرشمي ومؤلف "كتاب الحميريين".

ويبدو أن نفوذ الأحباش لم يحل دون وصول مذاهب نصرانية أخرى إلى نجران التي أصبحت خلال هذه الحقبة على ما يبدو ملجًا آمنًا لعدد من مضطهدي الكنائس النصرانية. فقد تحدث مؤلف "تاريخ سعرّت" عن قرار ملك الحيرة "المنذر" طرد من في بلاده من معتنقي "المذهب اليولياني" (Julianism)[٩٢]، استجابة لرسالة وصلته من "جستين الأول" ملك الروم تطالب باعتبارهم هراطقة وطردهم، فهرب عدد منهم إلى نجران ونشروا مذهبهم هناك أي قبل عام ٥٢٧م[٩٣]، وهو ما أكده "ميخائيل السرياني" الذي أشار في أحداث عام ٨٦٠ يوناني/ ٥٥٠م إلى لجوء "سرجيس" (Sargis) رجل الدين اليولياني إلى "بلاد الحميريين" حيث أسس هناك كرسيًا أسقفيًا لطائفته، وعمل على نشر عقيدته هناك حتى وفاته بعد ١٣ عامًا، ثم خلفه أسقف آخر يقال له "موسى"[٩٤].

وقريبًا من ذلك، كانت الكنيسة النسطورية قد وجدت لها موطئ قدم في نجران إذ يشير مؤلف كتاب " مختصر الأخبار البيعية" في نص نادر إلى وجود أسقفية للنساطرة في نجران

كواحدة من الأسقفيات التابعة لكرسي الكنيسة النسطورية (الجثلقة) في القرن السادس الميلادي[٩٥]. وعلاقة نجران بنصارى بلاد الرافدين قديمة إذ مر بنا قصة تنصّر حيّان النجراني على يد أهل الحيرة، وكذلك قصة هروب أتباع الفرقة اليوليانية من الحيرة إلى نجران، فليس غريبًا إذًا أن يكون للنسطورية نصيبها من المكوّن النصراني في نجران والذي ظل باقيًا في نجران حتى القرن السابع الهجري[٩٦].

تؤكد النصوص السابقة أكثر من حقيقة هامة عن أوضاع النصرانية في نجران خلال المرحلة الممتدة من الاحتلال الحبشي وحتى ظهور الإسلام، وأول تلك الحقائق أن نجران أصبحت مكانًا آمنًا لمضطهدي طوائف ومذاهب مختلفة للنصرانية ولم تعد محتكرة لمذهب ديني واحد. صحيح أن المذهب المونوفيزتي اليعقوبي حظي بدعم الأحباش وغدا هو المهيمن على الطائفة النصرانية بنجران، إلا أن أتباع مذهبين منافسين له (المذهبين اليولياني والنسطوري) أصبحا موجودين بالفعل وأصبح لهما أتباع ومؤسسات دينية مستقلة. وبالتالي فإن تواجد اتباع المذاهب اليعقوبية، والنسطورية، واليوليانية، والملكانية لاحقًا يؤكد على حقيقة ترسخت مع الزمن وهي انتشار العقائد اللاهوتية المختلفة بين النصارى النجرانيين على عكس مطلع القرن الخامس الميلادي حينما وصلتهم النصرانية قبل أن يحدث الانشقاق الكنسي العظيم ويتزايد الجدل حول طبيعة السيد المسيح -عليه السلام-التي أصبحت القضية المركزية في النزاع الكنسي.

خامسًا: اليهودية في نجران في السردية السريانية

تورد بعض المصادر السريانية المتوفرة لهذه الدراسة بعض المعلومات عن الوجود اليهودي بنجران، وهي معلومات على قلتها إلا أنها في غاية الأهمية ذلك أنها تجلي شيئًا من الغموض عن حجم الوجود اليهودي بنجران مقارنة بالنصرانية، وبين حقيقة الدور اليهودي في حادثة الاضطهاد. وقد تحدث مؤلف "كتاب الحميريين" في أول فصلين من كتابه عن تاريخ اليهودية في جنوب جزيرة العرب، لكن هذين الفصلين فُقدا مع غيرهما من فصول الكتاب[٩٧]. غير أنه في مواضع أخرى من كتابه يتحدث بوضوح عن وجود يهودي حظي بدعم السلطة الحميرية في مواجهة انتشار نظيره النصراني، تمثل هذا الدعم في انتشار عدد من الكنس اليهودية قبيل حدوث الصراع بين أتباع الطائفتين النصرانية واليهودية[٩٨]. بل إن رسالة الأرشمي الأولى تشير إلى أن "يهود طبرية" كانوا يرسلون كهنة كل عام إلى بلاد الحميريين الذي سيكون لهم دور بالغ الخطورة في أحداث الاضطهاد، ذلك أنهم قاموا بدور تحريضي ضد الوجود النصراني بحسب ما ذكره الأرشمي كما سبق أن ناقشنا[٩٩].

ومن الطبيعي أن يواجه اليهود بموقف انتقامي بعد انتصار الأحباش على الحميريين ووصول قواتهم إلى نجران، لكن المصادر السريانية تشح عن ذكر معلومات شافية عن هذه المرحلة باستثناء ما ذكره مؤلف "كتاب الحميريين" من أن كثيرًا من يهود نجران نجوا من بطش الملك الحبشي "كالب" بعد أن وشموا أيديهم بعلامة الصليب[١٠٠]. وإذا ما بحثنا عن هذه المعلومة في مصادر أخرى معاصرة فإن مؤلف "سيرة القديس الحارث" لم يشر إلى قيام الملك الحبشي بشيء من هذا القبيل حينما دخل نجران رغم اعترافه بارتكاب الأحباش مذبحة مروعة حينما دخلوا ظفار عاصمة الحميريين[١٠١].

وأيًا كان موقف الملك الحبشي من التواجد اليهودي في نجران فإن نفوذ اليهودية وسطوتها هناك ستضعف بلا شك بعد افتقاد الغطاء السياسي، وسيتحول ميزان القوى إلى صالح النصرانية طيلة الخمسين عامًا التي قضاها الأحباش في جنوب جزيرة العرب كسلطة احتلال. لكن ذلك لا يعني أن اليهودية قد تلاشت أو انقرضت من نجران بل إن وجودها استمر كجزء من المكون الديني النجراني حتى القرون اللاحقة من التاريخ الإسلامي[١٠٢].

خَاتِمَةٌ

هدف هذا البحث إلى دراسة أحوال نجران كما صورتها المصادر السريانية بداية من التاريخ المبكر للنصرانية في نجران وحتى المرحلة التي سبقت ظهور الإسلام. ورغم وجود دراسات سابقة اعتمدت على الموارد التاريخية السريانية في دراسة تاريخ المنطقة خاصة ما يتعلق بالنصرانية في المقام الأول، إلا أن هذه الدراسات ركّزت في مجاليها الزمني والموضوعي على بحث جدلية وصول النصرانية إلى نجران وحادثة اضطهاد النصارى دون الخروج بنتائج حاسمة حول المسألتين. كما أن جُل تلك الدراسات لم تجلِ الغموض عن أحوال نجران ونصاراها ويهودها على وجه الخصوص بعد حادثة الأخدود حتى ظهور الإسلام.

ومن أجل البحث عن إجابات للمسائل السابقة، سعت الدراسة إلى تقديم قراءة نقدية مقارنة لتاريخ نجران تجعل المصادر السريانية الأساس مع مقارنة رواياتها بما ورد في غيرها من مصادر أخرى سبق عرضها. بدأت هذه القراءة بالتعريف بأهم المصادر السريانية المعنية بموضوع الدراسة فتبيّن أن التواريخ السريانية أبدت اهتمامًا واضحًا بنجران منذ وقت مبكر للغاية يعود إلى النصف الأول من القرن السادس الميلادي أي عشية وقوع محرقة الأخدود. إلا أن ثمة حقيقة تتضح لنا وهي أن النصرانية كانت مركز اهتمام تلك المصادر ولولاها لما كانت نجران ضمن دائرة اهتمام المؤرخين السريان.

ورغم السرد الأسطوري والطابع الديني الذي يعتري الرواية السريانية حول قصة وصول النصرانية إلى نجران، فإن قصة تنصّر التاجر "حيّان" التي وقعت على الأرجح في الربع الأول من القرن الخامس الميلادي تبدو مقبولة تاريخيًا في ضوء العامل الاقتصادي المؤثر في أحداث هذه القصة، ذلك أن نجران عُرفت كمدينة ذات أهمية تجارية كبيرة في ذلك الزمن، فقد كانت إحدى أهم المدن الواقعة على طريق تجارة البخور والتوابل، ومارس أهلها النشاط التجاري حتى خارج الجزيرة العربية فلا غرابة إذًا أن نسمع بتاجر نجراني يجوب بلاد الشام والرافدين لأجل هذا الغرض.

غير أنه بدراسة هذه الرواية في ضوء روايات المصادر اليونانية (البيزنطية)، والحبشية، والإسلامية يتضح لنا أكثر من استنتاج. فرغم ميل معظم الباحثين لترجيح الرواية السريانية على نظيرتها اليونانية، إلا أن رواية " الأسقف أزكير" الحبشي تعيد السؤال حول كيفية وصول النصرانية إلى نجران، ذلك أن هناك بعض الإشارات التاريخية على وجود مبكر للأحباش ضمن الطائفة النصرانية في نجران. ولذلك كان من المهم العودة إلى الرواية الإسلامية التي اعتمدت على رواة محليين بعضهم من نجران، وليس على الموارد السريانية النسطورية كما زعم بعض الباحثين وهو ما سبق توضيحه. وبناءً على كل هذه المعطيات فإنه يبدو أن وصول النصرانية إلى نجران كان نتيجة طبيعية لنشاط تنصيري بسبب علاقات المنطقة التجارية الواسعة، وأهميتها في الاقتصاد الدولي والإقليمي في ذلك الوقت مما جعلها مركزًا تجاريًا مفتوحًا أمام جاليات غير عربية سعت لنشر معتقدها الديني.

وحول حادثة اضطهاد النصارى الشهيرة بحادثة الأخدود، فقد تميزت المصادر السريانية بإيراد تفاصيل دقيقة استقتها من شهود عيان، فنقلت لنا صورة تبدو قريبة لحقيقة أحداث التنكيل المروعة التي تعرض لها نصارى نجران على يد الملك الحميري ذو نواس. ورغم ما تحمله الرواية السريانية من تعابير دينية يعقوبية وتصوير مأساوي لا يخلوا من المبالغة، إلا أن سياقها العام يتلاقى مع الروايتين اليونانية والإسلامية في تحديد العناصر الرئيسة في سردية اضطهاد نصارى نجران وفي مقدمتها هوية الطرف المرتكب للاضطهاد، والمساومة على الدين، وطرق القتل التي تعرض لها النصارى النجرانيين وخاصة قطع الرؤوس، والقتل حرقًا، وحرق دور العبادة، وقتل رجال الدين. لكن عنصرًا رئيسًا بدا مفقودًا في هذه الرواية ويتمثل في عدم وضوح حقيقة معتقد نصارى نجران المضطهدين حول طبيعة السيد المسيح -عليه السلام -بسبب غلبة العاطفة الدينية والمذهبية على المصادر السريانية خاصة والنصرانية الأخرى عامة، وهو ما جعل الخلاف حول موقع حادثة الأخدود سؤالاً قابلاً للنقاش عند بعض الباحثين.

ورغم اتفاق الرواية السريانية مع نظيرتيها الإسلامية واليونانية في إبراز الدافع الديني للتدخل الحبشي إلا أن ثمة خلاف حول الشخصيات المشاركة في هذا التدخل. فبينما تطرح الرواية الإسلامية اسم "أرياط" كقائد حبشي للحملة التي أسقطت الحكم الحميري، تتفق الرواية السريانية مع نظيرتها اليونانية في أن الملك الحبشي "كالب الأصبحة" قاد بنفسه جيشًا جرارًا قضى على مملكة حمير وقتل آخر ملوكها ووصل إلى نجران نفسها حيث أصلح كنائسها، وقام ببناء كنائس أخرى، وأعاد تنظيم أمور النصرانية في المنطقة قبل أن يعين حاكمًا ممثلاً له ويعود إلى بلاده.

ويبدو أن ما قام به الملك الحبشي من إصلاحات للكنيسة النصرانية في نجران ساهم في ازدهارها وجعل منها أكبر مركز

للنصرانية في جنوب جزيرة العرب حتى ظهور الإسلام. غير أن هذا الازدهار اصطبغ في البداية بصبغة المذهب المونوفيزتي اليعقوبي وهو مذهب الكنيسة الحبشية في ذات المرحلة الزمنية. لكن ذلك لم يدم طويلاً فقد وصل المذهبين النسطوري واليولياني إلى المنطقة وأصبح لهما أتباع وكنائس ورجال دين مما يؤكد واقعًا مذهبيًا متنوعًا للمجتمع النصراني في نجران حتى ظهور الإسلام.

ولم تهمل الدراسة التطرق لأحوال اليهود النجرانيين في ضوء التواريخ السريانية التي تحدثت عن وجودهم منذ وقت مبكر في نجران، وعن علاقاتهم مع يهود طبرية والسلطة الحميرية. والواقع أن المصادر السريانية تتفق مع بعض التواريخ الإسلامية في الإشارة إلى أن الصراع بين أتباع الطائفتين النصرانية واليهودية في نجران كان سببًا رئيسًا في جلب تدخل الملك الحميري في نجران وارتكابه حادثة الاضطهاد. لكن المصادر السريانية المتوفرة لم تسعفنا بمعلومات واضحة حول مصير يهود نجران أثناء الغزو الحبشي وبعده، إلا من إشارة يتيمة تشير إلى نجاتهم من انتقام الملك الحبشي بعد وشم أيديهم بالصليب، وهي إشارة لا يمكن الاطمئنان لها في ضوء الخطاب الناقم على اليهود في المصادر السريانية.

وعلى كل حال فإن الموارد السريانية تمثل مصدرًا ثمينًا ليس لتاريخ نجران فحسب، بل لتاريخ الجزيرة العربية منذ عصور ما قبل الإسلام وحتى العصر الإسلامي الوسيط، فضلاً عن التاريخ الإسلامي منذ عصر الرسالة. ولذلك فهي جديرة بالاهتمام جمعًا، وتحقيقًا، وترجمة، ودراسة على غرار المدارس التاريخية الغربية التي أبدت أسبقية لافتة في الاهتمام بهذه المصادر.

الاحالات المرجعية:

(١) أشار كل من استرابو (Strabo) وبليني (Pliny) إلى نجران باسم "نجرانا" (Negrana) كإحدى المدن المحصنة الواقعة على طريق البخور أثناء حديثهما عن الحملة الرومانية بقيادة أليوس جاليوس (Aelius Gallus) على جنوب الجزيرة العربية سنة ٢٤ ق. م، كما أشار إليها بطليموس (Ptolemy) في كتابه الجغرافيا باسم (Negara Metropolis) "نجران ميتروبوليس". انظر:

Pliny, **The Natural History of Pliny**, Transl. John Bostock, M.D., F.R.S. and H. T. Riley, Esq., B.A., (London, H.G. Bohn, 1855), Vol. 2, p. 90. Strabo, **The Geography of Strabo**, Transl. H.L. Jones (London, Loeb Classical Library, 1930), Vol. vii, p. 357.

علي، جواد، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، (بيروت، دار الساقي، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ج٤، ص ١٥٩- ١٦٠. الذييب، سليمان بن عبدالرحمن، **الحملة الرومانية الأولى على جنوب غرب شبه الجزيرة العربية**، (الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م)، ص ٥٩- ٦٠.

(٢) ومن الدراسات العربية على سبيل المثال "**ديانة شهداء نجران**" لـ أ.د. "عائشة أبو الجدايل"، ورسالة ماجستير لـ "كوثر محمد سعيد علي" بعنوان "**الأخدود بين المصادر العربية والمصادر القديمة**" اللتان ركزتا على بحث الهوية الدينية لشهداء الأخدود. كما قدمت أ.د. أبو الجدايل دراسة أخرى عن " **قوانين جريجنتيوس أو القوانين الحميرية، دراسة عن الائتلاف والاتفاق مع الشريعة الإسلامية**". وخصص د. عصام سخنيني بابًا مستقلاً عن "**محرقة المسيحيين في نجران**" في كتابه "**مقاتل المسيحيين**"، ومؤخرًا قدم أ.د. عبد العزيز رمضان مقالاً بعنوان "**دخول المسيحية إلى نجران في روايات المصادر البيزنطية والمسيحية الشرقية**" درس فيه مسألة أصل النصرانية وتاريخها المبكر في نجران في ضوء روايات المصادر البيزنطية (اليونانية)، والسريانية، والحبشية. أما الدراسات المنشورة باللغة الإنجليزية فكثيرة ومنها كتاب لـ أ.د. عرفان شهيد عن "**شهداء نجران: وثائق جديدة**" (The Martyrs of Najrān: New Documents) والتي تحدث فيها عن المصادر النصرانية التي أرّخت لحادثة اضطهاد نصارى نجران، ومقالة له بعنوان "**بيزنطة في جنوب الجزيرة العربية**" (Byzantium in South Arabia)، ودراسة " الرواية اليونانية للشهداء النجرانيين" (On the Greek Martyrium of the Negranites) لـ "جورج هكسلي" (George Huxley)، ومقال لـ " فاسيليوس كريستيدس" (Christides Vassilios) عن " **الحرب الحميرية- الإثيوبية والاحتلال الإثيوبي لجنوب شبه الجزيرة العربية في أعمال جريجنتوس** " (The Himyarite-Ethiopian war and the Ethiopian occupation of South Arabia in the acts of Gregentius)، ودراسة حديثة نسبيًا لـ " نوربرت نيبس " (Norbert Nebes) عن "**شهداء نجران ونهاية مملكة حمير**" (The Martyrs Of Najrān And The End Of The Himyar).

انظر:
أبو الجدايل، عائشة سعيد، "قوانين جريجنتيوس أو القوانين الحميرية، دراسة عن الائتلاف والاتفاق مع الشريعة الإسلامية"، **مجلة العصور**، مجلد ١٣، ج ٢، (٢٠٠٣م)، ص٢٥ – ٦١. ولنفس الباحثة، "ديانة شهداء نجران قراءة جديدة للمصادر الأولية "، الكويت: **حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية**، الحولية ٢٥ (الرسالة ٢٢٢)، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ص 00. سخنيني، عصام، **مقاتل المسيحيين، نجران ٥٢٣م والقدس ٦١٤م وصفحات أخرى من تاريخ التنكيل اليهودي بهم**، (عمان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٣م)، ص ٧٣ – ١٢٧. علي، كوثر محمد سعيد، "**الاخدود بين المصادر العربية و المصادر القديمة**"، (رسالة ماجستير مقدمة لنيل درجة الماجستير من جامعة أم القرى، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م)، ص ٩١- ٥٨٢. رمضان، عبد العزيز محمد، "دخول المسيحية إلى نجران في روايات المصادر البيزنطية والمسيحية الشرقية"، دراسة نشرها أ.د. غيثان بن ابن جريس ضمن: **القول المكتوب في تاريخ نجران، الجزء الثامن عشر**، (الرياض، مطابع الحميضي، ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م، ط١)، ص ٦٢.
Christides, Vassilios, "The Himyarite-Ethiopian war and the Ethiopian occupation of South Arabia in the acts of Gregentius (530 A.D.)", In: **Annales d'Ethiopie**. Volume 9, (1972). pp. 115-146. Shahīd, ***ibid,*** pp.17 -276. Shahîd, Irfan. "Byzantium in South Arabia", **Dumbarton Oaks Papers / Dumbarton Oaks Center for Byzantine Studies**, (1979), pp. 23-94. Huxley, George Leonard, "On the Greek "Martyrium" of the Negranites." **Proceedings of the Royal Irish Academy. Section C: Archaeology, Celtic Studies, History, Linguistics, Literature** (1980): pp. 41-55. Nebes, Norbert, "The Martyrs of Najrān and the End of The Himyar: On The Political History Of South Arabia In The Early Sixth Century", **The Qurʾān in Context**, (Brill, 2009), pp. 25-60.

(٣) أبو الجدايل، **ديانة شهداء نجران**، ص 00. كوثر علي، **الأخدود**، ص ٥٨٥.

(٤) أفرام، أغناطيوس، **اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية**،(حلب، سوريا، دار ماردين، ١٩٩٦م)، ص ٢٥١- ٢٥٢.

(5) Zachariah of Mitylene, **The Syriac Chronicle known as that of Zachariah of Mitylene**, Transl. Hamilton, F. & Brooks, E. (Methuen & Company, 1899), pp. 192- 203. Anonymous, **The Chronicle of Zuqnīn, Parts III and IV: AD 488-775**: Translated from Syriac with Notes and Introduction, by. Amir Harrak, (PIMS, 1999), pp. 78- 85.

(6) Shahīd,ʿ**Irfan, The Martyrs of Najrān: New Documents**, (Bruxelles: Soc. des Bollandistes, Bd. Saint-Michel, 1971), pp. 43- 64.

(7) Zachariah of Mitylene, ibid, pp. 192- 203. Anonymous, ibid, pp. 78- 85. Shahīd, **ibid**, pp.

(٨) يعقوب، أغناطيوس يعقوب الثالث، **الشهداء الحميريين في الوثائق السريانية**، (دمشق، المجلة البطريركية، ١٩٦٦م)، ص ٩٧- ٩٨.

(9) Anonymous, **The Book of the Ḥimyarites**, Ed. And Transl. Axel Moberg, (Lund, Sweden: CWK Gleerup, 1924), pp. xcix – cxlvi.

(١٠) يعقوب، المرجع نفسه، ١٠١.
Shahīd, ibid, pp. 132- 135, p. 169.

(11) Anonymous, The Book of the Ḥimyarites, p. lxvii.

(١٢) يعقوب، المرجع نفسه، ص٩٩.

(13) Anonymous, ibid, p. lxiv.

(١٤) كوثر علي، الأخدود، ص ٣٦٩.

(15) Wood, Philip, **The Chronicle of Seert, Christian Historical Imagination in Late Antique Iraq**, (Oxford University Press, 2013), p. 3.

(16) Scher, Addai, **Histoire Nestorienne Inédite: (Chronique de Séert)**, (Paris, Brepols, Paris, 1950), p. 331.

(17) Wood, Ibid, p. 3.

(١٨) يرد اسم "حيّان" بحنان وحفصة بحبصة في بعض المصادر وهو ما يبدو أنه تصحيف وقد آثرنا اعتماد الاسم الأكثر شيوعًا في العربية.

(19) Anonymous, The Book of the Ḥimyarites, p. lv. Shahīd, ʿ*Irfan*, **Byzantium and the Arabs in the Fifth Century**, (Dumbarton Oaks, 1989), pp. 361- 367 .

(٢٠) ابن سليمان، ماري، **أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل**، ترجمة: صليبا بن يوحنا، (روما، مطبعة رومية الكبرى، ١٨٩٩م)، ص ٣٣.

(٢١) سركيس، يوسف بن إليان، **معجم المطبوعات العربية والمعربة**، (مصر، مطبعة سركيس، ١٣٤٦ هـ، ١٩٢٨ م)، ج٢، ص ١٢١٦، ١٢٥٥.

(٢٢) المجدل لماري بن سليمان، ملاحظة الناشر بعد الغلاف (بدون ترقيم).

(٢٣) ابن متى، عمرو، **أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل**، (روما، ١٨٩٦م)، ص١.

(٢٤) ابن متى، **فطاركة المشرق**، ص ٢٨.

(٢٥) ابن سليمان، **المجدل**، ص ٣٣.

(٢٦) Scher, ibid, p. 331.

(٢٧) ابن جريس، غيثان، **نجران، دراسة تاريخية حضارية (ق١-ق٤هـ / ق٧- ق١٠م)**، (الرياض، الحميضي للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م)، ص ٣٣٣- ٣٤٥. العمري، هادي صالح، **طريق البخور القديم، من نجران إلى البتراء وآثار اليمن الاقتصادية عليه**، (صنعاء، وزارة الثقافة والسياحة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م)، ص ٥٧- ٦٠.

(28) Shahīd, Byzantium and the Arabs, p. 363.

علي، المفصل، ج٢١، ص ١٩٠. أبو جودة، صلاح أبو جودة اليسوعي، "أضواء على المسيحية في جنوب الجزيرة العربية"، **مجلة المشرق**، عددا، يناير ١٩٩٧، ص ١٠٢، هامش ٥٤.

(29) Robin, Christian Julien, "La Persécution Des Chrétiens De Nagrān Et La Chronologie Chimyarite", **ARAM Periodical**, 11-12, (1999-2000), p. 67.

كوثر علي، الأخدود، ص ١٤٠.

(٣٠) كريستنسن، آرثر، **إيران في عهد الساسانيين**، ترجمة: يحيى الخشاب، (بيروت، دار النهضة العربية، د.ت)، ص ٢٥٥- ٢٥٨.

(31) Shahīd, ibid, p. 363.

(32) Eusebius, **The Ecclesiastical History**, Transl. Kirsopp lake, (London, William Heinemann- New York, G.P. Putnam's Sons, n.d), p. 463.

(٣٣) أبو جودة، **أضواء على المسيحية**، ص ٨٩. رمضان، **دخول المسيحية إلى نجران**، ص ٣٧.

(34) Philostorgius, **Philostorgius: Church History**, Transl. Philip Amidon, (Atlanta, Society of Biblical Lit, 2007), p. 42.

(٣٥) أبو جودة، **أضواء على المسيحية**، ص ٩٣.

Shahīd, Byzantium and the Arabs, p. 371.

(36) *Papathanassiou*, *Athanasios N.*, "Christian missions in pre-Islamic South Arabia", **International Orthodox Missions Consulation**, (Moscow, 1993), p. 136.

(37) **The Book of the Saints of the Ethiopian Church**, Transl. E. A. Wallis Budge, (Cambridge: University Press, 1928), p. 159.

(38) A.F.L. Beeston, The Martyrdom of Azqir, **Proceedings of the Seminar for Arabian Studies**, 2005. JSTOR, pp. 113-118, p. 117.

(39) Anonymous, The Book of the Ḥimyarites, pp. ex, xci.

يعقوب، **الشهداء الحميريين**، ص ١١٩.

(٤٠) وهب بن منبّه بن كامل بن سيج بن ذي كبار من ذمار واختلف في أصله، فمنهم من قال إنه فارسي من سلالة الأبناء الفرس، ومنهم من قال إنه من أصول يهودية يمنية من حمير. وقد حظي وهب بتقدير المؤرخين وعلماء الحديث فعدّوه تابعي جليل ومحدث ثقة وإخباري مشهور، إلا أن الملاحظ عليه أنه يكثر من الإسرائيليات في مروياته، وله كثير من الكتب التي لم يصل منها إلا ما رواه مؤرخي الإسلام مثل ابن هشام، الطبري وغيرهما، اختلف في وفاته لكن الأرجح أنه مات قرابة العام ١١٠هـ. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، **التاريخ الكبير**، (حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية)، ج٨، ص ١٦٤. ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد، **الثقات**، (حيدر آباد الدكن، الهند، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣م)، ج٥، ص ٤٨٧. ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله، **تاريخ دمشق**، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م)، ج٦٣، ص ٣٦٦.

(٤١) أبو حمزة محمد بن كعب بن حبان المدني مولدًا ومنزلاً، القرظي نسبًا فأصله يهودي من بني قريظة، ولد أواخر خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه. برع في تفسير القرآن وعلم الحديث والسير والأخبار ونال ثقة علماء الحديث. اختلف في وفاته ما بين ١٠٨هـ و١١٧هـ و١١٨هـ. ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع، **الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم**، تحقيق: زياد محمد منصور، (المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ١٤٠٨هـ)، **ص** ١٣٤. البخاري، التاريخ الكبير، ج١، ص ٢١٦. ابن حبان، الثقات، ج٥، ص ٣٥١.

(٤٢) ابن هشام، عبد الملك، **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، (مصر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م)، ج١، ص ٣١- ٣٤. الطبري، محمد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري**، (بيروت، دار التراث، ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م)، ج٢، ص ١٢١- ١٢٢.

(٤٣) ابن هشام، السيرة، ج١، ص ٣٤. الطبري، التاريخ، ج٢، ص ١٢١- ١٢٢.

(44) Anonymous, The Book of the Ḥimyarites, pp. xlv.

أبو جودة، **أضواء على المسيحية**، ص ٩٨- ١٠١.

(٤٥) ابن جريس **نجران**، ص ٤٨.

(٤٦) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، القسم المتمم، ص ١٣٤. البخاري، **التاريخ الكبير**، ج١، ص ٢١٦، ج٨، ص١٦٤. ابن حبان، **الثقات**، ج٥، ص ٤٨٧، ص ٣٥١. ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج٦٣، ص ٣٦٦.

(٤٧) ابن هشام، **السيرة**، ج١، ص ٣٤.

(٤٨) ابن هشام، **السيرة**، ج١، ص ٣٣- ٣٤.

(٤٩) علي، **المفصل**، ج١٢، ص١٩١.

(50) Brooks, Ernest Walter. "The Chronological Canon of James of Edessa." **Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft** 54,1, pp. 100-102, (1900), p. 319.

الباسبريتي، منصور بن مرزوق، **حوليات الراهب القرطميني**، (دهوك، دار المشرق، ٢٠١٢م)، ص٣٢. ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملطي والمعروف بـ ابن العبري، **التاريخ الكنسي**، ترجمة، صليبا شمعون، (دهوك، دار المشرق الثقافية، ٢٠١٢م)، ج١، ص ٥٠.

(٥١) هو المنذر الثالث بن امرئ القيس بن النعمان الملقب بابن ماء السماء نسبة إلى أمه واسمها ماوية بنت عوف بن جشم تولى الحكم مرتين الأولى بدأت عام ٥١٤م- ٥٢٤م حيث انتهت باستيلاء ملك كندة "الحجر بن آكل المرار" على الحيرة بدعم ملك فارس حينها "قباذ الأول بن فيروز" حسب زعم بعض المصادر، لكن المنذر عاد لاحقًا إلى الحيرة منتصرًا عام ٥٣١م وبدعم كسرى الأول هذه المرة فظل ملكًا للحيرة حتى مقتله في معركة "عين أباغ" مع ملك الغساسنة "الحارث الأعرج بن جبلة" عام ٥٥٣م، وقد كان "المنذر" وثنيًا في أول أمره لكنه تنصّر لاحقًا على يد "حنظلة

بن أبي عفر" في قصة روتها مصادر الأدب والتاريخ الإسلامي. الأصفهاني، حمزة بن الحسن، **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء**، (بيروت، مكتبة الحياة، ١٩٦١م)، ص٨١- ٨٤. غنيمة، يوسف رزق الله، **الحيرة والمملكة العربية**، (بغداد، مطبعة دنكور الحديثة، ١٩٣٦م)، ص١٦٥- ١٨٢.

(52)Zachariah of Mitylene, ibid, pp. 192- 203. Anonymous, The Chronicle of Zuqnīn, pp. 78- 85.

يعقوب، **الشهداء الحميريين**، ص ٤٣.

(٥٣) يعقوب، المرجع نفسه، ٤٤- ٤٦.

(٥٤) يعقوب، المرجع نفسه.

(٥٥) يعقوب، المرجع نفسه، ص ٤٩.

Anonymous, The Book of the Ḥimyarites , p. cvii . Shahīd, The Martyrs of Najrān, p. 45.

(٥٦) يعقوب، المرجع نفسه، ص ٥٠.

Anonymous, ibid, p. cxii. Shahīd, ibid, pp. 46- 47.

(٥٧)المرجع نفسه، ص ٥٣- ٥٦.

Anonymous, ibid, p. cxxxvii.

(٥٨) المرجع نفسه، ص ٥٣- ٥٦.

Anonymous, p. cxxvii. Shahīd, Ibid. pp. 48- 52.

(59) Anonymous, The Book of the Ḥimyarites, p. xlix, p. cxxiii.

(٦٠) الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، **الأخبار الطوال**، تحقيق: عبد المنعم عامر ود. جمال الدين الشيال، (القاهرة، دار إحياء الكتب العربي - عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٠م، ط١)، ص ٦١. الطبري، **التاريخ**، ج٢، ص ١٢٣.

(٦١) يعقوب، **الشهداء الحميريين**، ص ٥٤- ٥٧.

Anonymous, The Book of the Ḥimyarites, p. xlix, p. cxxiii.

(62) ibid, p. ci.

(63) ibid, p. civ.

(64) Ibid, pp. cxlii -cxxxvii.

(65) The Book of the Saints, pp. 166- 168.

(٦٦) كوثر علي، **حادثة الأخدود**، ص ٤٣٧.

(٦٧) مجهول، **الرواية العربية لاستشهاد القديس حارث بن كعب ورفقائه في مدينة نجران**، حققها وقدم لها: حارث إبراهيم، (بيروت، منشورات جامعة البلمند، ٢٠٠٧، ط١)، ص ١٢٣- ١٢٥.

(٦٨) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج١، ص ٣١- ٣٤. مجهول، **الرواية العربية**، ص ١١٢- ١١٥.

(٦٩) مجهول، المرجع نفسه، ص ١٣٠.

(٧٠) المصدر نفسه، ص٩٤- ١٢٠.

(٧١) سخنيني، مقاتل المسيحيين، ص ٩٥.

(٧٢) بافقيه، محمد عبدالقادر، **تاريخ اليمن القديم**، (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨ م)، ص١٥٤- ١٥٦. العتيبي، محمد بن سلطان، "آثار نجران ما قبل الإسلام"، **موسوعة المملكة العربية السعودية، محور الآثار، منطقة نجران**، الباب ٣، الفصل ٢ (الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م)، ص ٢٠٥. ولنفس المؤلف، **التنظيمات والمعارك الحربية في سبأ من خلال النصوص منذ القرن السادس ق.م وحتى القرن السادس الميلادي**، (الرياض، وكالة الوزارة للآثار والمتاحف، ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٦ م، ط١)، ص ٣٠٦- ٣١٢. كوثر علي، **حادثة الأخدود**، ص ٣٣٥- ٣٥٠.

Hoyland, Robert, **Arabia and the Arabs: from the Bronze Age to the coming of Islam,** (London and New York, Psychology Press, 2001), pp. 52- 53. Robin, Christian, " Ḥimyar, Aksūm, and Arabia Deserta in Late Antiquity: The Epigraphic Evidence", ed. Greg Fisher, **Arabs and Empire Before Islam**, (Oxford, Oxford University Press Oxford, 2015), pp. 40- 41.

(٧٣) الطبري، التاريخ، ج٢، ص ١١٩. المسعودي، علي بن الحسن، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، (بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م، ط١)، ج٢، ص٦٢.

(٧٤) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **المعارف**، تحقيق: ثروت عكاشة، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م، ط٢)، ص١٣٦. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٦١.

(٧٥) أبو الجدايل، شهداء نجران، ص ٢٣. كوثر علي، حادثة الأخدود، ص ٣٥١.

(٧٦) مجهول، الرواية العربية، ص ١١٢- ١١٥.

(٧٧) مهران، محمد بيومي، **دراسات تاريخية من القرآن الكريم، بلاد العرب (١)**، (بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ط٢)، ص٣٦٣ – ٣٦٤.

(78) Anonymous, The Book of the Ḥimyarites, p. lx.

(٧٩) سخنيني، مقاتل المسيحيين، ص ١٠٦.

(٨٠) أبو جودة، أضواء على المسيحية، ص ١٠٧، هامش ٧٠.

(٨١) تنتسب هذه القبيلة إلى الحارث بن كعب بن عمر بن علة بن جلد بن مالك وهو مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. انظر: ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب، **نسب معد واليمن الكبير**، ت: ناجي حسن، (بيروت، عالم الكتب، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م)، ج٢، ص ٢٦٧. ابن حزم، علي بن محمد، **جمهرة أنساب العرب**، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م)، ص٤١٦.

(82) Jamme, Albert, **Sabaean Inscriptions from Maḥram Bilqîs (Mârib)**, (Johns Hopkins Press, 1962), p 164- 165.

(٨٣) مجهول، الرواية العربية، ص ١٣٧.

(84) Berger, Albrechet, **Life and works of Saint Gregentios, Archbishop of Taphar: introduction, critical edition and translation (The Acts of Gregentios)** (Berlin- New York, Walter de Gruyter, 2006), p. 50.

(85) Berger, ibid, pp.5, 51,

(٨٦) مجهول، الرواية العربية، ١٣٧. وانظر أيضًا:

Anonymous, The Book of the Ḥimyarites, xxxv.

(٨٧) ابن هشام السيرة النبوية، ج١، ص ٣٧. ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع، **الطبقات الكبرى**، (بيروت، دار صادر، ط١، ١٩٦٩م)، ج١، ص ٩٠. الطبري، التاريخ، ج٢، ص١٢٥.

(٨٨) بالحاج، سلوى بالحاج صالح العايب، **المسيحية العربية وتطوراتها من نشأتها إلى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي**، (بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٨م، ط٢)، ص ٧٢.

(89)Anonymous, The Book of the Ḥimyarites, p. cxlii.

(90) Berger, ibid, pp. 83- 91, 411- 449.

(٩١) للمزيد عن القوانين الحميرية انظر: النعيم، نورة، **التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية حتى نهاية دولة حمير**، (الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م)، ص ٣٤١- ٣٨٩. أبو الجدايل، قوانين جريجنتيوس، ص ٢٥ – ٦١.

(٩٢) فرقة دينية ظهرت في القرن السادس الميلادي حيث تعرضت للتكفير والاضطهاد واعتبر اتباعها هراطقة عند اتباع المذهبين المونوفيزتي والنسطوري بسبب زعمهم أن جسد السيد المسيح نزل من السماء. انظر: بالحاج، المسيحية العربية، ص ٧٢.

Panicker, Mathunny, **The person of Jesus Christ in the writings of Juhanon Gregorius Abu'l Faraj commonly called Bar Ebraya**, (Hamburg- London, LIT Verlag Münster, 2002), pp. 158 - 159.

(93) Scher, ibid, p 144.

(٩٤) السرياني، ميخائيل، **تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير بطريرك أنطاكية**، ترجمة: مارغريغورس صليبا شمعون، (حلب، دار ماردين، ج٢، ١٩٩١م)، ج٢، ص ١٤٩.

(٩٥) مجهول، **مختصر الأخبار البيعية: وهو القسم المفقود من التاريخ السعرّدي**: تحقيق: بطرس حداد، (بغداد، الديوان للطباعة، ٢٠٠٠م)، ص ١٢٩. شِير، المطران أدّي شِير، **تاريخ كلدو وآثور**، (بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ٢٠٠٧م)، ج٢، ص ١٦- ١٧.

(٩٦) يورد مؤلف" تقويم الكنيسة النسطورية" المجهول نصًا نادرًا يذكر فيه أنه كان بنجران سنة ١٢٦٠م/ ٦٥٨هـ ألف وأربعمائة أسرة تتبع الكنيسة النسطورية، وأنه يرأسهم أسقف يُدعى "يعقوب" وتحت رئاسته خمسة عشر قسًا، وخمسة وثلاثون شماسًا. وهذه الرواية على ما تتضمنه من أرقام دقيقة لا ندري عن مدى صحتها إلا أنها تتفق ضمنيًا وزمنيًا مع ابن المجاور الذي زار نجران قريبًا من ذلك التاريخ فذكر أن ثلث أهلها -أي نجران-كانوا نصارى، وهو وصف مبالغ فيه لكنه يؤكد حقيقة واحدة وهي وجود طائفة نصرانية في المنطقة. للمزيد انظر: مجهول، **تقويم قديم للكنيسة الكلدانية النسطورية**، وقف على طبعه وعلق على حواشيه: بطرس عزيز، (بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٩٠٩م)، ص ٦-٩. ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب، **تاريخ المستبصر**، راجعه ووضع هوامشه: ممدوح حسن محمد، (القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٦م)، ص ٢٣٨

(٩٧) يعقوب، الشهداء الحميريين، ص٩٧.

(98) Anonymous, The Book Of The Ḥimyarītes. P. cxxiii.

(٩٩) يعقوب، الشهداء الحميريين، ص ٤٧.

(100) Anonymous, The Book of the Ḥimyarites, pp. cxxxvii- cxxxviii .

(١٠١) مجهول، الرواية العربية، ص ١٣٥.

(١٠٢) للمزيد عن اليهودية في نجران من العصر الجاهلي وحتى صدر الإسلام انظر:

al-Nahee, Owed, "The Jews of Najrān: Their origins and conditions during pre- and early Islamic history, 525 -661 CE", **Journal of History and Cultures** (7) 2017: pp. 29 – 43.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

ما ذكره الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب عن مكة المكرمة
دراسة نقدية تاريخية



د. نورا طارق حسن معروف
دكتوراه في التاريخ الإسلامي
كلية الآداب – جامعة بنها
جمهورية مصر العربية

مُلَخّصْ

يُعَدّ لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني أحد أهم المؤرخين والجغرافيين العرب عبر العصور التاريخية المختلفة ومؤلفاته خير دليل على هذا، فعاش في الفترة من الربع الأخير من القرن الثالث الهجري حتى الثلث الأول من القرن (الرابع الهجري/ التاسع والعاشر الهجريين)، وكتابه صفة جزيرة العرب من أهم ما أثر به الهمداني في علم الجغرافية على مر العصور المختلفة فبه أصبح الهمداني من فحول الجغرافيين الذين ضلعوا في هذا العلم ونقبوا في غرائبه ونوادره. ونطاق هذا البحث موقع مدينة مكة ومدنها وقبائلها ومنازلها وسواحلها وجبالها وشعابها وآبارها وطرقها وأسواقها. والغرض من هذا البحث هو جمع كل ما ذكره الهمداني عن مكة في كتابه الصفة سواء تاريخيًا أو جغرافيًا وعرضه كمادة منسقة متسقة تتسم بالتتالي وإثبات ما هو حقيقي من خلال نقده باتباع المنهج الاستقرائي النقدي. وقد أثبت البحث مدى مهارة ودقة الهمداني التاريخية والجغرافية واللغوية والأدبية، ومدى أهمية كتابه عبر العصور المختلفة. لقد حاولت الباحثة على قدر الإمكان توضيح ما أورده الهمداني عن مكة المكرمة ولو بشكل موجز ومختصر من خلال كتابه صفة جزيرة العرب، حيث استطاع الهمداني إظهار ثقافته وقدراته بذكاء، لكن ما يمكن أن يؤخذ عن الهمداني في كتابه الصفة عند ذكره للبلاد والمدن لم يدرسها بشكل منظم، فعند ذكره لمكة لم يخصص لها بابًا أو فصلاً، بل ما ذكره عنها عبارة عن معلومات متناثرة بين أسطر كتابه.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث:	٠٢ يوليو	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٠٧ أغسطس	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

التاريخ الإسلامي؛ تاريخ العرب؛ الهمداني؛ جزيرة العرب؛ مكة المكرمة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.184647

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

نورا طارق حسن معروف. "ما ذكره الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب عن مكة المكرمة: دراسة نقدية تاريخية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ٣١ – ٣٧.

Corresponding author: nouratarek200@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

لا أحد يجهل مدينة مكة المكرمة ومكانتها وأهميتها الجغرافية والدينية على مر العصور المختلفة، فترجع أهمية مكة إلى موقعها الجغرافي الاستراتيجي كونها تربط بين بلاد الشام شمالاً واليمن جنوبًا، ومحطة القوافل القادمة من البلدين.[1] أما تاريخيًا، فقد أختلف المؤرخون فيما بينهم في تحديد نشأة مدينة مكة فقال البعض إن تاريخ نشأتها يعود إلى منتصف القرن الخامس الميلادي[2]، والبعض الأخر يرى إن تاريخها يعود للنصف الثاني من القرن التاسع عشر قبل الميلاد[3]، كما يرجحون أن أول من سكنها العمالقة، لما نزل نبي الله إبراهيم زوجته هاجر مع ولده إسماعيل كان موضع بيت الله الحرم عبارة عن ربوة حمراء، فأمر إبراهيم زوجته هاجر أن تتخذ عليه مسكنًا لهما، ثم نبع الله لهما بئر زمزم كما هو معروف، فتفرق العمالقة في البلاد ومن هناك من بقايا قوم عاد، وذهب بنو كركر وهم من العمالقة إلى مكة واستأذنوا هاجر في النزول والمكوث في مكة فنزلوا، ولما علمت قبيلة جرهم الثانية بنزولهم، أتجهوا ناحية مكة واستوطنوها مع إسماعيل بن إبراهيم ومن سبقهم من العمالقة، وكلمهم إسماعيل بالعربية[4]

وقد أختلف المؤرخون فيما بينهم في تحديد اسم مكة، فيقال سميت مكة: لأنها تُمكُ الجبارين أي تذهب نخوتهم[5]، وهى أسم المدينة لأنها تمك أعناق الجبابرة[6]، ولتمكك الناس بها لازدحامهم بها[7]، وقال أخرون أن الاسم مشتق من لفظ (مكا) البابلية بمعنى البيت، أما بكة فهو اسم لبطن مكة لانهم يتباكون فيها أي يزدحمون بها[8]، وذكرت في القرآن الكريم باسم بكة[9]، وأم القرى[10]، كما ذكر كثير من المؤرخين أن لها أسماء عدة منها: النساسة والناسة من نسّ بمعنى يبس وأجدب، والباسة لأنها تحطم من استخف بها، وصلاح، والعرش، والقادس لأنها تطهر من الذنوب ، والمقدسة، وكوثى[11]

أولاً: التعريف بالهمداني وأهمية كتابه صفة جزيرة العرب وآراء المؤرخين حديثًا به

هو الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، ولد في صنعاء في ١٩ صفر (٢٨٠هـ/٨٩٣م)، وتوفي سنة (٣٣٤ أو٣٣٧هـ/ ٩٤٥م)، فهو من علماء القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) البارزين، وصفه المؤرخين بكونه فقيهًا، لغويًا، فلكيًا، فيلسوفًا، أسهم في إثراء التراث العربي بمؤلفاته، مما جعله في مقدمة علماء العرب والمسلمين البارزين عبر العصور المختلفة.[12]

بشكل عام ما وصلنا من مؤلفات الهمداني في مجال التاريخ والأثار تتميز بأنها تجاوزت الخرافات والقصص، فتُعَدّ روايات تاريخية موثوق بها نظرًا لكونه دون كثير منها مما شاهده بنفسه من أثار وبقايا أثرية، أما كتاب -صفة جزيرة العرب- موضوع البحث، فقد طبع الكتاب لأول مرة سنة ١٨٨٤م، بمطبعة بريل بهولندا بتحقيق: هـ. مولر، ثم حققه مرة ثانية الشيخ محمد بن عبد الله بن بلهيد في (١٣٧٣هـ/١٩٥٣م)، وأخيرًا حققه علامة اليمن القاضي محمد بن على الأكوع وهي الطبعة الأفضل على الإطلاق بإجماع المؤرخين وهي النسخة التي أعتمد عليها، فطبعت بمكتبة الإرشاد بصنعاء سنة (١٩٩٠م/ ١٤١٠هـ) في (٥١٢) صفحة.

أما عن أراء مؤرخي العصر الحديث في أهمية الكتاب؛ فيقول علامة الجزيرة العربية حمد الجاسر: وما في الكتاب عن اليمن بل كل ما فيه عن الجزيرة، عن سراتها وسكانها ونباتها ولغات أهلها، غير ذلك من المعلومات العامة، تعتبر باعتراف العلماء من خير ما أثير عن المتقدمين ويعبر بوضوح عن غزارة علم الهمداني وإبداعه وتقدمه في كل ضروب العلم وجوانب المعرفة.[13]، أما الدكتور/ يوسف محمد عبد الله صرح بـ: لقد استعمل مؤلف صفة جزيرة العرب كل الأدوات العلمية المعهودة في عصره كاستناده إلى الجغرافيين الثقات أو حسن جمعه من المصادر المتباينة، أو تحصيله لمعلومات، أو اعتماده على علوم الأوائل وعلوم العرب معًا، وبذلك استطاع أن يقيم في كتاب واحد كل معارف عصره الجغرافية ومناهجها وهى معارف ومناهج قل أن تُرى إبان ذلك العصر في كتاب واحد.[14] وفي موضع آخر يقول: إن الهمداني لم يكن يهدف بالدرجة الأولى في تأليفه إلى تحقيق رغبة في نفسه كإبراز دور بلده كما يبدو ولأول وهلة في الإطار العام لأعماله، وإنما كان رائده العلم بالدرجة الأولى وكتابه – صفة جزيرة العرب – مثال اهتمامات الهمداني الواسعة التي تتخطى حدود الجغرافية الإقليمية إلى مشاهدات جمعها في رحلاته أو معلومات غريبة متنوعة ينثرها بين دفتي كتابه.[15]

كما صرح الدكتور عبدا لله الشيبه بـ: فلولا كتابات هذا الباحث اليمنى لبقيت كثير من الأسماء التي جاء ذكرها في النصوص طلاسم يصعب فهمها، إن لم نقل يستحيل فهمها على الدارسين في مجال الحضارة اليمنية، فكثير من أسماء المخاليف التي جاء ذكرها في النقوش لا وجود لها اليوم، إما لتبدل الاسم وبالتالي اختفاؤه مع الوقت، وإما لضمه إلى مخلاف أخر، ومن ثَمَّ ضياع اسمه القديم، ويضيف الشيبه،

"وإنني لا أبالغ عندما أقول، إن الحسن بن أحمد الهمداني يعتبر بحق المصدر الثاني بعد النقوش بالنسبة للجغرافية التاريخية لليمن والجزيرة العربية بشكل عام". وهكذا يتضح لنا إن كتابات الهمداني إلى جانب النقوش يمكن اعتبارها في التحليل الأخير المادة التي يجب الاعتماد عليها ليس فقط لرسم خريطة لجغرافية اليمن القديم، بل وأيضًا في فهم تاريخ اليمن القديم.[١٦]

أما المستشرقون، فقد أبدوا هم أيضًا برأيهم في كتاب صفة جزيرة العرب، فصرح أ. شبرنجر بـ: إن الصفة إلى جانب كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي يعتبران أهم عملين جغرافيين قدمه العرب.[١٧] أما أرنلهيد شولتن، فصرح بـ: إن كتاب الصفة هو أول عمل علمي في القرن العاشر الميلادي، يحوي مادة جغرافية محددة المعالم واضحة الإطار في عصر لم يكن علم الجغرافيا علمًا قائمًا بذاته، وإنما كان يصدر عن عمل الشعر الذي كان يقوم بدور المصدر والشاهد معًا دون أن يكون هناك ميل إلى أي تصور جغرافي منظم.[١٨] أما كريستان روبان فصرح بـ: تشكل أعمال الهمداني مصدرًا وفيرًا وفريدًا من نوعه لمَنْ يبغى القيام بدراسة تاريخية لليمن، إذ ليس من مؤلف إسلامي يضاهيه لا من حيث جودة معلوماته حول جنوبي الجزيرة العربية، ولا من حيث وفرتها.[١٩]

ثانيًا: ما جاء عن مكة ومناطقها في صفة جزيرة العرب

بداية يجب القول، إن ما أورده الهمداني في كتابه الصفة عن مكة المكرمة، ذكره في مواضع متفرقة بين أسطر كتابه، بداية من الموقع الجغرافي والجبال والقبائل والطرق والآبار حتى السواحل، وسأذكر فيما يلي كل معلومة ذكرها موضحة موضعها من كتاب الصفة:

٢/١-موقع مكة بالنسبة لخطوط الطول ودوائر العرض (الموقع الجغرافي)

لم يهمل الهمداني ذكر الموقع الجغرافي لمكة في كتابه _ صفة جزيرة العرب – لكن بمواضع متفرقة من الكتاب، فذكر إن هذه الجزيرة – جزيرة العرب – تقع على اشرف الأقاليم في موسطها، وصار فيها ما تشامتها الشمس والكواكب الجارية مرتين في الثور والأسد، وفي الجوزاء والسرطان وهى أقرب العمران من خط الاستواء، وهى تحت برج من بروج البأس[٢٠]، ووصف مكة بانها تقع على خط طول من المشرق إلى المغرب مع الفتق والطائف ومكة[٢١]، وانها في غربي الفتق[٢٢] كما وصف مكة بانها وادى للطائف (ثم سراة الطائف وغورها مكة ونجدها ديار هوازن من عكاظ)[٢٣]، ووصفها بانها ضمن أراضي تهامة آنذاك (ووادي رحمه وأسفل عرنه ومكة وأحوازها لقريش وخزاعه)[٢٤]، ووصفها بانها على الطريق بين جرش وصعدة (ثم طلعت في وادى النحر إلسروم والجمرة ووقعت في محجة مكة)[٢٥]، كما صنف موقع مكة بالنسبة للأقاليم الستة التي صنفها هرمس، بانها تقع في الإقليم الثاني وهو إقليم الحجاز واليمن: (ويمر الإقليم الثاني على وسطه من المشرق إلى المغرب على المواضع التي يكون نهارها الأطول وعرضها ما ذكرناه، وابتداؤه من المكان الذى انتهت إليه ساعات الإقليم الأول إلى حيث يكون نهاره الأطول ثلاث عشرة ساعة....... ووسط هذا الإقليم بتهامة من أرض العرب......، وابتدأوه من المشرق من بلاد الصين فيمر ببلاد الهند والسند إلى حيث يلتقي البحر الأخضر – يريد بحر الزنج – وبحر البصرة – ويقطع جزيرة العرب ومكة والحجاز)[٢٦]

كما أوضح لنا رأى بطليموس في وصفه لمكة بأنها من أجزاء الشمال، ووصفها بانها تقع في الدائرة الموازية السادسة (وهى التي يصير مبلغ أطول ما يكون من النهار فيها ثلاث عشرة ساعة وربعًا من ساعات الاستواء وبعد هذه الدائرة من معدل النهار عشرون جزءًا واربع عشرة دقيقة، وترسم مارة بالمواضع المسماة "تابطو" يريد أجزاء الإقليم الأول فيما شارف مكة)[٢٧]، وبما أن مكة المكرمة من ضمن أراضي الحجاز فوصفها بانها ضمن الدائرة الموازية السابعة (هي التي يصير مبلغ طول ما يكون من النهار فيها ثلاث عشرة ساعة ونصفًا من ساعات الاستواء........، وهى سمت أقصى الليل وترسم مارة بالجزيرة المسماة "سوينى" يريد الحجاز)[٢٨]، كما أن الهمداني ذكر الآراء المختلفة في تحديد بداية ونهاية الأقاليم، وهنا جعل مكة في الإقليم الأول (فإما قياس طوله لبطليموس فيحقق ما قال حساب صنعاء، وأما قياس طول المأمونى فقد يخالفهم شيئًا، وهذا دليل على أن وسط هذا الإقليم وادى نجران من ارض اليمن ومكة أخره اليمن).[٢٩]

٢/٢-الموقع بالنسبة لمجموعات الكواكب وأثر حركاتها

لم يهمل الهمداني ذكر موقع مكة بالنسبة لمجموعات الكواكب والفلك، صحيح انه لم يخصص لهذا بابًا أو فصلاً في كتابه -صفة جزيرة العرب– فذكرها ضمن تسلسل الأحداث (ما أتى عن بطليموس القلوذي في طبائع أهل العمران من الأرض على الجملة.....)[٣٠]، ثم قسم مجموعات الكواكب إلى ثلاثة مجموعات يهمنا منها ما يخص مكة، فصرح بـ (فالخيبة الأولى ما كان من خط الاستواء تحت مجاري الكواكب إلى مسامته

منقطع الميل من رأس السرطان وذلك سمت ما بين مكة والمدينة وما حاذاه).[٣١]

كما لم يهمل ذكر أثر الكواكب وتداخلها، فأورد تحت عنوان رئيس: ما أتى به بطليموس القلوذى في طبائع أهل العمران من الأرض على التبعيض والتجزئة[٣٢]، ثم يذكر بعنوان فرعى معرفة ما انفرد به عطارد من هذه القسمة، فيذكر أثر كوكب عطارد وطباعه (واستولى عطارد على الوسط لقصر وتره وتوسط طباعه بين طبائع الكواكب مرة نحسًا ومرة سعدًا، ومرة مذكرًا ومرة مؤنثًا ومرة نهاريًا ومرة ليلاً ونحوه، ولان بيته الجوزاء على الوسط من العمران وسامت البيت ما بين مكة والمدينة فأظهر في هذا الموضع العجيب وجاء بالحكمة وفتح أبواب العلم من الذكاء والدهاء وخفة الأرواح والحركات ورقة حواشي الألسن وتوقد القلوب في أشياء يتصل ذكرها بذكر ما دخل من الأرباع في الوسط فاشتركت فيه طبائع المثلثات).[٣٣]

٣/٢-مساحة مكة ومدنها (مواضعها)

أورد الهمداني مساحة مكة المكرمة في موضعين من الكتاب مستخدمًا الإسناد، الموضع الأول: (وعرض مكة عن الفزارى ثلاث و عشرون درجة وثلث، وعن حبش إحدى وعشرون درجة وطولها عن الفزارى مئة وست عشرة درجة من المشرق وعن حبش مئة وعشرون درجة)[٣٤]، أما الموضع الثاني: أثناء ذكره للمسافة بين مر ومكة (ومن مر إلى مكة ثلاثة عشر ميلاً، وعرض مكة احد وعشرون جزءًا)[٣٥]، أما (مواضع) مدن مكة فأورد في ثلاثة مواضع، الموضع الأول: (وإدام من أحواز مكة)[٣٦]، الموضع الثاني (وكذلك ذو طوى والعير والعيرة وكدى وكداء والفرش والبرك وعزور من أحواز مكة)[٣٧]، الموضع الثالث (وذو طوى موضع وذو طوى موضع بمكة أيضًا)[٣٨].

٤/٢-القبائل والمنازل

ذكر الهمداني قبائل مكة المكرمة في ست مواضع فقط من الكتاب، الموضع الأول (من أربعة مضر وربيعة وأياد وانمار، فكثر أولاد معد بن عدنان بت أدد ونمو، وتلاحقوا ومنازلهم مكة وما ولاها من تهامة)[٣٩]، الموضع الثاني (قريش وخزاعة)[٤٠] لكن من الملاحظ انه ذكر قبيلة خزاعة في ثلاثة مواضع[٤١]، كما ذكر الجناطين والجزارين[٤٢]، والازد[٤٣]، أما المنازل: فأورد موضع واحد فقط (منازل هذيل: عرنه وعرفة وبطن نعمان ونخلة ورحيل وكبكب ....).[٤٤]

٥/٢-السواحل والجبال والشعاب والآبار

ذكر الهمداني ساحل واحد فقط لمكة، فصرح بـ: (جده ساحل مكة[٤٥]، أما الجبال فذكر الهمداني كثير من الجبال في مكة في أربعة مواضع متفرقة، الموضع الأول: (غزوان جبل عرفة العالي، ثم طلعت الجبال بعد منه وكان منها الأبيض جبل العرج وقد س وأره والأشعر والأجرد وهذه جبال من بين مكة والمدينة عن يمين الخارج من مكة إلى المدينة ويسار الصادر إلى مكة وقد ذكرت العرب الحجاز و..... وتهامة ونجد)[٤٦]، والموضع الثاني (منى بمكة غير منونة من منى الأديم عطته)[٤٧]، الموضع الثالث (وكبكب جبل أحمر في رأس عرفه)[٤٨]، الموضع الرابع (حراء وتبير جبلان في اعلى مكة)[٤٩]

أما الشعاب؛ فأورد الهمداني في ثلاث مواضع متتاليين (وشعب الدرة حيث مسجد المزار وهو أول الأبطح، وشعب الخوز بمكة يكون فيه البياعون، وخرما بمكة)[٥٠]؛ أما الآبار فذكر في ثلاثة مواضع؛ الموضع الأول (وأقدم آبار الأرض بئر سام بن نوح بصنعاء وبئر ميمون بمكة .....)[٥١]؛ الموضع الثاني (وبئر أهل مكة القديمة واحتفره ميمون بن قحطان الصدفي)[٥٢]، الموضع الثالث (على بطن طريق مكة، النضرية ماء عذب)[٥٣]، أما البرك، فأورد الهمداني موضع واحد فقط (والفوارة على مظهر الغيل الذي يصب إلى بركة زبيدة بمكة وعلى الفوارة بناء عظيم بنته زبيدة بنت جعفر بن المنصور امرأة هارون وأم الأمين).[٥٤]

٦/٢-الطرق والتجارة والأسواق والأطعمة

لم يهمل الهمداني هذا الجانب أيضًا، بل أمدنا بكثير من المعلومات عن الطرق بين مكة وغيرها من المدن، الموضع الأول: ذكر فيه الطريق بين صنعاء ومكة (محجة صنعاء إلى مكة طريق تهامة: من صنعاء صليت من البون ثم الموبد ثم أسفل العرقة واخرف ثم الصرحة ثم راس الشقيقة ثم حرض ثم الخصوف من بلد حكم ثم الهجر ثم عثر ثم بيض ثم زنيف ثم ضنكان ثم المعقد ثم حلى ثم الجوثم ... ثم الخيال ثم إلى يلملم ثم ملكان ثم مكة هذه طريق الساحل والمحجة القديمة ترتفع إلى حُلى العليا.....)[٥٥]، الموضع الثاني من جرش إلى صعدة: (ثم تخرج من جرش قصد صعدة على بلد جنب في سعيًا وادي بنى بشر ذي أعتاب وزروع وأسفل أنيس ثم وادي طرطر ثم وادي منبع ثم جزعت منه في وادى نحيان ومنها الكبيبة والجبل الأسود...... إلسروم والحمرة ووقعت في محجة مكة)،[٥٦] الموضع الثالث طريق وادى النعمان (ثم الطائف مدينة قديمة جاهلية..... وبين الطائف وبين عرفة وادي النعمان وفيه طريق الطائف المختصرة إلى مكة)[٥٧]، كما ذكر المسافة بين مكة ومر وقدرها بثلاثة عشر ميلاً[٥٨]، والمسافة بين مكة وصنعاء قدرها باثنان عشرون مرحلة[٥٩].

أما التجارة بين مكة وغيرها من المدن، فأورد الهمداني في موضعين، الموضع الأول مصرحًا بـ: (انظر إلى التجار إذا حملناهم إلى مكة من صعدة يأكلون سفرهم....)[٦٠]، والموضع الثاني (ومولد الخيزران أم موسى الهادي والرشيد بنجران، ثم بيعت إلى جرش ثم إلى مكة)[٦١]، أما عن الأسواق، فذكر الهمداني أسواق مكة في موضعين، الموضع الأول (الجريب وهو سوق عظيم لأهل تهامة ومكة وعثر وجميع بلدان همدان)[٦٢]، الموضع الثاني (سوق مكة)،[٦٣] أما عن أشهر أطعمة أهل مكة، فصرح في موضع واحد بـ (الشهد الحضوري يهدى إلى العراق ومكة وسائر البلدان في القصيب).[٦٤]

ثالثًا: منهج الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب من خلال ما أورده عن مكة

بداية استخدم الهمداني المنهج الموضوعي في سرده لكتابه صفة جزيرة العرب؛ مع بعض الأدوات أو الأساليب المختلفة في سرده لمعلوماته ومنها:

١/٣-أثبات كلامه بالأحاديث النبوية: أراد الهمداني إثبات ما يورده من معلومات عن مكة المكرمة بذكر الأحاديث النبوية الدالة على كلامه في موضع واحد فقط لما يورده عن مكة، (ولذلك قال رسول الله (ﷺ) لعتاب بن أسيد (انى مستحلفك على أل الله).[٦٥]

٢/٣-التصريح بالاعتماد والنقل من مصادر أخرى: كقوله (ما أتى عن بطليموس من تفصيل أجزاء شق الشمال)[٦٦]، (معرفة قسمة الأقاليم لهرمس الحكيم)[٦٧]، (ما أتى عن بطليموس القلوذى في طبائع أهل العمران من الأرض على الجملة).[٦٨]

٣/٣-ذكره للآراء والروايات المختلفة للرواية الواحدة: كذكره الآراء المختلفة حول طول وعرض الأقاليم، كقوله (اختلاف الناس في العرض والطول أما العرض فإن الناس مَنْ يعد الإقليم الأول من حد وتر خط الاستواء إلى اقصى حده من الشمال ومنهم مَنْ يجعل البحر الزنجي حاجزًا بين الإقليم الأول وبين وسط خط الاستواء)[٦٩]، وفي موضع آخر (وعرض مكة عند الفزارى ثلاث وعشرون درجة وثلث، وعن حبش إحدى وعشر درجة وهو اقمن، وطولها عن الفزارى مئة وست عشرة درجة من المشرق وعن حبش مئة وعشرون).[٧٠]

٤/٣-استخدامه الإسناد: استخدم الهمداني الإسناد في ذكره لبعض المعلومات، مصرحًا بـ (باب ما جاء عن ابن عباس رحمه الله تعالى في ذكر جزيرة العرب: أما حديث عبدالله بن عباس في جزيرة العرب فانه ما نقل لنا عن محمد بن السائب الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس من وجه وعن معاوية بن عميرة بن مخوس الكندي أنه سمع عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب وسأله رجل من ولد نزار بن معد قال:.....)[٧١] استطيع أن اسند هنا أيضا استناده على السماع أي على الروايات الشفوية، فصرح بـ: (قال أبى رحمه الله وقد دخلت الكوفة وبغداد ....)[٧٢]، (وقد سمعت لرجل من البصرة).[٧٣]

٥/٣-تفسيره أو توضيحه لمعنى بعض الكلمات أو الألفاظ: من اهم ما لوحظ في كتاب الصفة للهمداني توضيحه لمعنى بعض الكلمات، كقوله (محجة العراق في هذه الجزيرة إلى مكة يسمى كل طريق يكثر الاختلاف عليه محجة لأن موضع المباني والمرور من الأشياء محجوج)[٧٤]، (وهي سمت اقصى الليل، وترسم مارة بالجزيرة المسماة –سوينى- يريد الحجاز)[٧٥]، (وترسم مارة بالمواضع المسماه -ناباطو- يريد أجزاء الإقليم الأول فيما شارف مكة).[٧٦]

٦/٣-تسجيله للنصوص الأدبية (شعر، حوارات): حرص الهمداني على ذكر كثير من الأبيات الشعرية أثناء سرده لما يورده من معلومات، ولسنا هنا بصدد ذكر كل ما أورده لكنى اذكر ما أورده بشكل موجز عن مكة، كقوله:

رب إياك نحن ندعو ونرجو   ولنا أنت ذا الجلال الرجاء
فاستجب ربنا فإنك لا يحجب   للسائلين عنك الدعاء
كل منها جبال مكة حتى   هي مثل الرياض حضر رواء[٧٧]

كما نجد أن الهمداني لم يهمل تسجيل الحوارات من خلال ما ذكره عن مكة، فأورد حوار (وكان الفضال الدليل يقول: ثلاثة أشياء لا يسع فيها إلا الجد والانكماش دون الرخرخة والفتور، فيقال له: وما هي يا أبا يوسف؟ فيقول: مباغضة العجوز وأكل اللحوح باللبن).[٧٨]

خَاتِمَةٌ

لابد من القول إنه يوجد من مؤرخي العصر الحديث مَنْ قاموا بدراسة منهجية الهمداني في كتابه الصفة موضوع البحث من قبلي، ومنهم الدكتور عبد الله الشيبه الذي صرح بـ: أن الهمداني بصورة عامة لم يكن منظمًا من الناحية المنهجية في كتابه "صفة جزيرة العرب" على الرغم من دقته في القسم الثاني من الكتاب الخاص بالجغرافيا(٧٩)، لكنني أثناء عملي في هذا البحث أستطيع أن أسرد بعض ما يمكن أن يؤخذ عن الهمداني في كتابه الصفة، وهي أن الهمداني عند ذكره للبلاد والمدن لم يدرسها بشكل منظم، فعند ذكره لمكة لم يخصص لها بابًا أو فصلاً، بل ما ذكره عنها عبارة عن معلومات متناثرة بين أسطر كتابه الصفة أثناء سرده لجغرافية اليمن وخصائصها بشكل عام دون تفصيل باستثناء القليل منه.(٨٠)

لقد حاولت الباحثة على قدر الإمكان توضيح ما أورده الهمداني عن مكة المكرمة ولو بشكل موجز ومختصر من خلال كتابه صفة جزيرة العرب، الذي يُعَدّ من أهم الكتب التاريخية والجغرافية على مر العصور المختلفة، حيث استطاع الهمداني إظهار ثقافته وقدراته بذكاء، فاثبت أن لديه قدرات وصبر وقدرة على التحمل فأوضح القاضي الأكوع إن الهمداني أول مَنْ أستطاع التفرقة بين سرعة الصوت والضوء.(٨١)

الاحالات المرجعية:

(١) حسن معمري: **مكة وعلاقتها التجارية مع شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، ٢٠٠٥/٢٠٠٦، ص١٢.

(٢) علي إبراهيم حسن: **التاريخ الإسلامي العام**، مكتبة النهضة المصرية ووكالة المطبوعات الكويتية،١٩٧٢، ص٩٦.

(٣) محمد بيومي مهران: **تاريخ العرب القديم**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٦م، ص٣٩٧:٣٩٨.

(٤) المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق: يوسف اسعد، دار الأندلس بيروت، ط١، ١٩٦٥م، ج٢، ص٤٦.

(٥) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، منشورات مكتبة الأسدي، ١٩٦٥م، مج٤، ٦١٦.

(٦) ياقوت الحموي: نفس المصدر، مج٤، ص٦١٦.

(٧) البغدادي: **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، تحقيق: محمد البجأوى، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥، ط١، ج٣، ص١٣٠٣.

(٨) ابن هشام: **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفي السقا وآخرون، مكتبة البابى مصر، ١٩٥٥م، ط٢، القسم الأول، ص١١٤.

(٩) **القرآن الكريم**: سورة آل عمران، الآيتين ٩٦:٩٧.

(١٠) **القرآن الكريم**: سورة الأنعام، الآية ٩٢.

(١١) حسن معمري: **مكة وعلاقتها التجارية مع شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد**، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ص١١.

(١٢) يوسف محمد عبد الله: **الهمداني وكتابه صفة جزيرة العرب "دراسات في ذكراه الألفية"**، منشورات جامعة صنعاء، ١٩٨٦م، ص١٠. عارف المخلافي: **"زيارة الهمداني لمناطق تعز باليمن في ضوء كتابه صفة جزيرة العرب"** (مجلة الدراسات الاجتماعية، العدد ٣٩، يناير ٢٠١٤م) ص١٠٩.

(١٣) حمد الجاسر: **ترجمة الهمداني تقديم لكتاب صفة جزيرة العرب**، تحقيق: محمد بن على الأكوع، مكتبة الإرشاد صنعاء، ١٩٩٠م، ص٢٢.

(١٤) يوسف محمد عبد الله: **مقدمة كتاب الهمداني وكتابه صفة جزيرة العرب**: "دراسات في ذكراه الألفية"، مرجع سابق، ص١٠.

(١٥) يوسف محمد عبد الله: **أوراق في تاريخ اليمن وأثاره**، بحوث ومقالات، ط٢، صنعاء، ١٩٩٠م، ص١٤٨.

(١٦) عبد الله حسن الشيبه: **أهمية الهمداني للجغرافية التاريخية لليمن القديم، في كتاب الهمداني لسان اليمن**: "دراسات في ذكراه الألفية"، تحقيق: يوسف محمد عبد الله، منشورات جامعة صنعاء، ١٩٨٦م، ص ٧٩:٨١.

(١٧) عبد الله الشيبه: نفس المرجع، ص٧٢.

(١٨) يوسف محمد عبد الله: **أوراق في تاريخ اليمن** "الهمداني وكتابه صفة جزيرة العرب"، مرجع سابق، ص ١٦٤.

(١٩) كريستيان روبان: **نبذة في الجغرافية التاريخية وفقًا لمعطيات الهمداني في كتاب "الهمداني لسان اليمن دراسة في ذكراه الألفية"**، مرجع سابق، ص ٨٢.

(٢٠) الهمداني: **صفة جزيرة العرب**، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد صنعاء، ط١٩٩٠م، ص٤١.
(٢١) الهمداني: نفس المصدر، ص ٣٠٣.
(٢٢) نفس المصدر، ص ٣٠٢.
(٢٣) نفس المصدر، ص١٣١.
(٢٤) نفس المصدر، ص٢٣٣.
(٢٥) نفس المصدر، ص٢٣٥.
(٢٦) نفس المصدر، ص٤٧.
(٢٧) الهمداني: **صفة جزيرة العرب**، مصدر سابق، ص٥٠.
(٢٨) الهمداني: نفس المصدر، ص٥٤.
(٢٩) نفس المصدر، ص٦٤.
(٣٠) نفس المصدر، ص٦٦.
(٣١) نفس المصدر، ص٦٦.
(٣٢) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٦٨.
(٣٣) الهمداني: نفس المصدر، ص٨٠.
(٣٤) المصدر نفسه ص٨٢.
(٣٥) المصدر نفسه، ص٣٠١.
(٣٦) المصدر نفسه، ص٢٩٠.
(٣٧) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٢٩٤.
(٣٨) الهمداني: نفس المصدر، ص ٣٨٥.
(٣٩) نفس المصدر، ص٨٣.
(٤٠) نفس المصدر، ص ٢٣٣.
(٤١) نفس المصدر، ص ٢٩٥،٣٣٠،٢٣٣.
(٤٢) نفس المصدر، ص٢٣٧.
(٤٣) نفس المصدر، ص ٣٢٨.
(٤٤) نفس المصدر، ص ٢٨٨.
(٤٥) نفس المصدر، ص ٨٤.
(٤٦) نفس المصدر، ص٨٦.
(٤٧) نفس المصدر، ص٢٩١.
(٤٨) نفس المصدر، ص ٢٩٤.
(٤٩) نفس المصدر، ص ٣٩٠.
(٥٠) الهمداني: **صفة جزيرة العرب**، مصدر سابق، ص ٣٩٠.
(٥١) الهمداني: نفس المصدر، ص ٢٤٢.
(٥٢) نفس المصدر، ص٣٩٠.
(٥٣) نفس المصدر، ص ٢٦٤.
(٥٤) نفس المصدر، ص ٣٩٠.
(٥٥) نفس المصدر، ص ٣٠٣:٣٠٤.
(٥٦) نفس المصدر، ص ٢٣٥.
(٥٧) نفس المصدر، ص ٢٣٣.
(٥٨) نفس المصدر، ص ٣٠١.
(٥٩) نفس المصدر، ص ٣٠١.
(٦٠) الهمداني: **صفة جزيرة العرب**، مصدر سابق، ص ٣١٥.
(٦١) الهمداني: نفس المصدر، ص ٣٦٤.
(٦٢) نفس المصدر، ص ٢٢٤.
(٦٣) نفس المصدر، ص ٢٩٦.
(٦٤) نفس المصدر، ص ٣١٧.
(٦٥) الهمداني: **صفة جزيرة العرب**، مصدر سابق، ص٤١.
(٦٦) الهمداني: نفس المصدر، ص ٥٠.
(٦٧) نفس المصدر، ص ٤٤.
(٦٨) نفس المصدر، ص ٦٦.
(٦٩) نفس المصدر، ص٦٤.
(٧٠) نفس المصدر، ص ٨٢.
(٧١) نفس المصدر، ص٨٣.
(٧٢) نفس المصدر، ص ٣١٩.
(٧٣) نفس المصدر، ص٣٥٣.
(٧٤) نفس المصدر، ص ٢٩٩.
(٧٥) نفس المصدر، ص ٥٤.
(٧٦) نفس المصدر، ص ٥٣.
(٧٧) الهمداني: **صفة جزيرة العرب**، ص٣٣٧، انظر أيضًا ص ٣٤٥، ٣٨٩.
(٧٨) الهمداني: نفس المصدر، ص٣٠٣.
(٧٩) عبد الله الشيبه: **الهمداني وكتابه صفة جزيرة العرب** (مجلة الإكليل، العدد ٢٧، صنعاء، ٢٠٠٢م) ص ١٢:١١.
(٨٠) الهمداني: **صفة جزيرة العرب**، مصدر سابق، ص٣٩٠.
(٨١) محمد بن علي الأكوع: **لسان اليمن الهمداني وأولياته التي تفرد بها**، كتاب الهمداني، تحقيق: يوسف عبد الله، مرجع سابق، ص ١١٤.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

سيرة السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب
في المصادر التاريخية والأدب الشعبي
دراسة مقارنة

د. سماح عبد المنعم السلاوي

دكتوراه تاريخ إسلامي وسيط

جامعة عين شمس

جمهورية مصر العربية



مُلَخّصْ

تتناول هذه الدراسة شخصية السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب من خلال اتجاهين؛ أحدهما يمثله المصادر التاريخية المعاصرة التي تناولت سيرة الصالح نجم الدين أيوب سواء كانت سيرة منفردة أو مؤلفات اهتمت بالحديث عن سلاطين وأمراء بنى أيوب بصفة عامة، والاتجاه الآخر يمثله الأدب الشعبي الذي يداعب خيال ووجدان الإنسان. وهذه الدراسة من ناحية أخرى تحاول تحديد نوع العلاقة بين الأدب والتاريخ؛ فهل هي علاقة ترابط وانسجام أم تنافر وتناقض؟ حيث رفض الكثير من الباحثين فكرة الاعتماد على السيرة الشعبية كمصدر من المصادر التاريخية الموثوق فيها للحصول على مادة علمية دقيقة، نظرًا لأن الأدب الشعبي هو أدبًا شفاهيًا ليس مدونًا ولذا يتعرض للتحريف والتبديل بالزيادة أو النقصان. وعلى هذا النحو يمكن لهذه الدراسة أن تبين شخصية الصالح نجم الدين أيوب الروائية والتي اختلفت في بعض ملامحها عما استقرت عليه في أذهان المتلقين بحكم موقعها التاريخي، فقد بدت شخصيته ذات إرادة صلبة تنمو بنمو الأحداث، ونظرته تتجاوز الحاضر إلى المستقبل، وهو في صراع مستمر مع منافسيه حتى صار رمزًا للتصدي لأطماع الأمراء الأيوبيين والصليبيين حتى توفى في أرض المعركة، فكيف إذا صيغت سيرته وحياته في السيرة الشعبية؟ ولذا اتبعت منهج السرد والمقارنة بين المصدر التاريخي والسيرة الظاهرية. وقد توصلت الدراسة إلى أن الرؤية الشعبية لحياة الصالح رسمت له صورة تكاد تكون منسجمة ومتفقة مع المصادر التاريخية، فجعلت الصالح نجم الدين رجلاً صوفيًا زاهدًا في الدنيا، كما كان منشغلاً بحماية العالم الإسلامي من الخطر الصليبي ويبدو أن ذلك شغل بال الراوي الشعبي أيضًا فصار يشحذ سنان قلمه في مدحه ووصفه بصاحب الكرامات واعتبره ولى من أولياء الله الصالحين وجعله البطل المغوار في مواجهة الصليبيين والمغول، وعلى العكس تمامًا تجاهلت السيرة الشعبية ذكر أبيه السلطان العادل الذى تنازل عن بيت المقدس للصليبيين فكان ذلك بمثابة الطامة الكبرى على العالم الإسلامي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٦ يوليو ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ٢٠ أغسطس ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

المماليك؛ المغول؛ الصليبيين؛ التصوف؛ الكامل الأيوبي؛ الخوارزمية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.184696

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سماح عبد المنعم السلاوي، "سيرة السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب في المصادر التاريخية والأدب الشعبي: دراسة مقارنة".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ٣٨ – ٥٤.

Corresponding author: samah.elsalawey gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info kanhistorique.org

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

في البداية يجدر بنا أن نضع بعض الخطوط العريضة لهذه الدراسة فقد قسمت إلي: أولاً: مقدمة كمدخل للموضوع وتوضيح أهميته وما قدمه السابقون فيه. ثانيًا: تمهيد للتعريف بالسيرة الظاهرية وأهميتها كمصدر تاريخي. ثالثًا: مجمل سيرة الصالح نجم الدين أيوب في السيرة الظاهرية. رابعًا: أهم قضايا سيرة الصالح نجم الدين أيوب ودلالاتها التاريخية. خامسًا: شخصيات وأحداث مهمة أغفلتها السيرة ولماذا لم يهتم بها الراوي الشعبي؟ (محاولة للتفسير). سادسًا: خاتمة تتضمن أهم ما توصلت إليه الدراسة.

هناك بعض البحوث الأكاديمية التي تناولت حياة الصالح نجم الدين أيوب ودوره العظيم في توحيد مصر والشام واستعادة معظم الأراضي التي استولى عليها الصليبيون في الساحل الشامي وعلى رأسها القدس الشريف، وصراعه المستمر مع أعمامه وأبنائهم للوصول للسلطة، وكذلك نجدته للخليفة العباسي من خطر التتار، ناهيك عن تصديه للحملة الصليبية السابعة رغم صراعه مع مرضه الشديد، ولكن لم يمهله القدر الوقت الكافي ليرى ثمرة جهده لحماية العالم الإسلامي. وهنا بدت شخصية الصالح نجم الدين أنها ذات إرادة صلبة قوة تنمو بنمو الأحداث ونظرته تتجاوز الحاضر إلى المستقبل، وهو في صراع مستمر حتى صار رمزًا للتصدي لأطماع الأيوبيين وظهر بمظهر المجاهد الذي يدرك واجبه حقًا نحو أمته في صراعها ضد الصليبين.

ومن هذه البحوث: فريد وحيد، جهاد الصالح نجم الدين أيوب في توحيد مصر والشام، محمد يونس، الملك الصالح نجم الدين وعلاقته بالقوى السياسية، فواز نصرت، مدينة دمياط وأهميها في الحروب الصليبية، بالإضافة إلى دراسات أخرى، وفى الأدب هناك رواية شجرة الدر لمحمد سعيد العريان ورواية أخرى تحمل نفس العنوان لعبد السلام العشري. وهكذا رآه التاريخ ولكن كيف نظر إليه العامة؟ وماذا شكلت حياة الصالح نجم الدين أيوب في الوجدان الشعبي؟ من هنا جاءت فكرة هذا البحث لتنظر فيما حمله العقل الجمعي للشعب المصري حول سيرة هذا السلطان، وبخاصة أن هذا العقل الجمعي قد مجد كثيرًا من الأبطال السياسيين والشعبيين في سير ضخمة، وصلت أحيانًا إلى آلاف الصفحات منها السيرة الهلالية، وسيرة الظاهر بيبرس، وسيرة عنترة بن شداد، وسيرة سيف بن ذى يزن وغيرها.

وقبل الحديث عن الدراسة يجب أن نوضح أمرًا وهو تردد المؤرخون طويلاً قبل اعتماد الموروث الشعبي مصدرًا من مصادر البحث الأكاديمي في مجال الدراسات التاريخية، حيث نظروا إلى الموروث الشعبي من السير والملاحم على أنها مجرد ضرب من الأساطير تتناسب مع بساطة فكر العامة، ومن ثَمَّ لا يركن إليها في البحث التاريخي الجاد. غير أن التطور الديمقراطي والاشتراكي فيما بين الحربين العالميتين، وما صاحبه من الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي قد أديا إلي ظهور اتجاه جديد في مجال الكتابة التاريخية عده البعض ثورة تاريخية تجلت في الربع الأخير من القرن العشرين، وأهم مبادئ هذه الثورة أن التاريخ ليس مرادفًا لسير الحكام وحروبهم، لكنه مرادف لمسيرة البشر الحضارية على سطح كوكب الأرض، منذ أن وطأته قدم الإنسان وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، وعلى هذا فكل ما صدر عن البشر، أيًا كان خيرًا أو شرًا، ماديًا كان أو معنويًا، جزء من التاريخ له دلالاته وأهميته ويجدر دراسته والاستفادة منه مهما كان صغيرًا أو كما يبدو غير جدير بالملاحظة.[١]

ولذا وجب علينا توضيح ماهية السيرة الشعبية العربية وكيفية الاعتماد عليها كمصدر تأريخي مهم، ثم التعريف بالسيرة الظاهرية؛ فالسيرة الشعبية العربية فن أدبى أبدعته العقلية العربية في فترة من فترات تاريخها وقد جاء يلبى حاجة المجتمع الذى أفرزه، وهو فن قصصي له خصائصه التي تجعله يختلف عن جميع أنواع القصص العربي وهى ليست أسطورة أو خرافة رغم إغراقها في الخيال وليست حكاية شعبية تتناول حياة الناس، كما أنها ليست ملحمة رغم اشتمالها في أجزاء معينة على الملاحم خاصة في الحروب التي يخوضها البطل في الدفاع عن أمته كما أنها ليست رواية بالمفهوم الحديث[٢]، ويشاركه الرأي أحمد شمس الذى يرى أن "السيرة فن نبت وتطور وارتقى قبل أن تظهر الرواية وهى فن قائم بذاته بين الأنواع الأدبية فإضافة لفظ رواية لعمل له قوانينه الخاصة التي استقرت والرواية لم تستقر بعد له عدة سمات تتطور والسيرة الشعبية فن له قواعده المكتملة ولذا لا يمكن تطبيق قواعد فن ما على فن لم يكتمل بعد.[٣]

هذا وتعتمد السير الشعبية عامة على جذور تاريخية حقيقية فما من سيرة من السير إلا وتدور حول بطل كان له وجود في التاريخ يومًا ما وقام بأفعال جليلة وخاض حروبًا ومعارك في سبيل قيم سامية مما جعل شهرته تسبقه إلى كل مكان. وهذه الجذور التاريخية تعتبر النواة الأولى التي يقوم الفنان الشعبي ببناء سيرته عليها فهو يرى الحقيقة التاريخية شيئًا

أشبه بهيكل عظمى فيكسوها بخياله الفني لحمًا وينفخ فيه الروح الإبداعية، ومن المهم أن نشير إلى أن الحدث التاريخي حينما يعود إلينا حيًا بفضل الإبداع الفني لا يعود بصورته التاريخية الدقيقة ولكن في الإطار العام للقيم والمثل والأخلاقيات التي يمثلها الفنان تعبيرًا عن المجتمع.[٤]

فالفنان الشعبي يأخذ الحدث التاريخي ويضيف إليه من خياله وقائع وأحداثًا كثيرة ويعتمد في ذلك على بقايا الأساطير والخرافات ليلبى حاجة ثقافية ونفسية للشعب صاحب المصلحة، وبالتالي فالسيرة ليست مقيدة بترتيب الأحداث التاريخية بل تقوم على حرية الاختيار التي يمنحها الفنان لنفسه، كما تقوم على الربط بين الأحداث التي ينتجها الراوي، ولأن الفنان الشعبي لا يهمه الحدث التاريخي بقدر ما يهمه تلبيه رغبة الشعب الذى يسمعه لذلك سرعان ما يتغلب الخيال على موضوعية الحدث التاريخي ليصور لنا تاريخًا جديدًا يعيشه الشعب[٥]، ، ويرى الدكتور قاسم أنه " إذا كان التاريخ يسجل سير الحكام والقادة والنبلاء، وشئون الحرب والسياسة ويسرد الأحداث، وهو ما نسميه بالتسجيل التاريخي للتاريخ فالموروث الشعبي يجسد عاطفة العامة ورؤيتهم للأحداث والقيم والمثل والأماني والتطلعات للمستقبل التي تتمناها الجماعة، كما أنه يدور حول عادات وتقاليد المجتمع وأخلاقه، ويعد نواة التاريخ ؛ إذ يحمل تفسيرات لأحداث تاريخية ويحكى عن أبطال تاريخيين بأسلوب مثقل بالخيال والرموز الشعبية التي تخدم أغراض العامة، وبذلك يمكن أن نصف الموروث الشعبي بأنه نوعٌ من القراءة الشعبية للتاريخ موازية للقراءة التاريخية ذاتها ؛ بمعنى أنه يعكس رؤية الجماعة لتاريخها وهو ما نسميه أيضًا بالتسجيل الشعبي للتاريخ، وفيه نجد الفنان الشعبي يعبر بقسوة شديدة عن الكراهية الشعبية لمن يقف ضد مصلحة الناس، وأمانيهم وضد مَنْ يتسبب في إيذائهم ويدين من يخون المثل العليا والقيم التي تمثل النظام الأخلاقي للمجتمع [٦]

والحقيقة أن فكرة الاعتماد على السيرة الشعبية قد وصل متأخرًا إلي عالمنا العربي وربما يكون بطء الحراك السياسي له دور في هذا التأخر لكنها على أي حال وصلت، وبدا هناك اتجاه متزايد بمجال التاريخ الاجتماعي، ومن ثم حدث تطور في الأدوات التي يعتمد عليها المؤرخ، ذلك أن التاريخ الاجتماعي يهتم بالتركيب الاجتماعي والبناء الطبقي والعادات والتقاليد والحرف والأسواق، والمصادر التقليدية للتاريخ لا تفي بتغطية كل هذه النواحي، ومن ثَمَّ لجأ المهتمون بالتاريخ الاجتماعي إلي استخدام أدوات جديدة ومصادر غير تقليدية في معالجة هذه الموضوعات ومن بين هذه المصادر السير الشعبية[٧]، وبالتالي فالسيرة الشعبية جزء من الموروث الشعبي الذى يشكل عالمًا رحبًا من ذاكرة الأمم، ويتكون من عناصر متشابكة من الموروث الحضاري والبقايا السلوكية والأقوال التي رسخت في عقول ونفوس البشر منذ فترات طويلة، كما يضم البقايا الأسطورية والفولكلور وفقًا لبيئته سواء كان باللغة العربية الفصحى أو باللغة العامية، وبالتالي فالتراث الشعبي إبداع عفوي أصيل يحمل ملامح الشعب ويحفظ سماته ويؤكد عراقته ويعبر عن همومه وأحلامه وآماله على مختلف مستوياتهم. وفي هذا السياق تأتي صورة الملك الصالح نجم الدين أيوب في السيرة الظاهرية. وفيما يتعلق بالدراسات السابقة حول هذا الموضوع، فقد ألمح إليه الدكتور قاسم في الفصل الخامس من كتابه "بين التاريخ والفلكلور" المعنون باسم "الشخصيات التاريخية في سيرة الظاهر بيبرس"[٨].

أولاً: التعريف بالسيرة الظاهرية

أما عن السيرة الظاهرية فتنسب إلي السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري، الذي حكم سلطنة المماليك خلال الفترة الممتدة فيما بين عامي (٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٧م) وقد وصل إلينا عدد من السير الرسمية التي دونها مؤرخون كانوا على صلة مباشرة بالظاهر بيبرس: الأولى الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر لمحيي الدين بن عبد الظاهر (ت. ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م)[٩]، الثانية حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية لشافع بن علي الكاتب (ت. ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م)[١٠]، وتاريخ الملك الظاهر لعز الدين بن شداد (ت. ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) [١١]. أما السيرة الظاهرية التي هي مصدر للصورة الشعبية لموضوعنا، فملحمة شعبية ضخمة، دارت حول شخصية السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، أو تاريخ الملك العادل صاحب الفتوحات المشهورة (السلطان محمود الظاهر بيبرس) ملك مصر والشام، وأعماله البطولية التي قام بها ذودًا عن الإسلام وتصديًا لأعدائه من الصليبيين والمغول.

وهذه الملحمة في الأصل رواية شفهية يختلط فيها التاريخ بالخيال، ولا نعلم على وجه التحديد تاريخ تدوينها، لكن من الواضح من خلال مطالعة السيرة أنها دونت في القاهرة في العصر المملوكي وتطورت ونمت عبر السنين إلي أن أخذت شكلها النهائي في بدايات الحكم العثماني لمصر على الرغم من أن غالبية أحداث السيرة تجري في مصر، وأبطالها مصريون يتكلمون باللهجة المصرية ويستخدمون الأمثال الشعبية

المصرية، إلا أن أحداثها مع ذلك تغطي رقعة واسعة من العالم الإسلامي وشمال البحر المتوسط.

ويري الباحث الفرنسي فرانسيس جينل أن السيرة الشعبية للظاهر بيبرس قد بدأت في الظهور في القرن السادس عشر الميلادي، ومع انتشار المقاهي على نطاق واسع في القرن الثامن عشر الميلادي، صارت ملجأ للحكواتية سواء في مصر أو الشام ومن ثم صار لدينا عدة روافد لهذه السيرة الشعبية: الرافد الأول دمشقي والرافد الثاني حلبي والرافد الثالث قاهري ويؤكد جينل على أن الروايات الثلاث لا تختلف عن بعضها كثيرًا من حيث القصة أو الحبكة لكن هناك بالطبع اختلافات طفيفة من جراء اختلاف جغرافية المكان.(١٢) على أية حال فالمساحة الزمنية للسيرة امتدت إلى نحو قرنين ونصف من الزمان تعاقب خلالها مالا يقل عن ٤٥ سلطانًا.

وما يعنينا هنا الرواية المصرية التي طبعت في خمسين جزءًا، وزعت على خمسة مجلدات، كل منها يحوي ستمائة صفحة تقريبًا، وهي في الأصل تدوين لرواية شفهية مليئة بالأشعار المرتجلة والكلمات العامية، وهي الطبعة التي اعتمدت عليها في هذا البحث.(١٣)

ثانيًا: مجمل سيرة الصالح نجم الدين أيوب في السيرة الظاهرية

في البداية آثرت أن أقدم مجملاً للسيرة بالترتيب الذي ورد في السيرة الظاهرية، حتى يكون لدى القارئ خلفية أو صورة متكاملة عن الشخصية والأحداث تمكنه من تتبع الدلالات التاريخية لهذه الصورة.

يقول الراوي الشعبي أنه أثناء مرض صلاح الدين الأيوبي جعل ولده الملك الكامل الأيوبي نائبًا عنه في الحكم وبعد وفاته تولى السلطة رسميًا، وقد أنجب ولداً سماه نجم الدين الذى تربى ونشأ في مصر وكان عارفًا بأمور السياسة والحكم والشريعة، وكتب له أبوه الكامل وصية بتولي العرش من بعده، ثم تزوج نجم الدين وأنجب الصالح وأطلق عليه الصالح نجم الدين، وكان محبوبًا لدى والده الذى بدوره كتب له وصية في يوم مولده بولاية العهد من بعده وشهد عليها الأمراء والأعيان، وقد عاش الأب نجم الدين إحدى عشرة سنة وقيل تسعًا وقيل سبعًا ولكن الراوي الشعبي يرجح أنه عاش تسع سنوات، ثم توفى وتولى الصالح نجم الدين أيوب حكم البلاد.

ثم تصف لنا السيرة الصفات الطيبة في الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وصار أكثر تدينًا وإيمانًا فأحبه الأكراد وسموه الصالح نجم الدين أيوب ولى الله المجذوب، ولذلك كان كلما خرج من قصره يلتف حوله الأكراد وهم يرتدون ملابس الصوفية وتتوالى السنوات والصالح نجم الدين يحكم بالعدل والشرع بين الناس، وذات يوم إذا بأربعة رسل يأتون إليه في القلعة ويخبرونه بأنهم رسل السيدة فاطمة شجر الدر بنت أمير المؤمنين المقتدر بالله وأنها المالكة الحقيقة لمصر بحجة من أبيها الخليفة وليست ملكًا للأكراد ولها الحق في تولية من تريده، فغضب الصالح نجم الدين من ذلك وخاصة بعد تأكده من صدقها فيأمر وزيره بمقابلتها ويطلب منها الحضور إلى القصر، وتم اللقاء بين شجر الدر والصالح نجم الدين وعندما وجدها مصممة على استعادة أرض مصر فلم يجد مفرًا من طلب منها الزواج ليضمن بقاء السلطنة في يده ولبنى أيوب من بعده كما نصحه وزيره، ولكنها رفضت في بادئ الأمر، و يتدخل الخيال الشعبي ويستغل الصالح نجم الدين ولى الله المجذوب كراماته تجعلها توافق على الزواج، وتظل طوال اثنى عشر عامًا تحج سنويًا إلى الحجاز وهى بكر عذراء ثم يتم الزفاف في مسجد الحسين.

ويبدو أن شهرة الصالح نجم الدين أيوب ولى الله المجذوب في الزهد والعبادة وترك شهوة السلطة والحكم جعلت الملوك من حوله يحاولون انتهاز الفرصة للاستيلاء على مصر ومنهم ملك الموصل المسمى أيبك التركماني الذى وصل إلى حلب فقام نائبها بإغلاق الأبواب ومحاربته حتى أصابه الله بالمرض وهلك معظم جيشه، ولكن الملك الصالح الرجل الفقير المكشوف عنه الحجاب يعلم بحملته فيأمر بفتح أبواب حلب، ولا يعترضه إذا أراد المسير إلى جهة مصر والشام معتمداً على الله القدير، وخلال مسيرته يتعرض أيبك وجيشه للمتاعب بفضل كرامات الصالح نجم الدين حتى يصل أيبك التركماني إلى مصر ويطلب الصفح والغفران من الملك الصالح نجم الدين أيوب ويؤمن بكراماته فيصفح عنه ويوليه وزيرًا.

ثم يشعر الصالح نجم الدين أيوب بالخطر فيأمر على الفور بضرورة شراء عدد كبير من المماليك وحدد لتاجر الرقيق الصفات المطلوبة في المماليك وجنسياتهم وصفات مميزة لمملوك وحيد وهو بيبرس الذى يتربى في كنف الصالح نجم الدين أيوب ويواجه شدائد ومؤامرات من الأمير أيبك والقاضي المزيف جوان، ولكن العناية الإلهية تنقذه كل مرة وكذلك كرامات الملك الصالح، حتى يأتيه الخبر من حلب بوصول المغول إليها وعدتهم اثنان وثمانون ألف فارس مع الخان هلاوون بن منكتمر يريدون اقتحام المدينة والاستيلاء على بلاد الشام وحاكم حلب يطلب المساندة من سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب

والذى بدوره أرسل الأمير بيبرس وأيبك وقلاوون لنجدة حلب ومحاربة المغول، وأثناء السفر وعند قلعة العريش وجد بيبرس كمين أعده له الملك فرنجيل الصليبي لينتقم منه بعد أن قتل ابنه توما، ولكن بيبرس يتغلب عليه ويكمل مسيرته إلى حلب ثم يحاول أيبك الاتفاق مع المغول للتخلص من بيبرس فى حين يقوم عيسى الناصر شرف الدين حاكم الشام بغلق الأبواب في وجه بيبرس، ثم يسافر الملك الصالح إلى الشام ويسجن عيسى الناصر ويتقدم إلى حلب بنفسه ليتابع سير المعركة ويشارك فيها ومعهم الفداوية أولاد إسماعيل والتي انتهت بانتصار بيبرس على المغول وهروب هلاوون.

ويحظى بيبرس بمكانة مميزة لدى الملك الصالح الذى يسانده ويأتي له في منامه عدة مرات ويظهر كراماته ويقف بجواره في كل محنة ويتنبأ بمستقبله الباهر وبأنه سيصبح سلطانًا على البلاد من بعده ومن يتولى قبله سيقتل على الفور، وتتوالى الأحداث ويقوم القاضي المزيف بإرسال خطاب مزيف باسم ملك القسطنطينية إلى الصالح نجم الدين أيوب يهدده بأنه إذا لم يعيد فتح كنيسة القيامة سوف يرسل حملتين برية وبحرية للإسكندرية، فغضب الملك الصالح وأرسل بيبرس وأيبك والجيش المملوكي والفداوية أولاد إسماعيل لإحضار ملك القسطنطينية، ويتعرض بيبرس وجنوده لمخاطر البحر ومؤامرات أيبك والقاضي المزيف لكنه ينجو بفضل دعوات الصالح وكرامات الأولياء الصالحين ثم يتقاتل مع ملك أنطاكية الفرتماكوس ويحضره أسيرًا مع ميخائيل حاكم القسطنطينية إلى الصالح نجم الدين أيوب.

ويقوم الراين حنا ملك جنوة بإرسال قراصنته للإغارة على شاطئ الإسكندرية ويستولى على بضائع التجار، ويسافر بيبرس للتحقق من الأمر، وهناك يجد القاضي جوان المزيف وأتباعه فيتم وضع بيبرس في صندوق وإرساله إلى جنوة، وعندما علم الصالح نجم الدين ذلك جمع أولاد عمه الأكراد الأيوبية والأمراء المصريين وسافروا إلى الإسكندرية، وقرر الصالح ركوب البحر لجنوة وإنقاذ بيبرس من الأسر، وفى هذه الرحلة يواجه مخاطر ومهالك فيساعده القطب سيدى عبد الله المغاورى ويأمره باستدعاء أبا بكر البطرنى وأولاد إسماعيل فيستعد الصالح للسفر وبفضل بركات الأولياء الصالحين ويعود الصالح نجم الدين وبيبرس من جنوة.

وفى الإسكندرية يُصاب الملك الصالح نجم الدين أيوب بالمرض، وصار يرتعد ويشكو من الألم ومازال كذلك حتى وصل مصر فدخل من غير زينة وظل مريضًا في رعاية زوجته شجر الدر وطال به الحال وقبل وفاته صلى الجمعة في مسجد الحسين وأراد الجلوس في الديوان كالعادة ولكنه لم يقدر لشدة مرضه وكتب وصيته بتوليه بيبرس حكم مصر بعد وفاته.

وأرسل الأمراء إلى عيسى توران شاه ابن الصالح نجم الدين ليخبروه بوفاة ابيه وانه أحق بالمُلك وعلى الفور حضر توران شاه وبايعه الأمراء، ولكنه لم يكن مثل والده على قدر من التقوى والورع بل كان يشرب الخمر ولا يعلم من أمور السياسة والحكم شيء، وعندئذ جاءت الأخبار من بوصول حملة عسكرية فرنجية مكونة من أربع ملوك فجهز بيبرس الجيش واستعد للسفر إلى دمياط أما جوان فقسم جيشه إلى أربع فرق ؛ فرقة تتجه الى المنصورة والثانية الى دمياط والثالثة إلى فارسكور والرابعة إلى البركون نجدة لكل من طلبها وفى اليوم التالي دارت المعركة واستمرت عدة أيام فقام بيبرس بالالتفاف حول جيش العدو ومات منهم الكثير وهرب الباقون وتبعهم حتى المنصورة ووقع القتل والنهب وانهزم الكفار في البر والبحر، ثم هربوا إلى فارسكور واقتتلوا مرة أخرى حتى قتل الملوك الأربعة وانتهت المعركة بانتصار الجيش المصري.

ويموت تورانشاه مقتولاً نتيجة وقوعه من التختبوش سكيرًا، ويتم اختيار ابنه الخليل فيرى في منامه جده الصالح نجم الدين ينبئه بأنه سيموت مقتولاً وبالفعل يقوم الأمير أيبك بقتله بالسم، ثم يتولى ابنه الصالح الصغير ويختار بيبرس وصيًا على العرش ومعه شجر الدر، ولكن الخليفة يرفض توليتها الحكم فتتزوج من أيبك ولكنه ظل حاقدًا على بيبرس، فيتهم شجرة الدر وبيبرس بوجود علاقة آثمة بينهما، فانتابتها نوبة عصبية حادة، ولما نامت جاءها الصالح أيوب في الحلم مرة أخرى وأمرها بقتل أيبك بالسيف. فلما استيقظت أحضرت السيف وضربته به فراح يصرخ مستنجدًا بابنه أحمد، ولكن عندما وصل أحمد إلى الغرفة كان أيبك قد فارق الحياة، فهجم على شجرة الدر ولكنها أفلتت منه وظل يطاردها إلى أن سقط بها سور سطح القلعة فهوت وماتت. ثم أتى الوزير شاهين والحراس وقبضوا على أحمد وألقوا به في السجن. ويعود بيبرس إلى مصر فيتولى حكم مصر ويحارب الصليبيين ويهزمهم.

ثالثًا: أهم القضايا في السيرة ودلالاتها التاريخية

٣/١-اسمه ونسبه ونشأته وتوليه الحكم

تذكر لنا السيرة بأن الكامل الأيوبي تولى الحكم مباشرة بعد وفاة أبيه صلاح الدين وقد أنجب ولدا سماه نجم الدين أيوب وقد " نشأ وترعرع وقرأ القرآن وختمه وبعد ذلك طلب الأحكام

وعرف الحلال والحرام وصار فطينًا وعارفًا بأحكام السياسة والشريعة والرئاسة كتب له أبوه الكامل حجة بالسلطنة بعد وفاته"[١٤]، تزوج وصار لديه ولدًا فسماه الصالح وكناه بنجم الدين أيوب وقد أحبه أبوه محبة عظيمة فكتب له حجة السلطنة في يوم مولده وأمرهم أن يكتبوا له حجة لا يكون من بعده إلا ولده الصالح نجم الدين أيوب فأجابوه أرباب الدولة بالسمع والطاعة..... وكان الملك الصالح قد زهد الدنيا ورغب في الآخرة وقرأ القرآن وعرف ما فيه من البيان وعرف الحلال والحرام فعبد الملك العلام وصار من عباد الله الصالحين وهو من صغر سنه على الفلاح واليقين ولا يجالس الدولة ولا يحضرهم في حكومة"[١٥]، ومن هنا نفهم أن الراوي الشعبي اختلط عليه الأمر فجعل الصالح نجم الدين حفيد الكامل الأيوبي وأن توليه السلطة كان أمراً ميسوراً سهلاَ بوصية من أبيه وبأنه لم يكن يجيد الحكم والسياسة ولا يعلم من أمور السلطنة شيء فهو متعبد زاهد عن الدنيا والشهوات، والراوي هنا ليس دقيقًا في وصفه ؛ فهو السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب أبو الفتوح بن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي الأيوبي سلطان الديار المصرية وأمه جارية سوداء تدعى ورد المنى[١٦] وقد ولد بالقاهرة عام ٦٠٣هـ ونشأ بها.

وقد واجه صعوبات ومصادمات مع أخيه وأعمامه وأبنائهم للوصول للحكم، فعندما بلغ الثانية والعشرون من عمره استنابه أبوه على مصر ووصفه بالملك الصالح في شعبان ٦٢٥هـ حينما كان متوجهًا لحصار الناصر داود بالشام[١٧] وفى ذلك الوقت قام الصالح نجم الدين بشراء ألف مملوك واستغلت أم العادل زوجة أبيه تلك الفعلة وأوهمت للكامل الأيوبي أنه عازم على الاستيلاء على الحكم[١٨] وأنه أخذ المال من التجار ومن بيت المال وطلبت منه سرعة العودة وما أن وصل مصر حتى أمر بتنحية الصالح عن ولاية العهد[١٩] ومال إلى ابنه الأصغر في ولاية العهد في حين عين الصالح نجم الدين على بلاد سنجار وآمد وحصن كيفا[٢٠] وعندما توفى الكامل اتفق الأمراء على أن يتولى الصالح نجم الدين نائبًا في الشرق وديار بكر وأخيه الأصغر العادل سلطان الدولة الأيوبية والملك الجواد مظفر الدين يونس نائبًا بدمشق.[٢١]

أما قضية توليه حكم الدولة الأيوبية فكان محفوفًا بالصراعات والمؤامرات وتعرض للموت والخيانة والسجن في كل خطوة نحو الوصول للسلطة باعتبار أنه الأخ الأكبر وكان نائبًا عن أبيه في مصر فهو أحق بولاية العهد لولا وشاية زوجة أبيه لما تعرض للمهالك، ولذا من الأجدر أن نتعرف على ظروف توليه الحكم وكيف تغلب على أعداءه لندرك سويًا حجم المعاناة التي عاشها الصالح نجم الدين فجعلت منه بطلاً في نظر العامة.

وتبدأ الأحداث باستسلام الملك الجواد عن دمشق نظرًا لضعفه وعدم قدرته على حكم البلد ووافق الملك العادل أبو بكر على تنازله عن دمشق وقايض الصالح نجم الدين دمشق بسنجار وعانه وحصن كيفا في ٦٣٦هـ[٢٢] ولكن الملك الجواد شعر بالندم وأراد استرداد دمشق فاحتدم الصراع مع الصالح نجم الدين واستعان كلاهما بالمساعدة الخارجية ولكن تدخل ابن جرير فأصلح الأمر بينهما وعادا لما اتفقا عليه من قبل[٢٣]، ثم بدأ الصالح يستعد لانتزاع السلطة من أخيه الأصغر وسار على رأس قواته متوجها إلى مصر وفى طريقه دخل في صراع عسكري مع الملك الناصر داوود صاحب حماة أسفر عن استيلاء الصالح عليها فتوجه الناصر داوود إلى مصر لمساندة العادل[٢٤] وفى أثناء تلك الأحداث وصلت مجموعة من الأمراء المصريين يرغبون في خدمة الصالح نجم الدين ومساندته وصاروا يحثونه على التوجه لمصر فهم يرونه أكبر سنًا وأحسن سيرة وأعظم هيبة وأجدر بالحكم[٢٥].

وظهر على الساحة عمه الصالح إسماعيل حاكم بعلبك والذى أوهمه بالوقوف بجانبه لاستعادة حقه في حين أنه كان ينوى الاستيلاء على دمشق[٢٦] والصالح ينتظره في نابلس ولكنه ظل يماطل ويتقاعس عن دعمه وخرج من بعلبك وقد تهيأت له الظروف فخرج بجيشه مدعيًا سفره إلى نابلس لدعم الصالح نجم الدين في حين أنه اتجه مع أسد الدين شيركوه حاكم حمص نحو دمشق واستولى عليها في ٦٣٧هـ[٢٧] فوصلت الأخبار إلى الصالح نجم الدين في نابلس فاتجه إلى دمشق واستعان بعميه مجير الدين وتقى الدين ولكن سرعان ما خذلوه ووقفوا بجانبه عمه الصالح إسماعيل خوفا على أبنائهم المعتقلين في قلعة دمشق[٢٨]، أما الصالح نجم الدين فقد عاد إلى نابلس وتعرض لهجوم قبائل الغور والعشران واستولوا على بعض أثقاله واستولى هو على خيولهم بعد سفك الدماء بين الطرفين[٢٩]، وهكذا تخلى عنه بعض الأمراء الأيوبيين وتركه بعض الجند والعسكر لأنه أصبح بلا سند ولا ملجأ وأمره سيتلاشى قريبًا.

وزادت الأوضاع سوءًا وتفاقم الأمر خاصة عندما رحل الناصر داوود من مصر بغير رضا الملك العادل مغاضبًا له فوصل الكرك [٣٠] وعلم الناصر بوجود الصالح نجم الدين في نابلس فأرسل قواته ليلاً فاعتقلوه بالحيلة والخداع مُهانًا على " بغلة بغير مهماز ولا مقرعة وساروا به إلى الموتة غرب الكرك في ثلاثة

أيام ولم يأكل شيئًا... ثم ادخلوه حبس الكرك ووكلوا به مملوكًا فظًا غليظًا" [٣١] وظل في الاعتقال سبعة أشهر.

وأرسل الملك العادل إلى الناصر داوود يطلب منه إخراج أخيه الصالح من الحبس مقابل مبلغ كبير من المال فرفض طلبه[٣٢] وتدخل الخليفة العباسي وبعض ملوك بنى أيوب والعسكر لإطلاق سراح الصالح نجم الدين فامتنع عن ذلك ولكنه وبعد عدة مفاوضات وافق الناصر واشترط على الصالح أن يطلق سراحه في مقابل أن يأخذ دمشق وحمص وحماه والجزيرة والموصل وديار بكر ونصف مصر ونصف الخزائن والخيل والثياب، فوافق الصالح تحت القهر والسيف[٣٣] ولم يكن أمام الملك العادل خيارًا إلا محاربة الناصر فاجتمع ملوك بنى أيوب من مصر ودمشق وخرج العادل من مصر متجها إلى بلبيس والصالح في غزة وبدا واضحًا أن موقف العادل أقوى من الصالح نجم الدين وخاصة بعد مساندة الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم للعادل وهنا أدركا الصالح نجم الدين والناصر داوود بخطورة الوضع وندم الناصر على إطلاق سراحه وأراد إعادة سجنه ومصالحة العادل ولكن أخيرا تحسنت الأحوال حيث اضطرب جيش العادل لسوء معاملته فقد كان مشغولاً باللهو واللعب وتفضيله جماعة لا يصلحون كما أعرض عن أكابر الدولة وعظمائهم فأدى إلى نفور الأمراء والأكابر منه وهنا اتفق الأمراء الأشرفية والمماليك الكاملية على القبض على العادل ومراسلة الصالح نجم الدين للمجيء إلى مصر فسار اليهم على الفور وتسلم أخيه العادل في قبضته[٣٤] ودخل السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة الجبل في ذي القعدة ٦٣٧هـ. وهكذا خضعت البلاد للصالح نجم الدين بعد صراع طويل مرير مع أبناء البيت الأيوبي مما يدل على تمتع الصالح نجم الدين بالصبر وقوة التحمل والشجاعة.

٢/٣-استخدام الصالح نجم الدين أيوب للمماليك

شكل المماليك في الجيش الأيوبي العنصر الأساسي فيه وشغلوا مساحة في السيرة الشعبية وكان لهم دور سياسي وعسكري مع الصالح نجم الدين ولكن كيف جاءوا الى مصر؟ تروى السيرة الظاهرية أن الملك الصالح شعر بالخطر بعد رؤيته لمنام يرى فيه الضباع تهاجمه وهو وحيدًا في صحراء قاحلة وفجأة يظهر أمامه خمسة وسبعون أسدًا يتقدمهم أسد أكبر حجمًا وقوة فتدور معركة بين الضباع والسباع الذين افترسوا الضباع وأبادوهم نهائيًا وعندما أفاق من نومه استدعى مفسري الأحلام فأخبروه أن الضباع هم أهل الكفر والضلال الذين يرغبون في الاستيلاء على بلاد المسلمين، أما السباع هم أهل الإسلام، فأمر على الفور بضرورة شراء عدد كبير من المماليك وحدد لتاجر الرقيق الصفات المطلوبة في المماليك وجنسياتهم وأختص أحدهم بصفات خاصة مميزة[٣٥] والذى يتبين لنا فيما بعد أنه الظاهر بيبرس فيتبناه الملك الصالح وزوجته فاطمة شجر الدر ليصبح ولدًا لهما ويكون للملك الصالح الفضل في وصول بيبرس إلى الحكم بعد وفاته.

وبهذا أعطى الراوي الشعبي مبررًا لوجود المماليك في مصر وربما يعود ذلك إلى كراهية الشعب المصري للمماليك واتضح ذلك جليًا في أحداث السيرة وفى الواقع التاريخي أيضًا ولذلك قام الشعب بالثورات ضدهم نتيجة لسوء المعاملة وتقسيم المجتمع إلى طبقة عليا هي المماليك أصحاب السلطة وطبقة العامة التي عانت كثيرًا من الفقر والعوز والحاجة نتيجة سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في الدولة، على أيه حال تكشف لنا المصادر التاريخية أن سبب اعتماد الملك الصالح نجم الدين أيوب على المماليك يرجع إلى أنه استاء من تصرفات الأكراد أثناء نيابته عن أبيه في مصر فعزل بعضهم وحل محلهم المماليك الأتراك تدعيما لحكم والده الذى لم يكن واثقا هو الأخر في الأكراد الأيوبية[٣٦] ثم بعد تولية السلطة اعتنى كثيرا بشراء المماليك الأتراك والتركمان والأرمن والجركس وغيرهم [٣٧] وسبب ذلك هو خوفه من اجتماع أمراء البيت الأيوبي ضده وانقلابهم وغدرهم به وكذلك خشيته من انقلاب الكاملية والاشرفية عليه[٣٨]، ومع مرور الوقت أثبت المماليك شجاعتهم وبراعتهم القتالية وسرعان ما شكلوا نواة عسكرية سياسية في الجيش ومنحهم الحرية دون الطوائف الأخرى فعاثوا فسادًا في القاهرة وضج الناس منهم نتيجة اعتدائهم على المال والنفس فقالوا:

الصالح المُرتضى أيوب أكثر من.... ترك بدولته يا شر مجلوب
لا آخذ الله أيوب بفعلته...فالناس كلهم في ضر أيوب [٣٩]

ولكننا نفهم أيضًا من رواية القاص الشعبي أن العامة كانوا مدركين الخطر الصليبي وبضرورة اتخاذ الاستعدادات اللازمة للتصدي له وحماية العالم الإسلامي ولذلك وجب على الملك الصالح شراء المماليك وتجهيز جيشه.

٣/٣-علاقة الصالح نجم الدين أيوب بالمغول

لقد ارتبط اسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب بالجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام ومصر وبخاصة أثناء الحملة الصليبية السابعة وبما أن الراوي الشعبي رأى أن صلاح الدين دخل بغداد للدفاع عن الخلافة العباسية ضد الخطر المغولي فقد جعل الملك الصالح يتصدى للهجوم المغولي على الشام، ووفقًا لما ترويه السيرة فأنه قد حضر إلى الملك الصالح رسول من حلب الشام

ومعه خطاب من الباشا يقول فيه " إننا مقيمين يوم تاريخه وإذا بالغبار قد علا وثار وسد منافس الاقطار عن رجال مجربين وفوارس للحروب طالبين وهم كرة كاملة اثنين وثمانون ألف فارس مع الخان هلاوون بن منكتمر فأغلقنا الأبواب وأقمنا الحصارات ونطلب منك من يدركنا والسلام " فارسل على الفور جيشًا بقيادة بيبرس ثم سافر إليه بنفسه ليقضي عليهم ويدمرهم [٤٠] وهذا ما تخيله الراوي الشعبي لكن ما تؤكده المصادر التاريخية أن الصالح نجم الدين لم يتقابل مع المغول على الإطلاق، بل كان أبوه الكامل الأيوبي على علم بتحركاتهم قرب بغداد وفى شمال العراق ؛ فعندما استولى المغول على ديار بكر وسنجار وماردين وآمد والجزيرة والدولة الخوارزمية وعاثوا في البلاد فسادًا وقتلوا ونهبوا وسبوا النساء[٤١] أرسل الخليفة العباسي للكامل الأيوبي والأشرف يطلب النجدة لصدهم عن بغداد وسار الكامل بجيشه مع ابنه الصالح نجم الدين وأخيه الأشرف موسى إلى دمشق واجتمع عنده عدة ملوك بنى أيوب استعدادًا لحرب المغول[٤٢] واستمرت المناوشات بين التتار والجيوش الإسلامية قريبًا من بغداد ولم تدخلها أو تغزو بلاد الشام ولم تذكر المصادر التاريخية المعاصرة أن الصالح نجم الدين جاهد المغول سواء في بغداد أو بلاد الشام وسواء كان حاكما على الشرق أو سلطانا للدولة الأيوبية بل حارب الصليبيين في الشام ومصر . وهنا نتساءل لماذا آثر الراوي منذ بداية السيرة أن يجعل الصالح بطلاً يواجه المغول وليس أبيه الكامل؟ ونرجح أن سبب ذلك هو عدم رسوخ سيرة الكامل في أذهان المصريين وعدم اعتباره ملكا ذا شأن وقيمة وفى نفس الوقت جعلت السيرة الظاهر بيبرس هو قائد الجيش المملوكي والثابت تاريخيا أنه بالفعل من قاوم المغول منذ غزو بغداد حتى وفاته وأسلم على يده الكثير منهم وبما أن السيرة سميت باسمه فكان لابد أن يشارك الظاهر بيبرس في كل حدث وواقعة هامة فيها.

٤/٣-علاقة الصالح نجم الدين أيوب بالصليبيين

ورث الملك الصالح نجم الدين ميراثًا مثقلاً بالهموم والأخطار، فقد كان عليه حماية الدولة الأيوبية من الصراعات مع أعمامه وأبنائهم وكذلك الخطر الصليبي الكامن في بيت المقدس خاصة بعد أن اتفق ملوك البيت الأيوبي مع الصليبيين بتسليم جميع ما فتحه صلاح الدين لهم ثم تطور الاتفاق إلى تحالف بحيث يساعدونهم في التصدي للصالح نجم الدين مقابل جزء من مصر وبالفعل تسلم الصليبيون صفد وشقيف وصيدا وطبرية وفى عام ٦٤١هـ تسلموا عسقلان وبيت المقدس[٤٣]

عندئذ استدعى الملك الصالح الخوارزمية وخاض معركة الحربية عام ٦٤٢هـ\ ١٢٤٤م ضد الصليبيين وأحرز نصرًا ساحقًا واستعاد بيت المقدس وجميع الأراضي التي استولوا عليها بدون وجه حق[٤٤] وكذلك دوره في التصدي للحملة الصليبية السابعة ورغم ذلك إلا أن الراوي الشعبي لم يوضح الدور الجهادى للصالح نجم الدين بل نراه كثيرًا ما يذكر تصدى الظاهر بيبرس للفرنجة كملك جنوة والقسطنطينية وفرنجيل حاكم قلعة العريش ونسى أمر بيت المقدس.

على أية حال ففي السيرة نجد أن الحملة الصليبية السابعة ومعركة المنصورة وما تبعها من أحداث أخذت شكلاً مختلفًا. تبدأ المعركة بورود رسالة من صاحب دمياط إلى الملك عيسى توران شاه يستغيث فيها من نزول جيش صليبي جرار يقوده أربعة ملوك ومعهم جوان وسيف الروم عند دمياط، فقام توران شاه بإرسال أيبك إليهم بقواته للقضاء عليهم، ولكن أيبك عاد إليه مهزومًا قائلاً: "غلبنا الكفار بكثرتهم ونهبوا أموالنا ودوابنا، وحمدنا الله الذي كتب لنا السلامة والهرب من بين أيديهم ". فاستشار الملك عيسى توران شاه وزير أبيه" شاهين " فقال له شاهين ناصحًا: "إن أردت نصرًا مؤزرًا أيها الملك فعليك بالأمير بيبرس فقد كان أبوك يعتمد عليه بعد الله في قتال الأعداء". إلا أن بيبرس كان في السجن بسبب دين عليه، فأفرج عنه تورانشاه وأمر بكتابة حجة بأن بيبرس يتولى الملك من بعده. وسار بيبرس ومعه تورانشاه وعسكرا عند دمياط، ثم انهزم الصليبيين وفروا إلى المنصورة حيث قامت معركة كبيرة انتهت بهزيمتهم وفرارهم إلى فارسكور فتبعهم بيبرس وجنوده. وفي أثناء المعركة أمر تورانشاه ببناء برج خشبي ليتابع المعركة من فوقه، إلا أنه راح يشرب الخمر أما بيبرس يترك المعركة ويذهب إليه طالبًا منه التوقف عن شرب الخمر. إلا أن توران شاه وهو يبعد الكأس سقط من البرج ومات لساعته فعاد بيبرس إلى ميدان القتال وهزم الصليبيين.[٤٥]

هذا ما تخيله الوجدان الجمعي أما الواقع التاريخي فيؤكد أن استعادة بيت المقدس على يد الصالح نجم الدين أغضب أوربا فدعت إلى قيام حملة جديدة لاستعادة القدس سُمِّيَت بالحملة الصليبية السابعة[٤٦]، والتي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع، الذي أراد من خلالها أن يُؤمّن لفرنسا مواضع مهمة وجديدة في منطقة البحر المتوسط، أما مسألة تحرير بيت المقدس وإعادتها إليهم، فقد كانت ذريعة، لإخفاء مطامعهم الحقيقية التوسعية في منطقة الشرق الإسلامي. وفى أثناء تحرك الأسطول الصليبي من قبرص، كان الصالح نجم الدين

مُنشغلاً بحصار حمص في تلك الأثناء، فقد أمضى شتاء عام (٦٤٧هـ/ ١٢٤٨م) في حصارها، على أمل أن تفرغ قواته من الاستيلاء على حمص ومن ثَمَّ السيطرة على حلب[٤٧] ولكن الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني حذَّر الملك الصالح بقدوم الحملة الفرنسية وهدفها مصر، إذ أرسل للملك الصالح كتابًا جاء فيه: "إنه قد وصل في خلق كثير وقد اجتهدت غاية الاجتهاد على رده عن مقصده وخوفته فلم يرجع لقولي، فكن منه على حذر"[٤٨] ولذلك شرع في الاستعداد للتصدي لذلك العدوان إلا أن الملك الصالح مرض في هذه الفترة الحرجة، ولم تعدّ لديه القدرة على قيادة الجيش بنفسه، فأمر وزيره الأمير فخر الدين أن يتولى قيادة الجيش بدلاً منه، فغادر دمشق متوجهًا إلى الديار المصرية، ونزل الملك الصالح بأشموم اطناح[٤٩].

وكان الصالح أمر بتخزين مواد التموين وبكميات كبيرة، مع إدخال كميات ضخمة من الأسلحة والآلات التي يحتاجها المقاتلون في مدينة دمياط[٥٠] ثم بعث إلى الأمير حسام الدين نائبه في القاهرة، وأمره أن يُجهز الأسطول بالرجال والسلاح والعِدَّة. فاستجاب الأمير حسام الدين لأمر الملك الصالح، وباشر بتجهيزها، كما أمر بتجهيز قوة نظامية كبيرة قائدها فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، وأمره أن ينزل بالجيش على جزيرة دمياط في البر الغربي للمدينة للوقوف بوجه الصليبيين إذا قدموا ليمنع نزولهم إلى الشاطئ، فتحرك فخر الدين بجيشه نحو دمياط، فنزل بالجيزة وصار النيل بينه وبينها[٥١]، أما واجب الدفاع عن مدينة دمياط من الداخل، فقد أسنده إلى قوات من بني كنانة، وهم من القبائل العربية المعروفة بالشجاعة، وذلك من أجل المحافظة عليها والدفاع عنها[٥٢] وأصبحت الحرب وشيكة بين الطرفين بعد وصول الأسطول الصليبي في البر الغربي لدمياط، فاشتبك الجيش الأيوبي مع القوات الصليبية والتي فَتَكَت بعددٍ منهم لكن تفوق القوات الغازية بالعدد والعِدَّة، جعل ميزان القوة يميل لصالح الصليبيين، الذين تمكنوا من النزول إلى البر، وهو ما دفع بالأمير فخر الدين بالانسحاب إلى الجانب الشرقي للنيل وترك دمياط والجسر الذى كان يربط بين الجانبين وانسحب إلى أشمون طناح[٥٣].

واستولى الرعب على أهل دمياط، فقرروا الهرب و إشعال النار في الأسواق والمنازل ودار السلاح، كما هرب المقاتلين من بني كنانة، المكلفين بواجب الدفاع عن دمياط " فَوَلَّوا الأدبار وتركوا أبوابها مُفَتَّحة"، وهكذا هرب جميع من في المدينة من النساء والأطفال، وكذلك الرجال، المقاتلين منهم والعامَّةَ واشتد غضب الملك الصالح وذلك لأن دمياط كانت مُحَصَّنَة ومشحونة بالمقاتلين والأسلحة والذخائر والمؤن، وهكذا علم الصليبيون بهزيمة المسلمين فعبروا إلى البر الشرقي ودخلوا دمياط دون قتال[٥٤]، أما الملك الصالح الذي كان يعاني من مرضٍ شديد فأمر بالانتقال إلى المنصورة، ليتحصن فيها لمنع الغزاة من التقدم إلى القاهرة، واتخذ المنصورة مقرًا لأعماله العسكرية و أمر الجند في تجديد الحصون والمباني و نصبوا الأسواق، و أصلحوا السور الذي على النيل، وتقدمت الشواني المصرية بالرجال والأسلحة وكذلك جاءت أعداد كبيرة من المتطوعين[٥٥] وهكذا استعاد الجيش الأيوبي قوته فأخذت القوات المصرية تشن غارات ومناوشات على الصليبيين[٥٦]، ثم قرر لويس المسير نحو القاهرة للاستيلاء عليها[٥٧] ولم يكد يبدأ الصليبيون زحفهم من مدينة دمياط في اتجاه مدينة القاهرة حتى توفى الصالح نجم الدين بالمنصورة في يوم الاثنين ليلة النصف من شعبان (٦٤٧هـ/ ٢٢ نوفمبر ١٢٤٩م)[٥٨] وكانت مُدة حربه مع الصليبيين أربعة عشر شهرًا. فدفن في قلعة الروضة تحت قبة بنيت له بجانب المدرسة الصالحية[٥٩] وتمكنت زوجته شجر الدر من إخفاء خبر وفاته وأخذت البيعة لابنه تورانشاه وهكذا حافظت على الجيش من الفوضى والاضطراب وخاض المعركة التي انتهت بهزيمة الصليبيين وأسر الملك لويس التاسع وهكذا لم يشاهد الملك الصالح ثمرة جهاده وتصديه للخطر الصليبي.

٥/٣-الصالح نجم الدين والتصوف

من الخصائص الأساسية في السيرة الشعبية بصفة عامة، الاهتمام بالعاطفة الدينية والروحية لأشخاصها وخاصة المحببين والمقربين للعامة ولذا شغل الفكر الصوفي مساحات رحبة فيها وكذلك الاعتقاد في أولياء الله الصالحين؛ فقد جعلته السيرة وليًا من أولياء الله الصالحين الزاهد في الدنيا والرافض للشهوات والملذات وصاحب كرامات ويظهر للعديد من الشخصيات الأخرى في المنام ولديه القدرة على التنبؤ بالغيب ومعرفة ما يحدث في أماكن بعيدة عنه كما يعرف أسماء أشخاص لم يرها من قبل وقطع المسافات الطويلة في لمح البصر ومعاقبة الله لمن يهين الولي أو يعتدى عليه والقدرة على تحويل شكله وتغيير هيئته وكذلك القدرة على التواجد في أكثر من مكان في نفس الوقت.

وقد وصفت السيرة الصالح نجم الدين قبل توليه الحكم بأنه "زهد في الدنيا ورغب في الآخرة، وقرأ القرآن وعرف الحلال والحرام، فعبد الملك العلام وصار من عباد الله الصالحين، وهو من صغر سنه على الفلاح واليقين، ولا يجالس أهل الدولة ولا

يحاضرهم في حكومة، فسموه الأكراد الصالح نجم الدين أيوب ولى الله المجذوب.... وقد اشترط على نفسه ألا يأكل من السلطنة ولا يأخذ شيئًا من أموال مملكته ولا يأكل إلا من كسب يده "[٦٠] وذلك ما أكده المقريزي عندما تولى الصالح نجم الدين الحكم فقام بـ "كشف بيت المال والخزانة السلطانية فلم يجد سوى دينار واحد وألف درهم، فطلب القضاة والأمراء الذين قبضوا على العادل وسألهم عن سبب قبضهم عليه فأجابوا: "لأنه كان سفيهًا"، فسألهم: "يا قضاة السفيه يجوز تصرفه في بيت مال المسلمين؟" فلما أجابوا بالنفي قال لهم: "أقسم بالله متى لم تحضروا ما أخذتم من المال، كانت أرواحكم عوضه"، فخرجوا وعادوا بمبلغ كبير من المال بلغ سبعمائة ألف وخمسة وثمانين ألف دينار وألفى ألف وثلاثمائة ألف درهم[٦١] وفى خضم أحداث المعركة ضد الصليبيين في دمياط والسلطان يزداد مرضًا وألمًا فأحس بدنو أجله، نودي في مصر: "من كان له على السلطان أو عنده له شيء، فليحضر ليأخذ حقه، فطلع الناس وأخذوا ما كان لهم".[٦٢]

وتكتمل صورة التقوى والورع والزهد في الدنيا ومفاتنها فنسمع الصالح نجم الدين يقول عن نفسه على لسان الراوي: "أنا رجل أضفر الخوص وأعمل المقاطف ولا أعرف السلطنة ولا أعرف أحكامها"[٦٣]،ويستمر الراوي في تجميل صورة نجم الدين أمام شعبه مؤكدًا اتصاله بآل البيت ورغبته في التبرك بهم ليصطبغ بصبغة صوفية، فحينما يختار الصالح وزيرًا له يجعل توليه المنصب في مسجد الحسين بعد صلاة الجمعة وليس في قصره، ثم أكلوا جميعًا الدقة والقراقيش[٦٤]، وعندما أراد نجم الدين الزواج من شجر الدر ذهب ومعه السادات الأشراف فصلوا جميعًا في جامع سيدنا الحسين ثم عاد إلى قصره لإتمام الزفاف[٦٥]

ولم تغفل السيرة الشعبية الصفة الأساسية في الصوفي، وهى الكرامات والتنبؤات الذى يتميز بها الولي، وقد تكررت كثيرًا في السيرة، فجعلت الصالح نجم الدين أيوب صاحب كرامات وأعمال الخارقة للطبيعة؛ فيقول الراوي: "إن شجر الدر ذهبت لمقابلته، وقد أشار عليه وزيره أن يعرض عليها الزواج، ولكنها رفضت في أول الأمر، ثم وافقت بعد أن رأت فى المنام الصالح نجم الدين يهدد ويتوعد فقبلت الزواج منه[٦٦]، وهكذا بفضل كراماته لأنه ولى الله المجذوب تم الزواج. ومن كرامات الصوفي الصالح نجم الدين ولى الله المجذوب، قدرته على قطع المسافات الطويلة بسرعة البرق، فعندما كانت الملكة شجر الدر في رحلة الحج وفى أثناء زيارتها للمدينة المنورة، وقفت خارج الحجرة النبوية الشريف فرأت شخصًا باكيًا وفى غاية الخضوع والاحتشام فصار ينشد أبياتًا شعرية في مدح الرسول وبعد أن أنتهى فإذا به "الملك الصالح أيوب ولى الله المجذوب........ فغاب عن الأبصار فلم يجدوا له خبرًا ولا وقعوا له على أثر، فتعجب الوزير منه غايه العجب وثبتت عنده كرامات الصالح وزاد حب الملك في قلب السيدة فاطمة "شجر الدر".[٦٧]

ومن كرامات الملك الصالح أنه كان يعرف اسم من يقابله لأول مرة، فعندما كان الخليفة والصالح والأكراد يتقلدون السيوف والتروس الخشبية في طريقهم إلى مسجد الحسين وهم يهللون ويكبرون مثل الدراويش، قابلوا رجالاً بملابس عسكرية " فلما نظر مقدم القوم إلى الخليفة والأكراد..... مد يده إلى الملك الصالح وقال خذ هذا وادعى لي فقال الصالح يا هذا أنا ادعى لك من غير شيء..... فتعجب غاية الإعجاب وكيف أنه ناداه باسمه ولم ينظره إلا في هذه الساعة " [٦٨] وكان الرجل اسمه شاهين الذي عينه الملك الصالح وزيرًا له.

كما كان للصالح كرامات أخرى كانت سببًا في هلاك جنود أيبك وحماية مصر من خطره، فيقول الراوي: إن الأمير عز الدين أيبك سار إلى مصر للاستيلاء عليها ولكن أصابه مرض شديد وجنوده ضلوا الطريق وهم تائهون في الصحاري وطلبوا منه العودة إلى ديارهم وهنا قال لهم أيبك: "إن هذا الرجل من أولياء الله الصالحين ومن المتوكلين على رب العالمين وانى من يوم عزمت أن أغزوه وأنا مريض بالمرض الشديد وقد صحت عندي هذه الكرامات الظاهرة."[٦٩] وكأن الراوي هنا يؤكد أن الملك الصالح الفقير إلى الله والمتوكل عليه، ذو التقوى والورع والعدل، كل هذا جعله في حماية رب العالمين فجعل أيبك يرتمى تحت قدميه ويقبل الأرض بين يديه ويطلب منه الأمان والعفو، فعفا الصالح عنه وجعله من جملة خدمه.

ومن أهم معجزات الصوفي كما تراها الطرق الصوفية، التنبؤ بالغيب عمومًا والعلم بما يحدث في أماكن بعيدة عنه كأنه يرى الأحداث والأشخاص في البلورة السحرية أو كأنه مكشوف عنه الحجاب كما يقول العامة، فتقدم لنا السيرة قصة أخرى تفسر هذه الميزة، فالصالح نجم الدين أيوب قبل وفاته كتب وصية بتولية الظاهر بيبرس حاكمًا على البلاد من بعده فيقول الراوي: "وفى يوم على فراشه قال يا إخواني ديرونى على القبلة فأداروه وتلوا القرآن الكريم ويبكون عليه بالدمع السجام هذا وقد تقدم إليه بيبرس وقرأ سورة يس ففتح عينيه وقال يا ولدى لك الملك من بعدى وأنا أسال الله الكريم رب العرش العظيم كل من تسلطن قبلك لا يموت إلا قتيلاً فتقبل الله

دعاءه"[٧٠] وهذا ما تحقق تاريخيًا بالفعل؛ فعندما توفى الملك الصالح وجاء ابنه تورانشاه ليتولى السلطة فإنه أساء معاملة الأمراء المماليك الذين ساندوه ودافعوا عن الدولة كما اتصف بفساد أخلاقه الشخصية وبأنه عديم الخبرة وجاهل بشئون الحكم والسياسة وسيء التدبير كثير الشراب[٧١]، كما وصفه ابن الجوزي بأنه "سيء التدبير ذو هوج وخفة" كما أحضر معه من ديار بكر مجموعة من الندماء خصهم بالإقطاعيات دون المماليك المصريين، وأخذ يعد للخلاص من المماليك بعد ارتفاع شأنهم عقب النصر على الصليبيين، ونتيجة لسكره وطيشه فقد كان يضرب الشموع بالسيف ويسمى كل منهم باسم أحد الأمراء ومن هنا قرر المماليك الخلاص منه قبل أن يسبقهم كما أساء لشجر الدر التي أدارات البلاد حتى عاد وكانت نهايته في برج خشبي حين هجم عليه المماليك ففر إليه مجروحا فأشعلوا فيه النار فسقط في الماء ليموت جريحًا حريقًا غريقًا[٧٢]، ثم تسلطنت شجر الدر ونظرًا لكونها امرأة فلم يرغب الخليفة والعامة في توليها الحكم لذلك اضطرت للزواج من القائد المملوكي عز الدين أيبك وسرعان ما انقلبت عليه وقتلته فقامت زوجته بقتلها[٧٣]، ولم يكن أمام المماليك سوى تولية المنصور على ابنه واختاروا المظفر قطز وصيًا عليه نظرًا لصغر سنه ولكن الخطر المغولي صار وشيكًا وكان لابد من وجود سلطان فعلى فتمت الموافقة على تولية قطز السلطة وبعد عودته من موقعة عين جالوت تم اغتياله على يد بيبرس وزملائه ووافق الجميع على اختيار الظاهر بيبرس سطانًا على الدولة المملوكية[٧٤] وأرسى قواعد دولة جديدة قامت على سفك الدماء وأصبح المؤسس الحقيقي للحكم المملوكي.

ويجدر بنا أن نتوقف قليلاً لنتعرف على الملامح العامة لشخصية الصالح نجم الدين أيوب كما رأها وتحدث عنها مؤرخو عصره، فقدموا لنا دلالات تاريخية عن ولى الله المجذوب، ربما نفهم ما فعله الراوي وكيف يُشكل الوجدان الشعبي صورة الأبطال والأحداث، فتذكر المصادر التاريخية عن شخصية الصالح نجم الدين أنه " كان ملكًا شجاعًا حازمًا مهيبًا لشدة سطوته وفخامة ناموسه، مع عزة النفس وعلو الهمة، وكثرة الحياء، والعفة وطهارة الذيل، وصيانة اللسان من الفحش في القول، والإعراض عن الهزء، وشدة الوقار ولزوم الصمت.... وهو في غاية الوقار ولا يرفع بصره إلى من يحادثه، حياء منه، ولم يسمع منه قط في حق من خدمه لفظة فحش... ولا عرف من النكاح سوى زوجته وجواريه..." [٧٥].

أما عن أحوال المملكة في فترة حكمه فيقول المقريزي: "وكانت البلاد في أيامه مطمئنة والطرق سابلة..... وكان يجرى على أهل العلم والصلاح المعاليم والجرايات من غير أن يخالطهم، ولم يخالط غيرهم لمحبته في العزلة ورغبته في الانفراد، وملازمته للصمت، ومداومته على الوقار والسكون."[٧٦]

وهكذا كانت الصورة المحببة شعبيًا للسلطان للصالح نجم الدين أيوب والتي رسمتها السيرة الشعبية، فلقد رأت العامة في الملك الصالح، ملكًا عادلاً نقيًا يكره أن يأكل من الأموال العامة كما يكره الظلم والجور ولذلك صوره الخيال الشعبي في صورة الزاهد صاحب الكرامات وأفعال ما وراء الطبيعة والمعجزات، كما أنه لم يأكل إلا من عمله بصناعة المقاطف الخوص ويأكل من طعام العامة، الدقة والقراقيش. وصورته في التاريخ ذلك البطل المجاهد ضد العدوان الصليبي والحامي للعالم الإسلامي والذي مات في ريعان شبابه بعد صراع مرير طويل مع المرض ثم كان موته في ساحة المعركة. فهل يمكن القول بأن الخيال الشعبي أعجب بتلك الشخصية وأنتجها في قالب متميز فجعله ولى من الأولياء الصالحين ليحظى بقبول شعبي واسع؟ وبالتالي فهو معصوم من الخطأ، حيث إن الروى تغاضى عن بعض تجاوزات ومساوئ الحكومة والسلطان وركز فقط على أخلاقه الطيبة وجهوده المضنية في حماية الدولة الأيوبية التي غدت في تلك الفترة ممزقة وضعيفة يتصارع رجالها ويختلفون في الأهداف والمصالح بعكس الصورة التي كانت عليها الدولة في عهد صلاح الدين الأيوبي الذي وحد الجهات معًا تحت لواء الإسلام والجهاد.

أما المصادر التاريخية ذكرت بأنه" قتل أخيه الملك العادل واستولى على أمواله وعلى أموال أمه وكذلك جماعة من الأشرفية وغرق بعضهم في البحر واعتقل جميع الأمراء المصريين وأخذ أموالهم ومات في حبسه ما يزيد عن خمسة آلاف نفس، وإذا حبس أحد نسيه وكان لا يجرؤ أحد أن يشفع له عنده وكان يحلف أنه ما قتل أحد بغير حق وهذه مكابرة."[٧٧] في حين رآه ابن تغرى بردى بصورة أكثر مثالية فيقول: "هو عندي أعظم ملوك بنى أيوب وأجلهم وأحسنهم رأيًا وتدبيرًا ومهابة وشجاعة وسؤدًا بعد الناصر صلاح الدين ولو بم يكن من محاسنه إلا تجلده على مقابله العدو بالمنصورة وهو بتلك الأمراض المزمنة وموته على الجهاد والدفاع عن المسلمين."[٧٨]

٦/٣-وفاة الصالح نجم الدين أيوب

ونستمع للراوي عندما يقص علينا نبأ مرض ووفاة الملك الصالح نجم الدين أثناء عودته من جنوة وبعد إنقاذ بيبرس من الخطف، أصيب الصالح بالفجة أي الخضة وتمكنت منه فصار يرتعد ويشكو الآلام حتى وصل مصر ولازم الفراش عند شجر الدر زوجته وطال مرضه واشتد عليه فنصحه الطبيب بالسفر الى المنصورة ذات الهواء العليل والرياح تهب عليها من الجهات الأربعة فتحسنت حالته كثيرا ولكن المرض تمكن منه عندما عاد الى مصر وبعد أن زار مقام الإمام الشافعي ثم صلى الجمعة في الحسين، وطلب من بيبرس أن يبنى له مسجد وقبة فتم له ذلك وتوفاه الله وانزعج العالم لموته وحزنوا عليه كثيرًا[٧٩] هكذا توفى ودُفن الصالح نجم الدين والحقيقة التاريخية تطالعنا باختلاف الروايات حول أسباب وفاته؛ فذكر البعض أنه منذ عودته من دمشق تعرض لقرحه في مأبضه أي في باطن الركبة منعته من ركوب فرسه وحصل منها ناصور وقرحة في الصدر ولذلك كان محمولاً على محفة[٨٠]، أما الذهبي ذكر أن الصالح نجم الدين وقعت له الأكلة في فخده منذ سفره إلى دمشق[٨١]، ويحدثنا ابن واصل بأنه كان مريضًا بالناصور والسل معًا "وما كان يشعر بالسل وإنما كان يظن أن عجزه وضعفه عن الحركة بسبب الجرح"[٨٢]، وما لبث أن مات السلطان في قصره بالمنصورة أثناء تصديه للحملة الصليبية السابعة فحُمل جسده في مركب إلى قلعة بالروضة ودفن في قبر خاص بُنى بجوار مدرسته بالقاهرة الذى أنشأته زوجته شجر الدر.[٨٣]

رابعًا: شخصيات وأحداث أغفلتها السيرة الظاهرية

١/٤-والده السلطان الكامل الأيوبي

ذكرت السيرة الملك الكامل مرة واحدة بأنه بعد وفاة أبيه صلاح الدين الأيوبي "جلس على كرسي أبيه وقد أطاعه جميع أهله وذويه وحكم بين الناس بالإنصاف والعدل وترك الجور والإسراف وعدل في الرعية سنة كاملة وبعد ذلك طلب الخراج من البلاد فأطاعته سائر العباد وحملوا إليه الأموال والجواهر الثقال..... وأنجب ذكرًا سماه نجم الدين."[٨٤] والحقيقة التاريخية تذكر أن الملك الكامل هو ابن العادل أخو صلاح الدين وليس ابنه ولكننا في السيرة الشعبية لا نلوم على الراوي في خلط الأسماء وأنسابها لأنه يهتم فقط بالأحداث ومدلولها أما الأسماء فيستخدمها لكي يصل إلى نقطة أخرى مهمة في روايته. ربما يعود هذا إلى عدم اعتراف الوجدان الشعبي بأبناء صلاح الدين لأنهم تاريخيًا لم يكن لديهم قدرات وإمكانيات أبيهم؛ نتيجة الصراعات فيما بينهم فأصبحوا ظلالاً شاحبة ولم يقدموا الكثير للشعب ولذا فلم يعرهم المصريون الاهتمام، ورأوهم غير جديرين بالبنوة لصلاح الدين البطل الصوفي صاحب الشرعية كما تخيلوه، ومن ثم تجاوز الخيال الشعبي أبناء صلاح الدين، وجعلوا أخاه العادل وابنه الكامل ولدين له، وهذا يدل على ذكاء الوجدان الشعبي الذي لا يخلد إلا من قدم له إنجازات حقيقية، فالعادل هو من وحد مصر والشام بعد طول خلاف بين ورثة صلاح الدين.

أما الكامل الأيوبي فيقول عنه ابن واصل، أنه كان ملكًا مُهابًا حازمًا وحسن التدبير ورجلاً عفيفًا وينفق الأموال على الفقراء والمساكين وخصص لهم رواتب شهرية وكان محبًا للعلماء ومجالستهم وسماع مناظراتهم ومغرمًا بسماع الأحاديث النبوية وغيرها من الصفات والأخلاقيات الرشيدة وشعر الناس في أيامه بالأمان على أنفسهم وأموالهم [٨٥]، كما استطاع التصدي للحملة الصليبية الخامسة[٨٦]، واستقرار أحوال مصر في عصره، وحسبنا دليلاً على ذلك ما ذكره مؤرخ معاصر بأنه: "ملك مصر عشرين سنة وكانت الطرقات في زمانه آمنة، ذلك أنه رتب على الطرقات خفراء لحفظ التجار والمترددين، فكانوا يعبرون الرمال الصعبة والبراري الموحشة فلا يروعهم أحد."[٨٧]

ورغم ذلك تجاهلته السيرة الشعبية ويرجع سبب تجاهل السيرة للكامل الأيوبي إلى الحقيقة التاريخية القائلة بأنه سلم بيت المقدس للملك فردريك الثاني دون قتال أثناء أحداث الحملة الصليبية السادسة على دمياط عام ١٢٢٩م في مقابل رحيل الصليبيين عن دمياط، مما أغضب الشعب المصري بل والعالم الإسلامي الذي رأى أنها كارثة حقيقية وليست هدنة وأنه ضحى بالمصلحة الإسلامية العامة في سبيل مكاسب إقليمية كان من الممكن تحقيقها دون هذا التخاذل والخزي والعار الذي لحق بالمسلمين بسببه تصرفه البشع. وهنا يصف لنا المؤرخ ابن واصل ذلك الوضع البائس بقوله " وللكامل هفوة جرت منه، عفا الله عنه لأنه سلم بيت المقدس إلى الفرنج اختيارًا، نعوذ بالله من سخط الله ومن موالاة أعداء الله".[٨٨]

ويستكمل المقريزي صورة الفاجعة ويرسم لنا صورة حيوية ونابضة ومعبرة لرد فعل شعبي تجاه السلطان الكامل الأيوبي موضحًا أن تلك الهدنة كان مدتها عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يومًا، ثم يقول: "فنودى بالقدس بخروج المسلمين منه، وتسليمه إلى الفرنج، فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل،

وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا في غير أوقات الصلاة، فعز ذلك عليه، وأمر بأخذ ما كان معهم في الستور والقناديل والفضة والآلات وزجرهم، وقيل لهم: امضوا حيث شئتم فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار".[٨٩]

وهذا يعنى أن الشعب المصري لم يغفر للملك الكامل ذلك الخطأ الفادح سواء في المصدر التاريخي أو في السيرة الشعبية التي تغاضت عنه لأنه بتسليم القدس للعدو فإنه تنازل بسهولة عن أهم رموزه الدينية والحضارية، فبيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين تعد جزءًا هامًا من الهوية الإسلامية للعالم الإسلامي ولذ نجد الراوي الشعبي يذكره عابرًا ليدين خيانته للإسلام والمسلمين وبالتالي فالسيرة عبرت بدقة ووضوح عن ضرورة الدفاع عن مدينة مقدسة وأكدت على أن حماية بيت المقدس والعناية به ركيزة من ركائز الهوية الإسلامية.

٢/٤-علاقة الصالح نجم الدين الخوارزمية

رغم أن الخوارزمية كانت لهم علاقات قوية بالصالح نجم الدين لفترة طويلة وكان لهم دور بارز ومؤثر في الدولة الأيوبية وفى حياة الصالح نجم الدين ذاته إلا أن السيرة أغفلت ذكرهم تماما في حين استخدم الراوي الشعبي لفظ الفداوية ابناء إسماعيل كعنصر مساند لبيبرس عندما كان يقوم بحملاته على بلاد الشام أو في حالة تعرضه لمصاعب ومشاكل فدائما ما كان يستعين بهم بأمر من الملك الصالح نجم الدين أيوب، فهل هذا نوع من الخلط بين فرقة الاسماعيلية الى قضى عليها بيبرس على اعتبار ان السيرة الشعبية تحمل اسمه وبين الخورازمية التي ساندت نجم الدين في حكمه؟ أم أن الوجدان الشعبي لم يعرف من هم الخوارزمية وخاصة أنهم اختفوا تمام في نهاية عهد الصالح نجم الدين الذي قضى عليهم ولم يبق لهم أثر في الشام وفئة قليلة منهم انضموا لجيشه؟

والواقع التاريخي يثبت لنا أن الصالح نجم الدين قد استعان بالخوارزمية منذ أن كان حاكمًا على بلاد الشرق نيابة عن أبيه الكامل عام (٦٣٤هـ/١٢٣٧م) واستطاع أن يحصل منه على تصريح بانضمامهم إلى عسكره[٩٠] وبعد أن تعرضوا منذ عام (٦١٨هـ/ ١٢٢١م) لهجمات متكررة من المغول وأبناء البيت الأيوبي الذين كونوا حلفًا معاديًا ضدهم ومع زيادة المصاعب تفككت دولتهم نهائيًا عام (٦٢٨هـ/١٢٣١م) وصاروا يعملون كجنود مرتزقة[٩١]، وفى العام التالي توفى السلطان الكامل فتمردت الخوارزمية على الصالح نجم الدين، وخرجوا عن طاعته، وحاولوا القبض عليه إلا أنه هرب وتحكموا في البلاد الجزرية [٩٢] وفى نفس الوقت تعرض الصالح لحصار صاحب الموصل وحاول التفاوض معه ولكنه رفض فاضطر إلى استمالة الخوارزمية ووعدهم وأطمعهم في بعض الأقطاعات والأراضي فعادوا إليه والتزموا بالطاعة والولاء[٩٣]، كما ساندوا ابنه تورانشاه حينما حاصره سلاجقة الروم في آمد عام (٦٣٥هـ/١٢٣٨م)[٩٤] ثم استعان بهم الملك الصالح نجم الدين في إنقاذ القدس من أيدى الصليبيين في (٦٤٢هـ/١٢٤٥م) فدخلوها وعاثوا فيها فسادًا[٩٥] وفى أثناء ذلك تحالف الصالح إسماعيل والناصر داوود والصليبيين على غزو مصر فجهز الصالح جيشه من مماليكه ومن الخوارزمية وعلى مقربة من غزة ألتقى جيش الصالح وجيش التحالف الثلاثي في معركة أسفرت عن انتصار ساحق للعسكر الصالحي ثم نجحت القوات الخوارزمية في السيطرة على الساحل والقدس والخليل وبيت جبرين وحصار دمشق ستة أشهر حتى انتهى بالاتفاق على تنازل الصالح إسماعيل عن دمشق للصالح نجم الدين.[٩٦]

كانت الخوارزمية تطمع في غنائم ومكاسب اخرى فى دمشق ولكن الصالح منعهم من دخولها فاعلنوا التمرد والعصيان عليه مرة أخرى[٩٧] وانضموا للصالح إسماعيل والناصر داوود للاستيلاء على دمشق وحاصروها وقطعوا عنها الامدادات فاشتد الغلاء ومات الكثير من الناس وانتشرت الاوبئة والامراض وحينذاك استعان الصالح نجم الدين بحاكم حمص وحلب وحرضهم ضد الخوارزمية المفسدين الذين خربوا البلاد كما انضم اليه الأعراب والتركمان وفى عام (٦٤٤هـ/١٢٤٧م) وعند بحيرة حمص وقعت معركة ضارية بين الطرفين انتهت بهزيمة منكرة للخوارزمية ونُهبت أموالهم وتشتت شملهم في مصر والشام ولم يكن لهم دور سياسي أو عسكري بعد ذلك.[٩٨]

خَاتِمَةٌ

تبين لنا بعد عرض ما جاء في السيرة الظاهرية عن الصالح نجم الدين أيوب، أن الرؤية الشعبية لحياة الصالح رسمت له صورة تكاد تكون منسجمة ومتفقة مع المصادر التاريخية، فجعلت الصالح نجم الدين رجلاً صوفيًا زاهدًا في الدنيا، كما كان منشغلاً بحماية العالم الإسلامي من الخطر الصليبي ويبدو أن ذلك شغل بال الراوي الشعبي أيضًا فصار يشحذ سنان قلمه في مدحه ووصفه بصاحب الكرامات واعتبره ولى من أولياء الله الصالحين وجعله البطل المغوار في مواجهة الصليبيين والمغول، وعلى العكس تمامًا تجاهلت السيرة الشعبية ذكر أبيه السلطان العادل الذى تنازل عن بيت المقدس للصليبيين فكان ذلك بمثابة الطامة الكبرى على العالم الإسلامي، وبما أن الرواية الشعبية تجمع في ثناياها شخصيات بطولية فأنكرت سيرة العادل الأيوبي واعتبره العامة خائنًا، كما يبدو أن الراوي الشعبي اختلط عليه الأمر فلم يفرق بين الخوارزمية والذى قضى عليهم الصالح نجم الدين وبين الفداوية الإسماعيلية الذى قضى عليهم بيبرس وخاصةً أن السيرة اعتبرت بيبرس ابن الصالح نجم الدين. ومن هنا يرى الباحث أنه يمكن اعتبار الأدب بصفة عامة مصدرًا مساعدًا ومكملاً للمادة التاريخية مع أخذ في الاعتبار دقة التمحيص والمقارنة بينهما واعتماد الأدب الشعبي على الخيال والخرافات وتحريف بعض الأحداث ليتماشى مع الوجدان الإنساني.

الاحالات المرجعية:

(١) قاسم عبده قاسم، **القراءة الشعبية للتاريخ**، مجلة العربي، العدد (٤٩٣)، الكويت، ديسمبر ١٩٩٩م.

(٢) خطرى عرابى، **البناء الأسطوري للسيرة الشعبية**، القاهرة، دار عين، ٢٠٠٩، ص ١٧.

(٣) أحمد شمس الدين الحجاج، **مولد البطل في السيرة الشعبية**، كتاب الهلال،٤٨٤، ١٩٩٩م، ص٢٨.

(٤) قاسم عبده قاسم، **ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥م، ص ٢٣٦.

(٥) فاروق خورشيد، **مكان السيرة**، مجلة الكاتب، ع ٢٦، مايو ١٩٦٣م، ص ١٤.

(٦) قاسم عبده قاسم، **بين التاريخ والفولكلور**، دار عين، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٢٤، ٤٤،١٧٤.

(٧) قاسم عبده قاسم، **السيرة الشعبية مصدرًا لدراسة التاريخ الاجتماعي قراءة في السيرة الظاهرية**، ضمن كتاب (بين الأدب والتاريخ)، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٤٠-١٤١.

(٨)قاسم عبده قاسم، **بين التاريخ والفولكلور**، ص ١٣٤.

(٩) محيي الدين ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق د. عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.

(١٠) شافع بن على الكاتب، **حسن المنقب المنتزعة من السيرة الظاهرية**، تحقيق د. عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٦٧م.

(١١) عز الدين بن شداد، **تاريخ الملك الظاهر**، تحقيق أحمد حطيط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٠م.

(١٢) سوزان إبراهيم، مقال **"الظاهر بيبرس آخر السير الشعبية – اختفاء الحكواتية أوقف الإضافات"**، صحيفة الثورة – دمشق-الأحد ٢٧-٩-٢٠٠٩م.

(١٣) طبعت **السيرة** في القاهرة بدون تاريخ باعتناء عبد الحميد أحمد الحنفي بشارع المشهد الحسيني ونفذت منذ وقت طويل، كما أعيد طبعها في مجلد واحد في بيروت بالمكتبة الثقافية أيضا بدون تاريخ لكن تخلو من الأشعار. وأعيد طبع **السيرة** حديثًا طبعة مصورة عن طبعة عبد الحميد أحمد حنفي وقدم لها جمال الغيطاني بالهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة عام ١٩٩٦م.

(١٤) **السيرة** ج١ ص ٤٤-٤٥

(١٥) **السيرة** ج١، ص ٤٥-٤٦

(١٦) شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ٢٣، ط١١، تحقيق بشار عواد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م، ص١٨٧، صلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدي، **الوافي بالوفيات** ج١٠، تحقيق أحمد الأرناؤط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ، ص٣٥، جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج٦، القاهرة، وزارة الثقافة، ص ٣١٩، أحمد بن إبراهيم الحنبلي، **شفاء القلوب في مناقب بنى أيوب**، تحقيق ناظم رشيد، مطبعة الرشيد، بغداد، ١٩٧٨م، ص٣٦٧.

(١٧) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، **مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب**، ج٤، تحقيق محمد حسنين ربيع وسعيد

عاشور، القاهرة، دار الكتب، ١٩٥٧م، ص٢٢٥، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج٢٩، تحقيق محمد ضياء الدين، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٢م، ص ١٤٨، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٣١٩، أحمد بن على المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج١ق١، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، دار الكتب، ص٢٢٥.

(١٨) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٤، ص٢٧٧-٢٧٨، النويري، **فنون الأدب**، ج٢٩، ص١٦٠، المقريزي، **السلوك** ج١ق١، ص٢٤٠،٢٣٨، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص٣٦٧، المكين بن جرجس بن العميد، **أخبار الأيوبيين**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ب.ت، ص ١٧

(١٩) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٤، ص ٢٧٨، المقريزي، **السلوك** ج١ق١، ص٢٤٠.

(٢٠) ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٢٢، النويري، **نهاية الإرب** ج٢٩، ص ١٧٢، ١٩٠، المقريزي، **السلوك**، ج١ق١، ص ٢٤٠، ٢٤٤، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٣٦٧.

(٢١) ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٢٣، النويري، **نهاية الإرب** ج٢٩، ص ٢٣٤، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٠٣.

(٢٢) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٥، ص ٢٠٢، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص٢٤، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة** ج٦، ص ٣٠٥، النويري، **نهاية الإرب** ج٢٩، ص ٢٣٩-٢٤٠، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، تحقيق محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة، دار الكتب، القاهرة، ١٩٣٦م، ص٢٧٤، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٣٦٨.

(٢٣) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص ٢٠٤-٢٠٥، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص٣٠٦.

(٢٤) الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، **المختصر في أخبار البشر**، ج٣، تحقيق محمد زينهم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٩٩-٢٠٠، ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص ٢٠٦-٢١٤، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٣٠٦-٣٠٧.

(٢٥) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٥، ص ٢٠٦، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٢٥، النويري، **نهاية الإرب** ج٢٩، ص ٢٤٩-٢٥٠، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٢٨١، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٣٦٩.

(٢٦) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص ٢١٦، النويري، **نهاية الإرب** ج٢٩، ص ٢٥٩، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٢٨١، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٣٧١.

(٢٧) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص ٢٢٨، النويري، **نهاية الإرب** ج٢٩، ص ٢٦٠-٢٦١، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٢٨٦-٢٨٧، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة** ج٦، ص ٣٠٦.

(٢٨) ابن واصل ن **مفرج الكروب** ج٥، ص ٢٣٢-٢٣٣، النويري، **نهاية الإرب** ج٢٩، ص ٢٦١-٢٦٢، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٢٨٧-٢٨٨، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة** ج٦، ص ٣٠٧.

(٢٩) ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٢٩، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة** ج٥، ص٣٠٧، ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٢٧.

(٣٠) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص ٢٣٩، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٣٧٢.

(٣١) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص ٢٤٠، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص٢٩، النويري، **نهاية الإرب** ج٢٩، ص ٢٦٣-٢٦٤، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ٢٨٩، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٣٠٨.

(٣٢) أبو الفدا، **المختصر** ج٣، ص ٢٠١، ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص٢٤٤، النويري، **نهاية الإرب**، ج٢٩، ص ٢٦٤ المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٢٩٠، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٣٧٣،

(٣٣) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص ٢٥٧-٢٥٩، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص٢٩، النويري، نهاية الإرب ج٢٩، ص ٢٦١.

(٣٤) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ٢٦٢-٢٦٥، أبو الفدا، **المختصر** ج٣، ص ٢٠٢، النويري، نهاية الإرب ج٢٩، ص ٢٦٧-٢٦٨، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٢٩٤-٢٥٩.

(٣٥) **السيرة** ج١ ص ٩٨-١٠٠

(٣٦) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص٨٢، أبو بكر بن عبد الله ابن آيبك الدواداري، **كنز الدرر وجامع الغرر** -الدر المطلوب في اخبار ملوك بنى ايوب ـ تحقيق سعيد عاشور، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٣٧٠.

(٣٧) النويري، نهاية الإرب ج٢٩، ص

٣٨) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ٨٢

(٣٩) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٨٢، محمد بن أحمد ابن إياس الحنفي، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ج١ق١، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة العامة، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٢٦٩.

(٤٠) **السيرة** ج١ ص ٧٥١ -٧٧٣، ج٢ ص ٧٨٧ - ٧٩٣.

(٤١) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٤، ص٣١٤-٣١٥، ٣٢٠-٣٢٩، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج ٦، ص٢٧٥، ٢٧٨،٢٩٣، ٢٦٩، أبو الفدا الحافظ بن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث، القاهرة ط٥، ١٩٩٨م ص ١١١، ١٤٨، ١٦٧،١٥٣،١٤٩.

(٤٢) ابن آيبك الدواداري، **كنز الدرر وجامع الغرر** -الدر المطلوب، ص٣٠٥-٣٠٦، المقريزي، **السلوك** ج١ق١، ص٢٤٢، ٢٥٧، انظر ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٧/ ص ١٩٣، ٢٢٨، ابن تغرى بردى، النجوم ج٦، ص ٢٧٨.

(٤٣) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج ٥، ص ٣٣٢،٣٠١-٣٣٣، أبو الفدا، **المختصر** ج٣، ص ٢٠٩، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٣١٥.

(٤٤) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص٣٣٦-٣٤٠، أبو الفدا، **المختصر** ج٣، ص٢٠٩، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٣٣-٣٥، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص٣١٦-٣١٨.

(٤٥) **السيرة** م٢ ص ٩٧٨-٩٨٣.

(٤٦) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، تحقيق عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ص ٧٢، سالم محمد الحميدة، **الحروب الصليبية**، ج٤، دار الشؤن الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٩٤م، ص٢٥٩.

(٤٧) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٦، ص ٦٣-٧٠، أبو الفداء، **المختصر** ج٣، ص ٢١٥؛ الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص٤١٢.

(٤٨) ابن ايبك الدواداري، **الدر المطلوب**، ص ٣٦٦، ميخائل زابوروف، **الصليبيون في الشرق**، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦م، ص٣١٢.

(٤٩) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ٧١، أبو الفدا، **المختصر** ج٣، ص ٢١٦، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٣٣٣، المقريزي، **السلوك** ج١ ص٤٣٧، جوزيف نسيم، **العدوان الصليبي على الشام**، القاهرة، دار الكتب الجامعية، ط٣، ١٩٧١م، ص ٥٤-٥٥.

(٥٠) الحنبلي: **شفاء القلوب**، ص٣٧٩، جوزيف نسيم، **العدوان الصليبي على الشام**، ص ٥٤-٥٥.

(٥١) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص٧٢-٧٣، المقريزي: **السلوك**، ج١، ق٢، ص٣٣٣.

(٥٢) زين الدين عمر بن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٩٦م، ص٢٥٩؛ أبو الفدا، **المختصر** ج٣، ٢١٦، الحنبلي **شفاء القلوب**، ص٣٧٩.

(٥٣) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ٧٣-٧٤، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢ ص ٣٣٥، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص٣٣٠، سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج٢، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠١٠م، ص ٢٨٨.

(٥٤) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص٧٤-٧٥، أبو الفدا **المختصر** ج٦، ص ٢١٦-٢١٧، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص٣٧٩ المقريزي: **السلوك**، ج١، ق٢، ص٣٣٥-٣٣٦، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٣٣٠. ابن إياس: **بدائع الزهور**، ج١ق١، ص٢٧٨، سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج٢، ص ٢٨٨، جوانفيل، **القديس لويس وحملاته على مصر والشام**، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٨، ص ٩١.

(٥٥) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ٧٦، المقريزي، **السلوك** ج١ ق٢، ص ٣٣٧، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦ ص ٣٣٠، جوزيف نسيم، **العدوان الصليبي**، ص٦٣.

(٥٦) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ٧٦، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٣٣٧، جوانفيل، **القديس لويس**، ص ١٠١.

(٥٧) المقريزي، **السلوك** ج١ ص ٣٤١، جوانفيل ص ١٠٣.

(٥٨) ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨ ص ٧٧٤، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين** ص ٣٧، ابن كثير ج١٣ ص ٢٠١، المقريزي، **السلوك** ج١ ص ٣٣٩.

(٥٩) المقريزي، **الخطط المقريزية**، ج٤، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢١٠، **السلوك** ج١ق٢، ص ٣٣٩، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص٣٨٠، ابن إياس، **بدائع الزهور** ج١ق١، ص٢٧٨-٢٧٩.

(٦٠) **السيرة**، م١، ص ٤٦.

(٦١) المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٢٩٨.

(٦٢) النويري، **نهاية الإرب**، ج٢٩، ص ٣٣٤، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص٣٣٣.

(٦٣) **السيرة**، م١، ص٥٥.

(٦٤) **السيرة**، م١، ص ٥٥.

(٦٥) **السيرة**، م١، ص ٧٠.

(٦٦) **السيرة**، م١، ص ٦٢.

(٦٧) **السيرة**، م١، ص ٦٩.

(٦٨) **السيرة**، م١، ص ٥٥

(٦٩) **السيرة**، م١، ص ٨٩.

(٧٠) **السيرة** م٢، ص ٩٦٥.

(٧١) ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٣٨، ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ١١٩، ١٣١، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٣٦٤، ٣٧٠.

(٧٢) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٦، ص ١٢٨-١٣٠، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص٣٧، المقريزي، **السلوك**، ج١ق٢، ص٣٥٨-٣٦٠، ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٣٧٠-٣٧١، بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ص٨، ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨، ص٥٢٠.

(٧٣) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ١٣٢، ١٤٠، ١٩٤، ٢٠١، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٣٩، ٤٣، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص٣٦١، ٣٦٨، ٤٠١-٤٠٤، بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص ٨-٩.

(٧٤) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ١٩٦، ٢٩٠-٢٩٣، ٢٩٧، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٤٤،٤٧-٤٨، ٥٣-٥٥، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٤٠٥، ٤١٧، ٤٢٩-٤٣٢، ٤٣٥، بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**، ص ١٠-١٢.

(٧٥) ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص٣٧، ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٦، ص ٨٣، ابن أيبك الدوادار، **كنز الدرر**-الدر المطلوب، ص ٣٧٠.

(٧٦) المقريزي، **السلوك**، ج١ق٢، ص٣٤٠-٣٤١، النويري، **نهاية الإرب**، ج٢٩، ص ٣٣٦.

(٧٧) ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٣٧، ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨، ص٥١٤-٥١٥.

(٧٨) ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص٣٣٦-٣٣٧.

(٧٩) **السيرة**، م٢ ص ٩٦١-٩٦٦.

(٨٠) ابن تغرى بردى، **النجوم**، ج٦/ ص ٣٢٨، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٣٧٩.

(٨١) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج٤٧، ص ٣٥٨.

(٨٢) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ٨٠، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٣٤٢.

(٨٣) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٦، ص ١٤٣-١٤٤، المقريزي، **الخطط المقريزية**، ج٤، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٩٧م، ص ٢١٠، **السلوك** ج١ق٢، ص ٣٣٩، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص٣٨٠، ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١/ ق١، ص٢٧٨-٢٧٩.

(٨٤) **السيرة**، م١، ص ٤٤-٤٥.

(٨٥) ابن واصل، **مفرج الكروب** ج٥، ص ١٥٦ – ١٦٠، النويري، **نهاية الإرب**، ج ٢٩، ص ٢٢٨.

(٨٦) **ابن أيبك الدوداري**، **كنز الدرر**، جـ٧، ص ٢١١.

(٨٧) ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٢٢.

(٨٨) شهاب الدين ابن العماد، **شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب**، ج٧، تحقيق عبد القادر الأرناؤط، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٩١م، ص ٣٠٤.

(٨٩) ابن واصل، ج٤، ص ٢٤٣، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٣٥٤، النويري، نهاية الإرب، ج ٢٩، ص ١٥١.

٩٠) المقريزي، **السلوك** ج١ق١، ص ٢٥٥، أبو الفدا، **المختصر** ج٣، ص ١٩٥.

(٩١) ابن تغرى بردى، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص٢٧٣، سعيد عاشور، **الأيوبيون والمماليك**، القاهرة، دار النهضة العربية، ص ١٢٠-١٢١، السيد الباز العريني، **المغول**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١م، ص ١٢٧.

(٩٢) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٣، ص ١٣٥.المقريزي، **السلوك**، ج ١ق٢، ص ٢٧٠، العريني، **المماليك**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٢م، ص ٤٤.

(٩٣) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ١٣٥. المقريزي، **السلوك**، ج ١ق٢، ص ٢٧٠، العريني، **المماليك**، ص ٤٤.

(٩٤) المقريزي، **السلوك**، ج ١ق٢، ص ٢٧١-٢٧٢.

(٩٥) المقريزي، **السلوك**، ج ١ ق٢، ص ٣١٦-٣١٩.

(٩٦) الذهبي، **دول الإسلام**، ج ٦، ص ١١٢، المقريزي، **السلوك**، ج ١ق٢، ص -٣١٨-٣٢١، ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨ ٧٤١، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٣٣، ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٦، ص ٢٨٦-٢٨٧، أبو الفدا، **المختصر**، ج٣، ص ٢٠٩-٢١١.

٩٧) ابن الوردي، تتمة **المختصر**، ج ٢، ص ١٧٥، ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج ٥، ص ٣٥٠، ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ٦، ص ٢٨٧، المقريزي، **السلوك**، ج ١، ص٤٢٤.

(٩٨) ابن واصل **مفرج الكروب**، ج٥، ص٣٥٠-٣٥٩، أبو الفدا، **المختصر** ج٣، ص٢١٢-٢١٣، ابن كثير، ١٥٠-١٥١، المقريزي، **السلوك** ج١ق٢، ص ٤٢٧، النجوم ج٦، ص ٢٨٧-٢٨٨، ابن العميد، **أخبار الأيوبيين**، ص ٣٤ ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨، ص ٧٦٠-٧٦٢، الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٣٣٨، سعيد عاشور، **الحركة الصليبية** ج٢، ص ٢٧٤-٢٧٥.

مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الخاتون
والدة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي



د. رعد إسماعيل نعمان يوسف

محاضر تاريخ إسلامي – قسم التاريخ

كلية الآداب – جامعة تكريت

جمهورية العراق

مُلَخَّصْ

الدولة الأيوبية دويلة إسلامية نشأت في منتصف القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) واستمرت حتى منتصف القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) تقريبًا، أي ما يقارب القرن من الزمان، وهناك العديد من المصادر والمراجع التي كتبت في تاريخ تلك الدولة وسيرة سلطانها الناصر صلاح الدين الأيوبي والذي إليه يعود الفضل في قيام تلك الدولة، ومنها مصادر عاصرة صلاح الدين وكانت قريبة جدًا منه. وقد ذكرت تلك المصادر الكثير عن أخبار الأيوبيين، وتراجم العديد من أفراد الأسرة الأيوبية، وأشارت إليهم من حيث الولادة والوفاة ومكان الدفن وغيرها من التفاصيل، غير أن ما يثير الاستغراب والدهشة أن جميع تلك المصادر لم تذكر أي معلومات مهما كانت نزيرة عن والدة صلاح الدين الأيوبي. وقد حاولنا في هذا البحث الوصول إلى أي معلومة ممكن أن نستدل بها عن والدة صلاح الدين الأيوبي ولو بشكل تقريبي وذلك من خلال أقارب صلاح الدين من جهة الأم، وقد بحثنا في المصادر التاريخية فوجدنا أن هناك ثلاثة شخصيات يمكن من خلالها أن نستدل بها إلى شخصية والدة صلاح الدين، وكانت تلك الشخصيات هي خاله شهاب الدين محمود بن بكش الحارمي، وابن خاله عز الدين موسك بن جكو، وخالته ست حارم. فمن خلال خاله شهاب الدين عرفنا أن والدة صلاح الدين هي بنت بكش وهو جد صلاح الدين من أمه، ومن خلال ابن خاله عز الدين موسك عرفنا أن والدة صلاح الدين من قبيلة هذبان الكردية وهي نفس قبيلة زوجها نجم الدين أيوب، ومن خلال خاله شهاب الدين الحارمي وخالته ست حارم، عرفنا أن لقب والدة صلاح الدين هو الحارمي. وفي النتيجة نستطيع أن نقول إن والدة صلاح الدين هي الخاتون (وهو لقب كان يلقب به نساء بني أيوب) بنت بكش الحارمية الهذبانية الدوينية. كما إننا ومن خلال التاريخ التقريبي لولادة ابنها شاهنشاه وكذلك تاريخ ولادة صلاح الدين نستطيع أن نضع تاريخ تقريبي أيضًا لمولد أم صلاح الدين، وهو ما بين سنة (٥٨٨هـ/ ١١٩٤م) وسنة (٥٩٢ هـ/ ١١٩٨م). أما تاريخ وفاتها ومكان دفنها فإننا ومن خلال تتبع مسير الأسرة الأيوبية بين عدة مدن وحتى استقرارها في مصر وجدنا أن التاريخ الأرجح لوفاة والدة صلاح الدين هو في الفترة التي كان فيها زوجها نجم الدين أيوب نائبًا لعماد الدين زنكي على بعلبك وهي الفترة الممتدة من (٥٣٤هـ/ ١١٣٩م) وحتى سنة (٥٤١هـ/ ١١٤٦م)، ودفنت هناك.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث:	٠٦	أغسطس	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٢٥	أغسطس	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الدولة الأيوبية؛ الأسرة الأيوبية؛ الخاتون؛ المصادر التاريخية؛ تكريت

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.184797

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

رعد إسماعيل نعمان يوسف، "الخاتون والدة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص٥٥ – ٦٢.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: raad06695@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقَدِّمَةُ

تاريخ الدولة الأيوبية يمتد من منتصف القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) وحتى منتصف القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) تقريبًا، أي ما يقارب القرن من الزمان، وخلال تلك الفترة والفترة التي تلتها كتب العديد من المؤرخين في تاريخ الدولة الأيوبية بشكل عام أو بشكل خاص، كما أن هناك مؤرخين عاصروا السلطان صلاح الدين الأيوبي وكتبوا في سيرته، ومنهم العماد الأصفهاني الكاتب،[١] والمؤرخ ابن شداد[٢]. وابن أبي طي الحلبي.[٣]

وقد ذكرت تلك المصادر التي أشرنا إليها الكثير عن أخبار الأيوبيين، وتراجم العديد من أفراد الأسرة الأيوبية، وأشارت إليهم من حيث الولادة والوفاة ومكان الدفن وغيرها من تفاصيل سيرهم الشخصية، غير أن ما يثير الاستغراب والدهشة أن جميع تلك المصادر لم تذكر أي معلومات عن والدة الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي إليه يعود الفضل في قيام تلك الدولة. لذا فإننا في هذه الدراسة سوف نحاول الوصول إلى أي معلومة ممكن أن نستدل بها عن والدة صلاح الدين الأيوبي ولو بشكل تقريبي.

أولاً: بدايات الأسرة الأيوبية

وبما أن السيدة والدة صلاح الدين عاصرت السنوات الأولى لبدايات الدولة الأيوبية، (وعلى الأرجح أنها توفيت خلال تلك الفترة) فعلينا أولاً وقبيل الحديث عن تلك السيدة، وجمع المعلومات عنها أن نذكر وبصورة مقتضبة وموجزة بدايات الأسرة الأيوبية في المجال السياسي والإداري، حتى يسهل على القارئ فهم واستيعاب ما سوف نتناوله في هذا البحث، فنقول:

كان القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر) الميلادي حافلاً بالأحداث السياسية والعسكرية والتي كان لها الأثر الكبير في حدوث العديد من التغيرات في خارطة العالم الإسلامي وكان منتصف هذا القرن هو بداية بزوغ دويلة إسلامية قامت على أنقاض دويلات سبقتها، وأخذت على عاتقها مقاومة الغزو الصليبي للأراضي الإسلامية وقد عرفت هذه الدولة باسم (الدولة الأيوبية).

ففي عهد الخليفة العباسي المستظهر بالله (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م - ٥١٢هـ/ ١١١٨م) وفي وقت تسلط السلاجقة على مجريات الدولة الإسلامية والخلافة العباسية في بغداد، قام السلطان السلجوقي بتولية شخص يدعى مجاهد الدين بهروز[٤] لمنصب شحنكية بغداد[٥] وكان هذا الحدث هو النقطة التي أنطلق منها تاريخ الدولة الأيوبية وظهور الأيوبيين على الساحة السياسية للدولة الإسلامية.

كان بهروز (أو ما يعرف ببهروز الخادم) يقيم في نفس المنطقة التي كانت فيها العائلة الأيوبية وهي بلدة دوين[٦] وكانت له علاقة صداقة وثيقة مع شاذي بن مروان جد الأيوبيين ووالد الأميرين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه "وكان بينهما من الاتحاد كما بين الأخوة"[٧] وكانت لشاذي على بهروز خدمة وفضل[٨] فلما ظهرت كفاءة بهروز وعلا في الدولة محله أرسل إلى صاحبه شاذي يستدعيه ويريه ما وصل أليه من نعمة وليقاسمه ما خوله الله تعالى وليعلمه أنه لم ينساه فلما وصل أليه أكرمه وأحسن وفادته، وجعله مستحفظًا على مدينة تكريت[٩]، وكانت تابعة له[١٠].

أما تاريخ استدعاء بهروز لشاذي وقدومه أليه فأن المصادر لم تشر إلى هذا التأريخ بشكل دقيق ولم تذكر تلك المصادر المكان الذي تم فيه اللقاء بين بهروز وشاذي، لكننا ومن خلال دراستنا لحياة مجاهد الدين بهروز نجد أنه قد تولى شحنكية بغداد والعراق أكثر من مرة وفي أوقات مختلفة كان أولها سنة (٥٠٢ هـ/ ١١٠٨م) وأخرها كان في سنة (٥٣٢هـ/ ١١٣٨م)[١١]، وعلى الأرجح إن قدوم شاذي وعائلته كان عندما تولى بهروز شحنكية العراق بشكل عام في سنة (٥١٣ هـ/ ١١١٩م)، أو في سنة (٥٢٣ هـ/ ١١٢٩م) أو فيما بينها. ويؤكد النويري هذا الرأي فيقول: "قدم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدّين شيركوه من بلد دوين إلى العراق في خلافة المسترشد بالله"[١٢]، علمًا بأن خلافة المسترشد كانت من سنة (٥١٢ هـ/ ١١١٨م) وحتى مقتله سنة (٥٢٩ هـ/١١٣٥م)[١٣]

وبعد بضع سنوات مات شاذي في تكريت ودفن هناك[١٤]، فقام بهروز بتولية الأبن الأكبر لشاذي وهو نجم الدين أيوب مكان أبيه[١٥]، وأثناء ولاية نجم الدين أيوب لتكريت وتحديدًا في سنة (٥٢٦هـ/ ١١٣٢م) كان هناك حدثًا هامًا كان له الأثر الأكبر في مصير العائلة الأيوبية، وبداية العلاقة بين الأسرتين الزنكية والأيوبية، حيث لجأ عماد الدين زنكي حاكم الموصل وحلب إلى تكريت بعد هزيمته في المعركة التي وقعت بالقرب من سامراء، وهناك في تكريت أحسن نجم الدين استقبال زنكي وأكرم وفادته هو وجنوده وداوى جراحاته وأقام عنده خمسة عشر يومًا[١٦]، وبعد أن أعاد زنكي تنظيم قواته جهزه نجم الدين أيوب بالمؤن والمعدات وأعده له من القوارب والمعابر فلما عبر أمن الطلب وسار إلى بلاده.[١٧]

وفي سنة (٥٣٢ هـ/ ١١٣٧م) وقع حدث أخر كان السبب الذي جعل نجم الدين وأسرته يفارقون تكريت من غير رجعة ألا وهو قيام أسد الدين شيركوه بن شاذي بقتل أحد الأشخاص المقربين من بهروز في تكريت[١٨]، مما أثار غضب بهروز فأرسل كتابًا إلى نجم الدين وأمره بتسليم القلعة فأجاب نجم الدين ذلك بالسمع والطاعة وأنزل من القلعة جميع ما كان له بها من الأهل والمال وقررا قصد عماد الدين زنكي بالموصل[١٩].

وفي الوقت الذي كانا الأخوين وعائلتهما يتهيئون لمغادرة تكريت رزق نجم الدين أيوب بولد أسماه يوسف، وقيل انه ولد في أخر ليلة لهم في تكريت فتطيروا به وتشائموا منه[٢٠]، وقال بعضهم: "لعل فِيه الخيرة وأنتم لا تعلمون"[٢١]. وكان هذا المولود هو السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

فلما وصل أبنا شاذي إلى عماد الدين زنكي لم ينس احسانهما، فأستقبلهما أحسن استقبال وسر بهما وأحسن إليهما وأقطعهما الإقطاعيات الحسنة الجليلة[٢٢]، وفي سنة (٥٣٤هـ/ ١١٣٩م) تملك زنكي مدينة بعلبك وجعل نجم الدين أيوب كمستحفظًا عليها، فاستقر بها نجم الدين وعائلته إلى أن استبعد عنها في سنة (٥٤١هـ/ ١١٤٦م)[٢٣]. وبعد مقتل عماد زنكي سنة (٥٤١هـ/ ١١٤٦م) استمر الأخوين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ومعهم صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب في خدمة ابن عماد الدين زنكي السلطان نور الدين محمود وكانوا من أبرز أمرائه وقواده[٢٤]. استقر نجم الدين أيوب وعائلته في دمشق حتى سنة (٥٦٥هـ/ ١١٦٩م)، وذلك عندما تولى ابنه الناصر صلاح الدين الوزارة في مصر، فاستدعى والده نجم الدين وأخوته وبقية أهله ليبقوا معه في مصر، فرحلوا إليه، وبقي نجم الدين مع ابنه صلاح الدين حتى وفاته سنة (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م).[٢٥]

ثانيًا: والدة صلاح الدين الأيوبي

لم نجد في كتب التاريخ وكتب التراجم التي اطلعنا عليها أي ذكر لا من قريب ولا من بعيد لوالدة صلاح الدين الأيوبي فلم تذكر تلك المصادر عن تلك السيدة أي معلومة. مَنْ هي؟ وما هو نسبها؟ وفي أي وقت توفيت؟ وأين كان مكان دفنها؟ بل ولم تذكر حتى اسمها أو لقبها، وقد ورد في قصة ملفقة كثر تداولها في الآونة الأخيرة على مواقع الإنترنيت أن اسمها هو (ست الملك خاتون)، وهو غير صحيح[٢٦]. وما توفر لنا من معلومات عن والدة صلاح الدين فهي معلومات نزيرة جدا، منها اتها من دوين جاءت مع أسرة شاذي (جد الأيوبيين) إلى تكريت، حيث يشير العليمي إلى ذلك خلال حديثه عن الناصر صلاح الدين فيقول: "واتفق أهل التاريخ عل أن أباه وأمه من دوين"[٢٧].

لكننا نستطيع أن نستنتج بعض المعلومات عن والدة الناصر صلاح الدين من خلال السيرة الشخصية لبعض اقاربها الذين ورد ذكرهم في المصادر التاريخية، ومن هؤلاء الاشخاص الذين ذكرتهم تلك المصادر:

أخوها شهاب الدين الحارمي[٢٨]، فقد ذكرت العديد من المصادر أنه كان خال صلاح الدين، وأحد قواده المقربين[٢٩]، ومن خلال هذه الشخصية نستطيع أن نستنتج إن اباها اسمه تكش، حيث إن شهاب الدين اسمه محمود بن تكش، واسم تكش كان متداولاً بكثرة في نلك الفترة وخصوصًا في المناطق التي قدمت منها اسرة بني أيوب. أما لقب الحارمي لذي كان يلقب به شهاب الدين فانه ربما كان نسبة الى منطقة حارم[٣٠] القريبة من حلب، خصوصًا أن منطقة حارم هذه كان تسكنها عشائر كردية[٣١]. ولا نعلم إذا كان لقب الحارمي اختص به شهاب الدين فقط أم كان لقب كل العائلة.

الشخصية الثانية قريبة والدة صلاح الدين هو عز الدين موسك[٣٢] ابن أخيها، وابن خال السلطان صلاح الدين، ومن خلال معلوماتنا عن هذه الشخصية وابنائه واحفاده، نستطيع أن نستخلص بعض المعلومات عن والدة صلاح الدين.

أول تلك المعلومات أن والدة صلاح الدين كان لديها أخ اسمه "جكو" وهو والد عز الدين موسك، أما المعلومة الثانية فهي أنها (والدة صلاح الدين) كانت كردية تنتسب إلى قبيلة الهذباني، حيث إن عز الدين موسك كان يلقب بهذا اللقب[٣٣]، وقبيلة الهذباني هي القبيلة الكردية نفسها التي ينتسب اليها زوجها نجم الدين أيوب.

أما الشخصية الثالثة من أقارب والدة صلاح الدين فهي أختها "ست حارم" والتي ذكرتها عدة وأشارت إلى أنها خالة الناصر صلاح الدين الأيوبي.[٣٤] ولا نعلم إذا كان (ست حارم) هو اسمها أم لقبها، فمصطلح (ست) يأتي بمعنى السيدة وجمعها (ستات)، فيقولون ست ابيها، وست العرب، وست العجم، وست الحسن، وست النعم، أي أن لها السيادة على مَنْ أُضيفت إليهم[٣٥]، وعلى الأغلب أن "ست حارم" هو لقبها، ويعني سيدة حارم، وهذا ما يؤكد ما ذكرناه خلال حديثنا عن شهاب الدين الحارمي خال السلطان صلاح الدين وهو أن أخوال صلاح الدين ينتسبون إلى حارم، ويلقبون بلقب (الحارمي)، كما أن لقبها هذا (ست حارم) وعلى ما يبدو أنها لُقبت به لكونها كانت سيدة فاضلة وكانت لها أعمال خيرة، حيث يذكر ابن شداد أنه كان هناك مسجدًا في أطراف حلب باسمها "مسجد ست حارم".[٣٦]

وهذه المصادر التي اشارت الى اسم خالة صلاح الدين (ست حارم) ذكرت اسم والدها أو لقبه، ولكنها اختلفت بالاسم فذكرها كل مصدر باسم مختلف عن الاخر، فذكرها ابن شداد "ست حارم بنت اليغبساني"[٣٧]، وذكره ابن الشحنة "ست حارم بنت التعسنا "[٣٨]، أما سبط ابن العجمي فذكره "ست حارم بنت اليعسباي".[٣٩]

على الرغم أن أصل هذه المعلومة ومصدرها هو المؤرخ أبن شداد والتي ذكرها في كتابه الأعلاق الخطيرة، وعلى الرغم أن هناك تشابه ولو بشكل بسيط في اللفظ والكتابة بين تلك الأسماء التي طرحناها، إلا أننا لا نستطيع أن نحدد الاسم الصحيح بين تلك الأسماء لكونها أسماء عدة، ومعظمها إن لم تكن كلها أسماء غريبة ليس لها أي أصل أو معنى، ولذلك ربما كان هناك خطأ قد وقع فيه الناسخ أو المحقق في نقل الاسم.

وفي كل الأحوال فمن خلال ما ذكرناه ومن خلال المعلومات التي استنتجناها من الشخصيات التي ذكرناها من أقارب أم صلاح الدين (أخوها وأختها وابن أخيها) نستطيع أن نضع اسمًا لوالدة صلاح الدين الأيوبي المجهولة وغير المشار إليها في المصادر التاريخية وهو: الخاتون[٤٠] بنت بكش الحارمية الهذبانية الدوينية.

١/٢-تاريخ وفاتها ومكان دفنها

وكما هو الحال في إهمال المصادر التاريخية لذكر اسم والدة صلاح الدين ونسبها، كان هو الحال نفسه في عدم ذكر تاريخ وفاتها ومكان دفنها. ولمعرفة وقت وفاة والدة صلاح الدين والتربة التي دفنت فيها (ولو بشكل تقريبي) علينا أولاً أن نتتبع مسيرة نجم الدين أيوب مع أسرته والمناطق التي استقر فيها منذ بداية قدومه إلى العراق وحتى وفاته فهي كالتالي:

كما ذكرنا في بداية بحثنا أن نجم الدين أيوب وأسرته قدموا مع والدهم شاذي من منطقة دوين في بداية القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)، واستقرت في مدينة تكريت، وبعد سنة (٥٣٢هـ/١١٣٧م) رحلت الأسرة إلى الشام واستقر نجم الدين في بعلبك كمستحفظًا عليها وذلك في سنة (٥٣٤ هـ/ ١١٣٩م) وحتى سنة (٥٤١ هـ/ ١١٤٦م)، حيث استبعد منها ورحل إلى دمشق واستقر مع أسرته فيها، وظل بها حتى سنة (٥٦٥هـ/ ١١٦٩م) حيث رحل إلى مصر بطلب من ولده صلاح الدين يوسف الذي تولى الوزارة في مصر وأصبح الحاكم الفعلي للبلاد[٤١].

كانت ولادة صلاح الدين الأيوبي وكما هو معروف في اليوم الأخير أو الأيام الأخيرة للأسرة الأيوبية في مدينة تكريت، لذا فإن والدة صلاح الدين كانت حتى هذه الفترة موجودة وعلى قيد الحياة، وهذا يعني أن وفاتها لم تكن لا في دوين، ولا في تكريت.

بعد أن استبعدنا دوين وتكريت بقيت ثلاثة أماكن ممكن أن تكون أم صلاح الدين قد توفت بها وهي بعلبك، ودمشق، ومصر. أما مصر فإننا نستبعد أن تكون وفاتها بها، والسبب في رأينا هذا هو أن صلاح الدين الأيوبي كان الحاكم الفعلي لبلاد مصر وكان حوله الكتاب والمؤرخون والذين دونوا لحياة صلاح الدين بكل تفاصيلها، ومنهم القاضي ابن شداد والعماد الأصفهاني الكاتب، فلو أن والدة صلاح الدين كانت موجودة في مصر وتوفت بها فلا يعقل أن يغفل أولئك الكتاب عن ذكر تلك الحادثة المهمة وتحديد مكان الدفن.

أما دمشق فهي المحطة الأخيرة للأسرة الأيوبية قبل استقرارها في بلاد مصر، ولم يتركها الأيوبيون لفترة طويلة من الزمن، فبعد أن غادروها في سنة (٥٦٥هـ/ ١١٦٩م) عاد السلطان صلاح الدين وسيطر عليها في سنة (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م)[٤٢]، ولذلك فانه لو كانت وفاة والدة صلاح الدين في دمشق لكان قبرها معلوم، خصوصًا أن زوجها نجم الدين أيوب كان من أعيان دولة نور الدين بن زنكي في دمشق، كما أن صلاح الدين الأيوبي شغل منصب شحنكية دمشق في سنة (٥٦٠هـ/ ١١٦٥م) ومن قبله أخوه توران شاه[٤٣].

لذا فإن التاريخ الأرجح لوفاة والدة صلاح الدين هو في الفترة التي كان فيها زوجها نجم الدين أيوب نائب عماد الدين زنكي على بعلبك وهي الفترة الممتدة من (٥٣٤هـ/ ١١٣٩م) وحتى سنة (٥٤١هـ/ ١١٤٦م). ويستند رأينا هذا على أن نجم الدين استبعد قسرًا عن بعلبك، ولم يتملكها الأيوبيون إلا في سنة (٥٧٠ هـ/١١٧٤م) عندما ضمها صلاح الدين إلى دولته[٤٤]، تلك الفترة الطويلة (ما يقارب الثلاثون عامًا) لا بد أن يكون القبر قد درس وضاع أثره بين القبور.

٢/٢-أبناء الخاتون أم صلاح الدين

من خلال دراستنا لتاريخ الدولة الأيوبية والسير الشخصية لأفرادها، وجدنا أن لصلاح الدين عدد من الأخوة والأشقاء،[٤٥] ذكورًا وإناثًا[٤٦]، أما أبناء الخاتون أم صلاح الدين، أي أشقاء صلاح الدين (أخوته من الأم والأب) فلم تذكر المصادر سوى شقيق واحد وهو الأمير نور الدولة شاهنشاه[٤٧]، لذا فإن أم صلاح الدين لها ولدان من زوجها نجم الدين أيوب، هما شاهنشاه وصلاح الدين يوسف.

والأمير نور الدولة شاهنشاه هو الابن الأكبر لنجم الدين أيوب بن شاذي، و"كان أكبر الأخوة"[٤٨]، وهو كذلك "أقدم بني أيوب وفاة"[٤]، حيث أنه مات مقتولاً في الوقعة التي دارت بين المسلمين والفرنج عندما هاجم الفرنج بلاد المسلمين في حملتهم الصليبية الثانية وتقدموا نحو أبواب دمشق ودارت على أبواب دمشق رحى معركة كبيرة كان النصر فيها للمسلمين وقد قتل من المسلمين في هذه المعركة الكثير من المسلمين، ومنهم الأمير شاهنشاه بن نجم الدين أيوب وذلك في شهر ربيع الأول سنة (٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م)[٤٩].

وهناك ملاحظة مهمة وهي أن شاهنشاه بن أيوب هذا وعلى الرغم أنه شقيق صلاح الدين وأنهم من أم وأب واحد، إلا أن الفرق بين ولادة الرجلين كان كبير نسبيًا، فولادة السلطان صلاح الدين الأيوبي وكما هو معروف كانت في سنة (٥٣٢ هـ/ ١١٣٧م)، أما ولادة شاهنشاه فلم تشر المصادر إلى ولادته أو عمره عند مقتله، إلا أننا ومن خلال ولادة أبنائه نستطيع أن نضع تاريخ تقريبي لولادته.

حيث إن شاهنشاه عند وفاته سنة (٥٤٣ هـ/ ١١٤٨م) كان له ثلاثة من الأبناء وهم الملك المظفر تقي الدين عمر ولملك عز الدين فروخ شاه[٣]، وابنة اسمها عذراء خاتون[٥٠]، وكان الملك تقي الدين عمر وهو الأبن الأكبر لشاهنشاه، كانت ولادته في سنة (٥٣٤هـ/ ١١٤٠م)[٥١]، ولو فرضنا إن شاهنشاه قد تزوج وعمره عشرون سنة أو بعد العشرين بقليل لكانت ولادته ما بين سنة (٥١٠ هـ/ ١١١٦م) وسنة (٥١٥ هـ /١١٢١م)، كما إننا نعتقد أن مكان ولادته كانت في دوين أي قبل قدوم أبيه نجم الدين أيوب إلى تكريت، ودليلنا على هذا هو إن اسم شاهنشاه ومعناه ملك الملوك[٥٢] باللغة الفارسية واللغة الكردية، وقد سُمي بهذا الاسم تماشيًا مع الثقافة الكردية الشائعة في تلك المنطقة ذات الأغلبية الكردية، أو ربما قد تكون ولادته في تكريت في بداية قدوم عائلته إليها.

كما إننا ومن خلال التاريخ التقريبي لولادة شاهنشاه وتاريخ ولادة صلاح الدين نستطيع كذلك أن نضع تاريخ تقريبي أيضًا لمولد أم صلاح الدين، حيث إننا نستطيع أن نخمن إن مولد الخاتون أم صلاح الدين كان ما بين سنة (٥٨٨هـ/ ١١٩٤م) وسنة (٥٩٢هـ/ ١١٩٨م).

خَاتِمَةٌ

خلصت الدراسة إلى:

- لم تشر المصادر التاريخية العامة أو التي اختصت في تاريخ الدولة الأيوبية إلى والدة السلطان صلاح الدين الأيوبي ولم تذكر عنها أي معلومة.
- من خلال المعلومات المتوفرة عن أقارب والدة صلاح الدين نستطيع أن نقول إن والدة صلاح الدين هي الخاتون بنت بكش الحارمية الهذبانية الدوينية.
- ذكرت المصادر أن والدة صلاح الدين كان لها ابنان هما نور الدولة شاهنشاه والسلطان صلاح الدين يوسف.
- من خلال التاريخ التقريبي لولادة أبنها شاهنشاه وتاريخ ولادة صلاح الدين، يكون التاريخ التقريبي لمولد أم صلاح الدين وهو ما بين سنة (٥٨٨هـ/ ١١٩٤م) وسنة (٥٩٢هـ/ ١١٩٨م).
- التاريخ الأرجح لوفاة والدة صلاح الدين هو في الفترة التي كان فيها زوجها نجم الدين أيوب نائبًا لعماد الدين زنكي على بعلبك وهي الفترة الممتدة من (٥٣٤هـ/ ١١٣٩م) وحتى سنة (٥٤١ هـ/ ١١٤٦م)، ودفنت هناك.

الاحالات المرجعية:

(١) الأصفهاني، أبو عبد الله عماد الدين محمد بن أحمد بن حامد الكاتب، (ت: ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١م)، **البرق الشامي**، تحقيق: فالح حسين، مؤسسة عبد الحميد شومان، ط ١، (عمان، ١٩٨٧م). وهذا الكتاب في عدة أجزاء الجزء الأول منه مفقود.

(٢) ابن شداد، أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الأسدي الموصلي، (ت: ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٤ م)، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** المعروف بـ (سيرة صلاح الدين الأيوبي)، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، ط ٢ (القاهرة، ١٩٩٤م)

(٣) ابن أبي طي مؤرخ حلبي عاصر الدولة الزنكية والدولة الأيوبية، وتوفي بحدود سنة (٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م)، وقد ألف كتابًا في سيرة السلطان صلاح الدين سمي بـ (كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين) أو (السيرة الصلاحية)، وعلى الرغم أن الكتاب مفقود ولم يصل إلينا إلا أن الكثير من المؤرخين اعتمدوا عليه وأخذوا منه. للمزيد ينظر: العشماوي، شيرين شلبي أحمد، **ابن أبي طي الحلبي في المصادر الإسلامية**، مكتبة الثقافة الدينية، ط ١، (القاهرة، ٢٠١٠ م)، ص ١٤.

(٤) بهروز: جمال الدولة مجاهد الدين أبو الحسن بهروز بن عبد الله الغياثي كان خادمًا روميًا ابيض اللون من أهل دوين. وقعت له حادثة في دوين أجبرته على الخروج منها، وتوجه نحو خدمة ملوك السلاجقة، توفي سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥م. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، (ت: ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١م)، **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية (بيروت، ١٩٩٢ م) ج١٨، ص٤٦؛ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد الأربلي (ت: ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢م) **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر (بيروت، لا. ت)، ج١، ص٢٥٦.

(٥) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، (ت: ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، دار الكتاب العربي، ط ٢، (بيروت، ١٩٩٣ م)، ج٣٥، ص١٤؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٣م) **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق: مفيد قميحة وآخرون، دار الكتب العلمية، ط ١، (بيروت، ٢٠٠٤م)، ج٣٣، ص١٤٩.

(٦) **دوين**: بالفتح، ثم الكسر، وياء مثناة من تحت ساكنة، ونون: بلدة من نواحى أرّان، فى آخر حدود أذربيجان، بقرب تفليس. ابن عبد الحق، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق القطيعي البغدادي، (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م)، **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، ط ١، (بيروت، ١٩٩٢ م)، ج٢، ص ٥٤٤.

(٧) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج ١، ص ٢٥٦.

(٨) أبن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي (ت: ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٣م) **البداية والنهاية**، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١ (بيروت، ١٩٨٨م)، ج١٢، ص٣٣٧.

(٩) **تكريت**: مدينة قديمة بين بغداد والموصل وهي أقرب إلى بغداد منها إلى الموصل بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخًا، قامت في طرفها قلعة حصينة راكبة على نهر دجلة بناها ملوك الفرس منذ القدم على حجر عظيم، الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت: ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) **معجم البلدان**، ط ٢، دار صادر، (بيروت، ١٩٩٥م)، ج٢، ص٣٨. وهي الأن مركز محافظة صلاح الدين العراقية.

(١٠) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله، (ت: ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار أحياء التراث، (بيروت، ٢٠٠٠م) ج، ١٠، ص٣٠؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج٣٩، ص٣١١.

(١١) أبن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري (ت: ٦٣٠هـ /١٢٣٣م) **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط ١ (بيروت، ١٩٩٧ م)، ج ٨، ص ٥٧٤، ج٩، ص ٩٨؛ الذهبي، تاريخ الاسلام، ج ٣٥، ص ١٤ ـ ج ٣٦، ص٢٠٥.

(١٢) النويري، **نهاية الأرب**، ج ٢٨، ص ٢٣٤.

(١٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت: ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، **تاريخ الخلفاء**، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط١ (مكة المكرمة، ٢٠٠٤م)، ص، ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(١٤) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج ٧، ص١٤٠؛ اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد، (ت: ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦م)، **ذيل مرآة الزمان**، دار الكتاب الإسلامي، ط ٢ (القاهرة، ١٩٩٢م) ج١، ص٣٨.

(١٥) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج١، ص٢٥٦؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج١٠، ص٣٠؛ ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الأشبيلي (ت: ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦م) **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي** السلطان الأكبر المعروف بـ (تاريخ ابن خلدون)، تحقيق: خليل شحاذه، دار الفكر، ط ٢، (بيروت، ١٩٨٨ م)، ج٥، ص ٣٢٦.

(١٦) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٢، ص ٣٣٧.

(١٧) ابن الأثير، **الكامل**، ج ٩، ص٣٤.

(١٨) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج١، ص٢٥٧؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج٣٩، ص٣١١؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج١٠، ص٣١.

(١٩) أبو شامة، أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة (ت: ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م)، **عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، ط١، (بيروت، ١٩٩٧م)، ج٢، ص ٢٥٤.

(٢٠) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، (ت: ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط٣، (بيروت، ١٩٨٥م)، ج ٢١، ص٢٨٣.

(٢١) الذهبي، **تاريخ الاسلام**، ج ٤١، ص٣٦٠؛ السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين، (ت: ٧٧١هـ /١٣٧٠م)، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر، ط٢، (القاهرة، ١٩٩٣م)، ج٧، ص٣٤١.

(٢٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ٣٤٢.

(٢٣) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، (ت: ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق: جمال الدين الشيال، دار الكتب والوثاق القومية، (القاهرة، ١٩٥٣ م)، ج ١، ص٩؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٠، ص ٣١.

(٢٤) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج ٧، ص ١٤٤؛ ابن تغرى بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، (ت: ٨٧٤هـ /١٤٧٠ م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، (القاهرة، ١٩٦٣م)، ج ٦، ص ٥.

(٢٥) للمزيد يُنظر: رعد اسماعيل نعمان، **المفصل في تاريخ الدولة الأيوبية**، دار أمجد للنشر، (عمان، ٢٠٢٠)، ج٢، ص٣٧٥ - ٣٧٦.

(٢٦) القصة تتحدث عن زواج نجم الدين أيوب بوالدة صلاح الدين وهي مليئة بالمغالطات والاخطاء التاريخية، وتم كتابة بحث من قبلي لتفنيد تلك القصة وتكذيبها.

(٢٧) العليمي، ابو اليُمن مجير الدين عبد الرحمن بن محمد الحنبلي، (ت: ٩٢٨هـ / ١٥٢٢ م)، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، تحقيق: عدنان يونس وعبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، (عمان، لا.ت) ج١، ص ٣٩٤.

(٢٨) **الحارمي**: هو الأمير شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي، خال صلاح الدين الأيوبي، أعطاه السلطان حماه عندما تملكها، فبقي بها مدة، ومرض فحاصرته الفرنج حصارًا شديدًا، وعجزوا عن أخذها، فلما رحلوا توفي شهاب الدين وتوفي قبله بثلاثة أيام ولده الذي كان شابًا مليحًا ومن أحسن أهل زمانه، توفي (٥٧٣ هـ/ ١١٧٧م)، الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج ٤٠، ص ١٣٠.

(٢٩) الأصفهاني، **البرق الشامي**، ج٣، ص٥٥؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ٣٦٨؛ المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني العبيدي، (ت. ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م)، **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، تحقيق: جمال الدين الشيال ومحمد حلمي أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط١، (القاهرة، لا. ت)، ج٣، ص ٣٠٨.

(٣٠) **حارم**: وهي بلدة صغيرة ذات قلعة، وأشجار، وأعين، ونهر صغير قال ابن سعيد: هو حصن كثير الأرزاق وقد خص بالرمان الذي يظهر باطنه من ظاهره، مع عدم العجم وكثرة المياه، وهو على مرحلتين من حلب في جهة الغرب وبين حارم وأنطاكية مرحلة. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر الأيوبي (ت: ٧٣ هـ/١٣٣١م)، **تقويم البلدان**، أعتنى بتصحيحه: رينورد وماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية (باريس، ١٨٤٠م)، ص ٢٩٥.

(٣١) الغزي، كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البالي الحلبي، **نهر الذهب في تاريخ حلب**، دار القلم، ط ٢، (حلب، ١٩٩٩ م)، ج ١، ص ٣٨٤.

(٣٢) **موسك**: هو عزّ الدين موسك بن جكّو، ابن خال السلطان صلاح الدين الأيوبي، كان من أمراء الأكراد وأصحاب الأجناد، ولي الولايات الجليلة بمصر وكان فارسا شهمًا شجاعًا، وكان محسنًا الى الناس ديّنا صالحا سامعًا للحديث، مرض بمرج عكا في حرب الفرنج يومئذ، فأمره صلاح الدين أن يمضي إلى دمشق ليستشفي بها فتوجه الى دمشق ومات بها في سنة (٥٨٥ هـ/ ١١٨٩م)، ابن الفوطي، **مجمع الآداب**، ج١، ص ٣٥٦؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص١١٠. واسم (موسك) هو تصغير لاسم (موسى) باللغة الكردية.

(٣٣) ابو شامة، **الروضتين**، ج٤، ص١٠٨؛ اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ج٢، ص٤١٥؛ الكتبي، صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر الدمشقي (ت: ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م)، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، ط ١، (بيروت، ١٩٧٣م). ج١، ص٤٥١.

(٣٤) ابن شداد، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي (ت: ٦٨٤هـ/ ١٢٨٦م)، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق: يحيى عبارة، وزارة الثقافة السورية (دمشق، ١٩٧٨م)، ج١، ق١، ص٢٣٥؛ ابن الشحنة، أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد الحلبي (ت: ٨١٥ هـ/ ١٤١٢م)، **الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب**، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار الكتاب العرب، (دمشق، ١٩٨٤م)، ص١٠٧؛ سبط ابن العجمي، أبو ذر موفق الدين أحمد بن إبراهيم بن محمد الحلبي (ت: ٨٨٤هـ /١٤٨٠م)، **كنوز الذهب في تاريخ حلب**، دار القلم، ط١، (حلب، ١٩٩٧ م)، ج ١، ص ٤٠١

(٣٥) أحمد مختار عبد الحميد وآخرون، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، عالم الكتب، ط١، (بيروت، ٢٠٠٨م)، ج٢، ص ١٠٣٢.

(٣٦) **الأعلاق الخطيرة**، ج ١، ق١، ص ٢٠٥.

(٣٧) **الأعلاق الخطيرة**، ج ١، ق ١، ص ٢٣٥.وذكر محقق الكتاب انه وجد الاسم في مخطوطة أخرى باسم (اليغباني)

(٣٨) **الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب**، ص١٠٧.

(٣٩) **كنوز الذهب في تاريخ حلب**، ج١/ ص ٤٠١. وقد ذكر محقق الكتاب أنه وجد الاسم في مخطوطة اخرى (التعسلني).

(٤٠) **الخاتون**: كلمة اعجمية كانت تطلق على المرأة ذات المقام الشريف، والعرب يلقبون بها نساء الملوك. البركتي، محمد عميم الإحسان المجددي، **التعريفات الفقهية**، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت، ٢٠٠٣م)، ص ٨٤. وكان هذا اللقب يطلق على نساء بني ايوب كست الشام خاتون وربيعة خاتون بنات نجم الدين أيوب بن شاذي.

(٤١) للمزيد يُنظر: رعد اسماعيل نعمان، **المفصل في تاريخ الدولة الأيوبية**، ج ٢، ص ١٣٠ ـ ١٣٥.

(٤٢) العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي (ت: ٧٤٩هـ /١٣٤٩م) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق: مجموعة من المحققين، المجمع الثقافي، ط١ (أبو ظبي، ٢٠٠٣م)، ج ٢٧، ص ١٠٧؛ الحنبلي، أبو

الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد العكري، (ت ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٩م) **شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب**، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط ١، (دمشق، ١٩٨٦م)، ج ٦، ص ٣٩١.

(٤٣) أبو شامة، **الروضتين**، ج ١، ص ٣١٨ ـ ٣١٩؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٢، ص ٢٩٠.

(٤٤) ابن الأثير، **الكامل**، ج ٩، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩؛ البنداري، أبو إبراهيم الفتح بن علي بن محمد، (ت. ٦٤٣ هـ/ ١٢٤٥م)، **سنا البرق الشامي**، تحقيق: فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، (القاهرة، ١٩٧٩م) ص٨٤؛ ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢ ص٣٠؛ ص٣٤؛ ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ج ٥، ص٣٣٩.

(٤٥) الشقيق والأخ: الأخ في اللغة: هو من ولده الأب والأم أو أحدهما، وإن كانت الولادة من الأب، فهو الأخ لأب، وإن كانت الولادة من الأمّ، فهو الأخ لأمّ، فإن كانت الولادة لأبوين، فهو الشقيق، محمود عبد الرحمن عبد المنعم، **معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية**، دار الفضيلة (القاهرة، ١٩٩٩م)، ج١، ص٨٧.

(٤٦) المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني العبيدي، (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م)، **المقفى الكبير**، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، ط ٢، (بيروت، ٢٠٠٦ م)، ج ٢، ص ٢١٧؛ الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب**، ج ٦، ص ٣٧٥.

(٤٧) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص٢٣٨؛ أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي الأيوبي (ت: ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١م)، **المختصر في أخبار البشر**، المطبعة الحسينية المصرية، (القاهرة، لا.ت)، ج٣، ص٢١، علمًا أن المؤرخ أبو الفداء هذا هو حفيد شاهنشاه بن أيوب صاحب الترجمة أعلاه.

(٤٨) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج ٢، ص٤٥٢؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج ١٦، ص ٥٤.

(٤) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج ٣٧، ص١٤٥.

(٤٩) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج ٢، ص ٤٥٢؛ اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان، (ت: ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧ م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، ط ١، (بيروت، ١٩٩٧م)، ج٣، ص٢١٥.

(٢) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٢، ص٤٥٢؛ ابن أيبك الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج١٦، ص٥٤

(٥٠) وهي الست عذراء خاتون صاحبة المدرسة العذراوية في دمشق، توفيت سنة (٥٩٣ هـ/ ١١٩٦م) ودفنت في مدرستها. النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت: ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م)، **الدارس في تاريخ المدارس**، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١ (بيروت، ١٩٩٠م)، ج١، ص٢٨٣.

(٥١) أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص١٢٧؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص ٢٦٩.

(٥٢) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١١، ص٣٤١؛ الحنبلي؛ أبو البركات عز الدين أحمد بن إبراهيم الكناني، (ت: ٨٦٧ هـ / ١٤٦٣م)، **شفاء القلوب في مناقب بن أيوب**، تحقيق: ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون العراقية، (بغداد، ١٩٧٨ م)، ص ٤٩.


مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

اللصوص في المغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي
أثر الأزمات على الانحراف السلوكي



د. هشام المتوكل
باحث في التاريخ الوسيط
وزارة التربية الوطنية
مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يُعَدّ التأريخ لأنماط الانحراف السلوكي من مميزات الكتابة التاريخية الحديثة، وذلك نتيجة التطور الحاصل في المناهج العلمية، وانفتاحها على مواضيع كانت تصنف إلى وقت قريب ضمن المواضيع المنسية. ومن هنا جاءت هذه الالتفاتة لإماطة اللثام عن ظاهرة اجتماعية ميزت المجال الموحدي باعتبارها أحد المباحث المغيبة في حقل الكتابة الأكاديمية العربية ألا وهي "اللصوصية"، وذلك من خلال البحث في مسببات الظاهرة ونتائجها، حتى نتمكن من فهم وتحليل هذا النمط السلوكي على ضوء استقراء مختلف النصوص التاريخية، متسلحين في ذلك بتقنيات المنهجين الوصفي والتحليلي، وعن طريق استخراج المعطيات النصية من ثنايا المصادر الدفينة، وتحليلها بغرض بناء تصور عام ومتكامل انطلاقًا من النتائج المتحصل عليها، الأمر الذي يساعد في الكشف بشكل جلي عن الحال الذي أصبح عليه المجال ارتباطا بالواقع المعيشي للإنسان. والملاحظ أن ظاهرة اللصوصية تصبح اعتيادية كلما ألمت بالمجتمع أزمة سياسية أو اقتصادية، فيغدو العدوان على أموال الناس ومتاعهم انحرافًا سلوكيًا تغذيه النزعة الأنانية، فتتعطل عند البعض أسباب المعاش الطبيعي وتغدو الحرابة بديلاً ظرفيًا داخل المجال، فقلة الموارد وانتشار البطالة وضعف الأمن، يدفع بالبعض إلى احتراف اللصوصية، زد عليه القصور عن تسوية جذور الأزمة المادية وفشل السلطة في إيجاد حل جذري لمشكل التباينات الاجتماعية، مما يحدو بفئات عريضة من المهمشين إلى التمرد على واقعهم الاقتصادي والاجتماعي. فيتبدى ما للفقر والحاجة من أثر واضح في ظهور هذه السلوكيات العدوانية باعتبارها مصدرًا لعيش الفقراء، وذلك في ظل الاضطرابات التي شهدها المغرب الإسلامي أواخر الحكم الموحدي، حيث يتأكد مدى التلازم بين الأزمات وبين السلوكيات العدوانية، وإن كان لأجهزة الدولة في مرحلة قوتها من النفوذ ما يجعلها تنجح في ضبط مجالها، عكس ذلك تنشط حركة التعدي والغصب مع ضعف الدولة هرمها.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث:	٣٠	يوليو	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٦	أغسطس	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الدولة الموحدية؛ العصر الوسيط؛ اللصوصية؛ السرقة؛ قطاع الطرق

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.184880

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

هشام المتوكل. "اللصوص في المغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي: أثر الأزمات على الانحراف السلوكي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ٦٣ – ٧١.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: elmoutaouakilhicham@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقَدِّمَةُ

لا يخلو أي مجتمع مهما بلغ من درجات الرقي من انتشار بعض السلوكيات الاجتماعية الشاذة، مردها ما قد نطلق عليه اسم "الأزمة الأخلاقية"، والتي تفسر بجملة التقلبات السياسية والاقتصادية، وما ينتج عنها من تحولات قد تمس مختلف المجالات، وتتناول هذه الدراسة أحد مظاهر الانحراف السلوكي وهو اللصوصية خلال العصر الموحدي، حيث تشكلت هذه الظاهرة في ظل جملة من الأزمات أنتجت لنا فئات ناقمة عاجزة عن تحصيل معاشها، فتبنت اللصوصية أسلوبا لحياتها[١].

ونظرًا لما للصوصية من آثار سلبية على حفظ الكليات الشرعية، فقد شرع لها الله عز وجل حدا عرف بـ"حد الحرابة"، حيث ورد الحكم بنص الشارع في الآية الكريمة" إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"[٢]، مبينا في المعنى أن محاربة الله ورسوله تكون بمحاربة عباده وترويعهم؛ بالتعدي عليهم في أموالهم وأبدانهم ومتاعهم[٣].

والموضوع طريف في بابه، إذ قلما نجد بعض كتاب المؤلفات ممن عنوا بجمع أخبار اللصوص ومروياتهم، إذ رغم ذكر عناوين بعض المصنفات المهتمة بهم إلا أنها مفقودة ومنها: ما نسب لأبي الحسن السكري في مصنفه "كتاب اللصوص" الذي ضم فيه أشعار المشاهير منهم، لكن لم يعثر على أثر للكتاب إلا ما ذكره عبد القادر بن عمر البغدادي من إشارات إليه (ت. ١٠٩٣هـ) في مؤلفه "خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب"[٤]، كما روي أن الجاحظ ألف في موضوع "اللصوص" و"أخلاق الشطار" حيث ذكر ياقوت الحموي الكتابان في "إرشاد الأديب" لكنهما في حكم المفقود الذي لا تصل إليه الأيدي[٥].

وارتباطًا بمجال الغرب الإسلامي إبان العصر الموحدي وفي استثناء لبعض الإحالات المصدرية، فإن ظاهرة اللصوصية بصفتها حالة اجتماعية لم تكن موضوعًا للكتابة التاريخية، رغم دورها في إماطة اللثام عن وجه من أوجه السلوكيات الإنسانية العدوانية، والتي كانت للسلطة الموحدية في مواجهتها بعض الإجراءات التشريعية والفعلية التي اتسمت بطابع الزجرية.

ويُعَدّ موضوع اللصوصية وقطع الطريق أحد المباحث المغيبة في الكتابة التاريخية العربية، بفعل هيمنة التاريخ السياسي على حقل الممارسة الأكاديمية، وأيضًا بفعل الأحكام المسبقة التي تنظر إلى هذه التجارب على أنها ليست ذات جدوى ولا تحظى بالأولوية. لذلك فإن تحديد إشكالية الموضوع وبناء تصورها العام، يعد خطوة منهجية لا محيد عنها، إذ نجد لزاما علينا طرح مجموعة من الفرضيات بخصوص التأريخ للظواهر الاجتماعية من قبيل اللصوصية، بالبحث في مسبباتها ونتائجها، حتى نتمكن من فهم وتحليل هذه الظاهرة بمقتضى نظر منهجي الهدف منه الإسهام في الإجابة عن استفهامات محورية ترتبط بتاريخ الدولة الموحدية وهي:

- ما علاقة ظاهرة اللصوصية بالتحولات المجالية؟
- ما أثر أزمة السلطة في انتشار السلوكيات العدوانية؟
- ما موقف الدولة من الظاهرة ودورها في مواجهتها؟

ومن أجل الإجابة عن هذه التساؤلات، وجب الاعتماد على منهجية علمية قائمة على استقراء مختلف النصوص التاريخية، متسلحين في ذلك بتقنيات المنهجين الوصفي والتحليلي، عن طريق استخراج المعطيات النصية من ثنايا المصادر التاريخية، وتحليلها بغرض بناء تصور عام انطلاقًا من نتائجها، وإن واجهتنا في خضم ذلك صعوبات جمة نظرا لندرة الإشارات المصدرية المفيدة للموضوع وإشكالاته.

أولاً: حركة اللصوصية: أثر الواقع المجالي والأزمة الأخلاقية

علاقة بالدلالة الاصطلاحية، فاللصوصية هي التعدي على أموال الناس واعتراض طرقهم، وهي أعم من السرقة، فإذا كانت الأخيرة هي أخذ مقدار مخصوص من المال وكل ما يدخل ضمن ممتلكات الغير على وجه الاستخفاء، فإن اللصوصية أخذ ما للغير على وجه الاستظهار دون ستار، ويعرف ابن جزي الظاهرة من الناحية الشرعية بقوله: "الذي شهر السلاح وقطع الطريق وقصد سلب الناس سواء كان في مصر أو في قفر"، وكذلك "من حمل السلاح على الناس من غير عداوة ولا ثارة فهو محارب ومَنْ دخل دارًا بالليل وأخذ المال بالكره ومنع من الاستغاثة فهو محارب والقاتل غيلة محارب، ومَنْ كان معاونًا للمحاربين كالكمين والطليعة فحكمه كحكمهم"[٦]. وقد عرف اللصوص بالمجال المغربي والأندلسي باسم "فلاكة" ومفردها "فلاك"، ويبدو أن هذه التسمية كانت منتشرة في المنطقة والتي تعني في المجمل "قاطعوا الطريق الخارجون عن القانون"، حيث وردت هذه اللفظة في أزجال ابن قزمان الأندلسي في مدحه لأحد الولاة حيث قال:

لو ذاق "الفلاك" سيفك لم يقتل بشرـ``` ولو راك "الباز الأشهب" يمام كان يصير[٧].

وقد تزامن نشاط اللصوص ارتباطًا بحقبتنا مع أفول حكم المرابطين وصعود نجم الموحدين، حيث تمركزت عصاباتهم في مداخل ومخارج المدن، وعلى طول محاور طرق القوافل التجارية، فكان من تداعياتها أن "كثرت المحن بالعدوتين، وانقطع السفر والأسباب وكثر النهب وانقطعت الطرق"[٨]، مما يكشف بشكل جلي الحال الذي أصبح عليه المجال بسبب غياب الأمن، وتزايد خطر اللصوصية، مما انعكس على الواقع المعيشي للإنسان بانقطاع محاور الطرق التجارية. والراجح أن عمليات الغصب والتعدي اتخذت سمة الظاهرة تزامنا مع الأزمات السياسية والاقتصادية المرتبطة بسنة (٥٤٣هـ/١١٤٨م)[٩]، حيث كمنت عصابات اللصوص في محاور الطرق لسلب ما بأيدي الناس باستعمال أساليب تدليسية، الأمر الذي أثار غضب الخليفة عبد المؤمن بن علي الكومي أول حكام الدولة الموحدية، إذ فسر الأمر بتقصير الموحدين وتهاونهم في ضبط الأمن واستتبابه، وهو ما عكسته بعض العبارات في رسالته المؤرخة في السنة المذكورة بقوله: "وإن من ذلك الرأي الذميم، والسعي المنقوم، ما ذكر لنا في أمر المسافرين الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمارتها، والطوائف المارة على البلاد لمعنى تجارتها يتسبب إليهم قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء الذين يضعون الغش طي ما يوهمون به من النصحية، ويستنبطون المكر في تصرفاتهم القبيحة فيقولون للرجل منهم: عندك من حقوق الله كيت وكيت، وإن للمخزن جميع ما به أتيت، ويقرنون بهذا من الوعيد والإغلاظ الشديد ما يرضى له المذكور بالخروج عن جملة ماله ويعتقد السلامة من ذلك الظالم الغاصب أعظم مناله وإنها لداهية عاقرة، قاصمة للظهر فاقرة"[١٠]. بالإضافة إلى ما أورده الخليفة المذكور في رسالته مما شاع من جرائم وفي مقدمتها "سفك الدماء وانتهاك الحرمات"[١١]، لذلك سن الخليفة سياسة صارمة بغرض ضبط الأمن جاء فيها: "وإن وراء قولنا لتتبعا يبحث عن ذلك ويمحص، ونظرا يفرق بين المشكل منه ويخلص"[١٢].

والملاحظ أن ظاهرة اللصوصية تصبح اعتيادية كلما ألمت بالمجتمع أزمة سياسية أو اقتصادية، فيغدو العدوان على أموال الناس وأمتعتهم انحرافًا سلوكيًا تغذيه النزعة الأنانية، فتتعطل عند البعض أسباب المعاش الطبيعي وتغدو الحرابة بديلاً ظرفيًا مفروضًا داخل المجال، وإلا ما الداعي الذي حدى بالخليفة عبد المؤمن الموحدي إلى أن يصدر عدة مراسيم بشأن تتبع اللصوص وقطاع السابلة حيث أمر كاتبه جعفر بن عطية بتوجيه رسالة جديدة لولاته عام (٥٥١هـ/١١٥٦م) يأمرهم فيها "بالكشف عن التلصص والحرابة(...) وعن الذين يغرمون الناس ما ليس قبلهم ويأكلون بالباطل أموالهم"[١٣]، إذ إن أحد التجار تعرض متاعه للنهب بالقرب من بجاية، فرفع أمره للخليفة عبد المؤمن الذي أمر بالاقتصاص من العصابة فهي "طريق شوك أزيلها عن المسلمين"، ثم أوصى بتعويض التاجر عما نهب منه[١٤]، حيث جعل التعرض للتجار من قبل اللصوص في حكم الكبيرة التي يعاقب فاعلها بالقتل، مطبقا مضمون آية الحرابة، وقد تابع كل من يوسف بن عبد المؤمن وابنه المنصور هذه السياسة حتى سار الراكب في عهديهما آمنا على نفسه وماله لا يخشى إلا الله والذئب[١٥].

ولما تضرر التجار المغاربة بسبب قطاع الطرق في المحاور الصحراوية، أمر والي سجلماسة في عهد المنصور السيد أبا الربيع بإعدام قطاع الطرق بين سجلماسة وغانة، وأرسل مخاطبًا ملك الأخيرة يحمله مسؤولية تأمين طريق المواصلات، ولوح له بأنه في استطاعته أن يضيق على تجار غانة الذين يتاجرون في بلاده، لكنه لا يستصوب فعله[١٦] مما يظهر معه الحرص على تأمين الموارد المالية للدولة وتوطئة طرق المواصلات التجارية.

وهنالك إشارة مصدرية إلى بعض أعمال اللصوصية التي قام بعض العوام عندما شب حريق القيسارية في مراكش سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م)، إذ انشغل الناس بإطفاء النار المنضرمة فوجد اللصوص في ذلك ستارا "واقتحمت النار سفلة الغوغاء وضروب الغرباء فسلبوا بعض ما ألفوه مما سلم من الحريق وتسللوا به كل طريق... فما طلع الصباح وبقي من أمتعة مراكش ذبالة مصباح"[١٧]، النص هنا يلقي الضوء على شريحة واسعة من الناس اضطروا تحت واقع الشدة إلى النهب والسرقة، خصوصا أن هذه السنة هي نفسها التي أمر فيها الناصر الموحدي عماله بادخار المؤن والأقوات استعدادا للجواز نحو الأندلس، فاشتدت محن العوام بسبب عدم الأقوات وشدة الغلاء وعنها - أي تلك السنة - ينقل ابن عذاري وفيها: "لقي الناس من تنوع المسغبة وانتشار المجاعة وتعذر الأوطار وعدم الأقوات ما لم يعهده الناس"[١٨]. فدبت إرهاصات الشدة بين الناس، فكان طبيعيا أن ينتهز المعدمون فرصة الحريق في "القيسارية عظيمة البنيان"[١٩]، للفوز ببعض الطعام والمتاع، إلا أن الخليفة الناصر بث عيونه لتعقب النهابين واللصوص حيث أمر "بالبحث على من وجد بشيء يذكر عليه من أمتعة التجار، وعثر عليه بالتجسس

والاختبار، فلقط من أخلاط الناس قوم قلائل، ومن بعض المتعلقين بالقبائل فقتلوا عن آخرهم، وبقي البحث عن سائرهم"[٣٠].

وبالمثل لم يستثن الخليفة الناصر الموحدي عماله من البطش ممن ثبت تورطهم في اختلاس المال العام، وفي هذا الصدد "بسط السطوة على من كان منهم بمدارج الضرر أجمعين"[٣١]، معتبرا أن نهبهم لمخازن المؤن سببا مباشرا لاندلاع الأزمة الغذائية التي عرفها المغرب في ذلك الزمن، وأفضل من نقل لنا أخبار الغصب والتعدي المتزامنة مع أزمة (٦٠٧هـ/١٢١٠م)، ابن عذاري بقوله: "وسبب سطوته بعماله في هذه السنة أن لقي الناس في هذه الحركة من تنوع المسغبة وانتشار المجاعة وتعذر الأوطار وعدم الأقوات ما لم يعهده الناس...إلى أن استقبل ـ الناصر ـ المنازل التي كانت تستمد منها الرفاق... فألفاها وقد جف معينها وخف بتوالي العدوان قطينها"[٣٢]، فظاهرة النهب والاختلاس أصبحت منتشرة بين قطاع عريض من الناس بسبب تفشي الفقر والتباينات الطبقية، إضافة لما تميز به الحكم الموحدي من مظاهر الضعف على عهد الخليفة الناصر.

يبدو من خلال تصفح الكتب الفقهية أن المرحلة شهدت انتشارًا واضحًا لأعمال السرقة واللصوصية، يظهر ذلك من خلال جم النوازل المرتبطة بالسلب والنهب وقطع السابلة[٣٣]. ولهذا دعى فقهاء المرحلة إلى حراسة المخازن والمتاجر، حسبنا أن ابن رشد الحفيد، فصل في كتاب الغصب رأي الشرع في "الطوارئ على المغصوب"[٣٤]، ومن بين الإجراءات التي اعتمدت في هذا السبيل تفعيل "خطة الطواف بالليل"[٣٥]، وكان القائمون بها في المغرب يدعون "حرس الليل"[٣٦]، في حين "يعرفون في الأندلس بالدرابين"[٣٧].

ورغم قوة سياسة التعزير التي عمل بها الولاة والعمال بالمغرب والأندلس خلال العصر الموحدي، فإن اللصوص عادة ما استغلوا غفلة الحراس للسطو على أموال الناس، وذلك بعد "أن يظهروا على المباني المشيدة ويفتحوا الأغلاق الصعبة ويقتلوا صاحب الدار خوف أن يقر عليهم أو يطالبهم بعد ذلك"[٣٨]. حيث لم تمنع الإجراءات الأمنية المشددة التي فعلت في المغرب والأندلس من حدوث عمليات نهب منظمة، أزهقت فيها أرواح الكثير من الناس وسفكت دمائهم، الشيء الذي يعكس خطورة السلوكيات العدوانية التي أفرزها واقع الأزمة، فقلة الموارد المعيشية وانتشار البطالة والانفلات الأمني دفع بالبعض إلى احتراف اللصوصية بحيث لا يكاد المرء "في الأندلس يخلو من سماع دار فلان دخلت البارحة، وفلان ذبحه اللصوص على فراشه"[٣٩]. حتى صار في الأندلس حيطة "لكل زقاق بائت فيه، له سراج معلق، كلب يسهر، وسلاح معد، وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهم وإغيائهم في أمور التلصص"[٣٠].

لقد أمدتنا المصادر بأخبار بعض اللصوص الذين شكلوا عصابات في المحاور الرئيسية التي كان يسلكها المسافرون، فيتعرضون بها للتجار ويسطون على أموالهم[٣١]، حيث ذكر ابن مغاور الشاطبي ما شاهده بخصوص عصابة من اللصوص أثناء رحلته من اشبيلية إلى شاطبة قائلاً: "وبوادي الطين ناس في زي الشياطين وعزة السلاطين، عربان كالغربان، وندير بالشر عريان وانج يا فلان، فهنا سلب فلان"[٣٢]، ولا شك في أن ظاهرة اللصوصية والحرابة قد انتشرت بفعل الحروب السائدة؛ إذ يؤكد ابن الأحمر "أن المحن كثرت بالعدوتين وانقطع السفر من الأسباب، وكثر النهب وانقطعت الطرق"[٣٣].

كما كان للإكراه الطبيعي وما أفرزه واقع الأزمة الناتجة عن الجفاف الذي ضرب دكالة وأحوازها قبل سنوات من هزيمة العقاب، دوره في تفشي سلوك الحرابة حيث لم يسلم المستقون من سكان المجال المذكور، من غزو البدو بدليل قولهم: "أردنا أن نستسقي فخرجنا إلى المسجد الفلاني فجردنا العرب"[٣٤]، حيث يمكن القول إن اللصوص وقطاع الطرق شكلوا عصابات منظمة لها سطوتها، تسطو على المنازل وتعترض التجار وتقطع السبل.

هذه السلوكيات العدوانية لم تكن في الأصل إلا نتاجا عن الأزمة الاقتصادية التي ألمت بالمغرب والأندلس، فنتج عنها انتشار حالة من الفقر ومن انفلات في الأمن، حيث لم تسعف التدابير الأمنية التي سنتها الدولة في القضاء التام علي هذه التجاوزات، نظرا لقصورها عن تسوية جذور الأزمة المادية بسبب قلة المؤن وارتفاع الأسعار وفشل السلطة في إيجاد حل جذري لمشكل التباينات الاجتماعية، مما حدى بفئات عريضة من الفقراء إلى احتراف أعمال اللصوصية[٣٥]، ويرى أحد مؤرخينا أن تلك الآفة كانت متفشية لا سيما بين الطبقات المهمشة، التي أضحت عاجزة عن تحصيل قوتها، متمردة على واقعها، فاتخذت من اللصوصية سبيلا لتوفير معاشها[٣٦].

وتجنبًا لنهب البيوت والمحلات كشف السقطي عن حيلة كان عادة ما يستخدمها الخدم والنساء في السرقة، لا سيما البيوت والمحلات التي يعملون بها، إذ يعملون على رسم المفاتيح في الطين والعجين ويتقدمون بها لصانعي المفاتيح لصنع شبيه لها[٣٧]، وعلى الرغم مما قامت به السلطات، إلا أن

انتشار آفة السرقة في المجتمع الأندلسي ظلت مستشرية، وهذا ما نستشفه من رأي صاحب نفح الطيب وإن كان حكمه معمما بقوله: "وهذا يرجع التكثير منه والتقليل إلى شدة الوالي ولينه، ومع إفراطه في الشدة وكون سيفه يقطر دما فإن ذلك لا يعدم، وقد آل الحال إلى أن قتلوا على عنقود سرقه شخص من كرم فلم ينته اللصوص"[٣٨]، فالانطباع العام الذي أضحى سائدا هو أن المجال المغربي والأندلسي أصبح معروفا بظاهرة اللصوصية.

ثانيًا: ظاهرة اللصوصية: دورية الأزمات وحتمية الانهيار

يربط بين ضعف الدول وانتشار مظاهر الفساد السياسي والاجتماعي علاقة حتمية، ومما يؤيد العلاقة بين هرم الدولة الموحدية واستفحال ظاهرة اللصوصية، ما قامت به القبائل السائبة من عدوان على سكان المدن والقرى البعيدة عن مراكز السلطة المتهاوية، فكانت النتيجة أن: "اشتد الخوف في الطرقات ونبذ أكثر القبائل الطاعة... فأكل القوي الضعيف واستوى الدنيء والشريف، فكان كل من قدر على شيء صنعه، ومَنْ أراد منكرًا أظهره وابتدعه، فكانت قبائل فازاز وغمارة وصنهاجة والعرب يقطعون الطرقات ويغيرون على القرى والمداشر مع الأحيان والساعات"[٣٩].

وبالموازاة نشطت اللصوصية بالأندلس في السنوات الأخيرة من الحكم الموحدي، نتيجة الانفلات الأمني المرتبط بتوالي هجمات النصارى، خصوصًا في المناطق النائية حيث ذكر المقري ما مفاده: "انتشار اللصوص وأهل الشر في المواضع المنقطعة النائية عن العمران"[٤٠]، أما الحميري فوصف أهل بنبلونة بالفقر واللصوصية لانتشار الظاهرة بأرضهم[٤١]، ولعل في النص الذي أورده ابن سعيد ما يثبت انتشار نفس السلوكيات بقرطبة عندما شاهد أبو يحيى بن هشام القرطبي "على نهر قرطبة ثلاثين مصلوبين من قطاع الطرق"[٤٢].

لقد كان للفقر والحاجة الأثر الواضح في ظهور هذه السلوكيات العدوانية باعتبارها مصدرا لعيش الفقراء بقول العامة: "من صاب القوت لا يتعد"[٤٣] وهذا ما يثبت صحة ما ذهب إليه عبد الهادي بياض إلى اعتبار السلب والنهب ليس في الواقع إلا سلوكا طبيعيا في أوقات حلول المجاعات[٤٤]. حيث تزايد عدد اللصوص في الأندلس بسبب الاضطرابات، إذ نشطت تحركاتهم الليلية داخل المدن للسطو على المنازل[٤٥]، وهو ما يؤكده نص لابن مغاور الشاطبي واصفا حالة الذعر التي أفرزتها تلك الممارسات: "ناس ترى الحنق يتملظ في عبوسهم، وينذر ببؤسهم، ويترجم عما في نفوسهم، طالما أخاف شبابهم وكهولهم السبيل، وعمروا متلصصين الخندق والمسيل."[٤٦]

وفي هذه الظرفية من التردي فوض الخليفة المستنصر الموحدي النظر في أمور الدولة والرعية إلى وزيره"أبي سعيد بن جامع"[٤٧]، مما فتح الباب على مصراعيه أمام الفساد السياسي عن طريق تلقي الرشاوى والتواطئ مع عصابات الحرابة، وهو ما أكده ابن عبد الملك بقوله: "وضاعت المصالح وتطاولت أيدي المعتدين، وعاث أهل البغي في الأرض وكثر في أقطار المغرب ونواحي مراكش قطع السبل والمحابون الساعون في الأرض فسادا، وكان أكثرهم فيما يذكر يساهم فيما يصير إليه بالتغلب عليه وانتهابه من أموال المسافرين والتجار والمترددين كبير الوزراء أبا سعيد ابن جامع"[٤٨]، ويردف مؤرخنا "حتى ليحكى أن بعض التجار سلبوا في توجههم إلى مراكش فجاؤوا إلى أبي سعيد ابن جامع متظلمين... وبينما هم وقوف على باب داره ينتظرون تيسير أسباب الوصول إليه، وإلى مكالمته في رفع ما حل بهم، رأوا أحمالهم المنهوبة نفسها وكثيرا من أمتعتهم على دواب داخلة إلى داره فكفوا عن التعرض إليه يأسا من نجاح ما سعوا فيه وانقلبوا عنه متأسفين متحسرين، واستمرت الأمور على هذه الحال وبهذه السبيل زمانا والمستنصر في غفلة عن كل ما يجري"[٤٩].

يتأكد من خلال ما سبق عمق الأزمة التي عاش بين جنباتها الإنسان في تلك المرحلة، متزامنا مع واقع سلطة أوشكت على الانهيار، فأضحت بذلك أموال الناس وأمتعتهم "نهبا بوجوه التحيلات وأسباب الحكام"[٥٠]. وبذلك تأثرت الحياة الاقتصادية إلى حد كبير بفعل ما أحدثه انقطاع الطرق والسبل والحرابة، حيث غاب العامل الأساسي في معادلة الربح الاقتصادي وهو الأمن، والذي لأهميته خصص له ابن خلدون مقاما في حديثه عن الكسب وأسباب بطلانه قائلاً: "العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها... وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب"[٥١].

وبالتالي فإن كثرة الاعتداءات التي تعرض لها التجار كانت سببًا مباشرًا إما في إفلاس بعضهم، أو في تجميد تجارتهم، التي غالبًا ما تكون سببًا في معاش فئات كثيرة من الرعية، حيث أصاب الأسواق الكساد، مؤديا إلى عزلة البلاد وإضعاف قدرتها على تأمين احتياجاتها، وهذا ما أدى إلى اضطراب الأحوال الاقتصادية إذ "لا يستقيم أمر بلاد كانت المسالك إليها مخوفة لأنها تفتقر إلى المجلوب إليها ومجتلب إليها ومجتلب منها"[٥٢]، وفي ظل واقع المحنة حاول أبو الحسن بن القطان وزير الخليفة

المستنصر، إكراه كبار التجار بمراكش على التنازل عن أموالهم لبيت المال في وقت كانت المجاعة والغلاء يأخذان بتلابيب عوام المدينة[٥٣]، وقد فطن ابن خلدون لمثل هذا السلوك العدواني إذ أشار إلى: "أن الحضري إذا عظم تموله وكثر للعقار والضياع تأثله، وأصبح أغنى أهل المصر ورمقته العيون بذلك... ولما في طباع البشر من العدوان تمتد أعينهم إلى تملك ما بيده وينافسونه فيه، ويتحيلون على ذلك بكل ممكن حتى يحصلونه في ربقة حكم سلطاني"[٥٤]، ليزيد من استفحال واقع الأزمة ما تعرض له صغار التجار من تضيق وخوف بالمسالك، مثل ما حصل في المغرب سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٨م) حيث "غلت الأسعار وخيفت الطرق وفشا الفساد والخراب في المغرب"[٥٥].

وبخصوص تفسير السلوكيات الانحرافية التي قام بها عوام مراكش إبان المجاعة التي ألمت بهم في سنة (٦٣٢هـ/١٢٣٥م)، يورد ابن عذاري نصا يصف فيه حالة المخمصة التي دفعت فقراء المدينة إلى التهافت على الطعام إذ قال: "إذا ظهر في السوق شيء من خبز الشعير يحشر الناس عليه... ثم لا يعدم الذي يتوصل إليه أن يجتمع عليه العشرون وأكثر من الضعفاء والمساكين حتى ينتزعوه منه قهرًا"[٥٦] حيث نلاحظ أن صاحب النص يحاول تعليل أعمال النهب والتعدي بربطها بإكراهات المجال الذي أصبح مرتعا للعصابات التي تعمل على تكريس الممارسات العدوانية، ويكفي الاستدلال بخطورة عصابة الغشتي الذي كان "حواسًا تحت يده جماعة كبيرة من أراذل الناس السفلة الخساس، وصاروا له أعوانًا وجساسًا فكان يقطع بهم الطرقات في تلك النواحي والجهات"[٥٧].

وبالمثل يستفاد مما أورده ابن عذاري أن المجاعة التي عصفت بمراكش عام (٦٣٢هـ/١٢٣٥م)، زاد من حدتها الغارات التي قام به البدو على أهاليها، والذين رأوا محنا يستعاذ بالله منها[٥٨]. كما استغل أبو محمد عبد الله ابن وانودين المجاعة التي عصفت ببلاد المغرب سنة (٦٣٧هـ/١٢٤٠م)[٥٩]، ليشرع سياسات استهدفت مصادر عيش أهالي مكناسة وفاس، حيث "ابتلاهم بأنواع من المغارم والملازم... ففر أهل تلك الجهات...وأسلموا للنهب مواشيهم وزروعهم"[٦٠]، وكان من مضاعفات هذه المجاعة أن امتدت أيدي الأعراب إلى البلاد الغربية في السنة نفسها، بحيث "كان أشد ضررًا في تلك الجهات على الناس عرب رياح بالاختلاس والافتراس"[٦١]. هذا النمط من السياسات أدرجه ابن خلدون ضمن ما اصطلح عليه بـ"طوارق التعدي"[٦٢]، التي كانت تستفحل عادة بموازاة المنعطفات الحرجة التي تمر منها الدول، فتتحول فيها السلطة بأجهزتها إلى معاول سطو لا ينجو منها سوى أصحاب السلطان والجاه والشوكة[٦٣].

وإذا كانت الحرائق بمسبباتها الطبيعية نادرة الوقوع حسب المصادر، فإن إضرامها عمدا بالمرافق الاقتصادية من قبل اللصوص، عد شكلا من أشكال التضليل التي أفرزها الفعل العدواني بقصد التمويه على أعمال السرقة المزمع القيام بها، في وقت انشغال الناس بإطفاء النيران المشتعلة، وندلل على ذلك بما حصل في مراكش عام (٦٦٥هـ/١٢٦٧م)، حيث هاج عرب هسكورة "ودخلوا القيسارية ونهبوها أي انتهاب واستولوا على جميع ما كان فيها من الأمتعة والأسباب، وأشعلوا فيها وحرقوها، وسلبوا الحوائج من الديار واستاقوها"[٦٤]. وحسبنا كذلك ما خلص له ابن الخطيب بشأن الممارسات التي عرفتها مراكش، مؤكدا أنها من بين الخصائص المميزة للمجال المغربي إبان الأزمات بقوله: "وعدوها ينتهب في الفتن أقواتها"[٦٥]، وخير مثال نسوقه تأكيدا لهذه الممارسات النهب الذي تعرض له بيت مال فاس عام (٦٦٦هـ/١٢٦٨م)، حيث "سرق منه اثنا عشر ألف دينار وثلاثمائة قلادة"[٦٦].

وشكل العدوان في الأندلس سلوكًا نمطيًا انبثق من رحم الأزمة، فكلما اشتدت المجاعة بمدينة المنكب وقل قوتها، إلا ولجأ أهلها إلى اعتراض سبل المسافرين المارين بها ونهب ما بحوزتهم، ولو أدى ذلك إلى سفك دمائهم، وفي ذلك يقول ابن الخطيب: "فالمنكب هواؤها فاسد ووبائها مستأسد... والودك إليها مجلوب والقمح بين أهلها مقلوب، والصبر إن لم يبعثه البحر مغلوب... والحر بدم الغريب مطلوب"[٦٧].

وفي المفازات كان التعدي آفة اعتيادية خصوصًا في محاور الطرق التجارية، فالطريق "موحشة لا تخلوا من قطاع الطريق البتة"، ويوصف هؤلاء اللصوص بأنهم "أشد خلق الله ضررًا... ليس في أصناف القطاع أخس منهم هممًا... لا ينبغي لمسلم أن يغرر بلقائهم"[٦٨]. وهو ما يفسر الحرص على تكثير عدد المرافقين قبل الخروج إلى الطريق، هذا الأمر اعتبر نازلة من نوزل العصر لذلك عرض على أنظار العلماء لمعرفة رأي الشرع فيه، فما الرأي في "الذي يجوز الناس من المواضع المخوفة ويأخذ منهم أجرا"[٦٩]، إذ يفهم أن مهنة الخفارة[٧٠]، أصبحت من المهن المنشرة في هذه المدة نظرا لانعدام الأمن وانتشار ظاهرة اللصوصية عبر المسالك.

لا يخامرنا شك بأن هذه الوضعية انعكست سلبا على حركة القوافل التجارية التي أصبحت مستهدفة من قبل قطاع الطرق ومحترفي اللصوصية، في ظل الاضطرابات السياسية التي

شهدها المغرب الإسلامي أواخر الدولة الموحدية، إذ تشير المصادر إلى أن الهدية التي بعث بها الخليفة أبو دبوس الموحدي لحليفه يغمراسن اتخذت طريق البحر بدل البر، نظرا للأمن النسبي في الطرق البحرية مقارنة بالبرية، حيث أن أثر اللصوصية وقطع الطريق كان عظيمًا بحيث أجبر القوافل على تغيير خط مواصلاتها التجارية(٧١).

كما وجد الصلحاء بدورهم سبيلا لإثبات كراماتهم من خلال مساهمتهم في توطيد المفازات وتأمينها وفي هذا الصدد أثر عن الشيخ أبو صالح الهسكوري (عبد الحليم بن هارون بن سعيد) "أنه كان يجيز الرفاق من المخاوف، فإذا سمع اللصوص أنه تقدم رفقة، فروا ولم يتعرضوا له"(٧٢).

ومنه فإن ظاهرة اللصوصية وقطع الطريق التي شهدها المجال، تعتبر نتيجة حتمية لواقع أزمة مستشرية أدت إلى انعدام الأمن في مسالك ومحاور الطرق التجارية، الأمر الذي أضر بالتجار وتجارتهم، ودفعهم إلى اتخاذ مجموعة من الإجراءات بهدف حماية أنفسهم وأموالهم، بدفع مبالغ للقبائل التي يمرون بمضاربها لحراستهم وتأمينهم، لكن هذا الأمر أدى إلى مضاعفات منها تراجع فوائدهم وارتفاع أسعار بضائعهم، مما انعكس على الواقع المعيشي لسكان المجال المغربي والأندلسي إبان الحكم الموحدي.

خاتِمَةٌ

يبدو في هذا المنوال أن التدهور الأخلاقي والأزمات المجالية، كانا سببًا في تفشي ظاهرة اللصوصية، والتي انعكست آثارها على المجتمع اقتصاديًا واجتماعيًا، وبالتالي فإن مثل هذه الظروف غير الآمنة جعلت من "الخوف" ظاهرة يحق لكل باحث التعرض لها بالفحص والتحليل حتى يكشف مدى تأثيرها على الحياة الإنسانية، حيث أن أهم معادلة لتحقيق التوازن داخل المجال هي ترشيد الحياة العامة. كما يتأكد من حصيلة ما سبق مدى التلازم بين الأزمات السياسية والاقتصادية وبين السلوكيات الانحرافية والعدوانية، وإن تباين الحال بين مرحلتي قوة الدولة وضعفها، إذ في مرحلة القوة تكون لأجهزتها من النفوذ ما يجعلها تنجح في ضبط المجال والسلوكيات، في حين تنشط حركة التعدي في محاور الطرق وفي الأسواق التجارية، مع ضعف الدولة وهرمها، لذلك ذهب ابن خلدون إلى أن هذه الظاهرة تكون أقوى حضورا في أواخر الدول(٧٣).

كما نخلص إلى أن اللصوصية ترتبط في الغالب الأعم ببعض الفئات المهمشة التي كانت لها وسائلها غير المباشرة للفت الانتباه من خلال أعمال السرقة، حيث كشفت الأزمات التي عرفها مجالنا عن ردود فعل متباينة، عبر عنها إنسان المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، في شكل أنماط سلوكية عدوانية مرتبطة بالسلب والنهب وقطع السابلة، وهي ممارسات منحرفة انتفى معها الأمن الاقتصادي والسلم الاجتماعي. كما قد ننتهي إلى أن اللصوصية تعد من نتائج الظلم والإجحاف الذي طال شرائح واسعة من المجتمع، اختارت لنفسها هذا المسلك وسيلة لاسترداد حقوقها، أو إعادة توزيع الثروة بفضائها، وهي من الظواهر التي أفرزها الواقع داخل المجال المغربي والأندلسي في المدة موضوع الدراسة، مما يستدعي تناول الموضوع بنوع من الحرص قصد إعادة قراءة التاريخ، بمنظور مغاير واستخدام مناهج جديدة يكون المنهج الأنثربولوجي على رأسها.

الاحالات المرجعية:

(١) **المهمشون في التاريخ الإسلامي**، لمحمود إسماعيل. رؤية للنشر والتوزيع. القاهرة. ٢٠٠٤م: ٨٣.
(٢) **سورة المائدة**: الآية ٣٣.
(٣) انظر **أحكام القرآن**، لابن العربي. أبي بكر محمد بن عبد الله. تح محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ١٤٢٤هـ/٢٠٠٢م: ق٢/ ٩٠-١١٥.
(٤) انظر الإشارة له في **خزانة الأدب، ولب لباب لسان العرب**، للبغدادي. عبد القادر بن عمر. تح عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م: ١/ ٢١، ٩/١٣.
(٥) **معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**. لياقوت الحموي. تح إحسان عباس. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. ١٩٩٣م:٥/٢١١٨-٢١٢٠.
(٦) **القوانين الفقهية**، لابن جزي. محمد بن أحمد. منشورات دار القلم. بيروت. لبنان. د.ت: ٢٣٧-٢٣٨.
(٧) **أمثال العوام في الأندلس**، للزجالي. أبو يحي عبيد الله بن أحمد القرطبي. تح محمد بن شريفة. وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي. مطبعة محمد الخامس. فاس. ١٩٧٥م: ٢٦١.
(٨) **بوتات فاس الكبرى**، لابن الأحمر. أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الخزرجي الأنصاري. نشره عبد الوهاب بن منصور. دار المنصور. الرباط. ١٩٧٢م: ٣١.
(٩) **الكامل في التاريخ**، لابن الأثير. راجعه وصححه محمد بن يوسف الدقاق. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٤١٥هـ/١٩٩٥م: ١٥٥/٩، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، لابن عذاري المراكشي. تح. ج.س، كولان. وأ. ليفي بروفنسال. عبد الله محمد علي. دار الكتب العلمية. بيروت. ٢٠٠٩م: ١١٦/٤، ١١٧.
(١٠) **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، لان القطان المراكشي. تح محمود علي مكي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. ١٩٩٠م: ١٩٤.
(١١) **نظم الجمان**: ١٩٥.
(١٢) **نظم الجمان**: ١٩٥.
(١٣) **العلم والفنون والآداب على عهد الموحدين**، لمحمد المنوني. مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر. الرباط. ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م: ١٩١.
(١٤) **نهاية الأرب في فنون الأدب**، للنويري. شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. تح. عبد المجيد ترحيني. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. د.ت: ١٧٦/٢٤.
(١٥) **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، للمقري. أحمد بن محمد. تح. إحسان عباس. دار صادر. بيروت. ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م: ١١٦/٣، **رسائل موحدية**، لأحمد عزاوي. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة. ١٤١٦هـ/١٩٩٥م: ٦٥،٦٦/١، **الموحدون في الغرب الإسلامي**، لعز الدين عمر موسى. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. ١٤١١هـ/١٩٩١م:٥١،٥٢.
(١٦) **نفح الطيب**: ١١٦/٣، رسائل موحدية: ٢١٣/١.
(١٧) **البيان المغرب**: ٣٢٩/٤، ٣٣٠.
(١٨) **البيان المغرب**: ٣٣١/٤.
(١٩) **الروض المعطار في خبر الأقطار**، للحميري. محمد بن عبد المنعم. تح. إحسان عباس. مكتبة لبنان. بيروت. ١٩٨٤م:٥٤١.
(٢٠) **البيان المغرب**: ٣٣٠/٤.
(٢١) **البيان المغرب**: ٣٣١/٤.
(٢٢) **البيان المغرب**: ٣٣١/٤.
(٢٣) انظر على سبيل المثال، **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، لابن رشد الحفيد. محمد بن أحمد. المكتب الثقافي السعودي بالمغرب. ١٤١٧هـ١٩٩٩م: ٢/ ٣٢٠.
(٢٤) بداية المجتهد: ٢/ ٣٢٠-٣٢١.
(٢٥) **نفح الطيب**: ٢١٩/١.
(٢٦) **ثلاث رسائل في آداب الحسبة**، تح إ. ليفي بروفنسال. مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية. القاهرة. ١٩٥٥م: ١٨.
(٢٧) **نفح الطيب**: ٢١٩/١
(٢٨) **نفح الطيب**:٢١٩/١.
(٢٩) **نفح الطيب**: ٢١٩/١.
(٣٠) **نفح الطيب**: ٢١٩/١.
(٣١) **ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره**، لابن مغاور الشاطبي. أبو بكر عبد الرحمان بن محمد السلمي. دراسة وتح محمد بن شريفة. مطبعة النجاح الجديدة. المغرب. ١٩٩٤م: ١٦٩.
(٣٢) ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره: ١٧٠.
(٣٣) بوتات فاس الكبرى: ٣١.
(٣٤) **التشوف إلى رجال التصوف**، لابن الزيات التادلي. تح أحمد التوفيق. منشورات جامعة محمد الخامس. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. الرباط. الدار البيضاء. ١٩٩٧م: ٣٨٣.
(٣٥) **المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، إشكاليات نظرية وتطبيقية في التاريخ المنظور إليه من أسفل**، لإبراهيم القادري بوتشيش. رؤية للنشر والتوزيع.٢٠١٤م: ٢٣٦،٢٣٧.
(٣٦) **نفح الطيب**: ٢١٩/١.
(٣٧) **في آداب الحسبة**، للسقطي. محمد بن أبي محمد المالقي. نشر ليفي بروفنسال. كولان. مطبعة إرنست لورو. باريس.١٩٣١م: ٦٥.
(٣٨) **نفح الطيب**: ٢١٩/١.
(٣٩) **الذخيرة السنية**، لابن أبي زرع. دار المنصور للطباعة والوراقة. ١٩٧٢م: ٣٦.
(٤٠) **نفح الطيب**: ٢٠٣/١.
(٤١) الروض المعطار في خبر الأقطار: ١٠٤.
(٤٢) **اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى**، لابن سعيد الأندلسي. أبو الحسن علي بن موسى. تح إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني. بيروت. ١٩٨٠م: ٩٠.
(٤٣) **أمثال العوام في الأندلس**: ٣٢٨/٢.
(٤٤) **الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق ٦-٨هـ/١٢-١٤م)**، لعبد الهادي البياض. دار الطليعة. بيروت. ٢٠٠٨م: ٩٤.

(٤٥) **المغرب في حلى المغرب**، لابن سعيد الأندلسي. أبو الحسن علي بن موسى. وضع حواشيه خليل منصور. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ١٩٩٧م: ١/١١٨.
(٤٦) ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره: ١٧٠.
(٤٧) **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، لابن عبد الملك المراكشي. تقديم وتح وتعليق. محمد بن شريفة. م طبوعات المملكة المغربية. ١٩٨٤م: س٨/ق١/١٧٦.
(٤٨) **الذيل والتكملة**: س٨/ ق١/١٧٦-١٧٧.
(٤٩) **الذيل والتكملة**: س٨/ ق١/١٧٦-١٧٧.
(٥٠) **المقدمة**، لابن خلدون. عبد الرحمان بن محمد. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٤١٣هـ/١٩٩٢م: ٣٩٢.
(٥١) **المقدمة**: ٢٧٢.
(٥٢) **تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك**، للماوردي. أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب. تح رضوان السيد. بيروت. لبنان. ١٩٨٧م: ٢٧٨.
(٥٣) انظر التفاصيل في الذيل والتكملة: س٨/ ق١/ ١٧٨.
(٥٤) المقدمة: ٣٩٢.
(٥٥) **الروض المعطار**: ٣٢٦.
(٥٦) **البيان المغرب**: ٤/٤٠٢.
(٥٧) **البيان المغرب**: ٤/٣٤٩.
(٥٨) **البيان المغرب**: ٤/٤٠١، ٤٠٢.
(٥٩) **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار**، للسبتي. محمد بن القاسم الأنصاري. تح عبد الوهاب بن منصور. الرباط. ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م: ٨٣، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**. للبادسي. عبد الحق بن إسماعيل. تح. سعيد أعراب محمد. المطبعة الملكية. الرباط. ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م: ٦٩.
(٦٠) لبيان المغرب: ٤/٤٣١.
(٦١) البيان المغرب: ٤/٤٢٨.
(٦٢) المقدمة: ٣٩٢.
(٦٣) المقدمة: ٣٩٢.
(٦٤) البيان المغرب: ٤/٥٠٩.
(٦٥) **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، للسان الدين بن الخطيب. تح محمد كمال شبانة. نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي. الرباط. المغرب. ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م: ٧٧.
(٦٦) **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، لابن أبي زرع. راجعه عبد الوهاب بن منصور. المطبعة الملكية. الرباط. ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م: ٥٣٢.
(٦٧) **معيار الاختيار**: ٥٤-٥٥.
(٦٨) ننقل هنا شهادة العبدري رغم تأخر رحلته التي بدأها سنة ٦٨٨هـ بقليل عن تاريخ عصر الدراسة، نظرا لدلالاتها القوية، وكذا من الراجح أن واقع الحال بالمجال المغاربي في خضم رحلته لم يختلف عما كان عليه في أواخر الحكم الموحدي، **رحلة العبدري**، للعبدري. أبو عبد الله محمد بن علي. تح علي إبراهيم كردي. دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق. سوريا. ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م:٥٦٢-٥٦٣.
(٦٩) أجوبة فقهية: ١٤٦-١٧٣، للسجلماسي إبراهيم بن هلال، نقلاً عن الكوارث الطبيعية.
(٧٠) هي الضريبة التي تؤخذ مقابل حراسة سكان البلد أو حراسة المسافرين، غير أن هذه الضريبة تؤخذ في أيام الفتن والاضطرابات دون مقابل، **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية. مكتبة الشروق الدولية. القاهرة. مصر. ٢٠٠٤م: ٤٥.
(٧١) **البيان المغرب**: ٤/٥٣٣.
(٧٢) التشوف إلى رجال التصوف: ٣٣٩.
(٧٣) المقدمة: ٣٢٠.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي (ت.٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨م)
حياته ورحلاته العلمية وأثرها في فكره الموسوعي



محمد شافع بوعناني
باحث دكتوراه قسم التاريخ
كلية العلوم الإنسانية -جامعة الجزائر (٢)
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

هذا البحث ينفض الغبار عن أبرز العقول المفكرة في جميع العصور ألا وهو المفكر الموسوعي أبو الريحان البيروني، من خلال استعراض ترجمة لحياته ورحلاته العلمية خلال مرحلة حياته الأولى في خوارزم أين سافر إلى عدة مناطق في ما وراء النهر وفارس ثم مرحلة حياته في غزنة بعد ضم إقليم خوارزم إلى السلطنة الغزنوية الفتية حيث كان معينًا ومرشدًا جغرافيًا للسلطان محمود الغزنوي وخلفاءه مسعود ومودود هذه الحياة الحافلة بالإنجازات العلمية أثرها في تكوينه فكره الموسوعي حتى عرف عصره بعصر البيروني حسب الكثير العلماء الغربيين والمستشرقين على رأسهم ناشر ومحقق ومترجم تراثه المستشرق الألماني إدوارد ساخاو ومؤرخ العلوم جورج سارتون والمستشرق الروسي كراتشكوفسكي، معتبرين البيروني أعظم عبقرية وعقلية في زمانه، ويكفي أنه ألف في أمهات العلوم موسوعات متخصصة عرفت منها (تحقيق ما للهند) و(الآثار الباقية عن القرون الخالية) و(القانون المسعودي) و(الجماهر في معرفة الجواهر) و(الصيدنه في الطب) وغيرها، فعقل البيروني شأن العقول العظيمة، مظهرا للشمول لا يتقيد بزمن، ولا يمكن بدونه أن يكتمل أي تاريخ لأي علم، رياضيات كان أم فلك، جغرافية كان أم علم الإنسان، أو مقارنة للأديان. وإن ما كتبه منذ ألف سنة، ليسبق به كثيرًا من المناهج والمواقف العقلية التي يفترض أنها حديثة. وقد كانت شجاعة البيروني الفكرية، وحبه للاطلاع العلمي، واستشراف الحقيقة، وبعده عن الوهم، وتسامحه، وإخلاصه لعمله وعلمه، صفات جعلته عبقريًا مبدعًا، ذا بصيرة شاملة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢١	يونيو	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٠٦	أغسطس	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:
البيروني؛ الرحلات العلمية؛ الفكر الموسوعي؛ خوارزم؛ الهند؛ البلاط الغزنوي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.184900

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
محمد شافع بوعناني، " أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي (ت.٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨م): حياته ورحلاته العلمية وأثرها في فكره الموسوعي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ٧٢ – ٩٣.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: bmdchafaa@yahoo.fr
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةُ

اهتم العلماء بدراسة حياة البيروني وتراثه، لأنه يمثل حقبة تاريخية، هي أوج الحضارة الإسلامية، وكان عصر البيروني تقريبًا هو الثلث الأخير من القرن الرابع الهجري، والنصف الأول من القرن الخامس الهجري، الموافق للربع الأخير من القرن العاشر الميلادي، والنصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، وهو عصر اضطرابات سياسية وعسكرية، إلا أنه كان زاخرًا بأفذاذ العلماء في كل الميادين، ممَنْ تركوا آثارًا عميقة في تطور العلم، ونشر الثقافة، وتعميق الفلسفة. ويكفي أن نقول إن عصر البيروني هو نفسه عصر ابن سينا وهو عصر أبي العلاء المعري. ويجمع أهل العلم خلال عصر النهضة الحديثة في أوروبا، أن القرن الحادي عشر الميلادي هو عصر البيروني، أعظم عظماء الإسلام، وعالم العلماء، وأكثر الفلكيين ذكاء، وأوسعهم علما، وإن اسمه لهو أبرز اسم في مواكب العلماء الواسعي الأفق، الذي يمتاز بهم العصر الذهبي للإسلام.

وعظمة البيروني في هذا العهد، وتأثيره في تطور العلوم جعلا مؤرخ العلوم جورج سارتون، يطلق على النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي "عصر البيروني" بالنسبة إلى تاريخ العلم العالمي، لأنه أكبر شخصية علمية تألقت في ذلك الوقت. أما عن أحوال العلوم في عصر البيروني، فهي مرحلة من مراحل التطور العلمي الواسع الذي شهدته البلاد من دانيها إلى قاصيها، وهي مقترنة بالتقدم الاقتصادي الذي تحقق إذ ذاك، على الرغم من الحروب والاضطرابات السياسية. ذلكم هو الكنز الثمين الذي شاق الحكماء، وامتلك ألباب الفلاسفة، والذي كان البيروني، بحكم نشأته، وبيئته، وتأثيراته العلمية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، خير من تهيأ لأن يكون فاتحه، وناقله إلى ثروة الإسلام. وكان ميلاده في قرية بيرون من سواد خوارزم، واتصل منذ نشأته بقاعدة خوارزم (كاث ثم الجرجانية)، كانت مركزا من أعظم المراكز الثقافية الإسلامية، القائمة على النفوذ الأدبي الفارسي، بواسطة إشاعة اللغة الفارسية في المجتمع، واللغة العربية في الثقافة والعلم. فكان البيروني بما أوتي من المواهب السامية، متطلعا إلى الوسط الذي كانت حركته الناشطة من العام والمعرفة، والدراسة، وهو الوسط الذي كانت مسالكه مفتحة للوصول إلى مقاعد العزة، بما كان بين الملوك المتنافسين من آل سامان، وآل وشمكير (آل زيار)، وآل عراق، من التسابق لبذل المال للعلم والعلماء، في سبيل الإكرام والتشريف.

وقد راح بينهم في طلب العلم، وبدأت خصائص اللغة العربية، تستولي على نفسه، فأخذ في التمكن منها، ومن أصولها، وأسرارها وآدابها، واتخذها طريق إلى ضبط الحقائق العلمية، ومقارنتها، وتقريبها، حتى تفوز تلك اللغة الشريفة، بما هي أهل له من تراث علمي عالمي، لم تجتمع نفائس كنوزه من قبل، ولن تجمع إلا في أطواق اللغة العربية. وظلت الثقافة العربية الدقيقة وسيلة البيروني الأولى، والمعرفة الرياضية الشاملة غايته القصوى، فغاص في العربية حتى أصبح من أدبائها، وأرخ للعلوم حتى أصبح من مؤرخيها: فما مدى مساهمته في إثراء الدراسات الموسوعية العلمية؟ وهل وفق فعلا أن يكون عالمًا موسوعيًا يتصدر عبقرية عصره بمنهجه المتفرد عن غيره؟ وهذا ما سنحاول الإجابة عنه بعد استعراض ترجمة وافية عنه ورحلاته العلمية وإسهاماته في النهوض بالعلوم وتطوير مناهجها خاصة في التأليف في التاريخ والأدب واللغة والترجمة عن لغات عصره. وأثر ذلك في تشكل عبقريته الموسوعية.

أولاً: ترجمة أبو الريحان البيروني

١/١-ميلاده وأصله ونسبته

هو محمد بن أحمد البيروني[١] الخوارزمي[٢] المكنى بأبي الريحان، والملقب في بعض الأحيان ببرهان الحق. [٣] ولد يوم الخميس في الثالث من ذي الحجة عام ٣٦٢ هجرية، الموافق للرابع من سبتمبر ٩٧٣م [٤] في ضاحية من ضواحي مدينة كاتخ (كاث)[٥] أو كيفا عاصمة خوارزم القديمة؛ وهي من قصبات منطقة خوارزم.[٦]

إن الدرجة العلمية المرموقة التي وصل إليها البيروني بأعماله الخالدة، هي التي جعلت دولا كثيرة تتنازع فضل نسبته إليها. خاصة جمهوريات أوزبكستان وروسيا وإيران وتركيا، ودولتي القارة الهندية-الباكستانية؛ وسعت هذه الدول كلها تسوق الدلائل والبراهين على أحقية كل منها في انتماءه إليها، ومن هنا جاءت الضرورة إلى التفصيل لبعض ما ذكرته المصادر التاريخية عن نسبة البيروني والخلاف فيها.

ومن خلال الآراء المتضاربة حول نسبة البيروني، نجد أن هناك إجماع بين معظم المؤرخين حول الغموض الذي يكتنف حياة وشخصية البيروني؛ أهومن أصل تركي شرقي أي في التعبير الحديث من أصل (أوزبكي) [٧]، أم هومن أصل فارسي؛ أي في التعبير الحديث من أصل (طاجكي)[٨]؟. ومما لا شك فيه أن لغته الأصلية كانت الخوارزمية كما يشير هو إلى ذلك: وهي إحدى لهجات اللغة التركية الشرقية قبل أن تتكون هذه اللغة تكونا

تاما، وأنه دخيل على اللغة الفارسية التي كان يتقنها ويصعب معرفة نسبه بالضبط، خاصة ولأنه قليل الاهتمام بنسبه ونسبته وأصله.[٩]

وفي الأخير: نقول إن الرأي القريب إلى الحقيقة والصواب، هو نسبة " البيروني الخوارزمي" كما وردت عند ياقوت الحموي، واقترن معنى البيروني بالخارج من خوارزم والبرّاني، يرجّح الاتجاه الثاني، ولأن بعض الباحثين يقولون بخطأ. ابن أبي أصيبعه وغيره في نسبة البيروني إلى بيرون التي السند، فالحقيقة كما تبيّن هذه الدراسات- خلاف ذلك، إذ لم يكن أبي الريحان سنديا، وكذلك لا توجد مدينة في السند تعرف باسم بيرون [١٠]. كما أن المصادر المتوفرة لدينا تؤيد ما ذهب إليه ياقوت الحموي، وقد لقبه بعضهم بالخوارزمي للتأكيد على هذا الترجيح[١١]؛ رغم ما ذكره المستشرق فيدمان[١٢] منتقدًا هذا التلقيب بقوله: "ومما يؤسف له أن العلماء المحدثين يستعملون اسم الخوارزمي على الرغم من أن ذلك يسبب الالتباس".[١٣]

ورد لقب آخر يطرح إشكالاً تاريخيًا في حياة البيروني، وذلك في معجم (أعيان الشيعة) لحسن الأمين قائلاً: "محمد بن أحمد البيروني المكي الخوارزمي (أبو الريحان)، هكذا وجدنا اسمه في نسخة مخطوطة من كتاب الآثار الباقية قديمة جدا رأيناها في مكتبة سبهسلار بطهران، وفي روضات الجنات وصفه بالهروي، ... فما في روضات الجنات وتأليف بعض المعاصرين من أن اسمه أحمد بن محمد اشتباه قطعا، وكذا ما احتمله في روضات الجنات من أنهما اثنان محمد بن أحمد وأحمد بن محمد مع أنه عدل عنه أخيرا، وما في موضع من اكتفاء القنوع من أنه محمد بن محمد وأما نسبته إلى مكة فلا أعلم سببها".[١٤] كما لقب أيضًا ببرهان الحق[١٥] وأبو الريحان اسمًا لكنيته[١٦]، وعرف لدى المستشرقين وعلماء الغرب بالأستاذ (LE METRE)[١٧]، وحرفت نسبة البيروني التي اشتهر بها إلى (آلبيورون)، وورد باسم (AL- BERUNI -BIRUNI AL-) أو وبهذا الاسم اشتهر البيروني في أوروبا خلال العصر الوسيط.[١٨]

والمهم في كل ما سلف ذكره: وإن كان هناك تنازع بين كثير من الدول على نسبة البيروني، إذ كل دولة تنسبه إلى نفسها، فإن النسبة المنصفة له وللثراء الموسوعي الذي خلفه وراءه فصدق القائل إن نسبته هي نسبته إلى الإنسان الذي شرفه الله عز وجل وخلقه في صورته، نسبته إلى الإنسان الذي فضله الله على سائر مخلوقات الأرض، وعلمه الأسماء كلها، فصارت له حضارة بها يعرف ويتميز.[١٩]

١/٢-نشأته وتكوينه العلمي

تجمع الروايات والمصادر التاريخية الترجمانية أن أبو الريحان البيروني قليل الاحتفاء بنسبه، وقلة الاحتفال هذه تركت نسبه محفوفا بالغموض، وإن كانت مزّية من مزاياه، وهي أن الافتخار ينبغي أن يكون بالعلم والأدب، لا بالحسب والنسب؛ ولا بالمال. وقد زعم العلامة الأوزبكي (سولوف) في عهد النظام السوفياتي أنه أحد أبناء العمال من سواد الشعب وعامته. إلا أن عبد الكريم اليافي انتقد ذلك "بأنه لوكان من عامة الشعب وسواده لعجبنا كيف سجل بالضبط تاريخ ميلاده؟ ونحن نعلم أن العلماء الكبار والمشهورين في الغالب حين يكونون من سواد الشعب، نعرف تواريخ وفياتهم، ونجهل تواريخ ميلادهم أو يختلف فيها. وهنا نجد العكس، وهو أن تاريخ ميلاده معروف وتاريخ وفاته مختلف فيه".[٢٠]

وهناك قصة طريفة تبرز عدم ميل البيروني إلى الاحتفال بنسبه، وكان دائما يقول بعدم معرفته نسبه، وروح السخرية بالأنساب عامة؛ والمناسبة أن شاعرًا جاءه ومدحه بقصيدة طويلة، فلم يعجب هذا المديح البيروني، ولم يرتح لإيراده حسبه ونسبه، فأخذ يقرض له شعرا يعارضه ويهجوه فيه ويهجو نفسه في روح عالية بعيدة عن التعصب العرقي، يبرز نظرته إلى الناس جميعا على أنهم سواسية. وهذه بعض الأبيات من القصيدة قائلاً:

يا شاعرجاءني..... على الأدب	وافي ليمدحني والذمّ من أدبي
وجدته ضارطا في لحيتي سفها	كلا فلحيته عثنونها ذنبي
وذاكرا في قوافي شعره حسبي	ولست والله حقا عارفا نسبي
إني لست أعرف جدّي حقّ معرفة	وكيف أعرف جدي إذ جهلت أبي
إني أبو لهب شيخ بلا أدب	نعم ووالدتي حمالة الحطب
المدح والذم عندي يا أبا حسن	سيّان مثل استواء الجدّ واللعب
فأعفني عنهما لا تشتغل بهما	بالله لا توقعن مفساك في تعب[٢١]

(١/٢) ١-النشأة الأولى في خوارزم

يوعز عبد الكريم اليافي أن البيروني نشأ في أسرة كريمة هاجرت من ضواحي كاثخ (كاث)، وعمل أبوه في بلاط خوارزمشاه [٢٢] في زمن بنوعراق [٢٣]، فلما ولد البيروني سجل أو حفظ تاريخ ميلاده، وربما توفي أبوه وهو صغير، وهذا ما صرّح به في الأبيات السالفة الذكر، أما مقامه خارج خوارزم، فيقول السمعاني أنه من المحتمل أن تكون عائلة أبو الريحان من المشتغلين بالتجارة خارج المدينة، حيث أن بعض التجار كانوا

يعيشون خارج أسوار المدينة للتخلص من مكوس دخول البضائع إلى الداخل.[٢٤]

أمضى أبو الريحان البيروني طفولته في مدينة كاث عاصمة خوارزم التي تبسط سلطانها في وسط آسيا، جنوبي بحر آرال، وشرقي بحر قزوين، وكانت تقع شرقي نهر جيحون (آموداريا)، وكانت عامرة بالقصور والمساجد، والمعاهد الدينية الرائعة مثل معهد المأمون، وتعد ضاحية بيرون منطقة حرة، يقيم فيها التجار المحليون، ويتردد عليها للتجارة تجار قادمون من الصين، والهند، وفارس، واليونان، وبلاد شبه الجزيرة والعراق والشام ومصر؛ وكما أشرنا سالفا كان هؤلاء التجار يؤثرون الإقامة في بيرون، هربا من المكوس، التي تفرض على الداخلين منهم ببضائعهم إلى مدينة كاث العاصمة. وقد تربى أبو الريحان يتيما، وكانت أمه تكنيه بأبي الريحان، لأنه كان منذ طفولته عاشقا للطبيعة، وتعوّد على جمع باقة من 'أعواد الريحان' كل يوم عند عودته إلى بيته، وبعد وفاة أبيه، تولى تربيته أمه التي اشتغلت بجمع الحطب، وبيعه في سوق ضاحية بيرون[٢٥]، ولا نعرف الشيء الكثير عن طفولته وهذا ما ذكرته المصادر التاريخية.

(٢/١) ٢-بيئته السياسية والجغرافية في بلاد خوارزم[٢٦]

خوارزم اسم لناحية كبيرة قصبتها الجرجانية، كان أهلها يسمونها (كركانج)، وهي ولاية متصلة العمارة متقاربة القوى كثيرة البيوت المفردة [٢٧] وهنالك أقوال أخرى حول أصل تسمية هذه المنطقة، وهو أنه كان لإقليم خوارزم في صدر العصور الوسطى قصبتان أولاهما في الجانب الغربي (الفارسي) من نهر جيحون تسمى الجرجانية، والأخرى في الجانب الشرقي (التركي) من النهر يقال لها (كاث).[٢٨]

وقد اتفق الجغرافيون في تحديدهم لإقليم خوارزم، فذكروا أن حدوده: من الغرب بلاد الترك (الغزّية)، ومن الجنوب (خراسان)، ومن الشرق (بلاد ما وراء النهر)، ومن الشمال (بلاد الترك) أيضًا [٢٩] كما اعتبر الأصطخري إقليم خوارزم من إقليم ما وراء النهر، إلا أن أحدهم اعتبره من مدائن خراسان، ولعل إضافته إلى خراسان في القرن ٥هـ يرجع إلى خضوعه للسلاجقة في سنة (٤٣٠هـ/١٠٣٨م) [٣٠]، ومن ثم ندرك أن هذا التحديد فرضه الواقع السياسي لا الواقع الجغرافي، لذا رأى ياقوت الحموي (ت. ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) أنه منقطع عن خراسان وعن ما وراء النهر[٣١]،ويعتبر هذا الإقليم منذ القديم أحد أهم مراكز الثقافة في الشرق وأفضل دليل على ذلك أكاديمية المأمون أين ترعرع فيها الخوارزمي وأقطاب العلوم الرياضية والطبيعية والحكمة المشرقية. والجدير بالذكر أن البيروني قد استفاد من المجمع المأموني العلمي، الذي يعتبر الصورة المصغرة لبيت الحكمة البغدادي، إلا أن الوضع السياسي في خوارزم عجل برحيله كما فتح له آفاقا جديدة وفاتحة ذلك بداية رحلاته العلمية التي ستصقل عقله وتنوع من ثقافته وتحصيله العلمي.

ثانيًا: رحلات البيروني العلمية

الجدير ذكره في حياة البيروني، أنه بالرغم من المكانة الكبيرة التي يحتلها في حقل تاريخ العلم، فإن ما لدينا من معلومات عن نشأته والثقافة التي تلقاها قليلة جدا بالقياس إلى ما يجده المرء عن عدد لا يستهان به من العلماء والمؤرخين والفقهاء والأدباء من معاصريه في المشرق والمغرب الإسلاميين. فلا تظفر أخبار نشأته من كتاب حديث عنه بغير ثلاث صفحات يقفز صاحبها أو كاتبها من مناقشة نسبه إلى رحلته عن موطنه وهو في العشرين من عمره[٣٢] ويقتصر ياقوت الحموي وابن أبي أصيبعه في معرض كلامهما على نشأته على إشارة قصيرة إلى مسقط رأسه. لكن الإشارات القليلة المتوافرة عن نشأته، وما وصل إلينا من آثاره، والنتف التي تشير إلى ما لم يصلنا منها، تكفي لرسم المعالم الرئيسية لسبل التعليم ومواد الدراسة التي غذت ثقافة البيروني من خلال رحلاته العلمية.[٣٣]

٢/١-رحلته إلى الرّي وعبوره ديار آل سامان

كان أبو الريحان في ذلك الحين، مشغولا عن السياسة والخصومات بين الأمراء بعمل سلسلة من الأرصاد الفلكية، في قرية صغيرة تقع جنوبي كاث، بواسطة آلة فلكية، إلا أنه لم يتمكن من رصد ارتفاع الشمس في ذورة ارتفاع صيفي لها في أحد الأيام، بسبب ما أدركه من اضطرابات سياسية بين أمراء الدولة الخوارزمشاهية، وبين هؤلاء الأمراء وأميرهم الأكبر أبو العباس في مدينة (كاث)، وأمير مدينة الجرجانية الواقعة غربي نهر الأموداريا؛ فخاف البيروني على حياته العلمية، فقرّر الرحيل في اتجاه الرّي، خاصة بعد مصرع الأمير أبي العباس، وانتقال الملك في (كاث) إلى الأمير المأمون بن محمد أمير الجرجانية، وترك أمّه المسنّة في ضاحية (بيرون)، وأعطاها كل ما يملك من ماله المدّخر.[٣٤] مرّ البيروني إلى الرّي عابرا على ديار آل سامان، وكان سلطانهم منصور الثاني بن نوح بن منصور[٣٥]، وقد نوّه المستشرق كندي برعاية هذا الأمير للبيروني، وصادف في بلاطه شمس المعالي قابوس بن وشمكير الزّياري، فأعجب به وبسعة علمه، خاصة أن هذا الأخير كان في خدمة آل سامان، وهو من كبار الملوك الذين اشتهروا بالعلم وإتقان اللغتين الفارسية والعربية؛ وقد ترك لنا كتابا بعنوان " كمال البلاغة " ضمّنه رسائل البيروني العربية، وفي نفس الوقت كتب البيروني

أيضا كتابا صغيرا سمّاه " تجريد الشعاعات والأنوار المدونة في الأسفار "وقدّمه إلى قابوس، كما ذكره في كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) وقدمه باسمه تكرما على إحسانه وعلمه.[٣٦]

من بخارى عاصمة السامانيين، ومركز الحياة الفكرية للثقافة الفارسية وآدابها، خاصة أيام منصور الأول ونوح الثاني، اتجه البيروني غربًا إلى دولة بني بويه، حتى وصل إلى مدينة الري بالقرب من طهران، وهناك عاش سنتين كما أسلفنا (٣٨٥-٣٨٧هـ/ ٩٩٥-٩٩٧م)، في حالة شديدة من الفقر، جعلت أحد العلماء المشتغلين بعلم التنجيم يسخر منه لسوء مظهره، ويظهر عدم اكتراثه بعلمه وآراءه، وذكرته حالة تلك الأبيات التي قالها أحمد بن فارس:

قد قال فيما مضى حكيم	ما المرء إلا بأصغريه
فقلت قول إمرىء لبيب	ما المرء إلا بدرهميه
من لم يكن معه درهماه	لم تلتفت عرسه إليه
وكان من ذله حقيرًا	يبول سنوره عليه

٢/٢-العودة إلى خوارزم (كاث)

عندما استقرت أمور خوارزم من جديد، عاد البيروني إلى وطنه (بعد ثلاث سنوات) إلى مدينة (كاث)، التي انتقلت عنها العاصمة إلى (الجرجانية)، وتزامنت عودته، مع رغبته العلمية في رصد خسوف للقمر، توقع حدوثه، وهو بالرّي بالحسابات الرياضية الفلكية، في الرابع والعشرين(٢٤) ماي (٩٩٨م/٣٨٩ هـ)، إذ اتفق مع العالم الفلكي أبو الوفاء البوزجاني ليرصد بدوره الخسوف فوق مدينة بغداد، وفعلا حدث هذا الخسوف في نفس اليوم المنتظر المحدد مسبقا: واستطاع كلايهما تحديد حدوثه، فوق مدينتي (كاث) و(بغداد)، فتراسلا وعرفا الفرق بين وقت ظهور الخسوف في (كاث)، ووقت ظهوره في (بغداد) والمسافة بين المدينتين وإحداهما بخوارزم والأخرى بالعراق.[٣٧]

٣/٢-رحلته إلى بخارى

لم يستقر البيروني طويلا في (كاث)، بل قرّر وعمره آنذاك ست وعشرون (٢٦) سنة، أن يتخذ من مدينة بخارى موطنا له، ليكون في حماية سادة المنطقة، بعيدا عن صراعات خوارزم وفتنها المتكررة، وكان الملك في هذه المدينة قد انتقل إلى الأمير منصور الثاني بن نوح بن منصور الأول (٣٨٨-٣٨٩هـ/ ٩٩٧-٩٩٩م)[٣٨] وهناك تردد على مكتبتها العامة الضخمة، الملحقة بقصر الأمير منصور الثاني، وكان الفيلسوف ابن مسكويه قيمًا (مديرًا) على هذه المكتبة، وأخذ البيروني يقرأ منها ما ضمته من كتب العلماء الأقدمين والمعاصرين. ومن جملة المترددّين عليها من طلاب العلم ابن سينا الذي لم يتجاوز عمره ثمانية عشر(١٨) عامًا، والذي يتمتع بحظوة في البلاط الساماني، منذ أن شفى كطبيب قبل عامين الأمير الراحل نوح بن منصور من مرض شديد أصابه، عجز جميع أطباءه في بخارى عن شفائه.

ومنذ ذلك الوقت، توطدت أواصر الصداقة بين العالمان الشابان: البيروني وابن سينا، وكان كل منهما قد سمع عن علم الآخر، وتطورت المعرفة إلى صداقة عمادها الإخاء في العلم، كما أعان ابن سينا صديقه أبا الريحان فقدّمه إلى السلطان منصور الثاني، فأحسن لقاءه، وحاوره، فأعجب بمعرفته لأربع لغات، وبعلمه في علوم الرياضيات والفلك، والنبات، والطبيعيات عمومًا. وأجرى عليه راتبا شهريا، وضمّه إلى مجلس علماء قصره المعروف بالمناظرات واللقاءات التي تقع بين علماء بخارى أمام أيدي السلطان منصور الثاني؛ وتجسد ذلك بين البيروني وابن سينا ومحاوراتهم حول مواضيع عديدة متعلقة بطبيعة الحرارة، والضوء والصوت، وكيفية انتقالهما، بالبرهان. قدّمه لنا الدكتور عبد الكريم اليافي على شكل حوار مجموع في رسائل: أسئلة وجوابات بين العالمين.[٣٩]

ومن جملة ما كشفه البيروني للعلماء: أن سرعة الضوء أكبر من سرعة الصوت، وحدّد لهم الفرق بدقة بالغة بين درجة حرارة الماء الساخن والماء البارد، وعلّل التمدد الحاصل للمعادن بالحرارة، وانكماشها بالبرودة وغيرها[٤٠]، كما عرض أيضا، وصفة للجواهر والمعادن والفلزات وطرق استخراجها من المناجم، وكيفية استخلاصها من بعضها البعض، وكشف لهم عن الخواص الطبيعية والكيميائية للفلزات، كما قدّم ذلك للأمير المنصور في كتابين: "الجماهر في معرفة الجواهر" و" كتاب النسب التي بين الفلزات والجواهر في الحجم "، فأمر الأمير بضمهما إلى مكتبته، ونسخها لعلماء بخارى، وكافئ البيروني على إنجازاته العلمية القيّمة. خاصة بعدما أدرك هذا الأخير (أن العلم وحدة متصلة الحلقات، يؤدي بعضها إلى بعض، وكلها أساس لبعضها البعض، ومن تبحر في علم توصل به إلى بقية العلوم، والأساس فيها كلها هو الطريقة والمنهج، بالمشاهدة، والملاحظة، والاستقراء والتجربة، للتثبت من النتائج، والتحفظ من الخطأ والغلط، وكان ذلك بداية منه للتأريخ في علوم عصره)[٤١]، وأجزل الشكر للعلامة شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري (ت. ٧٤٩هـ) الذي وصف البيروني قائلا: "((ذكي يفوح عبق ريحانه، ويكرم أرج عنبره بامتحانه، تكلم في الكواكب ورسومها وحدودها، والنجوم ونحوسها وسعودها، وناظر

الفحول، وناضل النصول، وله حكمة تلمع مشارق أنوارها وتصدع حصباء الفجر سابق نوارها))".[٤٢]

الآن وقد ذكرنا سالفا عندما كان البيروني في بخارى، وفد على البلاط الساماني الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير الزياري، وكان طريدا من عاصمة إمارته جرجان جنوب شرق بحر قزوين[٤٣]، إثر انقلاب قام به قادة جيشه ضده، فلجأ إلى بخارى يستنجد بالأمير المنصور لاسترداد ملكه، وكان له ذلك[٤٤]. واغتنم الفرصة أثناء وجوده في احد مجالس العلماء للاستماع إلى آراء البيروني وابن سينا العلمية، فانفرد بهما يغريهما بالسفر معه إلى بلاطه بجرجان، لكن اعتذر الإثنين معا وفاءا لآل سامان، وظلا في بخارى، دراسان للعلم، ومجادلان ومناظران، ومؤلفان للكتب والرسائل العلمية.[٤٥] ولأن البيروني لم يظل في إقامته ببخارى، عندما توفي الأمير المنصور الثاني[٤٦] بعدما ظهرت على الدولة السامانية أعراض الضعف والانهيار، بسبب استمرار المناوشات والحروب بين أمراء الإمارات في خراسان[٤٧] وتمكن الأمير سبكتكين[٤٨] أمير غزنة[٤٩] من إنشاء الدولة الغزنوية بخراسان، وأخذ يمد سلطانه مع ابنه محمود [٥٠] إلى بخارى، والجرجانية وبلاد الهند بالحرب والسلم معا، فرأى كل من البيروني وابن سينا أن دعوة الأمير شمس المعالي لهما قد حانت، فسارعا إلى الرحيل مع أهليهما إلى جرجان.[٥١]

٤/٢-رحلته إلى جرجان:[٥٢]

رحّب الأمير شمس المعالي بالعالمين في قصره بجرجان، وكان البيروني قد بلغ من العمر إحدى وثلاثين(٣١) سنة نهاية عام (٣٨٩ هـ/ ٩٩٨م)، وألحقهما كعالمين ببلاطه. وهناك تعرّف على العالم الجليل أبو سهل عيسى المسيحي، وأنجز البيروني تأليفًا في التاريخ للأمير شمس المعالي عنوانه " الآثار الباقية عن القرون الخالية " وموضوعه علم التقاويم، ومعه ثلاث (رسائل عن الحساب العشري والرصد الفلكي، والأسطرلاب) الذي يعرف الفلكيون بواسطته ارتفاع الكواكب والنجوم[٥٣]، وفي نفس السنة تمكن من رصد خسوفين للقمر، وهدته الحسابات الفلكية إلى حدوث خسوف آخر للقمر في شهر جوان بالجرجانية، وكان ذلك عام ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م.[٥٤]

٥/٢-رحلته إلى خوارزم (الجرجانية)

أقام أبي الريحان في الجرجانية، ينتظر حدوث خسوف القمر، وتمكن من رصده، ولما تولى عرش دولة خوارزم الأمير المأمون بن المأمون بعد أبيه، استدعى البيروني إليه ورحّب به، وطلب منه أن يعرف درجة خط الطول الأرضي في مكان محدد، يقع بالأراضي الصحراوية شرقي بحر قزوين، فشرع في تنفيذ ذلك، إلا أنه سرعان ما توقف عن إتمام عمله، حين بلغه عدم رضى الأمير شمس المعالي قابوس بخدمته العلمية للأمير مأمون، ولم يكد يسعد بحسن الصحبة مع ابن سينا وأبي سهل المسيحي في جرجان حتى فاجأه كلاهما بعزمهما على الرحيل عن جرجان إلى مدينة همذان[٥٥]. فقد دعي ابن سينا من طرف الأمير شمس الدولة [٥٦] أبوطاهر (أمير همذان) ليكون رئيسا لوزرائه، وعبثا راح كلاهما يحاول إقناع البيروني بالسفر معهما إلى همذان، خاصة أن الدولة الزيارية على وشك الانهيار إثر تمرد قادة الجيش على سياسة الأمير شمس المعالي.[٥٧]

هذا يبرز تمسك البيروني بعدم مفارقة مواطن أحبّها شرقي بحر قزوين وجنوبيه، وودّع إذاك صديقيه متواعدين على التراسل وتبادل الآراء والكتب العلمية، وقد جاءت الرسالة الأولى من ابن سينا من همذان تحمل خبر وفاة العالم الجليل أبو سهل المسيحي وهما في طريق الصحاري الفسيحة، فحزن البيروني حزنا تأثرا لوفاة صديقه وأستاذه في نفس الوقت. عاش أبي الريحان في جرجان سبع(٠٧) سنوات، إلى أن نشبت ثورة عسكرية أصاحت بعرش شمس المعالي قابوس الزياري وقضت على حياته[٥٨]. وكان ذلك عام (٤٠٣هـ/ ١٠١٢ م) عندما اجتمع عليه قادته وولوا مكانه ابنه منوجهر وطلبوه من جرجان، ثم اتفق مع أبيه وانقطع قابوس في قلعة يعبد الله، إلى أن جرّدوه من كل ما عنده فمات بردا، ويقول فيه ابن الوردي: "كان كثير الفضائل شديد الأخذ قليل العفويدري النجوم وغيرها".[٥٩] وإثر هذه الواقعة الأليمة والظروف العصيبة التي ألّمت بالبيروني في جرجان، قرّر الفرار بنفسه مرة أخرى، فشّد رحاله إلى الجرجانية العاصمة الجديدة لدولة خوارزم.

(٥/٢) ١-في بلاط الجرجانية (خوارزم):

عاش البيروني في بلاط المأمون أمير الجرجانية (عاصمة خوارزم) بين (٣٩٥-٤٠٨ هـ/ ١٠٠٤-١٠١٧م)، وقدّمه كأستاذ كبير إلى مجمع العلوم [٦٠] مع علماءه العظام، أمثال: الفيلسوف ابن مسكويه والعالم الرياضي الفلكي عبد الصمد بن عبد الصمد الحكيم الذي كان أستاذًا لأبي الريحان في شبابه، وهكذا توطدت أواصر الصداقة بين هذا الأخير والأمير أبي العباس[٦١] شقيق أمير خوارزم، وبفضل ذلك صارت له مكانة مرموقة في الجرجانية تفوق مكانة أبي العباس نفسه، فعيّنه المأمون ابن المأمون مستشارًا في بلاطه؛ نظرًا لحبه للعلم والعلماء ومعرفته لقدرات البيروني العقلية ودهاءه السياسي، معتمدا عليه في طلاقة لسانه ووضوح تفكيره، وسلامة منطقه وقدرته على الإقناع في المهمات السياسية والدبلوماسية.[٦٢]

إن هذه المهام شغلت البيروني عن إنجاز الكثير من أعماله العلمية، ومن جملة أعماله العلمية في الجرجانية هي إقامة حلقة رصد كبيرة، أجرى بها خمسة عشر(١٥) رصدًا لارتفاعات الشمس في أوقات الزوال، وصنع لنفسه كرة قطرها عشرة أذرع، ورسم عليها الحلول التي يراها لبعض المسائل الجغرافية، والأقاليم والبلدان والبحار، كما حدد عليها خطوط الطول والعرض، وبهذا كان أول من وضع أصول الرسم للخرائط على سطح الكرة الأرضية [٦٣]، وابتكر أيضا طريقة سمحت له بعمل خريطة مستديرة للعالم، ونقلها من صورة الأرض الكروية إلى الورق المسطح لأول مرة، مستعينا على المعلومات التي حصل عليها بعد انتشار الإسلام في إفريقيا وآسيا وغربي أوروبا (الأندلس).

ولم تكن هذه المعلومات معروفة في عهد الإغريق والرومان[٦٤]، واخترع كذلك طريقة جديدة لعمل النماذج الجغرافية المجسمة.[٦٥]. غير أن أكبر الأعمال التي أنجزها في هذه المرحلة هي موسوعة في الجغرافية الفلكية والرياضية، سماها "كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم" و"كتاب تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن" و"كتاب في الإسطرلاب" ثم "القانون المسعودي" الذي أتمّه فيما بعد.

(٥/٢) ٢-مصير أكاديمية المأمون في خوارزم حتى عام (٤٠٧ هـ/ ١٠١٧م)

تعرضنا إلى الاضطرابات السياسية التي تعرضت لها خوارزم وما جاورها وقد تولى السلطة آنذاك أبو الحسن علي بن المأمون بين عامي(٣٦٨-٣٩٥ هـ/ ٩٧٧-١٠٠٤م) وفي عام (٣٩٥ هـ / ١٠٠٤م) عاد البيروني إلى مدينته الأم، وأصبح مسؤولا عن مجموعة العلماء الذين يعملون بالقصر[٦٦]، وعمل هذا المركز العلمي في الجرجانية بنجاح، ووصل إلى قمّته في عهد الخوارزمشاه أبو العباس مأمون بن مأمون (٤٠٠-٤٠٨ هـ/ ١٠٠٩-١٠١٧م)، وفي هذا الصدد يقول الدكتور عبدو حليموف: "قارن الباحثون في القرن العشرين مركز المأمون العلمي في الخوارزمشاه بالمراكز العلمية القديمة في بغداد وأثينا، ونصيبين وجنديسابور، وانتهوا إلى أن أكاديمية المأمون هذه كانت أكاديمية بحق، وبالرغم من استمرار هذه الأكاديمية لفترة قصيرة حتى عام ٤٠٨ هـ - ١٠١٧م، فقد ارتفع مستوى العلوم في العالم خاصة الرياضيات والكيمياء، والطب والصيدلة والجيوديسيا وعلم المعادن والتاريخ واللغة والأدب والفلسفة والمنطق والعلوم الأخرى".[٦٧]

(٥/٢) ٣-العلاقات السياسية بين خوارزم الجرجانية وإمارة الغزنويين ودور البيروني الدبلوماسي

كان الأمير المأمون زوجا لأخت السلطان محمود الغزنوي وارث الدولة السامانية ومؤسس الدولة الغزنوية وعاصمتها غزنة (كابول حاليًا). وقد ذكر لنا المؤرخ أبي النصر محمد بن عبد الجبّار العتبي[٦٨] في كتابه القيم عن سيرة هذا الرجل الموسوم بـ (اليميني في شرح أخبار السلطان يمين الدولة وأمين الملة محمود الغزنوي)، فصلاً في ذكر الأمير أبي العباس مأمون بن مأمون خوارزمشاه وما ختم به أجله، إلى أن ورث السلطان ملكه واستعرض العلاقات بين دولة الخورزمشاه (الجرجانية) وسلاطين الدولة الغزنوية من آل سبكتكين، وبسبب هذه المصاهرة حمى المأمون بلاد خوارزم من التبعية الكاملة للدولة الغزنوية الفتية.[٦٩] بدايتها كانت منذ أبو الحسن علي بن مأمون لما ورث أباه مأمونا في خوارزم، وقد كانت عاصمتها إذاك الجرجانية، وخطب إلى السلطان يمين الدولة وأمين الملة إحدى أخواته تقوية لعمدة الحال، وتسدية للحمة الوصال، واستمرت هذه المصاهرة إلى غاية وفاة الخوارزمشاه، وعندما ورثه أخوه أبو العباس مأمون بن مأمون، كتب إلى السلطان يسأله أن يعقد له على شقيقته كما عقده عليها لأخيه من قبل، فهو تاليه في الطاعة والإخلاص والقرابة، فشفع له السلطان.[٧٠]

وحدث عام (٤٠٥ هـ/ ١٠١٤م) أن الخليفة العباسي القادر[٧١] في بغداد، أن أنعم على الأمير المأمون بلقب شاه (ملك)، وبعث إليه برسول يحمل خلعة لقب الملك إليه؛ وخشي المأمون عاقبة قبوله للقب الملك قبل أن ينال موافقة صهره السلطان محمود، فسارع بإيفاد أبو الريحان البيروني لملاقاة رسول الخليفة في الطريق قبل أن يصل إليه، ويخلع عليه خلعة الملك بصورة علنية أمام الأمراء قادة الجيش البخاري (صاحب الجيش)، وأمره بأن يصحبه مع خلعة الخليفة إلى السلطان محمود ويستأذن في حملها للمأمون، ووافق السلطان محمود كارها وأسرها في نفسه للمأمون وللبيروني معا إلى حين، وعاد هذا الأخير إلى الجرجانية ومعه رسول الخليفة القادر فخلعت على المأمون خلعة الملك في مجلس حافل؛ ومنذ ذلك الوقت بدأ السلطان محمود يتحرش بزوج أخته، ويمّد عينيه وأطماعه في ملكه، فراح يتلمس لذلك الأسباب.[٧٢] وبعد ذلك بعث السلطان محمود إلى المأمون يطلب منه أن يذكر اسمه في خطبة الجمعة مع اسم الخليفة العباسي، فحار المأمون في هذا الطلب، وخشي إن هو أطاع الأمر أن يغضب عليه أمراء دولته، وإن عصى تنفيذ أمر السلطان محمود فيغضب أيضا عليه هذا الأخير، ويجتاح

خوارزم بجيوشه، واهتدى المأمون لرأي البيروني الذي أشار عليه إلى دعوة أمراء الدولة وجيشها إلى مجلس البلاط الخوارزمي للاستشارة والرأي في أمر السلطان، إلا أن الأمراء والقادة رفضوا الاستجابة لذلك، خوفا من أن ينتهي تماما استقلال دولتهم في خوارزم، ورأوا الإذعان لذلك بداية للتحرش الغزنوي على أراضيهم، فانصرفوا مغاضبين.[٧٣]

ومن جهة أخرى خاف المأمون عاقبة غضب هؤلاء الأمراء، فأرسل إليهم البيروني ليحاول استرضائهم وإقناعهم بأن الملك المأمون لم يقصد بما طلبه منهم، سوى اختبارهم في مدى ولائهم للعرش، واستعدادهم لحماية استقلالهم ضمن دولتهم، ونجح في آخر المطاف في إقناع هؤلاء وأكد أن خطبة الجمعة ستبقى على ما كانت عليه ولا يدعى فيها إلا للخليفة العباسي ولملك خوارزم. وتوّج ذلك، بإرسال البيروني إلى السلطان محمود، يعتذر إليه عن عدم تنفيذ طلبه، بحجة عجزه عن إقناع أمراء وقادة جيشه، وكان رد الفعل قويا من طرف السلطان محمود، ووجّه إنذارا مهينا للملك المأمون وحاشيته، وتوعدهم بالتأديب المناسب بنفسه، فسارع المأمون إثر ذلك، إلى إصدار أمر لخطباء المساجد، يوجبهم ذكر اسم السلطان محمود في خطبة الجمعة في مساجد مدينتي كاث والجرجانية، دون سواهما من مساجد الدولة في الأقاليم،[٧٤] وعندئذ، ثار أمراء الدولة وقادة الجيش بزعامة ينالتكين البخاري (صاحب الجيش)، وتآمروا عليه للفتك به، وأحاطوا بقصره، وقتلوه وأخذوا زوجته أسيرة ورهينة، ولم يكن البيروني لحسن حظه موجودا عنده بالقصر، وهمّ بالفرار حين بلغه الأمر، هو وأهله إلى مدينة كاث.[٧٥] وفي هذا المقام تحسنت العلاقات بين الخلافة العباسية والدولة الغزنوية، بسبب أن السلاطين الغزنويين كانوا سنة متمسكين[٧٦] بمذهبهم في وقت كان (المذهب الشيعي) ينتشر في بلاد العراق وفارس، ففي سنة (٤٠٤هـ/ ١٠١٣م) أرسل الحاكم بأمر الله[٧٧] رسولاً إلى السلطان محمود الغزنوي يدعوه إلى الدخول في المذهب الإسماعيلي والولاء له: فاستنكر هذا الأخير ذلك، وأغلظ القول إلى الرسول، كما أرسل إلى الخليفة العباسي بخبره وموقفه العدائي من الشيعة ثم تكررت المحاولات الفاطمية، في أيام الخليفة الفاطمي الظاهر[٧٨] الذي أرسل أيضا كتابا يدعوه فيه إلى طاعته ومعه الخلع، فمزق محمودا ذلك الكتاب ، وبعث بالخلع إلى الخليفة العباسي القادر ببغداد، فجمع القضاة والأشراف والجند، وأخرج الخلع إلى محمود، وضرب الذهب منها دنانير، تصدق بها على فقراء بني هاشم.[٧٩]

وتجلى خضوع السلطان محمود الغزنوي لتعاليم الخلافة العباسية الدينية في سنة (٤٠٩هـ/ ١٠١٨م) حين استتاب الخليفة القادر فقهاء المعتزلة وأظهروا التبرؤ من الاعتزال. واستنّ السلطان محمود بسنته، فقبض على المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة وصلبهم وحبسهم ونفاهم، وأمر بلعنهم على منابر المسلمين.[٨٠] كما حرص سلاطين غزنة على صبغ حكمهم بالصبغة الشرعية، وكان ذلك لا يتم إلا إذا أرسل الخليفة العباسي تقليدا للسلطان الجديد بالحكم، وهذا التقليد يكسب حكمهم هيبة، في نفوس رعاياهم، وعلى هذا أرسل الخليفة العباسي القادر إلى السلطان محمود الغزنوي خلعا لم يسمع بمثلها فور توليته الحكم، ولقبه في كتابه بـ: "يمين الدولة وأمين الملة"[٨١]، على أن الخليفة القادر استاء من السلطان محمود حينما طلب منه ألقابا كثيرة، ولما أبى الخليفة عليه ذلك كاد أن يسير إلى بغداد لإرغام الخليفة على تنفيذ رغباته، لولا تدخل الرسل التي سعت بينهما حتى عادت العلاقات بين الرجلين إلى ما كانت عليه من الولاء والود.[٨٢]

وجاءت الفرصة أمام السلطان محمود الذي انتهزها وسعى إليها ودبّر لها، إذ زحف بجيش كبير احتل به ديار خوارزم، واستولى على مدينتي كاث والجرجانية في (٤٠٨ هـ/ جويلية ١٠١٧م)، وأنقذ أخته الأسيرة، علما أن قادة الجيش الخوارزمي عقدوا الولاية لأحد أبناء المأمون واسمه داود، وبايعوه وتحالفوا على محاربة السلطان محمود الغزنوي[٨٣]، وكان ذلك بعدما سار قائد الجيش الغزنوي أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الطائي، ولحق بهم محمودا فهزموا الخوارزمية[٠] وأتى عليهم بالقتل والأسر، وقبضوا على ينالتكين البخاري وجاءوا به إلى السلطان فقتله في جماعة من القادة المتآمرين على الملك المأمون، على قبر هذا الأخير، وثبتت الخوارزمية في هذه المعركة إلى طلوع شمس اليوم التالي، أين قضى عليهم جميعا؛ وبعث بالباقين من الأسرى إلى غزنة فأخرجوا في البعوث إلى الهند وأنزلوا هناك في حامية الثغور، وأجريت عليهم الأرزاق، وولي خوارزم حاجب السلطان محمود أبا سعيد التونتاش.[٨٤]

وقد وصف العتبي في كتابه (اليميني) هذا الانتصار ومحاكمة المتخاذلين من الخوارزمية قائلاً: "وأمر السلطان بضرب الأعواد والجذوع تجاه مقبرة صاحبهم أبي العباس مأمون بن مأمون خوارزمشاه، وصلبهم أجمعين عليها مع عدة ممن اتهمهم بالدين، وعدّهم معد الناكبين عن قصد السبيل، وأمر بالكتابة على جدران تلك المقبرة بأن هذا قبر فلان بن فلان، بغي عليه حشمه، واجترأ على دمه خدمه، فقيّض الله يمين الدولة وأمين

الملة أبا القاسم محمود بن ناصر الدين سبكتكين حتى انتصر له منهم، وصلبهم على الجذوع عبرة للناظرين وآية للعالمين".[٨٥] ومن جملة الأسرى الذين أخذهم محمود الغزنوي إلى عاصمته غزنة أعضاء مجلس أو مجمع العلوم (أكاديمية المأمون)، وعقد لهم محاكمة سريعة، اتهمهم فيها بالكفر والزندقة، لأنهم يشتغلون بعلوم لا يفيد منها إلا القرامطة، أعداء المذهب السني، ولأنهم أيضا زجّوا بأنفسهم في أمور السياسة، فأمر بإلقاء عدد كبير منهم، من برج قلعة قصره، فلقوا حتفهم، وكان من بينهم العالم الرياضي والفلكي عبد الصمد الحكيم أستاذ البيروني.[٨٦] وكاد أبو الريحان يلقى نفس المصير، لولا رجال بلاط السلطان، وعلى رأسهم الوزير الشيخ الجليل أبي القاسم أحمد بن الحسن[٨٧]، ونجحوا في الإبقاء على حياته، مؤكدين له أنه أكبر عالم في زمانه في الدنيا كلها؛ ولا ينبغي للدولة الغزنوية أن تخسر عقله وعلمه. فعدل السلطان محمودا عن قتل البيروني وأمر بتحديد إقامته في قرية جيفور التي تبعد بضعة كيلومترات عن غزنة [٨٨] وفي هذا الصدد يقول ياقوت الحموي: "وهمّ [٨٩] أن يلحق به[٩٠] أبا الريحان فساعده فسحة الأمل بسبب خلصّه من القتل، وقيل له إنه إمام وقته في علم النجوم وإن الملوك لا يستغنون عن مثله".[٩١] وهكذا بدأ البيروني حياة جديدة في البلاط الغزنوي بين غزنة وبلاد السند والهند أين سيكمل بقية حياته المحفوفة بالمخاطر والغنية بالإنجازات العلمية من خلال رحلاته.

ثالثًا: البيروني في البلاط الغزنوي إلى وفاته

٣/١-في عهد السلطان محمود بن سبكتكين

كان يلقب أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة أبي منصور سبكتكين في البداية (سيف الدولة) ثم لقبه الخليفة العباسي القادر بالله بعد موت أبيه سبكتكين[٩٢]" (يمين الدولة وأمين الملة)" واشتهر بهذا اللقب[٩٣] وقبل ذلك كان الأمير سبكتكين قد جعل الولاية من بعده في ولده إسماعيل، واستخلفه على الأعمال، وأوصى إليه بأمور أولاده؛ وكان أخوه محمودا بخراسان[٩٤] مقيما بمدينة بلخ[٩٥] وإسماعيل بغزنة، ولما بلغ خبر وفاة أبيهم سبكتكين، كاتب محمود إلى أخيه إسماعيل أنه لم يستخلفه من دونه، بل كان قريبا منه، لذا عرض عليه تقاسم الأموال بالميراث فرفض ذلك وتشاغب عليه جنده وطالبوه بالأموال فاستنفذ في مرضاتهم الخزائن[٩٦]، ثم عاود مكاتبته وهو في هراة[٩٧] لكن فشل، ولجأ إلى عمه بغراجق وأخيه أبو المظفر نصر بن سبكتكين وكان أميرا على بست[٩٨] فعرض عليهم الطاعة والانقياد، ثم قصد أخاه بغزنة وهما معه، فنزلها في جيش عظيم وحاصرها، واشتد القتال مما اضطر إسماعيل إلى طلب الأمان، وعزل في قلعة وأمر له بكل ما يشتهي، أما محمودا فقد فرغ إلى تنظيم غزنة وتعيين النواب الأكفاء، وعاد إلى بلخ، وبعد فترة قصيرة ضم إليه خراسان التي للسامانيين، فانقطعت الدولة السامانية وذلك عام (٣٨٩هـ/٩٩٨م)، واستتب له الملك نهائيا، وشرع في توسعاته في الهند وانتهى إلى ضم خوارزم كما أسلفنا.[٩٩]

أما البيروني فقد عاش في قرية جيفور مع أهله حياة الضنك والبؤس، إلا أنه كان يقضي أيامه ليلا ونهارا، بتأليف كتاب في الفلك بعنوان: "(تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن)"، والقيام بأرصاد لتحديد خط عرض هده القرية، علما أنه لم يكن لديه آلات الرصد اللازمة والمال لصنعها، فهداه تفكيره إلى ابتكار لوحة حسابية، وضع عليها قوسا مدرجا واستطاع بالحسابات، واللوحة والقوس إلى تحديد خط عرضها.[١٠٠] وفي العام التالي، أرسل إلى السلطان محمود يستأذنه في السفر إلى قرية لغمان شمالي غزنه ليرصد منها كسوفا للشمس في يوم ٨ أفريل (٤٠٩هـ/ ١٠١٨م) فأذن له بذلك، ورصد هذا الكسوف، كما انتقد الفلكيين في المنطقة، وكشف جهلهم في علم الفلك، وظلّ البيروني ثلاث(٠٣) سنوات في قرية جيفور، وهو يستأذن السلطان من حين لآخر للقيام بأرصاده الفلكية في مدينة غزنة وضواحيها، بواسطة آلة رصد سماها "الحلقة اليمينية" تقرّبا للسلطان يمين الدولة، بعد أن أنعم عليه الخليفة العباسي بهذا اللقب. واستطاع بفضل هذه الحلقة معرفة خط عرض غزنة، ثم يعود إلى القرية التي حددت بها إقامته، وخلال السنوات الثلاث السالفة أخذ يتعلم اللغة السنسكريتية إحدى اللغات السائدة بالهند؛ ويتقصى أخبار حضارة الهند، وكله ثقة أن السلطان محمود سيكون بحاجة إليه يوما في فتوحه إلى بلاد الهند.[١٠١]

رحلات البيروني إلى الهند مع السلطان محمود الغزنوي في فتوحه الإسلامية

منذ العام (٤٠٨ هـ / ١٠١٧م) أخذ السلطان محمود الغزنوي في غزوبلاد الهند، فقد فتح مهرة[١٠٢] وقنّوج [١٠٣] مباشرة بعد على خوارزم، وكان جيشه يناهز العشرين(٢٠) ألفا[١٠٤] وتواصلت هذه الفتوح إلى غاية (٤١٦هـ/ ١٠٢٥م) أين أوغل في الهند وفتح مدينة الصّنم المسمى بسومنات [١٠٥]- أعظم أصنام الهند الذي يحجّون إليه- ووقفه فوق عشرة(١٠) آلاف ضيعة (قرية)، وكان قد اجتمع في بيت الصنم من الجوهر والذهب ما لا يحصى، فغنم السلطان منها ورجع. ويذكر المؤرخ زين الدين عمر بن الوردي أن

الصنم: "كان صلبًا فأوقد عليه حتى قدر على كسره، كان طوله خمسة أذرع منها ثلاثة بارزة وذراعان في البناء، وأخذ بعض الصنم معه إلى غزنة وجعله عتبة الجامع".[١٠٦]

وكان السلطان محمودا قد مدّ حدود دولته إلى شبه القارة الهندية منذ (٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م) عندما استولى على بهاطية [١٠٧] والملتان [١٠٨] وقشمير[١٠٩] ووسع نفوذه إلى ثلاثمائة (٣٠٠) ميل شرقي نهر الأندوس[١١٠]. وكان البيروني ما يزال يلقى إهمال السلطان، وسوء معاملته له، إلى أن حان الوقت الذي ينتظره، حينما استدعاه في غزنة، ليصحبه معه في فتوحه إلى الهند، ليدّون ما لا يعرفه المسلمون عن هذه البلاد وتاريخها، وجغرافيتها وحضارتها وغيرها من المواضيع المتصلة بهذا المجتمع الذي يبدوأنه متناقض وغريب، خاصة بعدما أدرك أن معرفة خباياه هو الكفيل بعمليات الفتح.[١١١]

ومنذ عام (٤٢٠هـ-١٠٢٩م)، والبيروني يصحب السلطان محمود الغزنوي في فتوحه المتكررة، ومما يحكي أنه شاهد بنفسه، وهو يهدم الصنم بمعبد سومنات، وينقل أجزاء منه ليكون دعامة لجامعه بغزنة (المسجد الجامع)، والأماكن التي زارها، طول سبع سنوات في بلاد الهند، تقع في إقليمي البنجاب[١١٢] وقشمير[١١٣] - كشمير حاليا- وخلال ثلاث عشرة رحلة إلى الهند، كان البيروني قد عكف على قراءة ما تيسر له من الكتب الهندية المكتوبة بالسنسكريتية، ويخالط العلماء ورجال الدين الهنود، من طبقة البراهمة خاصة؛ ويحاورهم في عقائدهم، من بينها تقديسهم للبقرة وتحريمهم ذبحها. وكذلك الأخذ من معارفهم العلمية: الرياضية والفلكية والجغرافية، وأن يصححها لهم، وينقل إليهم معارف اليونان والمسلمين، ويتعرف على عادات أهل الملل المختلفة وأعرافهم، وطرائقهم في البحث في العقائد الفلسفية والرياضية.[١١٤]

حينئذ ارتفعت مكانة البيروني لدى السلطان محمود، اثر قدوم وفد من قبل سلطان أتراك الفولغا إلى غزنة عام (٤١١هـ / ١٠٢٠م)، وكانت لهؤلاء صلات تجارية تقوم على المقايضة مع سكان المناطق القطبية الشمالية، وعندما حضر البيروني لقاء هذا الوفد بالسلطان، وجرى أن ذكر قائدهم، وهويتحدث عن بلاده في أمر أغضب السلطان محمود غضبا شديدا، وقال أنه في أقصى الشمال من الأرض، تبقى الشمس مشرقة شهورا متوالية، لا تكاد تغيب فيها الشمس إلا لتشرق من حيث غربت، وتغيب شهورا أخرى متوالية لا يرى فيها لها شروق؛ فيكون النهار نصف عام، والليل نصف عام. فاتهمهم بالكفر والإلحاد، والوعيد بالسجن أو الطرد من بلاد الغزنويين؛ وبعد جدال مرير، تدخل العالم أبو نصر بن مشكان [١١٥] ليخفف من روع السلطان، منوها أنه (يتحدث بغير رأيه بل برأي شاهد عيان، وعلينا نحن العلماء أن نبحث لها عن تفسير وتعليل). [١١٦]

وهنا جاء دور البيروني بأمر من السلطان لشرح هذه الظاهرة، فأجابه، (أن رأي الأتراك صواب)، فأورد له الظاهرة الشمسية من خلال الآية الكريمة: "حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا" [١١٧] وشرحها جغرافيا، وعندما أخذ يشرح ذلك هدأ من روع السلطان، وأقبل على أتراك الفولغا، يسمع ما عندهم من عجائب الأخبار وعن ديار نهر الفولغا [١١٨] وسكان القطب الشمالي(الإسكيمو).[١١٩] وهكذا من بعثة أتراك الفولغا، إلى بعثات أخرى وفدت من الصين إلى غزنة، ومن الرحالة والتجار القادمين من كل أنحاء المعمور، عرف البيروني كثيرا من المعلومات الجغرافية، عن بلاد الروس، وسيبيريا، والقطب الشمالي، والشرق الأقصى، وضمّنها كتابه " القانون في الهيئة والنجوم" المعروف ب(القانون المسعودي).[١٢٠]

وفي عام (٤٢١ أو٤٢٢ هـ/ ١٠٣٠م أو١٠٣١م) وافت المنية السلطان محمود بن سبكتكين، بعدما استولى قبل عام على الريّ، وقبض على مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه (صاحب الري)، لانشغاله عن الملك، وصادف ذلك وفاة منوجهر بن قابوس بن وشمكير الزياري[١٢١] وقد وصى السلطان محمودا بالملك لابنه محمد، وهو أصغر من مسعود، فملك محمدا، وكان أخاه مسعودا بأصبهان، إلى أن سار إليه في غزنة، واتفق الكبار من العسكر وقبضوا على محمد، وحضر مسعود ليستقر في الملك بعدما أطلق سراح أخيه وأحسن إليه بعد ذلك [١٢٢]، وهكذا انتقل الحكم في الدولة الغزنوية من السلطان محمود بن سبكتكين إلى السلطان مسعود بن محمود الغزنوي. وفي هذا الصدد يقول صاحب (نزهة الخواطر) في شخص السلطان محمود الغزنوي: " (وكان قوي النفس، لم يضع جنبه في مرضه، بل كان يستند إلى مخدة، فأشار عليه الأطباء بالراحة، وكان يجلس للناس بكرة وعشية وكان عاقلا ديّنا خيّرا، عنده علم ومعرفة، وصنف له العلماء كثيرا من الكتب في فنون العلم، وقصده أهل العلم من أقطار البلاد").[١٢٣] كما كان يكرم أيضًا العلماء، ويقبل عليهم، ويعظمهم، ويحسن إليهم مثلما أحسن على مؤرخنا أبي الريحان البيروني، الذي كانت رحلاته العلمية إلى الهند، وتعلمه للغة السنسكريتية على بعض العلماء الهنود، فتحت له هذه المعرفة مغاليق الثقافة الهندية الغنية من الوجهتين العلمية والدينية [١٢٤] وخرج من هذه الرحلات كلها

بحصاد من التآليف الجليلة في قيمتها، أهمها: كتاب نقدي تاريخي كبير أشبه بموسوعة حضارية عن الهند، وأطلعنا به على أحوال المجتمع الهندي ومجالاته الفكرية والفلسفية والأنثربولوجية (بالمصطلح المعاصر)، وسجله بعنوان في شكل بيت شعري:

" تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أومرذولة"

وهو المعروف بـ(تاريخ الهند) أو(الأنديكا) في العالم الغربي منذ العصر الحديث. وضمّ هذا الكتاب معلومات وافية ومفصلة عن بلاد الهند، كانت جديدة على المسلمين في زمانه، وظلت جديدة على الثقافة الغربية الحديثة إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي[١٢٥]، ولم ينته البيروني من كتابه هذا إلا بعد عشر(١٠) سنوات، في نفس السنة التي توفي السلطان محمود الغزنوي (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، وترجم هذا الكتاب في عصر النهضة الأوروبية الحديثة إلى العديد من اللغات الأوروبية، واشتهر بين علماء الجغرافيا والتاريخ في أوروبا.

كما استطاع البيروني- وهو بالهند- أن يحدد بالأرصاد خطوط العرض لإحدى عشرة (١١) مدينة هندية قام بزيارتها، من بين خمس ستين(٦٥) مدينة رآها رؤيا العين، ونجح وهو مقيم بـ (حصن نندانا°)، أن يعرف قطر الأرض، وطول محيطها، مستعينا بمسقط ظل الجبل، بالحسابات الرياضية الهندسية[١٢٦]، وكان هذا المكان يطل على البقعة التي هزم فيها الإسكندر المقدوني جيش الملك الهندي بوروس وفيلته، كما نقل إلى العالم الأرقام الحسابية الغبارية من الهند إلى المسلمين، وهي الأرقام المستعملة الآن في بلاد المغرب الإسلامي، وفي أنحاء العالم (الأوروبي والأمريكي والآسيوي)، ويعرفونها باسم (الأرقام العربية). ولم تعرفها أوروبا إلا بعد قرنين من وفاة البيروني، وهي أرقام قائمة على الزوايا الهندسية، كما أتاحت للبيروني أيضا رحلاته إلى الهند، أن يتحدث ولأول مرة، عن تاريخ الرياضيات عند العرب والهنود، ولولا صنيعه لا ندثر هذا التاريخ إلى الأبد، ونقل عددًا من الكتب الهندية عن السنسكريتية إلى العربية، وأخرى عن العربية إلى السنسكريتية، فحقق بترجماته تواصل الثقافة والمعرفة بين الشعوب الهندية والشعوب الإسلامية.[١٢٧]، وترك للبيروني فراغا عميقا، عندما انقضى حكم السلطان محمود الغزنوي، إلا أن تلك العلاقة كانت علمية بحتة، وفي ذلك يقول البيروني على لسان ياقوت الحموي:

ولم ينقبض محمود عني بنعمة فأغنى وأقنى مغضيا عن مكاسيا
عفا عن جهالاتي وأبدى تكرما وطرّق بجاه رونقي ولباسيا
عفاء على دنياي بعد فراقهم وواخزني أن لم أزر قبل آسيا
ولما مضوا واعتضت منهم عصابة دعوا بالتناسي فاغتنمت التناسيا [١٢٨]

٢/٣-في عهد السلطان مسعود بن محمود الغزنوي

هو الملك الفاضل المؤيد، شهاب الدين، جمال الملة: أبو سعد مسعود بن محمود؛ وقد تنبل في أيامه، وفتح طبرستان[١٢٩]، وبلاد الجبل وأصفهان [١٣٠] وغيرها، وكان بأصفهان حين توفي والده بغزنة، وقام بالأمر بعده ولده محمد بوصيته، واجتمعت عليه الكلمة، فلما بلغه الخبر سار إلى خراسان، وكتب إلى أخيه محمد أنه لا يريد من البلاد التي وصى له أبوه بها شيئا، وأنه يكتفي بما فتحه من بلاد طبرستان وغيرها، ويطلب منه الموافقة على أن يقدمه في الخطبة على نفسه فرفض، محمدا ذلك، علما أنه كان سيء التدبير في الحكم، وغامر في ملذات الدنيا، فسار إليه مسعود محاربا، وقضى على حكمه.[١٣١]، وكانت علاقة البيروني بالسلطان مسعود الغزنوي قبل اعتلاءه للعرش وطيدة الأركان، ولولا هذا الأخير لهّم أبوه محمودا بقتله، أثناء استيلاءه على خوارزم، فهو الذي شفع له، نظرًا لإعجابه بأبي الريحان وكذلك أبو الفتح البستي[١٣٢] الذي قال فيه البيروني:

أبو الفتح في دنياي مالك ربقتي فهات بذكراه الحميدة كاسيا [١٣٣]

في هذا الوقت، وصلت الدولة الغزنوية في أقصى اتساعها في أيام السلطان مسعود، وأصبحت تضم ديار الأفغان، والفرس، وخوارزم، وديار بني زيار، وشمال الهند، حتى بلغ طول اتساعها من الشمال إلى الجنوب ألف(١٠٠٠) ميل، وعرضها من الشرق إلى الغرب ألفي(٢٠٠٠) ميل، وكان السلطان مسعود على عكس أبيه، رجلا متسامحا، محبّا للعلم والعلماء، وصديقا للبيروني منذ أن إلتقاه في غزنة قبل اثني عشرة(١٢) سنة. وبعدما استقرت الدولة الغزنوية، سمح هذا السلطان للبيروني بزيارة وطنه الأول خوارزم، وتعود على العودة بعد كل زيارة إلى غزنة. واستقر مقامه فيها إلى غاية وفاته في رعاية هذا السلطان الذي أنجزه له كتابه النفيس في علم الفلك والرياضيات والجغرافيا المرسوم بـ " (القانون في علوم الهيئة والنجوم)" المعروف بالقانون المسعودي، وفيه سجّل مبادئ علم الفلك، وعلم التواريخ الرياضي، الذي يبحث في تواريخ (تقاويم) الأمم المختلفة وكيفية تحويل بعضها إلى البعض.[١٣٤]

والملاحظ هنا، أن البيروني وضع هذا الكتاب باسم السلطان مسعود بن محمود الغزنوي، وقدم لنا عدة نظريات وقوانين فلكية ورياضية وجغرافية، وتكلم عن جملة الاكتشافات التي كان لها السبق فيها، عن علماء عصره وسابقيه. ولما أهدى ذلك للسلطان باسمه، أرسل إليه بمكافأة ضخمة، كانت حمل فيل من القطع الفضية، فرّد البيروني ذلك قائلاً: "إنما كتبت كتابي بهذا من أجل العلم لا المال"[١٣٥]، مما زاد من قدر ومكانته في نفس السلطان، وعاش معه في رعايته وإكرامه له، أزيد من عشر(١٠) سنوات، حتى بلغ الثماني وستين (٦٨) سنة من عمره.[١٣٦] ومنذ سنة (٤٢٢هـ/١٠٣١م)، شرع السلطان مسعود في فتوحه وتوسعاته، وقد شنّ هجومات على التّيز[١٣٧] ومكران [١٣٨]، وكرمان[١٣٩] وفي نفس السنة وقع عصيان نائبه في أرض الهند (أرياق الحاجب)، إذ قبض عليه وولى مكانه (أحمد نيالتكين الحاجب)، الذي عصاه أيضا عام(٤٢٥هـ/١٠٣٤م)؛ فعيّن مكانه ابنه مودود، وبعد سنة، انتصر السلطان مسعود على الغزّ، وسار إلى جرجان فملكها، ومنها لجأ إلى خراسان التي جرت فيها معارك ضارية بينه وبين بني سلجوق، فتح خلالها بعض القلاع سنة (٤٣١هـ/١٠٤٠م)، وعاد إلى غزنة في شوال من نفس السنة، وقبض على مقدم عسكره سياوش، وعدة من أمرائه، وجهّز ابنه مودود إلى بلخ ليرد عنها السلجوقية.[١٤٠]

وجرت العادة، منذ أيام السلطان محمود إرسال الحملات إلى بلاد الهند، فعمد مسعود على تسيير أخيه محمد طالبا النجدة ضد السلجوقية، سنة (٤٣٢هـ/١٠٤١م)، فعبر نهر سيحون، وعندئذ نهب أنوشتكين[١٤١] (أحد قادته)، بعض الخزائن في مؤخرة القافلة، واجتمع إليه جمع، وألزم محمدا (أخا مسعود)، على القيام بأمر الإمارة مكرها، وبقي السلطان في جماعة من عسكره، والتقى الجمعان في منتصف ربيع الثاني عام(٤٣٢هـ/١٠٤١م)، واقتتلوا قتالا شديدا، أسفر على انهزام السلطان مسعود، وتحصن في رباط، فحصروه واضطروه إلى التسليم، فأرسل من طرف أخيه إلى قلعة (كيدي°)، وأمر بإكرامه، ولما استقر الأمر لمحمد بن محمود بن سبكتكين في الملك، فوّض أمر دولته إلى ابنه أحمد، أدى ذلك إلى اضطراب سياسي وعسكري، فاتفق بدون علم محمد على قتل السلطان مسعود، بعدما تآمر على ذلك عمّه يوسف، وابن علي خويشاوند وغيرهما. وبذلك كانت نهاية السلطان مسعود بن محمود الغزنوي.[١٤٢] ويقول صاحب (نزهة الخواطر) في صفات السلطان مسعود الغزنوي: "وكان السلطان مسعود شجاعا كريما، ذا فضائل كثيرة، محبّا للعلماء، كثير الإحسان إليهم، والتقرب لهم، صنفوا له التصانيف الكثيرة في فنون العلم كـ " القانون المسعودي " في الفنون الرياضية، صنفه أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني المنّجم، و" الكتاب المسعودي " في الفقه الحنفي، صنّفه القاضي أبو محمد الناصحي وكان كثير الصدقة والإحسان إلى أهل الحاجة وكان ملكه عظيما فسيحا، وملك كثيرا منها، وأطاعه أهل البر والبحر، ومناقبه كثيرة، وقد صنّفت فيها (البلدان) التصانيف المشهورة".[١٤٣]

وإثر هذه الفاجعة التي ألمت بالسلطان مسعود حزن البيروني، واشتّد الحال عليه، وزادت من آلامه الأمراض التي كان يعانيها العلماء بعد الخمسين، وفي مقدمتها أمراض القولون، وثقل السمع، وضعف البصر، واعتكف في داره ثماني(٠٨) سنوات، تفرغ فيها للبحث العلمي، وإملاء عدد من كتبه على تلاميذه.[١٤٤] وقد أشار في كتابه المهم الموسوم بـ (كتاب الصيدنه في الطب) إلى ضعف بصره، وثقل سمعه، وحاجته إلى من يعينه في البحث والتنقيب[١٤٥]، وفي بيته بغزنة، أملى كتابيه: (الدستور) الذي أهداه إلى ابن السلطان مسعود، مودود الغزنوي، وكتاب (الصيدنه) بعد أن كلّ بصره من طول النظر إلى الشمس في إرصاده لها في أوقات الزوال؛ وفي هذا الكتاب، بحث في المادة الطبية.[١٤٦]

٣/٣-في عهد السلطان مودود بن مسعود الغزنوي[١٤٧]

عاش البيروني أواخر حياته في بلاط السلطان مودود بن مسعود الغزنوي، والذي تولى حرب السلجوقية، بعد مقتل أبيه في خراسان، كما قاتل عمه محمد وهزمه، وقبض على ابنه أحمد وأنوشتكين فأبادهم جميعا، وهكذا ثأر لقتلة أبيه؛ ودخل غزنة عام (٤٣٢هـ/١٠٤١م)، وثبت الملك، وانقاد ملك الترك في ما وراء النهر له، إلى انتهى ذلك بوفاته عام (٤٤١هـ/ ١٠٤٩م)، وعمره تسع وعشرون(٢٩) سنة، وملك تسع سنين وعشرة أشهر، فخلفه في الملك عمه عبد الرشيد بن محمود بن سبكتكين[١٤٨] بعد وفاة أبو الريحان البيروني بعام واحد ترجيحا لعام (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م).

رابعًا: ذكر تاريخ وفاته والخلاف فيه

عاش المؤرخ والعالم الموسوعي إذا، حياة علمية حافلة° استمرت نحوا من خمسين(٥٠) سنة، أنجز فيها ثمانية(٠٨) مؤلفات كبرى في علم الفلك، وكتبا أخرى مفردة، في التنجيم والجغرافيا والصيدلة والتاريخ، ومائة وإحدى عشر(١١١) رسالة علمية في الإسطرلاب، وقياس الزمن، والجيوديسيا، والحساب والهندسة والمثلثات، والأرصاد الجوية، والمعادن، والجواهر، والدين، والفلسفة، والعقائد، وستة عشر كتابا في الأدب؛ ساق

فيها أشعارا، وقصّ أساطير للهنود والفرس، ولم يبقى بعده من كتبه الأدبية سوى شذرات رويت عنه. ولأن البيروني كان عالمًا موسوعيًا، وضرب بأسهم وفيرة في معظم مجالات المعرفة، وكان في أكثرها مبتكرًا، خاصة في الفلك، والرياضيات، والطبيعيات، والجغرافية الفلكية، وأن أيضا حصاده العلمي كان فائقا، وسابقا في زمانه لنفس الاكتشافات التي قام بها علماء عصر النهضة الأوروبية بعد ستة قرون، فقد أبهر مؤرخو العلم الغربيين وحتى المسلمين، بهذا الحصاد، وبتلك العقلية البيرونية التي أثمرته. ومما يجدر ذكره، هو أن شلة من العلماء والمؤرخين أخذوا في دراسة هذا التراث الموسوعي، وتصنيف العلوم التي كتب فيها: خاصة الجانب المنهجي فيها، وسنستعرض ذلك في أوانه.

والمهم في هذا المحل، هو استعراض الآراء المتضاربة حول تحديد تاريخ وفاة أبو الريحان البيروني، فقد ذكرت طائفة منهم، أنه ولد كما ذكرنا سابقا سنة (٣٦٢هـ/ ٩٧٣م)، وتوفي سنة (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)، وانطلاقا مما ذكره البيروني في كتابه (الصيدنه) عن إنافته على الثمانين فيلزم أن يكون قد توفي بعد ذلك التاريخ، أما ياقوت الحموي فيقول في كتابه (معجم الأدباء): "ثم أقام بغزنة حتى مات بها أدى في حدود سنة ثلاث وأربعين وأربع مئة عن سنّ عالية"[١٤٩]، واستنادًا إلى هذا ذهب عبد الكريم اليافي يرجح سنة الوفاة بعام (٤٤٣هـ/١٠٥١م)، معتبرا أن أصل العبارة "في حدود ثلاث وأربعين عن سنّ عالية " لوكان قد توفي سنة ٤٠٣هـ لما كانت سنّه عالية إذ ذاك، والغريب أن ياقوت الحموي ذكر في مستهل ترجمته للبيروني: "مات السلطان محمود بن سبكتكين في اثنتين وعشرين وأربع مائة، وأبو الريحان حيّ بغزنة". وتساءل اليافي كيف لم ينتبه ياقوت الحموي لهذه الجملة وحتى محقق الكتاب الدكتور إحسان عباس، حين ذكر بعد حين وفاته عام ٤٠٣هـ، وربما أن الناسخ أو الطابع غفل أوسها عن كلمة أربعين حين رسم بعدها أربع مئة"[١٥٠] أما عز الدين ابن الأثير الجزري، فيقول: "توفي حدود سنة ثلاثين وأربعمائة".[١٥١]

ثم يستعرض حسن الأمين صاحب (أعيان الشيعة) ذلك قائلاً: "في اكتفاء القنوع: ولد بخوارزم ٣٦٢هـ، وفي موضع منه توفي ٤٢٩هـ، وفي موضع آخر نبغ بين ٣٦٣هـ إلى ٤٤٠هـ، وفي موضع ثالث توفي ٤٣٠هـ أو٤٤٠هـ، وفي سفينة البحار توفي حدود ٤٣٠هـ...)) " [١٥٢] والصدفي يقول ((في عشر الثلاثين والأربعمائة (٤٣٠ هـ)) [١٥٣]، وهوما قال به حاجي خليفة (كشف الظنون)، بين عامي (٤٣٠ هـ صاحب ٤٣٥هـ) [١٥٤]

لكن أجمع الكثير من المؤرخين المعاصرين المهتمين بتراث البيروني، على سنة (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) كتاريخ لوفاته، من أمثالهم، إسماعيل باشا البغدادي في كتابه (هدية العارفين) وخير الدين الزركلي في (الأعلام)، وحددت غزنة مكانا لوفاته في يوم الثلاثاء (٣ رجب سنة ٤٤٠هـ) الموافق لـ (١٣ ديسمبر ١٠٤٨م).[١٥٥]

ممّا روي عن البيروني في آخر أيام حياته، ما حدّث به القاضي كثير بن يعقوب البغدادي النحوي عن الفقيه أبي الحسن علي بن عيسى الولوالجي" قال: دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه، قد حشرج نفسه وضاق به صدره، فقال لي في تلك الحال: كيف قلت لي يوما حساب الجذرات (الجدات) الفاسدة؟ فقلت له إشفاقا عليه: أفي هذه الحالة؟ قال لي: يا هذا أودع الدّنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيرا من أن أخليّها وأنا جاهل بها؟ فأعدت ذلك عليه وحفظ وعلمني ما وعد، وخرجت من عنده وأنا في الطريق، فسمعت الصراخ".[١٥٦]

وبذلك صدق قوله:

ومن حام حول المجد غير مجاهد	ثوى طاعما للمكرمات وكاسيا
وبات قرير العين في ظل راحة	ولكنه عن حلة المجد عاريًا

وهو القائل أيضًا:

العلم من أشرف الولايات	يأتيه كل الورى ولا يأتي

وصدق القائل في البيروني: "ذكي يفوح عبق ريحانه، ويكرم أرج عنبره بامتحانه...وناظر الفحول، وناضل النصول، وله حكمة تلمع مشارق أنوارها، وتصدع حصباء الفجر سابق نوارها".

خاتِمَةٌ

مجمل القول؛ أن أبو الريحان البيروني مثل عظمة العالم الموسوعي الناقد رغم تخصصه العلمي إلا أنه لم يترك مجالا وإلا خاض فيه وأبدع، فهو شخصية فكرية متكاملة استطاع أن يطبق المناهج العلمية الدقيقة في العلوم الإنسانية والأدبية وحث على أخذ الأخبار من مصادرها المتنوعة حتى وإن اقتضى ذلك تعلم اللغات والترجمة عنها في الأدب واللغة والعروض وشرح أمهات الدواوين العربية في النثر والشعر رغم أنه أصله خوارزمي، واعتمد اللغة العربية في التأليف لغة العلم والأدب في عصره رغم وجود عديد اللغات الشرقية وإتقانه لها إلا أنه حبذ العربية هاجّا على الفارسية مادحًا.

مما استعرضنا سابقًا نستشف بعض ملامح البيروني العلمية وحبه للبحث العلمي، فقد اشترط في طلب العلم صفاء العقل من كل أسباب الخطأ ولذا يجب التحرر من التقاليد الموروثة والشهوات والمصالح الفردية. ومن خلال كتابه (تحقيق ما للهند) فقد أجمع الباحثون العرب والمستشرقون على علو شأن من بين المفكرين المسلمين في العصر الوسيط وتميزه منهجه عن غيره من متقدميه ومعاصريه في الكثير من الأمور حتى اعتبره البعض منهجا علميا في وصف ودراسة الحضارات الإنسانية. فقد برز كأكبر شخصية علمية إبان النصف الأول من القرن الخامس الهجري إلى حد اعتباره من طرف جورج سارتون هذه الفترة باسم (عصر البيروني). كما اعتبر آخرون كتابه عن الهند وثيقة تاريخية اثنوغرافية بقوله: أن البيروني لم يدرس طبيعة هذه البلاد وأحوال سكانها فحسب، بل درس كذلك لغتها وآدابها في مختلف بيئاتها، ووقف بنفسه على رسومها وتقاليدها. وهو فيما يكتبه عنها يعتمد على ما شاهده بنفسه وسمعه بأذنيه أكثر مما يعتمد على ما قرأه"، وهذا ما أكده البيروني في مقدمة كتابه: (إنما صدق القائل ليس الخبر كالعيان، لأن العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله).(١٥٧)

ولعل أجل ما يجدر أن يذكر ما اتسم به البحث العلمي عند البيروني وأقرانه من علماء الإسلام من فلسفة أصيلة ونظرة عميقة للواقع ونزعة إنسانية شاملة في المبادئ من خلال ما يلي: لا يكون الحق إلا ما أملت التجربة أنه حق (ليس الخبر كالعيان).- لا علم إلا بالعدد فغاية العلم أدراك الحق والحق متحول متغير. – لا علم بلا عمل والعلم جد ومثابرة. – الحكمة ضآلة المؤمن أنى وجدها أخذها. –أن الله تعالى أعطانا العقل وحبانا به لننازل ونبلغ به من المنافع العاجلة والآجلة غاية ما في جوهر مثلنا نيله وبلوغه. – الحق مطلوب لذاته ولا ينبغي للباحث من وراء بحثه جزاءً ولا شكورا (قصة البيروني: العلم للعلم لا للمال) وكذا (قصة الولواجي وما جرى معه ومع البيروني وهو على فراش الموت يسأله علما) كما حكاهما ياقوت الحموي في (معجم الأدباء): "وهذا وإن للزمان جولة وأن للأيام دولة".

وكان البيروني يشير إلى المصادر التي يستقي منها أخباره، باعتماد التراث اليوناني والتراث الهندي والفارسي مع التراث العربي الإسلامي حتى يستطيع مناقشة كل ما يقرأ نقاشًا علميًا، مع تصحيح ما اعتل، كما ينقل ما يصلح وهذا ما يعرف بالمنهج المقارن، ولم يقتصر على مدارسة العلوم والتأليف فيها من فلك ورياضيات بل تناول الآداب والتاريخ والترجمة، واختص في فن التاريخ بتدوين أخبار الأمم الشرقية عامة والأمة الهندية. واستقصى حوادث الهند وأخبارها وأساطيرها ووصف عاداتها وأخلاقها في إفاضة عجيبة وأخذ بالأطراف، لهذا أجمع النقاد على أن مؤلفاته في التاريخ من خير المراجع لاستطلاع أخبار الشعوب وحوادثها وأساليب معيشتها. كما كان شديد الحرص على إيراد المصادر الأصلية من القرآن الكريم والتوراة والأناجيل والكتب المقدسة لدى الهنود كما استعمل مقارنة الأديان لتبيان الخلاف بينها. والحقيقة العلمية أن شهرة البيروني كعالم طغت على شهرته كمؤرخ، ومن ثم خلت الكتب التي تتحدث عن المؤرخين عن ذكره قديمًا وحديثًا.

والجدير ذكره أن منهجه في البحث التاريخي كمنهجه في البحث العلمي، وهو عين المنهج الذي يسير عليه البحث العلمي في العصر الحديث أي الاحتكام إلى العقل بعد الاستقصاء والاستيعاب والتحليل والنقد والمقارنة. وإلى هذا يذهب الدكتور علي الشابي قائلاً: "بأنه يبحث التاريخ والمجتمع بطريقة رياضية بحتة لا تقبل الرفض أو التعديل إلا بقدر ما تسمح به الحقائق العلمية". ولا يمكن مقارنة منهج البيروني بمناهج الطبري والمسعودي ومسكويه وغيرهم لأنهم لم يوفقوا إلى المنهج المتكامل بسبب ثقافتهم المبنية على العلوم النقلية، بينما البيروني وفق في ذلك لمعرفته الشاملة ويقظته العقلية وحسه النقدي الدقيق في معالجة كثير من القضايا التاريخية.

وقد أوضح بعض ملامح منهجه في مقدمته في (الآثار الباقية) قائلاً: "إن أقرب الأسباب المؤدية إلى ما سئلت عنه هو معرفة أخبار الأمم السالفة وأنباء القرون الماضية لأن أكثرها أحوال عنهم ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم ولا سبيل إلى التوسل إلى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنحل، المستعملين لذلك، وتصيير ما هم فيه أساسا يبنى عليه بعده، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم في إثبات ذلك بعضها ببعض بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق، وهو كالعادة المألوفة والتعصب والتضافر وإتباع الهوى والتغالب بالرئاسة وأشباه ذلك".

إذا كان "البيروني أعظم عبقرية عرفها التاريخ"، فإن أثمن وأهم العبر والدروس التي يمكن أن نستخلصها من سيرة حياة هذا الرجل هو أن العبقرية مهما عظمت فإنها، ومن أجل أن تتألق بإشعاع الفكر والمعرفة، تبقى بأمس الحاجة إلى روح

نقدية متأججة وفكر مغامر، وقوة عزيمة وإصرار على تحدي الصعاب في سبيل بلوغ الحقيقة. لقد كان قدوة للباحث الموضوعي الصادق ليس في إنجازاته واكتشافاته الباهرة فحسب، بل وفي إخفاقاته وهفواته أيضًا.

ليس من الصعب على من يتتبع سيرة حياة هذا الرجل ويطلع على مؤلفاته أن يدرك أنه أمام شخصية فريدة من نوعها، جمعت بين العبقرية والشجاعة والصبر والمثابرة على العمل وتحمل الصعاب، وبين البساطة والتواضع والحب اللامتناهي للبحث العلمي، والاستعداد لبذل الغالي من أجل الحقيقة.

الاحالات المرجعية:

(١) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت.٤٤٠هـ/١٠٤٨م): **كتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، تح. إدوارد ساخاو (النص العربي)، إعادة ط. ١٨٨٧م، (م.ت.ع.ع.ا) - فرانكفورت (ألمانيا):(١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، ص٢.
AL- BIRUNI **ALBERUNI'S INDIA**, trans. Edward SACHAU, (Inst .H.A.I) – Frankfurt: 1993, p. IV.
البيروني: **كتاب الصيدنه في الطب**، نص ومقدمة وتحشية: عباس زرياب، مركز نشر دانشكاهى-تهران: ١٣٧٠هـ، ص١. البيروني: **كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم**، تر. وتح: رمزي رايت، إع ط. لندن ١٩٣٣م، مكتبة المثنى –بغداد. البيروني: **كتاب الجماهر في معرفة الجواهر**، ط١، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية- حيدر آباد الدكن (الهند): ١٣٥٥هـ، ص١.
AL- BIRUNI: The Book of Instruction in the elements of the art of Astrology, trans. R. Ramsay Wright – London: 1933, p. III.
البيروني: **فهرست كتابهاى رازي ونامهاى بيرونى از ابوريحان محمد بن أحمد بيروني**، تصحيح وتر. وتع: مهدى محقق، انتشارات دانشكاه – تهران: (١٤٠٦)، ص١.
البيروني: **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، تحشية؛ خليل عمران المنصور، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت: ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص١.
انظر أيضًا: (جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت. ٩١١هـ/ ١٥٠٥م): **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – صيدا (بيروت): (د.ت)، ص٥٠. وأبو عبد الله ياقوت بن عبد الله البغدادي الحموي الرومي (ت. ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): **إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء)**، تح. إحسان عباس، ج٥، ط١، دار الغرب الإسلامي – بيروت: (١٩٩٣)، ص٢٣٣٠. وشمس الدين محمد بن أحمد عثمان الذهبي (ت. ٧٤٨هـ): **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مج (حوادث ووفيات ٤٢١-٤٤٠هـ)**، تح. عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي – بيروت: (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)، ص ٣١٣. وصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: **كتاب الوافي بالوفيات**، ج٢، تح. س. ديدرينغ، ج٨، ط٢، تح. محمد يوسف نجم، دار النشر فرانز شتايز بفيسبادن: (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ص٦٤، ص٣٥٦٢. ومصطفى بن عبد الله (كاتب جيلبي) الشهير بحاجي خليفة: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، تق. شهاب الدين النجفي المرعشي، ج١، إعادة ط. بالأوفست، مكتبة المثنى – بغداد: (د.ت)، ص٧٠. وإسماعيل باشا البغدادي: **هدية العارفين**، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية بأستانبول (١٩٥٥م) مج٢، دار العلم الحديثة – بيروت: ١٩٠٥، ص٥. وخير الدين الزركلي: **الأعلام**، ج٥، ط١٢، دار العلم للملايين – بيروت: (١٩٩٧م)، ص٣١٤.
أما نسبة بيرون، فقد اختلف في هذه النسبة، إلا أن ياقوت الحموي يرجح على أنها تقع في إقليم خوارزم ومعناها: فقد ذكرها السمعاني في كتابه (الأنساب): **"البيرونيّ، بكسر الباء الموحدة وسكون الياء آخر الحروف، وضم الراء بعدها الواو، وفي آخرها النون، هذه النسبة إلى خارج خوارزم فإن بها من يكون من خارج البلد، ولا يكون من نفسها، يقال له: فلان بيروني**

هست، ويقال بلغتهم أنبيذك هست، والمشهور بهذه النسبة **أبو ريحان المنجم البيروني**". (انظر: أبي سعد بن عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت. ٥٦٢هـ): **الأنساب**، ج١، تق. وتع: عبد الله عمر البارودي، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت: (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)، ص ٣١١.)

(٢) نسبة إلى خوارزم: أوله بين الضمة والفتحة، والألف مسترقة مختلسة ليست بألف صحيحة هكذا يتلفظون به، على ما يذكر ياقوت الحموي في كتاب (**معجم البلدان**)، ويقول إنه قرأ في كتاب ألفه أبو الريحان البيروني في أخبار خوارزم (لعله **المسامرة في أخبار خوارزم**)، أنها كانت تدعى قديمًا بـ " فيل". انظر: (ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج٢، ط٢، دار صادر – بيروت: (١٩٩٥م)، ص ٣٩٥-٣٩٧).

(٣) بيروني: **كتاب الصيدنه**، المصدر السابق، ص١.

Nafis Ahmad: «**Some glimpses of AL- BIRUNI as a geographer**», IN (AL- Biruni Commemorative Volume, International Congress (ALB.C.V.I.C) – Pakistan, Millenary of AL- Biruni, 1973), (U.N.E.S.O) – Karachi: 1979, p.141

ويقول رمزي ريت. (R. WRIGHT) أن كنيته أبو الريحان غير واضحة بدورها مثلما نجده في نسبه المجهول أيضًا. وإلى هذا ذهب المستشرق إدوارد ساخاو (E. SACHAU) في تحقيق كتاب البيروني: تحقيق ما للهند.

انظر:

AL- BIRUNI: **ALBERUNI'S INDIA**, p.IV.

AL- BIRUNI: **The Book of Instruction...**, Op.cit, p. III.

(٤) جلال شوقي: "**أبو الريحان البيروني (دراسة حول نسبته وشخصيته)**"، (المؤرخ العربي): س ١٩٧٨، ع٩، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب (ا.ع.ا.م.ع) – بغداد، ص ١٨٢.

(٥) **كاث**: كانت عاصمة خوارزم منذ عهد الدولة الأفريجية حتى عام ٩٩٥م، وقد بنيت هذه المدينة عام ٣٠٥م، في تلك السنة التي شيّد ملك خوارزم قلعته في فر (فيل)، وبقيت هذه القلعة حتى وقت البيروني. وفي عام ٩٩٥م، انتصر أمير جرجانش (جرجانية) أبو علي المأمون على كاتخ (كاث) وقتل آخر ملوك خوارزم من الحكم الإفريجي أبا عبد الله محمد، وأعلن جرجانش (جرجانية) عاصمة، وأصبح هو ملك خوارزم. وقد ارتبط التاريخ اللاحق لخوارزم بهذه العاصمة الجديدة. انظر: (عبدو حليموف وآخرون: **أكاديمية المأمون في خوارزم**، تر. (مكتبة البابطين للشعر العربي بالكويت)، بالتعاون مع (سفارة جمهورية أوزبكستان بدولة الكويت)، ط١، مكتبة البابطين للشعر العربي(م.ب.ش.ع) – الصفاة (الكويت): ٢٠٠٦، ص ١٣.

www.Albab tainlibrary.org.okwgأ www.pdffactory.com

(٦) كاتخ (كاث) تقع في الشمال الشرقي من مدينة (خيوة) على الشاطئ الأيمن من نهر جيحون (أموداريا) وفي خوارزم مدينة ثانية مهمة هي جرجانش (جرجانية)، وتقع على الشاطئ المقابل شمال خيوة أيضًا، وتدعى أيضًا أورغانش حاليًا (أوزبكستان)، وعلى أنقاض كاث اليوم بلد صغير دعي بالبيروني نسبة إلى ذلك العالم؛ حسب عبد الكريم اليافي.

وإقليم خوارزم يقع جنوب بحيرة خوارزم (بحر أرال)، يشقه نهر جيحون نصفين: ما دون النهر وقصبته كركانج وسماها العرب الجرجانية، وهي اليوم أوركنج كما أسلفنا، وما وراء النهر وقصبته كاث، وهي قصبة الإقليم. انظر. (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي الأصطخري (ت. ٣٤١هـ/ ٩٥٧م): **مسالك الممالك**، باعتناء دي غويه، ط٢، مطبعة بريل – ليدن: ١٩٢٧م، ص ٢٩٩. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج٢، دار صادر – بيروت: ١٩٧٩م، ص ٣٩٥. كي لسترنج: **بلدان الخلافة الشرقية**، تر. بشير فرنسيس وكوركيس عواد، ط٢، مؤسسة الرسالة – بيروت: ١٩٨٥، ص ٤٨٩.

A.A. **Hudud al – Alam**, Trans. and Exp. by. Minorsky, Sd edition, Luzac and Company – London: 1970, p .121.

عبد الكريم، اليافي: **حوار البيروني وابن سينا**، ط١، دار الفكر (دمشق) ودار الفكر المعاصر (بيروت): ٢٠٠٢، ص ٩٥.).

(٧) **الأزبكية**: فرع من شجرة اللغات التركية، واللغات التركية كلها ترجع في أصولها إلى شجرة اللغات الألطية؛ وسميت بالألطية على جبال الطاي في روسيا، وتنقسم إلى ثلاثة أو خمسة فروع: اللغات التركية (أهمها التركية نفسها)، واللغات المنغولية (أهمها لغة الخالخا وهي اللغة الرسمية المنغولية)، واللغات التونغوسية (وأهمها لغة المانشو الذين حكموا الصين قبل القرن ٢٠م، يختلف العلماء على لغتين: اليابانية والكورية؛ فيقول الكثير أن أصل هاتين اللغتين ليس معروف بعد، لكن أكثر من دخل في القضية يعتبرهما فرعين من الألطية. **الموسوعة العربية العالمية**.

(٨) **الطاجيك** (طاجك): مجموعة عرقية تعد من المجموعات العرقية الرئيسية في وسط آسيا، وتتواجد بشكل رئيسي في دول: أفغانستان – طاجيكستان – باكستان – أوزبكستان – إيران والصين، وينحدر الطاجيك من الشعب الأرياني؛ وهو شعب قديم يتحدث اللغة الهندو –أوروبية، والشعب الإيراني الذي استقر في الصين والهند إبان الفتح الإسلامي، والمعروف عنهم (الطاجك) أنهم شعب علماء، منهم: (ابن سينا – البخاري – مسلم – الترمذي...إلخ). وهذا ما تقره لهم الشعوب المجاورة، وباقي المسلمين، فهم أهل مدن وحضر، وغالبيتهم سكان مدن آسيا الوسطى: بخارى (أوزبكستان) سمرقند، ترمذ (تركمنستان)، ومزار شريف (أفغانستان)، وهم الشعب الوحيد في الجمهوريات السوفياتية الآسيوية سابقا الذي يتحدث الفارسية، وليس إحدى اللغات التركية. **الموسوعة العربية العالمية**.

(٩) اليافي: المرجع السابق، ص ٩٦.

(١٠) بيرون (BIRUN): اسم لمدينتين: الأولى في بلاد الخوارزم، والثانية في بلاد الهند (السند)، حسب الموسوعة المشرقية لبارتولومي ديربلو (ت. ١٦٩٥م)، إعادة طبعة دنهاج – هولندا: ١٩٧٧

BARTHOLOME D'HERBELOT: «BIRUN», **D'HERBELOT BIBLIOTHEQUE ORIENTAL OU DICTIONNAIRE UNIVERSEL**, I2. (Inst.H.S.A.I)- Frankfurt: 1995, p.407.

انظر أيضًا: علي أحمد الشحات: **أبو الريحان البيروني: حياته، مؤلفاته، أبحاثه العلمية**، دار المعارف بمصر – القاهرة: ١٩٦٨، ص ٦٧. واليافي: المرجع السابق، ص٩١.

(١١) الزركلي: **الأعلام**، ص ٣١٤، ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ص ٢٣٣١. عمر رضا كحالة: **معجم المؤلفين**، مج٧ (ج٧-٨)، دار إحياء التراث العربي – بيروت: (د.ت)، ص ٢٤١. واميل بديع يعقوب: **المعجم المفصل في اللغويين العرب**، ج٢، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت: ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م، ص ٦٥.

(12) E.Wiedemann.

(١٣) فيدمان: "البيروني الخوارزمي"، (**دائرة المعارف الإسلامية**)، أ.جي.بريل، ج٧، تحرير: م.ت. هوتسما وآخرون، إعداد: نخبة من العلماء، تر. (نخبة من أساتذة الجامعات المصرية والعربية)، ط١، مركز الشارقة للإبداع الفكري – الإمارات: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص ٢٠٤١.

(١٤) حسن الأمين: **أعيان الشيعة**، تح. وإخراج: حسن الأمين، مج ٩، دار التعارف للمطبوعات – بيروت: (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ص ص ٦٥-٦٦.

(١٥) بيروني: **كتاب الصيدنه في الطب**، ص ١. وأيضًا:

Nafis Ahmad: Op.cit, p. 141

(١٦) أما كنيته: غير واضحة، كما نجد ذلك –كما ذكرنا سالفًا- نسبه المجهول تمامًا، أما اسمه محمد بن أحمد فلا يفاد منه شيء، بل جرت العادة على استعمال هذه الأسماء عندما تكون الأسماء الحقيقية غير المعروفة. انظر: رمزي ريت-R.WRIGHT- في تقديم كتاب البيروني في التفهيم:

(The Book of Instruction...), Op.cit, p.III.

وكراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي** ..، المرجع السابق، ص٢٦٥. وإلى هذا يذهب أيضا المستشرق الألماني إدوارد ساخاو في مقدمة (**تحقيق من للهند**) للبيروني.

(17) AL – BIRUNI: **ALBERUNI'S INDIA**, Op.cit, p.VIII

(١٨) عبد الحميد حميدة: **أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم**، ط٢، دار الفكر المعاصر (بيروت) ودار الفكر (دمشق): (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، ص ٣٤٠. وأيضًا:

ALBIRUNI. **Encyclopaedia Universals**, S.A – Paris: 1996, p.224

B. LEWIS: «AL – BIRUNI», **Encyclopédie de l'Islam**, T. (I), E.J. BRILL – Paris: p.1274.

(١٩) جلال شوقي: المرجع السابق، ص ١٨٠.

(٢٠) اليافي: المرجع السابق، ص٩١-٩٧.

(٢١) انظر: ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ج٥، ص ٢٣٣٥. واليافي: المرجع السابق، ص٩٨. وكراتشكوفسكي: المرجع السابق، ص٢٦٥. وشوقي: المرجع السابق، ص١٨١-١٨٢.

(٢٢) خوارزمشاه: لقب ملوك كاث، والخوارزمشاهات (شاهات خوارزم)، وهي سلالة تركية حكمت في خوارزم (ما وراء النهر)، ثم تركستان، أفغنستان، إيران وأجزاء من العراق قبل وبعد عام (١٠٧٧-١٢٢٠م)، وتعتبر الأسرة الأفريجية الحاكمة قبل تاريخ ١٠٧٧م، وعاصمتهم كاث القديمة (خيوه). **الموسوعة العربية العالمية**.

(٢٣) ومنهم أبو نصر منصور بن عراق الجعدي (ت. ١٠٣٦م)؛ أستاذ البيروني.

(٢٤) السمعاني: **الأنساب**، ص٣١١. وياقوت: **معجم الأدباء**، ج٥، ص ٢٣٣١. واالشحات: المرجع السابق، ص ٦٧.

(٢٥) سليمان فياض: **البيروني: عالم الجغرافيا الفلكية**، ط١، منشورات (ANEP)- الجزائر: ٢٠٠٦، ص٦.

(٢٦) **خوارزم** (هو الاسم القديم بمدينة خيوه التي كانت تابعة لإقليم خراسان الإسلامي، وتقع اليوم في غرب جمهورية أوزبكستان، واشتهرت اليوم باسمي كيفا (خيفا) وأورغنج وهما في دولة أوزبكستان. وقد ورد اسم خوارزم في كتاب البيروني عن الهند.) انظر: (البيروني): **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، تح. علي صفا، ط٢، عالم الكتب- بيروت: ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٦-٧).

(٢٧) صفي الدين عبد المؤمن ابن عبد الحق البغدادي (ت. ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م): **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، ج١، طبعة ليدن: ١٨٥٢م، ص ٤٨٧.

(٢٨) أبو القاسم ابن حوقل النصيبي (ت. ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م): **صورة الأرض**، ج٢، مطبعة ليدن: ١٩٣٩م، ص٤٧٧.

(٢٩) إبراهيم بن محمد الإصطخري: **مسالك الممالك**، طبعة بريل – لندن: ١٩٢٧، ص ٢٩٩. وابن حوقل: **صورة الأرض**، ج٢، ص ٤٧٧. وأبو الفدا: **تقويم البلدان**، ط باريس: ١٨٤٠، ص٤٧٧.

(٣٠) صدر الدين أبو الحسن علي بن ناصر الحسيني: **أخبار الدولة السلجوقية**، ط. لاهور: ١٩٣٣م، ص١٧.

(٣١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ٤٠٠.

(٣٢) الشحات: المرجع السابق، ص٦٧-٦٨.

(٣٣) محمود يوسف زايد: "**بعض جوانب من ثقافة البيروني**".

(ALB.C.V) Int. Congress – (Millenary of AL- BERUNI) - PAKISTAN, 1973), The Times Press Karachi: 1979, p.793.

(٣٤) فياض: المرجع السابق، ص١٩-٢٠.

(٣٥) هو منصور الثاني بن نوح بن منصور.

(٣٦) اليافي: المرجع السابق، ص ١٠٠.

(٣٧) فياض: المرجع السابق، ص٢٠-٢١.

(٣٨) نفسه، ص٢١.

(٣٩) اليافي: المرجع السابق، ص١٢٣. انظر أيضًا: أرثور سعدييف: **دراسات في الفكر العربي الإسلامي- ابن سينا**، تر. توفيق سلوم، دار الفارابي – بيروت: ١٩٨٧م، ص ٢٩. وفياض: المرجع السابق، ص٢٢-٢٣.

(٤٠) شرح الكيفية التي تصعد بها مياه الفوّارات (العيون) إلى أعلى وإلى قلاع ورؤوس المنارات، والكيفية التي تتجمع بها مياه الآبار بالرشح من الجوانب، وبصورة موازية لمصادر المياه القريبة، وكيفية حدوث الينابيع الطبيعية، والآبار الصناعية (الإرتوازية)، باستخدام قوانين السوائل، وعرض عليهم تطبيقات يمكن أن تستثمر بها الظواهر التي تتعلق بضغط السوائل وتوازنها، وما زاد من دهشة العلماء، هو تحديد الوزن النوعي لاثني عشرة مادة من المعادن، وكانت هذه المحاولة من البيروني هي الأساس لوزن العناصر في

جدول "منديليف" في العصر الحديث. انظر (فياض: المرجع السابق، ص٢٥. ومونتغمري واط: **أثر الحضارة العربية والإسلامية على أوروبا**، تر. جابر أبي جابر، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي – دمشق: ١٩٨١م، ص٩٣).

(٤١) فياض: المرجع السابق، ص٢٥-٢٦.

(٤٢) شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري (ت.٧٤٩هـ): **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، السفر التاسع، المجمع الثقافي – أبو ظبي (الإمارات): ٢٠٠٣م، ص٤٧٥.

(٤٣) الأصطخري: **مسالك الممالك**، ص ٢١٢. ياقوت: **معجم البلدان**، ج٢، ص ١١٩.

(٤٤) أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان (٦٠٨-٦٨١هـ): **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تح. إحسان عباس، مج٤، دار صادر – بيروت: ١٩٩٤م، ص٧٩.

(٤٥) فياض: المرجع السابق، ص٢٦.

(٤٦) كان ذلك عام (٣٨٤هـ/٩٩٩م)، وخلفه ابن عبد الملك ثم أخوه إسماعيل الذي انتهى به الحكم الساماني عام (٣٨٩هـ/ ١٠٠٤م). انظر (أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (الملقب عز الدين) (٥٥٥-٦٣٠هـ): **الكامل في التاريخ**، ج٧، تح. الشيخ خليل مأمون شيخا، ط١، دار المعرفة – بيروت: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص٢٣٦).

(٤٧) **خراسان**: إقليم في حقبة ما قبل الإسلام ضمن الدولة الساسانية وهو أصغر من إقليم خراسان الكبرى خلال الحقبة الإسلامية. خراسان إقليم من أقاليم الجمهورية الإيرانية الإسلامية يقع في أقصى الشمال الشرقي منها وعاصمته مدينة مشهد، وإقليم خراسان في الوقت الحاضر يضم منطقة أصغر بكثير من تلك التي كان يضمها الإقليم المعروف باسم خراسان في العصور الإسلامية، والذي كان يحده كما يذكر الجغرافيون العرب سجستان والهند شرقًا، وجرجان وصحراء الغز غربًا وبلاد ما وراء النهر شمالاً وصحراء فارس والعراق العجمي (منطقة الجبال) من الجنوب الغربي، وكان من أهم مدنه، مرو ومرو الروذ وطوس وأبيورد وسرخس وباذغيس وهرات وبلخ ونيسابور التي كانت تدعى في العهود الإسلامية الأولى أبرشهر. انظر: ياقوت: **معجم البلدان**، ج٢، ص٣٥٠.

(٤٨) الأمير سبكتكين: توفي في الطريق بين بلخ وغزنة. انظر (أبو سعيد عبد الحي بن الضحاك بن محمود الكرديزي). (ت. بعد ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م): **زين الأخبار**، ترجمة عفاف السيد زيدان، ط١، دار الطباعة المحمدية – القاهرة: ١٩٨٢م، ص ٢٧٥.

(٤٩) **غزنة**: وتسمى غزنين أيضًا، وهي من مدن سجستان. انظر: (**Hudud AL- Alam**, Op.cit, p.111)

(٥٠) **محمود الغزنوي**: هو يمني الدولة أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة أبي منصور الأمير سبكتكين، الملك الهمام للحنفي ثم الشافعي، ولد سنة ٣٦١هـ، وتوفي في صفر سنة ٤٢١هـ صنف تقرير في الفروع. (انظر: إسماعيل باشا البغدادي: **هدية العارفين**، ج٢، ص٤٠).

(٥١) فياض: المرجع السابق، ص٢٧.

(٥٢) **جرجان**: هو الإقليم الواقع جنوب شرق بحر قزوين، انظر: (الأصطخري: **مسالك الممالك**، ص ٢١٢. ياقوت: **معجم البلدان**، ج٢، ص ١١٩.

(٥٣) وقد ألف له اثني عشر(١٢) رسالة في الطبيعة وفي الرياضيات، انظر: (كارل بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، القسم (٥)، تر. محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتابة القاهرة: ١٩٩٥م، ص ١٩٥).

(٥٤) فياض: المرجع السابق، ص ٢٨. كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ص٢٤٥-٢٦٦.

(٥٥) **همذان**: مدينة في وسط إقليم الجبال، (ياقوت: **معجم البلدان**، ج٥، ص٤١٠) ولتسرنج: **بلدان الخلافة الشرقية**، ص ٢٢٩.

(٥٦) **أبو طاهر بن فخر الدولة البويهي**: حاكم همذان وكرمانشاه، حكم بين (٩٩٧-١٠٠٨م) انظر (اليافي: المرجع السابق، ص ١٢٨م).

(٥٧) فياض: المرجع السابق، ص٢٩.

(٥٨) ابن الأثير: **الكامل..**، ج٧، ص٢٣٢. وفياض: المرجع السابق، ص٢٩-٣٠.

(٥٩) زين الدين عمر بن الوردي: **تتمة المختصر في أخبار البشر، (تاريخ ابن الوردي)**، ج١، تح. أحمد رفعت البدراوي، ط١، دار المعرفة – بيروت: ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م، ص ٤٩٢.

(٦٠) **مجمع العلوم**: يُسمى أيضًا بديوان خوارزمشاه، وسمي لاحقًا بأكاديمية المأمون. (حليموف: المرجع السابق، ص ٣٣).

(٦١) أبي العباس مأمون بن مأمون: ملك خوارزم، وعاصمته الجرجانية، حكم بين (٤٠٧هـ/ ١٠٠٤-١٠١٧م) انظر: (أبي النصر محمد بن عبد الجبار العتبي: **اليميني في شرح أخبار السلطان يمين الدولة وأمين الملة محمود الغزنوي**، شرح وتحقيق: إحسان ذنون الثامري، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت: ١٤٢٢هـ/٢٠٠٤م، ص٣٩٩).

(٦٢) فياض: المرجع السابق، ص٣٠-٣١.

(63) Faut SEZGIN: **Geschichte des Arabischen Schrifttums**, (Inst.G A.I.W) –Frankfurt: 2000, p.34. والبيروني: التفهيم، ص١-٢.

(64) J.T.REINAUD: **Mémoire Géographique, Historique et Scientifique sur l'Inde**, Vol. 124, (Inst. S.A.I) – Frankfurt: 1993, p.326.

(٦٥) فؤاد سزكين: **مساهمة الجغرافيين العرب والمسلمين في صنع خريطة العالم**، مج٢، (سلسلة الخرائط (د)، (م. ت. ع.ع.ا)- فرانكفورت (ألمانيا): ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ص٢٤-٢٩، وإسماعيل العربي: **دور المسلمين في تقدم الجغرافيا الوصفية والفلكية**، ديوان المطبوعات الجامعية- بن عكنون (الجزائر): ١٩٩٤، ص ٢٠-٣٠.

Louis MASSIGNON: **«AL- BERUNI et la Valeur internationale de la science arabe»**, Vol. 19 (The part of science in Islam): TEXT and STUDIES, Collected by .F. SEZGIN, (Inst. H.A.I.S)- Frankfurt: 1426/2005, p.217.

(٦٦) ومن بينهم: أبو نصر بن عراق، وأبو سهل المسيحي وأبو الخير الخمّار وأبو علي بن سينا...إلخ. (انظر: حليموف: المرجع السابق، ص٢٧. وفياض: المرجع السابق، ص٣٤).

(٦٧) فياض: المرجع السابق، ص١٨.

(٦٨) **العتبي:** أبي النصر محمد بن عبد الجبار، قدم إلى خرسان على خاله أبي نصر العتبي، من أصل عربي، شغل اثنان من أسرة العتبي منصب الوزارة للسامانيين وهما: أبو جعفر وأبو الحسين، اشتغل بالكتابة للأمير أبي علي المظفر بن محمد بن إبراهيم بن سيمجور (ت. ٣٨٦هـ)، ثم للأمير أبي منصور سبكتكين (ت. ٣٨٧هـ) والد السلطان محمود، ثم لهذا الأخير، كما تولى لفترة قصيرة منصب النيابة بخراسان للأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير. أما تحديد وفاته ففيه خلاف كبير (بين عامي ٤١٣هـ و٤٢٧هـ). انظر: (أبو منصور عبد الملك الثعالبي (ت. ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م): **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، ج٤، تح، مفيد محمد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية-بيروت: ١٩٨٣م، ص ٤٥٨. والسمعاني: **الأنساب**، ج٤، ص ١٤٩. والصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٣، ص ٢١٥. وابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص ٢٨١).

(٦٩) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج١٣، تح، محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت: ١٩٩٧، ص ٣١٢. وفياض: المرجع السابق، ص ٣٤. والعتبي: **اليميني في شرح أخبار السلطان يمين الدولة وأمين الملة محمود الغزنوي**، تح. إحسان ذنون الثامري، ط١، دار الطليعة – بيروت: ٢٠٠٤، ص ٣٩٥.

(٧٠) العتبي: **اليميني**..، ص٣٩٥-٣٩٦.

(٧١) أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر الملقب بالقادر بالله، ولد عام ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م، بويع بالخلافة بعد خلع الطائع سنة (٣٨١هـ/ ٩٩١م)، توفي عام (٤٢٢هـ/ ١٠٣١م). انظر:(السيوطي: **تاريخ الخلفاء**، مراجعة وتعليق:جمال محمود مصطفى، ط٢،دار الفجر للتراث –القاهرة:١٤٢٥ه/٢٠٠٤م، ص٣٢٣-٣٢٦).

(٧٢) فياض: المرجع السابق، ص٣٤-٣٥.

(73) Mohammed Said HAKIM, Ansar Zahid KHAN: **AL-BIRUNI** (His times, life and works), Hamdard Foundation(H.F)- Karachi (Pakistan): 1981, p. 15.

وفياض: المرجع السابق، ص٣٥.

(٧٤) العتبي: **اليميني**..، ص٣٩٦.

(٧٥) فياض: المرجع السابق، ص٣٦-٣٧.

KHAN and HAKIM: **AL- BIRUNI:** Op.cit, pp.15-16.

(٧٦) إثر غزوة محمود لناردين (الهند) عام ٤٠٤هـ، ولقبه الخليفة العباسي بـ (نظام الدين). انظر (ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٨، مر. وتص: محمد يوسف الدقاق، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت: (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص٨٠.

(٧٧) الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز نزار، قتل عام (٤١١هـ/ ١٠٢١م)، تولى الخلافة من ٩٩٦-١٠٢١م.

انظر: (السيوطي: **تاريخ الخلفاء**، ص ٤٠٧).

(٧٨) الظاهر (ت. ٤٢٨هـ) وهو سابع الخلفاء الفاطميين، حكم بين (١٠٢١-١٠٣٦م). انظر: (السيوطي: **تاريخ الخلفاء**، ص ٤٠٧.

(٧٩) العتبي: **اليميني**، ص٣٩٠-٣٩٥.

(٨٠) جمال الدين أبو الفرج بن عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي (ت. ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م): **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٧، تح. محمد ومصطفى عبد القادر عطاء، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت: ١٩٩٢، ص ٢٨٧.

(٨١) العتبي: **اليميني**، ص ١٧٨. والذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٣، ص ١٠٧.

(٨٢) العتبي: المصدر السابق، ص ١٧٨، وعصام الدين عبد الرؤوف الفقي: **الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي**، دار الفكر العربي- القاهرة: ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص١٠٨-١٠٩.

(٨٣) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي (ت. ٨٠٨هـ): **تاريخ ابن خلدون، المعروف بـ (كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج٤، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت: ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ص ٣٧١ ابن الأثير: **الكامل**، ج٨، ص٩٤-٩٥.

(*) يعني الجنود وقادة الجيش الخوارزمي.

(٨٤) العتبي: **اليميني**، ص٣٩٦-٣٩٩.

(٨٥) العتبي: **اليميني**، ص٣٩٨-٣٩٩.

(٨٦) حكى لنا ياقوت الحموي أخبارا عن ذلك قائلاً: "وحدثني بعض أهل الفضل أن السبب في مصيره إلى غزنه –يعني البيروني- أن السلطان محمودا لما استولى على خوارزم قبض عليه وعلى أستاذه عبد الصمد أول بن عبد الصمد الحكيم واتهمه بالقرمطة والكفر". انظر: ياقوت: معجم الأدباء، ج٥، ص٢٣٣٣-٢٣٣٤. وكذلك حسن الأمين: أعيان الشيعة، مج٩، ص ٦٦. والصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢، ص ١٤٠. وفياض: المرجع السابق، ص ٣٧-٣٨).

(٨٧) أبي القاسم أحمد بن الحسن هو وزير السلطان محمود الغزنوي، وكان يلي ديوان الرسائل بخراسان، يقوله عنه العتبي: كريم النسب، عظيم الحسب، عريق المجد والحرية، وثيق الرأي والروية، تنادي عليه أقطار الأرض بفصاحة القلم، وسجاحة الشيم، ونفاسة الهمم، واحتقار الدنيا والدرهم، كان وفاءه للسلطان محمود أن أنعم عليه بتصريف الأحوال فولاه عرض عساكره في أقطار مملكته – وهي وظيفة العارض، ومهمته عرض العسكر على الأمير متى طلب منه ومعرفة الجند وحفظ أرزاقهم وتوصيلهم إليهم- وزاده أعمال بست والرّ خّج وما ولا هما بأموالها وارتفاعاتها. استخلف في عدة مهامات خلال غزواته مثل ناردين، ومنها مساعدة صاحب الديوان في غيابه في مشورته، استدعاه السلطان من خراسان فأسدى له خلعة الوزارة وفوّض إلى مهمات الإمارة وأمره بمحاسبات العمال، وفي عصره أصبحت الكتابات بالعربية بعدما كانت بالفارسية أيام الوزير أبي العباس الفضل بن أحمد). انظر: (العتبي: اليمينى، ص٣٥٩-٣٦٢. والسمعاني: الأنساب، ج٤،

ص ١٠٩ وإحسان ذنون عبد اللطيف الثامري: التاريخ الحضاري لمدينة بخارى منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري/ القرن العاشر الميلادي. (رسالة ماجستير)، جامعة اليرموك الأردن: ١٩٩٧، ص١١٤. (غير منشورة).

(٨٨) فياض: المرجع السابق، ص ٣٨.

(٨٩) أي السلطان محمود الغزنوي.

(٩٠) يعني أستاذ البيروني: عبد الصمد أول بن عبد الصمد الحكيم.

(٩١) ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ج٥، ص ٢٣٣٤. والصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٢، ص ١٤٠. اليافي: المرجع السابق، ص ١٠٢. وبروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، ص ١٩٦.

(٩٢) توفي بين بلخ وغزنة عام ٣٨٧هـ. انظر: (أبو سعيد عبد الحي بن الضحاك بن محمود الكرديزي). (ت.٤٤٢ أو ٤٤٣هـ/١٠٥٠أو١٠٥١م): **زين الأخبار**، تر.عفاف السيد زيدان، ط١، دار الطباعة المحمدية – القاهرة:١٩٨٢م، ص٢٧٥).

(٩٣) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج٥، ص ١٧٥.

(٩٤) خراسان: بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق أزادوار قصبة جوين وبيهق، وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان. انظر (ياقوت: **معجم البلدان**، ج٢، ص ٣٥٠).

(٩٥) بلخ: من مدن خراسان، وهي في الإقليم الخامس، انظر: (ياقوت: **معجم البلدان**، ج١، ص ٤٧٩)

(٩٦) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج٥، ص١٧٦-١٧٧.

(٩٧) هراة: من أمهات مدن خراسان. (ياقوت: **معجم البلدان**، ج٥، ص ٣٩٦).

(٩٨) بست: مدينة بين سجستان وغزنة وهراة؛ من أعمال كابل. انظر: (ياقوت: **معجم البلدان**، ج١، ص ٤١٤).

(٩٩) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج٥، ص ١٧٧.

(١٠٠) فياض: المرجع السابق، ص ٤٠.

(١٠١) نفسه، ص٣٩-٤٠.

(١٠٢) ذكرها البيروني (ماهورة)، وعدها من أماكن الحج في الهند، وتقع إلى الشمال الغربي من مدينة أكرا، أما الكرديزي فيوردها (ما تورة)، وهي مدينة عظيمة بها معبد الهنادكة ويعتقدون أن بها كان مولد نبيهم كشن بن باسديو. انظر:(البيروني: **تحقيق ما للهند**، ط، بيروت، ص١٤١. والكرديزي: **زين الأخبار**، ص٢٩٥).

(١٠٣) قنّوج: على نهر الكانج، شمال شرق مدينة كاونبور، وهي موضع من بلاد الهند، يقول عنها ياقوت إنها أجمّة. انظر (ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج٥، ص٤٠٩ وعباس إقبال: **تاريخ إيران القديم**، تر: محمد نور الدين عبد المنعم والسباعي محمد السباعي، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة: ١٩٧٧، ص ١٧٨).

(١٠٤) العتبي: **اليميني**، ص٤٠٠-٤٠١.

(١٠٥) يذكر ابن خلكان أنه كاتب الخليفة العباسي يذكر فيه ما فتحه الله تعالى على يديه من بلاد الهند، وأنه كسر الصنم المعروف بسومنات، وذكر في كتابه أن هذا الصنم عند الهنود يحي ويميت ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ويشفي جميع العلل، ويزعمون أن الأرواح إذا فارقت الأجسام اجتمعت لديه على مذهب أهل التناسخ، فينشئها فيمن يشاء. وأن المد والجزر عبادة له على قدر طاقته، لذلك يحجون إليه من كل البقاع، انظر: (ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج٥، ص ١٧٨).

(١٠٦) ابن الوردي: **تتمة المختصر**، ج١، ص ٥٠٨. وابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص ١٤٨.

(١٠٧) بهاطية: معرب بهت وبهتيان، وهي قبائل كانت تعيش في السند العليا. انظر (الكرديزي: **زين الأخبار**، ص ٢٦٨. كما ذكرها البيروني باسم (بهاتي) انظر: (البيروني: تحقيق ما للهند، ص ١٤٥. والعتبي: **اليميني**، ص ٢٧٨).

(١٠٨) الملتان: كان واليها أبو الفتوح داود بن نصر، وهي قريبة من بهاطية. انظر (العتبي: **اليميني**، ص ٢٨٢، وابن الوردي: **تتمة المختصر**، ص١٨١).

(١٠٩) قشمير أصلها: كشمير (البيروني: **تحقيق ما للهند**، ص١٤٦).

(١١٠) نهر الأندوس (السند): ينبع من جبال الهملايا ويصب في خليج العرب بعد أن يتصل بأنهار البنجاب أو الأنهار الخمسة، ومن نهر الأندوس (السند) اشتُق اسم الهند وظهرت كلمة اند وهند ومعناها الأرض التي تقع فيما واء الأندوس وسمي سكان هذه البلاد: الهنود أو الهندوس. **الموسوعة العربية العالمية**.

(١١١) فياض: المرجع السابق، ص٤٠.

(١١٢) **البنجاب**: إقليم في شمال الهند، قسم سنة ١٩٤٧م بين باكستان والهند، غزا القسم الغربي منه الإسكندر المقدوني سنة (٣٢٦ق.م) بعدما كان تابعا لمملكة الفرس، وما زال حاليًا محل صراع بين المسلمين والهندوس (الهند والباكستان). **الموسوعة العربية العالمية**.

(١١٣) **قشمير**: مدينة متوسطة لبلاد الهند. (ياقوت: **معجم البلدان**، ج٤، ص ٣٥٢).

(١١٤) اليافي: المرجع السابق، ص ١٠٢. وفياض: المرجع السابق، ص٤١-٤٢.

Sir Henry Miers ELLIOT, John DOWSON (1808-1853/ 1820-1881): **The History of India (As told by its own historian)**: Vol. II: **The Muhammadan Period**, low Prince Publication – Delhi: 1996, pp. 4-6.

(١١٥) أبو نصر بن مشكان: هو كاتب إنشاء مسعود وأبيه محمود الغزنوي، توفي عام ٤٣٢هـ. انظر: (ابن الوردي: المصدر السابق، ج١، ص ٥٢٣).

(١١٦) فياض: المرجع السابق، ص٤٦-٤٧.

(١١٧) **القرآن الكريم**: السورة (الكهف)/ الآية (٩٠).

(١١٨) **نهر الفولغا**: أطول نهر في أوروبا وأغزرها، يقع في الجزء الغربي الأوروبي من روسيا بطول يقدر بثلاث آلاف وست مئة وتسعين كلم، ويختلف اسم الفولغا حسب المنطقة التي يمر فيها، يُعَدّ ممرًا مائيًا هامًا للنقل البحري داخل روسيا حالي؛ ويصب في بحر قزوين. انظر: **الموسوعة العربية العالمية**.

(١١٩) البيروني: **كتاب القانون المسعودي**، ط١، دائرة المعارف العثمانية –حيدر آباد الدكن (الهند): ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦.

(١٢٠) فياض: المرجع السابق، ص ٤٧.

(١٢١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص ١٧٠-١٧٣.

(١٢٢) العتبي: **اليميني**، ص٣٦٣-٣٧٦، ابن الوردي: المصدر السابق، ج١، ص٥١١-٥١٢. وابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج٥، ص١٨٠-١٨١.

(١٢٣) الشريف عبد الحي فخر الدين الحسيني(ت.١٣٤١هـ): **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، المسمى: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر**، (ج١)، ط١، دار ابن حزم – بيروت: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٧٢-٧٣.

(١٢٤) كارل بروكلمان: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، تر. نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط٨، دار العلم للملايين – بيروت: ١٩٧٩، ص ٢٦٩.

(١٢٥) اليافي: المرجع السابق، ص١٠٢-١٠٣. انظر أيضًا: (ELLIOT: Op.cit p.6

(126) Mohammed Abdur Rahman KHAN: «Scientific Discovries of the Muslims», (Islamic Culture), N° 26, Hyderabad: 1952, p.50.°NANDAH

(١٢٧) فياض: المرجع السابق، ص٤٢-٤٥. و زيغريد هونكه: **شمس العرب تسطع على الغرب (أثر الحضارة العربية في أوروبا)**، تر. (فاروق بيضون، كمال دسوقي)، مر.(مارون عيسى الخوري)، ط٩، دار صادر ودار الأفاق الجديدة- بيروت: (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، ص٨٤.

(١٢٨) ياقوت: **معجم الأدباء**، ج٥، ص٣٣٣٤.

(١٢٩) طبرستان: تسمى (مازندران) أيضًا. وهو الإقليم الواقع جنوب بحر قزوين، بين جرجان وجيلان؛ وقصبته مدينة آمل. انظر: (الإصطخري: **مسالك الممالك**، ص ٢٠٥. ولسترنج: **بلدان الخلافة**، ص٤٠٩، و شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي البشاري المقدسي (ت. ٣٨١هـ/٩٩١م)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، باعتناء (دي غويه)، ط٢، مطبعة بريل- لندن: ١٩٦٧، ص٣٥٣.

(١٣٠) أصفهان أو أصبهان: اسم للإقليم بأسره، وهي من نواحي الجبل. انظر (ياقوت: **معجم البلدان**، ج١، ص٢٠٦).

(١٣١) انظر: (الحسني: **نزهة الخواطر**، ج١، ص ٧٣. ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج٥، ص ١٨١. الهروي: **طبقات أكبرى**، ج١، ص٣٦-٣٧. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص١٩٠-١٩١. ابن خلدون: **تاريخ العلامة ابن خلدون**، ج٩، موفم للنشر – الجزائر: ١٩٩٦، ص٢٣٣-٣٣٤).

(١٣٢) أبو الفتح البستي: علي بن محمد الكاتب، من أصل عربي، نسب إلى بست - تقع الآن بأفغانستان إلى الغرب من قندهار- ولد عام (٣٦٠هـ/ ٩٧١م)، وهو أسّن من البيروني بسنتين أو أكثر، أديب وشاعر، ولغوي، وفقيه. وهو مولع بالتجنيس (المتشابه كما يسميه هو). انظر: (العتبي: **اليميني**، ص ٢٥-٢٦، والثعالبي: **يتيمة الدهر**، ج٤، ص٣٤٥.الكتاب الالكتروني (B.M93B.COM). واليافي: المرجع السابق، ص ١٠٤-١٠٥.

(١٣٣) ياقوت: **معجم الأدباء**، ج٥، ص ٣٣٣٤.

(١٣٤) فياض: المرجع السابق، ص٤٧-٤٨.

(١٣٥) قال محمد بن محمود النيسابوري: "وبلغني أنه لما صنف (القانون المسعودي) أجازه السلطات بعمل فيل من نقده الفضي، فرده إلى الخزانة بعذر الاستغناء عنه، ورفض العادة في الاستغناء به". انظر: (ياقوت: معجم الأدباء، ج٥، ص ٣٣٣١) والبيروني: استخراج الأوتار، (مقدمة- الدمرداش)، ص٩.

(١٣٦) حسن الأمين: **أعيان الشيعة**، مج٩، ص ٤٧. وفياض: المرجع السابق، ص ٥١. و(البيروني: **تحقيق ما للهند**:
AL –BERUNI'S INDIA, Trans. Sachau, p.XI.

(١٣٧) التيّز: بلدة على ساحل بحر مكران أو السند. (ياقوت: **معجم البلدان**، ج٢، ص٦٦).

(١٣٨) مكران: ناحية واسعة بين كرمان من غربيها، وسجستان من شماليها، والبحر جنوبيها والهند في شرقيها. (ياقوت: **معجم البلدان**، ج٥، ص ١٨٠).

(١٣٩) كرمان: بين فارس ومكران وسجستان، وخراسان. (ياقوت: **معجم البلدان**، ج٤، ص ٤٥٤)

(١٤٠) أنوشتكين: الحاجب الكرخي، من قادة الدولة الغزنوية. (الحسيني: **نزهة الخواطر**، ج١، ص٧٤). °KIDI

(١٤١) الحسيني: **نزهة الخواطر**، ج١، ص٧٣-٧٤. انظر أيضًا (الهروي: **طبقات أكبرى**، ج١، ص٣٦. وابن خلكان: **وفيات الأعيان**، مج١٨١).

(١٤٢) ابن الوردي: المصدر السابق، ج١، ص٥٢٣-٥٢٤. وابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص١٩٦-١٩٧. والحسيني: نزهة الخواطر، ج١، ص ٧٤.

(١٤٣) ملك أصفهان، والرّي، وهمذان ومايليها من البلاد، وملك أيضًا طبرستان، وجرجان، وخراسان، وخوارزم، وبلاد الراون، وكرمان، وسرجستان، والسند، والرّخج، وغزنة، وبلاد الغور، ينجاب من بلاد الهند وغيرها. (انظر: الحسيني: **نزهة الخواطر**، ج١، ص ٧٤).

(١٤٤) فياض: المرجع السابق، ص٥١-٥٢.

(١٤٥) اليافي: المرجع السابق، ص ١٠٥. والشحات: المرجع السابق، ص٧١.

(١٤٦) وكان هذا الكتاب على نسق مشابه لنسق الطبيب الروماني ديوسقوريدس، طبيب الإمبراطور (نيرون) في القرن الأول والثاني(١و٢) الميلاديين، وكان ديوسقوريدس في سجل ستمائة(٦٠٠) نبات طبي، فزادها البيروني إلى خمسة أضعاف أي حوالي (٣٠٠٠)، وبفضل معرفة البيروني للغات، وللعادات والتقاليد، ودراسته على يد العالم اليوناني لعلم النبات، صحح أسماء النباتات الطبية، وصنفها على حروف المعجم بأسمائها العربية، ومرادفاتها في اللغات الأخرى. (انظر: فياض: المرجع السابق، ص٥٣).

(١٤٧) أبو الفتح مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين الغزنوي. انظر: (ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٢٤٥).

(١٤٨) ابن الوردي: المصدر السابق، ج١، ص٥٢٤-٥٣١. والهروي: **طبقات أكبرى**، ج١، ص٤٠-٤٤. وابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٢٩٠-٢٩١.

(١٤٩) ياقوت: **معجم الأدباء**، ج٥، ص ٢٣٣٤.

(١٥٠) اليافي: المرجع السابق، ص ١٠٣.

(١٥١) ابن الأثير: **اللباب في تهذيب الأنساب**، ج١، طبعة بالأوفست –مكتبة المثنى- بغداد: (د.ت)، ص١٩٧.

(١٥٢) حسن الأمين: **أعيان الشيعة**، ج٩، ص ٦٦.

(١٥٣) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٨، ص ١٣٩.

(١٥٤) حاجي خليفة: **كشف الظنون**، ج١، ص ١٠٦.

(١٥٥) يعقوب: **المعجم المفصل**.. ، ج٢، ص٦٥. انظر أيضًا:

Surjit MANSINGH: **Historical Dictionary of India**, Vision Books- (New Delhi. Bombay. Hyderabad)-(India): (1998-1999), p.32. **Encyclopadia Universalis**/ GORPUS (A), p.224.

والبغدادي: **هدية العارفين**، مج٢، ص ٦٥. والزركلي: **الأعلام**، مج٥، ص ٣١٤. ومحمد معود: البيروني، (**دائرة المعارف الإسلامية أجي بريل**)، ج٧، ص ٢٠٤٠. ومحمد مسعود: **تعليق على مادة البيروني**، (**دائرة المعارف الإسلامية**)، أجي بريل، ج٧، ص ٢٠٤٦. وسامي حما رنة وآخرون: **البيروني**، (**موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين**)، ج٤، ص ٢٧٤. وعلي الفاضل القائيني النجفي: **البيروني**، (**معجم مؤلفين الشيعة**)، ص٨٤. كحالة: البيروني، (**معجم المؤلفين**)، مج ٧ (ج٧ + ج٨)، ص٢٤١.

R.M. SAVORY: **«AL- BIRUNI»**, **Encyclopédie de l"Islam**, p. 1274.

وكارل بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، قسم ٥-٩، ص ١٩٦. كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ص٢٦٦. وأيم. أس. خان: **"البيروني: رائد الدراسات الهندية "** تر. صهيب عالم، (ثقافة الهند)، مج٥٦، ع: ٣-٤، المجلس الهندي للعلاقات الثقافية (م.ه.ع.ث) – نيودلهي: ١٩٩٥، ص١٩١. وفاسيلي بارتولد: **تاريخ الحضارة الإسلامية**، تر. حمزة طاهر؛ ط٤، دار المعارف بمصر – القاهرة: ١٩٦٦، ص ١١١.

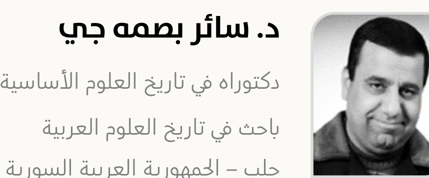
(١٥٦) ياقوت: **معجم الأدباء**، ج٥، ص٢٣٣١.

(١٥٧) البيروني: تحقيق ما للهند، ص١٣.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

تأثير الحرارة على حالات المادة عند العلماء العرب والمسلمين
بين القرنين التاسع والتاسع عشر الميلادي



د. سائر بصمه جي

دكتوراه في تاريخ العلوم الأساسية

باحث في تاريخ العلوم العربية

حلب – الجمهورية العربية السورية

مُلَخّص

يحاول في هذا البحث أن يكمل العمل في مجال تاريخ علم الحرارة، لكن من جانب إسهامات العلماء العرب والمسلمين في البحث في كيفية تأثير الحرارة على مختلف حالات المادة. وقد لاحظ القدماء آثار الحرارة على المادة بأشكالها الثلاث، وحاولوا الاستفادة منها حينًا وتجنبها حينًا آخر. ويعتقد أنه منذ ما يقرب من مليون إلى خمسمائة ألف سنة، تعلم الإنسان البدائي كيف يستعمل النار، ويبدو أنه عرف عملية الغليان. وربما يكون سحرة المصريين القدماء قد استخدموا في حيلهم الخادعة في الأفاعي المُتلوّية فكرة تمدد معدن الزئبق (أو غيره من المعادن) لدى تعرضه لأشعة الشمس، فيخيل للناس أن هذه الحبال المحشوّة بتلك المادة أو الزئبق أفاعٍ تتلوى وتملأ الوادي فوق بعضها بعضًا. يسعى هذا البحث للكشف عن جهود الفلاسفة والعلماء اليونانيين ومقارنة أعمالهم بجهود العلماء العرب والمسلمين، في محاولتهم تفسير آثار الحرارة على مختلف حالات المادة. ولقد وجدنا من خلال هذا البحث أن العلماء العرب والمسلمين قد صاغوا تعريفات أكثر دقة ووضوح لمفهوم الحرارة من اليونانيين، كما أنهم درسوا مختلف الحالات التي تؤثر فيها الحرارة على المادة وتحولها من طور لآخر، وقام بعضهم باعتماد النظريات اليونانية في تفسيرها، في حين أن البعض الآخر خرج عن طروحات الفكر الأرسطي في تفسيرها وقدم رؤىً جديدة، نرى أنها تستحق أن تأخذ مكانتها في تاريخ علم الحرارة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠١	يوليو	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٠٧	أغسطس	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

اليونانيون؛ تاريخ العلم؛ الحرارة؛ البرودة؛ حالات المادة؛ الجسم الصلب

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.184902

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سائر بصمه جي. "تأثير الحرارة على حالات المادة عند العلماء العرب والمسلمين بين القرنين التاسع والتاسع عشر الميلادي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ٩٤ – ١١٠.

Corresponding author: saerbasmaji@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

تـؤثر الحـرارة عـلى مختلـف حـالات المـادة بثلاثـة أشـكال: (الأول) قـد تغـير مـن حالـة المادة بحيث تجعـل المـادة الصلبة تنصـهر، والسـائل يتبخـر، وإذا انخفضـت تجعـل البخـار يتكـاثف لسـائل والسائل يتجمد. (الثـاني) ترفـع مـن درجـة حرارة الجسم، فـإذا كـان لـدينا جسـم معـدني وقمنـا بتعريضـه للحـرارة فإنـه يسخن. (الثالث) تمدد الجسم بحيث تزيد من حجمه، أي أنه يزيد من حيز الفراغ الذي كان يشغله سابقًا عندما كان باردًا. وعندما تتغير حالة المادة وفق إحدى الحالات السابقة فإنه يتم امتصاص الحرارة الكامنة (latent heat) أو توليدها دون حدوث أي تغير في درجـة الحـرارة، ويقصـد بالحـرارة الكامنـة كميـة الحـرارة الـتي تمتصها أو تطلقها المادة التي تتغير حالتها عند درجة حرارة ثابتة، كما هو الحال في التبخر مثلاً[١].

وقد لاحظ القدماء آثار الحرارة على المادة بأشكالها الثلاث، وحاولوا الاستفادة منها حينًا وتجنبها حينًا آخر. ويعتقد أنه منذ مـا يقـرب مـن مليـون إلى خمسـمائة ألـف سـنة، تعلـم الإنسـان البدائي كيـف يسـتعمل النـار، ويبـدو أنـه عـرف عمليـة الغليـان – وهـي عمليـة معقـدة تقنيًـا بالنسـبة لـه-مـن خـلال غمـر أحجـار تسخّن بالنـار في حفـرٍ أرضيـة مصـفوفة بالأحجـار. فـالحفرة كانـت بمثابـة الوعـاء الـذي يسـتوعب المـاء، والحجـارة السـاخنة بمثابـة المصـدر الحـراري[٢]. وربمـا يكـون سـحرة المصـريين القـدماء قـد استخدموا في حيلهم الخادعـة في الأفـاعي المُتلوّيـة فكـرة تمـدد معـدن الزئبـق (أو غـيره مـن المعـادن) لـدى تعرضـه لأشـعة الشمس، فيخيل للناس أن هذه الحبال المحشوّة بتلك المادة أو الزئبـق أفـاعٍ تتلـوى وتمـلأ الـوادي فـوق بعضـها بعضًـا[٣]. وهـي الخدع السحرية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى﴾[٤].

نعرّف اليوم الحرارة بأنها شكل من أشكال الطاقة المنتقلة عـبر حـدود المنظومـة، وذلـك نتيجـةً لوجـود فروقـات في درجـة الحرارة عبر الحدود[٥]. **ولكـن مـا هـو مفهـوم الحـرارة بالنسـبة للعلماء والفلاسفة السابقين للعلماء العرب؟**

لقد التفت اليونانيون إلى مفهوم الحرارة منذ القرن السادس قبـل الميلاد، فـالكرة الناريـة المحيطـة بكـرة الهـواء أصلهـا مـن الحـرارة، كمـا اعتقـد بـذلك كـل مـن أنكسـمندار(القرن ٦ ق.م)[٦] وبارمنيدس (القرن ٥ ق.م)[٧]، ثم قال أفلاطون (القرن ٤ ق.م) باندماج الحرارة واليبوسة لتشكيل النار[٨]، وقد لحق به أرسطو (القرن ٤ ق.م) الذي أرسى فكرة العناصر الأربع والعنصر الخامس (الأثير)[٩]، وانتقد تفسيرات الذريين للحرارة، وأنه يمكـن تعريـف الحرارة انطلاقًا من نظريته في القوة والفعل، فقال بأنها التي تجمع ما بين الجواهر المتجانسة، لأن التفريق الذي يقال عن النار أنها تفعله، إنما هو في حقيقته تركيب الأشياء التي هي من نوعٍ واحـد، مـا دام الـذي يحصـل هـو أن النـار تخـرج الجـواهر القريبـة وتنقيها، والبرودة ضد ذلك تجمع وتركب على السواء الأشياء المتجانسـة وغـير المتجانسـة[١٠]. لكـن لوكريتـوس (القـرن ١ ق.م) الروماني لم يتفق مع أرسطو، واعتبر أن الحرارة تحل في الجسم الحار وتنفصل عن الجسم البارد كالروح والجسد[١١].

التعريف الذي صمد وتمّ اعتماده من قبل فريق من العلماء العرب في النهاية هو تعريف أرسطو للحرارة بأنها تجمع الأجزاء المتجانسة مع بعضها في المادة وتفرّق المتشاكلات. بالمقابل سنجد فريقًا آخر سيخرج على هذا التعريف الأرسطي ويقدم تعريفات جديدة. فقد بدأت دراسة ظاهرة الحرارة من الناحية العلمية عند العرب والمسلمين منذ القرن (٣هـ/٩م)، إذْ قدّم لنا جابر بن حيان (توفي ٢٠٠هـ/٨١٥م) تعريفه للحرارة ولعلم الحرارة، وهو أول تعريف موثّق تمكّنا من العثور عليه. إذْ قال بأن الحرارة هي " غليان الهيولى، وهي حركتها في الجهات كلها"[١٢]، وعرّف علم الحرارة بأنه "هو العلم بجوهرها وأثرها وما تأثرت منه إذا كان علمًا بها على التفصيل، فأما إذا كان علمًا بها على الجملة فهو العلم بأثرها الخاصّ بها"[١٣].

وعندما نقول إنه وضع "تعريفًا لعلم" فهذا يعني أنه قام بعملية تحديد لمعنى هذا العلم، وأنه بات لهذا العلم قواعد محددة مضبوطة يمكن تعلّمها وممارستها في أي مكان وزمان. ولم نجد للأسف من العلماء العرب اللاحقين من أخذ بتعريف جابر سوى إخوان الصفا (القرن ٤هـ/ ١٠م)[١٤].

أما بقية العلماء فبعضهم تأثر بتعريف أرسطو للحرارة مثل الكنـدي (تـوفي ٢٥٦هـــ/٨٧٠م)[١٥]، وابـــن ســـينا (تـــوفي 428هـ/١٠٣٦م)[١٦]، وسيف الدين الآمدي (توفي ٦٣١هـ/١٢٣٣م)[١٧]، ونصـير الـدين الطـوسي (تـوفي -٦٧٢هـ/١٢٧٤م)[١٨]، وابـن كمونـة (تـوفي ٦٨٣هــ/ ١٢٨٥م)[١٩]، وسـعد الـدين التفتـازاني (تـوفي ٧٩٣هـ/١٣٩٠م)[٢٠]، والأحمد نكري (توفي في القرن ١٢هـ/١٨م)[٢١]. وبعضهم حاول شرح الظاهرة بطريقته الخاصة بشكل مستقل عن التأثر بأرسطو مثل أبو هاشم الجُبّائي (توفي 321هـ /٩٣٣م) الذي كرر فكرة لوكريتوس، والفارابي (توفي 339هـ/٩٥٠م) الذي قال إن الحرارة " المبدأ الأول الذي هذا الجسم المركّب به فعله"،

فهو يعتبر أن الجسم المركّب، مثل جسم الإنسان، لا يمكنه أن يقوم بعمله دون وجود الحرارة[٢٢].

أما ابن ملكا البغدادي (توفي ٥٦٠هـ/١١٦٥م) فقد قال إن الحرارة "حالة بسيطة مدركة بحس اللمس معروفة عند المدرك والمسمى من المدركات الأُوَل التي لا تحتاج أن تُعرف بغيرها في حدّ ولا رسم"[٢٣]. وعرّف فخر الدين الرازي (توفي ٦٠٦هـ/١٢٠٩م) الحرارة بقوله: إن "الحرارة جزء من الحار، والحار جوهر، فالحرارة جزء الجوهر، وجزء الجوهر جوهر، فالحرارة بالنسبة إلى الحار من حيث هو حار جوهر، لكنها بالنسبة إلى الجسم القابل لها عرض فهي جوهر وعرض بالنسبة إلى الأمرين"[٢٤]. وبذلك يحاول الإمام التوفيق بين الرأيين القائلين بأن الحرارة إما أنها مكتسبة أو أنها داخلية في الجسم نفسه.

وآخر تعريف طالعنا عليه عضد الدين الإيجي (توفي ٧٣٥هـ/١٣٥٥م) الذي لم يتفق مع ابن سينا وأي شخص يقول بقوله، وبالتالي عدم اتفاقه مع الطرح الأرسطي، في تعريف الحرارة "وذلك أن الحرارة فيها قوة مصعّدة، فإذا أثرت الحرارة في جسم مركّب من أجزاء مختلفة باللطافة والكثافة ينفعل اللطيف منه أسرع فيتبادر إلى الصعود الألطف فالألطف دون الكثيف فيلزم بسببه تفريق المختلفات ثم الأجزاء تجتمع بالطبع فإن الجنسية علة الضم والحرارة معدة للاجتماع فنسب إليها"[٢٥]. إذًا فقد حاول الفريق العربي الثاني أن يبرز رأيه الناقد وشخصيته العلمية من جوانب أخرى لم يتطرق إليها التعريف الأرسطي للظاهرة الحرارية. على العموم، إن وضع تعريف لمفهوم الحرارة سيجعل أي عالم يبحث في ظاهرة تأثير الحرارة على المواد أن يرتكز على هذا التعريف ليصل إلى تفسير مقنع يتسق مع تعريفه.

أولاً: اليونانيون

ناقش بعض اليونانيين كيفية تأثير الحرارة على حالات المادة، فقد ذكر أناكسيمانس (نحو ٥٨٥-٥٢٥ ق.م) Anaximenes[٢٦]، حيث إنه ربط عملية تحولات المادة بالخفة والتكثيف التي ترتبط بدورها بتحولات الحرارة والبرودة؛ فالهواء عندما يتمدد أو يتكثف يظهر بأشكالٍ متنوعة[٢٧]. وطرح الرواقيون (القرن ٤ ق.م) Stoicism مفهوم التوتر لدى تحول المادة من حالة لأخرى، ويحدث التوتر في النار أو الهواء أو الماء بسبب ظهور حركتين إحداهما نحو المركز والأخرى نحو المحيط[٢٨].

وقد أشار أرسطو (القرن ٤ ق.م) Aristotle إلى ظاهراتي الغليان والتجمد كظاهرتين متقابلتين، واكتفى بالعموميات المعهودة عنه في شرحهما وتفسيرهما[٢٩]. أما فيلون البيزنطي (القرن ٣ ق.م) Philo of Byzantium فقد تناول فيلون في كتابه (في الحيل الروحانية وميخانيقا الماء) تجربةً (أسماها حيلةً) أثبت بواسطتها أن الهواء يتمدد بالحرارة ويتقلص بالبرودة؛ فمع أن الهواء عنصر لكنه يتمدد بوجود كيفية الحرارة[٣٠].

وقد أدرك أبولونيوس التياني (القرن ١م) Apollonius of Tyana أو بلينوس الحكيم مفهوم تمدد الهواء بعد فيلون بحوالي ٤٠٠ سنة، وذلك من خلال التجربة الآتية "والدليل على هرب الريح من الحرارة أنك لو ملأت جرابًا هواء، ثم ثقبت طرفيه، ثم أوقدت نارًا مما يلي الطرفين لتدافع الهواء من الجراب حتى يخرج من الحيّز الذي لا يلي النار، ولا يخرج من الحيز الذي يلي النار شيء منه ولا يستقبل الحرارة، لأن الغالب على طبيعة الرطوبة والرطوبة <أن> تهرب من الحرارة، والحرارة تقهر الرطوبة إذا امتزجت بها فتصيّرها بخارًا، ثم يصير ذلك البخار ريحًا"[٣١].

وهكذا فإنه ثمة فرق واضح بين آراء الفلاسفة اليونانيين السابقين على أرسطو وبين اللاحقين عليه، فقد كان السابقين عليه يقدمون رؤى بعيدة عن الواقع الفيزيائي، ولذلك لم يكتب لنظرياتهم البقاء، كما هو حال آراء اللاحقين على أرسطو التي كانت أقرب لتوصيف ما يحدث لدى تأثير الحرارة على مختلف حالات المادة.

ثانيًا: العلماء العرب والمسلمين

يرى فيدمان أن العلماء العرب توصلوا إلى اكتشاف مجموعة من الطرائق لحساب الأوزان النوعية، رغبةً في تحسين القيم القديمة. ولم يخصوا الأجسام الصلبة فقط في تجاربهم، وإنما السائلة أيضًا، وأثبتوا أن السوائل تصبح أخف مع ارتفاع درجة الحرارة[٣٢]. وسنجد أنه كثيرًا ما يستخدم لدى العلماء العرب مصطلح "الاستحالة" كما كان يطلق عليه، أو التحول من طور إلى آخر في المادة، فالانتقال من الطور الغازي إلى السائل يكون بتكاثف بخار الماء على سطح مخروط موضوع داخل الثلج، طبعًا كان يقصد ببخار الماء في ذلك العصر (الهواء)[٣٣]. كما أنهم عرفوا تمدد الأجسام الناجم عن زيادة الحرارة والتقلص الناجم عن البرودة.

٢/١-جابر بن حيان (القرن ٣هـ/ ٩م)

لاحظ جابر أن درجة الغليان في حامض الخليك أدنى من درجة غليان الماء، وذلك عندما كان يقوم بتقطير الخل للحصول على حامض الخليك المركز[٣٤]. كما وجد أن الحرارة عندما تدخل في

المادة فإنها تزيد في طولها إذا كانت جامدة، وترفعها للأعلى إذا كانت غازية، ويحدث العكس مع البرودة، في حين أن الرطوبة توسع المادة عرضًا وتكون اليبوسة في الأشياء الدقيقة والرفيعة، يقول في ذلك: "وأيضًا فينبغي أن تعلم أن الطول كله والأخذ إلى الأعالي من قسم الحرارة، وأن القصر والعكس بمقابلة تلك الحدود للبرودة، وأن الأخذ عرضًا للرطوبة، وهي تكون في الأشياء الغليظة المنبسطة، والأشياء الدقيقة النحيفة لليبوسة لا غير"[٣٥].

ويرى الباحث فؤاد جميعان أن العرب فطنوا إلى أن الحرارة تؤثر على كثافة المواد، لكنهم لم يفطنوا إلى أن لها تأثيرًا على حجم الأشياء[٣٦]. ولكن رأيه هذا كان مجانبًا للصواب، فقد أشار جابر بن حيان في (كتاب أرض الحجر) عندما كان يناقش قوله تعالى﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[٣٧]. إلى أن العلماء يرون في معنى "ربَت" أي زاد حجمها فانتفخت وعلت بسبب هطول الماء على تربتها، ثم ينتقل جابر لمناقشة العلاقة بين الحرارة والبرودة وتأثير كل منهما على حالة المادة بطريقة علمية في هذا التفسير :"قالوا فأما الوزن إلى النقصان أقرب وعليه الثقل والبرد والتلزز والاجتماع والحركة إلى المركز ... وعلة الخفيف عكس هذه كلها وما عملت في الحرارة فبعيدٌ أن يزيد وزنه وإنْ زاد جرمه ... يزيد مساحته وينقص وزنه لفقده التلزز والتحليل الذي هو من علّة الخفيف فقد بطل أن تكون زيادة وزن هذه الأرض بتمديد الحرارة وسخونتها. قالوا والعلة في زيادة وزنها هو عكس هذا بعينه وذلك أنها إذا دُبّرَت بالنار فإن النار تحلّ بالحرارة منها وتجذبها إلى نفسها وتفرّق بينها وبين أجزاء البرودة، إذْ من شأن النار التفرقة بين الأجزاء المختلفة والجمع بين الأجزاء المتشابهة، فإذا فرقه ... بحرارةٍ واللطف الذي هو علة الخفة بقي منها الحارّ والبارد الذي هو علة الثقل مزاد الوزن"[٣٨]. و" من شأن الحرارة إبادة الرطوبة والتعدي بها"[٣٩]. سواء كانت هذه الحرارة كيفية داخلية أم خارجية مسلطة على المادة من مصدر حراري.

أما اليبوسة أو الجفاف المرتبط بالحرارة فتنقسم من حيث أثرها إلى قسمين:" يبس محسوس يسمى ظاهرًا، ويبس بالقوة ويسمى باطنًا. وكذلك الحرارة والبرودة والرطوبة فإنها تنقسم هذين القسمين بأعينهما"[٤٠]. بمعنى تظهر خاصية اليبوسة، وغيرها من الطبائع، بشكل محسوس الأثر (بالفعل) أو تكون خفية (بالقوة) لا تظهر إلا بوجود ما يدفعها للظهور.

٢/٢-الكندي (القرن ٣هـ/ ٩م)

أدرك الكندي القاعدة العامة بأن الأجسام تتقلص بتأثير البرودة فتأخذ حيزًا مكانيًا أقل، وتتمدد بالحرارة فتأخذ حيزًا مكانيًا أكبر الأمر الذي يجعل الهواء يزاح من أمام المتمدد. قال الكندي: "وكل جسم برد انقبض واحتاج إلى مكان أصغر من مكانه قبل برده، وكل جسم حميَ انبسط واحتاج إلى مكان أعظم من مكانه قبل حميه؛ فسال الهواء من جهة الموضع المنبسط الحارّ إلى جهة الموضع المنقبض البارد"[٤١].

٣/٢-الفارابي (القرن ٤هـ/ ١٠م)

الجسم الساخن عند الفارابي هو " ما خالطه جسم حار، فيتبدد في خلاله الأول فيسخن جملة المجتمع منهما بمنزلة ما يسخن الماء متى صُب فيه ماء حار، أو أن يحدث فيه سخونةً من غير أن يُركّب إليه أو يخالطه جسم حار"[٤٢]. وبخصوص الحدود القصوى التي تكون عليها المادة حسب زيادة أو نقصان الحرارة فيها، فإن " الجسم البالغ في الحرارة بطبعه هو النار، والبالغ في البرودة هو الماء، والبالغ في الميعان هو الهواء، والبالغ في الجمود هو الأرض"[٤٣]. بمعنى أننا أقصى درجة لكيفية الحرارة نجدها في النار، ولذلك فإن النار قادرة على تسخين أي جسم يسلط عليها.

٤/٢-أبو الحسن المسعودي (القرن ٤هـ/١٠م)

لاحظ أبو الحسن المسعودي (توفي ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) تمدد الأجسام الطولي بتأثير الحرارة الخارجية، وقد عمم هذه القاعدة على كل الأجسام فقال: " وأن الأجسام إذا حُميت احتاجت إلى مواضع أوسع من المواضع التي كانت فيها فما تحدثه الحرارة من تباعد نهاياتها عن مركزها، وأنها إذا بردت صارت بضد ذلك لأن البرد يفعل تقارب نهايات الأجسام من مركزها فتحتاج إلى مواضع أصغر من مواضعها"[٤٤]. ويدلنا هذا النص العلمي الدقيق على وجود ممارسة تجريبية وليس مجرّد تخمين نظري؛ فعندما نقول "عمم" فهذا يعني أنه قد لاحظ تكرار الظاهرة على أكثر من مادة وفي مختلف الأزمنة والأمكنة. والمسعودي معروف بدقة ملاحظته ومناقشته للمسائل العلمية، فقد قدم لنا واحدة من أحد أفضل المناقشات المتعلقة بأسباب ظاهرة المد والجزر بعد دراستها ومعاينتها[٤٥]، فلا غرو أن يقدم لنا واحدة من أحد أفضل التفاسير العلمية لتأثير الحرارة على الأجسام.

٥/٢-إخوان الصفا (القرن ٤هـ/١٠م)

المادة الوحيدة التي لا تتأثر بحرارة أو برودة -حسب إخوان الصفا-هي الفلك، وذلك لأن طبيعته "طبيعة خامسة إنما

يعنون أن الأجسام الفلكية لا تقبل الكون والفساد والتغير والاستحالة والزيادة والنقصان، كما تقبلها الأجسام التي تحت فلك القمر"[٤٦]. ومن صفات الأجسام الفلكية "أنها ليست حارة ولا باردة ولا رطبة ولا يابسة ولا ثقيلة ولا خفيفة، ولا يستحيل بعضها إلى بعض فيكون منها شيء آخر، ولا يزيد في مقاديرها ولا ينقص"[٤٧]. ويفسرون سبب قولهم هذا لأنه "من أجل أن الحرارة إنما تعرض للأجسام السيالة المتحللة عند الحركة، لأن أجزاءها تفارق مجاورتها بعضها بعضًا، وتتبدل بالغليان الذي هو الحرارة. ولما كانت الأجسام الفلكية متماسكة الأجزاء من شدة اليبس، لم تفارق مجاورة أجزائها بعضها بعضًا، فلا يعرض لها الغليان الذي هو الحرارة. وأما البرودة فإنها تعرض للأجسام عند سكونها، والأجسام الفلكية دائمة الحركات والدوران، فلا تسكن فتبرد"[٤٨].

ويميز إخوان الصفا بين اليبوسة (الجفاف) الناجم عن الحرارة والآخر الناجم عن البرودة بقولهم: "واعلم يا أخي بأن اليبوسة نوعان: إحداهما تابعة للحرارة وهي فاضلة، والأخرى تابعة للبرودة وهي رذلة. وذلك أن اليبوسة التابعة للحرارة هضمة نضجة، والتي تتبع البرودة فِجّة غير نضجة. ومثال ذلك يبوسة الياقوت والبلور وأشباهُها؛ فإنها قد أنضجتها بالطبخ حرارة المعدن، فهي لا تستحيل ولا تتغير. وأما التي هي تابعة للبرودة مثال يبوسة الثلج والجليد والملح وغيرها، فإنها لما كانت فجة غير نضجة صارت رذلة مستحيلة متغيرة"[٤٩].

٦/٢-ابن سينا (القرن ٥هـ/١١م)

يعتبر الباحث عمر فرّوخ أن ابن سينا لم يصب عندما جعل من الحرارة والبرودة خاصيتين مستقلتين، إلا أنه كان على حقّ في قوله إنّ الحرارة تتسبب بتخلخل وخفة الأجسام الكثيفة، كما أن البرودة تقوم بتكثيف الأجسام[٥٠]. فقد لاحظ ابن سينا تأثير الحرارة في عملية تكاثف قطرات الماء خارج كأس النحاس يوجد فيه جليد، ونفى أن يكون سبب ذلك هو الرشح، ويقدم على ذلك أمثلة عديدة واقعية، مثل أن يحدث التكاثف داخل الكأس إذا كان الجليد في الخارج، ولا تحدث حالة التكاثف إذا وضع الكأس داخل ماء مغلي.

يقول ابن سينا: "وأنت قد تضع الجمد في كوز صُفْرٍ فتجد في خارجه من الماء المجتمع على سطحه كالقطرِ شيئًا له قدر صالح، ولا يمكن أن ينسب ذلك إلى الرشح لأنه ربما كان ذلك حيث لا يماسه الجمد وكان فوق مكانه ثم لا تجد مثله إذا كان الماء حارًا والكوز مملوء - ثم قد يجتمع مثل ذلك داخل الكوز حيث لا يماسه الجمد وليس ذلك رشحًا البتة، وقد يدفن القدح في جمد محفورًا حفرًا مهندمًا عليه ويشد رأسه فيجتمع فيه ماء كثير وإن وضع في الماء الحار الذي يغلي مدة وشد رأسه لم يجتمع فيه شيء وإذا بطل أن يكون على سبيل الرشح"[٥١].

والتفسير الرئيس لذلك -حسب ابن سينا واعتمادًا على تعريف أرسطو للحرارة-هو استحالة الهواء المجاور للكأس أو بخار الماء الموجود في الهواء إلى ما يماثله في طبع البرودة وهو الماء، لذلك يستبعد ابن سينا تمامًا أن يكون قد حدث رشح من الماء الموجود داخل الكأس إلى خارجه.

قال ابن سينا: "فلا يخلو إما أن يكون على سبيل أن ما يجاور القدح أو الكوز وهو الهواء قد استحال ماء أو أن المياه المنبثة في الهواء انجذبت إلى مشاكلها في البرودة وهذا القسم الثاني محال وذلك أنه ليس في طبيعة الماء أن يتحرك إلا على سبيل الاستقامة إلى السفل - ولو كان يجوز أن يتحرك كيف اتفق لكانت القطرات إذا خلى عنها عند مستنقع ماء عظيم كثير بارد أو عند مجمع جمد كثير أن تميل إليه عن جهتها المستقلة - فإذًا ليس على سبيل الرشح ولا على سبيل الانجذاب فيبقى أن يكون على سبيل استحالة الهواء ماء فتكون إذًا المادة مشتركة فيستحيل الماء أيضًا عند التبخير هواء ثم الهواء قد يستحيل عند التحريك الشديد محرقًا"[٥٢].

ثم يعمم ابن سينا ظاهرة تكاثف قطرات الماء أنها يمكن أن تحدث على أي سطح بارد، وأن سببها هو تحوّل الهواء إلى ماء. مثله في ذلك مثل النار التي تُصنع بسبب النفخ أو تحوّل المياه إلى حجارةٍ صلبة، يقول في ذلك: " قد يبرد الإناء بالجمد فيركبه ندى من الهواء، كلما التقطته مُدَّ إلى أي حدّ شئت ولا يكون ليس إلا في موضع الرشح. ولا يكون عن الماء الحارّ، وهو ألطف وأقبل للرشح، فهو إذن هواء استحال ماء، وكذلك قد يكون صحو في قمم الجبال، فيضرب الصِّر[٥٣]، هواها فيجمد سحابًا لم ينسق إليها من موضع آخر، ولا انعقد من بخار متصعد، ثم يُرى ذلك السحاب يهبط ثلجًا، ثم يضحي ثم يعود. وقد تخلق النار بالنفاخات من غير نار. وقد تحلّ الأجسام الصلبة الحجرية، مياهًا سيالةً، كما قد تجمد مياه جارية تشرب، حجارةً صلدةً"[٥٤].

ويوسع ابن سينا ما طرحه أرسطو بشأن أثر الحرارة على المادة فقال: " الحرارة ليست تفرّق المختلفات؛ بل قد تفرّق المتشاكلة، كما تفعل بالماء، فإنها تفرّقه تصعيدًا. وأيضًا فإن النار قد تجمع المختلفة. فإنها تزيد بياض البيض وصفرتها تلازمًا، ثم بالحقيقة ولا أحد الفعلين لها فعل أول، وذلك لأن فعلها الأول تسييل الجامد من الرطوبات بالبرد وتحليله، ثم

تصعيده وتبخيره"[٥٥]. وحاول أن يوضح عملية الاجتماع الذي تحدثه الحرارة بقوله:" إن الحرارة تفعل في الأجسام البسيطة وتفعل في الأجسام المركبة؛ والجسم الواحد البسيط يجتمع، فيستحيل أن يقال إن النار تجمعه؛ لأن قولنا كذا يجمع كذا معناه أن يجمع ما ليس بمجتمع"[٥٦].

ويبدو أن ابن سينا لاحظ تجريبيًا تمدد الماء في وعاء محكم الإغلاق كان قد وضعه في فرن لمدة من الزمن، يقول ابن سينا:" وقد عاينت قمقمة صغيرة شددنا رأسها بعد ملئها بالماء ووضعناها في أتون فما لبثنا حتى انشقت وخرج كل ما كان فيها نارًا. ومن المعلوم أن الماء الذي كان فيها لم يمازج بأجزائه المتفرقة شيئًا آخر حدث منه تغير، لأن النار لم تكن في القمقمة أولاً، ولا دخلت ثانيًا لعدم المنفذ في القمقمة. فمن المعلوم أن استحالتها كانت على سبيل التغير في ذاتها الهوائية والنارية لا على سبيل تفرق الأجزاء"[٥٧].

إن ما لاحظه ابن سينا في هذه التجربة هو التمدد الحجمي للماء، وهو ما أسماه "بالتغير في ذاتها" فقد تمدد الوعاء لدرجة أكبر من حجم الوعاء فأدى ذلك لانفجارها وخروج الماء والبخار المتولد نتيجة عملية التسخين. وبذلك برهن ابن سينا من حيث يدري أو لا يدري على عدم دقة تعريف أرسطو للحرارة، بأنها سبب تجمع الأشياء المتشابهة في جواهرها ومادتها، وتفريق الأشياء المختلفة في جوهرها ومادتها. وفي الوقت نفسه أثبت صحة تعريف جابر بن حيان بأن الحرارة هي ما يسبب غليان المادة وتحرّكها في كل الاتجاهات. ونحن لا نشك أبدًا بأن ما رآه ابن سينا هو تحطم الوعاء في كافة الاتجاهات وليس بجهة محددة.

مرةً أخرى لاحظ ابن سينا ظاهرة التمدد الحجمي أيضًا التي تظهر في الماء الموضوع في وعاء، وقد حاول تفسير ما حدث اعتمادًا على المبدأ الأرسطي أنّ "الطبيعة تكره الخلاء" مفندًا كل الأفكار الأخرى التي قد تخطر ببال أحدهم، ليصل إلى نتيجة مفادها أن ما حدث هو تمدد الماء داخل الوعاء في كل الاتجاهات، هذا التمدد احتاج لمكان أكبر مما هو فيه فجعل الوعاء يتصدع.

قال ابن سينا: " وينبغي أن تعلم أن هذه الأجسام تقبل التكاثف والتخلخل بأن يصير جسم أصغر مما كان من غير وصل جزء عنه أو أكبر مما كان من غير وصل جزء به، وذلك بيّن من القارورة تمص فتكب على الماء فيدخلها الماء: فإما أن يكون وقع الخلاء وهو محال، وإما أن يكون الجسم الكائن فيها قد خلخله القسر الحامل إياه على تخليه المكان ثم كثفه برد الماء أو تكاثف بطبعه فرجع إلى حجمه الطبيعي عند زوال السبب المخلخل إياه خارجًا عن طبعه. وهذه الأزقاق والأواني التي تتصدع عند غليان ما فيها أو تسخينه إما من طبعه وإما من نار توقد عليه لا يخلو إما أن يكون ذلك الانصداع لأجل حركة تعرض لما فيها مكانية قوية من تلقائه - أو الحركة تعرض لها من محرك دافع أو لحركة لها من باب الكم بتخلخل وانبساط لا يسع مثله سطح الوعاء والقسم الأول محال لأن تلك الحركة إما أن تكون فيها إلى جهة واحدة أو إلى الجهات كلها فإن كانت إلى جهة واحدة فإن نقل الإناء وحمله ربما كان أسهل من صدعه فيجب أن تنقل الإناء وتحمله في أكثر الأمر لا أن تصدعه وإن كانت إلى جهات مختلفة فيلزم من ذلك أن تكون طبيعة متشابهة يعرض فيها أن تتحرك حركات بالطبع مختلفة وهذا محال وإن كان إنما يتحرك مثلاً لدافع مثل ما يظن أن النار تدخل الماء المغلي فيصير أكبر حجمًا فينصدع الإناء فلا يخلو إما أن يدخل ثقبًا خالية وإما أن لا يدخل ثقبًا خاليًا بل يحدث ثقبًا ومنافذ فيه وحال أن لا يدخل ثقبًا خاليًا فإن الخلاء ممتنع - وأيضًا إذا امتلأت الثقب الخالية لم يجب أن يزداد حجم الجسم كله بل وجب أن يكون على ما هو عليه وأما القسم الثاني فلا يخلو إما أن يزيد في الحجم مع مماسة سطح الجسم الذي فيه قبل النفوذ في ثقب مستحدثة فيه أو بعد أن يثقب ويدخل وكلا القسمين باطل - أما مع المماسة فإن نفس المماسة لا توجب زيادة حجم الشيء نعم ربما كان المماس يدفع ويضغط بقوته إلى جهة واحدة مخالفة لجهة حركته ومضطرة إليها - ولا يجب من ذلك أن ينصدع ما يحتوي على المدفوع بل ينتقل على ما بينا على أنه كثيرًا ما يعرض ذلك لا بسبب نار واصلة من خارج بل لأن المحوي يسخن من تلقاء نفسه ومحال أن يقال إن الانصداع واقع بزيادة الحجم بسبب المخالطة من النافذ الثاقب فنقول إن هذا القسم أيضًا محال لأنه لا يخلو إما أن تكون الزيادة في الحجم آن الانصداع أو يكون الحجم قد زاد قبله وكلا القسمين محال - أما الأول فلأن كل آن يكون فيه نافذًا يمكن أن يفرض قبله آن آخر كان فيه نافذًا لأن النفوذ مجاورة السطوح بالحركة ويكون له مسافة ما وتلك المسافة منقسمة وفي بعضها قد كان نافذًا أيضًا فقد كان الحجم زائدًا قبل أن صدع وهذا محال لوجهين أحدهما لأن الإناء الذي ملأه شيء لا يسع فيه مالئ أكثر منه حتى يثقبه إلى أن يشقه والثاني لأن الحجم إذا صار أكبر كان يشق لأنه أكبر فيجب أن يكون قد شق قبل أن شق - اللهم إلا أن يقال إنه دخل شيء وخرج شيء مثله فيكون الحجم لم يزدد إلى وقت الشق ثم ترجع المسألة من

رأس في القدر الذي إذا دخل فيه شيء لم يخرج مثله فقد بطل أن تكون الحركة الصادعة من جهة حركة انتقالية تعرض لما في الاناء من تلقائه وبطل أن يكون لدفع يعرض من دافع وليس يجوز أن تكون إلى جهة واحدة فينتقل الاناء قبل أن يشقه فقد بقي أنه إنما يعرض لانبساطه فيشق بالدفع القوي والتمديد فيكون قد ازداد حجم جسم لا بمداخلة جسم آخر - إما وهو باق بعد على صورته في كليته وإما أن بعض أجزائه استحال إلى صورة أخرى تقتضي كمًا أكبر - وإما أن جميعه استحال إلى صورة تقتضي مقدارًا أكبر"[٥٨].

ويبدو من النص الذي سنقدمه أن ابن سينا حاول جاهدًا وبطريقة منطقية أن يفسّر سبب حدوث التمدد الحجمي للماء، وما هو الشيء الذي أضافته عملية التسخين للماء وجعله يتوسع بهذا الشكل. لكنه، وفي إطار نظرية أرسطو، لم يتمكن من تقديم التفسير الحقيقي لهذا التمدد.

يقول ابن سينا: "وينبغي أن تعلم أن الحرارة التي <هي> من قوى البسائط إذا صادفت مادة مختلطة من رطب ويابس حللت الرطب الذي فيها فازداد الجسم قبولا لحد الرطب حتى إذا أبانته عنه بالتبخير اجتمع فيه اليابس وصلب فيحصل عنها في أول الأمر لين فإذا لان ولاقى البارد ذلك الجسم كثفه فصار تكثيفه أشد مما كان أولاً إذا اليابس فيه الآن أكثر مما كان، ثم إذا فنيت الرطوبة بأسرها بقي يابسًا لا اجتماع له لأن الاجتماع إنما كان بالنداوة وقد تبخرت، وربما سخنت الحرارة من الشيء ظاهره فتبرد باطنه بالتعاقب الجاري بين الطبائع المتضادة وليس معنى هذا التعاقب أن الحرارة والبرودة تنتقل وتتحرك من جزء إلى جزء ولا أنها تشعر بضدها فتهزم عنه - بل إذا استولى ضد على ظاهر الشيء غصبت القوة المسخنة التي فيه أو المبردة بعض المادة المطيفة به المنفعلة عنه فبقي المنفعل أقل مما كان وإذا قل المنفعل اشتد فيه الفعل وقوي وظهر ثم إذا سلمت المادة له كلها انتشر التأثير في الكل فضعف فإذا اتفق أن كان في شيء واحد قوة مسخنة ومبردة فأيهما غلب على الظاهر قوى فعل ضده في الباطن إلا أن يغلب فيغصب جميع المادة ظاهرها وباطنها - وقد يفعل الحقن ضد فعل التبخير مثل إن الحرارة إذا بخرت الجوهر المسخن في الباطن ضعفت الحرارة الباطنة وإن البرودة إذا حقنت الجوهر المسخن في الباطن قويت الحرارة الباطنة، ولذلك توجد الأجواف في الصيف أبرد والبرودة ربما خلخلت الشيء بالعرض فتقوى الحرارة في باطن الجسم بالاحتقان ثم تستولي البرودة على المادة أخيرًا والبرودة تفعل في جميع ما قلناه ضد فعل الحرارة فيصلب المركب من يابس ورطب أولاً فيمكن حينئذ أن يعرض ما قلنا من تقوى الحرارة باطنًا ويمكن أن لا يعرض فيزول التصليب البتة بل لا يزال يشتد - وهذه الكيفيات إذا اجتمعت في المركب فعل بعضها في بعض فحصل من المركب مزاج مخالف لكيفيات البسائط فتكون البسائط فيه لا على ما هي على حد البساطة المفردة عن التركيب بل تكون صورها الذاتية محفوظة غير فاسدة لأن فسادها إلى أضدادها دفعة وأضدادها أيضًا بسيطة وعناصر لا مركبات وكيف لا تكون فيه ثابتة والشيء المركب إنما هو مركب عن أجزاء فيه مختلفة وإلا كان بسيطًا ولا يقبل الأشد والأضعف وأما كيفياتها ولواحقها فتكون قد توسطت ونقصت عما كانت فيه من حد الصرافة والسورة للبساطة"[٥٩].

مع قوة الحقيقة التجريبية التي عاينها ابن سينا بنفسه، نراه يعود لنظرية العناصر الأربعة واستحالتها في كتابه (النجاة)، التي تتلخص في أن لكل عنصر من هذه العناصر طبيعتين فللنار الحرارة واليبوسة، وللهواء الحرارة والرطوبة، وللماء البرودة والرطوبة، وللأرض البرودة واليبوسة، وليست البرودة عدم الحرارة، بل تعد موجودة بالذات، وتعتبر كل من الحرارة والبرودة مؤثرة ذات أثر محسوس في الأجسام، حيث إن الحرارة تمدد الأجسام، والبرودة بالعكس تقلصها[٦٠]. ويرى بأن "الحرارة تعين كلاً من اليبوسة والرطوبة على فعله. فالرطب الحار أشد تحليلاً لما يحل به. واليبوسة الحارة أشد عقدًا لما يعقد بها"[٦١]. كما أن "الحرارة فاعلة إذا فعلت بالطبع؛ وتفعل إما إحالةً وإما تحريكًا، وأعني بالإحالة جميع ما سوى المكانية والوضعية مما هو في الطيف أو الكم نحوه"[٦٢]. ويفسّر ابن سينا عملية التبخير على أنها " تحريك الأجزاء الرطبة متحللةً من شيء رطب إلى فوق، بما يفاد من مبدأ ذلك بالتسخين"[٦٣].

وهكذا فقد حاول ابن سينا هنا أن يدمج أو يوفّق بين المفهوم الأرسطي (تجميع أو تفريق) للحرارة ومفهوم جابر للحرارة (غليان وحركة)، لكن هذا الدمج فيه اضطراب لن يساعده على بناء نظرية متماسكة مع بعضها داخليًا. فالتجميع أو التفريق يشيران ضمنيًا إلى وجود الحركة، لكن غير محددة الاتجاه، أما في تعريف جابر فإن الحركة في كل الاتجاهات تعقب عملية الغليان.

أخيرًا فقد ناقش ابن سينا أيضًا عملية انصهار المواد، وكيف أن قدرة النار على الصهر تزداد بزيادة المواد القابلة للاحتراق مثل الكبريت والزرنيخ والأملاح. قال ابن سينا: " النار في قوتها أن تسيّل أكثر الأجسام حتى الرماد والطلق والنورة والملح والحديد

تسييل إذابة، وخصوصًا إذا عِينت بما يزيدها اشتعالاً كالكبريت والزرنيخ والأملاح الحادة"[٦٤].

٢/٧-البيروني (القرن ٥هـ/١١م)

برع البيروني في صناعة الآلات الرصدية، وله إسطرلاب رائع قمنا بإعادة صنعه حديثًا ووضعه في متحف تاريخ الطب والعلوم في حلب. وقد بلغت دقة ملاحظة البيروني أنه لاحظ تمدد الآلات الرصدية المعدنية وغيرها بسبب تعرضها لحرارة الشمس نهارًا وتقلصها ببرودة الليل[٦٥]، ونبه البيروني إلى إمكانية حدوث الخطأ في الرصد والقياس بسبب تمدد آلات القياس بالحرارة وتقلصها بالبرودة، كما أنه أشار إلى عملية الاستطالة التي قد تحدث للجسم نتيجة الثقل المؤثر عليه. ومن أجل تفادي الأخطاء في قياس طول السنة يجب أن يرصد وقت حلول الشمس هذه النقطة المعينة مرتين بينهما عدد كبير من السنين. وقد أحب أن ينبه العاملين في هذا المجال فقال:" وعلى هذا عملوا كما عملنا نحن، وإن كان عملنا للتوطيد؛ ولا بد من وقوع التساهل في أمثال هذا الرصد بسبب صغر الآلات إذا قيست إلى عظم ما يقاس بها، وبسبب التغييرات التي وقوعها ضروري في الأشياء الطبيعية، لازم إياها لا يفارقها، كالامتداد العارض في الحلقات من نقلها إذا أفرط في تعظيمها حتى يستطيل له ويعرض. أما الاستطالة ففي السمك إذا علّقت، وأما الانبطاح ففي العرض إذا نصبت، وبسبب ما يلحقها من أمثال ذلك عند تغير الكيفيات في المواد. وقد كان المأمون تولى نصب عمود من حديد أدى أذرعه على عشر بدير مران من دمشق، وسواه في صدر النهار ثم قاسه بالمساء فوجده متغيرًا عن نصبته قدِر طول شعيرة بتأثير برودة الليل فيه، وآيسه ذلك عن إدراك مقدار السنة بالحقيقة"[٦٦]. ووجد البيروني أن" الحرارة تمنع السائل عن أن يتكثف، والبرد في خلاف جهة الضوء لجمعه"[٦٧].

إضافةً لما سبق فقد حدثت بين البيروني وابن سينا سلسلة مراسلات علمية[٦٨]، الهدف منها معرفة الرأي الأرسطي الذي يمثله ابن سينا مقابل الرأي غير الأرسطي الذي يمثله البيروني. لن نخوض في كل مسائل المراسلات وإنما سنركز على المسائل الحرارية منها ذات الصلة بموضوع البحث. ورد عن البيروني في المسألة العاشرة سؤاله: "استحالات الأشياء بعضها إلى بعض، أهو على سبيل التجاوز والتداخل أم على سبيل التغير؟ ولنمثل بالهواء والماء. فإن الماء إذا استحال إلى الهوائية أيصير هواءً بالدقيقة أم يتفرق فيه أجزاؤه حتى يغيب عن حس البصر، فلا يرى الأجزاء المتبددة؟"[٦٩].

فكان جواب ابن سينا أن ما يسميه البيروني "استحالة" هو مجرد تغيّر صورة المادة لكن الطبع يبقى نفسه، والدليل على ذلك هو الماء المحتجز داخل وعاء محكم الإغلاق فهو يتمدد حجميًا عندما يتعرض للتسخين فسبب هذا التمدد هو تحول بعض أجزاء المادء إلى هواء، وقد أشار ابن سينا إلى استحالة كل من العناصر الأربعة إلى غيره في كتاب "الإشارات"، فبعد أن ذكر أمثلة عليها استخرج حكمًا نهائيًا بأن "هذه الأربعة قابلة للاستحالة بعضها إلى بعض فلها هيولى مشتركة"[٧٠].

قال ابن سينا في جوابه على البيروني: إنّ " استحالات الأشياء بعضها إلى بعض ليست كما مثلت من استحالة الماء إلى الهواء، بأن نضع أجزاءه تتفرق في الهواء حتى يغيب عن الحس، بل ذلك لخلع هيولى الماء صورة المائية وملابستها صورة الهوائية. ومن أراد أن يعرف ذلك على الاستيفاء، فلينظر في تفسير المفسرين لكتاب "الكون والفساد"، وكتاب "الآثار العلوية"، والمقالة الثالثة من "كتاب السماء". ولكني أبين ذلك بطرف ما بينوه وأورد مثالاً استقرائيًا مما أثبتوا به قولهم. فأقول: إنَّ زيادة الأجسام في كميتها كماء ملأنا به قمقمة وشددنا رأسها وأسخناها إسخانًا شديدًا. فشقَّت القمقمة لطلبها مكانًا أوسع من مكانها لزيادتها في أقطارها بتحوَّل أجزاء مائها هواء، فأما أن يكون لتخلل الخلاء في أجزاء مائها، وإما أن لا يكون سبب التغير تفرق الأجزاء. لكن الخلاء محال وجوده، فمن الضرورة أن القسم الثاني حق، وهو أنه ليس سبب التغير تفرق الأجزاء، وإنما هو قبول الهيولى لصورة ثانية. فإن قيل: القمقمة يدخلها هواء أو شيء آخر ويزيد في كمية الجملة قلنا: هذا محال لأن المملوء لا يمكن أن يدخل فيه جسم آخر، إلاَّ بعد خروج الجسم الأول. والماء ليس يخرج من القمقمة المشدودة الرأس لعدم المنفذ، وقد عاينت قمقمة صغيرة شددنا رأسها ووضعناها في أتون، فما لبثنا حتى انشقت، وخرج كل ما كان فيها نارًا. ومن المعلوم أن الماء الذي كان فيها لم يمازج بأجزائه المتفرقة شيئًا آخر، حدث منه تغير لأن النار لم تكن في القمقمة أولاً ولا دخلت ثانيًا لعدم المنفذ في القمقمة فمن المعلوم أنَّ استحالتها كانت على سبيل التغير في ذاتها إلى الهوائية والنارية لا على سبيل تفرق الأجزاء، فقد أوردت مثالاً يؤيد قول أرسطو طاليس في الكون والتغير من جزئيات الطبيعة، واكتفيت به، فإن بسطه كثير المؤونة، وهذا الفصل قد يجيء فيه اعتراضات كثيرة، فإن تبينت شيئًا منها فيجب أن تمنّ عليَّ بمعاودة السؤال لأشرحه لك إن شاء الله"[٧١].

لكن البيروني اعتراض على هذا الجواب، محاولاً التوضيح أن الحالة التي سأل عنها تتم في وسط مفتوح بينما ابن سينا أجابه عن حالة تتم في وسط مغلق، ومع ذلك أراد البيروني أن يفسّر له حقيقة مثال القمقمة وفق نظريته وهي بأن التمدد يشمل الوعاء والماء وليس الماء فقط، وطالبه بالبرهان على أنه عندما يزيد حجم جسم بسبب التسخين فإنه سيجعل جسم آخر يتناقص حجمه، بحيث لا يظهر خلاء. قال البيروني: " القائل بأن الاستحالة هو تفريق جزئيات الشيء في جزئيات الآخر ليس يقول بأنّ الجسم يطلبُ مكانًا أوسع إذا سخن، بل يقول إنَّ الأجزاء النارية تداخل ذلك الجسم من منافذه ومسامه فتزيد فيها أجزاء نارية، فتزيد كميته لاجتماع الجسمين .وإنَّ القمقمة إذا سخنت تدخل في مسامها أجزاء نارية تمددها فتنشق. والدليل على ذلك أنَّا لم نجد ما خلى صورة المائية ولبس صورة الهوائية إلاَّ إذا تكاثف واجتمع خلع تلك الصورة. فلو كان الماء يصير هواء بالحقيقة لما عاد ماء عند التكاثف، ولما كان هواء، فالعود إلى المائية أحقّ من غيره، وأيضًا فيلزمك أن تبرهن على أنه إذا سخن جسم فتزيد أقطاره أنه يعود في العالم جسم مثله، فتنقص أقطاره مثل الذي زاد ذلك دفعة حتى لا يخلو مكان من متمكن. وإلا فإلى أين تتدافع تلك الزيادة؟ "[٧٢].

لكن ابن سينا لم يقدم برهانه كما وعد بل كلف تلميذه أبو سعيد أحمد بن علي المعصومي للجواب عنه، نافيًا صحة كلام البيروني في تمدد الوعاء، ومؤكدًا صحة كلامه في تحول الماء إلى هواء والعكس صحيح، فكان من المعصومي أن ردّ قائلاً: "وأما إنكارك استحالة العناصر بعضها إلى بعض، وادّعاؤك أن القمقمة المحماة إنما تنشقّ إذا كانت مشدودة الرأس لدخول أجزاء النار فيها فباطل، لأنه لا يخلو إما أن يدخل النار والماء فيه وهذا محال لاستحالة حصول جسمين في مكان واحد، أو يخرج من الماء بقدر ما يدخل من النار، فلا يوجب إذن انشقاق القمقمة، وعلى أنه كيف يجتمع أجزاء النار مع الماء في موضع واحد مع كونها ضدًا له من غير أن يفسد أقواهما الأضعف، ليت شعري؟ وعلى أنه أحالك في هذه المسألة على مواضع لو تصفحتها حصلت على برد اليقين منها. وأما قولك بأنَّا لم نر ماء قطّ خلى صورة المائية إلاَّ إذا تكاثف عاد ماء، فإنَّ أحدًا لم يخالفك في هذا، وهل الاستحالة إلا كما ذكرت؟ وليس أحد يقول: إن الجرم إذا استحال لم يمكنه أن يعود إلى ما كان عليه. ففي الذي أوردته زيادة تأكيد في أنّ الأجرام تقبل الاستحالة أبدًا. وأما انقباض الجرم لانفشاش جرم آخر فمشاهد لأنّ الجرم إذا سخن وانفشّ ضغط ما قرب منه، وحفه من الأجرام كما ترى في البخار الصاعد، وكذلك في الحمَّامات ترى البخار تنفشّ منه الحرارة فيضغط البخارات المتقدمة له ويكثفها على السقف، ويحولها ماء، ولهذا يظهر عليه شبه العرق وعلى أن عدم الخلاء وثبوت استحالات الأشياء يوجب ذلك ضرورة وإنْ لم نشاهده"[٧٣].

حوارية جميلة بين قامتين علميتين كبيرتين كان الهدف منها هو استجلاء الحقيقة وفهم ما يحدث في مسألة التمدد الحجمي الناجم عن الحرارة، والذي يحسم لصالح البيروني الذي كان يفكّر علميًا خارج الصندوق وبعيدًا عن التقليد الأرسطي.

٢/٨-أبو رشيد النيسابوري (القرن ٥هـ/١١م)

يرى أبو رشيد النيسابوري (توفي نحو ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) أن الحرارة والبرودة " لا يدركهما أحدنا إلا بمحل الحياة"[٧٤]. بمعنى أنهما ظاهرتان حسيتان، والحس يستلزم أن يكون الجسم حيًا ليدرك محسوسه. وقد ردّ النيسابوري على من ذكر عدم تحوّل بخار الماء إلى ماء عند ملامسته لسطح بارد، بأن كلامهم غير صحيح، فقد " ذكر في عيون المسائل[٧٥] أن الهواء يستحيل ماءً وتشبيهه ببخار القدر إذا لاقى الطبق، وعند شيوخنا أن الهواء الذي ذكرته لا يصح بل يكون ذلك البخار هواء تجاوره أجزاء رطبة فيها مائية فلذلك إذا لاقى بخارُ القدر الطبق ظهر ما في البخار من أجزاء الماء على الطبق لا لأن الهواء قد استحال ماءً. <و> الذي يدل على فساد ما ذكره أن الهواء لو كان يستحيل ماءً لكان لا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون من فعل الله بالعادة، أو يكون ذلك موجبًا عن مجاورة الأجزاء المائية له، ولا يجوز أن يقال إنه من فعل الله بالعادة ابتداءً لأنه كان يجب أن لا تستمر الحال فيه على طريقة واحدة، ولا يجوز أن يقال إنه يتولد عن مجاورة الماء له لأن المجاورة لا جهة لها فتولد في غير محلها وبعد فليس بأن تكون مجاورة الهواء للماء مقتضية لأن يستحيل الهواء إلى طبع الماء أولى من أن يقتضي أن يستحيل الماء هواء، على أنه كان يجب إذا لاقى الهواء الماء الذي في البخار أن يستحيل ماء، وقد علمنا أن ذلك لا يجب وقد يقضينا الكلام في هذا الجنس في كتاب النقض على أصحاب الطبائع"[٧٦].

والفكرة التي أشار إليها النيسابوري تستحق النظر فيها؛ فقد ميز أولاً بين بخار الماء والهواء، وأن كل منهم كيان فيزيائي مستقل عن الآخر، ولذلك فإن ما يتكاثف ويتحول إلى ماء على الأسطح الباردة حتمًا هو بخار الماء وليس الهواء.

٩/٢-مؤيد الدين الطغرائي (القرن ٦هـ/١٢م)

ارتكز الكيميائي مؤيد الدين الطغرائي (توفي ٥١٣هـ / ١١١٩م) على تعريف أرسطو للحرارة، ثم بحث في أثرها في المعالجة الكيميائية للمواد، فالحطب الذي تسلط عليه النار تجتمع الأجزاء المتماثلة فيه مع بعضها وتنتقل لمرحلة أخرى، إما تصعد أو تترسب.

قال الطغرائي:" اعلم أن قوى البسائط المبحوث عنها والمحتاج إليها أربعة: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة؛ فالحرارة سواء كانت هي المعلومة أو الموجودة بالتدبير عبارة عن كيفية من شأنها تفريق المختلفات وجمع المؤتلفات، فإنها إذا سلكت على جسمٍ مركب من جسدين بارد ورطب وبارد ويابس مثلاً، فإنها لا تزال تجمع أجزاء كل واحدٍ منهما حتى يتم، ثم تميز أحدهما عن الآخر، فتجد البارد الرطب وحده والبارد اليابس وحده وكذا تفعل في كل مختلفين ومتضادين، وأما المؤتلفات فكمثل أجزاء الحار اليابس الدقيقة المتفرقة في جرمِ الشيء المركب منه ومن غيره، أي المتبددة في أقطاره ومساحة جرمه فإنها عند إحساسها بالحرارة وتسليطها على المركب لا تزال تجتمع وتنضم مع بعضها بعضًا إلى أن تستكمل كلها وتستخلص من الجسم الذي هي فيه وتصعد إن كانت قابلة للصعود، وتركد إن كانت قابلة للركود وهكذا إذا كان الأمر على مثل إلى أن يتبقى من المركب الذي سلطت عليه الحرارة أرضه وجسده وأتفاله باقية وحده غير مشوبة بشيء من غيره، مثال ذلك: أن الحطب الذي سلطت عليه النار العنصرية لا يزال تجتمع فيه الأجزاء المتماثلة بعضها من بعض من مساحة جرمه طولاً وعرضًا وتجتمع جملةً وتصعد أدخنة حاملةً لأرواحه إلى أن لا يبقى فيه شيء مما هو قابل للصعود حتى يخرج منه فيبقى جسده وتفله أرضًا ميتةً لا روح فيها أبدًا وهو الرماد، فهذا معنى كون الحرارة تفرّق المختلفات وتجمع المؤتلفات"[٧٧].

ويميز الطغرائي بين تحول المادة إلى مادة أخرى كفعل فيزيائي (استحالة)، وبين تحلل المادة وفسادها كفعل كيميائي فيقول: "اعلم أن الاستحالة غير الكون والفساد والفرق بينهما أن الاستحالة حركة في الكيف مع بقاء الصورة النوعية بعينها، مثاله حركة الماء عند التسخين من البرودة إلى الحرارة فهذا الجسم المائي الذي تحرّك من البرودة الذاتية إلى الحرارة العرضية باقٍ بعينه مع زوال كيفيته وهي البرودة. ويفرّق بينهما من وجه آخر هو أن الجسم المستحيل في كيفيته لا تزول كيفيته رأسًا، وبالحقيقة، بل إنما تستتر بحسب قوة الضدّ الوارد عليها فتهرب البرودة مثلاً من النار إلى باطن الجسم وتبقى الحرارة إلى حين تغلب عليها البرودة الذاتية فتكسرها وتخرجها من محلها وتحل البرودة في جسدها كما كانت، وأما لو كانت الكيفيات تزول رأسًا في الاستحالات لما عادت أبدًا"[٧٨].

ثم ينبه إلى أن ما تفعله الحرارة هو تحليل الجسم إلى الأجزاء التي يتركب منها، لكن لهذا التحليل حدود، إذْ لا يمكن للحرارة أن تحليل الأجسام البسيطة وإنما فقط تحلل الأجسام المركّبة من عناصر عديدة. ومع وجود تناقض بين كلامه وكلام أرسطو في تعريف قدرة الحرارة، إلا أنه يحاول أن يتجنب الحديث في ذلك، فماذا لو أن المركب كان من عناصر متماثلة وليست مختلفة، عندها فإن الحرارة ستعمل على تفريق المتماثلات وليس تجميعها. التناقض نفسه سبق وأن شعر به ابن سينا لكنه كابر وحاول الدفاع عنه، حتى يتجنب الكثير من الانتقادات التي يمكن أن تواجه منظومته الفكرية والفلسفية برمتها.

"قد علمت مع غاية البيان مما ذكرناه في ذلك أن أول شيء يحدث في المركّب من الحرارة هو التحليل، إذْ ليس معنى للتحليل إلا تفصيل المركب إلى أجزائه التي يتركب منها وتفرقها، واستبان أيضًا مما ذكر أن التحليل لا يكون ولا يمكن أن يكون بشيء سوى الحرارة، واستبان أيضًا بالضرورة أنه لا يمكن أن يكون التحليل في غير المركبات فلا يمكن التحليل في البسائط لأنها ليست ذوات أجسام لها أجزاء أولية تتركب منها، فلذلك لا يكون التحليل في صناعتنا هذه إلا في أول التدبير والحجر باقٍ على تركيبه ثم في أول القسم الثاني من التدبير يحتاج أيضًا إلى تحليله لأنه يكون هناك قد جمعت إليه أجزاؤه وبسائطه التي أخذت منه"[٧٩].

يشكر للطغرائي انتباهه إلى وجود علاقة بين الزمن والحرارة في أثناء تأثيرها على المادة، خصوصًا لدى تقطير أي مادة، وقد وجد أن هذه العلاقة عكسية حيث إنّ " ما تفعله الحرارة الهائلة في الزمن القصير، تفعله الحرارة الضعيفة في الزمن الطويل. ومن ضوابط الحكمة في هذا الباب أنّ الحرارة الضعيفة تفعل في الزمن الطويل ما لا تفعله الحرارة الكبيرة في الزمن اليسير"[٨٠].

١٠/٢-القاضي الساوي (القرن ٦هـ/١٢م)

شرح القاضي زين الدين عمر بن سهلان الساوي[] مقولة "المُلك" من المقولات العشر لأرسطو[٨١]، والتي تعني وجود هيئة حاصلة للشيء مقارنةً بما يحيط به، وتنتقل هذه الهيئة بانتقاله. ثم ضرب عليها أمثلةً من تأثير الحرارة على الأجسام، وكيف أنّ هذا التأثير مؤقت وليس دائم، وعلى هذا فإن المصدر الحراري يقوم بدور الفاعل ما دام يسخّن جسم ويؤثر في حالته لكن دون أن يتحول إلى جسمٍ آخر. مثلاً يتملك الماء حالة

التسخين عندما نضع على موقد، فالنار هي الفاعل والماء هو المفعول به.

قال القاضي الساوي: "وأما الملك فهو نسبة الجسم إلى حاصر له أو لبعضه منتقل بانتقاله كالتسلح والتقمص والتنعل والتختم. فمنه جزئي كهذا التسلح، ومنه كلي كالتسلح، ومنه ذاتي كحال الهرة عند إهابها، ومنه عرض كحال الإنسان عند قميصه. وأما أن يفعل فهو تأثير الجوهر في غيره أثرًا غير قار الذات فحاله ما دام يؤثر هي أن يفعل، وذلك مثل التسخين ما دام يُسخّن، والقطع ما دام يقطع، والتبريد ما دام يبرد. وأما أن ينفعل فهو تأثر الشيء من غيره ما دام في التأثر كالتسخن والتبرد والتقطع، وإنما اختير لهما أن يفعل وأن ينفعل دون الفعل والانفعال قد يقالان للحاصل المستكمل القار الذات الذي انقطعت الحركة عنده، كما إذا قطع شيئًا ووقفت حركته فيقال هذا القطع منه، وكذلك يُقال في هذا الثوب احتراق بعد استقراره وحصوله، وقد يقالان حينما يقطع هذا ويحترق ذاك"[٨٢].

٢/١١-هبة الله بن ملكا البغدادي (القرن ٦هـ/١٢م)

وضع ابن ملكا تفسيره لظاهرة تصدع القارورة التي تتعرض للحرارة، وقد وجد أن سبب ذلك هو التمدد الحراري الحجمي وليس ظهور الخلاء. إذْ حاول أصحاب الخلاء من اليونانيين أن يثبتوا وجود الخلاء بوساطة ظاهرة (النماء) في الأجسام النامية، والتي تحدث نتيجة دخول جزيئات الغذاء بين أجزاء الجسم، إذْ لابد أن يكون لهذه الجزيئات فراغات تنفذ من خلالها وتستقر في ثناياها، فيحصل النمو[٨٣]. وقد رد أرسطو عليهم قائلاً: " يمكن أن ينمَّى الجسم ليس من قبل أن شيئًا داخله فقط، بل قد ينمَّى بالاستحالة أيضًا. مثال ذلك كون الهواء في الماء .. وقد يجب أن يكون الجسم كله خلاء إذا كان بأسره ينمى، وكان النماء إنما يكون بتوسط الخلاء"[٨٤]. أي أنه لا يشترط لحدوث النمو وجود جزيئات خلائية تتداخل مع جزيئات الغذاء، وثمة أمر آخر وهو أن النمو يشمل كامل الجسم وفي كل الاتجاهات. وقد طرح المشاؤون مثالاً يؤيد ما ذهبوا إليه: إذا كان لدينا قارورةً فيها ماء فإنها تتصدع إذا ما سخّن هذا الماء سخونةً شديدة، لأن الحرارة تجعله يستحيل إلى بخار داخل الماء فيزيد حجمه ولا يبقى أي له أي فراغ مما يسبب بتصدع القارورة[٨٥].

هنا وجه أبو البركات نقده لما طرحه المشاؤون، ومن بينهم ابن سينا، حول زيادة حجم القارورة وتصدعها، فهو يرى أن صعود الماء بعد تسخينه هو سبب التصدع، لأن الماء لا يصعد دفعةً واحدة وإنما بشكل تدريجي من المركز إلى المحيط، ويكون هناك بعض الأجزاء الثابتة، فيحدث بين الصاعد والثابت تجاذب هو سبب التصدع في القارورة، وليس الزيادة في حجم الماء[٨٦].

٢/١٢-ابن رشد (القرن ٦هـ/ ١٢م)

يعتبر ابن رشد أن الحرارة تغير من حالة الجسم حسب ما يتهيأ له أن يتغير إليه، مثل الطعام الذي يتغير بعد هضمه في معدة الإنسان بتأثير الحرارة عليه، يقول: " كل حرارة تغير الشيء الواحد إلى ما في طبعها أن تغيره، كما أن كل غذاء يتغير عن الحرارة الواحدة إلى ما في طبعه أن يتغير"[٨٧]. وقد لاحظ ابن رشد أن التبخر يزداد مع زيادة مساحة السطح الذي يوضع عليه الماء أمام أشعة الشمس الحارة، " وقد يقول قائل ما بال الزيادة التي تكون في البحار من الأنهار لا تظهر في البحار إذا كانت مستقرة المياه، فنقول: إن السبب في ذلك عرض البحر وسعته وانتشار الماء الواقع فيه مع التحلل الذي يكون في جميع أجزاء البحر من حرّ الشمس. ومثال ذلك: لو أنّ أحدًا أخذ قدحًا مليئًا من ماء ثم صبّه في موضع مستوٍ واسع حتى لا يكون لذلك الماء في ذلك الموضع يسير يجف على الفور بخلاف ما كان يعرض له إذا كان مجموعًا في القدح"[٨٨]. وهذا النص فيه تحديد مبكر لأحد العوامل المؤثرة في سرعة التبخر، أما بقية العوامل فهي درجة الحرارة والرطوبة النسبية والرياح ونوعية الماء والضغط الجوي.

ويعرّفنا ابن رشد بإحدى الحالات التي تؤثر فيها الحرارة على الرطوبة الكامنة في الجسم وهي حالة الشيّ بأنها "المبالغة في الحرارة واليبس. والأشياء المشوية الحرارة الظاهرة فيها أقوى من الباطنة، والنضيجة الحرارة الباطنة فيها أقوى من الحرارة الظاهرة. والأشياء إنما يعرض لها الاشتواء من قبل علتين: إحداهما: يبس هيولاها، والثانية: شدة الحرارة مثلما يعرض للأشياء اليابسة الهيولى إذا دنت من النار. وعدم الاشتواء يعرض لعلتين: إحداهما: قلة الحرارة الواردة عليه من خارج، أعني الغريبة. والثانية كثرة المائية المخالطة للشيء المنفعل"[٨٩]. أي أن ابن رشد ميّز بين حالة الأجسام التي تتعرض للشوي وتلك التي تتعرض للطبخ، ويحدث شيّ للجسم بسبب جفاف مادته وشدة الحرارة التي يتعرض لها من النار، ويمكن ألا يحدث اشتواء للجسم بسبب ضعف الحرارة التي يتعرض لها الجسم وكثرة الرطوبة المائية التي بداخله.

٢/١٣-فخر الدين الرازي (القرن ٧هـ/ ١٣م)

يرى الإمام الرازي (توفي ٦٠٦هـ/١٢٠٩م) في كتابه (المباحث المشرقية) أن " الجسم يسخن فيزداد حجمه من غير انضمام شيء إليه ولا وقوع خلاء بين أجزائه لاستحالة الخلاء، ويبرد فيصغر حجمه من غير انتقاص شيء من أجزائه أو زوال خلاء كان قبل ذلك، وذلك الجسم في حد جسميته محفوظ والجسم المحفوظ مغاير لهذه الأمور المتبدلة"[٩٠]. بمعنى إذا زاد حجم الجسم بتأثير الحرارة أو نقص بتأثير البرودة فإن كتلة الجسم ومادته تبقى محفوظة دون تغيير، وهي فكرة كان ابن سينا قد طرحها من قبل.

ويبدو من كلام الإمام أنه يتبنى الرأي الأرسطي المتعلق بتأثير الحرارة على المادة، فهي تلطف وترقق وتخلخل وتكاثف المادة التي تدخلها. قال الإمام الرازي: " التلطيف والترقيق فهي مفيدة للتخلخل الذي من باب الكيف ومن حيث إنها تجمع بين المتشاكلات وتفرق بين المختلفات فهي مفيدة للتكاثف الذي من باب الوضع الذي هو عبارة عن اجتماع الأجزاء الوحدانية بالطبع وخروج الجسم الغريب عما بينها. (واعلم) أن قولنا تجمع المتشاكلات معناه أنها تجمع ما ليس بمجتمع والبسيط مجتمع الأجزاء فاذا هذا الجمع والتفريق غير معتبر بالقياس إليه بل بالقياس إلى جسم فيه مختلفات مجتمعة وهذا هو المركب"[٩١].

٢/١٤-ابن كمونة (القرن ٧هـ/١٣م)

يرى سعد بن منصور بن كمونة (توفي ٦٨٣هـ/١٢٨٤م) أن سبب حدوث التحول في طور المادة من حالةٍ إلى أخرى يكون إما بتعريض الجسم للحرارة أو بسبب الحركة، وقوله بالحركة يعتبر سبب جديد لاستحالة المواد من شكل لآخر، كما هو الحال في الماء الذي نقوم بخضّه. يقول ابن كمونة في ذلك: " أما الاستحالة فسببها فيما تعلم، وإن احتمل غيره مما لا تعلمه، وهو مجاورة أو مماسة أو مقابلة أو حركة. (كما) يتسخن الماء مثلاً بمجاورة النار، أو بمماستها، أو بمقابلة الشمس. أو بتحريكه بالخضخضة، وليس تسخينه، لأن أجزاء نارية فشت فيه، وإلا لكان تسخن ما في كوز خزف أسرع من تسخن ما في قمقمة نحاس، على نسبة قبولهما ومسامهما"[٩٢].

٢/١٥-ابن العبري (القرن ٧هـ/ ١٣م)

تناول أبو الفرج بن العبري (توفي ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) في (مقالة مختصرة في النفس البشرية)[٩٣] أقسام الحركة وقد أشار إشارةً مهمة إلى أن التكاثف يترافق معه انخفاض في الحرارة، أو بمعنى آخر يتناسب تكاثف المادة عكسًا مع انخفاض درجة الحرارة. قال ابن العبري: " اعلم أن أقسام الحركة أربعة يقع منها اثنان في مقولة (الكم) وذلك مثل الحركة الواقعة في الجسم النامي من جهة الزيادة فيعظم مقداره مع التدرج وكذا من جهة النقصان يصغر مقداره بالتدرج ... وإن كانت الحرارة إلى النقصان فهو التكاثف ... "[٩٤].

٢/١٦-عضد الدين الإيجي (القرن ٨ هـ/ ١٤م)

كان الإيجي يدرك وجود بعض المواد التي تفعل الحرارة فيها فعلها، مثل النشادر حيث تغلب العناصر اللطيفة العناصر الثقيلة فتسبب الحرارة تفريقها، وإذا غلبت العناصر الكثيفة في المادة لم تتأثر بالحرارة مثل مادة الطلق. يقول الإيجي في ذلك: "وليس عدم الفعل لوجود العائق دليلاً على أن النار ليست فيها قوة التفريق وإن غلب اللطيف جدًا فيصعد ويستصحب الكثيف لقلته كالنوشادر، أو لا فتفيده تليينًا كما في الحديد وإن غلب الكثيف جدًا لم يتأثر كالطلق. تنبيه الفعل الأول لها التصعيد والجمع والتفريق لا زمان له، ولذلك قال ابن سينا في الحدود إنها كيفية فعلية محركة لما تكون فيه إلى فوق لإحداثها الخفة فيحدث عنه أن تفرق المختلفات وتجمع المتماثلات وتحدث تخلخلاً من باب الكيف وتكاثفًا من باب الوضع لتحليله الكثيف وتصعيده اللطيف، وربما يورد عليه أنه قد تفرق المتماثلات كإجراء الماء وتصعدها بالتبخير فقد تجمع المختلفات كصفرة البيض وبياضه، ويجاب بأن فعلها في الماء إحالة له إلى الهواء لا تفريق وفي البيض إحالة في القوام لا جمع وستفرقه عن قريب"[٩٥].

ويجزم الإيجي قاطعًا بوجود فرق بين طبيعة الماء وطبيعة النار، ونتيجةً لذلك يختلف أثر كل منهما على المادة التي يؤثران عليها، فيقول: " أنا لما رأينا الماء يوجب البرودة والنار توجب السخونة قطعنا بأن طبيعة النار غير طبيعة الماء ضرورة، أي قطعًا يقينيًا لا شبهة فيه. فقد استدللنا باختلاف الأثر وتعدده على اختلاف المؤثر وتعدده، فلولا أنه مركوز في العقول أن اختلاف الأثر وتعدده لا يكون إلا باختلاف المؤثر وتعدده لما كان الأمر كذلك، فظهر أنه كلما تعدد المعلول تعددت العلة وينعكس بعكس النقيض إلى قولنا كلما اتحدت العلة اتحد المعلول وهو المطلوب"[٩٦].

٢/١٧-التفتازاني (القرن ٨هـ/ ١٤م)

بقي التفتازاني مثل كل المشائين يفسّر أثر الحرارة بتحويل الماء إلى هواء والهواء إلى نار ولم يضف أي جديد في هذا الموضوع: " ما يتأثر عن الحرارة فإن كان بسيطًا استحال أولاً في الكيف ثم أفضى به ذلك إلى انقلاب الجوهر فيصير الماء هواء،

والهواء نارًا، وربما يلزمه تفريق المتشاكلات بأن يميز الأجزاء الهوائية من الماء، ويتبعها ما يخالطها من الأجزاء الصغار المائية، وإن كان مركبًا فإن لم يشتد التحام بسائطه ولا خفاء في أن الألطف أقبل للصعود لزم تفريق الأجزاء المختلفة وتبعه انضمام كل إلى ما يشاكله بمقتضى الطبيعة، وهو معنى جمع المتشاكلات، وإن اشتد التحام البسائط، فإن كان اللطيف والكثيف قريبين من الاعتدال حدثت من الحرارة القوية حركة دورية لأنهما كلما مال اللطيف إلى التصّعد جذبه الكثيف إلى الانحدار، وإلا فإن كان الغالب هو اللطيف يُصَعَّد بالكلية كالنوشادر، وإن كان هو الكثيف فإن لم يكن غالبًا جدًا حدث تسييل كما في الرصاص، أو تلين كما في الحديد، وإن غالبًا جدًا كما في الطلق حدث مجرد سخونة، واحتيج في تليينه إلى الاستعانة بأعمال أخر، وعدم حصول التصعد، أو التفرّق بناءً على المانع، لا ينافي كون خاصتها التصعّد، وتفريق المختلفات وجمع المتشاكلات"[97].

٢/١٨-حسين الميبدي (القرن ٩هـ/ ١٥م)

ميّز حسين بن معين الدين الميبدي (٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م) في شرحه على كتاب (هداية الحكمة) لأثير الدين مفضل بن عمر الأبهري (توفي ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م) بين ثلاث حالات تؤثر فيها الحرارة على حالة المادة:

– الأولى: تحول الماء بوجود الحرارة إلى بخار.

– الثانية: تحول الهواء إلى نار، كما هو الحال في كور الحدادين.

– الثالثة: تحول النار إلى هواء، كما هو الحال في مصباح الزيت.

قال حسين الميبدي: " والماء أيضًا ينقلب هواء بالحر الشديد، كما يشاهد في الثياب المبلولة المطروحة في الشمس وعند غليان القدر، وكذا الهواء ينقلب نارًا كما في كور الحدادين، إذا سدت المنافذ التي تدخل فيها الهواء الجديد وألح في النفخ. والنار أيضًا يقلب هواء كما في المصباح فإن ما ينفصل عن شعلته ولو بقيت له نار لرؤيت ولأحرقت سقف الخيمة فإذن انقلب هواء، وأيضًا الكائنة في كور الحدادين ينطفئ وتصير هواءً"[98].

٢/١٩-الأحمد نكري (القرن ١٢هـ/ ١٨م)

مع أن الأحمد نكري ميز اصطلاحيًا في كتابه (دستور العلماء) بين "التغيير: من باب التفعيل؛ إحداث شيء لم يكن قبله". و"التغيّر: من باب التفعّل؛ انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى"[99]. إلا أننا لا نجده يطبّق هذا التمييز عندما حاول أن يشرح آراء السابقين في حالة الدخان، فقد عرّف الدخان بأنه: "أجزاء نارية تخالطها أجزاء صغار أرضية تلطفت بالحرارة لا تمايز بينهما في الحس لغاية الصغر. وقولهم: أجزاء يشمل البخار وجميع البسائط والمركبات. وبقولهم: نارية يخرج البخار وباقي البسائط ومجموع المركبات. وبقولهم: تخالطها أجزاء صغار أرضية يخرج النار البسيطة لأنه لا مخالطة فيها أصلاً. وبقولهم: لا تمايز بينهما في الحس يخرج النار المجاورة لوجه الأرض فإن بينهما مخالطة في الجملة لكنهما متمايزان في الحس"[100].

٢/٢٠-محمد فضل الحق (القرن ١٣هـ/ ١٩م)

محمد فضل الحق من علماء خير آباد في الهند (توفي ١٢٧٨ هـ/١٨٦١م) مع أن عمله نشر في القرن التاسع عشر إلا أنه بقي يناقش أفكار ابن سينا والإمام فخر الدين الرازي، وليس ما طرحه الغرب من أفكار ونظريات ومعالجات رياضياتية. فقد عالج في كتابه (الهدية السعيدية في الحكمة الطبيعية) العلاقة بين كثافة الجسم وحرارته فقال:" وأما أن الأرض باردة فلأنها كثيفة وما ذلك إلا لأجل البرودة، فهي أبرد من الماء لأنها أكثف منه وإن كان الإحساس ببرودة الماء أشد لفرط وصوله إلى المسام ونفوذه في الأعضاء، كما أن النار أسخن من النحاس المذاب مع أن الاحساس بحرارة النحاس المذاب أشد فإن اليد إذا مرّت على النار بسرعة سلمت وإن مرت على النحاس المذاب احترقت"[101]. ويفسّر سبب تحول النار لهواء " فلأن النار المنفصلة عن شعلة السراج لو بقيت نارًا لزييت ولأحرقت الخيمة والسقف فهي تنقلب هواء، وكذا النار الكائنة في كور الحدادين إذا خمدت تصير هواء. وأما عكسه فكما في كور الحدادين إذا سدت منافذ الهواء الجديد وألحّ في النفخ في الكير والقول بأنه يجوز أن يتسخّن الهواء تسخنا شديدًا يعمل عمل النار كما أن السموم تنضج الأبدان وتحرقها مكابرةً تكذبها المشاهدة"[102].

٢/٢٠-عربي مجهول (القرن ؟)

لاحظ عالم عربي مجهول في كتابه (عن النفي والإيجاب في تصحيح الحكمة[103]) أيضًا في أثناء تجاربه ضرورة عدم سكب الماء البارد على الزجاج الحار حتى لا ينكسر بسبب الانكماش المفاجئ، فقال في إحدى تجاربه:" تبني لك كانون على علو ذراع وثلث وتدع عليه طاجن[104] مبخّش عدة بخوش وتملأه سحالة دقيق القمح مبسوسة بالماء، وفي الطاجن بخش لتصب منه الماء من خارج إذا نقص، ويكون الماء حارًا والحذر من الماء البارد لئلا يتكسّر الزجاجة"[105].

خَاتِمَةٌ

لقد وجدنا من خلال هذا البحث أن العلماء العرب والمسلمين قد صاغوا تعريفات أكثر دقة ووضوح لمفهوم الحرارة من اليونانيين، كما أنهم درسوا مختلف الحالات التي تؤثر فيها الحرارة على المادة وتحولها من طور لآخر، وقام بعضهم باعتماد النظريات اليونانية في تفسيرها، في حين أن البعض الآخر خرج عن طروحات الفكر الأرسطي في تفسيرها وقدم رؤىً جديدة، نرى أنها تستحق أن تأخذ مكانتها في تاريخ علم الحرارة. خصوصًا وإذا علمنا أن دراسة تأثير الحرارة على حالات المادة لم يبدأ عند الأوربيين إلا منذ القرن السابع عشر الميلادي، حيث إن النظرية الذرية بدأت تشق طريقها في أوساط المجتمع العلمي. ووجد الكثير من العلماء أنه يمكن الاعتماد عليها في تفسير ما يحدث عندما تتعرض المواد للحرارة.

ويبدو أن أول من حاول تفسير تمدد الأجسام بالحرارة هو فرنسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦م) F. Bacon[١٠٦]، ثم لحق به بيير غاسندي (١٥٩٢-١٦٥٥م) P.Gassendi، وقد ادعت الموسوعة البريطانية على موقعها في الشابكة (الانترنت) أن روبرت هوك (١٦٣٥–١٧٠٣م) R. Hooke أول شخص يعلن عن تمدد الأجسام[١٠٧]، وهو إجحاف بحق كل العلماء السابقين له ومن كل الحضارات، حتى الأوربيين أنفسهم. وقد تمكن الفيزيائي الألماني يوهان غوتليب ليدنفروست (١٧١٥-١٧٩٤م) J. G. Leidenfrost من تفسير ظاهرة تحبب كرات الماء الساقطة على سطح ساخن[١٠٨]، أما هنري كافندش (١٧٣١-١٨١٠م) H. Cavendish فقد حاول تفسير تأثيرات الحرارة اعتمادًا على ما يحدث بين الذرات من تجاذب وتنافر وفق المفهوم النيوتوني[١٠٩]، وأخيرًا قدم الفيزيائي الفرنسي لويس جوزيف غي-لوساك (١٧٧٨-١٨٥٠م) L. J. Gay-Lussac عرضًا دقيقًا للقانون الخطي للتمدد الحراري للغازات، وعلى التوازي توصل جون دالتون (١٧٦٦-١٨٤٤م) J.Dalton أن كل السوائل المرنة تحت الضغط نفسه تتمدد بصورة متساوية بالحرارة[١١٠].

الاحالات المرجعية:

(١) دبس، محمد، **معجم أكاديميا للمصطلحات العلمية والتقنية**، دار أكاديميا، بيروت، ١٩٩٣م. ص ٢٧٧، ٣٣٨.

(٢) كوفمان، كاثي، **الطبخ في الحضارات القديمة**، ترجمة: سعيد الغانمي، ط١، مشروع كلمة، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، ٢٠١٢م، ص٣٥.

(٣) الزحيلي، وهبة، **التفسير المنير**، ج١٦، ط٢، دار الفكر المعاصر، دمشق، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م. ص ٢٤٣.

(٤) سورة طه الآياتين: ٥١-٦١.

(٥) دولتن، جسي وهيل، فرانسيس، **ديناميات الحرارة للمهندسين**، ترجمة: صالح نجم ومأمون الأطرقجي وفائق حمد، جامعة البصرة، البصرة، ١٩٨٨م. ص ٦٩.

(٦) كرم، يوسف، **تاريخ الفلسفة اليونانية**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٦م، ص ١٥.

(٧) عطيتو، حربي عباس، **الفلسفة القديمة**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (د.ت.)، ص ١٥٨.

(٨) بدوي، عبد الرحمن، **الأفلاطونية المحدثة عند العرب**، أفلاطون: الروابيع، ط٢، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٧م، ص ٢٠٥.

(٩) بدوي، عبد الرحمن، **شروح على أرسطو مفقودة في اليونانية (ورسائل أخرى)**، دار المشرق، بيروت، ١٩٧١م. ص ١٦٣.

(١٠) الدمرداش، أحمد سعيد، **علم الفيزيقا عند العرب**، بحث منشور ضمن **موسوعة الحضارة العربية الإسلامية**، ط١، ج١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٥م، ص ٣٧٣.

11 Cajori, Florian, On the History of Caloric, Isis, Vol. 4, No. 3 (Apr., 1922), Chicago Uni. p. 483.

(١٢) جابر بن حيان، **مختار رسائل جابر بن حيان**، عني بتصحيحها ونشرها: بول كراوس، مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٩٣٥م. ص ٤٧٤.

(١٣) جابر بن حيان، **مختار رسائل جابر بن حيان**، ص ١٠٤.

(١٤) إخوان الصفا، **رسائل إخوان الصفا**، ج٣، ص ٣٨٦.

(١٥) الأعسم، عبد الأمير، **المصطلح الفلسفي عند العرب**، ط٣، دار كيوان دمشق، دار التنوير بيروت، ٢٠٠٩م. ص ١٩١.

(١٦) المرجع السابق نفسه، ص ٢٥٦.

(١٧) الآمدي، سيف الدين، **كتاب المبين في شرح معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين**، تحقيق: حسن محمود الشافعي، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٩٩.

(١٨) الطوسي، نصير الدين، **كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد**، شرح: جمال الدين الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر المشتهر بالعلامة الحلي، تحقيق: آية الله حسن زاده الآملي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٦م. ص ٣١١.

(١٩) ابن كمونة، **الجديد في الحكمة**، تحقيق: حميد مرعيد الكبيسي، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٢م، ص٣٤٧-٣٤٨.

(٢٠) التفتازاني، سعد الدين، **شرح المقاصد في علم الكلام**، ج٢، تحقيق: عب الرحمن عميرة، عالم الكتب، ط٢، بيروت،١٩٩٨م، ص ٢٢٩-٢٣٠.
(٢١) الأحمد نكري، عبد النبي بن عبد الرسول، **دستور العلماء**، ج٢، ط١، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٢٠.
(٢٢) آل ياسين جعفر، **الفارابي في حدوده ورسومه**، عالم الكتب، ط١، بيروت، ١٩٨٥م. ص ٢٠٨.
(٢٣) أبو البركات البغدادي، **المعتبر في الحكمة**، ط١، ج٢، حيدر آباد، ١٣٥٨هـ. ص 197.
(٢٤) الرازي، فخر الدين، **المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعيات**، ج١، منشورات بيدار- قم، الطبعة: الثانية، ١٩٩٠م. ص ١٦١-١٦٢.
(٢٥) المرجع السابق نفسه، ص ٥٩١.
(٢٦) سارتون، جورج، **تاريخ العلم**، ج١، ترجمة: لفيف من العلماء، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٢١٠.
(٢٧) المرجع السابق نفسه، ص ٢١٠.
(٢٨) مطر، أميرة حلمي، **الفلسفة اليونانية**، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٣٨٠.
(٢٩) أرسطو، **الكون والفساد**، ترجمة: أحمد لطفي السيد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٤م، ص٢٠٠.
(٣٠) شوقي، جلال، **أصول الحيل الهندسية في الترجمات العربية**، ط١، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٩٥. ص ٤٨.
(٣١) بلينوس الحكيم، **سر الخليقة وصنعة الطبيعة**، تحقيق: أورسولا وإيسر، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، حلب، ١٩٧٩م، ص ١٩٧.
(٣٢) فيدمان، إيلهارد، بحث ضمن مجموعة مقالات في **تاريخ العلوم العربية والإسلامية**، مجلدا، جمع وإعداد: دوروتيه جيركه وديتر بيشوف، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، فرانكفورت، ١٩٨٤م، حيث عنوان البحث: Wiedemann, Eilhard, Über die Naturwissenschaften bei den Arabern ,1890, p98.
(٣٣) الدمرداش، أحمد سعيد، **علم الفيزيقا عند العرب**، ص ٣٧٧.
(٣٤) محمد، محمود الحاج قاسم، **الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به**، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٤م. ص ٧٢.
(٣٥) جابر بن حيان، **مختار رسائل جابر بن حيان**، ص ٤٥٢.
(٣٦) **ميزان الحكمة**، **الخازني**، حققه وعلق عليه: فؤاد جميعان، شركة فن الطباعة، القاهرة، ص ٩٨.
(٣٧) سورة الحج، الآية: ٥.
(٣٨) بيرثيلو، **هذه رسائل مهمة في العلوم الكيمياوية والصنعية لجابر بن حيان وغيره من الحكماء والفلاسفة**، باريس، المطبعة الدولية، ١٨٩٣م، ص ٢٠٣.
(٣٩) جابر بن حيان، **مصنفات في علم الكيمياء**، ج١، تحقيق: أرك يحيى هولميارد، باريس، مطبعة فول غاتينيه، ١٩٢٨م. ص ٢٩.
(٤٠) المرجع السابق نفسه، ص ٣١.
(٤١) الكندي، **رسائل الكندي**، ج٢، ص ٧١.
(٤٢) آل ياسين جعفر، **الفارابي في حدوده ورسومه**، عالم الكتب، ط١، بيروت، ١٩٨٥م. ص 279.
(٤٣) المرجع السابق نفسه، ص ٣٤٢.
(٤٤) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، **التنبيه والأشراف**، ج٧، تحقيق: م.ي. دي. خويه، إعادة طبعة ليدن، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ١٩٩٢م. ص ١١-١٢.
(٤٥) انظر: المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج١، ط١، اعتنى به وراجعه: كما حسن مرعي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ٢٠٠٥م، ص ٨٩-٩٢.
(٤٦) إخوان الصفا، **رسائل إخوان الصفا**، ج٢، ص ٤٦.
(٤٧) المرجع السابق نفسه، ص ٤٦.
(٤٨) المرجع السابق نفسه، ص ٤٨.
(٤٩) المرجع السابق نفسه، ج٣، ص ٥٤-٥٥.
(٥٠) فروخ، عمر، **بحوث ومقارنات في تاريخ العلم وتاريخ الفلسفة في الإسلام**، ط١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٦م. ص ٩٦.
(٥١) ابن سينا، **النجاة**، ص ١٨٤.
(٥٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٨٤.
(٥٣) البرد الشديد.
(٥٤) ابن سينا، **الإشارات والتنبيهات**، ص ٣١٠-٣١١.
(٥٥) ابن سينا، **الشفاء**، تحقيق: محمود سالم، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٩م. ص ١٦٠.
(٥٦) المرجع السابق نفسه، ص ١٦٨.
(٥٧) ابن سينا، **أجوبة مسائل سأل عنها أبو ريحان البيروني**، ضمن مجموعة رسائل ابن سينا، ج٢، مطبعة إبراهيم خروز، إستنبول، ١٩٥٣م. ص٢٩.
(٥٨) ابن سينا، **النجاة**، ص ١٨١-١٨٨.
(٥٩) المرجع السابق نفسه، ص ١٨٨-١٨٩.
(٦٠) الدمرداش، أحمد سعيد، **علم الفيزيقا عند العرب**، ص ٣٧٧.
(٦١) ابن سينا، **الشفاء**، ص ٢٣٦.
(٦٢) ابن سينا، **كتاب المباحثات**، مستل من كتاب أرسطو عند العرب، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، ط٢، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٨م، ص ١٤١.
(٦٣) ابن سينا، الشفاء، **الطبيعيات**، **النفس**، تحقيق: جورج قنواتي وسعيد زايد، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م. ص ٢٢٩.
(٦٤) ابن سينا، الشفاء، **الكون والفساد**، تحقيق: محمود سالم، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٩م. ص ١٦٩.
(٦٥) الشحات، علي أحمد، **أبو الريحان البيروني**، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٨. ص ٢٠٠.
(٦٦) البيروني، أبو الريحان، **القانون المسعودي في الهيئة والنجوم**، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن بالهند، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م. ص١٦٦.

(٦٧) البيروني، أبو الريحان، **رسائل البيروني**، ط١، الهند، حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس المعارف العثمانية، ١٩٤٨م. ص ١٧.
(٦٨) أشار البيروني إلى هذه المراسلات في كتابه (**الآثار الباقية عن القرون الخالية**) طبعة ليبزيغ، ١٨٧٨، ص ٢٥٧.
(٦٩) اليافي، عبد الكريم، **حوار البيروني وابن سينا**، ط١، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢م، ص ٥٦.
(٧٠) ابن سينا، **الإشارات والتنبيهات**، ج٢، تحقيق: سليمان دنيا، ص ٢٩٨.
(٧١) اليافي، عبد الكريم، **حوار البيروني وابن سينا**، ص ٥٧-٥٨.
(٧٢) المرجع السابق نفسه، ص ٧٠-٧١.
(٧٣) المرجع السابق نفسه، ص ٨٥.
(٧٤) النيسابوري، أبو رشيد، **ديوان الأصول**، تحقيق: محمّد عبد الهادي أبو ريدة، نشر المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، (د.ت). ص ٥٩٨.
(٧٥) لم نستطع معرفة من مؤلف هذا الكتاب، إذْ يوجد الكثير من المؤلفات التي تحمل العنوان نفسه.
(٧٦) النيسابوري، أبو رشيد، **كتاب المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين (الكلام في الجواهر)**، تحرير: آرثر بيرما، ليدن، ١٩٠٢م، ص ٣٧-٣٨.
(٧٧) الطغرائي، **مخطوطة مفاتيح الرحمة وأسرار الحكمة**، نسخة مكتبة الكونغرس، ص ٥٦و-٥٦ظ.
(٧٨) الطغرائي، **مخطوطة مفاتيح الرحمة وأسرار الحكمة**، ص ٣٦و.
(٧٩) المرجع السابق نفسه، ج١، ص ٥٦ظ.
(٨٠) المرجع السابق نفسه، ج٢، ص ٩٣و.
(٨١) "لقد درس أرسطو مظاهر المعرفة التي توصل إليها عصره، فوجدها تقوم على عشرة أسس، منها ينطلق الفكر المستقيم في اتجاهه نحو التعميم، وعليها يبنى، فجمعها وشرحها شرحًا مبدئيًا وسماها المقولات وهي: ١- الجوهر، ٢ – الكم، ٣ – الكيف، ٤ – الإضافة، ٥ – الأين، ٦ – المتى، ٧ – الوضع، ٨ – الملك، ٩ – الفعل، ١٠ – الانفعال. وما زال الفلاسفة، منذ ذلك اليوم، لا يملون شرحها وعرضها في كساء جديد، وتعلق بها الفلاسفة المسلمون – وخصوصًا بعد القرن الخامس الهجري – تعلقا شديدًا، وجعلوها أصلاً من أصول المنطق الصوري، لا غنى عنه، وتوصل المتأخرون منهم في شرحها إلى مستوى عال جدًا من الفهم، على قدر ما تسمح به مستويات المعرفة العلمية التي حصلوا عليها، وربما كان الشرح المنسوب للبليدي، خيرها وأدقها بلا نزاع". عن مجلة دعوة الحق، العدد ١٣٦، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد، الرباط.
(٨٢) الساوي، **البصائر النصيرية في علم المنطق**، ص ٧٢، ط١، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٣م.
(٨٣) الطيب، أحمد، الجانب النقدي في فلسفة أبي البركات البغدادي، ط١، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٤م. ص ١٨٥.
(٨٤) أرسطو، **الطبيعة**، ج١، ترجمة: إسحاق بين حنين، ص ٣٥٣.
(٨٥) الطيب، أحمد، **الجانب النقدي في فلسفة أبي البركات البغدادي**، ص ١٨٥.
(٨٦)المرجع السابق نفسه، ص ١٨٦.
(٨٧) ابن رشد، **رسائل ابن رشد الطبية**، تحقيق: جورج قنواتي وسعيد زايد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م. ص ٣٦٦.
(٨٨) ابن رشد، **تلخيص الآثار العلوية**، تحقيق: جمال الدين العلوي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م، ص ٨٨.
(٨٩) المرجع السابق نفسه، ص ١٨٤-١٨٥.
(٩٠) الرازي، فخر الدين، **المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعيات**، ج١، منشورات بيدار- قم، الطبعة: الثانية، ١٩٩٠م. ص ١٧٣.
(٩١) المرجع السابق نفسه، ص ٢٦٩.
(٩٢) ابن كمونة، **الجديد في الحكمة**، تحقيق: حميد مرعيد الكبيسي، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٢م، ص ٣٥٠.
(٩٣) نشر هذه المقالة وعلق عليها الأب لويس شيخو اليسوعي في مجلة المشرق (١:٥٠٦) بتحقيقها على نسخة واحدة، ثم أعاد نشرها في كتابه مقالات فلسفية لمشاهير فلاسفة العرب.
(٩٤) شيخو، لويس، **مقالات فلسفية لمشاهير فلاسفة العرب**، دار العرب، القاهرة، ط٣، ١٩٨٥، ص٨٤
(٩٥) الإيجي، عضد الدين، كتاب **المواقف في علم الكلام**، تحقيق: عبد الرحمن عميرة ط١، ج١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٥٩١.
(٩٦) المرجع السابق نفسه، ص٤٣٤
(٩٧) التفتازاني، سعد الدين، شرح المقاصد في علم الكلام، ج٢، تحقيق: عب الرحمن عميرة، عالم الكتب، ط٢، بيروت،١٩٩٨م، ص ٢٣١.
(٩٨) الميبدي، حسين بن معين الدين، **قاضي مير على الهداية**، مطبعة الحاج حسين أفندي، إستنبول، ١٣١٣هـ، ص ٦٣.
(٩٩) الأحمد نكري، **عبد النبي بن عبد الرسول**، ج١، ط١، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٢٢٤.
(١٠٠) المرجع السابق نفسه، ص ٧١.
(١٠١) فضل الحق، محمد، **الهدية السعيدية في الحكمة الطبيعية**، مطبعة مجلة المنار، القاهرة، ١٣٢٢هـ. ص ٧٦.
(١٠٢) المرجع السابق نفسه، ص ٨٧.
(١٠٣) ورد في التعريف بهذه المخطوطة" تحوي هذه الرسالة على معلومات عن مواضيع متنوعة، بما فيها الخيمياء وعلم الأعداد وعلم المعادن والسحر. وتبدأ باستشهادات من كشف الأسرار وهتك الأستار، وهو عمل مشهور من القرن الثامن (القرن الثاني الهجري) يُنسب إلى جابر (ابن حيان). ويبدو أن عملا كاملا قد كُتب في الحواشي. ويذكر النص أسماء مراجع ثقة مثل جالينوس وزيسموس وهرمز وديموقراطس والشيخ أبو العباس أحمد البوني والغزالي. وقد تعرضت أجزاء من المخطوطة للتلطيخ والتلف". عن: موقع https://www.wdl.org/ar/item/2870

(١٠٤) الطاجن هو طبق فخاري يستخدم بكثرة في المطبخ المغربي لأغارض الطبخ.

(١٠٥) **التحولات المرغوبة، أو، عن النفي والإيجاب في تصحيح الحكمة**، دار الكتب والوثائق القومية المصرية، مخطوطة رقم (١٣ كيمياء)، ص ٢٥و.

(١٠٦) بيكون، فرنسيس، **الأورجانون الجديد**، ترجمة: عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٣م، ص ١٨٩.

(107) *See*: https://www.britannica.com/biography/Robert-Hooke.

(١٠٨) فوربس، ر.ج.، و ديكستر، إ.ج.، **تاريخ العلم والتكنولوجيا**، ط٢، ترجمة: أسامة أمين الخولي، ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م. ص ٤٨.

(109) McCormmach, Russell, Henry Cavendish on The theory of heat, ISIS, Vol.79, No.1 (Mar. 1988), Chicago Uni., p.54.

(110) Hunt, F.V. Origins in acoustics, Yale University Press, 1978, p157.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

دور القرصنة البحرية في التقارب الدبلوماسي بين المغرب وإسبانيا خلال القرن الثامن عشر الميلادي
من خلال رحلة "نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد"



محمد شونم
باحث دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
القنيطرة – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تُعَدُّ القرصنة البحرية من الوسائل السائدة في البحار والمحيطات منذ القدم، لكنها شهدت تطورًا ملحوظًا خلال القرن الثامن عشر الميلادي في أوروبا والعالم الإسلامي، حيث سُميت في هذا الأخير بالجهاد البحري. وعرفت القرصنة البحرية ارتفاعًا كبيرًا في وتيرتها خلال القرن الثامن عشر الميلادي، حتى أضحت التجارة الدولية تخشى منها بشكل كبير، فعملت الدول الأوربية، في بادئ الأمر، على مواجهتها بالقوة العسكرية، لكنها فشلت في القضاء عليها، خصوصًا وأن القرصنة الإسلامية كانت لها حنكة كبيرة وتجربة رائدة في هذا الميدان منذ القرن السادس عشر الميلادي، وترعاها سلطة البلاد، وتحميها من القوة العسكرية الأوربية، فصمدت القرصنة البحرية داخل البحار والمحيطات، مما دفع ببعض الدول الأوربية إلى تغيير تكتيكاتها، فسلكت الوسائل الدبلوماسية لتأمين سفنها من هذه الظاهرة التي أصبحت تقضُّ مضاجع الحكومات الأوربية وتُجارها؛ ومن بين الدول التي نهجت الطرق الدبلوماسية دولة إسبانيا، التي أنهكتها القرصنة المغربية والجزائرية على حد سواء، فاستغلت الأسرى والكتب العربية الإسلامية الموجُودَيْن بإسبانيا، لاستمالة السلطان المغربي محمد بن عبد الله، وجَرِّهِ نحو التفاوض، بغرض انتزاع معاهدة تضمن بها حماية سفنها التجارية من القرصنة المغربية على الأقل؛ فأطلقت بعض الأسرى المغاربة كَجُس نية منها لطرق باب السلطان المغربي ودعوته إلى تعيين سفير إلى إسبانيا؛ فنجحت في مسعاها بعد إقدام السلطان المغربي محمد بن عبد الله على تعيين بعثة مغربية على رأسها أحمد الغزال تتجه نحو إسبانيا بغرض التفاوض على تحرير الأسرى واسترجاع بعض الكتب الإسلامية المهمة. واستغل أحمد الغزال هذا الحدث فدوَّن كثير من الأحداث التي شاهدها وعاشها بنفسه، وجمعها في كتاب سماه بـ "نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد"، حيث دون فيه تفاصيل الأحداث منذ انطلاقه إلى وصوله إلى مدينة مراكش مع البعثة المغربية والإسبانية والأسرى المحررين والكتب المسترجعة، واستقبالهم من طرف السلطان المغربي محمد بن عبد الله؛ وقد حققت الرحلة مبتغاها وأهدافها، رغم الهفوة التي وقعت فيها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٥ يونيو ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ يوليو ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

المغرب الأقصى؛ القرصنة البحرية؛ إسبانيا؛ الدبلوماسية؛ معاهدة؛ تحرير الأسرى والكتب

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.184997

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد شونم. "دور القرصنة البحرية في التقارب الدبلوماسي بين المغرب وإسبانيا خلال القرن الثامن عشر الميلادي من خلال رحلة نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ١١١ – ١٢٢.

Corresponding author: chounem02i@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تعتبر الرحلة في الميدان التاريخي من المصادر التي تقدم مادة تاريخية مهمة، إلى جانب كتب الفتاوى والنوازل والتراجم والكناشات وغيرها. وكتب الرحلات تتيح الوقوف على حيثيات وتفاصيل الأحداث، وبالتالي تمكن من الوقوف على حقائق تاريخية مهمة. ولقد اشتهر المغاربة في آدب الرحلات، إذ الموقع الجغرافي للمغرب البعيد عن الشرق الإسلامي، والقريب من أوروبا الغربية، ساهم في تعدد وجهات الرحلات المغربية، فولَّى المغاربة أنظارهم شطر المشرق لأغراض متعددة (حج بيت الله الحرام، رحلة سفارية، استكشافية، دبلوماسية...)؛ كما وجهوا أنظارهم نحو أوربا القريبة، في سفارات تتوخى الحفاظ على مصالح المغرب أو معالجة ظروف ووقائع طارئة.

وتعتبر رحلة أحمد الغزال المعنونة بـ: «نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد»، من أهم الرحلات المغربية خلال القرن الثامن عشر الميلادي، إذ جاءت في ظرفية تاريخية كانت تعرف نوعا من الصراع بين الدول الإسلامية والدول المسيحية للسيطرة على التجارة البحرية. ورغم أن كفة الميزان التجاري كانت مائلة تجاه أوروبا، إلا أن الدول الإسلامية لجأت إلى الجهاد البحري كوسيلة للسيطرة على المنافذ البحرية. ورحلة أحمد الغزال جاءت كنتيجة للصراع الذي كان رائجا في حوض البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، إذ سعت إسبانيا جاهدة للحصول على معاهدة تضمن بواسطتها أمن سفنها من القرصنة المغربية التي توغلت بشكل كبير -إلى جانب القرصنة الجزائرية -في البحار والمحيط الأطلنطي، وأصبحت تغزو السفن الأوربية المحملة ببضائع ثمينة تشكل عائدا ضخما على ميزانية الدولة، مع ما انضاف إلى ذلك من سبي وأسر وغنائم.

وبما أن السلطات الإسبانية كانت تتوفر على أسرى من المسلمين، وكتب عربية - إسلامية، فقد استغلت هذه الجوانب كقنطرة للمرور إلى السلطان المغربي محمد بن عبد الله، لحثه على التفاوض في عقد معاهدة ضمن سفنها من القرصنة المغربية؛ ومن أجل هذا الغرض أرسل السلطان المغربي محمد بن عبد الله أحمد الغزال على رأس بعثة مغربية إلى إسبانيا وأوصاهم على توقيع معاهدة مع إسبانيا بحرًا لا برًا؛ مقابل افتكاك الأسرى المغاربة وبعض الجزائريين، من حفظة كتاب الله والمسنين والعاجزين، واسترجاع بعض الكتب الإسلامية المتواجدة بالخزانات الإسبانية.

وقد حَقَّقَت رحلة أحمد الغزال المبتغى الذي أُرسلت من أجله، وقام المؤلف بتدوين جميع المعلومات والحقائق التي وقف عليها في الطريق، أو التي قام بزيارتها رسميا أو عن طريق النزهة؛ وبذلك فرحلة أحمد الغزال مستمدة من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها غنية وممتعة. فعندما يغوص القارئ في مضامين الرحلة يجد نفسه أمام أسلوب راقي من الوصف الدقيق والمشاهد المثيرة، إذ يصور المؤلف الأشياء كأنما تشاهدها مباشرة بنفسك، كما أن الرحلة تَنِمُّ عن حس تاريخي مليء بالأحداث الوصفية للمآثر التاريخية، والتقارير السياحية، والمشاهدات المثيرة، والمقارنة بين المدن الإسبانية والمغربية إلى غير ذلك من الأحداث المثيرة للشغف.

أولاً: السياق التاريخي للرحلة

خضعت بلاد الأندلس منذ فتحتها من طرف طارق بن زياد سنة (٩٢ هـ/ ٧١١م)، للحكم العربي الإسلامي، واستمرت لعدة قرون، نتج عنها إنشاء حضارة راقية انبهرت منها الأعين، ومازالت آثارها موجودة إلى يومنا هذا تشهد على ذلك. ويرجع سقوط بلاد الأندلس في يد القوة المسيحية إلى عدة أسباب وعوامل، أهمها ضعف القوة العسكرية المغربية في عهد المرينيين والوطاسيين، مما تقلصت معها الإغاثة العسكرية إلى بلاد الأندلس، إضافة إلى لجوء بعض الزعامات الأندلسية المتمردة إلى التحالف مع الممالك المسيحية، مما أدى إلى ضعف شوكة المسلمين بالأندلس، بينما في المقابل، بدأت قوة المسيحيين تتقوى، خاصة بعد عقد تحالف بين الممالك المسيحية للقضاء على التواجد الإسلامي في البلاد الأندلسية، وملاحقتهم في معاقلهم، وجاء قول محمد رزوق في هذا الصدد: «وقد تجسدت هذه الوضعية في عهد الملكة إيزابيلا الكاثوليكية، إذ جعلت من بين أهدافها إخراج العرب والاستيلاء على أراضيهم وضربهم في آخر معقل من معاقلهم متجهة إلى الوحدة مع أراجون ممثلة في شخص ملكها فرناندو الكاثوليكي الذي كانت تحركه نفس الأهداف».[1]

وبهذا الوحدة بين القوتين الكاثوليكيتين بدأت المعاقل الإسلامية تسقط واحدة تلوى الأخرى في يد المسيحيين، وسرعان ما بدأ الطرد التعسفي في حق المسلمين، خاصة مع سقوط مملكة غرناطة سنة ١٤٩٢م، آخر معقل من معاقل المسلمين في الأندلس، التي ظلت تسارع الموت لسنوات عديدة بفضل الإغاثة العسكرية والجهادية للدولة المرينية المتذبذبة. كما يُعدُّ سقوط الأندلس حدا فاصلا بين حضارتين

داخل الأندلس، الأولى إسلامية (عربية – أمازيغية)، والثانية مسيحية غربية.[٢]

وبذلك تكون غرناطة آخر حصن للإسلام بالأندلس، وقد عانت من جميع فظائع الحصار الذي استمر تسعة أشهر، إلا أن استسلام هذه المدينة لم يتم عن طريق الحرب، وإنما بواسطة تعهد صريح لاتفاق رسمي موقع يوم ٢١ محرم ٨٩٧هـ موافق ٢٥ نوفمبر ١٤٩١م، بمقتضى بنود اشترطها السلطان أبو عبد الله من سلالة بني الأحمر، ومقبولة بأداء اليمين من طرف ملكة قشتالة، لاحترام هذه الشروط من قبل الملكين الكاثوليكيين لفائدة جماعة مسلمة تعيش تحت السيادة المسيحية.[٣]

وبمجرد تنازل بني الأحمر على منطقة غرناطة، وخروجه منها، حتى بدأ المسيحيون يخرقون بنود الاتفاقية واحدا تلو الآخر، إذ لم تمر إلا سنين، حتى زحفوا على مكتسبات الاتفاقية الموقعة.[٤] وأمام إصرار بعض الأندلسيين على البقاء في ديارهم وأراضيهم، رغم الضغوطات والإكراهات التي تعرضوا لها، دفع بالملك الإسباني فليب الثالث إلى إصدار قرار الطرد النهائي للموركسيين من الأندلس، مرغمين تحت حدّ السيف.[٥] ونُفذ هذا الطرد بطرق بشعة، حيث تعرض أغلب الأندلسيون للنهب من قبل ربان السفن، والأثمان الباهظة للنقل، وأنواع أخرى من النهب والتعذيب والترهيب.[٦] وبعد خروج الموريسكيون من الأندلس تشتتوا في بقاع العالم الإسلامي، واستقر أغلبهم - رغم المعاناة والعراقيل التي لاقوها - بشمال إفريقيا، وكان للمغرب الأقصى النصيب الأوفر من الأندلسيين المستقرين به.[٧]

وعلى العموم، فطرد الموركسيين من بلادهم قصرا، والمعاناة التي لاقوها أثناء تهجيرهم، خلفت لهم حقدا كبيرا اتجاه المسيحيين، مما دفع بفئة عريضة منهم إلى تعاطي الجهاد البحري (القرصنة البحرية) انتقاما من المسيحيين، وخاصة الإسبان. فكانت السواحل المتوسطية والأطلسية مسرحا لهذا الجهاد البحري، وتزعمه في المغرب الأقصى قيادات لها كفاءة كبيرة في هذا الميدان، على رأسهم أبو عبد الله العياشي، الذي بقي على أمر الجهاد حتى مقتله. يقول الناصري في هذا الصدد: «لما قتل أبو عبد الله العياشي فرح النصارى بمقتله غاية الفرح وأعطوا البشارة على ذلك وعملوا المفرحات ثلاثة أيام، وكان مقتله رحمه الله تاسع عشر المحرم سنة إحدى وخمسين وألف {٢٩ أبريل ١٦٤١م}».[٨] ومن بعده تزعم الخضر غيلان أمر الجهاد بالمناطق الشمالية ضد الاحتلال الأجنبي برًا وبحرًا.[٩]

وجد الأندلسيون ضالتهم في الجهاد البحري (القرصنة البحرية)، أولاً: لرد الاعتبار إلى ذواتهم جراء ما لقوه من معاناة تأبى النسيان؛ وثانيا: ضمانا لقوت عيشهم اليومي؛ وثالثا: استجابة إلى نداء الجهاد الذي كان متداولا دوما بين صفوف عامة المسلمين وخاصتهم. وبعد توسع رقعة الجهاد البحري في حوض البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، أضرَّ ذلك بالمصالح الاقتصادية للدول الأوربية، مما اضطرتها إلى الدفاع عن نفسها أحيانا، واللجوء إلى سياسة الصلح والمهادنة أحيانا أخرى، مع الدول التي تنطلق منها عملية الجهاد البحري.

وفي هذا السياق التاريخي جاءت المساعي الإسبانية إلى عقد معاهدة مع الدولة المغربية للحفاظ على مصالحها التجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، إذ لم تجد بَابًا تطرقه سوى استغلال باب تبادل الأسرى والإفراج عن بعد الكتب الإسلامية التي كانت ما تزال متواجدة في الخزانات الإسبانية. وقد بادر العاهل الإسباني كارلوس الثالث في إطلاق سراح بعض الأسرى المغاربة، وأرسل بعثة إسبانية إلى المغرب لملاقاة السلطان المغربي محمد بن عبد الله لتسليمه بعض الهدايا ورسالة تطلب منه تعين سفارة إلى إسبانيا للتفاوض باسم السلطان، وتختار الأسرى الذين سيفرج عنهم، والكتب التي يمكن استرجاعها.[١٠] وبهذا جاءت رحلة أحمد الغزال إلى إسبانيا على رأس البعثة المغربية.

ثانيًا: التعريف بصاحب الرحلة

إن المعلومات المتوفرة حول أحمد الغزال قليلة، إذ لم يتعرف على سنة ولادته، واكتفت بعض كتب التراجم بذكر معلومات شحيحة عنه، حيث يقول عنه صاحب سلوة الأنفاس: «الفقيه الأديب، الكاتب الرئيس الأريب؛ السيد أحمد بن الأديب الكاتب الفقيه السيد المهدي الغَزَّال. كان (...) فقيها أديبا، بل كان آخر أدباء الوقت، وبعثه السلطان سيدي محمد ابن عبد الله سفيرا لجزيرة الأندلس مثل أبيه من قبله. وألف في سفره رحلة ذكر فيها عجائب تلك الأرض، وله غيرها من التآليف في الأدب. توفي – رحمه الله- سنة إحدى وتسعين ومائة وألف، ودفن بصحن الزاوية المذكورة».[١١]

ونجد له ترجمة أخرى في موسوعة أعلام المغرب، من خلال كتاب "تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين" لعبد الكبير الفاسي، حيث تطرق إلى ترجمته بشكل شحيح، حيث اقتصرت الترجمة على سنة وفاته، ومساره العلمي، وبعض كتبه، إذ نجدها على الشكل التالي: «وفي فجر يوم الأحد خامس جمادى الأولى عند الطلوع توفي أحمد بن المهدي الغزال الحميري

الأندلسي، كان علامة مشاركًا أديبًا شاعرًا مطلعًا كاتبًا مقتدرًا، له تأليف مفيدة، منها الأطروفة الهندسية والحكمة الشطرنجية الأنسية في مدح مخدومه، واليواقيت الأدبية بجيد المملكة المحمدية، والنور الشامل في مناقب فحل الرجال الكامل، ورحلة إلى بلاد الأندلس سماها نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، ونتيجة الفتح المستنبة من سورة الفتح إلى غير ذلك من التأليف، ودفن بزاوية الشيخ عبد القادر الفاسي بالقلقلين. تقدمت وفاة والده حوالي عام ثمانين ومائة وألف».[١٢]

وأحمد الغزال ولد في مكناس وتربى بها، في منزل غير بعيد من القصر الملكي، حيث كان أبوه يشتغل كاتبا لدى السلطان المولى إسماعيل، بينما نجد أحمد الغزال اشتغل كاتبا للوزير والمؤرخ الزياني لفترة من الزمان، إذ كانت تربطه صلة وثيقة به، ومن بعد انتقل إلى الاشتغال كاتبا للسلطان محمد بن عبد الله. وأسرة الغزال تنحدر من أصل أندلسي، إذ كان أجداده يقيمون في مدينة مالقة، قبل أن يهاجروا إلى المغرب.[١٣]

ثالثًا: القرصنة البحرية أو ما سمي بالجهاد البحري عند المسلمين، وسعي بعض الدول الأوربية لعقد معاهدات مع المغرب خلال القرن الثامن عشر الميلادي

عند الغوص في محتوى الرحلة نجد أن أحمد الغزال أسهب في تمجيد الأدوار الكبيرة التي كان يقوم بها السلطان المغربي محمد بن عبد الله لتشجيع الجهاد البحري ضد السفن الأوربية في حوض البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، ونوه بالانتصارات التي حققتها القرصنة المغربية في عهده حتى ضاق الأوربيون منها ذَرْعًا، وطلبوا المهادنة والصلح من السلطان المغربي محمد بن عبد الله، إلا أن هذا الأخير رفض في بادئ الأمر كما تشير إلى ذلك الرسالة التي أوردها المؤلف في كتاب الرحلة التي دونها، وبرر موقفه ذلك بالشرع الإسلامي الذي يحث على جهاد الكفار حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية وهم صاغرون. وحقيقة الأمر، فموقف عدم رضوخ السلطان المغربي للمساعي الأوربية راجع إلى المداخل الهامة التي يحققها الجهاد البحري لخزينة الدولة.

ولكن هذا الرفض الذي أعلنه السلطان المغربي محمد بن عبد الله اتجاه أوربا اعترضته أمور اقتضتها المصلحة الإسلامية والمنفعة العامة، ومن أبرزها فك أسرى المسلمين واستيراد الأسلحة واسترجاع الكتب، مما دفع بالسلطان المغربي إلى عقد معاهدات مع عدة دول أوربية، باستثناء فرنسا التي رفض السلطان المغربي إبرام اتفاقية معها على حد تعبير المؤلف، وبالتالي فالسفن الفرنسية كانت تتعرض إلى القرصنة باستمرار مما جعل فرنسا كل مرة تطلب الصلح والمهادنة مع المغرب، ولما خاب مسعاها اتجاه السلطان المغربي، لجأت إلى تعبئة أساطيلها الحربية وتوجهت صوب ميناء سلا فقصفته، فرد الجانب المغربي بالمثل على السفن الفرنسية فاضطرتها إلى الفرار.

إلا أن فرنسا أعادت الهجوم على مرسى العرائش ودخلتها وأنزلت عدة جيوش وضباط بالمدينة، إلا أن المجاهدين المغاربة أغفلوا الجيوش الفرنسية لمدة معلومة، وقاموا بتطويقهم ومباغتاتهم، فقتلوا وأغرقوا بعضهم، والباقي أسروهم، فانهزمت الجيوش الفرنسية شر هزيمة على حد تعبير المؤلف، الذي عبر عن ذلك بقوله: «فهم بين غريق وقتيل وأسير، وبقيت بين المسلمين من أجفانهم عدة مشحونة بالأنفاط والعدة ووقعت فيهم غزوة شهرتها كافية عن التصريح بها، وأخبارها في بر العجم والعرب غنية عن تصنيفها، وقد كساهم الله ثوب المذلة والهوان وملأ قلوبهم رعبا، وعمهم الجذع والخذلان (....) فلم يسعهم إلا الاذعان وطلب الأمن والآمان، بحيث تؤمن مراكبهم مدة سنة، ليبلغ الكل منهم في المدة المذكورة. مأمنه وتحملوا أشياء هي على غلبهم أقوى دليل، شاهد على ما هم فيه من الهوان والمذلة والوبال والعويل، فأجابهم لما طلبوه عن محض الفضل، مولانا المؤيد المنصور، فأمنوا بأمانه للأجل المذكور».[١٤] وانطلاقًا من هذا الكلام يتضح أن فرنسا رغم خسارتها للجنود والعتاد فقد حصلت على معاهدة صلح مع الدولة المغربية لمدة سنة، تضمن سلامة سفنها من القرصنة المغربية.

الغريب في القرصنة التي أعدها السلطان محمد بن عبد الله أنها كانت تعمل لمدة شهرين، مما دفع بالأوربيون إلى التقليل من الإبحار في هذين الشهرين تجنبًا للقرصنة المغربية، وهذا ما تفطن له السلطان المغربي محمد بن عبد الله، فلجأ إلى خطة أرشدته إلى بناء مرسى الصويرة التي بناها على الطراز العصري، بحيث أصبحت –حسب المؤلف- لا تضاهيها المراسي الأوربية والإسلامية، وجهزها بأحسن الأجهزة العسكرية وفتح أبوابها لجميع التجار حتى أصبحت مداخلها كبيرة.

ولما علمت بعض الدول، وخاصة الأوربية منها، ببناء مرسى الصويرة خشيت من توسيع الجهاد البحري المغربي ضد سفنها التجارية، فسعت إسبانيا إلى الحصول على ضمانة سفنها من القرصنة المغربية، فبدأت تفكر كيف تطرق باب السلطان

المغربي، فلجأت إلى استعمال الأسرى المسلمين والكتب العربية الإسلامية كقنطرة للمرور إلى باب السلطان المغربي محمد بن عبد الله.

رابعًا: المفاوضات المغربية الإسبانية لتحرير الأسرى المسلمين، واسترجاع الكتب الإسلامية

بعد مراسلات كثيرة بين العاهل الإسباني والسلطان المغربي، نجحت مساعي الدولة الإسبانية للتقرب من الدولة المغربية وربط علاقات دبلوماسية معها على أساس المصلحة المتبادلة. وقد تُوجت هذه العلاقة بإرسال السلطان المغربي محمد بن عبد الله رسالة إلى العاهل الإسباني تضمنت عدة مطالب، أبرزها الاعتناء بأسرى المسلمين مع إعطاء أولوية التفضيل للعلماء وحملة كتاب الله والشيوخ كما يفعل السلطان المغربي محمد بن عبد الله مع القصاوصة والرهبان المسجونين في المغرب.[١٥] وقد جاء رد سريع من طرف إسبانيا بإطلاق سراح بعض السجناء المسلمين وإرسالهم إلى السلطان المغربي، مع رسالة تتضمن الخدمة والطاعة للسلطان المغربي، فكان رد هذا الأخير بالمثل، إذ أطلق بعض أسرى الإسبان، ووعد العاهل الإسباني في رسالة بعثها إليه مع عامل سبتة بعده بإطلاق سراح ما تبقى من الأسرى الأوربيين وضمان حماية السفن الإسبانية من الجانب المغربي، فسُرَّ العاهل الإسباني كارلوس الثالث غاية السرور بقرار السلطان المغربي، وبادر بإرسال بعثة إسبانية برئاسة الأب "برتولومي خيرون" تحمل هدية ضخمة إلى السلطان المغربي، مع رسالة تطلب منه تعيين أحد السفراء المغاربة إلى إسبانيا؛[١٦] وأيضًا سعى العاهل الإسباني - عبر مضمون الرسالة - إلى عقد معاهدة مع المغرب، وإطلاق سراح الأسرى المسجونين في كلا الدولتين. وقد استقبل السلطان المغربي محمد بن عبد الله هذه البعثة في ٢ فبراير ١٧٦٦م وتسلم منهم الهدية وسلمهم أسراهم، وبعض الأسرى الأوربيين، وخاصة الشيوخ الطاعنين في السّن، وافيا بعهده الذي وعد به العاهل الإسباني، وردَّ على المسعى الإسباني بإرسال بعثة مغربية وضع على رأسها أحمد الغزال،[١٧] من أجل غرض فك بعض الأسرى المسلمين بإسبانيا، واسترجاع الكتب العربية المتواجدة في الخزانات الأندلسية، وذلك بعض أن أعطى تعليماته للبعثة عن الكيفية المتعلقة بعزل الأسرى حسب مرتباتهم في الدين والسن والرتب المهنية، ويُطمأنوا الباقي بالفرج القريب.

توجهت البعثة المغربية من مكناسة الزيتون نحو ثغر طنجة للعبور نحو إسبانيا، ولما وصلت إلى مدينة طنجة طلب منها حاكم سبتة العبور انطلاقا من مدينة حكمه، رغبة منه، في تحسين صورته أمام العاهل الإسباني كارلوس الثالث، إلا أن البعثة المغربية لم توافق على ذلك، لأنها لم تتلق تعليمات سلطانية للمرور من سبتة، إلا أن حاكم سبتة لجأ إلى خطة اضطرت بواسطتها السفن التي تتواجد بها البعثة المغربية إلى الإبحار نحو مدينة سبتة للانطلاق من هناك، وكان وصولها للمدينة بتاريخ منتصف ذي الحجة من عام ١١٧٩ هـ/ الموافق ٢٥ ماي ١٧٦٦م، حيث بدأ أحمد الغزال يصف كل ما تلاحظه وتبصره عينه؛ وقد دَوَّن كل ذلك في كتابه المعنون: "نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد".

وأثناء سفارته نحو إسبانيا تطرق أحمد الغزال إلى وصف عدة مدن إسبانية، خصص لكل واحدة منها وصف يختلف عن الآخر، من حيث الكيف والكم، والشح والإطناب. فلما وصلت البعثة المغربية إلى مدينة مدريد عاصمة الملك الإسباني، عجلت المنية برحيل والدة العاهل الإسباني، مما جعل هذا الأخير يتأخر في ملاقاة البعثة المغربية، فاستغل أحمد الغزال هذا التأخير للاطلاع الجيد على قصر الملك الإسباني بمدينة مدريد، ووصفه بأدق المواصفات والتمجيد والتعظيم، لأنه اعتبره من أعظم القصور التي شاهدها في رحلته، إضافة إلى وصف ما بداخله من دور للحيوانات كالأسود والغزلان، وطيور مختلفة الألوان وجميلة لم تراها عين المؤلف قط في بلاد العرب.

استغرقت مدة إقامة البعثة المغربية بمدينة مدريد ما يناهز شهر ونيف، ليتم استدعاءها لاستقبال الملك في مدينة "لاكرانخة"، وهي من المدن الأربعة التي يسكنها ملك إسبانيا. ومنذ انطلاق البعثة المغربية إلى مدينة لاكرانخة وأحمد الغزال يصف كل ما تقع عليه عينه من الحشود والمباني والمزارع والجنود وحراس الملك وقصره، وكذلك وصف الاستقبال الضخم الذي أعده كارلوس الثالث للبعثة المغربية، ليصل إلى وصف المبتغى الحقيقي من الرحلة، وهي الاتفاقات حول فك الأسرى، واسترجاع بعض الكتب الإسلامية الموجودة في إسبانيا، والتي كانت مِلْكًا للمسلمين في الأندلس.

وبعد استقبال العاهل الإسباني كارلوس الثالث للبعثة المغربية بالعاصمة مدريد، دخل في مفاوضات معها، فجاءت مضامين شروط المعاهدة على الشكل التالي:

- «تسريح الأسرى الطاعنين في السن والبصراء {المكفوفين} والمبطولين {الغير قادرين على العمل} ومن في معناهم من أي إيالة كانوا.
- ثم ما نجده من أسارى الإيالة المولوية عند تسراد جميعهم واستيعاب الأسارى بأسمائهم وألقابهم.
- فكاك رجلين من الجزائريين، أحدهما طالب علم، والآخر متسيد بمروءة، وقد تقدمت منه الكتب لسيدنا، أيده الله، طالبا إنقاذه من الأسر، مصاحبة لكتاب الفقيه العلامة المذكور، وهو السيد مصطفى ابن علي البابا دغلي وكان سيدنا أعزه الله حتم وأكد على فكاكهم وتسريحهم مما هم فيه من الأسر، فأدرجتهما في الزمام المذكور، ثم ختمته بمسائل اشتكى منها الكثير من الأسرى، منها:
- إذا مات أحدهم يتولى دفنه إخوانه من المسلمين، ومبروكه لهم.
- ألا يوليَّ عليهم أحد من المتنصرة حال الخدمة، لأنه أضر عليهم من مطلق النصارى.
- ألا يمنعوا من كتب رسائلهم بالقلم العربي.
- أن يرفق بهم في حالة الخدمة ولا يكلفوا ما لا يطيقون.
- مريضهم يعالج بالاسبيطال مثل غيره من المرضى، وألا يلزموا بالخدمة وقت صلاتهم، ولا يهملوا فيما لا بد منه من الكسوة والمأكول».[١٨]

وبعد ترجمة هذه الشروط إلى الإسبانية وقراءتها، وافق عليها ملك إسبانيا بدون مانع واحد، بل رحب بها، وسأل البعثة المغربية إن كانت لها مزيدا من المطالب الأخرى، فأجابت البعثة بالنفي لينتهي اللقاء مع ملك إسبانيا كارلوس الثالث.

عند انتهاء المفاوضات بين الأطراف المتفاوضة اتجهت البعثة المغربية نحو مدينة مدريد للاستراحة، وفي انتظار تنفيذ المطالب، قامت البعثة المغربية بزيارة للأسرى المسلمين للاطمئنان عليهم ووعدهم بإطلاق سراحهم من طرف العاهل الإسباني حسب الاتفاق المبرم بين الدولتين المغربية والإسبانية. وبعد شهر من إقامة البعثة المغربية بمدريد في انتظار أخذ الكتب التي وعد بها الملك الإسباني البعثة المغربية، تم في آخر المطاف الإفراج عن الكتب الإسلامية بمدريد ومنحت للبعثة المغربية، فأخذت هذه الأخيرة تلك الكتب مع ما انضاف إليها من كتب حصلت عليها من إشبيلية، وغادرت مدريد متوجهة إلى مدينة "أرنخويس" التي يوجد بها إحدى قصور الملك الإسباني، المعدة لاستراحة الملك والضيافة الدبلوماسية الأجنبية.

وقبل الشروع في العودة إلى المغرب قامت البعثة المغربية بزيارة تفقدية لأحد السجون بمدينة "شغوبية" للاطمئنان على حال السجناء المسلمين والتخفيف من معاناتهم. حيث يقول المؤلف في هذا الصدد: «وقبل التشييع بأربعة أيام، ذهبنا إلى مدينة "شغوبية" لملاقاة الأسرى والرياس المسجونين بها، وقد تعدد منهم رسائل يطلبون رؤيتنا متشفعين بسيد الشفعاء في الوصول إليهم فإذا هم أربعة عشر، فسلمنا عليهم ورحبنا بهم، وقد أنسنا غربتهم ووعدناهم بالخير من سيدنا، أيده الله وبشرناهم بأن سيدنا مجتهد في فكاك أسرهم وإنقاذهم مما هم فيه، وأقمنا معهم من الصباح إلى العصر ولم تفتر لنا ولهم عبرة شفقة منا عليهم، وهم أكثر منا حسرة عند مشاهدة إخوانهم المؤمنين».[١٩] وبعد ذلك أوصى أحمد الغزال قائد السجن الاعتناء بالسجناء مقابل قضاء حاجته عند وزير ملك إسبانيا، فوافق بالاعتناء بهم والإحسان إليهم، فما كان من السجناء إلا أن أثنوا على سلطان المغرب الذي اهتم لحالهم حسب قول أحمد الغزال.

وأثناء الطريق التقى وفد البعثة المغربية بالأسرى المسلمين الذين كانوا في حالة يرثى لها، حيث جاء وصف أحمد الغزال هذه المعاناة على الشكل التالي: «أثناء الطريق، التقينا بإخواننا الأسارى وفرحنا بهم، وقد أنسنا غربتهم وخبرناهم أن سيدنا، نصره الله، مهتم بشأنهم مستعمل البعض والكل، أعزه الله في السعي في فكاكهم وإنقاذهم من الأسر ودفعنا لهم ما أنعم به سيدنا عليهم، (...) فكتبت في الحال مستشفعا في إزالة السلاسل عنهم والأكبال وتسريح رجل منهم أصابه البارود بعينيه فعمي، فأجاب الطاغية سراح الرجل الأعمى وإزالة السلاسل عن إخواننا المؤمنين».[٢٠] ويضيف قائلاً: «وجملة الأسارى المستعملين الآن في خدمة الطريق الذاهبة من مدريد إلى الاسكوريال، مائتا أسير وأربعة، وكانوا قبل ثلاثمائة فر منهم البعض وكرم بالشهادة البعض، وبقي منهم الآن العدد المذكور. وهؤلاء الأسرى جلهم من أهل الجزائر وبعضهم من الترك نسأل الله أن ينقذهم مما هم فيه ويفرج عن جميعهم بمنه وفضله».[٢١]

وبعد التفرغ من الأسرى المسجونين، انتقل أحمد الغزال للحديث عن سكان مدينة "قرطجنة" المسلمين والمملوكين كعبيد للمسيحيين بمدينة "قرطجنة"، حيث عمل سكانها المسلمين على استقبال البعثة المغربية بالتحيات والشكر

والامتنان للسلطان المغربي، فاستقبلتهم البعثة المغربية بحفاوة. فاستغل المسلمون المتواجدون بهذه المدينة، لحظة تواجد أعضاء البعثة المغربية بين ظهرانيهم، فاشتكوا لهم الأوضاع الصعبة التي يتخبطون فيها، وطلبوا من البعثة المغربية السعي في نقلهم إلى البلاد الإسلامية وتخليصهم وأبنائهم من الوقوع في عملية التنصير، وتحريرهم من الضغوطات التي تمارس عليهم من الحكومة الإسبانية وشعبها المسيحي، حتى أصبحت حياتهم أتعس من حياة الأسرى على حد تعبير أحمد الغزال الذي وصف هذه الوضعية على الشكل التالي: «لما قربنا منها {مدينة قرطاجنة} ولم يبق بيننا وبينها إلا قدر مسافة، برز لملاقاتنا جماعة من المسلمين رجالا ونساء وصبيانا ولهم ضجيج يعلنون بكلمة الإخلاص (...) فسلمنا عليهم ورحبنا بهم وسألنا عن حالهم، فإذا هم مسرحون وحكمهم حكم الأسير، لا يستطعون الخروج من البلاد إلا إذا أدوا ما أوجبه النصارى على المُسَرَّح ما لم يكن في قيد أسر الطاغية (...) ومن جملة ما قطع أكبادهم الخوف على صبيانهم بعدهم وتركهم في بلاد الكفر، وقد طال وقوفنا معهم، وهم يبكون ويتضرعون، ونحن أكثر منهم بكاء وحسرة عليهم، فسكنا روعهم ووعدناهم بخير من سيدنا أيده الله (....) وكان يوما لم نر مثله بكاء وفرحا حيث أعتق الله هؤلاء القوم وأنقذ صبيانهم من بلاد الكفر على يدي سيدنا الكريمتين، وانفصلوا عنا فرحين مسرورين».[٢٢]

وبعد طول الانتظار حان الوقت لتنفيذ قرار إطلاق سراح عدد الأسرى المتفق عليه بين الدولتين حسب الشروط السابقة الذكر، حيث يقول المؤلف في هذا الصدد: «وقد كان تقدمهم بأمر من طاغيتهم بمباشرتنا والفرح بنا وبما يكون عليه العمل في شأن الأسارى من تسريح الطاعنين في السن والمبطول والأعرج والأعمى ومن في معناهم والرفق بهم وبمن بقي منهم في الأسر من غير إيالة سيدنا ومن كان من الإيالة المولوية يسرح ثم يميز الحامل لكتاب الله وأن يعظم ويحترم».[٢٣] وأثناء الفرز والاختيار فِمَن يستحق الإفراج عنه من الأسرى حسب شروط المعاهدة، اعترضت البعثة المغربية صعوبات جمة في اختيار الأسرى الواجب إطلاق سراحهم وفقا للشروط المبرمة في الاتفاقية، وتتلخص في العجز والسن والبتر في أحد أعضاء الجسم، وحملة القرآن الكريم والانتساب للدولة المغربية؛ وكان الاختيار وفق هذه الشروط صعبًا على البعثة المغربية لأن الكل كان يدعي أنه عاجز عن العمل، أو أنه كبير في السن، أو ينتمي للدولة المغربية، فتم الفصل في ذلك بعدة خطط من بينها: الفحص الطبي والرجوع إلى أصل الأسير حتى تتضح هويته إلى غير ذلك من الإجراءات الأخرى. وفي الأخير تمكنت البعثة المغربية فرز الأسرى الذين أُطلق سراحهم، فتم كسوتهم والرفق والإحسان بهم من طرف الملك الإسباني امتثالا لوصية السلطان المغربي محمد بن عبد الله.

وبالفعل، نجحت البعثة المغربية في إطلاق سراح جميع الأسرى المغاربة، وبعض الأسرى من الدول الإسلامية الأخرى. وانتهى المطاف بالبعثة المغربية والأسرى المسلمين إلى مدينة بادس، حيث تلاحقت الأفواج المتبقية من أسرى المدن الأخرى (برشلونة – الكراكة...) ليصبح مجموع الأسرى المفرج عنهم مائتان وتسعون نسمة. وقد تطرق أحمد الغزال إلى الإكرام الذي تلقاه الأسرى من طرف أهل بادس، ولم يبقى أمام البعثة المغربية، إلا الاطمئنان على حالهم وحملهم في السفن نحو المغرب.

خامسًا: ظروف استقبال السلطان المغربي محمد بن عبد الله للبعثة المغربية وممثل الدولة الإسبانية، وما رافقهم من كتب وأسرى محررين

بعد إقامة البعثة المغربية لفترة ليست بالقصيرة ببادس، خرجت في آخر المطاف من هذه المدينة باعتبارها آخر محطة بالأراضي الإسبانية قاصدة مدينة تطوان المغربية بحرا، فوصلوا إلى بر الأمان بشواطئ مرتيل بالقرب من مدينة تطوان، حيث تلقاهم جمهور غفير بآلات الطرب والمدح، زيادة على استعراض للآلات الحربية على شواطئ بحر مرتيل، وبعد نزول البعثة المغربية والباشدور الإسباني المصاحب لهم إلى شواطئ مرتيل، أُرسلت سفن مغربية لملاقاة السفن الإسبانية التي تحمل الأسرى المسلمين المفرج عنهم، وما لبثت أن وصلت السفن إلى بر الأمان وسط جو من الفرحة لا تضاهيها فرحة الأعياد والمناسبات حسب تعبير أحمد الغزال.

مكث الباشدور الإسباني ومن معه ليلتهم داخل السفن الإسبانية بشواطئ مرتيل لأغراض شخصية، بينما توجهت البعثة المغربية إلى المبيت في البر؛ وفي الليل هُيأت الأطعمة والمأكولات وأُرسلت إلى البعثة الإسبانية. وفي الغد نزل الجميع إلى البر متوجها نحو مدينة تطوان، حيث تم استقبالهم من طرف حاكم وقائد مدينة تطوان وبعض أعيانها، وسط جو من الاحتفالات والاستعراضات العسكرية وركوب الخيل إلى أن دخلوا إلى دار الضيافة، وهي من أبهى وأحسن دور الضيافة

بتطوان، حيث قام المسؤولون على الدار بإكرام البعثة الإسبانية أحسن إكرام، كما أكرموا الأسرى المسلمين خير إكرام من أكل وملبس وتطبيب. وبقيت البعثة المغربية والإسبانية والأسرى المحررين بمدينة تطوان ما يزيد عن الشهر بسبب الأمطار الغزيرة والسيل الجرف.

وبعد استقرار الأحوال الجوية، خرجت البعثة المغربية والإسبانية ومن معها من أسرى محررين، من مدينة تطوان، قاصدين الطريق المؤدية إلى مراكش مرورا بعدة مدن وقرى وقبائل مغربية، وسط جو من الاحتفالات وإطلاق البارود إلى أن وصلوا إلى محل دار المبيت بإحدى القبائل؛ ومن الغد توجهوا نحو قبائل طليق والخلط، ومن ثم دخلوا لمدينة القصر الكبير وسط حشود غفيرة لا حصر لها، حيث وصفها أحمد الغزال على الشكل التالي: «ولما وصلنا القصر وجدنا به من الخيل والخلق ما لا حصر له وقد جالت الخيل بين صفوف الرماة ومطلق القوم، وقد أبلوا بلاء حسنا في اللعب بالبارود بقية يومهم. ولما جن الليل أقبل أهل القصر بالطعام الكثير على اختلاف أنواعه وقد فضل منه أكثر مما أكل، وبقيت القصع والموائد العديدة فاضلة بعد إطعام العساكر المذكورة، وشاهد الكافر من ذلك ما أذهله».[٣٤]

ومن مدينة القصر الكبير انطلقوا نحو منطقة العشائر إلى أن وصلوا إليها، وسط جو من الاحتفالات الكبيرة، جعلت الباشدور الإسباني مندهشا من ذلك، وأجبرته على تدوين ما يشاهده حسب تعبير أحمد الغزال. وبعد يومين من الضيافة في منطقة العشائر، توجهوا نحو بسائط الغرب من قبائل سفيان وبني مالك، حيث استقبلهم رجالها بالخيل مرتدين أفخر الثياب، في جو من الاحتفالات، إلى أن وصلت البعثة ومن يرافقها إلى دار الضيافة، فأُكرموا غاية الإكرام بما فاق من سبقهم. ومن الغد انتقلت البعثة المغربية ومن معها نحو مدن المهدية وسلا والرباط وسط احتفالات كبيرة وحشود عظيمة، وبعد إقامتهم يومين في مدينة سلا، توجهوا إلى مدينة رباط الفتح عبر البحر، ومن هذه الأخير إلى دكالة والمناطق المجاورة لها، حيث عمل حاكمها على استقبال البعثة المغربية ومن معها، وإكرامها وسط جو من الاحتفالات.

واستعدادًا لمغادرة منطقة دكالة عمل مُشرفوها على اصطحاب البعثة المغربية ومن معها إلى مدينة مراكش مكان تواجد السلطان المغربي محمد بن عبد الله. وبمجرد وصول الجميع إلى مدينة مراكش أرسل السلطان المغربي وفدا للسلام عليهم وتهنئتهم على وصولهم بسلام صحبة الأسرى الذين أُطلق سراحهم؛ وعجل الوفد المغربي باصطحاب الأسرى إلى قصر السلطان المغربي بمراكش حيث كانت الاحتفالات على أشدها، خصوصًا وأن وصول البعثة المغربية إلى قصر السلطان تزامن مع عيد الأضحى المبارك، وعند ذلك تم تقديم الأسرى المسلمين، والكتب التي تم جلبها من إسبانيا إلى السلطان المغربي، وقد بلغ عدد أسرى المسلمين ٢٩٠ أسيرًا، وكل أسير يحمل كتابًا معه في الدخول على السلطان، فرحب السلطان محمد بن عبد الله بجميع الأسرى وأمر بكسوتهم وإكرامهم وترحيلهم إلى مدنهم وبلدانهم؛ ومن تم استقبل الباشدور الإسباني، فقدم هذا الأخير هدية عظيمة للسلطان المغربي مُرسلة من الملك الإسباني.

مكث الباشدور الإسباني ما يزيد عن شهر في ضيافة السلطان المغربي مكرما معززا، ومن تم طلب الإذن بزيارة مدينة الصويرة، وذلك بهدف الاطلاع على مَرسَاهَا التي خلقت الرعب في قلوب الأوربيين عامة، والإسبان خاصة، فأذن له السلطان، وأمر بإكرامه ومعاملته معاملة تليق بمقامه، وأمر خادمه بمصاحبته إلى المرسى للإشراف على ركوبه من هناك للرجوع إلى بلاده عبر البحر، فصاحبت البعثة المغربية الباشدور إلى مدينة الصويرة، حيث وصف أحمد الغزال الحشود التي تلقتهم في الطريق، وما صاحبها من احتفالات وركوب الخيل، وقد مكث الباشدور والبعثة المغربية شهرين بمدينة الصويرة في انتظار وصول السفن الإسبانية التي رست في مرسى مرتيل، ولما وصلت السفن، قام الوفد المغربي بشحن السفن الإسبانية بأنواع المأكولات وبعض الهدايا، لتنطلق السفن عائدة إلى إسبانيا.

سادسًا: نتائج الرحلة السفارية لأحمد الغزال

عرفت رحلة أحمد بن المهدي الغزال شُّهرة كبيرة، وواسعة الانتشار، أولا: لأهميتها الدبلوماسية خلال القرن الثامن عشر الميلادي؛ وثانيا: لأن صاحبها ومؤلفها هو أحد المستشارينَ المقرَّبينَ للسلطان المغربي محمد بن عبد الله، ومن رجالات الدَّولة الكبار؛ وثالثًا: لأسلوبها الممتع في الوصف، حيث كُتبَت بدِقَّة لغوية وأسلوبية ممتعة، وتحمل بين طياتها أخبار كثيرة ومهمة. وجاءت الرحلة السفارية إلى إسبانيا بسبب وضعية الأسرى المسلمينَ هناك، وسوء معاملتهم إلى درجة كبيرة من قِبل السلطات الإسبانيَّة، فكتبوا رسالةً إلى السلطان المغربي محمد بن عبد الله، يَشْكون مما نالَهم مِنَ التَّعَسُّف والإهانة، ومما يكلفون به منَ أعمال شاقَّة في شَقِّ الطُّرُق وغير ذلك، مع قِلَّة العناية بأكْلِهم ولباسِهم، فتأثَّر السلطان لحالِهم، واهْتَمَّ

بِمصِيرِهم، فكتب إلى كارلوس ملك إسبانيا أن يهتمَّ بأمْرِهم عمومًا، وبِحَفَظَة القرآن والعَجَزة منهم خُصُوصًا، كما يفعل هو بتمييز القساوسة ورجال الدِّين منَ الأسرى الإسبان الذين يوجَدون في يده.[٢٥]

وانتهى الأمر إلى أنْ أرسل السلطان المغربي بعثة مغربية على رأسها أحمد الغزال، أحد كتَّابه الكِبار، في سفارة إلى إسبانيا، ونجحتْ سفارته، حيث إنَّ المَلِك الإسباني أطْلَقَ سراح الأسرى المغارِبة، وعمل على تحسين ظروف بقيَّة الأسرى المسلمين (الجزائريين والأتراك ...). [٢٦] ونجح في ربط علاقة دبلوماسية بين الدولتين تُوِّجت بإبرام معاهدة بينهما. يقول محقق الرحلة في هذا الصدد: «فقد أدت سفارة أحمد الغزال إلى التقارب بين البلدين توجته معاهدة عقدت بين السلطان عبد الله والملك كارلوس الثالث في سنة ١١٨١هـ. (٢٦ مايو ١٧٦٧م)، وقد كان تحرير نصوص المعاهدة على يد أحمد ابن الغزال».[٢٧]

ومن نتائج نجاح البعثة المغربية برئاسة أحمد الغزال، أن تجاوزت العلاقة بين البلدين -المغربي والإسباني- لتشمل العلاقات الجزائرية - الإسبانية أيضا، بحيث عمل السلطان محمد بن عبد الله جاهدا عن طريق نفس البعثة المغربية، بالتوسط بين إسبانيا والجزائر لتبادل الأسرى فيما بينهم، وتطبيع العلاقة الثنائية، وهو ما نجح فيه بالفعل بعد تكرار مسعاه لثلاث مرات.[٢٨] وقد أظهرت هذه الخطوة السلطان محمد بن عبد الله بمظهر المتضامن مع إخوانه في الدين، والساعي إلى خدمة الإسلام والمسلمين بعد افتكاك الأسرى من رعايا الدولة العثمانية –الجزائرية،[٢٩] فقد أرسل السلطان محمد بن عبد الله أموالا كثيرة للباب العالي أظهر بها مشاركته في الجهاد معه ضد أعداء دولته، وأنه يمكن أن يعول عليه أكثر من داي الجزائر الذي لم يستطع تقديم أي شيء.[٣٠] ومن هنا نفهم افتكاك محمد بن عبد الله لأعداد كبيرة من أسرى الجزائر وإرسالهم إلى القسطنطينية.[٣١]

وقد نجحت مساعي السلطان المغربي نسبيا في تحقيق هذا الهدف، وهو ما يمكن أن نفسر به عتاب الباب العالي على الوالي الجزائري بعدم قبول شفاعة السلطان المغربي في فك الأسيرتين الإسبانيتين (زوجة وابنة الحاكم الإسباني للمرسى الكبير)، وهو الذي افتدى مئات أسرى الجزائريين. وقد كان الملك الإسباني كارلوس الثالث طلب من السلطان المغربي التدخل عند الداي الجزائري لفك سراح بعض الأسرى ومنهم الأسيرتين المذكورتين.[٣٢] على أي، فنجاح رحلة البعثة المغربية برئاسة أحمد الغزال، كما يقول المحقق: «سمح لأحمد الغزال بتدعيم مركزه في قصر السلطان بحيث أصبح من كبار رجال المخزن ومن مستشاري الملك المقربين».[٣٣]

وفي أواخر سنة (١١٨٤هـ/ ١٧٧١م)، أقدم السلطان المغربي محمد بن عبد الله من ضرب حصار على مدينة مليلية من أجل استرجاعها إلى التراب المغربي، فشرع بقصفها ومحاصرتها أياما إلى أن كتب إليه العاهل الإسباني كارلوس الثالث رسالة يُذكره فيها بمعاهدة الهدنة والصلح المعقودة بين الدولتين، فرد عليه السلطان المغربي بأن المعاهدة تتضمن الهدنة والصلح في البحر، ولا تشمل الثغور المغربية المحتلة، فما كان من ملك إسبانيا إلا أن أرسل نص المعاهدة، والتي تضمنت الهدنة والصلح في البر والبحر، وإزاء ذلك أقدم السلطان المغربي على فك الحصار واشترط على الإسبان نقل المعدات الحربية إلى مراسي تطوان والصويرة فوافقوا على ذلك بكل ترحيب.[٣٤]

وهذا الفشل العسكري والدبلوماسي أثار سخط السلطان محمد بن عبد الله، وصب جام غضبه على أحمد بن المهدي الغزال، وعمل على إقالته من مناصبه، بسبب تقصيره في عدم الاحتياط من عبارةٍ كَتَبَها في المعاهَدة، استطاع أن يزوِّرَها الإسبان، إذ كتب أحمد الغزال: «في صدر المعاهدة ما نصه: {إن المعاهدة بيننا بحرا لا برا}. فلما وقع صك المعاهدة في أيدي الإسبان، عمدوا إلى التزييف، فمحوا اللام والألف وجعلوا مكانها واوًا، فصار النص: {برًا وبحرًا}».[٣٥] وإثر هذه الإقالة المفاجئة لأحمد الغزال من مناصبه، انتقل إلى مدينة فاس حيث أقام مغمورا، فأصيب بالعمى، وبقي على ذلك الحال إلى أن وافته المنية سنة (١١٩١هـ/ ١٧٧٧م)، ودفن في زاوية عبد القادر الفاسي بمدينة فاس.[٣٦] ومما تجدر الإشارة إليه، أن الأتراك الجزائريين تسببوا في مشاكل كثيرة للسلطان المغربي في علاقاته مع إسبانيا التي عقد معها معاهدة الصلح والتجارة، فقد كانت القرصنة البحرية الجزائرية ضد السفن الأجنبية في السواحل المغربية تحرج المغرب مع إسبانيا، وتهدد العلاقة السلمية بينهما. وقد بقي السلطان محمد بن عبد الله رغم مشاكل الإيالة الجزائرية، وفيا لعلاقات الود والاحترام التي ربطها مع الباب العالي إلى آخر أيامه.

سابعًا: استنتاجات وملاحظات

- المؤلف أحمد الغزال استعمل أسلوب رائع في الوصف، موظفا اللغة العربية الفصحى مع إدراج بعض الكلمات ذات الأصل الإسباني، مثال على ذلك: الإسبيطال (المستشفى)- الشلية (الكرسي)- الكورطي (رجال البلاط الملكي)- الفسيان (ضباط القصر)- الأكداش (أحد الدواب)- الفرايلي (رجل دين مسيحي)....، إلى غير ذلك من الكلمات الأخرى.
- المؤلف عندما يتحدث عن العاهل الإسباني، يصفه بالطاغية مثال على ذلك: «أو طاغيتكم- بما أمرهم به طاغيتهم ...»، باستثناء مرة أو مرتين يذكره بلقب غير لقب الطاغية، وذلك في قوله: «فما عليك {أحد رسل العاهل الإسباني} إذا استأذنت عليك عَظيمُكَ».[٣٧]
- عند ذكر السلطان المغربي، يصفه بأعظم عبارات التقدير والشكر والتعظيم، مثال: المنصور بالله – أيده الله وحفظه – سلطاننا المعظم- من صلة مولانا المنصور بالله ...،[٣٨] - ما أودع الله تعالى سيدنا المنصور بالله من السر والعظمة.[٣٩]
- عندما تكون مبالغة في الاستقبال من الجانب الإسباني، يرجع المؤلف ذلك إلى خوفهم من السلطان المغربي، مثال: «وأعيانهم {الإسبان} راجلين أمامنا متأدبين كأنما على رؤوسهم الطير! فأنظر إلى عزة الإسلام وما أودع الله تعالى في سيدنا المنصور بالله من السر والعظمة».[٤٠]
- يدقق في أدنى تفاصيل المباني الإسلامية.
- انتقاده لسلوكيات الشعب الإسباني، واحتقاره لبعض عاداته.
- تمجيد بعض الأشياء، وخاصة المباني الإسلامية، وتحقير بعضها.
- تشبيه بعض الأشخاص بانتمائهم إلى أهل الأندلس، وبالتالي اعتبارهم من الموركسيين الذين بقوا هناك بعد الطرد التعسفي لأغلبهم.
- عدم التفصيل في وصف بعض الأشياء كالآلات الحربية، وعدد الجنود ورتبهم...، وبالمقابل التفصيل في كيفية الاستقبال، وأجواء السهرات والحفلات.
- إعجاب أحمد الغزال بصوت المغنيات والراقصات.
- الاستخفاف بقدرة إسبانيا، والتمجيد بقدرات الدولة المغربية.
- الاستخفاف بقدرة الجنود الإسبان، والتعظيم من قدرات المغاربة في الجهاد، مثال على ذلك: «ومع ما هم عليه من هذه الجموع الوافرة، لا قدرة لهم على مباشرة القتال صفا صفا. إلا ما كان من رمي المدافع والبُنْب، واستعمال الخدائع. وما في معنى ذلك. وأما المحاربة على بسط الأرض بالخيول والرمات مكافحة من غير حصن فلا طاقة لهم بذلك – ولولا أن حماهم البحر لاستوعبهم الهلاك في أقرب مدة وهم عارفون بذلك».[٤١]

نستنتج أن غرض إسبانيا من الإكرام الزائد والاستعراض العسكري المتكرر، وما انضاف إليها من اطلاعي البعثة المغربية على الآلات الحربية، كان الغرض منه هو ضرب مخيلة البعثة المغربية، واستبيان لما هم عليه من نعيم الخيرات والقوة العسكرية الكبيرة.

وفيما يخص تزوير المعاهدة بين المغرب وإسبانيا، التي أشرف عليها أحمد الغزال والبعثة المغربية، ووقعها الغزال على أساس أن الهدنة بين الدولتين "بحرا لا برا"، فتم تحريفها من طرف الإسبان إلى "بحرا وبرا"؛ فالملاحظة التي يجب التنبيه إليها هي أن أمر التزوير وارد بشكل كبير، لكن الإغراء والرشوة، أمران واردان، ويمكن أن تنغمس فيهما البعثة المغربية؛ وبالتالي فتوقيع المعاهدة كما وردت عند الإسبان "بحرا وبرا"، لا يمكن الجزم فيها -في غياب أدلة واضحة- عن طريق التزوير أو الرشوة والإغراء، ولا ترجيح الأولى عن الثانية أو العكس.

ورحلة أحمد الغزال لم تكن هي الرحلة الدبلوماسية الأولى إلى أوروبا، فانطلاقًا من القرن السادس عشر الميلادي، عرف المغرب رحلات سفارية كان الهدف منها إجراء محادثات سياسية أو تحديد موقف من معاهدة أو مجرد استشارة في أمر من الأمور السياسية والدبلوماسية والاقتصادية وغيرها. وتمت معظم هذه الرحلات السفارية إما إلى الخلافة العثمانية أو الدول الأوربية. وعرفت الدولة العلوية الكثير من الرحلات السفارية منذ عهد السلطان إسماعيل العلوي. والملاحظ أن كل رحلة سفارية تأتي عقب ظروف معينة أو غداة حدث طارئ.

وهكذا بعد تولي السلطان محمد بن عبد الله (١٧٥٧م-١٧٩٠م) الحكم، دشن قطيعة حقيقية مع الماضي، ونهج سياسة انفتاحيه شاملة، خصوصا مع الإمبراطورية العثمانية، فأصبح التضامن الإسلامي هو السبيل الوحيد للعلاقات المغربية العثمانية خلال هذه الفترة.[٤٢] وكذلك ازدهرت الدبلوماسية المغربية والسفارات اتجاه الدول الأوربية، والتي اتخذت من

موضوع تحرير أسرى المسلمين محركا أساسيا لها، وهذا ما يفسر المبالغ المالية الكبيرة التي أنفقت عليها. وكانت عملية افتداء الأسرى عامةً، حيث شملت المغاربة وأسرى رعايا الإيالة الجزائرية التي كانت تابعة للدولة العثمانية.(٤٣)

خَاتمَةٌ

وخاتمة القول، تبقى رحلة أحمد الغزال من أهم الرحلات المغربية التي تركت بصماتها على أدب الرحلات المغربية والعربية والعالمية، وأيضا تركت بصماتها على تاريخ الغرب الإسلامي، بحيث إذ اعتبرنا أن أدب الرحلات في ميدان المعرفة الإنسانية يشكل مصدرا جديدا ضمن حقل التاريخ، فهو يقدم مادة غنية شاملة لزخم كبير من الحقائق. وقدم إضافات إلى جانب المصادر الأخرى ككتب النوازل، والكناشات والتراجم...، لأن أية محاولة للبحث في ذلك التاريخ الدفين للعالم الإسلامي في علاقته مع العالم الغربي-المسيحي، تتطلب منا الوقوف وتمحيص كل مصادر الكتابة الإنسانية على اختلاف تلويناتها. وأدب الرِّحلات نوع من الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر. وقد جاءت رحلة أحمد الغزال في إطار سفارة بين المغرب وإسبانيا، تتعلق بعدة مواضيع من بينها افتكاك الأسرى المسلمين، واسترجاع بعض الكتب التراثية الإسلامية الواقعة تحت طائلة الإسبان منذ عصور. وإذا كان الغزال قد نجح في المهمة الأولى، فإن مهمته الثانية لقيت نجاحا محدودا. ومن الملاحظ أن المغرب اختار لهذه المهمة السفارية رجلا أندلسي الأصل يرتبط نوعا ما بالماضي المجيد لهذا البلد.

الاحالات المرجعية:

(١) رزوق، محمد، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦- ١٧**، طبع ونشر: أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م، ص: ٥٢.
(٢) نفسه، ص: ٥٢.- ٥٣.
(٣) السعود، عبد العزيز، " **اتفاقات تسليم غرناطة ومحاولة استيعاب الموركسيين ثم طردهم من اسبانيا** "، مقال (ع، ص: من ٢٠ الى ٢٨) من سلسلة المقالات " سميائيات " المجلة المتوسطية للأشكال الحضارية، تحت عنوان: ١٦٠٩-٢٠٠٩: ذكرى مرور ٤٠٠ سنة على طرد الأندلسيين من اسبانيا، تنسيق عبد العزيز السعود، العدد: ٣- ٤ ، تطوان، الطبعة الأولى، أكتوبر ٢٠٠٩- يناير ٢٠١٠ ، ص:٢١ – ٢٢.
(٤) نفسه، ص: ٢٣.
(٥) نفسه، ص: ٢٧.
(٦) رزوق، محمد، م. س، ص: ١٢٩.
(٧) القادري، محمد بن الطيب، **التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر**، تحقيق، هاشم العلوي القاسمي، طبع ونشر، دار الأفاق الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ه/ ١٩٨٣م، ص: ٥٠.
(٨) الناصري، أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى** – الدولة السعدية – القسم الثاني، الجزء ٦، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، سنة الطبع: ١٤١٨ه/ ١٩٩٧م، ص: ٩٢.
(٩) الناصري، أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** – الدولة العلوية- ، الجزء ٧، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب – الدار البيضاء، سنة الطبع: ١٤١٨ه/ ١٩٩٧م، ص: ٢٧.
(١٠) انظر التفاصيل: الناصري، أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، - الدولة العلوية-، القسم الثاني، الجزء الثامن، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٤١٨ه/ ١٩٩٧م، ص: ٢٣ – ٢٤.
(١١) الكتاني، محمد، **سلوة الأنفاس ومقارعة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس**، الجزء الأول، تحقيق: حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، ٢٠٠٤، ص: ٣٧٣-٣٧٤.
(١٢) الفاسي، عبد الكبير، **تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين**، موسوعة أعلام المغرب، الجزء السابع، تنسيق وتحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٧ه/ ١٩٩٦م، ص: ٢٤١٠.
(١٣) الغزال، أحمد، **نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد: رحلة الغزال وسفارته إلى الأندلس**، ضبطه وصححه وعلق على حواشيه وأنشأ مقدمته، اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، ص: ١٠- ١١.
(١٤) نفسه، ص:٣٧.
(١٥) الناصري، الاستقصا ...، الجزء الثامن، ص: ٢٣

(١٦) نفسه، ص: ٢٣ – ٢٤.
(١٧) نفسه. ص: ٢٤.
(١٨) الغزال، أحمد، نفسه، ص: ١٤١- ١٤٢.
(١٩) نفسه، ص: ١٤٣.
(٢٠) نفسه، ص: ١٥٣.
(٢١) نفسه، ص : ١٥٣- ١٥٤.
(٢٢) نفسه، ص: ١٧٧- ١٧٨.
(٢٣) نفسه، ص: ١٧٩.
(٢٤) نفسه، ص: ٢٢٦.
(٢٥) الناصري، الاستقصا ...، الجزء الثامن، ص: ٢٣
(٢٦) نفسه، ص: ٢٣- ٢٤. الغزال، أحمد، نتيجة الاجتهاد ...، ص: ١١.
(٢٧) أحمد الغزال، نفس المصدر، نفس الصفحة.
(٢٨) نفسه، ص: ١١- ١٣.
(٢٩) الغاشي، مصطفى، **الرحلة المغربية والشرق العثماني**، محاولة في بناء الصورة، بحث لنيل درجة الدكتورة في التاريخ الحديث، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، ٢٠٠١ - ٢٠٠٢. (مرقونة)، ص: ٨١.
(٣٠) بنحادة، عبد الرحيم، **المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر**، بحث لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراس، فاس، ص: ٢٩٥.
(٣١) المكناسي، محمد بن عبد الوهاب، **إحراز المعلي والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب**، تحقيق وتعليق ودراسة، محمد بوكبوط، بحث لنيل أطروحة دكتوراه الدولة في الآداب تخصص تاريخ، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، ٢٠٠٠ - ٢٠٠١، ص: ٢٥.
(٣٢) الغزال، نفس المصدر، ص: ١٢.
(٣٣) نفسه، ص: ١٣.
(٣٤) نفسه، ص: ١٣- ١٤.
(٣٥) نفسه، ص: ١٤.
(٣٦) نفسه، ص: ١٤- ١٥.
(٣٧) نفسه، ص: ١٤٠.
(٣٨) نفسه، ص: ١٢٥.
(٣٩) نفسه، ص: ١١٣.
(٤٠) نفسه. نفس الصفحة.
(٤١) نفسه، ص: ١١٢.
(٤٢) الغاشي، مصطفى، ن. م، ص: ٧٨.
(٤٣) للمزيد من التفاصيل حول الموضوع، أنظر خالد الناصري، الاستقصا ...، الجزء الثامن، ص: ٣٨ – ٣٩.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الإسهامات الاقتصادية والتجارية للجاليات المغربية في المشرق العربي

ما بين نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين



وليد موحن

باحث في سلك الدكتوراه (التاريخ الحديث والمعاصر)

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – المحمدية

جامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

لم يحظ الوجود المغربي في الأقطار المشرقية بدراسات وافية تستجلي صفحات ضافية من الإسهامات المغربية في شتى المناحي الحياتية وإضافتهم النوعية في العديد من الحقول خاصة منها التجارية والعلمية، ودورهم الريادي في إنعاش الحقل الاقتصادي في بلدان المشرق العربي. فقد اتجهت معظم الأبحاث بخصوص الوجود المغربي في المشرق إلى دراسة الرحلات الحجازية من حيث ظروف سفرها وأهم مراحلها وأماكن تجمعها وأهم حيثياتها. وإلى الفترة الحديثة التي واكبت الحضور العثماني في الأقطار المشرقية. كما سلطت بعض الأبحاث الضوء عن الرحلات العلمية والبعثات الطلابية التي اتجهت من القطر المغربي نحو القاهرة وفلسطين من أجل النهل من يم العلم وتلقي ضروبه في هذه البلدان التي عرفت طفرة علمية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. مما شجع بعض المغاربة على إرسال أبنائهم إلى المشرق لتلقي العلم خاصةً من المنطقة الشمالية. وبين هذا وذاك ظل رصد الوجود المغربي الثابت والذي استقر في المشرق غائبًا إلا لمامًا، ومتناثرًا في أمهات المصادر المغربية والمشرقية، وشحيحًا في المراجع العربية والأجنبية، ونادرًا في المرسلات السلطانية والوثائق المخزنية. وسنحاول في هذا البحث رصد الإسهامات المغربية في المراقي الاقتصادية والتجارية داخل الأراضي المشرقية. لقد هاجرت مجموعة من الأسر المغربية إلى بلاد المشرق وخصوصا إلى مصر لعدة أسباب، وقد ساهمت جنبًا إلى جنب مع باقي الشرائح المجتمعية المشرقية في تأسيس البناء الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والديني والحضاري والعلمي عبر مجموعة من العائلات التي بصمت على حضورها الوازن في أرض المشرق العربي. فلا مشاحة أن هذه العائلات بزغ صيتها في الجانب الديني، وذلك ما حفلت به الإشارات المصدرية، غير أنه كان لها شأوًا عظيمًا في جوانب أخرى على غرار الحياة الاقتصادية والمبادلات التجارية على شاكلة ما سيبوح به متن المقال.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث:	٢١	أبريل	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٤	مايو	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الهجرة المغربية؛ العائلات المغربية؛ السلاطين المغاربة؛ التجار المغاربة؛ المشرق

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.185046

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

وليد موحن، "الإسهامات الاقتصادية والتجارية للجاليات المغربية في المشرق العربي ما بين نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ١٢٣ – ١٢٨.

Corresponding author: mouhan.walid@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

لقد ساهمت عدة أسباب في الهجرة المغربية إلى الأقطار المشرقية منها العامل التجاري الذي يتجلى بشكل أساسي في البحث عن الرواج والغنى وبيع البضائع، وقد برزت عدة عائلات في هذا الميدان خاصة في مصر (عائلات الشرايبي)[1] في القرن السابع عشر. وكذا العامل الثقافي والعلمي والديني الذي يتضح من خلال سيادة الدين الإسلامي ونفس العادات والتقاليد المغربية في الأمصار المشرقية. وقد حوت مصر على أرضها جامع الأزهر، الذي حظي بمكانة دينية وعلمية مرموقة[2]، واستقطب عدد من الجاليات المسلمة، وكان المغاربة على رأس هذه الجاليات. يظهر ذلك من خلال رواق المغاربة الذي كان أكبر أروقة الأزهر، كما كان مرجعية مالكية في الأزهر الشريف. وهو ما يعطينا فكرة عن نسبة وطبيعة المغاربة الذين استقروا بمصر.[3] إلى جانب ذلك كان المغاربة يقصدون الشام ودمشق على وجه الخصوص، لطلب العلم أو تدريس بعض العلوم التي برعوا فيها، مثل القراءات السبع وعلوم الآلة وفي مقدمتها النحو. وسنأتي على تفصيل هذه الأسباب بإسهاب في أول باب من شق هذا البحث.

ولعلنا في هذا البحث والمقام سنحاول رصد قدر الإمكان الإسهامات المغربية وطبيعتها وأهم خصائصها في الأقطار المشرقية في حيز زمني يمتح من الحقبة المعاصرة مدة يسيرة وذاك احتكامًا للمراجع والمصادر المبثوثة بخصوص هذه الفترة. ذلك أن الفترة الوسيطة والحديثة حبل فيها دراسات كثيرة ومقالات عديدة. إن الموضوع قيد البحث يتطلب وجوبًا الاعتماد على مصادر جديدة قديمة فضلاً عن كتب التاريخ العام وكتب الحوليات التي تهتم أساسًا بالأحداث السياسية والعسكرية والتي هي في كثير من الأحيان موجهة وجهة معينة يقتضي هذا الاختيار الاستناد إلى كتب الرحلة وكتب الجغرافيا وكتب التراجم والمناقب والطبقات، وكتب الفقه والتصوف ودواوين الشعر والأدب والمقالات المنشورة على أعمدة الصحافة المغربية والعربية والدولية والوثائق... إلى غير ذلك من المصادر والمراجع.[4]

ولا بد قبل أن ندخل إلى غمار الموضوع أن نشير إلى بعض **الدراسات السابقة** في المضمار ومنها: عبد الرحيم عبد الرحمن، **المغاربة في مصر في العصر العثماني، (١٥١٧ - ١٧٩٨): دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية**، ضمن المجلة التاريخية المغاربية، تونس، ١٩٨٢. الأخضر ناجح محمد، **"هجرة المغاربة إلى الشام ودورها في بلورة العلاقات الاجتماعية بين المنطقتين"**، مجلة الشهيد، العدد ٢٦ و٢٧، طرابلس، ٢٠٠٥. اندري، ريمون، **"المدن العربية الكبرى في العصر العثماني"**، ترجمة لطفي فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩١م. حسام، محمد عبد المعطي، **"العائلة والثروة البيوتات التجارية المغربية في مصر العثمانية"**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨. حسام محمد، عبد المعطي، **البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨. عبد الهادي، التازي، **"رواق المغاربة بالأزهر الشريف"**، دعوة الحق، العدد ٢٢٩، ماي-يوليو ١٩٨٣. بطرس لبكي، **تجارة ولايات بر الشام وولايات العراق والجزيرة والمغرب العربيين في نهاية العهد العثماني، ١٨٢٠-١٩١٠**، ضمن الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، ١٩٨٦، ص ٤٠٢-٤١٤. عبد الرحيم، عبد الرحمان عبد الرحيم، **"فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني"**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م. عبد الرحيم، عبد الرحمان عبد الرحيم، **"المغاربة في مصر في العصر العثماني (١٥١٧-١٧٥٨)"**، منشورات المجلة التاريخية المغربية، تونس، ١٩٨٢. الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن، **"عجائب الآثار في تراجم الأخبار"**، دار الجيل، بيروت، الجزء الأول. الجبرتي، عبد الرحمان بن حسن، **مظهر التقدّم بذهاب دولة الفرنسيس**، تحقيق ودراسة وتعليق عيس عبد الرزاق، العرب للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٥٤. سليم، رجب، **"البيوتات التجارية الفاسية في مصر ١٧٠٠-١٨٠٠م"**، منشورات جامعة عمر المختار، ٢٠١٢.

الإسهامات الاقتصادية والتجارية

إن العامل التجاري والاقتصادي لعب دورًا أساسي وريادي في الهجرة المغربية للأقطار المشرقية، خاصةً في صفوف العائلات الفاسية التي وجدت في مصر والشام منبعًا ومرتعًا من أجل الرواج سبق التجاري والربح الاقتصادي. ولا غرو في ذلك فقد اشتهر المغاربة بالتجارة منذ القدم خاصة في أرض مصر ولا أدل على ذلك عائلة الشرايبي التي استطاع أحد أفرادها وهو "محمد الكبير الشرايبي" أن يصل لمنصب "شهبندر التجار" سنة ١٦٩٥م. إلا أنه لم يستند في وصوله لهذا المنصب على دعم ووجود جالية مغربية بقدر ما استند على ثروته الضخمة ومهارته التجارية، وأيضا علاقاته الطيبة مع التجار الشوام[5].

وطوال القرن الثامن عشر برز المغاربة بشكل باهر في الجانب التجاري من خلال استقصاء مؤلف مهم في هذا الصدد "العائلة والثروة: البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية"[6]

لحسام عبد المعطي، وسليم، رجب، "البيوتات التجارية الفاسية في مصر ١٧٠٠-١٨٠٠م"[٧]، وهذا الجدول يوضح أهم العائلات التي نشطت في المعطى الاقتصادي والتجاري في مصر خلال القرن الثامن عشر:

جدول العائلات المغربية المهاجرة إلى المشرق لدواعي اقتصادية وتجارية

اسم العائلة	التاريخ التقريبي للهجرة	المكان المهاجر منه	مكان الاستقرار
المراكشي	القرن ١٧ م	مراكش	الإسكندرية
الشرايبي	١٦٣٠ م	فاس	القاهرة
بن يحي	١٦٣٠ م	فاس	القاهرة
البناني	١٧١٢ م	فاس	القاهرة
التازي	١٧١٢ م	فاس	القاهرة
بن جلون	١٧١٢ م	فاس	القاهرة
بنونة	١٧١٢ م	فاس	القاهرة
الأبار	١٧١٢ م	فاس	القاهرة
الحلو	١٧١٢ م	فاس	القاهرة
جسوس	١٧١٢ م	فاس	القاهرة
زاكور	١٧١٢ م	فاس	القاهرة
السقاط	١٧١٢ م	فاس	القاهرة
الشاوي	١٧١٢ م	فاس	القاهرة
القباج	١٧١٢ م	فاس	القاهرة
المنجور	١٧١٢ م	فاس	القاهرة
بنشقرون	١٧١٧ م	فاس	القاهرة
الحريشي	١٧١٧ م	فاس	القاهرة
الزرهوني	١٧١٧ م	فاس	القاهرة
العشوبي	١٧١٧ م	فاس	القاهرة
الفاسي	١٧١٧ م	فاس	القاهرة
الكوهن	١٧١٧ م	فاس	القاهرة
حنون	١٧٢٧ م	مراكش	القاهرة
بن كيران	١٧٣٧ م	فاس	القاهرة
الجيلاني	١٧٣٧ م	فاس	القاهرة
شقشاق	١٧٣٧ م	فاس	القاهرة
العرايشي	١٧٣٧ م	مكناس	القاهرة
اللبار	١٧٣٧ م	فاس	القاهرة
مصانو	١٧٣٧ م	فاس	القاهرة
بنمشيش	١٧٥٦ م	فاس	القاهرة
برادة	النصف الثاني من القرن ١٨م	فاس	القاهرة

وقد تركز النشاط الاقتصادي الأساسي الذي مارسه المغاربة في مصر في أعمال التجارة، وكان هذا أمرًا طبيعيًا على ضوء أن القطاعات الأهم التي وفدت إلى مصر من المغاربة بهدف ممارسة نشاط اقتصادي كانت من التجار، ثم أن هذه القطاعات سواء باستقرارها في القاهرة أو في الموانئ المصرية إنما قد استقرت في مجتمعات تجارية. ويشير الجبرتي إلى أن الدور الأساسي للمغاربة في التجارة كان في ميدان تجارة البن والتوابل والتي كانت مراكزها قائمة في أحياء طولون والغورية، أضف إلى ذلك السلع ذات الطابع المغربي والتي جاءت أولاً من المغرب ثم تم تصنيفها في مصر وتخصص في بيعها التجار المغاربة ويشير الجبرتي أيضًا في هذا الصدد إلى ما أسماه بالنعال المغربية أو البلغ.[٨] وإذا كان الوجود المغربي بهذه الحدة والكثافة في المناحي التجارية والاقتصادية فهل بقي على النهج والطريقة نفسها في الفترة المدروسة في بحثنا ما بين ١٨٣٠-١٩٥٦؟

وينبغي الإشارة بادئ ذي بدء أن الاقتصاد والتجارة المغربية تقلصت بشكل كبير في هذه الفترة سواء في الشام أو مصر، وذلك راجع إلى أنكفأ هذه الأقطار في مواجهة الغزو الاستعماري، وكذا إلى بعض الإصلاحات الإدارية في مصر والتي ضربت جذور الوجود المغربي خاصة في عصر محمد علي[٩] (١٨٠٥-١٨٤٥) الذي سن قوانين جديدة تهم إعادة بناء الاقتصاد المصري وذلك من خلال جانبين. تمثل الجانب الأول فيما جرى في ميدان الالتزام حيث نجح محمد علي في إلغاء هذا النظام تمامًا، ومن البديهي أن تضرر مجموع الفئات التي كانت تستفيد من وجود هذا النظام، وكان المغاربة، أو تجارهم على وجه التحديد يشكلون فئة هامة من هؤلاء. وما زالت تجربة محمد علي تسيل مدادًا كبيرًا بين جمهرة الدارسين حول أسبابها ومألاتها الإيجابية والسلبية وانعكاساتها على باقي الأقطار العربية والحركات الإصلاحية.[١٠]

غير أن الجانب الثاني كان بمثابة الضربة الأكثر إيلامًا التي تلقاها هؤلاء التجار، وقد جاءتهم من السياسة الاحتكارية التي اتبعتها الدولة في عهد محمد علي في شتى أوجه النظام الاقتصادي، تجاريًا كان أو صناعيًا.[١١] وقد ظل الوجود التجاري المغربي في الأقطار المشرقية الشامية والمصرية حاضرا برغم من تراجع الواضح والبين خلال الفترة المعاصرة أواخر القرن التاسع عشر وفي عهد الحماية والانتداب الأجنبي.[١٢] لقد أولى السلاطين المغاربة أهمية قصوى لتجار الذين برحوا الأراضي المصرية وكان عليهم وكيل يدبر أمرهم ويسهر على

تمشية أمورهم بأمر من سلطان المغرب وهذا شيء تؤكده بعض الرسائل التي تبودلت بين سلطان المغرب إلى أرض المشرق ومنها رسالة تعود إلى ٢٧ ذي القعدة من عام ١٢٦٠ هـ الموافق لسنة ١٩٠١ م زمن حكم المولى عبد العزيز فحواها:

بسم الله الرحمن الرحيم[١٣]

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم من عبد الله المعتصم بالله المتوكل على الله المفوض أمره إلى الله المتوكل على الله المفوض إلى الله أمير المؤمنين الشريف الحسني العلوي.[١٤] *أيد الله جنوده ونصر إعلامه حينما توجهت وبنوده إلى المقام المنيع نستفتح بخطابه أبواب العناية والتيسير ونستميح بمكاتبته بتيسير كل عسير ونستطلع به أوجه الإسعاد مشرقة القسمات ونستنشق من جنابه نوافح الوداد مسكية النسمات... محمد بن علي أبقاه الله لدعايم الإسلام رافعًا عن حوزة الدين الحنيف مدافعا وسلاما تتعطر من الأرجاء والأندية وتملآ نفحاته الإعلام والأردية...*

فقد بلغنا نفوذ حكم القضاء والإرادة بوفاة وكيل المغاربة الحاج محمد بن عبد السلام براده والحاجة داعية إلى مَنْ يقوم مقامه ويأخذ بيد من يرد لهم للظعن أو الإقامة فرددنا الاختيار إلى التجار الذين لهم الحاجة إلى من يأخذ بأيديهم في الورود والصدور فوقع اختيارهم على التاجر الازهى محمد بن الطيب ابن عم المذكور لما علم من السعي المشكور والبر المشهود المشهور فوليناه الولاية وفق اختيارهم إذا نفعه ودفعه عايد على حجاجهم وتجارهم وهم اعلم بمن يقوم بأمرهم على حسن المراد ويعامل الله في الآخذ بيد الضعفاء والفقراء في الإصدار والإيراد والاعتماد على ذلك على عنايتكم مألوفة ورعايتكم التي هي العدل والإحسان مصروفة فانه بملاحظتكم يبلغ في ذلك الأمل وبعنايتكم يرد الإهابة في القول والعمل فالمطلوب من سيادتكم العلية وسعادتكم الجلية أن تولوه من عنايتكم قسطا وتمنحوه برعايتكم معونة وبسطا وتكلفوا من يأخذ بيده فيما يعرض من الأمور وتسألوا عن هذا كما هو معلوم من سعيكم المشكور أبقاكم الله وأعلام نصركم خافقة وأسواق ثنائكم عامرة نافقة والسلام في ٢٧ ذي القعدة الحرام عام ١٢٦٠هـ.[١٥]

والواضح والبين من خلال الرسالة أن السلاطين المغاربة كان لهم فضل ورعاية لآهل المغرب في المشرق عامة وفي مصر خاصة من خلال تعيين وكيل على المغاربة يسهر على عنايتهم ورعايتهم وتوصية حاكم مصر بوكيل المغاربة خيرًا، وهذا إن دل على الشيء فإنما يدل على مظاهر التآلف والتعاون بين المغرب ومصر، وأن التجار المغاربة لهم مكانة كبرى ومرتبة عظمى في الأقطار المصرية. ويتضح من خلال مضمون الرسالة أن المغاربة لهم دور ريادي في التجارة المصرية وفي طريقة اختيار الوكيل المغربي ذلك أن النسيج المغربي في مصر هو الذي يختاره وإن كان من الضروري أن تأتي الموافقة من السلطان وتتجلى طبيعة عمل الوكيل حسب الوثيقة "نفعه ودفعه عايد على حججهم وتجارهم وهم أعلم بمن يقوم بأمرهم على حسن المراد ويعامل الله في الآخذ بيد الضعفاء والفقراء في الإصدار والإيراد.

والمعنى نفسه نجده في رسالة الحسن الأول إلى إسماعيل باشا عام ١٢٩٤ هـ الموافق عام ١٨٧٧م، بشأن تعيين قنصل أخر هو الحاج عبد الواحد التازي. وتشير وثيقة مغربية إلى قائمة تتضمن أسماء هؤلاء الوكلاء على النحو الآتي:

١-مولاي بن المحمد المهدي (لا ذكر لزمن تعيينه).

٢-الحاج محمد الحبابي

٣-الحاج عبد الغني بن الطيب التازي (المزعلك) الفاسي، توفي بمصر عام ١٢٩٤ – ١٨٧٧

٤-الحاج عبد الواحد بن الطيب التازي وتوفي بفاس عام ١٣١٣-١٨٩٥

٥-الحاج محمد بن قاسم الحلو الفاسي وتوفي أيضا خلال نفس السنة ١٣١٣هـ.[١٦]

ومن بين المغاربة الذين بلغوا شأوًا في مراقي التجارة في مصر نذكر محمد بناني، الذي كان يقيم بمشتشر ببريطانيا وله أهل وعائلة وتجار بمصر، وعمل على جلب وتصدير البضائع إلى مصر مثل الأحذية التقليدية (البلاغي) وقد ورد عنه اتخاذه الجنسية البريطانية، وهو ما سهل مأموريته التجارية، ومعاملاته المالية ذلك أن مصر كانت تحت وطأة الانتداب الإنجليزي.[١٧]

وقد شكل هؤلاء التجار برغم من غياب معطيات هامة بشأنهم نواة التجار المغاربة الذين بلغوا شأوا في ميادين التجارة بمصر، ولا أدل على ذلك من ذكر اسمهم على وجه التحديد في الرسائل السلطانية التي صدرت من السلاطين المولى عبد الرحمن والمولى الحسن وعبد العزيز. وتظل هذه التجارة مع مصر برغم قلتها مهمة وذات قيمة أكيدة من خلال الخلاقات التي توصل إليها من خلال الرسائل التي فحصها بخصوص تقديم وعرض رسائل عن التجارة المغربية في القرن

التاسع عشر الميلادي مع عدة دول أوربية وأسيوية وعربية لا سيما مع الدولة المصرية.[١٨]

وتحفل وثائق عبد الخالق الطوريس بتطوان بمعطيات عن هذه العائلة ولو كانت جانبية، غير أنها ترصد لنا حجم هذه العائلة التجارية بمصر، حيث تخبرنا الوثيقة ١٠٣ من المحفظة ٣٥ بما فحواه أن وكيل المغاربة بمصر طلب تثقيف أملاك عبد السلام بناني المتوفي في مصر، مدعيًا أن عليه نحو مائة ابرة livre لجانب المخزن، وكتب لعامل فاس وثقفها إلى أن يؤدي ورثته ذلك. ثم أن ولده الحسين تظلم من ذلك، وطلب بيان الوجه الذين ترتب ما ذكر على ولده، فرفع الابن التظلم إلى الوزير المختار بن عبد الله فرفع هذا الأخير التظلم إلى السلطان والذي أجاب بإعمال العرف الجاري في هذه الأمور، ويرد عما يقابل به هذا الوكيل لينكف عن ابن الشاكي.[١٩]

كما كانت قوافل الحجيج تحمل بعض المنتوجات الحرفية من فاس لبيعها في البلدان التي يمرون فيها. ولما نالت هذه المنتوجات نجاحًا كبيرًا خصوصًا في الأسواق المصرية[٢٠]، أصبح الحجاج يحملون كميات هائلة، بل أصبحت قوافل تجارية خاصةً تذهب إلى مصر حاملة منتوجات مدينة فاس وبالخصوص الطرابيش والأحذية والجلابيب[٢١]. وأمام أهمية السوق المصرية رحل كثير من التجار الفاسيين إلى القاهرة حيث أقاموا بيوتًا تجارية تحقق أرباحًا طائلة. واللائحة التي أعدها لوكيلرك R.Leclerce في بداية القرن العشرين والخاصة بالتجار الفاسيين الذين يتوفرون على مراسلين تجاريين في القاهرة تضم أكثر من عشرين تاجرًا تتراوح أرقامهم التجارية التي يحققونها مع السوق المصرية بين ٢٠٠٠ و ٦٠٠٠ فرنك سنويًا ونجد من بينهم العربي الحلو الذي كان رأسماله يتجاوز ٥٠٠٠٠ بسيطة وعبد السلام المراكشي الذي كان يتجاوز رأسماله ١٠٠٠٠ بسيطة ومحمد بن البدوي برادة الذي كان يتوفر على رأسمال من نفس الحجم.[٢٢]

خاتِمَةٌ

لا غرو أن المغاربة أعطوا الشيء الكثير في مجموعة من المراقي العلمية، وأسهموا بصورة يانعة وراقية في مجمل المناحي العلمية والحياتية في الأقطار المشرقية مشتغلين جذوة العلم والثقافة في رحاب المشارق الوارف، وكذا جو التسامح الذي امتزت به الأقطار المشرقية خاصة مصر والحجاز. ونافلة القول، أن الوجود المغربي كان فاعلاً وأساسي غير أن أتون المصادر والمراجع لم تعيره الاهتمام الكافي، وما زال هذا الباب في حاجة ماسة إلى طرقه من جمهرة الباحثين والمختصين. ذلك أن جلهم ركز بشكل أساسي على وشائج العلاقات المغربية الأوربية خلال هذه الفترة الزمنية، والتي تميز بالغزوة الاستعمارية الأوربية على المغرب والمغارب والمشرق على حد سواء. ولا مناص من توجيه سهام الباحثين إلى أغوار هذا الموضوع لما فيه من جادة وغاية قوامها رصد صفحات يانعة من الحضور المغربي في المشرقي وإسهاماته في شتى الحقول والميادين والدروب.

الاحالات المرجعية:

(١) عرفت الفترة ما بين ١٦٢٥ و١٦٣٠م استقرار هذه العائلة بمصر، ونقصد بهما الأخوين قاسم وعبد القادر ابني علي الشرايبي، وذلك أثناء رجوعهما من الحج. فقد دفعهما النشاط الاقتصادي الكبير الذي كانت تعرفه القاهرة في ذلك الوقت إلى الاستقرار بهذه المدينة، وبالتحديد في حي الغورية، حيث اشتغلا فيه بمهنة التجارة. واستمر أصل العائلة رائدا في ميدان التجارة في مصر والشام إلى حدود مطلع القرن ٢٠ م

(2) Raymond André, «**Deux familles de commerçants fâsî au Caire à la fin du XVIIIe siècle**». In: Revue de l'Occident musulmanet de la Méditerranée, n°15-16, 1973. Mélanges Le Tourneau. II. pp. 269.

(٣) عبد الهادي، التازي، **"رواق المغاربة بالأزهر الشريف"** دعوة الحق، العدد ٢٢٩، ماي-يوليو ١٩٨٣. ص.٤٥

(٤)مؤلف جماعي، **جوانب من علاقات المغرب بالبلدان المتوسطية (مصر-بلاد الشام-فرنسا)**، تقديم وتنسيق عبد المجيد بهيني، مختبر المغرب والبلدان المتوسطية، جامعة شعيب الدكالي، ٢٠١٠. ص:٦

(٥) حسام، محمد عبد المعطي، **"العائلة والثروة البيوتات التجارية المغربية في مصر العثمانية"**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨، ص٨٥

(٦) من إصدارات الهيئة المصرية العامة للكتاب، تناول فيه المؤلف في الفصل الأول: أسباب الهجرة المغربية إلى مصر، وفي الفصل الثاني: أهم العائلات ومواطنها الأصلية، وأماكن تجمعها، وفي فصل ثالث أماط اللثام عن الجوانب التجارية والاقتصادية وأدوار الجاليات المغربية في الأمصار المصرية.

(٧) على نفس المنوال، أوضح هذا الكتاب، وأبرز بوضوح ونصوع عن الأدوار الريادية للجاليات المغربية في المناحي التجارية والاقتصادية، وخص منها الفاسية التي بلغت شأوا منقطع النظير في الميدان التجاري المصري.

(٨) عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج١، ص٢٦٠.

(٩) محمد علي باشا المسعود بن إبراهيم آغا القوللي، هو مؤسس الأسرة العلوية وحاكم مصر ما بين عامي ١٨٠٥ إلى ١٨٤٨، ويشيع وصفه بأنه "مؤسس مصر الحديثة".

(١٠) أحمد عزت عبد الكريم، **تاريخ التعليم في عصر محمد علي**، دار النهضة المصرية، القاهرة ١٩٣٨، ص٤٥.

(١١)هيلين ريفلين، **الاقتصاد والإدارة في مصر خلال القرن التاسع عشر**، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار النشر المصرية، ١٩٩٤، ص١٢٣.

(12) Bayssiere (N), **Histoire du Maroc**, Librairie Hatier, Paris, p. 65.

(١٣) رسالة محفوظة في دار الوثائق القديمة –القلعة (القاهرة)، محفظة ١٩/ وثيقة ٦٩ بتاريخ ٢٧ القعدة ١٢٦٠.

(١٤) تشير الرسالة أن مرسلها هو السلطان عبد الرحمن بن هشام، لكن تاريخ تحريرها يعود إلى سنة ١٢٦٠هـ زمن حكم المولى عبد العزيز، وقد سقط يونان لبيب رزق ومحمد مزين في دراستهم حول العلاقات المغربية المصرية في نفس السهو والخطأ.

(١٥) **تاريخ العلاقات المغربية المصرية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢**، مرجع سابق، ص٢٤٢.

(١٦) وردت الأسماء في مخطوط كناشة الفقيه العربي الدمناتي وتوجد بالمكتبة الملكية الرباط تحت رقم ٣٧٨١ اعتمدها المنوني في الجزء ١ من مؤلفه مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج١، ص٦٤.

(١٧) محافظ الطريس بتطوان، محفظة ٤٣، وثيقة ٣٠.

(١٨) أحمد توفيق، **تقديم وعرض وثائق غير منشورة عن تجارة المغرب، ضمن ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب**، جامعة الحسن الثاني، ج١، ١٩٨٩، ص١٨٨.

(١٩) محافظ الطريس بتطوان، محفظة ٣٥، وثيقة ١٠٣.

(٢٠) حسن القرنفل، **النشاط التجاري في مدينة فاس في القرن ١٩م**، ضمن ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، جامعة الحسن الثاني، ج٢، ١٩٨٩، ص٥٤.

(21) Michaux Bellaire; **Fes et les Tribus Berbère**; In Bulletin de l enseignement public; N37. Janvier 1922 ;p8

(22) R .Leclerce; **le commerce et l industrie a fes**; in Renseignements Coloniaux; Juillet; 1905 ,p.14.


مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

جوانب من الحماية الإسبانية في المغرب
من منظور مشرقي



مراد المعاشي

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين الدار البيضاء

سطات – المملكة المغربية

مُلَخّص

تعتبر الرحلة من بين أهم الوسائل التي اعتمدتها الدول وخاصة الأوربية للتوغل داخل المجال المغربي، وفهم الذهنية المغربية للتمكن من السيطرة عليها وإخضاعها، وتبعا لذلك زار المغرب عدة رحالين أوروبيين وغير أوربيين عبروا عن مواقفهم من المغرب والمغاربة، سواء في الفترة قبل الاستعمارية، أو خلال الفترة الاستعمارية، إلا أننا أمام رحلة غير مألوفة، فصاحبها أتى من المشرق العربي، يحمل أفكار العروبة والوحدة العربية، فأكيد أن نظرته للمغرب والمغاربة ستختلف عن نظرة الأوربي، كما أن سياق رحلة أمين الريحاني إلى المغرب مثير للجدل، حيث زار المنطقة الخليفية مباشرة بعد انتهاء الحرب الأهلية الإسبانية التي قادها الجنرال فرانكو ضد الجمهوريين ابتداء من سنة ١٩٣٦ إلى غاية سنة ١٩٣٩، وهو ما أضفى على الرحلة بعدا سياسيا. وبما أن هذه الرحلة لم تحظ بالاهتمام الكبير ارتأينا تقديم شذرات منها خلال هذا المقال، نهدف من خلاله تبيان جوانب من المغرب زمن الحماية الإسبانية كما رآها أحد الرحالين المشارقة، سنتناول فيها تعريفا بصاحب الرحلة وسياقها العام، وكذلك موقفه من مشاركة المغاربة في الحرب الأهلية الإسبانية، معرجين في الأخير إلى "النهضة الوطنية" في المنطقة الخليفية من خلال وجهة نظر صاحب الرحلة، متبعين في ذلك منهجا تحليليا، يرنوا إلى تبيان الأهداف الحقيقية من وراء الرحلة، والتي فضل صاحبها التستر عليها، والهدف من كل ذلك هو إثارة الانتباه إلى هذه الرحلة الغنية بالمعطيات التي قلما يتم الالتفات إليها، خاصة من قبل الباحثين في تاريخ الحماية الإسبانية بشمال المغرب أو ما يعرف بالمنطقة الخليفية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث:	١٣	يوليو	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٢٢	أغسطس	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

المغرب؛ أمين الريحاني؛ الحماية الإسبانية؛ المنطقة الخليفية

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2020.185130 DOI

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

مراد المعاشي، "جوانب من الحماية الإسبانية في المغرب من منظور مشرقي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ١٢٩ – ١٣٥.

Corresponding author: morad.elmaachi@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

عَرِفَ المغرب ابتداءً من سنة ١٩١٢م، وضعًا سياسيًا جديدًا، تمثل في فرض الحماية الفرنسية عليه بتاريخ ٣٠ مارس ١٩١٢م، ثم بعد ذلك جاءت الاتفاقية الفرنسية-الإسبانية بتاريخ ٢٧ نونبر ١٩١٢م، التي نصت على اقتطاع الجزء الشمالي من المغرب ووضعه تحت الحماية الإسبانية، وقد أدى هذا الوضع إلى تجزيئ الدولة المغربية إلى ثلاثة أقسام؛ الحماية الفرنسية بوسط البلاد، وتسمى أيضًا بالمنطقة السلطانية، والحماية الإسبانية بالشمال، وتسمى بالمنطقة الخليفية[١]، ثم منطقة طنجة الدولية.

انطلاقًا من ذلك، أضحت الدراسات التي تهتم بتاريخ المغرب زمن الحماية، تنقسم إلى دراسات خاصة حول منطقة الحماية الإسبانية، ودراسات أخرى حول منطقة الحماية الإسبانية، إضافة إلى منطقة طنجة الدولية، نظرًا لأن كل منطقة كانت لها تنظيماتها الخاصة ومؤسساتها الخاصة...إلخ. ارتباطا بهذا الوضع، قام أمين الريحاني بزيارة إلى المغرب وبالضبط إلى المنطقة الخليفية سنة ١٩٣٩م، دون من خلالها كتابًا خاصًا، عنونه بالمغرب الأقصى، تناول فيه مجموعة من القضايا التي تهم البلد في علاقته بالحماية الإسبانية.

سنحاول خلال هذه المقالة استخراج ما جاء به الريحاني حول ما سماه بمزايا الحماية الإسبانية بالمنطقة الخليفية، ومقارنته بنصوص أخرى، وذلك لمعرفة مدى مساهمة إسبانيا الفعلية في تطوير المنطقة؟ وهل كانت تهدف إلى تطوير المنطقة انطلاقا من العلاقة الأخوية بين الشعبين كما عبر عن ذلك؟ ثم سنحاول الإحاطة بالظروف الدولية المتحكمة في علاقة إسبانيا بالمنطقة الخليفية؟ وسنقف في النهاية عند نظرته للمغرب والمغاربة؟

أولاً: التعريف بصاحب الرحلة وسياقها العام

١/١-التعريف بصاحب الرحلة

أمين الريحاني، مُؤَلِف كتاب المغرب الأقصى، صحافي ورحالة ومترجم وداعية قومي عربي من لبنان، ولد سنة ١٨٧٦م، هاجر في سن مبكرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وتنقل بين مجموعة من الدول، كفلسطين وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية.... شارك في أحداث الثورة العربية ضد الدولة العثمانية سنة ١٩١٦م، وقام بعد ذلك بسلسلة من الرحلات إلى الأقطار العربية في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، أولها رحلته إلى شبه الجزيرة العربية سنة ١٩٢٢م، التي شكلت مادة لكتابه الشهير "ملوك العرب" الصادر سنة ١٩٢٤م، ثم "تاريخ نجد وملحقاته" سنة ١٩٢٧م، ثم "قلب العراق" سنة ١٩٣٥م، كما ألف كتبا أخرى؛ منها "النكبات: خلاصة تاريخ سوريا" سنة ١٩٢٨م، و"فيصل الأول"{ملك العراق} سنة ١٩٣٣م. وله كذلك "الريحانيات"، "قلب لبنان"، "القوميات". وهو على العموم غزير الإنتاج باللغتين العربية والإنجليزية. قام برحلة إلى المغرب وتحديدا إلى المنطقة الخليفية في الفترة ما بين ماي ويونيو من سنة ١٩٣٩م، ألف خلالها كتابه "المغرب الأقصى". وافته المنية بعد عودته من المغرب بمدة قصيرة وبالضبط في ١٣ شتنبر من سنة ١٩٤٠م، ولم يخرج مؤلفه هذا إلى الوجود إلا برغبة من أخيه "ألبرت الريحاني"[٢].

الكتاب في أصله المخطوط معنون "بالمغرب الأقصى نور الأندلس"، لكن ألبرت الريحاني رأى أن موضوع الأندلس بعيد نسبيًا عن موضوع "المغرب الأقصى" فقام باستلاله من الكتاب في طبعته الثانية سنة ١٩٧٥م. فكتب بهذا الصدد: "نور الأندلس كما ذكرت في مقدمته، استللته من كتاب المغرب الأقصى في طبعته الأولى لموضوعه المستقل عن كتاب المغرب الأقصى وقد ضمنته التسعة فصول من الجزء الثالث في المغرب الأقصى..."[٣]. يقع كتاب "المغرب الأقصى" في طبعته الثانية لسنة ١٩٧٥م -الذي نشر بدعم من مؤسسة الريحاني ببيروت ودار الثقافة ببيروت -في ٥٥٧ صفحة؛ يضم بين ثناياه توطئة لألبرت الريحاني ومقدمة، ثم الفهرس، ويحتوي الكتاب على ثلاثة أجزاء، وملحق. يتضح من خلال اطلاعنا على محتويات رحلة الريحاني، نزعة تفضيلية للحماية الإسبانية على نظيرتها الفرنسية، متأثرا نوعا ما بشخصية المقيم العام آنذاك خوان بيكبيدير، الذي كان مضيفه خلال رحلته هاته، وقد خصص له فصلا كاملا لذكر مناقبه.

٢/١-السياق العام للرحلة

شهدت إسبانيا سنة ١٩٣٦م، حدثا تاريخيا مهما، وهو انقلاب الجنرال فرانكو على النظام الجمهوري بإسبانيا، وقد تطور الأمر إلى حصول حرب أهلية. انطلق هذا الانقلاب من المغرب[٤]، بل الأكثر من ذلك قام فرانكو بالسيطرة على مدينة تطوان عاصمة المنطقة الخليفية[٥]، وباقي المدن الرئيسية بها[٦]، واتخذها درعا له في مواجهة الجمهوريين، وكان لهذا الحدث بالغ الأثر في علاقة فرانكو بالمنطقة، لأن أي تهديد يأتيه منها يعني نهاية ثورته أو انقلابه.

بعد سنوات من الصراع استمرت من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩م، استطاع فرانكو القضاء على الجمهوريين وحكم الدولة الإسبانية، وفرضت الظروف الدولية عليه التعامل مع المنطقة الخليفية بحذر شديد، فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وفرض الدول المنتصرة فيها حصارا على إسبانيا، مما أدخلها في عزلة عن العالم الغربي، ظهر للوجود ما سمي بالصداقة العربية الإسبانية، وحاولت إسبانيا تبرير استعمارها للمنطقة الخليفية لأجل التقرب من الدول العربية، يقول أحد الباحثين "إن فك الحصار الخارجي، وتزيين صورة النظام، هما اللذان دفعا نظام فرانكو إلى التمسك باستعمار المنطقة {الخليفية}... رغم قلة الإمكانيات الذاتية، فقام بإدخال مجموعة من الإصلاحات على جهاز الحماية والأوضاع بالمنطقة، حتى تساهم هذه الأخيرة في فك الحصار والعزلة المضروبة على النظام، وتكون حجر الزاوية وعربونا على الصداقة المصطنعة مع العالم العربي الإسلامي، لخدمة المصالح الإسبانية..."[٧].

في سياق هذه الحملة الدعائية والتبريرية لاحتلال الإسبان المنطقة الخليفية، وبهدف التقرب من الأنظمة العربية لفك العزلة والحصار عن الدولة الإسبانية، جاءت زيارة أمين الريحاني للمغرب أو بشكل أدق للمنطقة الخليفية منه.

ثانيًا: موقف الريحاني من مشاركة المغاربة في الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ـ ١٩٣٩م)

ميز الريحاني بين مرحلتين في الحماية الإسبانية للمنطقة الخليفية؛ مرحلة ما قبل فرانكو، التي كانت حسب رأيه، مرحلة سلبية شبيهة بأختها الفرنسية في شتى المجالات. ومرحلة فرانكو التي نسب لها كل التطورات التي عرفتها المنطقة، والنصوص التي تسير في هذا المنحى موجودة بكثرة داخل مؤلفه منها قوله "ما تمتعت الصحافة في هذه المنطقة، ولا تمتعت الجمعيات والأحزاب بحرية الفكر والنشر والاجتماع في العهدين السابقين لعهد الثورة"[٨]، ويقصد بالثورة انقلاب فرانكو على الجمهوريين.

تشير المصادر المعايشة للحظة الحرب الأهلية الإسبانية، إلى كون فرانكو أسس نواة جيشه من مغاربة ريفيين[٩]، وبمساعدتهم استطاع إخضاع المنطقة الخليفية لحكمه[١٠]. وحاول أمين الريحاني استغلال هذا الأمر ليبرهن على أن المغاربة شاركوا في هذه الحرب إلى جانب فرانكوا حبا في هذا الأخير، محاولا بذلك الإلماع إلى تقبل المغاربة للحماية الإسبانية ورضاهم عليها، وقد ساق أمثلة للتأكيد على كلامه، منها وصفه للعلاقة التي تربط الخليفة الحسن بن المهدي بالرعية، وهي علاقة حب على الرغم من علاقته بالإسبان، وذلك لأن هذه العلاقة مع الإسبان ناشئة من المصالح المشتركة بين البلدين، وهذه العلاقة بين الخليفة والدولة الحامية هي منقطعة النظير في العالم العربي[١١]، كما استشهد بقول للمندوب السامي خوان بيكبيدير جاء فيه "لا يفسد الصلة بيننا وبين سمو الخليفة غير المصالح المتناقضة، ليس بيننا شيء منها ـ ليس ما يوجب الضغط والإكراه ـ ختم الخليفة الحسن بيده لا بيدنا. وكرامته بكرامتنا فهي مصونة معززة"[١٢].

كان دليل الريحاني في هذا الطرح مشاركة المغاربة "طوعا" -حسب زعمه- في الحرب الأهلية الإسبانية بجانب قوات فرانكو، وسعادتهم بنصره على الجمهوريين، مستشهدا بما نشرته جريدة الصباح "وبعد ثلاث سنوات، في سنة النصر، تنشر جريدة < بريد الصباح > بتطوان سيرة بطل الثورة لأنه أقرب الناس إلينا جغرافيا، ولأنه نبغ في المغرب وقام فيه بحركته الشهيرة "[١٣].

بالعودة إلى المصادر التي عايشت اللحظة سنجد عكس ما تحدث عنه الريحاني، فهو لم يشر إلى احتجاج الخليفة الحسن بن المهدي على إقحام المنطقة في الصراعات الداخلية لإسبانيا[١٤]، ومن جهة ثانية كان لمشاركة المغاربة إلى جانب فرانكو في الحرب الأهلية الإسبانية دوافع عدة، منها تماطل الجمهوريين في تلبية مطالب الحركة الوطنية في الشمال، التي قاموا بتقديمها على شكل عريضة لرئيس الحكومة الإسبانية سنة ١٩٣١م[١٥]، إضافة إلى سيطرة فرانكو على المنطقة مع انطلاق الحرب الأهلية الإسبانية كما أشرنا سالفا، بل كانت الشرارة الأولى لانطلاقتها، ومن ثم فالمنطقة كانت تحت حكمه، ثم إن خوف المغاربة من العقاب كان عاملا مساهما في مشاركتهم ضمن قوات فرانكو، لذلك عمل هذا الأخير على تمرير خطابه الاستعماري "المعسول" لإرضاء المغاربة[١٦]، حتى يضمن مشاركتهم إلى جانبه في الحرب، وضمان جبهته الخلفية ضد أي تمرد أو ثورة تضعف موقفه في الحرب مع الجمهوريين[١٧]. ويبقى الدافع الأسمى هو رجاء رجالات الحركة الوطنية في الحصول على مكاسب، وتحقيق مطالبهم المرفوضة من قبل الجمهوريين، وهو ما يمكن أن نقول عنه نوع من المصلحة المتبادلة، لا الحب والأخوة كما حاول الريحاني إيهام القارئ به.

سرعان ما تنكر فرانكو لهذه الوعود بعد نشوب الحرب العالمية الثانية، لتعوضها مطامعه الاستعمارية، خصوصا بعدما اعتقد أن فرنسا وإنجلترا ستنهزمان في الحرب ليقوم

باحتلال منطقة طنجة الدولية. واتضح أن خطاب فرانكو ووعوده كانت مرحلية فقط[١٨] . ومع انقلاب ميزان القوى لصالح فرنسا وإنجلترا عاد من جديد لخطابه القديم.

ثالثًا: إسبانيا و"النهضة الوطنية" في شمال المغرب بعيون الريحاني

شهدت المنطقة الخليفية، زمن زيارة الريحاني لها، "نهضة" وطنية في مختلف المجالات، ونسب الفضل جله في هاته النهضة، إلى الحكومة الإسبانية في شخص مقيمها العام آنذاك خوان بيكبيدير فكتب يقول "من الأسباب المباشرة لتلك النهضة الوطنية ما تبدله في سبيلها الحكومة الإسبانية الخليفية، وخصوصا الإسبانية الحاضرة لا الماضية، أي حكومة الجنرال فرانكو التي يمتلها في المنطقة إسباني كريم، محب للمغرب وأهله حبا خالصا لا تشينه المصلحة، ولا يشبه الغموض... هذا الرجل هو الكولونيل ضون خوان بايبدر المقيم العام... وأذكره هاهنا، لما له من الفضل في النهضة المغربية الوطنية نهضة التعليم"[١٩].

يتضح من خلال هذا المقتطف أن الريحاني ربط "الصحوة" التي عرفتها المنطقة الشمالية بالمقيم العام بيكبيدير وبالتالي بحكومة فرانكو، متجاهلا الدور الكبير الذي لعبه الوطنيون المغاربة في المنطقة وعلى رأسهم الحاج عبد السلام بنونة ومحمد داود وعبد الخالق الطريس وغيرهم[٢٠]، فهل من المعقول تحقيق "نهضة" وطنية في مدة وجيزة وفي ظل حرب أهلية طاحنة؟

حاول المقيم العام خوان بيكبيدير منذ تعيينه في دجنبر ١٩٣٦م، ربط علاقات طيبة مع رجالات الحركة الوطنية المغربية بشمال المغرب، لكن الميزة الأساسية لهذه العلاقة كانت هي المنفعة وتبادل المصالح[٢١]، وهكذا سمحت السلطات الإسبانية للحركة الوطنية بالقيام بأنشطتها السياسية، ورخصت بإصدار الصحف وتأسيس الأحزاب والجمعيات[٢٢]، وذلك في إطار سياسة انفتاحية لدغدغة مشاعر عرب المشرق[٢٣]. ومن بين المجالات التي حظيت باهتمام إسبانيا خلال هذه المرحلة مجالات التعليم وحرية الصحافة وتأسيس الأحزاب السياسية.

١/٣-مجال التعليم

استهل الريحاني الحديث عن التعليم، بمقارنة بين ما تنفقه الحكومة الفرنسية على هذا القطاع، وما تنفقه الحكومة الإسبانية؛ ففي المنطقة السلطانية؛ تصل نفقات وزارة المعارف إلى خمسة وسبعين مليون فرنك، مقسمة إلى خمسين مليون للتعليم الفرنسي الإسرائيلي، وثلاثة وعشرين مليون للتعليم الإسلامي المغربي، وعبر عن ذلك بقوله "أي أن مليونين ونصف مليون ليرة تخصص لأبناء الأقلية، ومليون ليرة لأبناء الأكثرية الساحقة في البلاد"[٢٤]، في حين أن الحكومة الإسبانية تنفق أربع أخماس ميزانية المعارف على المغاربة، وأقل من خمس واحد على تعليم أبناء الإسبان، فيقول "ها هو ذا أحد وجوه التفاوت بين الحكمين الفرنسي والإسباني في المغرب"[٢٥].

أما عن المشاكل التي تواجه الحكومة الإسبانية في ميدان التعليم، فقد حددها الريحاني في صعوبة إيجاد المعلمين والمعلمات "فهمت أن الحكومة تستطيع أن تبني من المدارس في بضع سنوات ما يكفي الثمانين ألف طالب وطالبة. فمن أين تجيء بالمعلمين والمعلمات؟ إنها تحتاج إلى ألف وستمائة معلم لتعليم ثمانين ألفا من البنين والبنات. ولا يتيسر وجود العشر من هذا العدد في المنطقة اليوم"[٢٦]، لذلك عمدت الحكومة لإنشاء دار المعلمين من أجل حل المشكل تدريجيا، وبعث مجموعة من الطلبة إلى مدرسة النجاح بنابلس؛ البعثة الأولى في ١٩٣٠م، والثانية في ١٩٣٣م[٢٧]. وفي سنة ١٩٣٨ تم افتتاح بيت المعرفة بمصر، حيث يقيم طلبة مغاربة فيه لتلقي العلوم المختلفة. كما عمد بيكبيدير إلى جلب معلمين من مصر ولبنان[٢٨]. نوّه الريحاني بالتعاون بين الإقامة العامة الإسبانية والخليفة السلطاني حول مشاريع التعليم، "فعندما يقول المقيم العام للخليفة الحسن أو الصدر الأعظم إن مديرية المعارف تحتاج إلى زيادة مليون أو مليونين من البسيطات في ميزانيتها، فالحسن، دامت حكمته، لا يتردد في كتابة الظهير بل قد يكون أسرع بالأمر من المقيم العام بالاقتراح"[٢٩].

كانت للظروف المتباينة بمنطقة الحماية الإسبانية بسبب الحرب الأهلية الإسبانية، دور أساسي في السماح بتطوير مجال التعليم بالمنطقة، عن طريق تأسيس مجموعة من المدارس والمعاهد[٣٠]، إلا أن العديد من هذه المدارس والمعاهد كانت قد أسست قبل هذه المرحلة بكثير، وساهم في تأسيسها بشكل أساسي الرعيل الأول لرجال الحركة الوطنية بشمال المغرب، وعلى رأسهم الحاج عبد السلام بنونة انطلاقا من سنة ١٩١٦م[٣١]، بحيث أن حكومة فرانكو لم يكن لها أي تصور عن التعليم المغربي[٣٢]، لذلك عمل فرانكو على إصلاح التعليم بالمنطقة، حتى يستطيع التحكم فيه خدمة لمصالحه، وعليه تم استصدار مرسوم في ٢٩ يناير ١٩٣٧م، يحدد الخطوط العريضة للسياسة التعليمية الجديدة، ونص هذا المرسوم على الفصل الكامل بين التعليمين المغربي والإسباني، وكان ذلك بهدف

تقسيم المغاربة بدعوى احترام الخصوصيات[٣٣]، ونص المرسوم أيضًا على إنشاء مجموعة من المعاهد الخاصة، منها المعهد الحر الذي أشاد به الريحاني، وقد كان من بين الأهداف المضمرة لهذه السياسة التعلمية خلق اختلاف ثقافي وإيديولوجي بين المنطقة السلطانية الفرنسية والمنطقة الخليفية الإسبانية[٣٤] وذلك تمهيدًا لفصل المنطقة بشكل نهائي عن المغرب.

خلال تطرق الريحاني لميزانية المنطقة الخليفية في ميدان التعليم بالخصوص، قارنها بالمنطقة السلطانية، ليبين بطريقة ضمنية إحدى الفوارق بين الحكومتين، والمتمثلة في ارتفاع نفقات التعليم في المنطقة السلطانية، ولكنها مخصصة لأبناء الفرنسيين والإسرائيليين (اليهود) أكثر من أبناء المغاربة المسلمين، على عكس الحكومة الإسبانية التي تصرف أكثر من ثلثي الميزانية على أبناء المغاربة[٣٥]، لكن الهدف منه لم يكن تطوير المنطقة كما يقول الريحاني، وإنما تماشيا مع الظروف التي فرضت على فرانكو الرضوخ لمطالب الوطنيين المغاربة.

لم تستمر هذه السياسة طويلا، حيث نجد أنه ما إن انتهت الحرب العالمية الثانية، حتى عرقل الإسبان عملها ومنعوا الطلاب من الدراسة حتى مستوى الباكالوريا، بقطع الإعانة المالية العمومية، وسحب الأساتذة الإسبان الذين كانوا يدرسون بالمعاهد التي شيدت في المنطقة الخليفية[٣٦].

٢/٣-حرية الصحافة والأحزاب السياسية

عمد فرانكو إلى إدخال بعض الإصلاحات في المنطقة الخليفية كما ذكرنا سابقا، من هذه الإصلاحات منح حرية الفكر والعمل الصحفي والاجتماعات للوطنيين المغاربة، وكتب الريحاني تعبيرا عن هذه الحرية بالقول "لا يتمتع بها {أي الحرية} ويا للآسف جلالة السلطان نفسه"[٣٧]. في إشارة إلى القمع الذي جوبهت به الحركة الوطنية في المنطقة السلطانية من قبل الفرنسيين.

وفي هذا الإطار ساق لنا مواقف الأحزاب الوطنية التي رأت النور خلال هذه المرحلة، فحسب ما جاء به الريحاني، فإن حزب الإصلاح اعتبر التعاون مع إسبانيا لإدخال الإصلاحات أمرًا مفيدًا "وإذا كان نظام الحماية في جوهره هو نظام الإصلاحات فلا نظن أن التعاون مع الحكومة الإسبانية على تنفيذ الإصلاحات الضرورية إلا مفيدًا "[٣٨]. أما حزب الوحدة، فموقفه لا يختلف عن حزب الإصلاح "ومن حسن الظن أن الحكومة الإسبانية حافظت على مبدأ الحماية في أكثر تصرفاتها ... وأظهرت استعدادها لسماع صوت المغاربة وتحقيق أمانيهم. فلذلك تقف الوحدة المغربية من إسبانيا موقف التفاهم والتعاون والنقد الهادئ "[٣٩]، وفي مقابل هذه المواقف ساق لنا مواقفها من الحماية الفرنسية، فحزب الإصلاح مثلاً اعتبر أن "الحماية لم تقم في المغرب بما التزمت به بموجب معاهدة فاس (١٩١٢) في أي ناحية من نواحي الإصلاح. بل إن نظامها أتى بعكس المطلوب. فوجد المغاربة أنفسهم بعد خمس وعشرين سنة من إعلان الحماية، أمام مزاحمة أجنبية لا طاقة لهم للتغلب عليها. فالإصلاحات المقترحة في هذه المطالب هي أقل ما يقنع الأمة بحسن نية الدولة الحامية. وقد شعر المغرب اليوم بوجوده المستقل وبوجوب الاحتفاظ بهذا الوجود"[٤٠]، أما حزب الوحدة فاعتبر أنه "لا مبرر لتدخل الفرنسيين من الوجهة القانونية والدولية إلا شيء واحد هو مساعدة المخزن الشريف، بموجب معاهدة فاس (١٩١٢) على إدخال الإصلاحات الضرورية في مملكته. وحيث أن المكلفين من الحكومة الفرنسية اتبعوا في المغرب منذ إعلان الحماية إلى الآن سياسة الفتح والاحتلال والاستعمار والاندماج فحركة الوحدة المغربية تبدل كل جهودها لمقاومة هذه السياسية ولإقناع ممثلي فرنسا في المغرب بتطبيق سياسة الحماية الحقيقية وتنفيذ الإصلاحات الموعود بها الشعب المغربي حتى يستعد لاسترجاع حريته وتستعد الدولة المغربية لاستعادة استقلالها "[٤١]. وقد كان هدف الريحاني من إبراز هذه المقارنة، تبيان الاختلاف الكبير في موقف الأحزاب المغربية من الحمايتين الإسبانية والفرنسية، فالحماية الإسبانية مقبولة لديهم، عكس الحماية الفرنسية. إضافة إلى ذلك تأسست العديد من الجرائد خلال مرحلة فرانكو، كجريدة الريف والحياة والحرية والأمة والوحدة المغربية[٤٢]، وذلك تبعًا للتساهل الذي أشرنا إليه سلفًا.

ومن جملة ما قاله الريحاني عن المنطقة، معبرًا عن تفاؤله بحرية الصحافة وتأسيس الأحزاب السياسية قوله إن المنطقة الخليفية هي باب الإصلاح للمغرب كله "هذه المنطقة الخليفية ـ إذن هي الباب للمغرب أجمع ـ باب الإصلاح والتجدد، باب الرقي والعمران، باب الثقافة والعلم، باب الحرية والاستقلال "[٤٣]. وبالتالي فقد حاول الريحاني إظهار مدى الانسجام والرضى المتبادل بين الحركة الوطنية المغربية وحكومة الجنرال فرانكو، مركزا على مسألة الحب والود المتبادل، دون الإشارة إلى أن هذه الإصلاحات وهذه الحرية النسبية حكمتها ظروف الحرب الأهلية الإسبانية من جهة، والعزلة التي كانت تعاني منها إسبانيا دوليا من جهة ثانية.

أشاد الريحاني بالحرية التي تتمتع بها الصحافة والأحزاب السياسية، مستشهدًا بمواقف الأحزاب السياسية من الحكومة الإسبانية، ولم يشر إلى أن المندوب السامي بيكبيدير، كان يطمح إلى إيجاد وسيلة لإنشاء اتجاه سياسي منافس لحزب الإصلاح الوطني الذي تزعمه عبد الخالق الطريس، ووجد في المكي الناصري مبتغاه، وطبق سياسة فرق تسد من أجل إضعاف الحركة الوطنية بالمنطقة الشمالية[٤٤]، والدليل على أن فرانكو وحكومته كانوا يعملون بمبدأ براغماتي صرف، هو تراجعهم عن هذه الإصلاحات بمجرد قرب انتهاء الحرب الأهلية وانتصارهم على الجمهوريين[٤٥]، وكانت أولى الخطوات هي إقالة المندوب السامي خوان بيكبيدير وتعويضه بالجنرال أسينسيو بتاريخ ١٧ غشت ١٩٣٩م، الذي قام بالقضاء على كل المبادرات الإصلاحية السابقة[٤٦]. ومع ذلك وجب الإقرار بأن المنطقة الخليفية، تمتعت بهامش من حرية التعبير (الصحافة) لم تتمتع بها المنطقة السلطانية خلال مرحلة الحرب الأهلية الإسبانية.

٣/٣-خلاصات حول الإصلاحات الفرانكاوية وموقف الريحاني منها

زعم الريحاني أن إسبانيا تريد الخير للمغرب وأن سياستها الإصلاحية نابعة من الحب المتبادل بين البلدين، ولا تطمح إلى الاستفادة من المغرب، وذلك خلال إحدى حواراته مع بيكبيدير حيث قال على لسان هذا الأخير "أريد أن يكون الخير كله. مائة في المائة، لأهل البلاد، إسبانيا لا تريد أن تربح من المغرب[٤٧]. فإلى أي حد كانت آراء الريحاني صائبة؟ وما الخلفية الإيديولوجية التي تحكمت في كتابه عن المنطقة الخليفية؟

عمومًا، عمدت الحكومة الإسبانية لتعويض النقص الحاصل في تدبير شؤون المنطقة، مقارنة بنظيرتها الفرنسية في المنطقة السلطانية، أسلوب الدعاية وأولتها اهتماما كبيرا خصوصا على عهد فرانكو[٤٨]، وحسب ما أورده الريحاني فهذه الحملة الدعائية، هدفت إلى التعريف بالمنشآت والإصلاحات الإسبانية بالمنطقة الخليفية وما تطمح إليه في إنتاجها سياسة غير نفعية[٤٩]. كما أن التحاق الأساتذة من لبنان ومصر للتدريس في المنطقة الخليفية، جاء في سياق هذه الحملة الدعائية للجنرال فرنكو الموجهة للبلاد العربية[٥٠]. وعليه؛ فإن زيارة الريحاني للمنطقة الخليفية خلال هذه المرحلة، تدخل ضمن هذا المخطط الدعائي الاستعماري لإسبانيا، وذلك في إطار تطبيع العلاقات العربية الإسبانية لتجميل صورة الإسبان عند العرب وتبرير احتلالهم للمنطقة الشمالية المغربية.

إذن؛ فالسياسة الإسبانية بالمنطقة الخليفية، من هذا المنطلق لم تكن وليدة الحب المتبادل بين المغاربة والإسبان كما زعم الريحاني، بل ارتبطت بمصالح فرانكو من جهة، ومحاولة كسب ود المغاربة من جهة أخرى ضدا على فرنسا، ولعل خطبة المقيم العام بيكبيدير أثناء تنصيب الريحاني مديرا شرفيا لمعهد الدروس العربية[٥١]، ومرافقة كل من أراغون وطوباؤ -موظفان ضمن الإقامة العامة الإسبانية- طوال مراحل رحلته، خير دليل على أن زيارته لم تكن بريئة من الحمولة الدعائية السياسة والرسمية، على عكس ما عبر عنه في مستهل مؤلفه بقوله "بعد رحلاته العربية المتعددة، التي استأثرت بي بضع سنوات، نشأت الرغبة في رحلة إلى بلاد عربية أخرى، أسماها العرب الأقدمون المغرب الأقصى. وما كانت هذه الرغبة بأقل إلحاحًا واستبدادًا من الرغبات في الرحلات التي تقدمتها، بل كانت أشدّ وأحدّ فنفذت إلى أقصى نواحي النفس، وصارت تحنّ كالقلب الفتيّ، قلب العاشق، إلى ذلك البلد العربي في أفريقيا الغربية الشمالية."[٥٢].

خَاتمَةٌ

يكتسي كتاب "المغرب الأقصى"، قيمة علمية بارزة وأهمية تاريخية كبيرة، نظرًا لما يحتوي عليه من معلومات حول الحماية الإسبانية بالمنطقة الخليفية، وبالخصوص على عهد فرانكو، على الرغم من تحيزه الواضح للحماية الإسبانية، إلا أنه يقدم لنا مجموعة من المشاهدات والحوارات مع شخصيات بارزة وفاعلة في الأحداث، وهذا ما يجعله مصدرًا مهما لكل باحث في موضوع الحماية الإسبانية بالمغرب، كما قدم معلومات عن الحياة الاجتماعية للمغاربة، وعن العادات والتقاليد من لباس وصناعات محلية، وأفرد إحصاءات دقيقة عن السكان، وعن ميزانية الحكومة المغربية بالمنطقة المدروسة، وعن نشأة الأحزاب السياسية وعملها. وبالتالي فإن رحلة الريحاني جاءت بمعلومات ثمينة حول المنطقة، يمكن دراستها من عدة جوانب، لأنها غنية وغزيرة بالمعلومات. كما تشكل شخصية صاحبها أمين الريحاني حافزًا للدارسين، نظرًا لكونه يمثل نظرة مشرق للمغرب والمغاربة، على الرغم من الأهداف المضمرة للرحلة في إطار العلاقات الفرانكو - عربية.

الاحالات المرجعية:

(١) يُقصد بالمنطقة الخليفية منطقة الحماية الإسبانية بشمال المغرب، وكانت تسمى بالخليفية نسبة إلى وجود خليفة السلطان بها، في حين كانت تسمى منطقة الحماية الفرنسية بالمنطقة السلطانية نسبة إلى وجود السلطان الشرعي بها.
(٢) أحمد المكاوي، **"الريحاني، أمين"، معلمة المغرب**، الجزء ٢٥، مطابع سلا ومطبعة النجاح الجديدة، ٢٠١٠، ص ١٣٤ ــ ١٣٦.
(٣) أمين الريحاني، **المغرب الأقصى**، مؤسسة الريحاني ودار الثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٥، ص ٤٨٥.
(٤) التهامي الوزاني، **المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في شمال المغرب**، تحقيق وتعليق محمد بن عزوز حكيم، مطبعة الساحل، الرباط، ط١، ١٩٨٠، ص ١٤١.
(٥) محمد داود، **على رأس الثمانين**، مراجعة حسناء داود، منشورات جمعية تطاون أسمير، ٢٠١١، ص ١٨٨.
(٦) التهامي الوزاني، **تاريخ المغرب**، ج٣، مطبعة الريف، تطوان، ط١، ١٩٤٠، ص ٢٤٨.
(٧) عبد الرحيم برادة، **إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية (١٩٣١-١٩٠٦)**، ج ٢، إفريقيا الشرق-المغرب، الدار البيضاء، ٢٠٠٧، ص ٦٨.
(٨) أمين الريحاني، **المغرب الأقصى**، مرجع سابق، ص ٢١٠ ـ ٢١١.
(٩) التهامي الوزاني، **المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في شما المغرب**، تحقيق وتعليق محمد بن عزوز حكيم، مطبعة الساحل الرباط، ط١، ١٩٨٠، ص ١٤١
(١٠) التهامي الوزاني، **تاريخ المغرب**، مرجع سابق، ص ٢٤٨.
(١١) الريحاني، مرجع سابق، ص ٢٤٧.
(١٢) نفسه، ص ٢٤٨.
(١٣) نفسه، ص ٢٠٨.
(١٤) بوبكر بنونة، **وثائق حزب الإصلاح الوطني**، ج١، مطابع الشويخ تطوان، ط١، ٢٠٠٧، ص ١٩.
(١٥) محمد ابن عزوز حكيم، **لمحات من حياة المجاهد الحاج الطيب بنونة**، منشورات مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة والنشر، السلسلة الشاملة، رقم١، مطبعة الساحل، ط١، ١٩٨١، ص ٣٦.
(١٦) عبد الرحيم برادة، **إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية (١٩٣١ – ١٩٠٦)**، ج ١، إفريقيا الشرق-المغرب، الدار البيضاء، ٢٠٠٧، ص٦٧.
(١٧) المهدي بنونة، **المغرب...السنوات الحرجة**، مطبوعات جريدة الشرق الأوسط، ط١، ١٩٨٣، ص ٥٧.
(١٨) نفسه، ص ٦٨.
(١٩) الريحاني، مصدر سابق، ص ١٨٤.
(٢٠) حول هذا الموضوع انظر: مراد المعاشي، **عبد السلام بنونة ١٨٨٨ – ١٩٣٥م**، بحيث لنيل شهادة الماستر، جامعة الحسن الثاني كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق-البيضاء، ٢٠١٩، مرقون.
(٢١) محمد العربي المساري، **المغرب خارج سياج الحماية**، منشورات عكاظ الرباط، ط١، ٢٠١٢، ص ١٦٢.
(٢٢) محمد داود، **على رأس الثمانين**، مرجع سابق، ص ١٩١.
(٢٣) محمد العربي المساري، **موقف تطاون من الاعتداء على العرش**، ضمن **تطوان وثورة الملك والشعب: من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة الأمنية الرباط، ط١، ٢٠٠٧، ص ٣٦.
(٢٤) الريحاني، مرجع سابق، ص ١٦٠.
(٢٥) نفسه، ص ١٦١.
(٢٦) نفسه، ص ١٨٦.
(٢٧) لم يوفق الريحاني في إيراد تواريخ إيفاد البعثات الطلابية إلى نابلس، فالأولى كانت سنة ١٩٢٨م وليس عام ١٩٣٠، والثانية سنة ١٩٢٩م وليس بعد ثلاث سنوات (١٩٣٣)، كما سمى مدرسة النجاح بمدرسة الفلاح. انظر: أحمد المكاوي، **"من تجليات الحضور المغربي ببلاد الشام في النصف الثاني من القرن ٢٠"، جوانب من علاقات المغرب بالبلدان المتوسطية (مصر-بلاد الشام-فرنسا)**، تنسيق عبد المجيد بيهيني، منشورات مختبر المغرب والبلدان المتوسطية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية –الجديدة-، دار أبي رقراق للطباعة والنشر-الرباط، ط١، ٢٠١٥، ص ١١١-١٣٥. الهامش رقم١ ص ١٢٤.
(٢٨) الريحاني، مرجع سابق، ص ١٨٧-١٨٨.
(٢٩) نفسه، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.
(٣٠) ديمس جون جيمس، **حركة المدارس الحرة بالمغرب (١٩١٩ ـ ١٩٧٠)**، ترجمة السعيد المعتصم، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩١م، ص ٧١ ـ ٧٢.
(٣١) المعاشي، **عبد السلام بنونة ١٩٨٨ – ١٩٣٥م**، مرجع سابق، ص ١٤.
(٣٢) برادة، ج٢، مرجع سابق، ص ٩٠.
(٣٣) برادة، ج٢، مرجع سابق، ص ٩٠ ـ ٩١.
(٣٤) عز المغرب معنينو، **"بعثة مولاي الحسن بن المهدي التي توجهت من تطوان إلى مصر سنة ١٩٣٨م"**، مجلة دعوة الحق، العدد ٣٥٩، يونيو ٢٠٠١، في:
htpp://habous.gov.ma/dauat-alhaq/item/8710.(6juin2016).
(٣٥) الريحاني، مرجع سابق، ص ١٦٠.
(٣٦) برادة، ج٢، مرجع سابق، ص ٩١.
(٣٧) الريحاني، مرجع سابق، ص ٢٠٨.
(٣٨) نفسه، ص ٢١٩.
(٣٩) نفسه، ص ٢٤٤.
(٤٠) الريحاني، مرجع سابق، ص ٢١٨.
(٤١) نفسه، ص ٢١٨.
(٤٢) انظر عادل المرابط، **إسهامات الشيخ محمد المكي الناصري في التأسيس للعمل الصحفي بشمال المغرب من خلال جريدة الوحدة المغربية**، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط١، ٢٠١٧.
(٤٣) الريحاني، مرجع سابق، ص ٢٠٩.
(٤٤) ديمس، **حركة المدارس الحرة بالمغرب**، مرجع سابق، ص ٧٣.
(٤٥) محمد العربي المساري، **المغرب خارج سياج الحماية**، مرجع سابق، ص ١٧١.
(٤٦) محمد داود، **تاريخ تطوان**، ج١١، منشورات جمعية تطاوين أسمير، ٢٠٠٩، ص ١٢٩.
(٤٧) الريحاني، مرجع سابق، ص ٢٧٢.
(٤٨) برادة، ج٢، مرجع سابق، ص ١٦١.
(٤٩) الريحاني، مصدر سابق، ص ١٦١.
(٥٠) أحمد المكاوي، **"جوانب من الحضور الشامي في المغرب قبيل الحماية وإبانها"، العلاقات المغربية الشامية: قضايا منهجية**، تنسيق عبد المجيد بيهيني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية –الجديدة-، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٠، ص٥٩-٨٢.
(٥١) خطبة المقيم العام في الصفحات من ٥٣٤ ــ ٥٤٠. تختصر منجزات الحكومة الإسبانية بالمنطقة. الريحاني، مصدر سابق.
(٥٢) الريحاني، مرجع سابق، ص ٧.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

جهاد محمد بن عبد الكريم الخطابي (١٩٢١-١٩٢٦م)
من جمهورية الريف إلى السعي لتوحيد الغرب الإسلامي



مصطفى العادل
باحث دكتوراه في اللسانيات العربية وقضايا الفكر الإسلامي
جامعة محمد الأول
وجدة – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

نروم من خلال الأبحاث التي ننجزها في مجالات معرفية مختلفة، الاحتكام إلى مبدأ التكامل والتداخل بين العلوم والمعارف، والاستناد إلى النظرة الشمولية في فهم الظواهر والقضايا بمختلف أنواعها، وذلك اعتبارا لتباين السياقات المعرفية والحضارية والتاريخية المسهمة في ولادة الأحداث والعوامل السياسية والاجتماعية... المسهمة في تشكلها وتطورها. يتحدث هذا البحث عن شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي وثورته الريفية التي استمرت ما بين (١٩٢١،١٩٢٦م)، ضد الاحتلال الفرنسي والإسباني. ويحاول البحث قراءة الأحداث بوضعها في سياقها، وما كانت تعيشه معظم البلاد العربية والإسلامية في تلك المرحلة؛ حيث جاءت ثورة الخطابي ما بين الحربين العالميتين، في وقت تعاني فيه معظم البلاد العربية والإسلامية من الغزو والاحتلال الأجنبي الأوروبي خاصة. لقد اهتم الباحثون في دراسات وأبحاث كثيرة بشخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي، وحاولوا إبراز أهم بطولاته التاريخية ضد الإسبان والفرنسيين في إطار المقاومة المغربية المغاربية، كما سعت أبحاث أخرى إلى إيضاح عالمية الخطابي وارتباطه بأوروبا وبلاد المشرق، ومع ذلك، فإننا لم نجد –حسب اطلاعنا دراسات استطاعت الجمع بين كل هذه القضايا، والتأكيد على أن رؤية الخطابي تتجاوز المقاومة من أجل الريف إلى السعي نحو توحيد الأمة الإسلامية، وفق خطة تدرجية تبدأ بتوحيد الغرب الإسلامي دون إهمال بلاد الإسلام، خاصة قلب الأمة، بيت المقدس وفلسطين. وللبحث في هذه القضايا اخترنا تقسيم البحث إلى مقدمة ومبحثين تطرقنا في الأول إلى شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي وسياق جهاده، الذي استمر في مرحلة ما بين الحربين العالميتين، ثم أشرنا في المبحث الثاني إلى وضع العالم الإسلامي في تلك المرحلة وسعي الخطابي إلى توحيد العالم الإسلامي. ثم أجملنا أهم الخلاصات في خاتمة البحث، ومنها أهمية قراءة الأحداث في سياقها التاريخي، واستحضار مختلف السياقات المسهمة في تشكلها، ومن ثم التوصل إلى أن شخصية الخطابي شخصية رجل مجاهد استطاع تحدي كل الظروف التي عاشتها الأمتين العربية والإسلامية في فترة ما بين الحربين العالميتين، وكان هدفها توحيد العالم الإسلامي لا جمهورية الريف فقط، كما ادعى بعض الباحثين ذلك، كما استند الخطابي إلى مرجعية إسلامية قوامها الإيمان بالله لا بأفكار المحررين الغربيين.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث:	٣١	يوليو	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٦	أغسطس	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الخطابي؛ العالم الإسلامي؛ الدول العربية؛ الحرب العالمية؛ الثورة الريفية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.185169

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

مصطفى العادل. "جهاد محمد بن عبد الكريم الخطابي (١٩٢١-١٩٢٦م) من جمهورية الريف إلى السعي لتوحيد الغرب الإسلامي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ١٣٦ – ١٤٥.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: mustaphaeladel123@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةُ

يصعب في الحقيقة فهم تاريخ الدول العربية في مرحلة من المراحل؛ خاصةً تلك المراحل التي عاشت فيها أحداثا مفصلية، دون النظرة الشمولية الفوقية من جهة، والنظرة التكاملية التداخلية بين تلك الشعوب والبلدان من جهة أخرى. وينضاف إلى ذلك استحضار مختلف المعطيات، وأخذ مختلف الأحداث بعين الاعتبار، وإلا فإن الباحث سينظر بعين واحدة، ومن زاوية واحدة، فتغيب عنه المعطيات، وربما الحقائق حتى يظن أن غيره ممن نظروا من الزاوية الأخرى أو الزاويتين معا قد جاؤوا بالمغالطات والأخطاء فيما كتبوا من التاريخ. ولأن الموضوع الذي نحن بصدده في هذا المقام يهم وضع الدول العربية في مرحلة ما بين الحربين، فإن النظرة التداخلية والتكاملية والرؤية الشمولية مطلب أساس ومبتغى ضروري لفهم هذه الوضعية وتحليلها وتفسيرها، وبالتالي الخروج برؤية متكاملة ودقيقة على هذا الوضع، إذ به يمكن فهم الماضي وقراءة الحاضر قراءة صحيحة واستشراف مستقبل البلدان العربية أمام التحديات الراهنة والمستقبلية.

وإسهامًا في هذا المشروع العلمي المعرفي، اخترنا المشاركة ببحث في الموضوع، يكون منطلقه من الغرب الإسلامي، ومن شخصية مغربية كان لها دور كبير في تشكيل ورسم معالم معظم الأحداث في المنطقة في هذه المرحلة المدروسة، بل تجاوز دورها المحوري منطقة الغرب الإسلامي إلى العالم الإسلامي بأكمله. ويتعلق الموضوع هنا بشخصية سيدي محمد بن عبد الكريم الخطابي، الذي ولد سنة ١٨٨١م بقرية أجدير، والذي دخل التاريخ المغربي والإسلامي بجهاده ضد الاحتلال الإسباني والفرنسي، وبمواقفه الإيمانية، المخْلِصة، والملَخَّصَة في قوله: "إن الغرب العربي بالإسلام كان، للإسلام عاش، وعلى الإسلام يسير في حياته المستقبلية.

وتكمن أهمية البحث في مدى تأثير الرجل في الأحداث التي عرفتها منطقة الغرب الإسلامي بأكمله وليس المغرب فقط، فقد كانت له علاقات بباقي بلدان المنطقة وبلدان خارج الغرب الإسلامي مثل فلسطين -كما سيتضح من خلال البحث-. وإن إعادة قراءة شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي مع وضعها بوضع البلاد العربية من شأنها الإسهام في فهم جديد لوضع المنطقة في تلك المرحلة المفصلية.

تسعى الدراسة إلى الإجابة على جملة من الأسئلة تصب معظمها على وضع المغرب في مرحلة ما بين الحربين العالميين، وكذا علاقة المغرب وجمهورية الريف بباقي بلدان المنطقة والعالم الإسلامي، وذلك من خلال استنطاق مذكرات محمد بن عبد الكريم الخطابي وتآليف وكتب المقاومين ورجال الحركة الوطنية الذين عاشوا نفس الأحداث.

وفي السعي للإجابة على الأسئلة التي تتأسس عليها الدراسة، وتحقيق الأهداف المرسومة اخترنا تقسيم هذه الدراسة إلى مقدمة ومبحثين، تناولنا في المبحث الأول شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي من منظور الأحداث التي عاشتها المنطقة في تلك المرحلة، مع التنبيه إلى المغالطات التي جاءت في مؤلفات ذوي قصار النظر حول الرجل، في حين خصصنا المبحث الثاني لوضع المغرب في تلك المرحلة وعلاقته بباقي بلدان المنطقة والعالم الإسلامي، من خلال حياة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي. أما الخاتمة فقد أجملنا فيها أهم الخلاصات والنتائج التي توصلنا إليها، وختمنا الدراسة بتوصيات في قراءة التاريخ وإعادة تصحيح التاريخ.

أولاً: محمد عبد الكريم الخطابي والحربين العالميتين

تكمن أمية هذا المبحث بالنسبة لموضوع البحث، وموضوع الكتاب في معرفة ما عاشته بعض البلدان الإسلامية فيما بين الحربين العالميتين، فليس بالضرورة أن نعرض الأحداث التاريخية سردا، إذ إن ذلك من وجهة نظري، عملية طبيعية أُلفت فيها تآليف كثيرة، لكن النظر إلى تلك الأحداث وإعادة قراءتها من زاوية بعض الأعلام والرواد الذين أسهموا في توجيهها وصناعتها، هو الذي بإمكانه أن يسهم في النبش في ذاكرة التاريخ، وربما في رفع الحجب عن حقائق مخفية، وأخرى أراد لها من كتب التاريخ أن تكون كذلك. وقد اخترنا الإشارة هنا إلى شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي (١٨٨١-١٩٦٣م) ونشأته من جهة، ونقد الكتابات التي عرفت بالرجل وجهاده من جهة أخرى، فنزكي التي أنصفته، ونبين خلل التي ظلمته لقصور نظرها، وعدم استيعابها لحياة الخطابي، وعدم قراءتها في إطار ما عرفه العالم الإسلامي في تلك المرحلة، قراءة شمولية ومتكاملة.

١/١-محمد ابن عبد الكريم الخطابي

ولد محمد بن عبد الكريم الخطابي بقرية أجدير الواقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط بين مدينتي مليلية وتطوان في الخامس عشر من شعبان ١٣٠١هـ-١٨٨١م، في أسرة علم ودين وتقوى، حيث كان والده عالما تقيا وعادلا في الفصل بين الناس.

وقد اشتهر آل الخطابي، بأنهم بيت علم ورياسة، وكان أحد أفراد الأسرة أستاذا في القصر الملكي يعلم أبناء السلطان، ويقال إنه خلف مؤلفات كثيرة تفرغ لكتابتها لأنه لم يشغله عن الكتابة والتفكير أبناء ولا حب ولا جاه، ومات في سن مبكرة. وقد كان القاضي عبد الكريم أبا ومعلما ومربيا لابنه محمد، قال السيد إدريس الخطابي، وهو ابن المجاهد محمد بن عبد الكريم: والحقيقة أن الفقيه عبد الكريم كان هو الأستاذ الفعلي لابنه محمد، وذلك في الفقه والدين عموما، والوطنية والسياسة، نعم لقد تأثر محمد بن عبد الكريم الخطابي ببعض أساتذته الذين تعلم عليهم في القرويين، ولكن الأستاذ الحقيقي الذي تدرب على يديه هو والده"[١]. فقد أرسلة إلى القرويين بفاس، وكان هدفه هو أن يؤهله ليخلفه في مركزة العلمي والقيادي.

ذكرت تآليف كثيرة أن أصول الخطابي تعود إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي لله عنه، وقد أشار إلى هذه الحقيقة بنفسه لجورج ماثيو في المذكرات، فهو من ذرية عمر رضي الله عنه، وهو قرشي[٢]. وخلال نشأته كان والده يعتمد عليه ليمثله في العديد من المناسبات الاجتماعية والسياسية، وخلال فترة دراسته بفاس، كلفه والده ببعثة سياسية لدى السلطان عبد العزيز سنة ١٩٠٨م، أبدى فيها دعم بني ورياغل للسلطان في محاربة معارضه الملقب بـ "بوحمارة". ثم ختم محمد بن عبد الكريم الخطابي رحلته العلمية الجامعية بثلاث سنوات قضاها في إسبانيا درس فيه القانون الإسباني[٣].

كان محمد بن عبد الكريم الخطابي رحمه الله مؤمنا صادقا لا يخاف في الله لومة لائم، وكان رجلا قرآنيا أثرت فيه تربية القرويين التي درس وتربى بها أربع سنوات، ولم تطمس نور الإيمان في قلبه وفقه الشريعة في عقله السنوات الطويلة قبل الحرب التي عاشر فيها الاسبان"[٤]. وكان معلما للعربية في أكاديميا اللغة العربية (...) كما كان محررا بجريدة (إيل طيليغراما) التي أنشئت سنة ١٩٠٢، وتولى الإشراف على القسم العربي فيها حينما استقر في مليلية[٥]. وفي علاقته بالإسلام واللسان العربي، كتب محمد الأوراغي في الإهداء الخاص بكتابه (التعدد اللغوي): "محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي اتخذ وأحرار الأمازيغيين من الإسلام عقيدة، ومن لغة القرآن قاعدة لاستنهاض المجاهدين من أجل حماية أمة القرآن في غربها من زحف الأوربيين"[٦]. وكان يزاول الترجمة والكتابة بالإدارة المركزية للشؤون الأهلية بمليلية، وعين سنة ١٩١٣م، قاضيا في مليلية، ثم ارتقى إلى قاضي القضاة بعده بعام واحد، وهو ما مكنه من تصدر الحراك الريفي وقيادة قبائل الريف، فقد كان رجلاً مثقفًا وعالمًا فقيهًا وخطيبًا متفوهًا مطلعًا على علوم التاريخ والقانون والإدارة[٧].

قضى محمد بن عبد الكريم الخطابي معظم حياته رفقة شقيقه السي محمد، حيث وجد نفسه ملزما بالدفاع على قضية الريف أمام الاحتلال الإسباني والفرنسي، وأطماع الدول الأوربية الغازية، وقويت همة الشابين المجاهدين وفاء منها لوصية والدهما القاضي المجاهد عبد الكريم الخطابي.

فقد سقط القاضي عبد الكريم الخطابي بعد اثنين وعشرين يوما من مرضه، وأكد محمد بن عبد الكريم الخطابي الروايات التي قالت بموت والده مسموما. جاء في مذكراته: "وكثيرون هم الذين يقولون إن والدي سقي سما، وإن كنت لا أستطيع تأكيد ذلك، إلا أنني أشعر في أعماق قلبي أن في هذا القول كثيرا من الحقيقة"[٨].

كان القاضي عبد الكريم لما أحس بدنو أجلة قد طلب ابنيه إلى فراشه وقال لهما (إنني ذاهب بعد أيام معدودات إلى ربي وخالقي، ووصيتي لكم أن تدافعوا عن بلادكم، لأن الإسبان أعداؤنا وأعداء الله"[٩]. أما المذكرات فقد جاء فيها غير ذلك، وهو بلسان محمد بن عبد الكريم نفسه، حيث قال: "وكان المرحوم قبل وفاته قد دعانا إليه فقال لنا: "إذا لم تستطيعوا الدفاع عن استقلال الريف وحقوقه فغادروه إلى مكان غيره"[١٠]، وفي كلتا الرسالتين دعوة قوية إلى الجهاد والدفاع عن الوطن والإسلام ضد العدو.

لقد خاض المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي معارك مصيرية في وقت "كان التفكير السياسي متدهورا، والنماذج التي كانت في أذهان الناس منحطة (...) رغم أن الصورة كانت قاتمة جدا، فقد كان الدافع قويا للعمل من أجل ضمان الاستمرار في نطاق العدل"[١١]. كما قاد أخوه السي محمد بدوره معارك كثيرة، واستطاع أن يحقق انتصارات كثيرة، وأن يلحق أضرارا وخسائر جسام بالاحتلالين الفرنسي والإسباني.

لم يكن محمد بن عبد الكريم الخطابي متميزا عن أهل الريف في مسكنه ولباسه، قال مراسل جزيرة شيكاغو: "وأول ما استوقف نظري عند وصولي إلى مركز قيادته بساطة المكان وخلوه من مظاهر الآبهة والعظمة، ولم يكن على الباب الخارجي سوى حارسين أما في الداخل فلم أر حارسا على الإطلاق، كما أنه ليس في مظهر بن عبد الكريم ما يميزه عن سائر مواطنيه حتى البسطاء منهم"[١٢].

لقد نظم محمد بن عبد الكريم الخطابي جمهوريته التي أسسها بدستورها وجنودها، ودافع عن البلاد وتوحيد الأمة في وجه دولتين أوربيتين غازيتين ودول أخرى حاولت مرارا احتلال الريف، ولم يكن لديه من الذخائر والسلاح إلا ما يسترجعه من المعارك التي يخوضها. واستطاع أن يحقق انتصارات تاريخية، إلى تحالفت فرنسا وإسبانيا واتفقتا على شن حملات مشتركة، والنزول بكامل قواهما ضد ثورة الخطابي ١٩٢٥م، فتم احتلال أجدير والسيطرة على تارجيست سنة ١٩٢٦م، فاستسلم الخطابي للفرنسيين وتم نفيه إلى أن حصل على اللجوء إلى مصر سنة ١٩٤٨م، فأسهم بعد ذلك في تشكيل لجنة تحرير المغرب العربي، ثم أسس جيش تحرير المغرب العربي، وبقي يناضل ويقاوم الاستعمار إلى آخر يوم في حياته، حيث توفي في القاهرة والتحق بالرفيق الأعلى في ١١ رمضان ١٣٨٣هـ الموافق لـ ٦ فبراير ١٩٦٣م ودفن بها.

١/٢-الخطابي المتعدد والحربين العالميتين

من المؤسف جدًا أن المؤرخين تجاهلوا بقصد أو بغير قصد ثورة الخطابي وجهاده ضد إسبانيا وفرنسا، وهذا التجاهل يبرزه النزر القليل من الدراسات التي كتبت في الموضوع. بل إن المؤسف أكثر هو أن المكتبات الإسبانية والفرنسية نفسها تضم عشرات الكتب التي تتكلم على الخطابي وجهاد الريف.

وتزداد الإشكالية كلما اكتشفنا أن ما كتب بالعربية لا يصلح معظمه للقراءة، لما جاء به من أفكار مزيفة ومغلوطة، استخدمت معظمها لأغراض سياسية وإيديولوجية مقيتة، لا علاقة لها بالتاريخ والبحث العلمي. فمحمد بن عبد الكريم الخطابي الذي نتحدث عنه رجل متعدد في هذه الكتابات، هو عند البعض مجاهد إسلامي، وعند البعض قائد عسكري، وعند البعض الآخر جندي ثائر وقائد حرب العصابات، وهو الأسد والأمير والمجاهد والقائد والسلطان، أما ما قام به فهو أحيانا جهاد من أجل الدين، وأحيانًا ثورة من أجل الحكم، وأحيانًا أخرى حربًا ومقاومة عسكرية من أجل الجمهورية واستقلال الريف...إلخ. ولعل الإشكال الذي قاد الباحثين إلى الوقوع في هذه التقسيمات الخاطئة لمحمد بن عبد الكريم الخطابي – بالإضافة إلى التصور الإيديولوجي التي ينطلق منه كل كاتب-هو عدم وضع الخطابي في سياقة التاريخي الذي عاش فيه، وعلاقة ذلك بما كان يمر به العالم الإسلامي آنذاك، ضف إلى ذلك أن الخطابي، ما هو إلا حلقة من سلسلة الحروب التي عاشتها منطقة شمال الغرب الإسلامي والريف خاصة.

لقد تعرضت منطقة الريف لسلسلة من الحروب[١٣] إثر الغزو الأوربي قبل حرب الخطابي ما بين ١٩٢١-١٩٢٧م، وكان قد سبقتها حرب الريف الأولى ما بين ١٨٩٣-١٨٩٤م، وحرب الريف الثانية ما بين ١٩٠٩-١٩١٤م، قادها المجاهد الشريف محمد أمزيان. إلا أن الخطابي كان جهاده هو الأعظم والأشهر، وقد بدأ سنة ١٩٢١م، بعدما وصل الإسبان إلى تطوان في الشمال الغربي وأنوال في الشمال الشرقي، واستمرت إلى أن استسلم الخطابي في ماي سنة ١٩٢٦م.

والجدير بالذكر أن المجاهدين في الريف المغربي أصبحوا بعد استشهاد أمزيان في حالة من التشتت، وبالتالي كانوا في حاجة إلى قيادة، فاهتدى ذلك إلى سيدي محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي طور أساليبه وامتاز عن سابقيه"[١٤]. ثم إن معركة الخطابي جاءت في وقت كشرت فيه الدول الأوربية عن أنيابها لتقسيم إفريقيا واحتلالها لاستنزاف ثرواتها وتوفير المواد الخام وتنمية مشاريعها الاقتصادية والعسكرية.

وقبل هذا وذاك فالاحتلال الأوربي للعالم الإسلامي سواء في المشرق أو المغرب، ما هو إلا مرحلة جديدة من الصراع الأزلي والدائم بين الإسلام والكفر، وحلقة أخرى من سلسلة الحروب الصليبية التي دمرت العالم الإسلامي، فبلاد المغرب بدأت في التعرض للاحتلال الأوربي وحملاته منذ بداية القرن الخامس عشر، حيث قامت إسبانيا باحتلال بعض المواقع في الشمال المغربي سنة ١٤٥١م، ومدينة مليلية التي ما تزال محتلة إلى يومنا هذا سنة ١٤٩٧م[١٥]. إلا أن بداية القرن العشرين تصاعد الاحتلال الأوربي بسبب انهيار الدولة العثمانية، والتنافس بين الدول المحتلة الغازية لبسط سيطرتها ونفوذها في إفريقيا، حيث احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠م، وتنازلت فرنسا لبريطانيا عن حقوقها في مصر مقابل اعتراف بريطانيا بحق فرنسا في فرض الحماية على المغرب ودخلت ألمانيا حلبة الصراع لخلق مصالح لها في المغرب، وتنازلت عن ذلك بعدما تسلمت الكونغو من فرنسا[١٦].

يقول عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، موضحا هذا السياق العام: "وكانت فرنسا قد استقرت في أوائل القرن التاسع عشر في الجزائر، ثم بدأت تبحث لها عن موضع قدم على الساحل الغربي من القارة، وازداد تطلعها نحو النيجر والغابون، وأثار هذا التوسع الفرنسي قلق باقي دول الاحتلال ودخلت دول أخرى إلى حلبة الصراع على تقسيم كعكة إفريقيا. وازداد التكالب باحتلال فرنسا لتونس سنة ١٩٨١، وانجلترا لمصر سنة ١٩٨٢م.

وقد نظم مؤتمر برلين سنة ١٩٨٤، وكان همه الأساس هو تقسيم المستعمرات بين الدول العظمى، دون الدخول في الصراعات القاتلة فيما بينها. وهكذا تغيرت الملامح الرئيسة لتلك القارة الإفريقية، بعد أن نظمت عمليات السيطرة، وتنتهي بذلك قصة الصراع الأوربي على إفريقيا، وظلت بصمات هذا المؤتمر وآثاره السياسية تنعكس على القارة الإفريقية حتى بعد استقلالها، وستظل مشكلات الحدود الإفريقية بشكلها الراهن، وهي ثمار مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤-١٨٨٥م، كما أبرز المشكلات التي تواجه أبناء إفريقيا في مسيرة التقدم الاقتصادي والاستغلال الوطني لمواردهم التي مزقها الأوربيون، واستغلوها بشكل سيء طوال الحقبة الاستعمارية.[١٧]

ولئن كان الجميع اليوم يركز على أزمة البلقان، والصراع الفرنسي الألماني على الحدود واغتيال ولي عهد النمسا وأهله على يد طالب سربي، باعتبارها من الأسباب المباشرة في اندلاع الحرب العالمية الأولى التي استمرت ما بين يوليو ١٩١٤م، ونوفمبر ١٩١٨م، فإن صراع الدول العظمى على تقسيم العالم العربي والإسلامي، كان من الأسباب الرئيسة في تلك الحرب، وهو في نهاية المطاف ما هو إلا مرحلة جديدة من الصراع الثنائي بين الكفر والإيمان.

وجد الخطابي نفسه في شمال المغرب وجها لوجه مع فرسا وإسبانيا بعد الحرب العالمية الأولى، وهما في كامل استعدادها لتقسيم العالم الإسلامي، والزحف نحو إفريقيا، بحثا عن تقوية صناعتهما وتوفير المواد الخام، استعدادا للحرب العالمية التي ستنتهي بها وحدة العالم الإسلامي، فدافع وجاهد، وكان شعاره الإيمان، والإيمان وحده، يقول الأستاذ ياسين: "الإيمان، والإيمان وحده، كان الكلمة النهائية لملحمة تاريخية أبطالها من طينة غير طينة النفاق، من معدن إسلامي خالص"[١٨]. وهذا المارشال ليوطي يعترف بجهاد الخطابي وسعيه من ذلك الجهاد المستميت، قال ليوطي: "إن سماحنا لعبد الكريم بتحقيق بأي انتصار علينا، إنما يعني قيام إمبراطورية عربية إسلامية على شاطئ البحر المتوسط. وهذا فتح إسلامي لأروبا من جديد. وهو أمر لا يمكن التسليم به"[١٩]. وقال: "ها هي دولة إسلامية قوامها قومية شمال إفريقيا تنشئ نفسها في المغرب"[٢٠].

هكذا، إذن، وجد الخطابي نفسه مضطرا للدفاع على العالم الإسلامي الذي وقع فريسة للغرب الكافر، ولم يكن جهاد وطن ضد الاحتلال فقط، وقد جاء ما بين الحربين العالميتين، حيث سقط العالم الإسلامي قبله، وخططت الدول العظمى لتقسيمه وإنهائه وحسم الصراع حوله بحرب عالمية ثانية، وقد كان الخطابي يريد توحيد شمال إفريقيا كبداية لتوحيد الأمة، فكان أمام وحش الغرب الذي كشر أنيابه للفتك بالإسلام والمسلمين، وسيتضح هذا أكثر في المحور الأول من المبحث الثاني، حيث سنحاول أن نبين فيه واقع الأمة الإسلامية في المرحلة التي خاض فيه الخطابي ثورته الجهادية ضد فرنسا وإسبانيا.

ثانيًا: الخطابي من جمهورية الريف إلى توحيد العالم الإسلامي

نستعمل هنا جمهورية الريف، لا لأن الخطابي كان يريدها جمهورية، كما رُوّجت الفكرة، وربما روجت كذلك لأنها أرادت أن تبعد الناس عن الهدف الحقيقي الذي كان ينشده الرجل، بل نستعملها لننتقل من هذه المغالطة التاريخية إلى الهدف الحقيقي لسيدي محمد بن عبد الكريم الخطابي، وهو السعي لتوحيد الغرب الإسلامي، والتصدي للتقسيم الاحتلالي الممنهج. ولما رأينا رفع الحجب عن واقع العالم الإسلامي في تلك المرحلة أمرا ضروريا لفهم غاية الخطابي، اخترنا التذكير بتلك الأوضاع، وذلك السياق العام، وركزنا بشكل كبير على بلاد الغرب الإسلامي، والأرض المباركة (أقصد بيت المقدس)، نظرا لعلاقة الخطابي بفلسطين، ثم ختمنا المبحث بحلم الخطابي في الوحدة، وما بذله من جهود لتحقيق ذلك.

١/٢-وضع العالم الإسلامي في مرحلة الخطابي

بدأ الصراع الأزلي بين الحق والباطل؛ بين الإيمان بالله الواحد والإلحاد منذ قصة أدم عليه السلام مع إبليس كما وردت القصة في سور عديدة من القرآن الكريم[٢١]. ثم تجسد هذا الصراع على شكل حروب دموية استمرت قرنين من الزمن، قام بها الأوروبيون من أجل السيطرة على القدس والأماكن المقدسة التي كانت تحت حكم المسلمين. وقد كانت الحروب الصليبية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر دموية، وخلفت خسائر كبيرة، كانت الكنيسة وراءها والصليب شعارها، هذه هي الحقيقة، وهي التي صنعت من جديد الاحتلال الأوروبي للبلاد الإسلامية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

فقد بدأ توجه الدول الغازية الأوروبية إلى إفريقيا، لما أحست بضرورة تقوية هياكلها وصناعتها، وقد جاءت العملية العسكرية بعدما أسست هذه الدول جمعيات استكشافية؛ قامت بدراسة وأبحاث في إفريقيا، ثم بدأت بتكوين مستعمراتها، ولكن هذه المبررات في الحقيقة لم تكن هي الوحيدة وراء ذلك الغزو، فقد كانت هناك أسباب أخرى مضمرة،

يمكن فهمها من البحث في أطراف الصراع في أوروبا، حيث تصدت مختلف الحركات الإسلامية في إفريقيا للدول الغازية، واعتبرت ذلك استمرارا للحروب الصليبية[٢٢]، بل إن مختلف الحركات التحررية في كل البلاد العربية، كان منطلقها الزوايا الصوفية والحركات الإسلامية والعلماء المسلمين[٢٣]، وقد أنشأت إسبانيا مستعمرات لها في لإفريقيا، واحتلت بريطانيا جنوبها، ودخلت في صراعات مع الألمان في شرق إفريقيا، ومع فرنسا في غربها، ثم بدأ الزحف الفرنسي على شمال المغرب في مرحلة ثانية.

أسهمت هذه الأسباب وغيرها في اندلاع الحرب العالمية الأولى، وتم القضاء على وحدة الأمة. كانت العرب قد شاركت في الحرب العالمية بجانب الحلفاء، بعدما وعدتهم بريطانيا بوحدة الوطن العربي في استقلال عن الدولة العثمانية، ثم تفاجؤوا بمعاهدة سايكس بيكو التي أبرمت سنة ١٩١٦ بين فرنسا وبريطانيا، وتم تقديمها في نوفمبر من ١٩١٧م، لتقسيم العلم العربي، ثم وعد بلفور الذي دعم إنشاء وطن قومي للكيان الصهيوني في فلسطين، وانتهت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ بانهزام الدولة العثمانية. بدأت الدول العظمى في الزحف لتقسيم الغنيمة. قال الغزالي: "تقسم بينها الأسلاب، وكأنها تستولي على ميراث ليس له صاحب، ثم إن الفاتح الجديد لم يضع وقته سدى! لقد رسم سياسة دقيقة بعيدة المدى لتفتيت الكيان الذي سقط في يده وإماتة خصائص الحياة والإباء فيه. فرمى بأوزاره كلها على البلاد يحاول محق عروبتها، وطمس تاريخها، وتلويث ينابعها الفكرية والعاطفية..."[٢٤].

سيطرت بريطانيا على فلسطين منذ ١٩٢٠م، واحتلتها من سنة ١٩٢٣م إلى ١٩٤٨م، وحكموا العراق إلى ١٩٣٢م، في الوقت الذي احتلت فيه فرنسا كل من سوريا ولبنان إلى سنة ١٩٤٦م. في سنة ١٩٢٠م كذلك انعقدت مؤتمرات كثيرة، منها مؤتمر لندن المنعقد في فبراير من ذلك العام، وبعده معاهدة سان ريمو تطبيقا لسايكس بيكو المشهورة، حيث حددت مناطق النفوذ لكل من فرنسا وبريطانيا، فقسمت سوريا الكبرى التي كانت تضم كل من سوريا ولبنان والموصل في العراق وجزء كبير من جنوب الأناضول تحت الانتداب الفرنسي، والأردن وفلسطين بالإضافة إلى العراق تحت الانتداب البريطاني.

أما المغرب القديم، أي الغرب الإسلامي، فقد احتلت فرنسا معظم إفريقيا، ومنه الشمال، خاصة المغرب وتونس والجزائر وموريتانيا، وقد كانت تونس تحت نظام الحماية منذ سنة ١٨٨١، إلى حدود ١٩٥٦م، والمغرب منذ ١٩١٢م، إلى حدود سنة ١٩٥٦م كذلك، بينما تعرض بلاد الشهداء، الجزائر لأكبر مدة احتلال امتدت من ١٨٣٠م إلى حدود سنة ١٩٦٢م، وموريتانيا من سنة ١٩٢٠م، إلى سنة ١٩٦٠م. أما ليبيا فقد انتهت الحرب بين تركيا وإيطاليا سنة ١٩١٢، فاحتلت إيطاليا ليبيا، وقسمت أراضيها، ثم تحولت منذ سنة ١٩٤٣م حيث أصبحت تحت الاحتلال البريطاني إلى سنة ١٩٤٧م، فحصلت على استقلالها، وقد احتلت إيطاليا دول الصومال كذلك. أما باقي الدول العربية والدول التي نشطت فيها الحركات الإسلامية بمختلف مناطق إفريقيا، فقد تعرضت للاحتلال الأوروبي خاصة الاحتلال الفرنسي.

٢/٢-الخطابي وحلم توحيد الغرب الإسلامي

لقد سبق أن عرفنا ولو بشيء موجز واقع معظم الدول العربية والإسلامية فيما بين الحربين العالميتين، خاصة ما بين ١٩٢٠-١٩٢٦م؛ حيث استطاعت الثورة الريفية بقيادة الخطابي، إزعاج دول الاحتلال، والوقوف أمامهم سدا منيعا، رغم الضعف والهوان الذي سيطر على معظم بلاد الإسلام في تلك المرحلة، جراء الاحتلال الأجنبي. قال جرمان عياش: "فإن الريفيين أثاروا الدهشة، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، كأبطال لمأساة اتخذت طابعا مهولا، إلى حد أنها زعزعت مجموع الحياة السياسية والاجتماعية في إسبانيا، وهددت لوقت معين السيطرة الفرنسية في إفريقيا الشمالية، واستقطبت الانتباه في العالم لمدة خمس سنوات تقريبا"[٢٥]. هكذا، إذن، كان الخطابي صامدا في وقت احتلت فيه البلاد الإسلامية، فازداد ضغط الاحتلال الأجنبي عليه، خاصة وأنه في ريف شمال المغرب؛ الذي يطل على دولتي الاحتلال فرنسا وإسبانيا، ودول أخرى كانت تطمع في غزو إفريقيا لنهب ثرواته واستعباد أهله إلى الأبد مثل البرتغال وإيطاليا وألمانيا وغيرها.

لقد واجه الخطابي قوتين دوليتين بجماعة من المجاهدين لا يملكون غير الإيمان الصادق في قلوبهم، فألحق هزائم وخسائر تاريخية بالعدو التي استثمر أحدث الآلات والسائل الحربية، فكان الخطابي قبلة لأحرار العالم، فتشي جيفارا زار القاهرة عام ١٩٦٠م، ليلتقي بالمجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي، وكان هو شي منه يناديه أستاذي، واعتبره ماوتسي- تونغ مبدع حرب العصابات، وكان محل تقدير من كل الحركات الوطنية والإسلامية مشرقا ومغربا[٢٦]. قال المساري: "إن الأحداث الجليلة التي شهدتها المنطقة الواقعة ما بين نهر أمقران وجبل غرغيز على مشارف تطوان، هي قصة ملحمة بدأت بـ ١٨ بندقية، هزمت جيوشا جرارة، وصل تعدادها في أحد الأوقات إلى ٣٦٠ ألف مقاتل، كان عتادهم يمثل بالإضافة إلى دباباتهم

وطائراتهم أحدث ما أنتجته الصناعة الحربية الأوروبية في ذلك الوقت"[٢٧].

والحق أن معظم العلماء والباحثين يدركون قوة وأهمية المقاومة الريفية، ومدى صمود المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي، لكن قليل منهم من يدرك الهدف الذي كان ينشده الخطابي من وراء مقاومته وجهاده، فقد كتبت مؤلفات تناولت المقاومة الريفية لكن معظمها تصف الخطابي بأنه رجل حرب دافع على بلاده ضد المحتل، وتدعي بعض الدراسات أن الخطابي ورجاله قاتلوا الإسبان والإفرنج دفاعا على القبيلة والقضية الأمازيغية، فيجردون الرجل من دينه وإيمانه، وغير ذلك من الادعاءات التي تكذبها خطب الخطابي وكلماته وأقواله.

ولأن هدفنا في هذا المحور هو تأكيد سعي الخطابي إلى توحيد الغرب الإسلامي وبعده العالم الإسلامي الذي فقد قوته ووحدته بسبب الاحتلال الأجنبي، فإننا سوف نورد أولاً جملة من خطبه وكلماته ثم نناقشها، لتأكيد هدف الخطابي النبيل، ومنها:

أولاً: كتب الخطابي بعد أشهر من تأسيس لجنة تحرير المغرب العربي في البند الأول من ميثاق اللجنة: "المغرب العربي بالإسلام كان، وبالإسلام عاش، وعلى الإسلام يعيش في حياته المقبلة"[٢٨].

ثانيًا: قال الخطابي: "لا ريب أن الذي ساعدنا على محاربة الأعداء سنوات لم تمر فيها لحظة دون موقعة أو معركة أو ضحايا، هو الإيمان، والإيمان وحده، إن الإيمان هو العامل الأساسي، وهو السلاح الأقوى في كل الحروب التحريرية، بل في كل عمل جدي"[٢٩].

ثالثًا: نشرت مجلة آخر ساعة، بتاريخ ١٩٥٢/٠٧/١٨، تصريحا للخطابي قال فيه: "ومن سوء حظي أني عشت لأرى أفكاري هذه تشتتت، ولأشهد مصارعها واحدة تلوى الأخرى. فقد دخلت الانتهازية، وحمّى المتاجرة في قضيتنا الوطنية (...) ووجد من بين أعضاء هذه اللجنة من يسعى لتفتيت وحدة قضيتنا وتجزئتها. ففي الوقت الذي كنت أفكر فيه لإدماج بلدان المغرب العربي في مشكلة واحدة، نشأ –ولا أدري كيف-اتجاه لتقسيم هذه البلدان إلى وحدات منفصلة"[٣٠].

رابعًا: جاء في خطبة لمحمد بن عبد الكريم الخطابي، أوردها المؤرخ والأديب المغربي عبد الله كنون في كتابه (أحاديث عن الأدب المغربي): "إخواننا المسلمين، ندعوكم باسم الرابطة الدينية أن تهبوا جميعا إلى تفكوا رقابكم من عدوكم الذي يريد أن يستعبدكم بالكيد والعدوان، إنه والله لخزي عظيم أن يخضع المسلم لعدوه وعدو دينه، وأن يحتمي بحماه (...) فكيف يليق بمن يروم العز والفوز أن يتقاعد عن الجهاد، ولا يسارع إلى نصرة إخوانه، وإنقاد وطنه من أيدي الطامعين العابثين الذين يسعون في الأرض فسادا ولا يصلحون، ما ذاك إلا من ضعف الإيمان، وموت الهمم، والرضا بالهوان، والواجب على العلماء والوعاظ والخطباء الذين هم قادة الأمة وهداتها، أن ينصحوا العامة ويرشدوهم إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم، ويبينوا لهم أن الواجب العيني يطلب من كل فرد القيام به، ولا يغني فيه زيد عن عمرو، والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل"[٣١].

خامسًا: أورد صاحب الظل الوريف خطبة للأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي في أهل النواحي الجبلية جاء فيها: "السيرة التي يتعين عليهم سلوكها هي الانصاف والمباعدة من ظلم الناس والانتصار للحق (...) وعلى كل حال فنحن ندافع عن وطننا ضد كل استيلاء عليه. ونحن إخوة الإيمان نعمل بمقتضى ديننا في مدافعة الحزب الاستعماري عن أرضنا. بما أمكننا. وأخبروا إخوانكم من القبائل الجبلية بأن الاسبان هو العدو للدين، وما مقصوده إلا محو الإسلام من الريف، ومن القبائل التي احتلوها، فليقوموا على ساق الجد في إبعاده بأي وجه كان، وإن الموت أهون للإنسان من إهانة الدين وهتك العرض"[٣٢].

ومن خلال استنطاق كنه هذه الخطب والجمل التي اقتبسناها من كلام الرجل في مناسبات مختلفة ومتعددة، يتبين بوضوح سعي المجاهد الإسلامي إلى مواجهة الاحتلال الأجنبي بمنطلق ديني إيماني، وسعيه إلى توحيد الغرب الإسلامي، إيمانا صادقا منه بضرورة الجهاد لتحرير بلاد المسلمين من الغزو اللاديني. قال الأستاذ ياسين: "هذا الذي كان الإيمان بالله وباليوم الآخر عقيدته، وكان القرآن شاهده، وكانت سعادة الدارين مطلبه لنفسه وللمسلمين (...) كانت في ذهنه وقلبه مترادفات قرآنية: الإيمان، والإيمان وحده، اتقوا الله حق ثقاته=لا تموتن إلا وأنتم مسلمون، سعادة الدارين"[٣٣]. وقال أيضا: "مدرسة متميزة كان رحمه الله، واضحة في ذهنه مواصفات المجتمع الإسلامي الذي ينبغي أن يعتمد على إصلاحه وقوة تماسكه وقت الأزمات"[٣٤].

لقد كان الخطابي يسعى إلى تحرير البلاد الإسلامية بالغرب الإسلامي من الاحتلال الأجنبي، وفي الوقت نفسه حماية القبائل الريفية من الاحتلال الذي سيطر على مختلف البلاد الإسلامية في تلك المرحلة، فقد جمع بين الدفاع عن الوطن (القبائل الريفية)، والدفاع عن وحدة الأمة ومواجهة الغزو الأجنبي في وقت ضعفت فيه الأمة. ولم يكن الخطابي يهدف إلى تحرير المغرب، أو الدفاع عن قبائل الريف بالشمال المغربي

فقط، ولعل هذا ما جعله يُكن عداء وكرها شديدين، وشكا لا حدود له للأحزاب السياسية، لأنه يرى فيها أنموذجا تنظيميا منسوخا من الغرب، وفي رأيه أن الشعب الذي يحصل على الاستقلال تحت بعض الظروف الدولية من خلال حزب سياسي معين، لن يكسب شيئا سوى حلول الزعماء السياسيين في السلطة محل الحكام الأجانب"[٣٥]، واليوم من يستطيع أن ينكر أن الغرب لا يطمئن على دولة إسلامية، إلا إذا خلف فيها من يعينه على نهب ثرواتها واستعباد أهلها. ثم إن هذا الموقف هو الذي أدى إلى الخلاف بين الخطابي والزعماء في المكتب العربي؛ حيث "كان يريدها وحدة جامعة، وكان الزعماء يريدونها زعامات قطرية، كان يفكر تفكيرا واسعا، وكان كل منهم مرتبطا بتنظيم"[٣٦].

ثم إن الخطابي بسبب الوضع الذي يعيشه العالم الإسلامي في تلك المرحلة، كان يرى نفسه مسؤولا على العمل لتحرير البلاد الإسلامية من الاحتلال، كان هذا اقتناعا راسخا في ذهن الخطابي، وقد "كان دائما يذكر القادة والجنود أنهم أمل الأمة الإسلامية في العالم أجمع، وأنهم قدوة الشعوب الإسلامية الأخرى المستضعفة تحت ظلم الاحتلال"[٣٧].

أما فيما يخص علاقة الخطابي بأرض فلسطين وبيت المقدس وباقي العالم الإسلامي، فقد بين عدد كبير من الباحثين في دراساتهم التاريخية[٣٨]، أن الخطابي كان له دور بارز في دعم القضية الفلسطينية، كما كان تأثيره بالغا على مختلف حركات المقاومة في العالم الإسلامي بأسره. فقد كان الخطابي في تواصل مستمر مع المقاومة الفلسطينية، خاصة عندما كان في مصر، بل إن الشهيد الفلسطيني عز الدين القسام قاد مظاهرات حاشدة في كل فلسطين تضامنا مع ثورة الريف ضد فرنسا وإسبانيا، وجمع لها المال والدعم، وخطب في مساجد فلسطين بضرورة الدفاع ونصرة ثورة الخطابي، خاصة بعدما وصلتهم الانتصارات التي حققها أبطال الريف بعد معركة أنوال، واستمر التعاطف الشعبي الفلسطيني مع المغرب بعد صدور الظهير البربري الساعي إلى تمزيق المغرب بدعوى تمزيغه.

ثم إن الشهيد القسام استلهم حرب العصابات التي انتهجها الخطابي في جهاده، فأسس القسام العصبة القسامية التي قامت بدوز مهم ضد الاحتلال البريطاني-الصهيوني، واستمر تأثر المقاومة الفلسطينية بخطة الخطابي بعد استشهاد القسام، ومن ثمة فالباحث في هذا الملف يدرك أن الخطابي وثورته جزء من جهاد الشعوب العربية ضد الاحتلال الأجنبي، فقد تصدرت القضية الفلسطينية أولويات وأهداف لجنة تحرير المغرب العربي، حيث اعتبرها الخطابي جزءا لا يتجزأ من الأمة الإسلامية، وأن احتلال أي جزء منها هو احتلال للأمة بأكملها، كما اعتبر الخطابي ثورة الريف امتدادا للمشروع الوحدوي، حيث يكون القتال في الريف ضد الاحتلال الفرنسي والاسباني إلى جانب الشعب الجزائري والتونسي، وإعادة القطر المغاربي إلى دائرة الأمة العربية الإسلامية.

ولعل الرسالة التي وجهها المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي عندما كان بمصر إلى الرئيس عبد الناصر من أهم الوثائق التاريخية التي تؤكد سعي الخطابي إلى وحدة الغرب الإسلامي دون عزله عن العالم الإسلامي[٣٩]، حيث يوضح فيها الخطابي وضع المغرب وتونس والجزائر، وسعي الاحتلال إلى إبعادها عن الوحدة العربية، ووضح انتفاضة الريف وربطها بمصير الوحدة السورية-المصرية، كما عارض الخطابي الاستقلال الذي مني به كل من المغرب وتونس، واعتبره استقلالا شكليا يخدم فرنسا لاستمرار احتلالها للجزائر، وضربها للجهاد الجزائري بيد من حديد، وفصلها بين شطري الأمة (المشرق والمغرب).

أختم هذا المحور بالتذكير بقضية أراها في غاية الأهمية، وهي أن الحديث عن هؤلاء الرجال، لا ينبغي أن يكون تمسحا بهم لإضفاء الشرعية التاريخية على بعض القضايا التي توافق أيديولوجية الكاتب، لذلك فإن الإنصاف الحقيقي التاريخي يكمن في التجاء الكاتب إلى المذكرات والوثائق التاريخية، على أن يمنح للقارئ الاطلاع على المعلومات كما كتبها أصحابها، لا أن يخفي الحقيقة فيقدم للقارئ تفسيرات يصنعها وفق ما يؤمن به. أقصد هنا أن فهم الخطابي يستدعي بالضرورة قراءة خطبه التي كتبها ومذكراته، قراءة دقيقة قبل أن يتقيد القارئ بالأفكار التي تشرح الكلام الأصل وتؤوله، حيث يستطيع فهم الحقائق من المنبع الصافي، قبل أن يقرأ التأويلات، ولا بد في قراءة التاريخ أن نراعي السياق والظروف الخاصة بكل حدث، إذ إن قراءة الخطابي خارج مرحلة ثورة الريف التي كانت بين الحربين العالميتين في وقت احتُلت فيه معظم البلاد الإسلامية، مجرد ترقيم على الماء وجري وراء السراب.

خَاتِمَةٌ

إننا نستطيع فهم بعض الحقائق التاريخية، كلما نظرنا إليها من زاوية بعض الأعلام الذين عاشوا تلك الأحداث، وأسهموا بشكل من الأشكال في صناعتها. فواقع البلاد الإسلامية والعربية ما بين الحربين العالميتين، يمكن النظر إليه بشكل عام من خلال الحركات التحررية التي شهدتها معظم البلاد العربية. وقد انطلقنا في هذا البحث من حياة محمد بن عبد الكريم الخطابي؛ الذي قاد الثورة الريفية ما بين ١٩٢١م و١٩٧٦م، ضد الاحتلال الفرنسي والاسباني، وأكدنا أن قراءة تاريخ الخطابي والثورة الريفية بشمال المغرب يستدعي بالضرورة النظر إلى واقع معظم البلاد العربية الإسلامية في المشرق والمغرب، حيث كشرت فيه الدول الأوروبية الغازية الاحتلالية عن أنيابها فاحتلت البلاد الإسلامية، ونهبت خيراتها واستعبدت أهلها.

لقد كتبت بعض التآليف حول الخطابي، وإن كانت قليلة، بالمقارنة مع ما كتب حول الرجل وجهاده في الغرب. ثم إن معظم هذه الكتب العربية لكم تنصف الرجل، ولم تنظر إليه في ذلك السياق الحضاري والسياسي، ولم تستوعب سعي الخطابي رغم ما خلفه من خطب وأقوال سجلها التاريخ بكل فخر. فقد سعى الخطابي إلى توحيد بلاد الغرب الإسلامي، فحارب دولتين احتلاليتين عظيمتين، منطلقا من قناعة إيمانية وجهادية. ولم يكن محاربا ثوريا، ولا كان هدفه الريف والقبيلة واللغة البربرية، كما ذهب إلى ذلك كثير من الباحثين، ولعل ما يبرر ذلك علاقاته المتصلة بالعالم الإسلامي، كما هو الشأن بعلاقته ببلدان الغرب الإسلامي، وبالقضية الفلسطينية ومصر.

الاحالات المرجعية:

(١) محمد العربي المساري، **محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن**، **المركز الثقافي العربي**، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢١٢م، ص ٢٥.

(٢) عبد السلام ياسين، **حوار الماضي والمستقبل**، سحب مطبوعات الأفق-الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٧، ص٣٨، محمد العربي المساري، محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن، ص٣٣.

(٣) مركز الخطابي لدراسة الحروب الثورية، **الخطابي ملهم الثورات المسلحة السياق التاريخي والأبعاد السياسية والعسكرية والاجتماعية (١٩٢١-١٩٢٦م)**، ٢٠١٩-٢٠٢٠م، ص ٢٣.

(٤) عبد السلام ياسين، **حوار الماضي والمستقبل**، ص٤١.

(٥) محمد العربي المساري، **محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن**، ٢٩.

(٦) محمد الأوراغي، **التعدد اللغوي وانعكاساته على النسيج الاجتماعي**، المملكة المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية-الرباط، بحوث ودراسات، رقم ٣٦، ط١، ٢٠٠٢م.

(٧) مركز الخطابي لدراسة الحروب الثورية، **الخطابي ملهم الثورات المسلحة السياق التاريخي والأبعاد السياسية والعسكرية والاجتماعية**، ص ٢٤.

(٨) روجر ماثيو، **مذكرات الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي**، ترجمة عمرو أبو النصر، العباسية، مطبعة فضالة، ط ١، ٢٠٠٥م، ص٥٢.

(٩) محمد العربي المساري، **محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن**، ص٢٦.

(١٠) روجر ماثيو، **مذكرات الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي**، ص٥٢.

(١١) محمد العربي المساري، **محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن**، ص ٣٤.

(١٢) روجر ماثيو، **مذكرات الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي**، ص ١٢٦.

(١٣) مركز الخطابي لدراسة الحروب الثورية، **الخطابي ملهم الثورات المسلحة السياق التاريخي والأبعاد السياسية والعسكرية والاجتماعية**، ص٢٦.

(١٤) روجر ماثيو، **مذكرات الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي**، ص ١١٢.

(١٥) مركز الخطابي لدراسة الحروب الثورية، **الخطابي ملهم الثورات المسلحة السياق التاريخي والأبعاد السياسية والعسكرية والاجتماعية**، ص١٩.

(١٦) المرجع نفسه، ص ٢٠-٢١.

(١٧) راجع: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، **المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا**/ عالم المعرفة: ١٣٩، المجلس الوطني للفنون، الكويت، يوليو ١٩٨٩م.

(١٨) عبد السلام ياسين، **حوار الماضي والمستقبل**، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٧م، ص٣١.

(١٩) نقل عنه محمد أمزيان قوله: "الشعب في رأيي هو الشعب المؤمن بعقيدته، لأنه يعرف نفسه وشخصيته وقيمته وحقوقه. ومن هنا فلا يستطيع عدو مهما كان أن يجد في تماسكه ثغرة ينفذ منها إلى هزيمته. أما الشعب غير المؤمن فأفراده منحلون متفككون، ولا يمكن لهم أبدا أن يثبتوا أمام عدو ما مهما كان هذا العدو ضعيفًا".

(٢٠) عبد السلام ياسين، **حوار الماضي والمستقبل**، ص ٥١، محمد سلام أمزيان، **عبد الكريم الخطابي وحرب الريف**، ص ٢٠٣.

(٢١) وردت قصة أدم عليه السلام مع إبليس في ثماني سور وهي: البقرة وآل عمران والأعراف والإسراء وطه والكهف والحجر.

(٢٢) يُنظر: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، **المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقيا**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٣٩، يوليو ١٩٨٩م.

(٢٣) يُنظر: مقال: "**الدول العربية من المقاومة إلى الاستقلال**" لسيدي أحمد ولد أحمد سالم، موقع الجزيرة (www.aljazeera.net).

(٢٤) محمد الغزالي، **ظلام من الغرب**، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٠م، ص ١٠.

(٢٥) جرمان عياش، **دراسات في تاريخ المغرب**، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ط١، ١٩٨٦م، ص ١٩٠.

(٢٦) علي الإدريسي، **عبد الكريم الخطابي التاريخ المحاصر**، نقلاً عن: مركز الخطابي لدراسة الحروب الثورية، **الخطابي ملهم الثورات المسلحة السياق التاريخي والأبعاد السياسية والعسكرية والاجتماعية**، ص٢٢.

(٢٧) محمد العربي المساري، **محمد بن عبد الكريم الخطابي: من القبيلة إلى الوطن**، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط ١، ٢٠١٢م، ص ٩-١٠.

(٢٨) ياسين عبد السلام، **حوار الماضي والمستقبل**، ص ٣٦.

(٢٩) محمد سلام أمزيان، **عبد الكريم الخطابي وحرب الريف**، ص ٢٥٠.

(٣٠) عبد السلام ياسين، **حوار الماضي والمستقبل**، ص١٧٤.

(٣١) عبد الله كنون، **أحاديث عن الأدب المغربي**، ص ٦٠-٦١، نقلاً عن: مركز الخطابي لدراسة الحروب الثورية، **الخطابي ملهم الثورات المسلحة السياق التاريخي والأبعاد السياسية والعسكرية والاجتماعية**، ص٢١٥-٢١٦.

(٣٢) الحاج أحمد سكيرج، **الظل الوريف في محاربة الريف**، إعداد محمد الراضي كنون، الجديدة، ١٩٢٦م. ينظر كذلك، محمد العربي المساري، محمد بن عبد الكريم الخطابي: من القبيلة إلى الوطن، ص ٨٤-٨٥.

(٣٣) عبد السلام ياسين، **حوار الماضي والمستقبل**، ص٣٧-٣٨.

(٣٤) المرجع نفسه، ص٤١.

(٣٥) يُنظر: يوسف الروسي في كتابه الخطابي، نقلاً عن: ياسين عبد السلام، **حوار الماضي والمستقبل**، ص ١٧٣.

(٣٦) عبد السلام ياسين، **حوار الماضي والمستقبل**، ص ١٧٤.

(٣٧) مركز الخطابي لدراسة الحروب الثورية، **الخطابي ملهم الثورات المسلحة السياق التاريخي والأبعاد السياسية والعسكرية والاجتماعية**، ص ٣٤.

(٣٨) ندوة فكرية مغاربية فلسطينية في موضوع: "**دور المغاربيين في دعم نضالات فلسطين**، نضمت بالرباط من قبل المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير بالتعاون مع جامعة الدول العربية.

(٣٩) رسالة "مذكرة خاصة عن المغرب العربي ١٩٥٩"، يُنظر: كتاب زكي مبارك، **محمد الخامس ومحمد بن عبد الكريم الخطابي وإشكالية الاستقلال**، منشورات فيديبرانت، الرباط، ٢٠٠٣م.

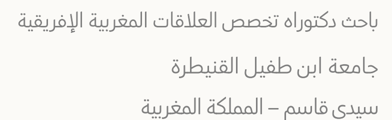
مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

جوانب من العلاقات الثقافية
بين المغرب السعدي والسودان الغربي



هشام بلمسرحة



باحث دكتوراه تخصص العلاقات المغربية الإفريقية

جامعة ابن طفيل القنيطرة

سيدي قاسم – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يهدف هذا المقال إلى إلقاء الضوء على جوانب مهمة من العلاقات الثقافية بين المغرب السعدي والسودان الغربي إذ يكشف على أنه قد ربطت الأشراف السعديين بالسودان الغربي علاقات تجارية واقتصادية وثيقة وخاصة أن السعديين كانوا يعتبرون أن بلاد السودان امتدادًا لنفوذهم السياسي فكانت أول خطوات الاتصال هي الحركة التجارية، والتي أنتجت معها علاقات ثقافية بين القطرين ساعد على تقويتها الدين الإسلامي الحنيف و سيادة المذهب الواحد ألا وهو المذهب المالكي، وقد حرص السعديون على تمتين العلاقات الثقافية بينهم وبين بلاد السودان، حيث زاد التواصل بين القطرين عن طريق الرحالات العلمية فانعكس ذلك على تبادل المعارف والعلوم والمصنفات العلمية، وانتقال طلبة العلم بين المغرب السعدي والسودان الغربي، هذا بالإضافة إلى هجرة المغاربة إلى السودان الغربي الذين كان من بينهم العلماء والفقهاء الذين ساهموا في إثراء الحياة الفكرية، والذين لم يكونوا يلقوا أية صعوبات عند حلولهم بالبلد الآخر نتيجة وحدة المذهب، وكانوا يعينون في الوظائف الهامة مثل التدريس، الخطابة، الكتابة، القضاء، كما كان للعلماء دورًا كبيرًا في مختلف المجالات، وخاصة المجال العلمي، ولا سيما علماء المغرب الذين ظهر تأثيرهم بشكل جلي وواضح في السودان الغربي وبخاصة في مجال التعليم إذ نقلوا طريقتهم الخاصة في ذلك وساهموا بقسط كبير في حركة التعريب بالجزء الغربي من القارة السمراء، وذلك راجع بالدرجة الأولى إلى اشتغال أغلبهم بعد حلولهم بالسودان الغربي في ميدان التربية والتعليم، حتى أصبحت الثقافة ببلاد السودان ثقافة مغربية على أرض سودانية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث:	٢٠	يوليو	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٨	أغسطس	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

السودان الغربي؛ المغرب السعدي؛ الرحلات العلمية؛ الفقهاء المغاربة؛ الفتاوى الدينية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.185217

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

هشام بلمسرحة. "جوانب من العلاقات الثقافية بين المغرب السعدي والسودان الغربي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ١٤٦ – ١٥٣.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: hicham.belmsrha.mr@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقَدِّمَةُ

لقد احتل المغرب عبر فترات تاريخية طويلة، مكانة مهمة في مجال العلاقات الدولية، وأوضح دوما هويته كأرض للتلاقي والتواصل والتجانس، وكمجال لتقاطع وتلاقح تيارات حضارية، وأفكار ورؤى متعددة ومتنوعة، أمازيغية، عربية، أندلسية، وإفريقية، إذ ربطته ببلاد السودان علاقات متينة، ووشائج عميقة كان لها الفضل في حدوث تراكم وتفاعل حضاري بين الطرفين، وقد انتظمت وتوطدت تلك الصلات بين الجانبين عبر قنوات متعددة، كالتجارة، والدبلوماسية، والسياسة، والاقتصاد، والحرب، والبحث عن المعرفة، ولم تكن الصحراء أبدًا لتشكل حاجزًا طبيعيًا بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء[١]، منذ العهود الأولى التي سبقت انتشار الإسلام، فكانت أول خطوات الاتصال هي الحركة التجارية، وما أنتجته من علاقات اقتصادية، نقلت معها المؤثرات الحضارية والثقافية، من الشمال إلى الجنوب عن طريق المسالك التجارية. لكن البعد الثقافي والعلمي كان حاضرًا بقوة في هذه العلاقات من خلال الأدوار المختلفة التي اضطلعت بها البلدين لتشجيع الرحالات العلمية لقد كانت للمغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، صلات ثقافية وإنسانية وثيقة، حيث لم تقف الصحراء عائقًا بين اتصال شمال إفريقيا بالسودان الغربي، إذ ساهمت العوامل التاريخية والجغرافية في تعميق المشترك الثقافي، بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، عن طريف الرحلات العلمية، التي ساهمت في نقل الثقافات وتوسيع دائرة الخبرة، والتجربة الإنسانية، وتكمن أهمية الرحلات العلمية، في أنها لها دور كبير في تمتين العلاقات الثقافية بين الدول، ومدى مساهمتها أيضًا في تنشيط الحركة الثقافية والفكرية، وفي تشكيل معالم الوحدة الثقافية الإسلامية، بين المغرب والسودان الغربي، من خلال مختلف الكتب والمصنفات التي كان يتداولها علماء القطرين. فما مظاهر العلاقات الثقافية بين المغرب السعدي والسودان الغربي؟

أولاً: الرحلة في طلب العلم

لقد كان لموقف الإسلام من العلم والحث على طلبه أثر في اهتمام المسلمين بالرحلات العلمية، فقد حث الإسلام على العلم والسعي في طلبه وتحصيله حتى روي عن الرسول (ﷺ) أنه قال: "من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله به طريقا إلى الجنة"[٢] وقال أيضًا "لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة"[٣] وقال عليه السلام أيضا "أطلبوا العلم ولو كان في الصين"[٤] وانطلقا من هذا يتبين حرص العلماء والطلبة على اكتساب المعارف والتزود بالعلم، وتحمل ضروب المشقات وألوان التعب في سبيل ذلك ولم يدخر المسلمون في تاريخهم الطويل أية وسيلة من الوسائل التي تعينهم على بلوغ ذلك الهدف السامي، ومن هذه الوسائل كانت الرحلات العلمية والتي اعتبرها علماء المسلمين ضرورة يجب أن يسلكها طالب العلم في حياته العلمية، حتى أن العلامة ابن خلدون اعتبر الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم[٥].

ثانيًا: الرحلات العلمية من أجل طلب العلم بين القطرين

٢/١- ظاهرة الرحلة من المغرب نحو السودان الغربي

من سمات التطور الحضاري، والتفوق العلمي وجود الرحلات، والأسفار للعلماء بين مراكز العلم في العالم الإسلامي، وذلك للتزود بالعلوم، واكتساب المعرفة، فقد تولد عن ذلك نشاط علمي كبير في الدولة الإسلامية، وتكمن أهمية الرحلة العلمية، في أنها لها دور كبير في تمتين العلاقات الثقافية بين الدول، ومدى مساهمتها أيضا في تنشيط الحركة الثقافية والفكرية، وفي تشكيل معالم الوحدة الثقافية الإسلامية بين المغرب والسودان الغربي، من خلال تبادل مختلف الكتب، والمصنفات التي كانوا يتداولها علماء القطرين، والطلبة فكانت الحركة الفكرية متواصلة بين السعديين والسودان الغربي، من مختلف العلوم وللإجازة والتعمق أكثر خاصة في مجال الفقه وأصوله، والعلوم الأخرى، ومهما كانت دوافع الرحلة العلمية وأهدافها فإن المقصد العلمي كان أهمها وأشملها، حيث كان الطلاب يشدون رحالهم إلى مختلف الحواضر المغربية والسودانية، متحملين مشقة السفر حتى أصبحوا شيوخا وأساتذة، وعلماء ساهموا بقسط كبير في إثراء النهضة الفكرية والتعليمية، ولقد توطدت العلاقات الثقافية والفكرية بشكل أكبر بين الدول عن طريق الرحلات العلمية[٦]، حيث نجد مجموعة من علماء المغرب، يتجهون نحو السودان فيستوطننه، ويمارسون فيه نشاطهم العلمي والإبداعي، سواء أقاموا فيه إلى حين وفاتهم، أو استوطنوه مدة ثم عادوا إلى المغرب، وقد كان علماء المغرب يتجهون إلى السودان الغربي، بهدف الإصلاح والتعليم، و نشر المبادئ الصحيحة للدين الإسلامي، فمن هؤلاء نكتفي بذكر:

(٢/١) ١-العالم محمد بن عبد الكريم المغيلي

ولد بمدينة توات[٧]، في حي كان يسكنه اليهود، وانتقل إلى فاس٨ برسم الدراسة العليا، وكان سنيًا لا يقول بالاجتهاد، ولذلك كانت له مع علماء فاس مساجلات أخذت شكل خلاف،

واشتهرت تلك الخلافات تم اتسعت بعد ارتحاله إلى تونس، وفضل المغيلي أن يهاجر إلى السودان، حيث أصبح أكبر أستاذ في تكدة[٩]، وغاو[١٠] وكانو[١١]، واتصل في غاو بالأسكيا الحاج محمد، وتذاكر معه في جملة من المسائل الفقهية، وألف في السودان عشرات الكتب، والشروح وحشى بعض المؤلفات الأخرى، ذكر صاحب الديباج واحد وعشرين منها، وأهم تلك المؤلفات : مغنى اللبيب في شرح مختصر خليل، وإكليل مغنى اللبيب، والمنسيات، وأسئلة الأسكيا الحاج وأجوبة المغيلي عليها[١٢].

(١/٢) ٢-العالم محمد بن يوسف بن مهدي الزياتي الغماري أبو عبد الله

الفقيه، النحوي، كان يستظهر نحو النصف من مختصر ابن الحاجب، وكان يقوم على ألفية ابن مالك أتم قيام، أخذ النحو عن أبي العباس القدومي، وعن أبي العباس المنجور[١٣]، غير النحو من العلوم، انتقل إلى السودان، وراح ينشر علمه هناك إلى أن أدركه الموت، بكانو من بلاد السودان بعد ٩٩٠هـ[١٤].

(١/٢) ٣-العالم عبد الرحمن بن علي بن سفيان أبو زيد السفياني لسفياني العاصمي

الفقيه، المحدث الرواية الرحالة، أخذ عن القلقشندي، وزكريا، وابن مهدي، والسخاوي، كلهم عن ابن حجر، وأخذ عن جماعة، كأبي النعيم رضوان عبد الله، وأبي راشد يعقوب بن يحى البذري، وأبي العباس أحمد بن علي المنجور[١٥]، كما أخذ عن شيخ الجماعة كإبن غازي، والشيخ زروق بفاس، وأخذ علم الحديث بمصر ثم ذهب لبلاد السودان، ودخل كانو وغيرها فعظموه ثم عاد إلى فاس سنة ١٥١٨م، حيث أصبح من علماء جامع الأندلس، يدرس الموطأ والكتب الستة المعتمدة في العلوم الدينية، (البخاري – مسلم – النسائي – الترمذي – ابن ماجة – أبا داوود) له عدة تأليف توفي عام ١٩٤٥م[١٦].

(١/٢) ٤-العالم مخلوف بن علي بن صالح البلبالي[١٧]

درس في ولاته[١٨] مبادئ العلوم ورسالة أبي زيد في الفقه، ارتحل إلى المغرب وحضر بفاس دروس علي ابن الرازي، ثم عاد إلى السودان للتدريس بكانو وكاشينا، وحن إلى المغرب فشد الرحال إلى مراكش، ومات مسمومًا عام ١٥٣٣ بعد عودته الثالثة للسودان، وقد كتب مؤلفًا في النوازل[١٩].

(١/٢) ٥-العالم محمد بن محمد بن أبي بكر العصنوني التواتي

الذي "درس في الصحراء والسودان، ومراكش"[٢٠].

(١/٢) ٦-العالم سالم بن محمد بن أبي بكر العصنوني التواتي

الفقيه القاضي بتوات وبتمنطيط، أخذ عن عمه، أبي محمد عبد الله بن محمد بن أبي بكر علي، عن أبي زكري وجماعة من العقبانيين والتلمسانيين، وأخذ أيضا عن أبي زكريا يحيى السوسي، وغيرهم، وكان من عباد الله الصالحين، من أهل الحق في حكمه، حمدت سيرته، وصلحت سريرته، وأسلم على يده خلق كثير من أهل كانو وسلطانها من بلاد السودان[٢١].

(١/٢) ٧-العالم محمد بن محمد بن أبي بكر التواتي أبو عبد الله

له سند ورواية وسماع، وله مشاركة في الحساب والفرائض، أخذ البخاري، عن أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بغيغ، أحد كبار علماء السودان، عن أبي عبد الله، أندغ، عن القلقشندي، عن ابن حجر. يقول ابن القاض، تدبجت معه، أجاز لي، وأجزت له، وأخذ عني الحساب والفرائض بمراكش المحروسة، ولد سنة ٩٤١ هـ.[٢٢]

٢/٢-ظاهرة الرحلة من السودان الغربي نحو المغرب

نجد في مقابل هذه الرحلات المغربية نحو السودان، مجموعة من العلماء السودانيين الذين كانوا يفدون على المغرب فيستوطنون ويواصلون فيه نشاطهم العلمي في مختلف المراكز الثقافية كمراكش وسوس وفاس وغيرها، نقتصر منهم على ذكر:

(٢/٢) ١-العالم مخلوف بن علي بن صالح البلبلي

فقيه حافظ رحالة اشتغل بالعلم على كبر على ما قيل، فأول شيوخه سيدي العبد الصالح عبد الله بن عمر بن محمد أقيت، شقيق جدي بولاتن، قرأ عليه الرسالة ورأى منه نجابة، فحظه على العلم، فرغب فيه وسافر للمغرب، فأخذ عن ابن غازي وغيره، واشتهر بقوة الحافظة، حتى ذكر عنه العجب في ذلك، ودخل بلاد السودان، ككانو وكشنة[٢٣]، وغيرهما، وأقرأ هناك وجرى له أبحاثا في النوازل مع الفقيه العاقب الأنصمي، ثم دخل تنبكت وأقرأ بها، ثم رجع للمغرب فدرس بمراكش، وسم هناك، فمرض فرجع لبلده، وتوفي بعد الأربعين وتسعمائة[٢٤].

(٢/٢) ٢-العالم عبد الرحمن التميمي

جاء من أرض الحجاز صحبة السلطان منسا موسى، صاحب مالي، حين رجع من الحج فسكن تنبكت، وأدركه حافلاً بالفقهاء السودانيين، ولما رأى أنهم فاقوا عليه في الفقه، رحل إلى فاس وتفقه هناك، ثم رجع إليه فتوطن فيه، وهو جد القاضي حبيب رحمهم الله تعالى[٢٥].

(٢/٢) ٣-العالم أحمد بابا التنبكتي

هو العلامة أحمد بابا، بن الفقيه أحمد بن الحاج أحمد ابن عمر ابن محمد أقيت، (ولد سنة ٩٣٩هـ)، سلطان العلماء بالسودان الغربي، وعالمه بلا منازع، فقد داع صيته في الشرق والغرب، وأصبح يشار إليه بالبنان، نفي إلى مراكش، فاستقر بها، فتقاطر عليه الطلاب في كل مكان، يأخذون منه العلم، وقد أشار إلى هذا بقوله "ولما خرجنا من المحنة، طلبوا مني الإقراء، فجلست بجامع الشرفاء بمراكش من أنواه جوامعها، أقرئ مختصر خليل قراءة بحث وتحقيق ونقل وتوجيه، وكذا تسهيل ابن مالك وألفية الحديث للعراقي، وتحفة الحكام لابن عاصم، وجمع الجوامع للسبكي، وحكم ابن عطاء الله، والجامع الصغير للسيوطي، والصحيحين، وغيرهما، وازدحم علي الخلق، وأعيان طلبتها، ولازموني بل قرأ علي قضاتها، كقاضي الجماعة بفاس، وكذا قاضي مكناسة، ومفتي مراكش وغيرهم، وأفتيت فيها لفظا، وكتبًا بحيث لا توجه إلا إلي[٢٦]، حيث ذاع صيته، واشتهر أمره، وانتشر ذكره، وسلم له علماء الأمصار في الفتوى[٢٧].

(٢/٢) ٤-العالم الشاعر عبد الحكيم الجواري

أخذ عن الفقيه سعيد المغربي بتلمسان، وعن غيره، وهو قاضي تكورارين[٢٨]. وله نظم، يقول ابن القاضي، اجتمعت به بمراكش سنة ٩٩٨هـ[٢٩].

(٢/٢) ٥-العالم أبو فحص عمر بن الحاج أحمد بن عمر أقيت

"النحوي المادح لرسول الله (ﷺ)، صباحًا ومساءً، المسرد لكتاب الشفا، في كل يوم رمضان في مسجد سنكري، الواصل لرحمه، المتعاهد لأقاربه، يتفقدهم في صحتهم، ويعودهم في مرضهم، المنشرح وجهه، للخاصة والعامة، المتوفي شهيدا في مدينة مراكش، رحمه الله تعالى ورضي عنه"[٣٠].

(٢/٢) ٦-العالم القاضي العاقب

الذي استوطن مراكش، بدليل أن ابنه سيف السنة، وابنته عائشة ماتا بها، كما أثبت ذلك عبد الرحمن السعدي في تاريخه[٣١].

(٢/٢) ٧-العالم أحمد بن أند غمحمد السوداني: الذي دخل إلى المغرب، للاتصال بأعلام العصر، ودرس مدة بإيليغ، بالأطلس الصغير"[٣٢].

ثالثًا: اعتماد المصنفات المغربية في الدرس السوداني

يرجع إلى الفقهاء المغاربة، الذين استوطنوا السودان الغربي، لسنوات طويلة الفضل في تعريف أهل البلاد، بالمصنفات المغربية، التي نقلوها ودرسوها لهم، والتي انتشرت على نطاق واسع، في معظم بلدان السودان الغربي، ومما يدل على كثرة المؤلفات التي تركها هؤلاء العلماء، وباتت معروفة، ومقروءة من قبل العامة والخاصة، ومتداولة بين أيدي طلاب العلم، ومن النادر، أن نجد بين هذه المؤلفات، كتابًا واحدًا لعالم غير مغرب الأصل، بل إن المناهج، والمؤلفات المغربية، كانت هي التي تدرس في السودان الغربي[٣٣]، حيث كانت الصبغة المذهبية، لهذه الكتب مالكية في معظمها، وذلك لسيادة المذهب المالكي، في شمال إفريقيا وغربيها[٣٤]، ولهذا وصفت الثقافة في السودان الغربي بأنها ثقافة مغربية على أرض سودانية[٣٥].

وندع مؤرخ تنبكت، عبد الرحمن السعدي، يتحدث بنفسه عما درسه من مواد على يد أستاذه، وشيخه، أحمد بابا التنبكتي، ملازما له لمدة عشر سنوات، يقول "ختمت عليه مختصر خليل، بقراءته، وقراءة غيره، نحو ثماني مرات، وختمت عليه الموطأ، قراءة فهم وتسهيل، ابن مالك قراءة بحث وتحقيق، مرة بثلاث سنين، وأصول السبكي بشرح المحلي، ثلاث مرات، قراءة تحقيق، وألفية العراقي، بشرح مؤلفها، وتلخيص المفتاح بمختصر السعد، مرتين فأزيد، وصغرى السنوسي، وشرح الجزيرة له، وحكم ابن عطاء الله مع شرح زروق، ونظم بن مقرعة، والهاشمية في التنجيم مع شرحها، ومقدمة التاجوري فيه، ورجز المغيلي في المنطق، والخزرجية في العروض، فشرح الشريف السبتي، وكثيرًا من تحفة الحكام لابن عصام، مع شرحها لولده كلها بقراءاته، قرأت عليه فرعي ابن الحاجب قراءة بحث جميعه، وحضرته في التوضيح، كذلك لم يفتني منه إلا من الوديعة إلى الأقضية، وكثيرًا من المنتقى للباجي، والمدونة بشرح ابن الحسن الزريويلي، وشفا القاضي عياض، وقرأت عليه صحيح البخاري، نحو النصف، وسمعته بقراءاته، وكذا صحيح مسلم كله، ودولا من مدخل ابن الحاج، ودروس من الرسالة، والألفية، وغيرها، وفسرت عليه القرآن العزيز، إلى أثناء سورة الأعراف، وسمعت بلفظه جامع المعيار للونشريسي كاملا ..."[٣٦]، ويظهر لنا جليًا هيمنة مواد العلوم النقلية، وخاصة الفقه والحديث، وهو ما كان يدرس أيضًا في المراكز العلمية بالمغرب[٣٧]، كما نجد من المؤلفات، الدراسية المغربية عندهم، الشفا للقاضي عياض، وهو كتاب ملأ فراغا في المكتبة الإسلامية في العالم الإسلامي كله لم يملأه سواه، ودلائل الخيرات للجزولي، ومقدمة ابن آجروم، وشرح المكودي على ألفية ابن مالك، والبسط والتعريف في علم التصريف للمكودي أيضا، ولامية الزقاق،

والمنهج المنتخب في قواعد المذهب للزقاق أيضًا، وشرح الشريف السبتي على الخزرجية في العروض، والدرر اللوامع في قراءة نافع لابن بري، وإضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة، لأحمد المقري، في التوقيت، ونظم المقنع للمرغيثي، وشرح الحكم العطائية للشيخ زروق الفاسي، والمدخل لابن الحاج الفاسي، وجامع المعيار للونشريسي[٣٨]. ومن المراجع المغربية كذلك عندهم، شرح أبي الحسن الصغير الفاسي على المدونة، وكتاب المراصد في التوحيد لمحمد العربي الفاسي، ومنظومة الذكاة له، ونوازل عبد القادر الفاسي، ونظم العمل الفاسي، وشرحه لولده أبي زيد، وتكميل المرام في شرح شواهد ابن هشام، لمحمد بن عبد القادر الفاسي، ومطالع المسرات في شرح دلائل الخيرات، للمهدي الفاسي، والأنوار السنية للشريف أحمد بن محمد بن أحمد، ورحلة ابن بطوطة، ونوازل الورزازي، وفهرست ابن يعقوب الولي المراكشي، وإشراق البدر على عدد أهل بدر لأحمد بن علي السوسي، ومختصر أبي عبد الله الفيلالي، ونظم الدول للفاسي[٣٩].

رابعًا: تصدر علماء البلدين للتدريس بأهم المساجد المتواجدة في بعض المراكز الثقافية بالقطرين

كان للعلماء سواء علماء المغرب، أو علماء السودان الغربي، خلال العصر السعدي دور كبير خاصة في المجال العلمي، إذ كان لهم الدور الأوفى، في تمتين العلاقات الثقافية بين القطرين، من خلال تنقلاتهم، ورحالاتهم المستمرة بين المغرب والسودان الغربي، واشتغالهم في المناصب الهامة كالتدريس، والخطابة والقضاء، ومما يدل على التلاحم الثقافي والحضاري، بين المغرب الأقصى والسودان الغربي، وجود أساتذة من المغرب الأقصى كانوا يدرسون أهالي السودان الغربي، شتى العلوم التي كانت تدرس بالمغرب الأقصى، وكذلك وجود أساتذة من السودان الغربي درسوا بالمغرب، وساهموا بقسط وافر في بناء صرح الحضارة المغربية نكتفي بذكر:

٤/١-أحمد بابا التنبكتي

ومن المعلوم أنه عاش بمراكش مدة، ودرس فيها، وأفتى، وألف كثيرا من مؤلفاته، ومنها نيل الابتهاج، وكفاية المحتاج، الذي ألفهما برسم خزانة السلطان أحمد المنصور السعدي[٤٠]، وعلى الرغم من شدة المحن، التي ابتلي بها أحمد بابا التنبكتي في هذه السنوات المراكشية، كانت تلك من أغنى فترات حياته عطاء وشهرة، ففيها ختم بعض كتبه سنة ١٠٠٤هـ، وأكمل أشهرها وهو "نيل الابتهاج" سنة ١٠٠٥هـ، واختصره في "كفاية المحتاج"، الذي تعود إحدى نسخه الكاملة إلى صفر من سنة ١٠١٢هـ، هذا فضلاً عن جلوسه للتدريس بعد خروجه من السجن، وازدحام الطلاب من حوله، ودوران الفتيا عليه لفظا، وكتابة، بحيث لا تتوجه غالبًا إلا إليه، وأشار في "النيل" إلى أن الله قد جبر عليه، فعادت له بعض كتبه، بعد دخوله لمراكش[٤١]، وقد جاء التنبكتي، إلى هذه البيئة المغربية، وعمره يناهز الأربعين سنة، فأسهم فيها بالتأليف والتعليم[٤٢]، وقد أكد هذا أحمد بابا التنبكتي، بقوله، "ولما خرجنا من المحنة، طلبوا مني الإقراء، فجلست بعد الإباية بجامع الشرفاء بمراكش، من أنوه جوامعها، أقرئ مختصر خليل قراءة بحث وتدقيق، ونقل وتوجيه، وكذا تسهيل ابن مالك، وألفية الحديث للعراقي، فختمت علي نحو عشر مرات، وتحفة الحكام لابن عاصم، وجمع الجوامع للسبكي، وحكم ابن عطاء الله، والجامع الصغير للجلال السيوطي قراءة تفهم مرارا، والصحيحين سماعا علي وإسماعا مرارا، ومختصرهما، وكذلك الشفا والموطأ والمعجزات الكبرى للسيوطي، وشمائل الترمذي، والاكتفاء لأبي الربيع الكلاعي، وغيرها. وازدحم علي الخلق وأعيان طلبتها ولازموني، بل قرأ علي قضاتها، كقاضي الجماعة بفاس، العلامة أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني، وهو كبير ينيف على الستين، وكذا قاضي مكناسة الرحلة المؤلف صاحبنا أبو العباس ابن القاضي، له رحلة للمشرق، ولقي فيها الناس، وهو أسن مني، ومفتي مراكش الرجراجي، وغيرهم، وأفتيت فيها لفضا، وكتبا، بحيث لا توجه فيها الفتوى غالبا إلا إلي، وعينت لها مرارا، فابتهلت إلى الله تعالى أن يصرفها عني، واشتهر اسمي في البلاد، من سوس الأقصى، إلى بجاية والجزائر، وغيرها، وقد قال لي بعض طلبة الجزائر، وقد قدم علينا بمراكش، لا نسمع في بلادنا إلا باسمك فقط"[٤٣].

٤/٢-محمد بن عبد الكريم المغيلي

رحل الفقيه محمد ابن عبد الكريم المغيلي، إلى بلاد السودان الغربي، ليعمل على تصحيح العقيدة الإسلامية، الذي أخذ الفساد يدب فيه، وليصبح أحد أهم الروابط الثقافية، التي ربطت المغرب بالسودان الغربي، عن طريق منطقة توات، فمنذ القرن الخامس عشر الميلادي، أصبح هذا الإقليم مركزا هاما لنشر الفكر والثقافة الإسلامية، بالمدن الإسلامية القريبة من الأطراف الجنوبية للصحراء، وعند وصول المغيلي إلى هذه الديار، رأى بأن فهم الناس، لأحكام الدين الإسلامي تطبع عليه البساطة، مما أشاع ظاهرة الشعوذة، التي كان من ورائها

أناس ادعوا الفهم الصحيح لديننا الحنيف، وأول منطقة حل بها المغيلي، منطقة أهير مارا، بتدمكت، التي كانت لا تزال في تلك الأيام على ازدهار ملحوظ، ومنها انتقل إلى كشين أو كانو، التي بقي بها للقضاء والاقتداء، والتدريس[٤٤]، حيث ترك العديد من المؤلفات في ميدان العلم والتأليف، التي كان لها بالغ الأثر في الحياة العلمية، والثقافية في غرب إفريقيا، منها الغرب المنير في علم التفسير، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، شرح مختصر خليل، مفتاح النظر في علم الحديث، شرع جمل الخونجي في المنطق، ففي نفس السياق قام المغيلي بمراسلة السيوطي وانتصر لآراء أرسطو في المنطق، فتأثر بآرائه الكثير من علماء إفريقيا، وساروا على منهجه، ونشروا مؤلفاته التي تدرس إلى اليوم[٤٥].

٣/٤-عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي

الفقيه، الذي ذهب إلى السودان الغربي، وبالتحديد إلى مدينة تنبكت، وقد منح إجازة، أي شهادة، في مجال التعليم، للسيد أبا بكر بن محمد بن محمد، الشهير بآت التنبكتي، في صحيح البخاري، وغيره، جاء في نصها ما يلي: "الحمد لله رب العالمين، وصلواته، وسلامه، على سيدنا ومولانا محمد (ﷺ)، خير خلق الله أجميعين، والرضاء على آله، وأصحابه أجمعين، وبعد، فيقول العبد المشفق من سوء كسبه، المستغفر من ذنبه، عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي، غفر الله دنوبه، وستر عيوبه، أن الفقيه، المشارك الأديب الفاضل العلامة، المعني الفهامة، الري السني، الشريف الحسني، السيد أبا بكر بن محمد، الشهير بأت التنبكتي، الدار أدام الله توفيقه، وهيأ لما يرضيه طريقه، قد سألني أن أجزيه، في كتب الحديث، كذا مثل الصحيحين، وغيرهما[٤٦].

تميط لنا هذه الإجازة، النقاب عن العديد من الجوانب المهمة، في تاريخ العلاقات الثقافية، بين المغرب الأقصى، والسودان الغربي.

٤/٤-مخلوف بن علي بن صالح البلبالي

فقيه، حافظ رحلة اشتغل بالعلم على كبر على ما قيل، فأول شيوخه سيدي العبد الصالح عبد الله بن عمر بن محمد أقيت، شقيق جدي بولاتن، قرأ عليه الرسالة، ورأى منه نجابة فحظه على العلم، فرغب فيه وسافر للمغرب، فأخذ عن ابن غازي وغيره، اشتهر بقوة الحافظة، حتى ذكر عنه العجب في ذلك، ودخل بلاد السودان ككنو وكيشن، وغيرهما، وأقرا هناك، وجرى له أبحاث في نوازل مع الفقيه العاقب الأنصمني، ثم دخل تنبكت وأقرأ بها، ثم رجع للمغرب فدرس بمراكش، وسم هناك، فمرض فرجع لبلده، وتوفي بعد الأربعين وتسعمائة[٤٧].

خامسًا: الفتاوى الدينية

لقد كان بين علماء المغرب والسودان الغربي في العصر السعدي علاقات طيبة، مبنية على التبادل العلمي من خلال تبادل المصنفات، وابدأ الرأي والمشورة، والاستفسار والفتوى، زادا من تقويتها سيادة مذهب واحد بين القطرين، ألا وهو المذهب المالكي. فكان الكثير من علماء المغرب يستفتون علماء السودان الغربي كلما استصعبوا أمرا أو مسألة ومثل ذلك ما كان. وأفتيت فيها لفضا وكتبا بحيث لا توجه فيها الفتوى غالبا إلا إلي، وعينت لها مرارًا فابتهلت إلى الله تعالى أن يصرفها عني[٤٨].

وتأكيدًا على الصلات العلمية بين السودان الغربي وبلاد المغرب ما حدث من إرسال رسائل وكتب تعبر عن الاهتمام بما يحدث من أمور مرتبطة بالدين والدنيا بين الفقيه أحمد بابا من جهة وبين فقهاء المغرب من جهة أخرى، منها مراسلاته وفتواه الشهيرة في مسالة العبيد بعد أن أرسل أهل توات رسائل إلى أحمد بابا التنبكتي حول مجلوب السودان فرد عليهم أحمد بابا بالجواب حول حكم الإسلام في رسالة سماها الكشف والبيان لحكم مجلوب السودان[٤٩]، وكذاك مراسلته وفتواه الشهيرة في مجال التدخين وعرفت بـ "قواعد أحمد بابا في حلية التدخين" وجاء رد أحمد بابا عليها مفصلاً في كراسة أطلق عليها اسم "اللمع في الإشارة لحكم التبغ والذي انتهى من تأليفه عالم (١٠١٦هـ/١٦٠٧)، ووعد بكتاب آخر يكون أكمل وأتم بعنوان : **عين الإصابة في مسالة طابة**، وكانت فتوى أحمد بابا الذي كان من المدمنين على التدخين بحليته ما دام غير منوم وغير مفسد للوضوء، فهي ليست كالخمر، ولا توصف بصفاته[٥٠]. كما أفتى أحمد بابا بفتوى حول أعراف جزولة وهي عبارة عن أمور تتعلق بالأحكام العرفية التي كانت سائدة في تلك الجبال المغربية ناحية السوس الأقصى[٥١]. فكان الكثير من علماء المغرب يستفتون أحمد بابا التنبكتي كلما استصعبوا أمرا أو مسألة وقد أكد هذا بقوله، "وأفتيت فيها لفضا وكتبا بحيث لا توجه فيها الفتوى غالبًا إلا إلي، وعينت لها مرارا فابتهلت إلى الله تعالى أن يصرفها عني"[٥٢]. وما ذكرناه لا يدل إلا على بعض الصلات العلمية والثقافية التي ربطت بين علماء السودان الغربي وعلماء بلاد المغرب، وهي صلات عميقة الجذور ضاربة في التاريخ[٥٣].

خَاتمَةٌ

هكذا إذن، تبين من خلال فصول هذا العرض، أن الأشراف السعديين ربطتهم أيضًا بإفريقيا جنوب الصحراء علاقات ثقافية وثيقة، زاد من تقويتها سيادة المذهب الواحد ألا وهو المذهب المالكي، وقد حرص السعديون على تمتين الوحدة الإسلامية، حيث زاد التواصل بين القطرين عن طريق الرحالات العلمية فانعكس ذلك على تبادل المعارف والعلوم والمصنفات العلمية، وانتقال طلبة العلم بين المغرب السعدي والسودان الغربي، هذا بالإضافة إلى هجرة المغاربة إلى السودان الغربي الذين كان من بينهم العلماء والفقهاء الذين ساهموا في إثراء الحياة الفكرية، والذين لم يكونوا يلقوا أية صعوبات عند حلولهم بالبلد الآخر نتيجة وحدة المذهب، وكانوا يعينون في الوظائف الهامة مثل التدريس، الخطابة، الكتابة، القضاء.

كما كان للعلماء دورًا كبيرًا في مختلف المجالات، وخاصة المجال العلمي، ولا سيما علماء المغرب الذين ظهر تأثيرهم بشكل جلي وواضح في السودان الغربي وبخاصة في مجال التعليم إذ نقلوا طريقتهم الخاصة في ذلك وساهموا بقسط كبير في حركة التعريب بالجزء الغربي من القارة السمراء، وذلك راجع بالدرجة الأولى إلى اشتغال أغلبهم بعد حلولهم بالسودان الغربي في ميدان التعليم، أما من الناحية العلمية والدينية فكان دور العلماء والفقهاء المغاربة بارزًا وهامًا في نشر الثقافة العربية الإسلامية وذلك بنشر الحرف العربي وتعاليم الفقه والحديث وأصول الفقه والتفسير وعلم الكلام التي كانت سنية في منهجها مغربية في طرائق تدريسها، ونتيجة ذلك حدث تبادل ثقافي واسع النطاق، شمل الميادين الدينية والروحية والعلمية والفنية بمختلف جزئياتها ومركباتها، وكان هذا التبادل بين البلدين عملية أخذ وعطاء وتأثير وتأثر من الجانبين، فلقد ساهمت الرحلة العلمية السعدية في إثراء الحضارة المغربية والإسلامية وأصبح السودانيين يأخذون من السعديين بقدر ما كان السعديين يأخذون منهم من العلوم والتأثيرات الثقافية والفنية المختلفة.

الاحالات المرجعية:

(١) عماري، الحسين، **الزوايا كقناة للتواصل التجاري والثقافي والروحي بين المغرب وبلاد السودان خلال العصر الحديث وبداية المعاصر**. مجلة أمل، العدد ٣٥، ٢٠٠٩، ص. ١٢.

(٢) أخرجه مسلم عن حديث أبو هريرة.

(٣) أخرجه عبد البر عن حديث أبي ذر.

(٤) أخرجه ابن عدي والبيهقي عن حديث أنس.

(٥) ابن خلدون، عبد الرحمن، **المقدمة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠٠١، ص. ٧٤٤.

(٦) زكري، لامعة، **الرحلة العلمية ودورها في إثراء المجال العلمي، المفهوم، الدوافع**، الأنواع، مجلة كان التاريخية، العدد ٢٢، ٢٠١٣، ص.١٥٧.

(٧) هي صحراء في أعالي المغرب ذات نخيل وأشجار وعيون بينها وبين سجلماسة ثلاثة عشر يومًا انظر: عنتر، سحر، **فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي**، مكتبة الثقافة الدنية، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١١، ص١٢١.

(٨) هي مدينة بالمغرب الأقصى، وسميت بفاس لأنهم لما شرعوا في حفر أساسها وجدوا فأسا في موضع الحف، وتم بناء مدينة فاس في عام ١٩٢هـ. انظر: عنتر، سحر، **فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي**، م.س، ص١٢١.

(٩) مدينة تقع في شمال النيجر حاليا. وهي من أهم المراكز الواقعة خلف الصحراء. في الطريق الشرقي لبلاد الهوسة، فهذه المدينة كانت ملتقى لطرق القوافل القادمة من السودان الغربي نحو فزن والقوافل التجارية الواصلة من السودان الأوسط غلى توات. وعبر هذه المدينة يستطيع المسافر أن يذهب غلى كافة الاتجاهات. انظر: بازينة، عبد الله سالم، **انتشار الإسلام في إفريقية جنوب الصحراء**، منشورات جامعة ٧ أكتوبر، مصراته، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص١٤٧-١٤٨

(١٠) مدينة تقع شمال العاصمة باماكو بجمهورية مالي، وكانت خاضعة لسيطرة مالي إبان عصور ازدهارها وتوسعها في منطقة السودان الغربي. انظر: بازينة، عبد الله سالم، **انتشار الإسلام في إفريقية جنوب الصحراء**، م.س، ص. ١٤٦.

(١١) إمارة من الإمارات السبع التي كونت بلاد الهوسا، انظر: رزق الله أحمد، مهدي، **حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية**، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص.٣٨٠.

(١٢) الغربي، محمد، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، ١٩٨٢، الجزء الأول، ص. ٥١٤.

(١٣) الشيخ أحمد المنجور (ت. ٩٢٦-٩٩٥هجرية) أستاذ السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي، وإمام فاس وعالمها المشارك، وصفه تلميذه ابن القاضي قائلاً: "الإمام الفقيه المعقولي المؤلف، كان أية من آيات الله تعالى في المعقول والمنقول، وكان أحفظ أهل زمانه وأعرفهم بالتاريخ والبيان والأصول"، وله عدة مؤلفات منها، نظم الفوائد لحل المقاصد، مراتب المجد في آيات السعد،

وفهرسة المنجور، عنه ينظر: ابن القاضي، أحمد، **درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧١، الجزء الأول، ص١٥٦ ، القادري، محمد، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي وأحمد توفيق، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٨، الجزء الأول، ص٥٥

(١٤) ابن القاضي، أحمد، **درة الحجال في أسماء الرجال**، م.س، الجزء الثاني، ص ٢٣٨.

(١٥) ابن القاضي، أحمد، **درة الحجال في أسماء الرجال**، م.س، الجزء الثالث، ص ٩٦-٩٧.

(١٦) الغربي، محمد، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، م س، ص ٥١٦.

(١٧) نسبة إلى بلبال (أو تبلبلت)، وهي واحة بالقرب من توات عنه ينظر: رزق الله أحمد، مهدي، **حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية**، م.س، ص٧١١.

(١٨) مدينة تقع إلى الشمال الغربي من تنبكت ومعناها الأرض المرتفعة وكان أهل صنغاي يسمونها بيرو وكان تأسيسها حوالي القرن الأول الهجري. انظر: بازينة، عبد الله سالم، **انتشار الإسلام في إفريقية جنوب الصحراء**، م.س، ص١٤٧.

(١٩) الغربي، بداية **الحكم المغربي في السودان الغربي**، م س، ص ٥١٧.

(٢٠) حجي، محمد، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، منشورات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٨، الجزء الثاني، ص ٦٣٢.

(٢١) ابن القاضي، أحمد، درة **الحجال في أسماء الرجال**، م.س، ص ٣١٣-٣١٤.

(٢٢) ابن القاضي، أحمد، درة **الحجال في أسماء الرجال**، م.س، ص ١٦٢.

(٢٣) كشنة أو كستينا وهي إمارة من الإمارات السبع التي كونت بلاد الهوسا، انظر: رزق الله أحمد، مهدي، **حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية**، م.س، ص ٣٨٠.

(٢٤) السعدي، عبد الرحمان، **تاريخ السودان**، مطبعة بردين، باريس، ١٩٨١، ص ٣٩.

(٢٥) المصدر نفسه، ص. ٥١.

(٢٦) ميغا، عبد الرحمان، **الحركة العلمية في مدينة تنبكت خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين**، مجلة دار الحديث الحسنية، العدد ١٤، ١٩٧٩، ص ٣٨٧.

(٢٧) السعدي، عبد الرحمان، **تاريخ السودان**، م.س، ص ٣٥.

(٢٨) قصور بالصحراء وهي أعظم اشتهارًا وأعرف نقيبًا وأشد شوكة وأخشن جانبًا وأعظم إقليم المغرب وأكثرها إماما وأفسحها خطة. انظر: الفشتالي، عبد العزيز، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط، ص٧٣.

(٢٩) ابن القاضي، أحمد، **درة الحجال في أسماء الرجال**، م.س، الجزء الثالث، ص ١٦٢.

(٣٠) السعدي، عبد الرحمان، **تاريخ السودان**، م.س، ص ٣١.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٢١٣-٢١٤.

(٣٢) نفسه، ص ٢٩٥.

(٣٣) قدوري، عبد الرحمن، **الوجود المغربي بمنطقة السودان الغربي في القرن التاسع والعاشر الهجري/ الخامس عشر والسادس عشر الميلادي، دراسة في الدوافع والنتائج**، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، تحت إشراف مبخوت بودواية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تلمسان، ص. ١٠٧.

(٣٤) رزق الله أحمد، مهدي، **حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية**، م.س، ص. ٦٦٧.

(٣٥) عنتر، سحر، **فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي**، م.س، ص٢٦١.

(٣٦) السعدي، عبد الرحمان، **تاريخ السودان**، م.س، ص. ٤٥-٤٦.

(٣٧) الغربي، محمد، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، م س، ص ٥٢٢.

(٣٨) البرتلي، محمد، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١، ص. ١٠-١١.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١١.

(٤٠) البرتلي، محمد، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، م.س، ص١٥.

(٤١) التنبكتي، أحمد بابا، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، منشورات دار الكتاب، طرابلس، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠، ص ١٦.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٤٣) البرتلي، محمد، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، م.س، ص٣٤-٣٥.

(٤٤) بودواية، مبخوت، **العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان**، رسالة لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ، تحت إشراف عبد الحميد حاجيات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تلمسان، ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٤٥) مصطفاوي، سعاد، **دور الحضارة العربية الإسلامية في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا**، مجلة الدراسات التاريخية، العدد ١٤، ٢٠١٢، ص٣٧٩.

(٤٦) المبروك الدالي، الهادي، **مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا من القرن ١٣-١٥م**، صفحات من تاريخ العلاقات العربية الإفريقية، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص.١٥١-١٥٢.

(٤٧) السعدي، عبد الرحمان، **تاريخ السودان**، م.س، ص ٣٩.

(٤٨) البرتلي، محمد، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، م.س، ص٣٥.

(٤٩) عنتر، سحر، **فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي**، م.س، ص٢٦٤.

(٥٠) المرجع نفسه، ص٢٦٥.

(٥١) نفسه، ص٢٦٥.

(٥٢) البرتلي، محمد، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، م.س، ص٣٥.

(٥٣) عنتر، سحر، **فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي**، م.س، ص٢٦٥.

مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

مقابر كوم الشقافة
كاتاكومب الإسكندرية



د. جيهان محمد أبو اليزيد
أستاذ مشارك – قسم الجغرافيا
جامعة الأزهر
القاهرة – جمهورية مصر العربية

مُلَخّص

يُعَدّ الكاتاكومب (Catacombs) مصطلح عالميًا وثقافيًا، لاتيني الأصل مركب من الكلمتين (tumbas)، (cata) أي "بين القبور، أو ما يُعرف حاليًا باسم (سراديب الموتى) وأصبح يطلق على كل المقابر الموجودة بالأنفاق في كبريات المدن العالمية وغيرها، وذلك بعدما ظل حتى القرن الثامن عشر يطلق على المقابر الإيطالية فقط، وكان أول من بحث ونقب عنها العالم الإيطالي الكبير جيوفاني دي روسي (Giovanni de Rossi). وتحظ مدينتي روما وباريس بجُل الشهرة العالمية لهذه المقابر، وقد اكتشف بمصر نفس هذا الأثر النادر من خلال مقبرة كوم الشقافة بالإسكندرية وذلك في بداية القرن العشرين، وترجع نشأة المقبرة للعصر الروماني وصممت على غرار المقابر الرومانية الموجودة بأنفاق أرضية بمدينة روما وتتبع طقوس الدفن المصرية الفرعونية. تتناول الدراسة عرض التوزيع الجغرافي للكاتاكومب العالمي بشكل عام ثم عرض تفصيلي لكاتاكومب كوم الشقافة بالإسكندرية، بهدف إبراز القيمة الأثرية والعلمية والثقافية لهذا الأثر النادر، بالإضافة لإلقاء الضوء على المشكلات والأضرار البيئية التي تتعرض لها المقبرة. وقد اتبعت الدراسة عدة مناهج وأساليب أهمها المنهج التاريخي والوصفي والتطبيقي بالإضافة للدراسة الميدانية. وقد تبين من الدراسة أن كاتاكومب الإسكندرية تزامن في وقت إنشائه مع كاتاكومب روما ولا يقل أهمية علمية وثقافية عن الكاتاكومب العالمي لكن يعاني من عدة مشكلات أهمها: أن مقبرة كوم الشقافة لم تحظ بالاهتمام المحلى الكافي، وتحتاج لدعاية سياحية مكثفة محليًا أكثر منها دوليًا لذا تنخفض حركة السياحة بها. ونظرًا لوقوع المقبرة بوسط الأحياء السكنية في الإسكندرية تتعرض لتسرب المياه الجوفية وخاصةً الطابق السفلى، وبالتالي انخفض بريق النقوش الفنية والألوان بالجداريات.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث:	٠٣	يونيو	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٢٨	يوليو	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:
كاتاكومب؛ كوم الشقافة؛ الإسكندرية؛ جوزيبى بوتي؛ السياحة الثقافية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.186040

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
جيهان محمد أبو اليزيد. "مقابر كوم الشقافة: كاتاكومب الإسكندرية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ١٥٤ – ١٦٥.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: jen.ghober@yahoo.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقَدِّمَةُ

يُعرف كاتاكومب الإسكندرية بمقبرة كوم الشقافة نسبة للمنطقة الموجود بها المقبرة، لكن القليلون من يعرف قيمتها العلمية والتاريخية، وكعادة الكثيرين من المجتمع السكندري يطلقون عليها المقبرة اليونانية فهم يرون أن كل أثر بالمدينة يعود لليونانيين أو "الجريجيين" باللهجة المحلية، ولكن نشأة المقبرة ترجع للعصر الروماني بالإسكندرية وعلى غرار المقابر الرومانية الموجودة بأنفاق أرضية بمدينة روما، وتحمل هذه المقابر الأثرية مصطلح عالميًا وثقافيًا هو "الكاتاكومب Catacombs" وهو مصطلح إنجليزي يعنى "سراديب الموتى" ولكن أصله غامض ربما الضبط الصحيح أنه محرف من الكلمة اللاتينية (cata tumbas) أي عند القبور من "among" cata tumbas والمقصد "بين القبور"[١]، وأصبح يطلق على كل المقابر الموجودة بالأنفاق في كبريات المدن العالمية وغيرها، وذلك بعدما ظل حتى القرن الثامن عشر يطلق على سراديب الموتى الإيطالية فقط، وكان أول من بحث ونقب عنها العالم الإيطالي الكبير جيوفاني دي روسي (Giovanni de Rossi) فقد درسها دراسة أثرية علميّة وأتاح المجال لاكتشافات ودراسات أخرى. وتحظى مدينتي باريس وروما بجل الشهرة العالمية لهذه المقابر ولمصر نصيب من هذا الأثر النادر بمقابر كوم الشقافة بالإسكندرية.

أولاً: النشأة التاريخية للكاتاكومب

نشأت سراديب الموتى بروما بين أواخر القرن الأول وأوائل الثاني الميلاديين، وهي أماكن تحت الأرض يمكن اعتبارها الأرشيف الأول للكنيسة، وتوضح تماثيلها ولوحاتها استخدامات وعادات وتقاليد المسيحيين القدماء، لكن لا يُعرف الكثير عن أنواع الوظائف الدينية التي حدثت في سراديب الموتى خلال فترة المسيحيين الأوائل [٢].

فقد كان أول مكان يطلق عليه (Catacombs) هو السراديب التي تقع بين المرحلتين الثانية والثالثة من الطريق الإمبراطوري بروما "طريق آبيوس (Via Appia) وعلى بعد أميال قليلة من وسط مدينة روما في ذلك الوقت، وهو أحد الطرق التي شيدتها الإمبراطورية الرومانية ليصلها بباقي مستعمراتها في العالم. واختلفت أسباب إقامة السراديب وزمانها فيرجعها البعض إلى المسيحيين الأوائل بروما حيث أن الشعوب الأوروبية الوثنية ومنهم الرومان أنفسهم كانوا يحرقون موتاهم، لكن المسيحيون كانوا يفضلون الدفن، وبما أن المسيحيون الأوائل كانوا أقلية مضطهدة في روما لذا قاموا بالاختباء ودفن موتاهم في سراديب تحت الأرض بعيدا عن أعين الرومان الوثنيين، وكذلك استخدموها لتجمّعهم وعقد لقائاتهم. ويرجعها البعض لاستخدامها مخبأ وقت الحروب وأرجعتها الدراسات الحديثة إلى تاريخ أقدم من القرن الأول بحوالي ١٠٠ عام

ويعتقد البعض أن الفكرة نشأت من طقوس الجالية اليهودية في روما قبل أن يبدأ المسيحيون ببناء مقابر مماثلة لها. حيث أشارت دراسات الكربون المشع الحديثة بإحدى مقابر روما القديمة تحت الأرض، إلى أن هذه الهياكل بنيت في المجتمع اليهودي قبل أكثر من قرن من بدء المسيحيين الأوائل في فعل الشيء نفسه[٣].

وبمرور الزمن تحولت إلى مجمع للدفن، وأصبحت السراديب مقبرة رسمية لكنيسة روما. بعد أن استخدمت في بادئ الأمر لدفن الموتى أو لحفظ رفات وعظام المسيحيين الأوائل، ورفات للعديد من رجال الدين المضطهدين كجثتى الرسولين "بطرس" و "بولس" المدفونين بها كما جاء ببعض المصادر، مما أطفى عليها مكانة دينية وتاريخية عظيمة فيما بعد. وزادت هذه المكانة في وقت لاحق لدفن العديد من الباباوات والمسيحيين بها بعد أن أصبح الدين المسيحي هو الدين الرسمي لروما. وتتميز هذه السراديب والتي يصل عددها إلى أربعين سرداب وتقع تحت شوارع مدينة "روما بتصميمها وزخارفها التاريخية المتنوعة المغطاة بالفسيفساء واللوحات الجدارية، وأهمها وأكبرها سراديب (San Callisto) سان كاليستو (St.Callixtus) "سانت كاليكستوس" (صورة ١و٢) نسبة إلى الشماس كاليستوس مسؤول المقبرة الذي عينه البابا زفيرينو (Pope Zefirino) مديرًا للمقبرة في بداية القرن الثالث، لذا أصبحت مقابر المقبرة الرسمية لكنيسة روما في القرن الثالث الميلادي،[٤] وبها أربعة مستويات للدفن تحت الأرض حسب فئة المدفونين بداية من رجال الدين بمستوياتهم حتى عامة الشعب.

وبالإضافة لسراديب مدينة روما توجد سراديب للموتى بمقبرة كابوشيين (Capuchin) بمدينة باليرمو في جزيرة صقلية، تلك المقبرة المرعبة جدًا حيث تحتوي على أكثر من ألفي مومياء معلقة على الجدران بملابسها وهيئتها الكاملة وفي أوضاع وأشكال توحي أنهم على قيد الحياة. وتقع هذه المقبرة بأسفل دير قديم يعود إلى القرن السادس عشر لطائفة كابشيين المسيحية، وقد أصدرت السلطات الرسمية قرارًا

بتحويله إلى مزار سياحي عام ١٨٨٠ ومُنع الدفن به. يوجد أيضًا مقابر أخرى في بيروجيا (Perugia) وسيراكيوز (Syracuse) بالإضافة لمقبرة سان جينارو (San Gennaro) بنابولي وهي عبارة عن جداريات مزخرفة بالفسيفساء من القرن السادس، أي أنها أحيانا ما تظهر كأشكال زخرفية. وبعد نقل بقايا القديسين والشهداء إلى الكنائس الواقعة داخل أسوار المدن تم التخلي عن سراديب الموتى كمقابر واختفت قريبًا في وقت سابق من نهاية العصور الوسطى.[٥]

وبعد فترة من الزمن ارتبطت الكاتاكومب باستخدامها كملاجئ في الحروب ومع تعدد الأسباب نجد أن الكاتاكومب تتوزع جغرافيا تقريبا بجميع قارات العالم وإن كانت قارة أوروبا تستحوذ على أكثر المدن والعدد وذلك لانتشار الفكرة بمبدأ الجار الأقرب، فقد توسعت الفكرة بعد ذلك بانتشار المسيحية بباقي المدن الأوروبية ومستعمرات الإمبراطورية الرومانية وبالطبع منها مصر، سواء كان السبب للدفن أو الاختباء جراء الاضطهاد أو للحروب. ويوضح جدول (١) أهم الدول والمدن التي تقع بها سراديب الموتى بالعالم.

جدول (١)

أهم الدول والمدن التي تقع بها سراديب الموتى بالعالم

الدولة	المكان -المدينة	عدد الهياكل	(القرن الميلادي)
فرنسا	مدينة باريس	٦ مليون	١٨
إيطاليا	بمدن روما، نابولي، باليرمو	غير محدد	منتصف القرن (٢) و(٥) و(٦) و(١٦)
اسبانيا	جى ساكرومونتي بمدينة غرناطة	غير محدد	١٦
إنجلترا	سراديب جسر لندن بمدينة لندن	٣٥٠٠ تقريبًا	١٩
النمسا	كاتدرائية سانت ستيفن بمدينة فيينا	غير محدد	غير محدد
التشيك	بلدة زنويمو جنوب إقليم مورافيا	غير محدد	١٤
أوكرانيا	مدينة أوديسا على البحر الأسود	غير محدد	غير محدد
مالطا	مقبرة القديس بولس وسانت أغاتا في الرباط	١٠٠٠	٣-٦
البيرو	دير سان فرانسيسكو بمدينة ليما	١٠٠٠	من ١٧ حتى أوائل ١٩
استراليا	في كلية ترينيتي بجامعة ملبورن	غير محدد	١٩
مصر	كوم الشقافة بالإسكندرية	٣٥٠ تقريبًا	القرن (٢)

وكما انتقلت الفكرة لمدن إيطالية أخرى بخلاف روما انتقلت لباقي المدن الأوروبية بانتشار المسيحية وهيمنة الرومان على أوروبا، لكن يلاحظ أن أغلب سراديب الموتى بالمدن الأوروبية تقع بمدن العواصم وخاصة التي تقع على ضفاف الأنهار فلندن تقع على نهر التايمز وروما على التيبر وباريس على السين وفيينا على نهر الدانوب، وذلك ما يؤكد أنها استخدمت فترة طويلة كملاجئ أثناء الحروب وفترات الاضطهاد حيث تنتهي السراديب في النهاية إلى الأنهار.

ثانيًا: البدايات لروما والشهرة لباريس

ليس كل مَنْ زار باريس رأى وجهها المظلم ففوق الأرض تتلألأ مدينة النور وتحتها مدينة الظلام بحوالي ٦ ملايين هيكل عظمى بعمق يربو على ٢٠ مترًا، وعلى الرغم من النشأة الرومانية الأقدم زمنيا إلا أن سراديب الموتى بباريس تحظى بشهرة عالمية تخطت شهرة سراديب الموتى بجميع أنحاء العالم حتى الموجودة بروما وبالمدن الإيطالية الأخرى، ربما يرجع ذلك للعدد الكبير من رفات الهياكل العظمية، أو لأن كل سراديب الموتى المسيحية في روما ملك للكنيسة الكاثوليكية باعتبارها تضم العديد من رفات رجال الدين المقدسين ولا يسمح لأحد أن يستكشفها دون إذن خاص من الفاتيكان فتأخر اكتشاف البعض منها، ولذلك يرجح أنه ما يزال البعض منها لم يُستكشف محتوياته، وربما هناك عدد من السراديب ما يزال مفقودًا. كل هذه التعقيدات وخاصةً الحصول على إذن من الفاتيكان، كان أحد الأسباب التي أدت إلى وجود عدد قليل جدًا من البعثات الأثرية للتنقيب عن الأنفاق في العقود الأخيرة.

لم تكن سراديب باريس في بادئ الأمر أكثر من مجرد مناجم لاستخراج الكلس والحجر الجيري (لبعدها إلى حد ما عن وسط المدينة في ذلك الوقت)، أي أن بعض السراديب لم تحفر أصلاً

من أجل دفن الموتى، ولكن في مطلع القرن الثامن عشر أصبحت مقابر باريس مليئة ومكتظة وخاصةً مناطق وسط باريس مثل (les Halles)، وبمرور الوقت انتشر الدفن العشوائي وفتحت بعض القبور فكان ذلك مثار لشكوى السكان الذين يعيشون بالقرب من تلك المقابر جراء الروائح النفاذة بسبب تحلل الجثث، ومع صدور مرسوم لنقل الجثث إلا أن الكنيسة عارضته فظل الحال كما هو حتى تسببت أمطار ربيع عام ١٧٨٠ الغزيرة في هدم بعض المقابر وخروج الجثث وتعفنها مما أدى لانتشار الأوبئة والأمراض وأصبحت مصدر عدوى للسكان ما اضطر السلطات الفرنسية آنذاك إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة فتقرر في عام ١٧٨٥، حظر استخدام هذه المقابر والدفن في أماكن أخرى.

وأجرى العمل على تحويل أنفاق المحاجر إلى سراديب للموتى وذلك عام ١٧٨٦، حيث نُقلت جميع العظام من المقابر الأخرى إلى السراديب الموجودة حاليًا بساحة دونفير-روشيرو (Place Denfert-Rochereau) (شكل ١) وخاصةً المقابر الموجودة بوسط المدينة والتي تحتل مساحة كبيرة وذلك لإحلال المساكن محلها، وبعد الثورة الفرنسية بدأت ممارسة دفن الموتى في هذه السراديب بشكل مباشر وقد كانت آخر عملية نقل للعظام إلى السراديب في عام ١٨٥٩ مع تجديد مدينة باريس.

بعد ذلك شكلت هذه المقابر معلم سياحي مهم جدًا في المدينة، وعلى الرغم من أن هذه السراديب مفتوحة للعامة، إلا أن الدخول إلى بعض الأجزاء الأخرى من السراديب غير قانوني، لذلك لا تشتمل السراديب على شبكة الأنفاق كلها. وتم استكشاف بعض السراديب بطريقة غير مشروعة من قبل مستكشفين هواة بباريس والمعروفين باسم (Cataphiles) وما زالت السراديب لغزًا ووجهة لأعمال استكشاف أخرى.

رُممت بعض أجزاء هذه السراديب وتم تحويلها إلى مساحات إبداعية فقد تحول أحد هذه الكهوف الموجودة تحت الأرض إلى مطعم وجبات خفيفة لخدمة رواد المكان. وأصبح الأمر مثيرًا لفناني الجرافيتي، الذين يخاطرون بحياتهم ويهبطون إليها على الرغم من عدم وجود وسائل إنارة (صورة ٣و٤).

يشبه الدفن في هذه السراديب خلية النحل، فتوضع الجثث داخل ثقوب محفورة في الجدران، بعرض يتراوح من ٤٠ – ٦٠ سنتيمتر، وتغلق ببلاطة تحمل اسم الميت، وهناك المئات من هذه الثقوب على طول تلك الدهاليز التي تمتد أحيانًا لعدة كيلومترات. ولعل هذه الطريقة ما تطفى عليها الشكل الجمالي والمبهر وتكسبها شهرتها العالمية.

في **مالطة** التي انتقلت إليها الفكرة بقربها من صقلية أدرجت كاتاكومب القديس بولس وسانت أغاتا (Saint Agath) في بلدة الرباط ضمن القائمة المؤقتة باليونسكو لتسجيلها بمواقع التراث العالمي الثقافي، ويوجد بمالطا كاتاكومب أخر وهو تا بيسترا بموستا Ta' Bistra catacombs in Mosta والتي ترجع للقرن الرابع الميلادي[٦].

أما كاتاكومب **غرناطة بإسبانيا** فكانت تمثل كهوف المهمشين (الغجر) والهاربين لخارج المدينة بعد أزمات سياسية ودينية. أما تحت مدينة أوديسا الأوكرانية توجد شبكة واسعة من الأنفاق على شكل متاهة ضخمة من الممرات تحت الأرض تمتد لأكثر من ٢٥٠٠ كيلومتر، ولم يحدد وقت حفرها لأول مرة ولكن توسعت السراديب بشكل كبير ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر.

ويختلف عدد الهياكل بكل مقبرة من مكان لآخر، فلم يتوصل حتى الآن للعدد الصحيح بكل المقابر ففي **كابوشيين** باليرمو يعرض ٢٠٠٠ هيكل في حين أن المصادر ترجع العدد لحوالي ٨٠٠٠ مستدلة بأن الباقي فُقد وقت الحروب لقصف المقابر، أو تم نقل جزء منه بواسطة الجنود الأمريكيين كتذكار بعد عودتهم إلى أمريكا من الحرب العالمية. فضلاً عن ذلك تنتشر الكاتاكومب بغالبية المدن الأوروبية وأهمها لندن، ووجودها بالنصف الغربي والجنوبي للكرة الأرضية بكل من دير سان فرانسيسكو بمدينة ليما وكلية ترينيتي بجامعة ملبورن بأستراليا دليل على تخطى الفكرة حدود المنشأ وعالميتها.

ثالثًا: كاتاكومب الإسكندرية (مقبرة كوم الشقافة)

تُعدّ مقبرة كوم الشقافة تحفة معمارية تمتزج بها الحضارتين الفرعونية والرومانية، ويرجع تاريخها إلى العصر الروماني بالإسكندرية وبالتحديد بمنتصف القرن الثاني الميلادي. وتقع بشياخة كوم الشقافة في منطقة كرموز بحي غرب الإسكندرية (شكل ٢) عند التقاء دائرة عرض وخط طول (٢٩,٥٣,٣٥° شمالاً و٣١,٤٣,١٠° شرقًا) خلف مدافن المسلمين وبالقرب من عمود السواري[٧].

اختلفت الآراء حول اسم كوم الشقافة، فهناك رأى بأن العرب أطلقوا عليها ذلك لوجود تلال كثيرة لأواني فخارية مهشمة نظرا لشهرة المنطقة بتصنيع الفخار، أو أن الاسم محرف من الاسم اليوناني (Lofus Kiramaikos) وتعنى تلال

أو أكـوام مـن الكسر ـ الفخـاري[8] فالشـقف والفخـار نـتج عـن العادات والتقاليد اليونانية -والرومانية أيضًا-التي تقضى بتكسير الأواني التي يتناولون فيها الطعام عند المقابر ولا يعودون بها لمنـازلهم للتشـائم منهـا، وفى الحـالتين فالمكـان يـدل عـلى اسـتيطان بشريـ قـديم بالمنطقـة. اكتشـفت المقـبرة بطريـق الصدفة فبدأ الحفر والتنقيب بها عام ١٨٩٢ ولكن لم يأتي بجدواه، وتـوالى الحفر والتنقيب عـن الآثار عـلى يـد عـالم الآثار الإيطـالي جـوزيى بـوتي (Giuseppe Botti) (صـورة ٥) وكـان أول مـدير لمتحف الآثار اليـونانية والرومانية بالإسكندرية والمسؤول عـن تنقيب الآثار بالمدينة، فاستخدم عام ١٩٠٠ عربات تجرها الحيوانات لإزالـة الشـقف، وعنـدما غـرزت قـدم أحـد الحيوانـات في الرمـال كشفت عن فتحة في سقف الجبانة، واستمر الحفر حتى وصـل إلى مسافة ٣٠ مترًا تحت الأرض بعد إزالة أطنان من الرمال وبقايا الفخار.

ويظهر بمقبرة الإسـكندرية اندماج الخصائص الثقافيـة بـين الأسـاليب الفرعونيـة واليونانيـة، حيـث اسـتخدم المهندسـون المعمـاريون نهجًـا يونانيًـا رومانيًـا في بنائهـا[9] فيمـتزج بالمقـبرة الفنـون المصريـة الفرعونيـة واليونانيـة والرومانيـة، ويظهـر ذلـك عـلى التوابيـت والحـوائط، وتجمـع بـين طقـوس الـدفن الفرعونيـة والرومانيـة، بـل يعتقـد أنهـا الوحيـدة مـن نوعهـا عـلى مسـتوى العـالم التي تجمـع زخـارف لـثلاث حضـارات. وتمثـل طـراز المقابر السفلية المنحوتة في الصخر مثلما كانت مقابر طيبة القديمـة التي تحفر في مسافات عميقـة تحت الأرض لحمايتها من سرقـة اللصوص.

وتتفـق المصـادر التاريخيـة أن المقـبرة كانـت خاصـة بأسرة رومانيـة ثريـة تعـيش في الإسـكندرية بمنتصـف القـرن الثـاني المـيلادي ويظهـر ذلـك مـن الفخامـة بتصـميم المقـبرة، فمـن الواضـح أنهـم اسـتعانوا بمهندسـين لحفـر المقـبرة وبنـاء البـئر، وبرسامين مهرة لإقامة جدريات على الصخر برسومات فرعونية ورومانية مما يزيدها فخامة وبهاء. وقد تحولت إلى مقبرة عامة عنـدما تـم توسـعتها في فـترات تاليـة بواسـطة اللحـادون واسـتخدمت لـدفن العديـد مـن الأسر وأضـيفت إليهـا بعـض الحجـرات، وحفـرت فتحـات للـدفن في الجـدران في صـف واحـد أو صـفين يعلـو كـل منهمـا الآخـر، ولكـن لا يوجـد بهـا مـا يـدل عـلى استخدامها لدفن اتباع الديانة المسيحية بل تُعَدّ مقبرة وثنية. وتتكون المقبرة من أربع طوابق أحدهما من المفترض أن يكون فوق الأرض ولكنه أندثر عبر الزمن، والثلاثة السفليين لا يظهر منهم إلا اثنين فالثالث مغمور الآن بالمياه نتيجة تسرب المياه الجوفية[10].

١/٣-تخطيط المقبرة

تم تخطيط المقبرة كالتالي[11]

الساحة الخارجية: وتضم بقايا مقبرة تيجران وقد اكتشفت عـام ١٩٥٢ في شارع تيجـران (بورسعيد حاليا) بمنطقـة كليـوباترا بالإسـكندرية أثنـاء حفـر الأساسـات لبنايـة حديثـة، وتـم نقـل أجزائها الرئيسـة إلى مقـبرة كـوم الشـقافة حيث أعيـد بنائها في السـاحة المكشـوفة، وكانـت جـزء مـن مقـبرة أكـبر ومنحوتـة في الصخر على عمق ستة أمتار تقريبًا أى من نوعية سراديب الموتى أيضا، تضم حجـرة الـدفن المربعـة ثلاثـة توابيـت تـزين جـداريتها بلوحات بدلاً من النقوش المنحوتة وكذلك السـقف الذي يـزين بـرأس الميـدوزا (صـورة ٦ و٧). ويوجـد فـوق التـابوت الـرئيس بمقبرة تيجران مشهد مألوف لأوزوريس المحنط مستلقيًا على سرير ولكنـه بنمـوذج رومـاني تمامًـا، ولـيس عـلى شـكل سرير مصري على شكل أسد. ويرجع تاريخ المقبرة إلى القرنين الأول والثاني الميلاديين. كما تضم الساحة أيضًا قطع أثرية من بقايا مقبرة سلفاجو اليونانية، ومقبرة الورديان وتم انقاذهما ونقلهما لمقـبرة كـوم الشـقافة، وأهـم هـذه القطـع توابيـت مـن المرمـر والرخام.

المدخـــل الخـــارجي: يـؤدى المـدخل الخـارجي الموجـود فـوق سطح الأرض إلى سلم حلزوني يؤدى إلى الطابق الأرضي الأول ثـم لبـاقي الأدوار السـفلية ومكوناتهـا. وتظهـر مكونـات المقـبرة الداخلية من (شكل ٣) [12]:

سلم البئر (A) يصل عدد درجاته إلى (٩٩) ويدور حول بئر أسـطواني أو مسـقط نـور محفـور في الصـخر (صـورة ٨) ويصـل عمقه الحالي إلى ١٠ أمتار وله سقف مقبب للإنارة والهواء، وكان يستخدم لنزول الجثمان حيث يتدلى بحبل من خلال فتحة سقف البئر من أعلى ليتخطى النزول من السلالم الضيقة.

تم تشييد السلم من كتل حجرية مربعة، وطبقا للطقوس الرومانيـة فدرجاتـه السـفلية أكـثر ارتفاعًـا مـن العُليـا حيـث يأخـذ ارتفـاع الـدرجات في التنـاقص تـدريجيًا حـتى يكـاد ينعـدم قـرب سطح الأرض عند المدخل، وذلك من خصائص المباني الرومانية فالصاعد لأعلي بعد زيارة المتوفي يكون أكثر نشاطا وقدرة في الأسفل مقارنة باقترابه مـن سطح الأرض فيكون منهك، ولذا تبـدو الـدرجات العليـا وكـان الصـاعد لا يرتقـي سلمًا بـل يسـير في طريق حلزوني قليل الانحدار. ويستمد السلم الإضاءة عن طريق الفتحـات الموجـودة بحـوائط جوانبـه حيـث كانـت توضـع فيهـا

مسارج الفخار التي تضاء بالزيت لإضاءة المقبرة، وكذلك لحرق البخور وخاصةً في المناسبات المهمة.

الطابق الأرضي الأول

خُصص للزوار إلا أنه أضيف إليه في فترة لاحقة بعض الحجرات الجنائزية الأخرى، ويتكون من:

- **الردهة** (B) يؤدى السلم الحلزوني إلى مدخل صغير مغطي بقبو عند نهاية اللفة الثالثة للسلم، وعلى جانبي الردهة يوجد تجويفان يشبهان المحراب Niche بكل منهما مقعد صخري نصف دائري، وقد تم زخرفة سقف التجوفين بزخارف رومانية منحوتة بالصخر تشبه أصداف البحر، ويبدو أن هذين المقعدين استخدما لراحة الصاعد من أسفل المقبرة.

الصالة المستديرة Rotunda (C) (صورة ٩) يؤدى الممر القصير إلى صالة مستديرة يتوسطها بئر قطره (٨،٥ م) يعلوه سقف علي شكل قبة مقام على ٦ دعامات تشبه الأعمدة ويفصل بين كل عمود وآخر حوائط، يُزين الجزء الداخلي لهذه الحوائط بزخارف هندسية ملونة باللون الأحمر. وقد عثر بالبئر على خمسة رؤوس رخامية نقلت لعرضها بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية، حيث كانت توجد على سور صغير يسمى (parapet) حول البئر وضعت عليه تلك الرؤوس، بالإضافة لوجود رؤوس على حافة الحوائط المستديرة بين الأعمدة - والمحيطة بالبئر-ترجع للفترة ما بين أواخر القرن الأول الميلادي إلى منتصف القرن الثاني الميلادي. يوجد بالصالة المستديرة مدخلان: أحدهما يؤدى إلى صالة المآدب والأخر لصالة كراكلا (Caracalla).

صالة المآدب "غرفة الولائم" (D) على الجانب الأيسر من الصالة المستديرة يوجد ممر يؤدى إلى صالة مستطيلة مساحتها (٨×٩م) تعرف بغرفة المآدب أو الولائم (Triclinium)، بها أربعة أعمدة بينهما ثلاث أرائك من الحجر الجيرى كنت مخصصة لجلوس واتكاء أهل المتوفي لتناول الطعام عند زيارة المقبرة في المناسبات الخاصة. وتفتح الصالة المستديرة على عدة حجرات صغيرة.

الطابق الأرضي الثاني:

يُعَدّ أهم مكان بالمقبرة فهو قلب المجموعة الجنائزية ويتكون من:

السلم (E) في الجانب الغربي بنهاية الصالة المستديرة يوجد سلم صمم بانحدار شديد ويقع في منتصف الممر المائل والمتجه ناحية الطابق الأرضي الثاني، يتكون السلم من ١٥ درجة يتناقص عرضها كلما اتجهنا للداخل، وسقفه مقبب وبه زخارف على شكل أصداف البحر. **يليه منصة** يمكن من خلالها مشاهدة حجرة الدفن ويوجد أسفلها سلما كان مغمورًا بالمياه وقت اكتشاف المقبرة ثم تم ردمه، ويؤدى السلم إلى الطابق الأرضي الثالث المغمور بالمياه الآن.

أما المقبرة الرئيسة:

يُزين مدخل الردهة الخاصة بها (F) من الخارج بأعمدة رومانية وزخرفة يونانية يليها إفريز مصرى به قرص الشمس المجنح رمز الإله رع بين صقرين وهو رمز الإله حورس، أما واجهة باب الحجرة الجنائزية فعلى الطراز الفرعونى وبه إفريز مصرى كالسابق. والمقبرة دليل واضح على عصر كانت فيه ثلاث ثقافات وفنون وديانات موجودة على الأراضي المصرية.

وتتكون حجرة المقبرة الرئيسة (G) من ثلاثة توابيت رئيسة داخل غرفة واسعة وتحيط بها أعمدة صخرية منقوشة برسومات متنوعة (صورة ١٠)، خُصص التابوت الرئيس لرب الأسرة (الأب) (صورة ١١) والثاني للأم والثالث للابن. كذلك توجد منحوتات جدارية خلف التوابيت وتمثل أشكالا لآلهة فرعونية ورومانية، ولكل شكل دلالة على أسطورة أو حكمة دينية تصاحب المتوفى بعد دفنه بجانبه مقتنياته من الذهب والأحجار الكريمة. وتتشابه خلفية التابوت الثاني والثالث.

أما التابوت الرئيس فقد نحت خلفه جدارية بها شكل سرير جنائزي يضع عليه المتوفى لتتم عملية تحنيطه، وتحت السرير مجموعة أوعية فخارية يوضع بها أجزاء الأجسام الأكثر تلفًا التي يتم استئصالها من الجسم مثل القلب والمخ وإحلالها بالمواد التحنيطية. يحيط بالسرير الجنائزي تمثال منحوت على الصخر لإله العرش والحكم "حورس" وفق الأساطير الفرعونية القديمة، وبجانبه الإله "أنوبيس" المشرف على عملية التحنيط، وهو الاسم اليوناني لإله الموتى عند الفراعنة، وعلى جانب السرير يقف إله المعرفة والحكمة جحوتي (تحوت-توت) أما على يمين التابوت فيظهر للزائر شكل المتوفى أمام الآلهة "إيزيس" ليقدم لها القرابين، ممسكًا صفحة من ورق البردي تعبِّر عن الأعمال الجيدة التي قام بها طوال حياته. بخلاف ذلك تزخر المقبرة بالعديد من النقوش والجداريات للحضارات الثلاثة.

وحول الحجرة الرئيسة للمقبرة يوجد أروقة واسعة أو ممرات (H H H) بها تجاويف تمتد في صفين لمومياوات أخرى أضافها اللحادون بعد ذلك، ولكن أثناء زيارة الباحثة للمقبرة لم تكن تلك المومياوات موجودة ويقال إنها تعرضت للسرقة، وتعاني هذه التجاويف من تسرب المياه الجوفية (صورة ١٢).

أما صالة كراكلا Caracalla (L) فهي مجموعة منفصلة من المقابر، أمكن الوصول إليها من خلال ثقب في الجدار وتحتوي على عظام خيول ورجال (صورة ١٣). ويعود اسمها إلى الإمبراطور كراكلا صاحب مجزرة الشباب المسيحيين بالإسكندرية عام ٢١٥ ميلادية فقد دعاهم لسباق خيول وقتلهم عقاب لهم على استهزائهم به حيث قام أحد السكندريين بهجائه بقصيدة. لكن لا توجد أدلة فعلية على أن الرفات في القاعة تتصل بهذا الحادث. أو لماذا دفن الرجال والخيول معا في القاعة فكل ذلك لم يحدد بعد، ولم تؤكده الدراسات التاريخية. وبمدخل الصالة يظهر جزء من إحدى سلاسل الحجر الجيري البويضي الذي أقيمت عليه مدينة الإسكندرية، وبمدخل الصالة يظهر جزء من سلسلة التلال الجيرية المتصلبة (المكس – أبوصير) (صورة ١٤) التي يقع أغلبها غرب الإسكندرية، ويظهر هذا الجزء من السلسلة شمال ترعة المحمودية من كوم الشقافة في الغرب لمحرم بك في الشرق.

٢/٣-أهم المشكلات التي تتعرض لها مقابر كوم الشقافة

(٢/٣) ١-انتشار الخرافات وتراجع السياحة الثقافية

نُسجت الكثير من الخرافات حول هذه المقبرة قبل وبعد صدفة اكتشافها، ولعدم الإدراك الثقافي لقيمتها واندثار وغرق أجزائها فاعتقد البعض بقوى الشر والجان، والبعض ربطها بالبدع وبقدرة أمواتها على قدرات ما وراء الطبيعة فتعاملوا معها بمبدأ النصف الأول من مقولة الفيلسوف فرانسس بيكون "القليل من العلم يجعلك ملحدًا فإذا تعمقت آمنت بالله" بل أحيانا كانت مادة بوصفات الدجل والسحر والشعوذة، وأطلق البعض لخياله العنان لاختلاق قصص كوميدية هزلية عن الجن وخطف السيدات بل ربطها البعض بأحداث ريا وسكينة بالإسكندرية بعشرينيات القرن العشرين، وذلك طبيعي في مجتمع كان يعانى وقتها من نسبة كبيرة من الأمية، وبمرور الوقت تراجعت الثقافة ومع الإهمال الإعلامي للمناطق الأثرية والتركيز على السياحة الترفيهية -في ظل تراجع السياحة الثقافية والأثرية-أصبحت من المواقع السياحية التي تلقى اهتمامًا قليلاً بالإسكندرية مقارنة بأماكن أقل في العمق التاريخي، فنجد أن خريطة السياحة العالمية بل المصرية لا تقدرها القدر العلمي اللائق بها، لذا يطالب بعض أساتذة الآثار والناشطين بتسجيلها تراث عالمي كونها كنز ثقافي يجب أن ينال التقدير والحماية العالمية، أو يمكن تحويلها كباقي الأنفاق السياحية التي مثلت في فترة زمنية معينة استخدامات مختلفة ولكنها تحولت لمعلم سياحي مثل كهوف ليتشويد، (Llechwedd Slate) بويلز وغرف الحرب، (Cabinet War) بلندن والتي استخدمها تشرشل في التخطيط للحرب، وغير ذلك.

(٢/٣) ٢-تسرب المياه الجوفية

يعد الطابق الأرضي الثالث مغمور بالمياه حاليًا. وكان ضمن التخطيط الأصلي للمقبرة ويعتقد أن هذا الطابق كان يحتوي على ممرات تؤدي إلى معبد السرابيوم بجانب عمود السوارى القريب من المقبرة ولكن هذا غير مؤكد. ويمثل المشكلة الكبرى لتأثير المياه الجوفية التي تغمره على المقبرة ككل وخاصة الجداريات من خلال رشح المياه على الحوائط فتلاشى بريق الرسوم والنقوش، وهذه المياه ترجع للتغيرات في مستوى سطح البحر واليابس. ويؤكد جون بول أن الزيادة في المستوى النسبي للبحر المتوسط منذ القرن الثاني الميلادي قد سببها هبوط موضعي للأرض التي تشكل الجزء الشمالي من الدلتا، ويعتقد أن الحجرات السفلى بكاتاكومب كوم الشقافة كانت تقع فوق مستوى المياه الجوفية في الوقت الذي تم فيه التنقيب عنها وكشفها، ولكن بعد ذلك غمرتها مياه متسربة بشكل دائم لعمق يزيد عن مترين. وبإجراء مقارنة دقيقة للتغيرات في مستوى النيل بالدلتا خلال الأعوام ١٩١٠، ١٩١١، ١٩١٢ مع التغيرات في مستوى الماء بمقابر الكاتاكومب بالإسكندرية خلال نفس السنوات الثلاث، وجد أن هناك ارتباطًا شديد بين المستويين، ويرى أن ذلك أثبت بوضوح أن ترشيح الماء قد جاء من سطح مائي جوفي متصل بالنهر[١٣].

لذلك تم تركيب مضخات لسحب المياه بشكل دائم وحتى منسوب محدد بالموقع، لكن المشكلة التي تواجه سحب المياه هو الأعطال الفنية التي تتعرض لها المضخات مما يغرق المكان بالمياه الجوفية، وعلى الرغم من أهمية المقبرة كأثر نادر لكنها أهملت فترة طويلة، وفى عام (٢٠١٦) قامت وزارة الآثار بالاستعانة بإحدى الشركات لتنفيذ سحب المياه الجوفية، بالإضافة لتطوير المتحف المكشوف بمنطقة آثار كوم الشقافة. وتبنّى طلاب وخريجي كليتي الآثار والسياحة بالإسكندرية حملات توعية بالبيئة وبالتنسيق مع شركات النظافة لتنظيف وتطوير عدد من مقابر منطقة كوم الشقافة الأثرية كلها.

(٢/٣) ٣-تركيز غاز الرادون

إضافة لمشكلة تسرب المياه الجوفية تعاني مقابر كوم الشقافة من مشكلة تؤثر صحيًا على العاملية والمترددين وهي تركيز غاز الرادون، وهو غاز خامل يتسبب في أمراض الرئة

وخاصة سرطان الرئة عند التعرض له بدرجة كبيرة وإذا استنشق بتركيز عالٍ لفترة طويلة.

يتسرب غاز الرادون من باطن الأرض ويتراكم في الأماكن الضيقة كالأدوار السفلية والكهوف والمناجم بالتالي يتركز في المقابر الأثرية بكثرة، ونظرًا لتشييد المقبرة تحت الأرض فتزيد نسبة الغاز بها، ويقع أعمق قبر بالمقبرة على بعد ١٩ متر من سطح الأرض فمن المتوقع أن تركيز الرادون في هذا المكان مرتفع للغاية[١٤] وقد يسبب بعض المخاطر الصحية للسائحين الزائرين للسراديب، وأيضًا للعاملين بالمكان، لأنهم يبقون لفترة طويلة به. لكن يختلف تركيز الرادون من مكان لأخر بالسراديب، ويرجع الاختلاف في تركيز الرادون اعتمادًا على معدل التهوية وتركيزات الرذاذ وأبعاد القاعة، بالتالي فالقاعة الرئيسة (G) هي أكثر موقع بالسراديب تركيزًا للغاز والمناطق المؤدية إليها والمحيطة بها، وترتيب تركيز الرادون بالسراديب كالتالي:

الرتبة	الموقع
١	القاعة الرئيسة – حجرة الدفن الرئيسة (G)
٢	البهو(ردهة) المدخل المؤدى للقاعة الرئيسة (F)
٣	أروقة (ممرات) صفوف المومياوات (H)
٤	بهو الأعمدة الكبير (J)
٥	صالة المادبة D
٦	سلم البئر (A)
٧	الردهة باللفة الثالثة من سلم البئر (B)
٨	السلم المؤدى للطابق الأرضي الثاني (E)
٩	الصالة المستديرة (C)

كما أن التركيز يزيد صيفًا عن الشتاء بنسبة ٢,٥ مرة في كل المواقع بالمقبرة.

٣/٣-الحركة السياحية بمقابر كوم الشقافة

رغم أهمية المقبرة التاريخية وسهولة الوصول لها إلا إن الحركة السياحية تتباين بشدة بين الدولية والمحلية فالسياحة الأثرية والثقافية تتراجع أمام السياحة الترفيهية والتسوق، كما أن الإسكندرية تحتاج إلى مزيد من تكثيف الدعاية، لذا يتضح من جدول (٢) تباين الحركة السياحية على مدى السنوات السابقة.

جدول (٢)

الحركة السياحية بمقابر كوم الشقافة من عام٢٠١٧ -٢٠١٩[١٥]

السنوات	الحركة السياحية (بالألف سائح)		الجملة
	دولية	محلية	
٢٠١٧	٥٨	٦,٨	٦٤,٨
٢٠١٨	٨١	٩,٥	٩٠,٥
٢٠١٩	٩٠	١٠,٢	١٠٠,٢

وبالتالي تأتى مقابر كوم الشقافة في الرتبة الثالثة بنسبة (٢٤%) بالنسبة لاهتمام السائحين الدوليين بعد قلعة قايتباى ومتحف الإسكندرية القومي، في حيث تأتى في الترتيب الخامس بالنسبة للسياحة المحلية بنسبة ضئيلة جدا وهي (١%) لاستحواذ قلعة قايتباى على اهتمام السياحة المحلية بنسبة تقترب (٧١%) أي تقترب من ٣/٤ الحركة السياحية.

جدول (٣)

التوزيع النسبي للحركة السياحة بالمواقع الأثرية في محافظة الإسكندرية عام ٢٠١٩[١٦]

المناطق الأثرية	دولية %	الرتبة	محلية %	الرتبة
قلعة قايتباى	٣١	١	٧١	١
متحف الإسكندرية القومي	٣,٧	٥	٢٤	٢
عمود السوارى	٢٨	٢	١	٤
كوم الشقافة	٢٤	٣	١	٥
المسرح الروماني	١,٥	٤	٢	٣
متحف المجوهرات	١,٣	٧	٠,٠٠٥	٩
مناطق أخرى	١,٥	٦	٠,٩٩٥	٦-٧ ٨-١
الإجمالي	١٠٠	-	١٠٠	-

خَاتِمَةٌ

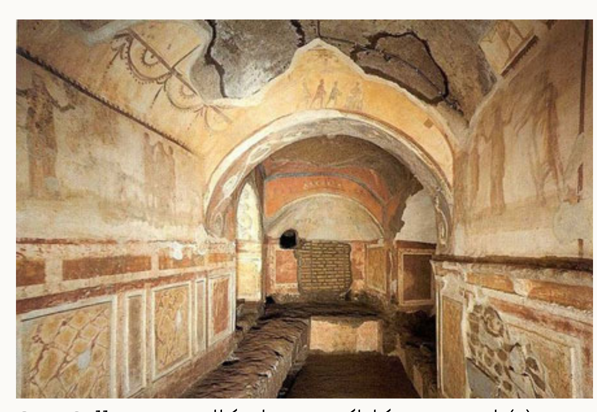
مما سبق يتضح؛ أن كاتاكومب الإسكندرية تزامن في وقت إنشائه مع كاتاكومب بروما ويعد من أقدم المقابر التي انشأت بهذه الطريقة ولا يقل أهمية علمية وثقافية عن الكاتاكومب العالمي لكن لا يحظى بالاهتمام المحلى ربما النظرة المحلية للمقبرة وربط الخرافات بها سببًا مؤثرًا على اهتمام السياحة المحلية بها حتى بعد معرفة قيمتها واكتشاف أسرارها. أما السياحة الدولية فتحتاج الدعاية الكافية خارجيًا، ونظرًا للظروف الجغرافية لموقع كاتاكومب كوم الشقافة وتسرب المياه الجوفية للطابق السفلى، فقد انخفض بريق النقوش الفنية والألوان بها، كما أن صغر مساحة المقبرة عن المقابر العالمية الأخرى أدى لتركيز غاز الرادون مما يؤثر على النقوش والزائرين في حال تكرار الزيارة والبقاء مدة أطول.

الملاحق

أولاً: الصور



صورة (١) الطريق الإمبراطوري بروما المؤدى لكاتاكومب سان كاليستو San Callisto



صورة (٢) إحدى غرف كاتاكومب سان كاليستو San Callisto

صورة (٣) أحد الأنفاق بسراديب باريس



صورة (٤) طريقة ترتيب الهياكل بسراديب باريس



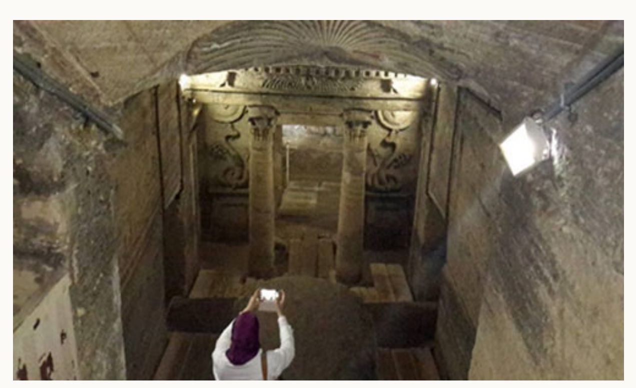
صورة (٥) عالم الآثار الإيطالي جوزيى بوتى Giuseppe Botti


صورة (٦) جدارية الحجرة المربعة بمقبرة تيجران


صورة (٧) السقف المنقوش بمقبرة تيجران يزينه رأس الميدوزا


صورة (٨) منظر سفلى للبئر والقبو الأعلى له ويحيط بهما السلم وهيكل المقبرة


صورة (٩) الصالة المستديرة

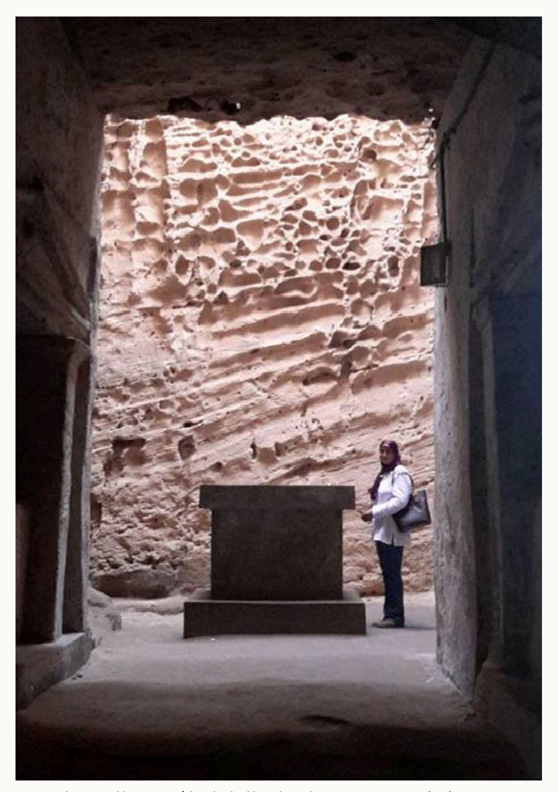

صورة (١٠) واجهة بهو المقبرة الرئيسة


صورة (١١) جدارية التابوت الرئيس


صورة (١٢) بعض غرف الدفن التي أضافها اللحادون ويظهر أثر المياه بها

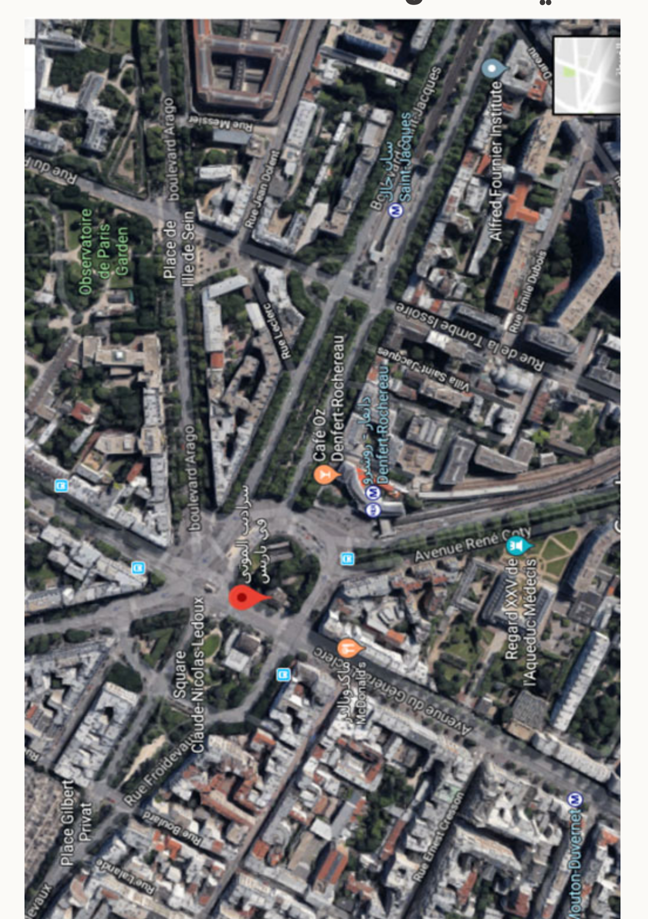


صورة (١٣) عظام آدمية وحيوانية بقاعة كراكلا

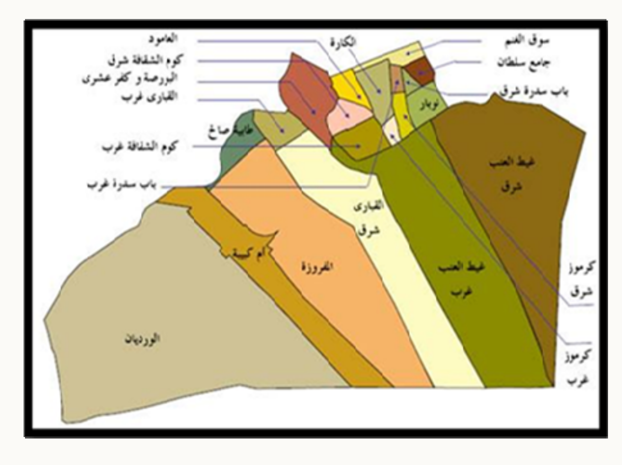


صورة (١٤) جزء من سلسلة التلال الجيرية المتصلبة (المكس – أبوصير) بمدخل قاعة كراكلا

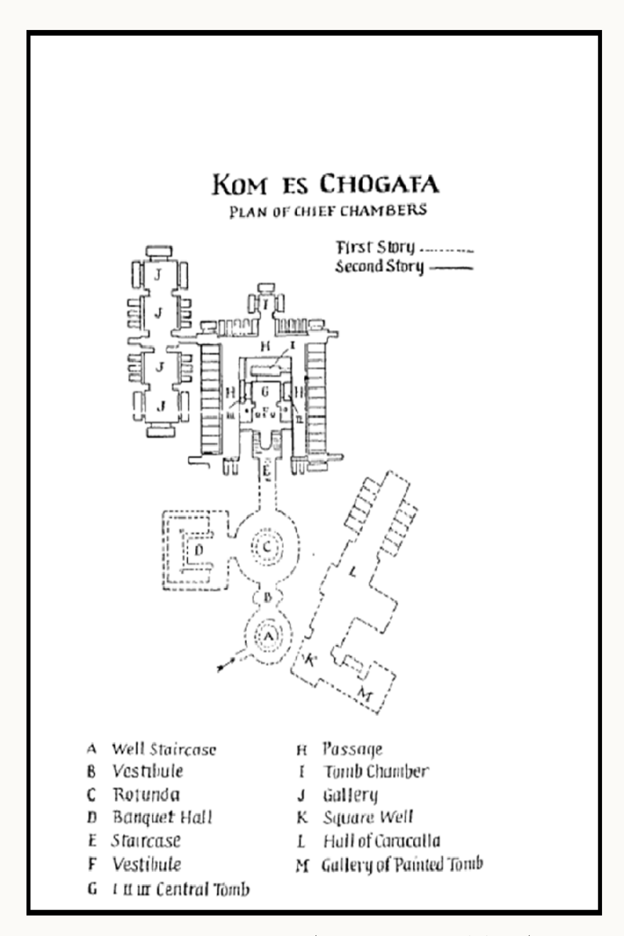
ثانيًا: الأشكال



شكل (١) صورة جوية لموقع سراديب الموتى بساحة دونفير-روشيرو فى وسط باريس



شكل (٢) شياخات حي غرب بالإسكندرية



شكل (٣) مخطط مقبرة كوم الشقافة من الداخل

الاحالات المرجعية:

(1) Catacombs; Online Etymology Dictionary, accessed 31 August 2019. https://www.etymonline.com/search?q=Catacombs

(2) Gino Iannace, Amelia Traematerra, Ahmad Qandll:The Acoustics of the Catacombs Archives of Acoustics Vol. 39, No. 4, pp. 583–590, 2014,p.583.

(3) Bruce Bower; Judeo-Christian ties buried in Rome; Science News, JULY 2005. https://www.sciencenews.org/article/judeo-christian-ties-buried-rome

(4) Fiocchi Nicolai V., Bisconti F., Mazzoloni D.(1999), The Christian Catacombs of Rome, Schnell & Steiner Regensburg.

(5) Gino Iannace & et al ,op.cit, p 583.

(6) UNESCO; Tentative Lists, Maltese Catacomb Complexes.& World Heritage List. http://whc.unesco.org/en/tentativelists/1113/ http://whc.unesco.org/en/list/

(7) Google Erth: https://earth.google.com/web/@31.17881079,29.89330583,17.50183877a,125.30660832d,35y,8.78313102h,0.18158246t,-0r

(8) Wonders.org: https://7wonders.org/africa/egypt/alexandria/catacombs-of-kom

(9) Lonely Planet (2019) Catacombs of Kom ash-Suqqafa. https://web.archive.org/web/20160728125942/http://www.lonelyplanet.com/egypt/mediterranean-coast/alexandria/sights/historic/catacombs-kom-ash-suqqafa

(١٠) الدراسة الميدانية أغسطس ٢٠١٨.

(١١) (أ) مطبوعات هيئة تنشيط السياحة (ب) تقرير مصور عن مقبرة كوم الشقافة بمكتب إدارة المقبرة (ج) الدراسة الميدانية أغسطس ٢٠١٨.

(١٢) أ.م. فورستر (٢٠٠٠) الإسكندرية تاريخ ودليل، ترجمة حسن بيومى، المشروع القومي للترجمة، رقم ١٤٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

(13) John Ball; Contributions to The Geography of Egypt, Government press bulaq, Cairo, 1939.

(14) M .ABDELZAHER ;(2011)Seasonal variation of radon level and radon effective doses in the Catacomb of Kom El-Shuqafa, Alexandria, Egypt, PRAMANA journal of physics, Indian Academy of Sciences, Vol. 77, No. 4, ,pp. 749–757.

(١٥) الهيئة الإقليمية لتنشيط السياحة بالإسكندرية، ٢٠١٩.

(١٦) المرجع السابق.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الدّراسات الجيولوجية الأجنبية في الصحراء الجزائرية
رحلة ريتر إيتيان إلى جبال أولاد نَايل بالجلفة أنموذجًا ١٨٩٧-١٨٩٨م



أمحمد طاهري

باحث دكتوراه جامعة لونيسي علي البليدة (٢)

باحث في مخبر الدّراسات المتوسّطية عبر العصور

المدية – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

يتناول موضوع هذه المقال احدى الرحلات العلمية الجيولوجية الاستكشافية المبرمجة من طرف الحكومة الفرنسية، والتي قام بها العالم الرحالة ريتر إيتيان إلى جبال أولاد نَايل بالجلفة، كنموذجٍ هامٍ لدراسة التركيبة الجيولوجية للصحراء الجزائرية وإعداد خريطةٍ جيولوجيةٍ تهدف إلى استنزاف خيرات البلاد والتوغل في الأراضي الجزائرية. لذا فإنّ عملنا هذا يهدف إبراز القيمة العلمية لهذه الرحلة من النّاحية الجيولوجية والجغرافية والتّاريخية، وتوضيح الخارطة الجغرافية التي رسمها هذا الرّحالة وكيفية الاستفادة منها. وللإجابة عن هذه الإشكالية فقد حاولنا تتبّع واقع الدّراسات الجيولوجية بالصحراء الجزائرية، مع ترجمة صاحب الرحلة وتتبّع مسارها والكشف عن مضمونها الجغرافي والجيولوجي خاصّة منطقة الجلفة، مع توضيحٍ لمصادر الرحلة وأسلوب صاحبها ومنهجه العلمي وإبراز القيمة العلمية لها، وهو ما تتطلّب منّا منهجًا تاريخيًا يقوم على جمع المادة التّاريخية وإخضاعها للتحليل والاستنتاج، لكون هذه الرحلة قد جمعت في كنفها عدّة علومٍ تقوم على الجيولوجيا وعلم الآثار والجغرافيا والتّاريخ. لنخلص في النهاية على التأكيد على أهمية هذه الرحلة العلمية، من الناحية التّاريخية والجيولوجية والأثرية والجغرافية وحتّى الأنتربولوجية، لكونها مليئةً بالمعارف العلمية الدقيقة حول منطقة أولاد نايل وتركيبتها الجيولوجية وجميع المظاهر التضاريسية، المكونة مع ذكر لأهم المواقع والمستحثّات الأثرية، ولعلّ هذه الثروة هي ما جعلت المنطقة قِبلَةً للعديد من الرّحالة عبر العصور، لِمَا تزخر به من موروثٍ ثقافيٍ قد يساهم في كتابة التّاريخ الثقافي والعلمي لمنطقة الجلفة، ومن هنا فإنّ ما قام به ريتر إيتيان يصب في خانة التأريخ العلمي لمنطقة الجلفة في المجال الجيولوجي الذي يعود لأزمنة غابرة تضرب في عمق التّاريخ لأكثر من ١٤٥ أو٢٠٠ مليون سنة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٨	أغسطس	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٢٦	أغسطس	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الصحراء الجزائرية؛ الجيولوجيا؛ السلاسل الجبلية؛ الرحلة؛ ريتر إيتيان؛ الجلفة؛ أولاد نايل

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.186118

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أمحمد طاهري. "الدّراسات الجيولوجية الأجنبية في الصحراء الجزائرية: رحلة ريتر إيتيان إلى جبال أولاد نايل بالجلفة أنموذجًا ١٨٩٧-١٨٩٨م".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ١٦٦ – ١٨٢.

Corresponding author: tahrimhamed1981pr@yahoo.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

تُعَدّ الرّحلات العلمية والبعثات الاستكشافية مصدرًا هامًا من مصادر كتابة التّاريخ؛ نظرًا لاشتمالها على عددٍ كبيرٍ من الأحداث التّاريخية والإشارات العلمية الموثّقة من طرف صاحب الرّحلة، نظير تنقّله ومعايشته للحدث من خلال الملاحظة والتدوين. لذا فقد عرفت الفترة الاستعمارية في الجزائر العديد من البعثات العلمية لجمهرةٍ من المفكرين والرّحالة الفرنسيين، التي شجّعتها الحكومة الفرنسية لأغراض سياسيةٍ وعسكريةٍ واقتصادية، بهدف إحكام السيطرة على ربوع الوطن شعبًا وأرضًا، وتدعيم الخريطة الاستعمارية الفرنسية بعديد المعلومات الهادفة لاستنزاف خيرات البلاد، والتوغل في الأراضي الجزائرية، كما كانت هذه النّشرات التي يقدّمها هؤلاء الباحثين سندًا مهمًا للسلطة الفرنسية كمخططٍ استراتيجيٍ وصفيٍ دقيقٍ لجميع الأقاليم الجزائرية، خاصّة من النّاحية الجغرافية والجيولوجية والأنثروبولوجية.

ولمّا كانت منطقة أولاد نايل بالجلفة، من أبرز المحطّات التّاريخية والجغرافية الغنية بالثروات المتنوعة، كان الدّكتور ريتر إيتيان من أهم الرّحالة المتخصّصين في علم الجيولوجيا، والذي كُلِّفَ بإعداد تقريرٍ جيولوجيٍ حول الصحراء الجزائرية خاصّة جبال عمور وجبال أولاد نايل، حيث كانت له رحلتان إلى الصحراء سنوات ١٨٩٧م و١٨٩٨م للجزائر والأغواط، تمخّضت عنهما نتائج علمية جمّة الفوائد. ومن هنا فقد كان للرّحالة الجيولوجي ريتر إيتيان دورٌ بارزٌ في تشخيص البِنيَةِ القاعدية للصحراء الجزائرية عامّة وجبال عمور وأولاد نايل خاصّة، من ناحية التركيبة الجيولوجية والجغرافية، وكلّ ما تزخر به المنطقة من موروثٍ أثريٍ نُقل معظمه إلى المتاحف الفرنسية، ولعلّ هذا الأمر هو جعل دراسة ريتر إيتيان مرجعًا مهمًا للمقبلين على دراسة علم الجيولوجيا بالأراضي الصحراوية الجزائرية.

وعلى الرغم من أهمية الموضوع الذي يرتبط بالتّاريخ الجيولوجي والأثري والجغرافي والتّاريخي لمنطقة الجلفة، فإنّه لم ينل حظّه من البحث والدّراسة، فبقيت العديد من رحلات المستكشفين الفرنسيين وغيرهم رهينة الإقصاء من طرف الباحثين، رغم ما تحمله هذه الدّراسات الجيولوجية من قيمةٍ علميةٍ شخّصت البِنيَةِ القاعدية للصحراء الجزائرية من ناحية التركيبة الجيولوجية والجغرافية. ولعلّ هذا الأمر، هو ما دفعنا لتتبّع هذه الرحلة العلمية بالبحث والدّراسة، لملامسة قيمتها العلمية ودورها في تدعيم الموروث الثقافي لمنطقة الجلفة، من خلال تتبّع المسار الطبيعي والمكنون الحضاري لجبال أولاد نايل.

ونظرًا لقلة المادة التّاريخية حول طبيعة الرحلة، فقد حاولنا جمع هذه المادة من المصادر والمراجع التي اهتمت بالموضوع خاصّة الجيولوجية والأثرية والتّاريخية، والتي يمكن لها أن تنير لنا بعض الجوانب الخفية حول هذه الرحلة العلمية. انطلاقًا من هذه الملاحظات، فإنّ عملنا هذا نسعى من خلاله تعقب الإشكالية الرئيسية التي تبحث في: إبراز القيمة العلمية لهذه الرحلة من النّاحية الجيولوجية والجغرافية والتّاريخية؟ ما طبيعة الخارطة الجغرافية التي رسمها هذا الرّحالة؟ إلى أي مدى يمكن الاستفادة من هذه الرّحلة العلمية في الكشف عن الموروث المتنوع للمنطقة؟

أوّلاً: واقع الدّراسات الجيولوجية في الصحراء الجزائرية

عرفت الدّراسات الجيولوجية تطورًا كبيرًا خاصّةً بالمرحلة الاستعمارية، بفضل جهود الحكومة الفرنسية الهادفة للسيطرة على ربوع الوطن، وتوسيع دائرة نفوذ الحكم المدني بالجنوب الجزائري، بعد الإلغاء التدريجي للحكم العسكري بعد سنة ١٨٧٠م، عن طريق العديد من القوانين الاستعمارية الجائرة، فَمَا كانت منطقة أولاد نايل إلاّ جُزءًا من هذا المخطّط الاستراتيجي، رغم موقعها الوسط كبوابةٍ للصحراء الكبرى (بن داهة، ٢٠٠٨، ج١، ص:٣٧٦؛ Ageron,1968, p :78). والملاحظ أنّ الصحراء الجزائرية قد اِسْتَهْوَت العديد من المفكرين والباحثين من الفرنسيين وغيرهم، بعد أنْ تمّت السيطرة على المناطق الجنوبية بفضل النّشاط السّياسي والعسكري لضبّاط المكاتب العربية، الذين وجّهوا فكرهم للسيطرة على الثروات التي يزخر بها الجنوب الجزائري (Julien,:336-340 ؛ Collot, Hugonnet,1958, p :05؛C,p :39).

لذا فَمَا كانت البعثات العلمية الاستكشافية في الميدان الجيولوجي، إلاّ تدعيمًا لهذه السيطرة كما كان الغرض منها إيجاد خرائط جيولوجية تدعم المشروع الفرنسي، القائم على تقديم تقاريرٍ دوريةٍ للحكومة الفرنسية بخصوص الثروات المعدنية، والمستحثّات الأثرية، وكلّ ما تعلّق بالجنوب الجزائري (Ritter,1902,p:05). ومن أهم الدّراسات الجيولوجية الفرنسية التي درست الجنوب الجزائري، ماقام به الرّحالة الفرنسي (Gautie.E.F) بمعية زملائه (M.Chudeau,M.Baron Pichon,Com-Mandant Laperrine,) حيث ركّز في عمله على دراسة الصحراء الجزائرية لمدّة أربع سنوات (١٩٠٢-١٩٠٥م)، زائرا كُلاًّ من الساورة، قورارة، منطقة توات، عين صالح، عين الصفراء

وغيرهـا، أي كـلّ مـا اتّصـل بالصـحراء الشـمالية الغربيـة والمرتفعات الجنوبية (Gautie,1908,p :vii).

وتبـدو أهميـة الرّحلـة في اشـتمالها عـلى العديـد مـن التوضيحات حول التكوين الجيولوجي لهذه المناطق التي زارها، حيث يصف الصخور والسهول الرملية، ويذكر جميع مصادر المياه والمعادن الموجودة الظاهرة والباطنة، وكلّ ما ارتبط بالثروة البشرية والحيوانية، وتزداد الرّحلة أهمية عندما يُدعّم رحلته بالخرائط التوضيحية؛ حيث تشمل الدّراسة على ٦٥ رسمًا توضيحيًا، وعدّة خرائط وما يقارب٩٦ نسخة من الرسومات التوضيحية (Gautie,1908,P :365-368).

ولم تتوقف الرّحلات عند هذا الحَدِ، بل واصل العلماء المختصون من الفرنسيين رحلاتهم العلمية إلى الصحراء الجزائرية بتدعيم من الحكومة الفرنسية، التي أجبرت الحاكم العام للجزائر على تقديم تقريرٍ دوريٍ عن الصحراء، وجميع ثرواتها البشرية والحيوانية والمعدنية، ولعلّ هذا الأمر هو ما سهّل رحلة العالم المختص لهذه المناطق حيث بلغت مداخيل الجنوب الجزائري للسنة المالية سنة ١٩١٢م حوالي: 4.704.04788 فرنك فرنسي وما يقارب:٤،٠٠٩،٦٩٠،٠٩ فرنك فرنسي للنّفقات؛ منها 66 5.181.578 مخصّص للنّفقات العسكرية والرّحلات الاستكشافية بمناطق الجنوب قصد تعميره واستغلاله (Lutaud, 1913,P :191-199).

ومن هنا فإنّ الرحلة العلمية التي قام بها ريتر إيتيان، هي من أهم الدّراسات الجيولوجية بالصحراء الجنوبية خاصّة الأطلس الصحراوي، لذا عُدّت في نظر الكثير من القادة الفرنسيين مرجعًا هامًا لدراسة الصحراء؛ باعتباره رجلاً متخصّصًا في المجال الجيولوجي، فهذا (Gautie) يستشهد به في العديد من المواضع في كتبه، ومنها كتاب "Sahara algérien" الذي طبع سنة ١٩٠٨م، وكتابه "Structure DeL'Algérie" الذي طُبِعَ سنة١٩٢١م (Steeg,1922,P:25). والبارزُ في الأمر أنّ الدّراسات الجيولوجية لم تشمل الجنوب فقط، بل امتدّت إلى الشمال أيضًا فكان للرّحالة (G.B.M.Flamand) دراسةٌ حول منطقة وهران عنوانها: "Recherches Geologiques Sur Le Haut Pays De l'oranie" والتي نُشرت سنة ١٩١١م بليون بفرنسا (Steeg,1922,P :25).

ومن الدّراسات الجيولوجية المتخصّصة أيضًا، نذكر ما قام به Ville, Mares, Pomel, Lemelse, M.Peron, M.Pieredon وغيرهم، حيث نشر Mares سنة١٨٦٥م دراسةً هامةً، صادرة عن أكاديمية العلوم حول الأطلس الصحراوي، والمناطق التي شملها العصر الطباشيري، كما نشر Mares سنة ١٨٧٢ م دراسة حول منطقة بني مِزَاب الغنية بالمناطق السهبية ومادة الجبس والجبال الملحية؛ حيث كانت تابعةً لإقليم الجزائر العاصمة إداريًا، وأضاف العالم الجيولوجي (M.Peron) سنة ١٨٨٣م كتابًا حول جيولوجيا الجزائر، والذي بدوره أَوْرَدَ العديد من المعلومات الهامّة والمفصّلة حول التركيبة الجيولوجية للصحراء الجزائرية (Ritter,1902,p:5-7).

وبذلك فإنّ الدّراسات الجيولوجية المتعلّقة بالصحراء الجزائرية قد عرفت تطورًا ملحوظًا منذ بداية إعلان النّظام المدني بالمناطق الجنوبية؛ إثر المرسوم الصادر بتاريخ ١٩٠٢/١٢/٢٤م الذي بدوره حدّد نِطَاقَ المناطق الصحراوية (Steeg,1922,P :11,23). ونَخُصُ بالتمثيل الأطلس الصحراوي الذي يشمل مُقاطعتي العاصمة ووهران، وهو مجالُ رحلة ريتر إيتيان الذي ركّز على جبال عمور وأولاد نايل، كنموذجٍ لدراسةٍ تاريخيةٍ وجغرافيةٍ وجيولوجيةٍ، لذا فإنّ ما قام به هذا الأخير هو تكملةٌ عِلميةٌ لمن سبقه في هذا التخصّص. ومن هنا كانت الرّحلات العلمية هي السبيلُ الوحيدُ لاكتشاف خَبَايَا الصحراء الجزائرية، وهذا ما يُفسّر عدم اقتصار هذه الرّحلات على الأطلس التلّي، بل تعدى ذلك الأطلس الصحراوي والمرتفعات الجنوبية كالهقار والطاسيلي.

ثانيًا: ترجمة صاحب الرحلة ريتر إيتيان ألفونس (Etienne Ritter Alphonse)

لا نكاد نعثر على ترجمة وافيةٍ وشافيةٍ حول هذه الشخصية العلمية التي قامت بهذه الرّحلة، خاصّة حياته وكلّ ما تعلّق بأسرته ونشأته، ماعدا ما ذكرته بعض الدّراسات التي حصرت حياته ما بين (١٨٩٠-١٩٦٠م) وعلى كونه من العلماء المتخصّصين في علم الجيولوجيا، لذا فهو دكتورٌ وعالمٌ قَضَى أغلب حياته في التأليف والبحث حيث كان مُدرّسًا بجامعة جنيف بمعهد العلوم، وعضوٌ فعّالٌ في الدائرة الجغرافية لنفس المعهد، ثمّ تمّ ضمّه ومشاركته في إطار إعداد مشروعِ خريطةٍ جغرافيةٍ لفرنسا والجزائر سنة١٩٠٢م، ولعلّ انضمامه إلى هذا المشروع جاء بناءً على طلب من السيّد (M.Ficheur) والسيّدان (M. Pomel) و (M. Pouyanne)، اللّذان يشرفان على دائرة إعداد الخريطة الجزائرية، لذا كان ريتر إيتيان محلّ ثقةٍ من طرفهما لحمل مشروع دراسةٍ وافيةٍ حول جزء من الأطلس الصحراوي، الذي شمل جبال عمور وجبال أولاد نايل (Ritter,1902,p: 7).

والبارزُ في الأمر أنّ ريتر إيتيان قد تحصل على شهادة الدّكتوراه من جامعة جنيف بتاريخ١٨٩٤/٠٣/١ م إشراف الأستاذ (louis Duparc)، والتي نال بها شرف طبع رسالته من طرف معهد العلوم بجنيف، حيث كان عنوانها: "Les Massifs de Beaufort Et Du Grand-Mont: Étude Sur La Prolongation Vers Le Sud de la Chaine Des Aiguilles-Rouges Et Du Prarion Alpes françaises "وتتكون من١١٥صفحة مدعّمة بالعديد من الخرائط والرسومات التوضيحية (Ritter,1894,p:3-4).

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ ريتر إيتيان قد كان شَغُوفًا بعملية التأليف، حيث بلغ ما خلّفه من أعماله الأكاديمية ما يقارب ٧٦ مؤلّفًا نشر منها ما يناهز ١٠٥ خلال الفترة الممتدة ما بين١٨٩٢-١٩٥٣م،بلغ أقصاها سنة ١٨٩٤م التي ألّف فيها ما يقارب ١٥ تأليفًا متخصّصا في أربع لغات منها الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإسبانية، إضافة إلى عديد المقالات والمداخلات العلمية بجامعات العالم في المجال الجيولوجي، خاصة مجلّة: " Le Globe Revue genevoise de géographie" خاصّة بالأعداد رقم٣٤-٣٧ سنوات١٨٩٥-١٨٩٨م (https://www.persée.fr/collection/glob تاريخ التصفح٢٠١٩/٠٩/٠٩م بتوقيت١٠,١٩).

ومن هنا فقد ترك ريتر إيتيان رصيدًا علميًا زاهرًا في المجال العلمي الجيولوجي الأكاديمي، ولعلّ هذه المكانة هي ما جعلت العديد من الدوائر العلمية بفرنسا وسويسرا، تعقد معه شراكةَ الأعمال والإشراف على الدّراسات العلمية التي تبحث في الأرض وما عليها، من ثروات معدنية وتكوينات جيولوجية، وما يُدعّم هذه الحُظوَةَ هي التقارير التي أعدّها عن بعض المناطق البعيدة، ومنها دراسته حول جبال كولورادو بأمريكا وأوديته، التي تزخر بمعدن البلور والمعادن الثمينة (Ritter,1928,p:1-12). وعلى هذا الأساس فإنّ ما أَفَاضَ به هذا العالم من علمٍ، هو ما دفع الدائرة الجغرافية الفرنسية إلى استدعاء هذا العالم لإعداد دراسةٍ وافيةٍ، تساهم في رسم جغرافية للصحراء الجزائرية، لذا كانت منطقة أولاد نايل ذات حظوةٍ في الاستفادة من علمه الغزير في الكشف عن خبايا المنطقة، وما تزخر به من ثرواتٍ معدنيةٍ وجغرافيةٍ وأثريةٍ.

ثالِثًا: مسار الرحلة

يبدو أنّ رحلة ريتر إيتيان قد دامت سنتان؛ من شهر مارس إلى شهر جوان من سنتي١٨٩٧-١٨٩٨م؛ أي أنّ كلّ سنة يجول بها مدة أربعة أشهرٍ كاملةٍ للبحث والتقصي، متّخذًا الخيول وسيلةً له للتّنقل وواضعًا أمتعته على الجمال، خاصّة خيمته ومعدّاته العلمية، دون أن يَذكُرَ مُرافِقًا له، إلاّ أنّ ذلك لا يعني أنّه كان بمفرده، نظرًا لطبيعة العمل الذي وكّلَ به إذ كان ذو أهميةٍ بالغةٍ للحكومة الفرنسية، إضافة إلى مكانته العلمية التي تُجبِرُ الحكومة الفرنسية على توفير الأمن له، أمام تصاعد المقاومة الجزائرية بالصحراء(Ritter,1902,p: 6).

والملاحظ من خلال رحلته أنّها شملت الأطلس الصحراوي الأوسط، الذي يتميّز بالطّابع المزدوج الذي يجمع ما بين السهوب والرمال، والقمم المنفصلة الحادة غير مُعقّدة الطيّات، لذا كانت هذه المنطقة تشمل ولاية الأغواط والجلفة ومنطقة آفلو على العموم، وهي المناطق التي ركّز عليها في عمله هذا. (Ritter,1902,p: 6).

وتذكرُ بعض الدّراسات أنّ منطقة الجلفة الأغواط سنة ١٩٢٢م كانت تابعةً لإقليم الجزائر العاصمة؛ على أنّ مساحة الأطلس الصحراوي عامّة بها ١٢٠,٠٠٠كلم²، حيث بلغ عدد سكان الجلفة أيّامها حوالي٧٤,١٦٨ نسمة على مساحة ٢٧,٥٦٧ كلم² بمعدل ٢,٠٥ن/كلم²؛ على أنّ الأطلس الصحراوي عامّة تبلغ كثافته٥,٠ن/كلم²، لو أضفنا له ولاية بشار، عين الصفراء، المشرية، الأغواط(Steeg,1922,P :23).

انطلاقا من الدّراسة و الخرائط التوضيحية التي رسمها ريتر إيتيان، يبدو أنّ رحلته قد انطلقت من المناطق الجنوبية ابتداءً من شمال آفلو، وليشمل ولاية الأغواط وولاية الجلفة، ليكون شطّ الحُضنة شرقًا وشطّ الشرقي غربًا كأقصى امتدادٍ لها، وذلك بالبحث والدّراسة بشكلٍ طُوليٍ وعَرَضِيٍ، لجميع المظاهر التضاريسية والمراحل الجيولوجية التي تعاقبت على المنطقة، إضافة إلى إبراز جميع المظاهر الهِيدروغرافية والثروات المعدنية بالمنطقة، ووصفِ كلّ ما يعترض طريقه من مَشاهد تستدعي التفكير والتأمّل، مع تسجيلها وتوثيقها وفق سلّم زمني دقيق يبلغ١/٨٠٠,٠٠٠ للسلاسل الجبلية للجنوب الجزائري عامّة، و١/٢٠٠,٠٠٠ للسلاسل الجبلية لأولاد نايل، وآخر١/٤٠٠,٠٠٠ لأقصى جنوب أولا نايل عبر كلّ المراحل الجيولوجية (Ritter,E,1902,p: 6 وينظر خريطة مسار الرحلة).

ويمكن تتبّع هذا المسار وفق ما يلي:

السلسلة الجبلية	اسم الجبل حسب ترتيبه بالرّحلة	الموضع الحالي
منطلق الرّحلة جبال عمور	١-جبل تميدة Dj.Tamedda	-الشمال الغربي لآفلو
	٢-جبل علاق Dj.alleg	نفس الموضع والسلسلة-
	٣-جبل مريرس Dj.mrires	- الجنوب الغربي لآفلو
	٤-جبل سيدي بوزيد Dj.sidi-bouzid	-شمال آفلو
	٥-جبل قرن عريف Dj.Gauern Arif	- غرب آفلو
	٦-جبل عقبة Dj.Okba	- الشمال الغربي لآفلو
	٧-جبل زلاق Dj.Zlag	-شرق آفلو
	٨-جبل مهاسر Dj.Mehasseur	-الشمال الشرقي لآفلو
	٩-هضاب غداس Gadas	-جنوب آفلو
	١٠-مرتفعات الريشة El Richa	- نفس الموضع جنوب غداس وربما تكون بلدية الغبشة حاليا طريق بلدية عين ماضي.
	١١-كاف القبلي Kef Guebli	-أقصى جنوب آفلو أو غرب الأغواط.
	١٢-جبل بوشكوة Dj.Buokoua	شرق آفل أو غرب بلدية سيدي مخلوف بالأغواط.
جبال أولاد نايل كمرحلة الثانية من الرحلة	١-جبل سردوم Dj.Serdoum	- شمال منطقة زينينا أو الجنوب الغربي للجلفة
	٢-جبل الصحاري Dj.Sahari	- بلدية حد الصحاري حاليا بالجلفة
	٣-جبل أوغتايا Dj.Ougtaia	-غرب الجلفة بسلسلة حد الصحاري والسردوم.
	٤-وادي سليمان Oued Slimane	- الشمال الغربي لمنطقة سليم طريق بوسعادة الجلفة
	٥-جبل حواس Dj.Haouas	-غرب الجلفة
	٦-حوايطة El Haouita	- تابعة لولاية الأغواط.
	٧-جبل لزرق Dj.Lazreg	-غرب سيدي مخلفو بالجلفة.
	٨-جبل الملوك Dj.Milok	-جنوب سيدي مخلوف وجنوب جبل لزرق
	٩-جبل مارغيت Dj.Merguet	- جنوب بلدية فيض البطمة بالجلفة.
	١٠-جبل زكّار Dj.Zaccar	- شرق بلدية فيض البطمة بالجلفة.
	١١-جبل قديد Dj.Guedid	-شرق الجلفة وجنوب سليم وشرق بلدية عين الريش حاليا.
	١٢-جبل بوخيل Dj.Bou-Khail	- شمال بلدية مسعد وشرق فيض البطمة.
	١٣-جبل دكلة Dj.Dakla	-جنوب بلدية مسعد
	١٤-سلسلة مسعد Ch.Messad	-وتشمل جبل الزرقة،جبل النطّاح شرق بلدية مسعد.

وبذلك فقد اتّخذ ريتر إيتيان مُنطَلَقَهُ من المناطق الشمالية، واصفًا الحدود الصحراوية مع الأطلس التلّي، حيث ذكر أنّ هذا الأخير يرجع امتداده إلى بلاد المغرب أين يزداد اتّساعًا بمنطقة وهران، ليتوقّف عند شطّ الحُضنة؛ على أنّ جبال أولاد نايل هي امتدادٌ لجبال عمور من النّاحية الشرقية، ليلتصق بجبال الأوراس الشاهقة شرقًا (Ritter,1902,p: 8).

رَابِعًا: مضمون الرحلة

تصنّف رحلة العالم الجيولوجي ريتر إيتيانمن بين الرّحلات العلمية المُبرمجة من طرف السلطة الفرنسية الهادفة، لإعداد تصوّرٍ عامٍ وتحقيقٍ شاملٍ من النّاحية الجغرافية والجيولوجية والأثرية، لإعداد خريطة مفصّلة لجميع المظاهر التضاريسية بمنطقة الصحراء الوسطى، حيث تكوّنت الرّحلة من تسع فصولٍ تركّز أساسًا على منطقتي الأغواط وأولاد نايل ومنطقة آفلو، لذا تميّزت الرحلة بوصفين أحدهما جغرافيٌ والآخر جيولوجيٌ تتخلّله شذراتٌ من المعلومات التّاريخية والهِدروغرافية، ويمكن توضيحها في النّقاط التالية:

٤/١-الوصف الجغرافي للمنطقة

خصّص ريتر إيتيان وصفا مميّزًا لمنطقة الصحراء الوسطى، التي تدخل في إطار تبعيتها الإدارية للجزائر العاصمة، حيث ذكر أنّ الصحراء الوسطى هي امتدادٌ لسلسلة الأطلس الصحراوي بالمغرب، أين تتّسع بمنطقة وهران، وتَضِيقُ كلّما اتّجهنا شرقًا، خاصّة عند شطّ الحُضنة وشطّ الشرقي، حيث يوجد بها واديان هما: وادي زَرْقُون ووادي الأَنْوَال، اللّذان يعدّان بداية السلسلة الجبلية لعمور؛ على أساس أنّ جبال أولاد نايل هي امتدادٌ لها من النّاحية الشرقية، ليتّصل بالكتلة الجبلية للأوراس، وليتّصل بجبال بُوطَالَب وتُقُرْت (Ritter,1902,p: 9)

وقد شاهد ريتر إيتيان خاصّيةً مميّزةً لهذه السلاسل الجبلية عن طريق التصوير العالي بواسطة الطائرات، وهو تميّزها بظاهرة التوازي والترتيب في خطوط واسعة ومنخفضة، يتراوح متوسّط ارتفاعها بين ٨٠٠ و ١٢٠٠ متر مفصولة بتموّجات جبلية منتظمة على شكل أودية، على أنّ التّلال يتراوح ارتفاعها ما بين (١٥٠- ٤٠٠) متر كحدٍ أقصى بمنطقة آفلو شمال الأغواط.

وفي حديثه عن المظهر الهيدروغرافي، يصف الرّحالة الأودية الصحراوية بكثرة الجفاف والانحدار، مع تميّزها بتصفية المياه في الجانب السفلي من الأرض، إلى أن تظهر على شكل أحواضٍ صغيرةٍ تنمو على جانبها بعض البساتين ونباتات الدَّفْلَى، ولعلّ جفاف هذه الأودية مع ارتفاع درجات الحرارة طوال السنة، هو ما يؤدي إلى تآكل الصخور وتغيّر شكل السطح، على أنّ أشهر الأودية الصحراوية هو وادي الشلف، الذي ينبع من جبال عمور ووادي جَدِّي الذي ينبع من المنحدر الجنوبي للأطلس بمنطقة آفلو، إضافة إلى أودية أخرى كوادي المَلاَّحْ وغيرها، ولعلّ أغلب الأودية الصحراوية تصب في الشطوط، وأبرزها شطّ مَلْغِيغْ جنوب بسكرة، وشطّ الحُضنة كأكبر مجمّعات للمياه، إضافة إلى بعض الغابات المشهورة بالصنوبر الحلبي ما بين الأغواط والجلفة (Ritter, 1902,p:11-12).

وأمّا عن الجبال، فيذكر أنّ جبال عمور المنحصرة ما بين جبال القصور غربًا وأولاد نايل شرقًا (آفلو حاليا)، هي الأكثر ارتفاعًا من جبال أولاد نايل، على شكل قمم محدّبة شديدة الانحدار وأبرزها: جبل قَرن العريف (١٧٢١م)، جبل أم القُدُور(١٥٧٤م)، وجبل سيدي عقبة (١٧٠٧م) إضافة إلى أخرى أقلّ ارتفاعًا منها: جبل القُنَّة (١٤٧٤م)، وكاف سيدي بوزيد (١٥٠٣م) ويتوسّط السلسلتين جبل قُورُو (١٧٠٦م) وجبل زْلَاغ (١٥٨٣م) الذي يقع ما بين آفلو و هضبة قَدَّاس (Ritter ,1902,p:13).

وأمّا عن جبال أولاد نايل، فهي أقلّ ارتفاعًا من جبال عمور ومنها: جبل مَحْسَنْ القَلْفَة (١٦١٤م)، جبل أُوقْتَايَا (١٥١٢م)، جبل الحَوّاس (١٤٩١م)، وفي نفس الوقت نجد سلاسل جنوبية لمنطقة الجلفة منها: جبل لزرق الذي به قمّتان عُلوهما ما بين١٤٨١م و١٤٩١م، وعلى بعد ١٥ كلم نجد سلسلة أخرى بها جبل مَارْقَت (١٠١٨م)، وجبل زكّار(١٣٤٤م) القريب من بلدية مَسعد لمسافة٢٠٠كلم، أين نجد مرتفع بُوخَيْل الذي لا يزيد ارتفاعه عن١٣٢٨-١٤٢٥م، حيث بها توجد العديد من المراكز العسكرية ومنها مدينة الجلفة الغنية بالقمح والصوف والأغنام (Ritter,1902,p :14).

كما أشار إلى مدينة الأغواط التي تحوي ٦٠ ألف نخلة، حيث يمكن الوصول لها عن طريق السكّة الحديدية التي تمرّ بالجلفة والبّرْوَاقِية، حيث يزخر الطريق بعديد القصور وأبرزها: قصر الحيران، قصر العسّافية، قصر عين المهدي، قصر تَاجْمُونت، وبه تنتشر العديد من القبائل الرعوية التي اتّخذت من مجالها الرعوي مستقرًا لها، ببناء الكثير من الخيم المتنقلة، لتنتقل من الجنوب إلى الشمال في فصل الربيع، والعكس في فصل الخريف (Ritter,1902,p :14).

٤/٢-الوصف الجيولوجي

يُظهِرُ ريتر إيتيان أنّ هناك ارتباطا جيولوجيًا وثيقًا بين منطقة شمال إفريقيا والبحر الأبيض المتوسّط، خاصة خلال العصر الجوراسي والطباشيري، والذي بدوره يمتد إلى الأطلس الصحراوي، وهذا ما يؤكّد على وجود علاقةٍ بين سلسلة جبال

الألب الفرنسية والأطلس الصحراوي؛ أي بين المناطق الساحلية والمناطق والجنوبية (موريه،١٩٨٧، ص:٧٤٦-٧٤٧).

لذا قام العديد من الجيولوجيين الفرنسيين بالفصل بين الأزمنة الجيولوجية خاصّة العصر الجوراسي والطباشيري، ومن أشهرهم العالم الجيولوجي (Coquand)، بدراسته الموسومة بـ:" Géologie et paléontologie de la région du sud de la province de Constantine" التي نشرت سنة ١٨٦٢م، والدّراسة القيّمة التي قدمها Brossard والموسومة بـ: "Géologie des régions méridionales de la subdivision de Sétif" والتي نشرت سنة 1866م، حيث ركّزا هاذان العالمان على منطقة قسنطينة، كما ركّز العالم Pomel على منطقة الجزائر العاصمة ووهران، بدراسته الموسومة بـ: " Explication de la 2'édition de lacarte géologique de l'Algérie" التي نشرت سنة ١٨٩٠م، وأضاف M. Péron دراسة أخرى عنوانها: " Essai d'une description géologique de l'Algérie." نشرت سنة ١٨٨٣م، الذي ركّز على المناطق الجنوبية الصحراوية (Ritter,1902,p :15-16).

(٢/٤) ١-الصخور البركانية ونقاط الملح الصخري والجبس:

ركّز ريتر إيتيان في هذه النقطة على مناطق تواجد الملح الصخري والجبس، اللّذان يرجع أصل وجودهما إلى الصخور البركانية الموجودة بالمنطقة، لذا فقد أشار الى وجود صخور الأوفيت (Ophite)؛ وهي من أصل بركاني تميل إلى اللون الأخضر وغنيةٌ بالبلور، لذا قد يوجد بها الملح والجبس، وتتركّز بالطريق الرابط بين آفلو والريشة، خاصّة جبل قُورُو وجبل سيدي بوزيد، إضافة إلى غناها بالبلور والحديد (Ritter,1902,p :17-18). أمّا عن مناطق الملح والجبس، فقد ذكر الرّحالة خمسة مواقع قد دُرست سابقًا، والتي زارها بنفسه وهي: جبل المِلْح شمال الجلفة، منقطة قْلِيب الطِيرْ القريبة من زِينِينَا بالقرب من وادي مَـزّي في الطريق الرابط بين آفلو والأغواط، منطقة سيدي رَحَّال والمسمّاة جبل العْقَال بين الطريق الرابط بين آفلو والريشة.

حيث إنّ جبل الملح الواقع شمال الجلفة، الذي يستمد مادّته من وادي مليء بالجبس والطين، على أنّ أغلب الملح والجبس يقع في النقطة التي تجمع منطقة الصحاري وجبل عْوِيشَة، قد قام بدراسته كل من العالم (Ville) بدراسة موسومة بـ:" Géologie Du Sahara, Du Beni-Mzab et Des steppes De La Province d'Alger " والني نشرت سنة ١٨٧٢م، والعالم M. Philippe Thomas بدراسة موسومة بـ: " Roches Ophitiques De La Tunisie" نشرت سنة١٨٩١م (Ritter,1902,P :19,21). إضافة إلى منطقة أخرى غنية بالجبس، والتي تقع عند نقطة زْوِينْ القريبة من جبل الحَوّاس في مكان غير بعيد عن وادي الجلفة، كما يزخر وادي مَزّي القريب من آفلو بكمّية معتبرة من الملح والجبس خاصّة بعين الجَنْب، وكذلك بجبل زَلَّاق، وجبل الشَبْكَة جنوب آفلو (Ritter,1902,p :21-22).

(٢/٤) ٢-الأزمنة الجيولوجية:

العصر الجوراسي (Le Jurassique):

يذكر ريتر إيتيان أنّ السلسلة الجبلية لجبال عمور وأولاد نايل، تعود للعصر الطباشيري الذي يمتد من ١٣٥-٦٥ مليون سنة، حيث فيه انقرضت الديناصورات والحيوانات العملاقة، ويتكون من حقبتين هما: الطباشيري المبكر والمتأخر، وهو يلي مباشرة العصر الجوراسي (٢٠٠-١٤٠مليون سنة) (موريه،١٩٨٧، ص:٤٨٩-٤٩١). ويشير ريتر إيتيان أنّ هذه السلاسل ربما تعود لحقبة الترياسي (Triasique)؛ أي حوالي١٤٥مليون سنة مضت من العصر الطباشيري المبكر، نظرًا لغناها برواسب الملح والجبس وبعض الصخور الجيرية الضخمة، التي وُجد بها بعض الحفريات التي ترتبط بالعصر الجوراسي المبكر(٢٠٠-١٧٥م/ سنة)، عُثر عليها بجبال بن عَمَّادْ جنوب الشلالة وجبل كَرْدَادَة (١٢٠٠م) الذي يطل على بوسعادة حاليًا من جهة الشرق، كما وجدت حفريات أثرية تعود الى حقبة نيوكوميان (Néocomien) من العصر الطباشيري المتأخر، بمنطقة الخَنَقْ بالطريق الرابط آفلو والأغواط (Ritter,1902,p :24-25).

وبذلك فإنّ الطبقات الحجرية التي تعود للعصر الجوراسي جعلت المنطقة تزخر بالعديد من المستحثّات الأثرية، ومنها التي عثر عليها بجبال سيدي بوزيد من طرف (LeMesle)، حيث أودعت بالمتحف التّاريخي الطبيعي لباريس بفرنسا، ونفس المستحثّات عثر عليها بجبال مَرَكَبْ قرب عين المهدي وجبل سيدي لزرق، كما عثر الرّحالة بنفسه على البعض منها بالمنطقة في حَالةٍ مُهترِئَةٍ تحتاج إلى الرعاية (Ritter,1902,p :26).

العصر الطباشيري الأسفل المبكر (L'Infra-Crétacé)

تمتد هذه الحقبة من (١١٣-١٤٥مليون سنة) وتشمل العديد من المراحل، التي حاول من خلالها ريتر إيتيان دراسة الصخور المكوّنة للمنطقة، متبعًا جميع مراحل العصر الطباشيري، حيث يشير أنّ هذا النوّع من الأراضي كثير التطور يمكن تقسيمه إلى ثلاث طبقات:

- **القاعدة**= حجر جيري + حجر رملي داكن يصل سمكها الى ٢٠٠م، به عدّة طبقات كلّ طبقة بها ١٠سم بسمك ١متر، وهي تمثل مرحلة نيوكوميان (Neocomian).

- **الوسط**= حجر جيري ذو لون أصفر غني بالحفريات، يمتد على عشرات الأمتار ترجع لمرحلة الأبتي Aptien

- **القمّة**= يمتد مابين ٣٠٠-٤٠٠متر، بها حجر رملي وتمثل هذه الطبقات مرحلة الألبي Albien.

ويقدّم ريتر إيتيان شرحًا مُفصّلاً لهذه المراحل المكوّنة للعصر الطباشيري المبكر من خلال دراسته لها حيث ركّز في عمله على:

نيوكوميان (Neocomian)

وهي مرحلة من مراحل العصر الطباشيري التي تهتم بتطور الصخور، وقد تميّزت هذه الفترة بالمنطقة بوجود الحجر الرملي الذي تزداد سماكته كلّما اتّجهنا غربًا، أمّا في منطقة بوسعادة القريبة من الجلفة، فنجد تناوبًا بين الحجر الجيري والحجر الرملي. تميّزت جبال عمور بالحجارة التي تزخر بمعدن الحديد، الذي يميل إلى اللّون الأسود مع وجود أحجار بلورية الشكل، إضافة إلى العديد من المستحثّات خاصّة بجبال سيدي بوزيد، وجبل زلاّق، وجبل مَركَبْ، وجبل شَكْوَة وهي التي اكتشفت من طرف (Le Mesle) (Ritter,1902,p :28-29). أمّا في جبال أولاد نايل فقد عثر به على العديد من المستحثّات بجبل لزرق، جبل مَارْقَت، جبل زكّار التي ذكرها (M.Peron) و(Le Mesle)، وتوجد بالمتحف التّاريخي الطبيعي بباريس بفرنسا، ونفس المستحثّات ذكرها العالم (Brossard) بمنطقة بوسعادة. وبذلك فإنّ ما ميز هذا العصر هو الحجر الرملي في قاعدة الأرض والحجر الجيري في الأعلى، وهي التي تعاقبت في هذه المرحلة على بوسعادة، جلفة والأغواط خاصّة جبال عمور(Ritter,1902,p : 29).

الأبتي (Urgo-Aptien)

وهو المرحلة ما قبل الأخيرة من العصر الطباشيري المبكر وقد تميّز بنوعٍ من الغموض، ورغم ذلك فقد تواصل وجود الحجر الجيري الأصفر مع وفرة الحفريات، وتشكل العديد من المناطق التي تحتوي على الرواسب من الطين، حيث توجد بمنطقة بوسعادة التي عثر بها على قنافد البحر والأصداف وبعض البقايا البحرية، وهي التي عثر عليها أيضًا بمنخفضات جبال عمور وأولاد نايل، خاصة جبل مَارْقَت، جبل زكّار، جبل تَادْمِيت، مطاحن الجلفة ونفس الشيء عثر عليه بجبال آفلو كجبل العْوِيجَة، وقرب ضريح سيدي بولَعْفَة، وقمّة سيدي بُوكُرُوف (Ritter,1902,p :31).

الألبي (Albien)

وهو المرحلة الأخيرة من العصر الطباشيري المبكر، حيث يتميّز بتواجد الحجر الرملي البلوري الذي يبدأ بطبقة من الجبس أرجواني اللّون يصل سمكها إلى ٢٠متر، ثمّ تأتي طبقة من الحجر الرملي إلى غاية وجود حبوب خشنة تحوي معدن الكوارتز البلوري، داخل الصخور ذات اللّون الأبيض والوردي، لتشكل الكثبان الرملية التي تتشكل ما بين الجلفة والأغواط، والظّاهر أنّ ريتر إيتيان قد عثر على العديد من المستحثّات قرب عين آفْلَة بجبال عمور، متكوّنة من جذوع الشجر وبعض الأوراق وبعض البقايا النّباتية (Ritter,1902,p :32). كما قدّم لنا ريتر إيتيان دراسةً وافيةً ببعض التفاصيل حول جبل الملوك وجبل لزرق خاصّة بالعصر الطباشيري، حيث تظهر جميع العصور بشكلٍ واضحٍ (Ritter,1902,p :33-34).

ويضيف أيضًا شارحًا ومفصّلاً للمراحل الجيولوجية للمنطقة المنحصرة، ما بين الجلفة ومنطقة (les Ferme Des Ruines) خاصّة من المطاحن إلى سيدي سليمان؛ أين تمّ العثور على جميع التصنيفات السابقة، حيث يذكر أنّ الخروج من باب الجلفة من الجهة الشمالية يجعله يرى على يساره جبالاً من الحجر الجيري، تعود إلى مرحلة Senonien التي تتميّز بالطباشير الأبيض، حيث يوجد بها العديد من الحفريات خاصّة بلح البحر، وفي منطقة المنحدرات يوجد بعض التّلال التي تعود لمرحلة (Turonien)، أمّا مرحلة (Cenomanian) فقد ذكرت بحوث M.Melse أنّ سمك هذه الطبقة يصل إلى١٠٠-٢٠٠متر، التي تتكون من الحجر الجيري والحجارة الصغيرة وبعض المستحثّات خاصّة قنفد البحر والكثير من الكلس، وفي مرحلة (Albien et Albien Superieure) فقد تميّزت بالحجر الرملي، الذي يشكل ذروةً عاليةً تصل سماكتها إلى ٣٠٠متر، وفي مرحلة (Urgo-Aptian) فهي تتشكل من عَرقُوب أحمر (Ritter, 1902,p :34-35) بمنطقة منخفضة.

العصر الطباشيري الأعلى المتأخر (Le Supra-Crétacé)

يمتد هذا العصر من (٩٩-٦٥مليون سنة) وبدوره يضمن مجوعةً من المراحل (مويه،١٩٨٧، ص:٤٨٩-٤٩١)، حيث عمد ريتر إيتيان على التأكيد على بروز هذا العصر بشكلٍ واضحٍ بالصحراء الجزائرية؛ نظرًا لمجموعة من التحرّكات السفلى لطبقات الأرض، لذا فقد الرحالة بدراسة هذا العصر وفق العصور التالية:

سينوماني (Le Cénomanien)

وهي المرحلة الأولى من العصر الطباشيري الأعلى المتأخر، ويعتمد أساسًا على دراسة الرمال والحجر الرملي، حيث تتميّز هذه

المرحلة ببروز حجرٍ جيري أبيضٍ سميكٍ خاصّة بمنطقة بوسعادة، مع كثرة الجبس بجبال عمور، كما أشار إلى وجود بعض المستحثّات الأثرية بجبل بُوخِيل، وجبل الملوك، ومنها الأصداف وقنافد البحر كما عثر على آثار أقدام بمنطقة عَمُورَة (Ritter,1902,p :39).

تيروني (Le Turonien)

وهي المرحلة الثانية من العصر الطباشيري المتأخر، وتختص بدراسة الرمال والحجر الرملي الجيري، حيث تتميّز بطبقة سميكة من الرمال والجبس تتراوح ما بين ١٥٠-٢٠٠ متر، خاصّة بمنطقة العسّافية قرب الأغواط، إضافة إلى بعض الحجارة الرملية البلورية، ومن مستحثّاتها قنافد البحر والنّعام خاصّة بجبل السْنَابْلَة، وجبل الملوك بمنطقة الجلفة، وجبل الدَكْلَة قرب الأغواط (Ritter, 1902,p :40-41).

سينوني (Le Sénonien)

وهو المرحلة الأخيرة من العصر الطباشيري المتأخر، ويشمل العديد من المناطق ذات الشكل المقعر بمنطقة الجلفة والأغواط، خاصّة جبل الملوك ووادي سيدي سليمان، جبل الدُكّان الواقع بين الأغواط ومسعد، إضافة لجبل مَكِّيدْ قرب الأغواط، لذا فإنّ هذه الجبال تتكون من طبقةٍ جيريةٍ صفراءٍ ومُغرَةٍ حمراء، كما أنّها غنيةٌ بالمستحثّات الأثرية بوادي سيدي سليمان خاصّة الأصداف البحرية (Ritter,1902,p :41-42). ويقدّم الرحالة وصفًا جيولوجيًا دقيقًا لجبل بُوخَيْل الذي ينحدر من منطقة مسعد بالجلفة، قاعدته طبقات من الحجر الرملي الأبيض مع وجود الحجر الرملي بالقمّة والمنحدر، وكذلك هذه الحال في جبل دُكّان (Ritter, 1902,p :42-43).

العصر الرباعي (Le Quaternaire)

وهو الفترة الجيولوجية الثالثة لعصر سينوزويكCénozoique أحدث مقياس زمني جيولوجي (موريه،١٩٨٧، ص:٤٨٩-٤٩١)، حيث تميّزت هذه الفترة بوجود كتلةٍ صخريةٍ تمثّل اليابسة على شكل شبه جزيرةٍ يحيط بها الماء من الشمال والجنوب، ويمكن تتبّع هذه التطورات من خلال المراحل التالية:

مرحلة الأيوسين والسينوسين (L'éocène et Le Suessonien)

هما مرحلتان متلازمتان إلاّ أنّ الأيوسين لم يعد مستخدمًا في وقتنا الحالي ما عدا السينوسين، ويتركّز هذا العصر بمنطقة قصر الحيران بالأغواط، أين يوجد الحجر الجيري، حيث برزت بشكلٍ واضحٍ في قمّة جبل سيدي سَاشَرْ(٦٩٠م).

أليغوسين (L'oligocène)

وقد عرفت هذه المرحلة تواصل الصفيحة الأفريقية اتّجاهها نحو الشمال، وتشكيل البحر المتوسّط وجبال الألب وغيرها من سلاسل الجبال في جنوب أوروبا، وتميّز هذا العصر بتواصل الحجري الرملي الأبيض والحجر الجيري، خاصّة بمنطقة الجلفة وجبال عمور وجبل حِيرَش، جبل قُورُو، جبل الشْوَايَفْ، وجبل الدْرَايْمَة، وجبل دَدْقَاقْ إلى غاية منطقة حد الصحاري التابعة لولاية الجلفة حاليًا، إضافة إلى بعض الأبراج الجبلية بمنطقة سيدي بن يعقوب على الطريق الرابط بين مَجْبَرْة ومَسْعَد (Ritter,1902,p :47-48).

الميوسين والبوليسين (Le Miocène et Le Pliocène)

وهي الفترة التي تواصلت فيها الصفيحة الأوربية في الانفصال عن نظيرتها الإفريقية، وقد تميّز هذا العصر بالصحراء الجزائرية بظاهرة الجريان السطحي لجبال عمور وأولاد نايل، وتشكّل مجمّعات المياه بالمنحدرات كالمنحدر الرابط بين الأغواط ومسعد، عند جبل حِيرَش، وجبل بن عَمّاد قرب قصر الشلالة.

الرباعي القديم (Le Quaternaire)

تميّزت هذه الفترة بتشكل العديد من الحصى والرواسب والرخويات البحرية كمستحثّات أثرية بالمنطقة، مع بعض القواقع بوادي الجلفة، وتشكّل بعض الطمي بسبب التبخر المستمر للماء (Ritter,1902,p :49-51).

(٢/٤) ٣-الوصف التكويني والجيولوجي لجبال أولاد نايل:

خصّص ريتر إيتيان الفصل السادس لدراسة جبال عمور التي تشمل حاليًا منطقة الأغواط ومرفق آفلو، إلاّ أنّنا لن نركّز في عملنا هذا على هذه السلسلة، واقتصرنا على غايتنا المرجوة من هذا العمل وهي دراسة جبال أولاد نايل كامتدادٍ طبيعيٍ لجبال عمور، التي تضم مجموعةً من الجبال والهضاب والمنخفضات التي خصّص لكلّ منها دراسةً منفردةً (يُنظر خريطة مسار الرحلة؛Ritter, 1902,p:55-69). يذكر ريتر إيتيان أنّ جبال أولاد نايل هي امتدادٌ لجبال عمور، حيث يمكن تمييز عدّة أجزاء منها: سلسلة شمالية ضيّقة وحادّة؛ وهي امتدادٌ لجبال عمور، والسلسة الثانية تمتد من جبال الجلفة إلى منطقة سليم إلى غاية بوسعادة. وبذلك فإنّ جبال منطقة الجلفة وما جاورها هي الامتداد الواضح لجبال عمور، والتي تشمل بعض الطبقات المحدّبة على شكل هضاب عليا وأبرزها: جبل السردوم إلى غاية جبل الصحاري، الطبقات المحدبة لجبل أوغتايا إلى غاية منخفض وادي سليمان، والطبقات المحدّبة لجبل حوّاس، ولعلّ من أهم

السلاسل الجبلية التي قام بدراستها الرّحالة ريتر إيتيان هي: "جبل لزرق، جبل الملوك، جبل مارغيت، جبل زكّار، جبل قديد، جبل بوخيل، جبل الدّكلة، جبل مسعد" (Ritter,1902,p :69)، حيث قام بدراسةٍ تفصيليةٍ لكلّ مظهرٍ من هذه السلاسل على النّحو التالي:

مرتفعات جبل السَرْدُومْ إلى غاية جبل الصحاري:

وهي امتداد لجبال سيدي بوزيد التابعة لجبال عمور من الناحية الشّرقية، وترتبط هذه الجبال بجبل الشْعَايَفْ إلى غاية وادي الملاّح شمال منطقة زِيِنينَا، أين يمكن مشاهدة جبل السَردوم؛ وهو غنيٌ بالجبس والحجر الجيري خاصّة بجرف البَايَة، وبالقرب من قصر الشَارف الذي بُني على سفوح الحجر الجيري، كما هو الحال بقصر سيدي بوزيد تستمر السلاسل الجبلية ومنها: جبل عْويشَة، جبل الدْرَايْمَة، جبل دَقْدَاقْ، حيث تتميّز بالعديد من الرواسب القارية لمرحلة (Oligocene) أين تكثر الحصى الكبيرة والحجارة الملحية، خاصّة بسلسلة جبال الصحاري لتستمر هذه الأخيرة بالمنطقة الشمالية من الحجر الرملي الأبيض إلى غاية الزَهْرَزْ الشرقي، لتشمل كتلة الدِّيسْ (كتلة صخرية تقع شمال بوسعادة وتفصل الزهرز الشرقي وشطّ الحُضنة) (Ritter, 1902,p :71-72).

مرتفعات جبل أُوغْتّايَا ومنخفضات وادي سليمان:

يذكر ريتر إيتيان أنّ العديد من السلاسل الجبلية التي تمتد من جبال عمور تنتهي عند قصر الزِينِينَا، أين يكثر الحجر الرملي الأبيض خاصّة في شعاب الزَمْرَة، وجبل الكْحَل مع وجود المنخفضات الشاسعة، إضافة إلى وجود الجبس والبلور بجبل قْلِيبْ الطْيْر، وهي المنطقة التي عثر فيها الرّحالة (M. Pierredon) على العديد من المستحثّات الأثرية، التي تمّ حفظها بالمدرسة العُليا للعلوم بالجزائر العاصمة. وتستمر هذه الطيّات في النمو إلى غاية جبل أوغتايا، أمّا المنطقة التي تصل بين قصر الزينينا، وجبل الشّارَف فتزول هذه المنخفضات لتصل إلى مرتفعات البَايَة، لتظهر الأحجار الرملية البيضاء بجبل تْيُولي بالطريق الرابط بين الشارف والجلفة، عن طريق كاف غْرَارَة، ليمتد إلى جبل الحوّاس ومنطقة عَرقُوب الجمل، أين يظهر عصر(Oligocene). والظّاهر أنّ هذه المنخفضات تستمر بالطريق الرابط بين الجلفة وبُوغَارِي، حيث يصل امتدادها إلى ٠١كلم أين يكثر الحجر الجيري المتصلّب ذو اللّون الأصفر، وهي المنطقة التي وجد بها العالم (M. Péron) مجموعةً من المستحثّات الأثرية خاصّة بوادي سليمان (Ritter, 1902,p :72-73).

مرتفعات جبل الحوّاس:

جنوب المنخفضات السابقة نجد مرتفعات محدّبة تبدأ من برج دْوِيش، لتظهر منخفضات الحجر الرملي الأبيض وتشكّل سهلاً واسعًا من منطقة زينينا، التي هي امتداد لجبال عمور لتختفي في جبل بوشَكْوَة، وغير بعيد عن بني يعقوب يظهر الحجر الرملي ليصل إلى جبل الحوّاس، وجبل الفيّة، أين تظهر العصور الجيولوجي بشكلٍ واضحٍ ومنها: مرحلة (Neocomian) ومرحلة (Urgo-Aptiens)، كما وجد بمطاحن الجلفة بعض المستحثّات الأثرية، وفي الأخير فإنّ جبل المْدَارَق، وجبل تَسْتَارة اللّذان ينحرفان إلى الشمال ويتّصلا بجنوب الزَهْرَزْ الشرقي (Ritter,1902,p :73-74).

منخفضات الحْوَايْطَة والجلفة:

يُعَدّ جبل بوشَكْوَة آخر امتداد من جبال عمور، غير أنّ المناطق الشرقية لهذه السلاسل تتّصل بجبل القَبْلي القريب من منخفض تَاجْرُونَة، الذي ينتهي عند عَين الحْوَاجِيبْ، وهو المكان الذي عثر فيه (M. Péron) على مجموعةٍ من المستحثّات الأثرية خاصّة القنافد. تُعَدّ الحوايطة منخفضًا ينحصر ما بين جبل لزرق وجبل الحوايطة، الذي يعود إلى العصر الطباشيري الأعلى، أمّا في منطقة الجنوب الشرقي فنجد السلاسل الجبلية للجلفة التي تصل جبال القْرُون، وجبل السْنَالْبَة، وجبل السَارَة، حيث يتمّ عبور هذا التلّ في الطريق الرابط بين الجلفة وتَادْميت، حيث أنّ مرحلة (Cenomanian) تشكل أغلب هذه المرتفعات ،لذا وجد به بعض المستحثّات التي تعود لمرحلة (Senonian) بالقرب من عين مسعود والجلفة، والتي نشرها (M. Péron) و(Le Mesle)، كما يظهر منحدر جميل يسمى بُوتَرْفِيسْ في الجنوب الشرقي للجلفة، وفي أسفل هذا المنخفض يزداد الأمر تضييقًا في طريق بوسعادة والجلفة، أمّا بالمناطق الشمالية فنجد طبقات مرحلة (Turonian) ما بين عين مْويلَة وجبل الهَايْمَر القريب من منطقة سليم، وأشار العالم.Paul Marès في كتابه الذي تحدث فيه عن التركيبة الجيولوجية للجزائر الذي نشر سنة١٨٦٥ م، أنّ الطريق الرابط بين الجلفة ومنطقة ومجبرة غنيٌ بالآثار قرب سيدي مَقْران، على أنّ المرتفعات تزيد تواصلاً نحو الشمال الشرقي القريب من جبل قُورَارَة الذي ينعطق إلى الشمال لتنفصل قرب بوسعادة، وتنطلق جبال سلسلة كَرْدَادَة القريبة من بوسعادة وجبل بَاتَنْ، الذي يتّصل بشطّ الحضنة (Ritter, 1902,p :74-76).

جبل لزرق:

تتشكل الطبقات المحدّبة لجبل لزرق، والتي تتميّز بطول يبلغ٥٠كلم وعرض قدره مابين١٠-١٥كلم أهمية كبيرة، خاصّة وأنّه يقع على طريق وادي زْرَايَمْ، لذا كان هيكله الطبوغرافي صعبًا جدًا على الرّحالة ريتر إيتيان،حيث تبدأ طياته بحجارةٍ بيضاءٍ رمليةٍ لتشكل سهلاً لبداية الصحراء، وتزخر هذه التلال بالعديد من الأزمنة الجيولوجية لتصبح ضيّقة بالشمال الشرقي، لنجد أحجار الجير على وادي مْزّي وعين رَاكُوسَة، وفي نفس الوقت وكلّما ارتفع مجال الطيّات الجبلية يظهر عصر الجوراسي، خاصّة في قمّة التلال التي بلغت ذروتها في قمة عِزْزِيغ بمقدار١٤٨١متر ليتّجه إلى الانخفاض بشكلٍ كبيرٍ إلى غاية جبل تَاعَضْمِيت، حيث تزخر هذه الجبال بالحجارة الرملية البيضاء ليصل إلى جبل مارغيت وزكّار الغنية بمستحثّات العصر الطباشيري المبكر، والتي تشمل المحار وآثار الإسفنج والعضيّات والأزهار الثلاثية، خاصّة بعين رَاكُوسَة وتَاعَضْمِيت وهي التي نشرها (M. Péron) و(Le Mesle) (Ritter, 1902,p :77-78).

جبل الملوك:

في المنحدر الجنوبي لجبل لزرق يرتفع جبل الملوك، الذي تتكوّن طبقاته من مرحلتين: (Cenomanian) و (Turonian) والتي تشكل سلسلة يصل امتدادها إلى١٥٠-٢٠٠متر، على أنّ معظم طبقاتها تَغُوصُ في الأسفل لتشكّل شكلاً بيضاويًا؛ على أنّ غَابِرَةُ كان عبارة عن بحيرةٍ قديمةٍ عمقها أكثر من ١٠٠متر؛وهي التي تزود جبل الملوك بالمياه الجوفية، وبذلك فإنّ هذا الجبل هو يفصل بين جبل مارغيت وجبل لزرق، ليختفي عند جبل زكّار، وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ جبل الملوك هو أيضًا غنيٌ بالمستحثّات الأثرية والحجر الرملي الأبيض(Ritter ,1902,p 79-80).

جبل مَازغيت وجبل زكّار:

يذكر ريتر إيتيان أنّ المنطقة المحصورة ما بين الجلفة وبُوخَيْل، تتميّز بسهل فسيح بالمناطق الجنوبية الغربية، حيث يزيد انبساطًا إلى المناطق الشمالية الشرقية، فنجد مباشرة شرق سيدي مخلوف الحجر الرملي الأبيض على شكل تلالٍ صغيرةٍ مع منحدر لطيف وحاد. هذه التلال التي تجتمع في زاويةٍ واحدةٍ في منطقة صْفِيَة البَارُود (٩٣٨ متر)، وعلى جانبه كانت هذه الطيّات غنيةً بالحجر الرملي الذي شكل في مرحلة Urgo-Aptien جبل الزَرْقَة وجبل مارغيت، حيث يوجد بينهما تلالٌ فسيحةٌ من الحجر الجيري، على أنّ هذان الجبلان يقتربان من بعضهما عند سلسلة جبال زكّار، فمنحت طبقاتUrgo-Aptien الكثير من المستحثّات الأثرية خاصّة بجبل زكّار وجبل مارغيت، إضافة إلى الحجر الجيري والجبس الحجري الذي يكثر بالطريق الرابط بين الجلفة ومجبرة لتصل إلى جبل قَدِيدْ (Ritter, 1902,p : 80-81).

جبل قَدِّيدْ وجبل بُوخَيْل:

يذكر الرّحالة ريتر إيتيان أنّ منطقة الشمال الشرقي، وجميع السلاسل المتّصلة بالصحراء وأحواض منطقة الجلفة تعود إلى مرحلةCenomanian و Turonian،حيث تعرّض أغلبها إلى عمليات التعرية بفعل المياه الجارية، حيث يكثر الحجر الجيري الأبيض خاصّةً في جبل قَدِّيدْ؛ الذي يبدأ من منطقة مْجَبْرَة، ليكوّن فيما بعد منخفضًا يسمّى شبكة بُوفَمَة، وخْنَقْ الدَّفْلَة ويقع في الطريق الرابط ما بين مَسعد والجلفة، وفي نفس الطريق الجنوبي هناك قمّتين تسمى تُومِيَاتْ وصَفْيَاتْ بُورْنِيمْ، والتي تهيمن على عشرات الكيلومترات لها قممٌ من الحجر الرملي الأبيض(Ritter,1902,p 81-82).

وفي الجنوب الشرقي ما بين جبل مسعد وجبل مَازْغِيتْ، يوجد سهل في منتصفه جبل بُوخِيلْ على أبراج معلّقة من دون غطاء نباتي ليصل إلى جبل قدّيد عبر منطقة مْجَبْرَة، وفي منطقة الجلفة ينفصل هذين الجبلين عن طريق سلسلة ثْلَايْلاَ شرق جبل قَدِّيدْ، وفي شمال جبل قَدِّيدْ نجد سلسلة صلبة تربط ما بين جبل تِيزَارِينْ وجبل الشَاوِيَة، الذي يهيمن على قصر عين الرِيشْ؛ على أنّ جبل بوخيل وجبل قَدِيدْ غني بالحجر الجيري الأبيض ومجموعة كبيرة من المستحثّات الأثرية، من قنافد البحر التي تعود إلى مرحلة Turonian التي قام بدراستها كل من: MM. Cotteau, Péron et Gauthier ضمن كتاب: " Les échinides fossiles de l'Algérie "(Ritter, 1902,p 83).

جبل الدَكْلَة والسلسلة الجنوبية لجبل مسعد:

ترجع السلسلة الجبلية لمسعد إلى مرحلة (Cenomanian) و (Turonian) انطلاقًا من غرب الأغواط، حيث يبعدان عن بعضهما البعض مسافة١٠-١٢كلم، إلى أنْ تتقلّص هذه المسافة عند واد مَزِّي، وتبلغ٢-٣كلم ليفترقًا مرّة أخرى عند جبل الدَّكْلَة، لتشكل سلسلتين غربية تنطلق من بئر مْوِيلاَ ليشكل طريقًا على حافة واد مَزِّي، غنية بالكثبان الرملية والرّخام، أمّا السلسلة الشرقية والمسمّاة بالخْنِيقْ التي تتميّز بالاتساع وكثرة الممرّات، حيث نجد في ثنية مَكْرَان العديد من معدن الأمونيات؛ على أنّ هذه الطبقات تستمر إلى غاية جبل الدَّكْلَة، ويعتقد ريتر إيتيان أنّ منخفض خْنَقْ الدَّكْلَة، هي التي كوّنت صخرة الكَلب التي بنيت عليها مدينة الأغواط، وما بين كاف سْرِدْجَة والعسّافية إلى غاية كاف المسيلة، نجد منخفضًا ينحصر ما بين العسّافية وقصر

الفَرَجْ، كما عثر بمنطقة ثنية مَعَاش التي تنحصر ما بين ثنية العسّافية وكاف مَثْلِيلِي، على معدن الأمونيات إضافة إلى غنى المنطقة بالمستحثّات الأثرية التي تعود إلى العصر الطباشيري خاصّة بجبل الزَرْقَة وأولاد شَايَرْ(Ritter,1902,p 85-86).

والملاحظ أنّ ريتر إيتيان قد ختم رحلته بفصلٍ تاسعٍ خصّصه لدراسة بعض الهضاب التي توجد بالسلاسل الجبلية السابقة، ونخص بالذّكر جبال عمور وأولاد نايل، وأبرزها الهضاب التي تفصل جبل بُوشَكْوَة وجبل لزرق، والتي تمتد الى جبل زكّار وتزيد امتدادًا إلى غاية كاف نْتِيلاَ/ وجبل دُكْرَانْ، وكاف مْسَاعْدَة، الذي يسيطر على منطقة مسعد وغيرها من المناطق، على أنّ جبال عمور تكثر به هذه الهضاب عكس جبال أولا نايل (Ritter, 1902,p :90-97).

خَامِسًا: الأسلوب والمنهج

تصنّف رحلة ريتر إيتيان الموسومة بـ: Le Djebel Amour Et Les Monts Des Oulad-Nayl، من أبرز الرّحلات العلمية ذات الطّابع الجيولوجي التي اعتنت بالصحراء الجزائرية، حيث كان لمنطقة الأغواط والجلفة حُظوةَ نيل هذه الدّراسة التي ركّزت على سلسلتين هامّتين من جبال الأطلس الصحراوي وهما: جبال عمور وجبال أولاد نايل.

والملاحظ أنّ هذا النوع من الرّحلات أو البعثات العلمية المتخصّصة، كان وَلِيدَ الحاجة العلمية التي فرضت على السلطة الفرنسية ضرورة استكمال واستكشاف الجنوب الجزائري، الذي لَطَالَمَا ظلّ حيزًا جغرافيًا مبهما للدول الشمالية، ومنها فرنسا التي حاولت إيجاد خريطةٍ جيولوجيةٍ للجزائر وأخرى لفرنسا، فكان هذا العالم له السهم الوافر في إعداد هذا المشروع الاستعماري (Ritter, 1902,p:05).

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ فنّ الرّحلة العلمية التوثيقية من الفنون العربية القديمة، التي اتّصلت بعاداتهم وتقاليدهم في ضرورة الإنتهال من مشارب العلم وأقطابه، حيث كان للعرب العديد من الرّحلات العلمية الاستكشافية التي سبقت العالم الأوربي في هذا المجال (الشاهدي،١٩٩٠، ج١، ص:٧٨) ،ورغم ذلك فإنّنا لا ننفي دور العالم الأوربي في اكتشاف العديد من المجالات العلمية خاصّة بالجزائر أيّام الاستعمار الفرنسي، ومن كلّ الجنسيات خاصّة بعد تأسيس الجامعة الجزائرية سنة ١٩٠٩ م، إثر القانون الذي صدر بإنشاء المدارس العليا سنة ١٨٨٠م (سعد الله، د.ت، ص:١٢-١٤).

ونظرًا لطبيعة الرّحلة التي تتّسم بالمنهج العلمي البحت، فإنّ أسلوب الرّحالة قد كان بسيطًا ابتعد فيه عن توظيف الخيال؛ نظرًا لِمَا يتطلّبه المنهج التجريبي من موضوعيةٍ وعلميةٍ، تعتمد على الملاحظة والتجريب واستنتاج الحقائق العلمية، لذا كان اختصاص هذا الرّحالة في الدّراسات الجيولوجية له وقعٌ في طريقة عرض أفكاره بأسلوب علمي سَلِسٍ بسيطٍ، يرتكز على الدّلائل العلمية والقرائن، مُتّخذًا من الملاحظة الميدانية بدايةً لمناقشة أفكاره العلمية، ناهيك عن الرسومات التدعيمية والخرائط التوضيحية، وبعض اللوحات التي تظهر التطور الجيولوجي، والتي لاشك وأنّها تضفي على رحلته صبغةً علميةً بحتة(عن هذه الرسومات ينظر: Ritter, 1902,p :10,56-57,62,66,79,93-95).

إضافة إلى استعماله المنهج التوثيقي الذي يعتمد على تدعيم أفكاره بالوثائق اللاّزمة، كالخرائط والرسومات التوضيحية مع الاستشهاد ببعض الدّراسات العلمية التي سبقته بالمنطقة، فكان لا يَدعَمُ رأيًا أو يخالفه إلاّ بتقديم الحجج على ذلك، ومنها تدعيمه لدراسة (M.Peron) الذي سبقه في دراسة السلاسل الجبلية لمنطقة الجنوب (Ritter, 1902,p:16). وبتصفحنا لمضمون الرّحلة، نجد أنّ ريتر إيتيان قد اتّبع في دراسة طريقة تَنِمُ عن تخصّصه المتعمّق في الدّراسات الجيولوجية، حيث نجده يقدّم وصفًا أوّليًا لشكّل من التضاريس على شكل تمهيدٍ جغرافيٍ،ثمّ يسترسل في عرض أبعاده الحدودية من كلّ النواحي، ليقوم بعلمية تحليلٍ للطبقات المكوّنة من الناحية الجيولوجية، ويستخرج جميع المميّزات لهذا الشكل التضاريسي، ليختم وصفه بعرض لأهم المستحثّات الأثرية وجميع الدّراسات المتخصّصة التي عالجت المظهر التضاريسي، مدعّمًا أفكاره بتحليلٍ علميٍ وبمجموعةٍ من الرسومات واللوحات التوضيحية، وأحيانًا يلجأ لمناقشة بعض الأفكار السابقة إن تطلّب الأمر.

وبذلك فإنّ رحلة ريتر إيتيان، قد اعتمدت على التجربة والاختبار والوصف والتوثيق لجميع ما شاهده ودرسه بطرق علميةٍ محضةٍ، تبتعد عن المغالطات العلمية، لأنّ هدف الرجل هو إعداد تقريرٍ علميٍ جدّيٍ حول الخريطة الجيولوجية للجزائر، وهذا ما نلمسه من خلال ابتعاده عن الطابع السّياسي والاجتماعي والاقتصادي في عرض الأفكار، فجاءت رحلته دراسةً علميةً خالصةً خاليةً من التوجّهات السّياسية آنذاك ومُنعدمة الميول الذّاتية.

سَادِسًا: مصادر الرّحلة

لا شك وأنّ الرّحلة العلمية للجيولوجي ريتر إيتيان، قد استمدت معلوماتها من العديد من الدّراسات التي سبقته في هذا المجال، ناهيك عن تجربته الشخصية التي صقلت موهبته

ونمّت معارفه في علم الأرض والصخور، وحسبنا أنّ ما خلفه من انجازاتٍ علميةٍ هي الشاهد الأكبر على تبحّر الرجل في هذا العلم، ناهيك عن استعانة الدوائر العلمية والجامعات الأجنبية بخبرته في الدّراسات الجيولوجية. ورغم غزارة علمه في هذا المجال، إلاّ أنّ جهله لجغرافية الجزائر خاصّة الجهة الجنوبية، دفعته إلى تسلّق غمار البحث والدّراسة في جانبٍ نَعتقِدُ أنّ خبرته به قليلةٌ جدًّا، ونخصّ بالذّكر الدّراسات الجيولوجية الصحراوية، ومن هنا فقد استعان بالكثير من الدّراسات والخرائط الجيولوجية ويمكن تقسيمها إلى:

دراسات فردية: وكان أبرزها دراسة (Brossard) و (Coquant) حول: مدينة قسنطينة سنوات ١٨٦٢-١٨٦٦، ودراسة (Pomel) و (M .Péron) حول: الجزائر سنوات ١٨٨٣-١٨٩٠، ودراسة (Ville) حول: صحراء بني مزاب وغيرها من الدّراسات الجيولوجية والجغرافية المهمة.

لدّراسات المشتركة: ومنها دراسة Curie et Flamandحول:Les roches éruptizes de l'Algérie، ودراسةBlayac et Gentil حول: Le Trias Aux Encirons De Souk-Ahras،والدراسة الثلاثية بين Cotteau, Péron Et Gauthier حول:Les Echinides Fossiles De L'algérie .

الموسوعات والتقارير العلمية: وشملت موسوعة Le Mesleحول: Collection de paléontologie du Muséum d'histoire Naturelle de Paris وموسوعة Pierredon حول: Collection de l'École Supérieure des Sciences d'Alger، اضافة إلى التقرير العلمي الذي قدّمه M. Marcel Bertrand et De M. Maurice Lugeon حول: Compte Rendu Sommaire Des Séances سنة١٩٠٠.

الملاحظ من خلال هذه القائمة المعتبرة من الدّراسات التي اعتمد عليها ريتر إيتيان، هو ذلك التنوع في الدّراسات وإن كان جميعها يصب في بَوتقة الدّراسات الجيولوجية المتخصّصة، والتي انصب اهتمامها على الأراضي الجزائرية، سواءً دراسات تركّز على بعض المناطق كسطيف، سوق أهراس، قسنطينة، الجزائر، وهران، وأحيانًا تركّز على القطر الجزائر بأكمله، ناهيك عن بعض الموسوعات التي عالجت المستحّثات الأثرية على الخصوص.

كما استمد الرّحالة معلوماته من **الخريطة الجيولوجية** التي أعدّها (M .Péron) حول الإقليم الجنوبي للجزائر، لتشمل جميع أجزاء الصحراء بمقياس رسمٍ قَدره١/٨٠٠,٠٠٠ والتي نشرت سنة ١٨٨٩م، إضافة إلى خريطة أخرى بمقياس١/٤٠٠,٠٠٠ للعالم (M. Pierredon) (Ritter, 1902,p:6-7).

ولعلّ (M .Péron) هو صاحب الفضل عليه في توظيف دراساته على مستوى هذه الرّحلة، فقد كان له السبق في دراسة الجنوب الجزائري من الناحية الجيولوجية حيث جاء في ذلك قوله:

«Mais c'est surtout à M. Péron que nous devons la connaissance approfondie de ces étages, dans les chaînes du Sud, et l'étude de leurs faunes». (Ritter, 1902,p:16).

ناهيك عن توظيفه للموسوعات الأثرية في أكثر من موضعٍ، فلا نكاد نعثر على وصفٍ جيولوجيٍ لمظهر من التضاريس إلاّ ومعه قائمة المستحثّات الأثرية، التي وجدت بهذه التضاريس الصحراوية ومنها موسوعة (Le Mesle) و(Pierredon).

سَابِعًا: القيمة العلمية للرّحلة

تستمد هذه الرّحلة قيمتها العلمية من كونها رحلةٌ نابعةٌ عن رجلٍ متخصّصٍ في علوم الأرض والصخور والمعادن وكلّ ما ارتبط بالمجال الجيولوجي، وحسبنا أنّ استدعاءه من طرف الحكومة الفرنسية لإعداد خريطةٍ جيولوجيةٍ مفصّلةٍ لمنطقة الأغواط والجلفة، دليلٌ على درجة اهتمام الدائرة الجغرافية الفرنسية بهذا المجال (Ritter, 1902,p:05).

وتزداد أهمية الرّحلة عندما صار هذا الأخير في دائرة اهتمام السلطة الفرنسية، وجميع العلماء الذين وضعوا ثقتهم في شخصه وعلمه، لإعداد وتكملة هذا المشروع خاصّة وأنّه كان ضمن فريق العمل لإعداد الخريطة الجغرافية الفرنسية، ومن الذي أشادوا به نذكر: (M.Ficheur) والسيّدان (M. Pouyanne) و (M. Pomel) الذين يشرفون على دائرة الخريطة الجيولوجية (Ritter, 1902, p: 7).

ومن هنا فإنّ لهذه الرحلة أهميةً بالغةً من الناحية التّاريخية، فهي مصدرٌ مهمٌ لكتابة تاريخ الأغواط والجلفة من الناحية الجغرافية والجيولوجية، إضافة إلى كونها قد حصرت لنا جميع المناطق الأثرية بالمنطقة، والتي تعود جميعها إلى الأزمنة الجيولوجية الغابرة، ويمكن توضيحها ضمن الجدول الآتي:

المظهر التضاريسي	نوع المستحثة	السلسلة الجبلية	الزمن الجيولوجي	الصفحة	المصدر الأصلي
جبل سيدي بوزيد	متنوعة	عمور	Jurassique	٢٥،٢٨	Coll.le Melse
جبل لزرق	متنوعة	أولا نايل	Jurassique	٢٥	Coll.le Melse
جبل مركب، عوينة الحمر، جبل بوشكوة	بلح البحر	عمور	Néocomien	٢٩،٣٠	Coll.M.peron
جبل لزرق، مارغيت، زكار	متنوعة	أولاد نايل	Néocomien	٢٨	Coll.le Melse Coll.M.peron
جبال بوسعادة، تعضميت	قنافد البحر الأصداف	أولاد نايل	Urgo-Aptien	٣٠،٧٨	Coll.M.peron
الريشة	قشور، جذوع، أوراق النبات	عمور	Albian	٣٢	Coll.le Melse
من الجلفة إلى المطاحن	بلح البحر	أولاد نايل	Urgo-Aptien	٧٤-٣٤،٧٣	Coll.le Melse
جبل بوخيل جبل الملوك	قنافد البحر، جيوانات نعامية	أولاد نايل	Cenomanian Turonian	٣٩،٨٠	Coll.M.peron
وادي سليمان	الأصداف	أولاد نايل	Sénonien	٤٠،٧٣	Coll.M.peron
وادي الجلفة	رخويات	أولاد نايل	Miocène Pliocène	٥٠	G. Rolland. Géologie Du Sahara Algérien
كاف تميدا	المحار	عمور	Turonian	٥٦	Coll.le Melse
جبل العويضة	متنوعة	عمور	Urgo-Aptien	٥٩	Coll.le Melse
جبل شبكة قرب من عين فورني	بلح البحر	عمور	Urgo-Aptien	٦٤	Coll.le Melse
جبل أوغتايا	متنوعة	أولاد نايل	Urgo-Aptien	٧٢	Coll.M.peron
عين الحواجيب	متنوعة	أولاد نايل	Senonian	٧٣	Coll.M.peron
عين مسعود والجلفة	متنوعة	أولاد نايل	Senonian	٧٤	Coll.le Melse Coll.M.peron
راكوسة	المحار، الإسفنج، العضيات	أولاد نايل	neocomian	٧٨-٧٧	Coll.le Melse Coll.M.peron
جبل قديد وبوخيل	قنافد البحر	أولاد نايل	Turonian Cenomanian	٨٣	M. Cotteau, Péron et Gauthier
جبل الزرقة، أولاد شاير	متنوعة	أولاد نايل	Cenomanian	٨٦-٨٥	Coll.M.peron

انطلاقًا من الجدول أعلاه، يتبيّن لنا أنّ منطقة أولاد نايل قد حظيت بالعديد من المواقع الأثرية التي ترجع إلى أزمنة جيولوجية غابرة، شملت العصر الجوراسي والطباشيري والرباعي، ولعلّ هذه الأهمية هي ما لفتت انتباه الرحالة ريتر إيتيان الذي همّ بتسجيل جميع هذه المناطق وحصر جميع أنواع المستحثّات الأثرية، اعتمادًا على موسوعتي كُلًّا من (le Melse) و(M.peron)، على أنّ أغلب أصول هذه الحفريات قد تمّ نقلها إلى المتاحف الفرنسية آنذاك.

وحسبنا أنّ منطقة الجلفة تزخر بالعديد من المواقع الأثرية التي حظيت باهتمام العديد من الباحثين الفرنسيين وغيرهم، فقد كانت رحلة العالم هذا قد حصرت لنا أكثر من (١٨) موقعًا أثريًا بإقليم الجلفة وما جاورها، ناهيك عن الثروات المعدنية الباطنية والظاهرية وجميع الثروات المائية السطحية والجوفية بالمنطقة، وذلك بطريقةٍ علميةٍ مدعّمةٍ بالحجج والقرائن، ولعلّ من أصدق الأوصاف التي منحها للمنطقة قوله: " un pays très simple et très beau" (Ritter,1902,p:06).

وتزداد أهمية الرّحلة عندما قام هذا الرجل العالم بحصر جميع المعادن التي يزخر بها الجنوب الجزائري، وعلى رأسها الجبس والملح والبلور والأمونيات والحديد (Ritter, 1902,p :17-18)، ناهيك عن الخرائط التوضيحية التي ساهم في تحيينها، لإعداد خريطةٍ جيولوجيةٍ دقيقةٍ للصحراء الجزائرية، والتي ركّز فيها على جبال عمور وأولاد نايل، كما لا ننسى دوره في توضيح معالم الخريطة الهيدروغرافية للأودية والمجاري المائية والسبخات والشطوط التي تزخر بها المنطقة، خاصّة البحيرة الغابرة التي أكّد على وجودها في أغوار جبل الملوك والتي يزيد عمقها أكثر من ٠٠امتر (Ritter, 1902,p 79-80). ومن الأهمية بمكان أنْ نذكر تأثيره الواضح فيمن جاء من بعده من المستكشفين وقادة الجيش في الاعتماد على هذه الدّراسة، لإعداد تقاريرهم العسكرية والعلمية، فهذا (Gautie) يستشهد به في كتابه الموسوم بـ: (Sahara algérien) الذي طبع سنة ١٩٠٨ م، وكتابه "Structure De L'Algérie" الذي طبع سنة١٩٢١م (Steeg,1922,P :25).

وبذلك فإنّ رحلة ريتر إيتيان قد تركت أثرًا واسعًا على الساحة العلمية، خاصّة لدى المتخصّصين في علم الجيولوجيا وجميع من استفاد منها أيّام الفترة الاستعمارية، ونخص بالذّكر الحكومة الفرنسية التي اتّخذت من دراساته مرجعًا أساسيًا للتوغل في الصحراء الجزائرية، وبذلك فقد عُدّت درسته استكمالاً لعددٍ كبيرٍ من الدّراسات التي نشرت في إطار الإعداد لخريطة جيولوجية للجزائر. ومن هنا فقد كان لمنطقة الأغواط والجلفة حظٌ وافرٌ في الاستفادة من خدمات هذا الرجل العالم الرّحالة، في إحصاء جميع المظاهر التضاريسية، وتطوّراتها الجيولوجية، وجميع المخلّفات الأثرية، التي تعد ثروة تراثية ومخزونًا قيّمًا يستدعي منا الإسراع في البحث والتنقيب عنه، لذا فما كانت هذه الرّحلة إلاّ نموذجًا فريدًا من نوعه من مجموعةٍ من النماذج العلمية التي تتطلّب إلتفاتة جدّية من طرف الدّارسين للمنطقة.

خاتِمَةٌ

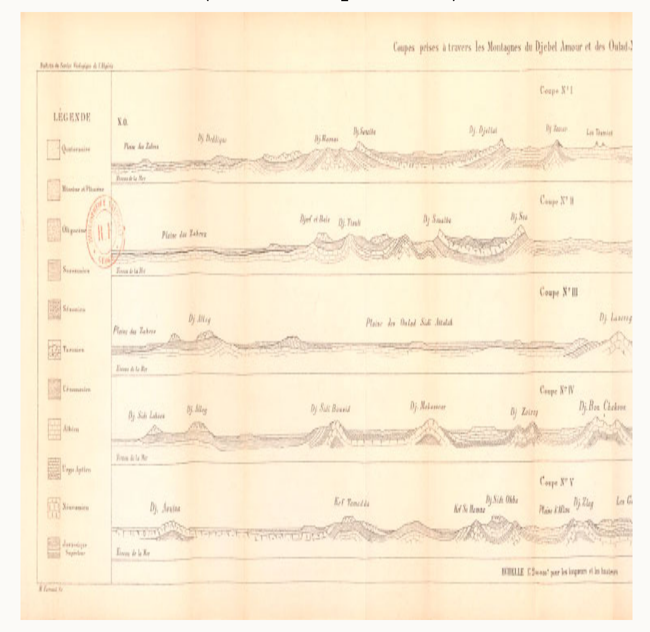
خُلاصة القول أنّ الرحلة العلمية للجيولوجي ريتر إيتيان، تُعَدّ من أهم الرّحلات العلمية التي وجهت عنايتها لدراسة التركيبة الجيولوجية المكونة للصحراء الجزائرية، حيث ركّز صاحبها على جبال عمور وأولاد نايل كنموذجٍ من سلاسل الأطلس الصحراوي، مع إعداد تقريرٍ دقيقٍ لهذه المناطق وإرفاقه بخرائط توضيحية، لغرض إعداد خريطةٍ جيولوجيةٍ للجزائر كمشروعٍ مُقترحٍ من طرف الحكومة الفرنسية.

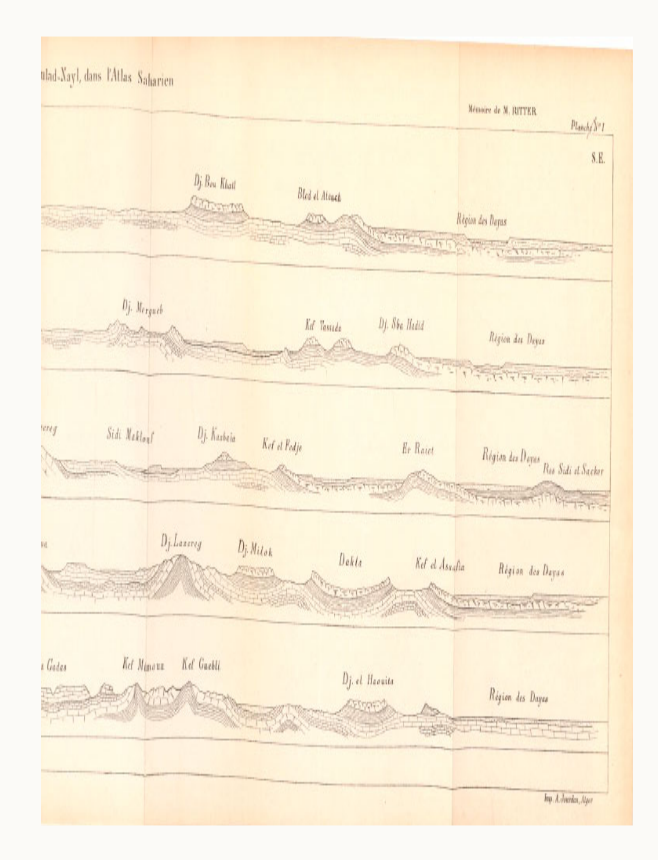
لذا كانت هذه الرّحلة العلمية مليئةً بالمعارف العلمية الدقيقة حول منطقة أولاد نايل، وتركيبتها الجيولوجية، وجميع المظاهر التضاريسية المكونة لها، مع ذكر لأهم المواقع والمستحثّات الأثرية التي عثر بها بالمنطقة، ولعلّ هذه الثروة هي ما جعلت المنطقة قِبلَةً للعديد من الرّحالة عبر العصور، لِمَا تزخر به من موروثٍ ثقافيٍ قد يساهم في كتابة التّاريخ الثقافي والعلمي لمنطقة الجلفة. ومن هنا فإنّ ما قام به ريتر إيتيان يصب في خانة التأريخ العلمي لمنطقة الجلفة في المجال الجيولوجي والجغرافي، وذلك بالتأصيل لتاريخ المنطقة الذي يعود لأزمنةٍ غابرةٍ تضرب في عمق التّاريخ لأكثر من ١٤٥ أو٢٠٠ مليون سنة مضت.

الملاحق

رقم (١)

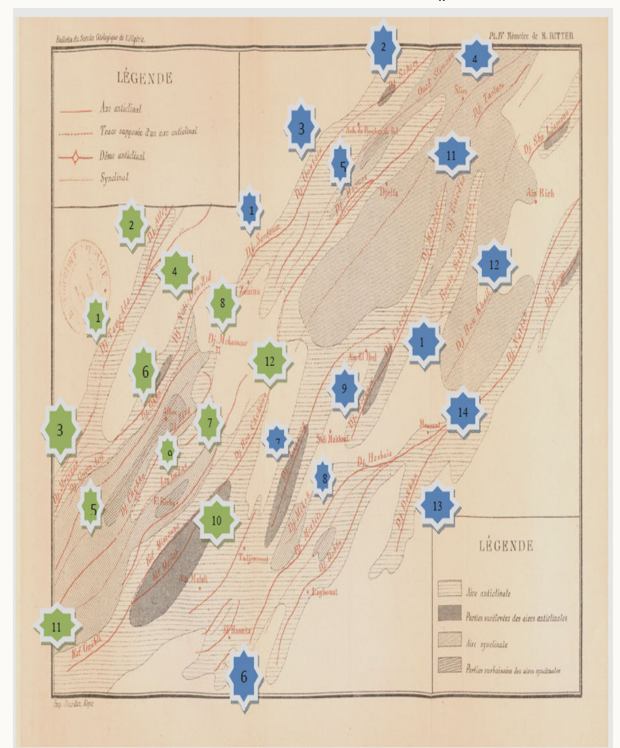
مقطع في جبال عمور وأولاد نايل بالأطلس الصحراوي الجزائري بمقياس رسم:١/٢٠٠,٠٠٠ من إعداد Étienne Ritter (Ritter,1902,p :105-106)

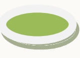


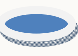


رقم (٢)

مخطط تقريبي لمسار الرحلة (بتصرف 112: Ritter,1902,p).




سلسلة جبال عمور


سلسلة جبال أولاد نايل

المراجع

أولاً: المراجع العربية

- بن داهة، عدة (٢٠٠٨م). الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبّان الاحتلال الفرنسي للجزائر ١٨٣٠-١٩٦٢(ج١)، الجزائر: منشورات وزارة المجاهدين.
- ليون، موريه (١٩٨٧م). الوجيز في الجيولوجيا (ترجمة يوسف الخوري وعبد الرحمن حميدة)، د.م: دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر.
- سعد الله، أبو القاسم (د.ت)، "منهج الفرنسيين في كتابة التاريخ الجزائري"، مجلّة الأصالة، وزارة التّعليم الأصلي والشؤون الدّينية (١٤-١٥).
- الشاهدي، الحسن (١٩٩٠)، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني(ج١)، الرّباط: منشورات عكّاظ.

ثانيًا: المراجع الأجنبية

- Agéron, Charle Robert (1968), Les Algérienne Musulmane Et France (1871 -1919), Paris.
- Collot, Claude.Les Institutions De L'algérie Durant La Période Colonial, 1830 - 1962, Edition Du Anatole.
- Hugonnet, (1858) Souvenirs D'un Chef De Bureaux Arabe, Paris: Ed. Levry.
- Julien, Charles André. Histoire De L'algérie Contemporaine, La Conquête Et Les De La Colonisation (1827-1871), Editions Casbah.
- Lutaud, Ch. M (1913), Exposé De La Situation Général Des Territoires De Sud De L'algérie, Algérie: Imprimeur-Libraire-Editeur.
- Ritter, Etienne (1902), Carte Géographique De L'algerie, Le Djebel Amour Et Les Monts Des Oulad-Nayl, Algérie: Imprimeur-Libraire-Editeur.
- Ritter, Etienne (1894), Les Massifs De Beaufort Et Du Grand-Mont, Etude Sur La Prolongation Vers Le Sud De La Chaine Des Aiguilles-Rouges Et Du Prarion (Alpes Françaises),Thèses Préservée A La Faculté Des Sciences De L'université De Genaive Pour Obtenir Le Grade De Doctorat Sciences Naturelles, Encadré Par Louis Duparc ,Genaive :Imprimerie F.Taponnier.
- Ritter, Etienne (1928), Report Aspen-Riverside Mining Groop Gunnison Country, Colorado.
- Steeg, M (1922), Les Territoires De Sud De L'algérie, 1ere Partie, Gouvernement Général De L'algerie, Direction De Territoires De Sud, Algérie: Imprimeur-Libraire-Editeur.

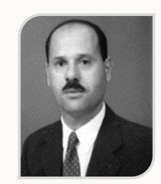
ثالثًا: مواقع الإنترنت

- موقع (persée) الفرنسي، (https://www.persée.fr/collection/glob) تاريخ التصفح ٢٠١٩/٠٩/٠٩ بتوقيت١٩,١٠ مساءً.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الواقع العسكري للمنطقة الثالثة (القبائل) خلال المرحلة الأولى من الثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٥٦)



أ.د. الطاهر جبلي

قسم التاريخ – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

الجمهورية الجزائرية



أ.د. سعاد يمينة شبوط

قسم التاريخ – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

تتناول هذه الدراسة عرض الواقع العسكري للمنطقة التاريخية الثالثة (القبائل) خلال المرحلة الأولى من الثورة التحريرية الجزائرية (١٩٥٤- ١٩٦٢)، هذه المنطقة التي شكلت بحكم موقعها الجغرافي الاستراتيجي الذي يتوسط بقية المناطق الأخرى وتنظيمها السياسي المحكم؛ المعقل الثاني للثورة الجزائرية بعد الأوراس، الأمر الذي جعلها تُحظى بأهمية ومكانة خاصة عند مناضلي وإطارات الحركة الوطنية، منذ اعتماد خيار الكفاح المسلح كأسلوب للنضال الوطني ضد الاستعمار الفرنسي. وتأتي هذه الدراسة لغاية توضيح دور وأهمية منطقة القبائل ضمن استراتيجية تنفيذ الثورة الجزائرية وتحقيق أهدافها المعلنة من خلال مواثيقها الأساسية، وهذا على مستوى نطاق زمني محدد (١٩٥٤- ١٩٦٢)، وحيز جغرافي معلوم يشمل جزء هام من الشرق الجزائري، إذ سنحاول من خلالها تسليط الضوء على واقع المنطقة الثالثة على عهد المنظمة الخاصة ١٩٤٧- ١٩٥٠، وأهميتها البارزة في التحضير للعمل المسلح واستمراريته إلى غاية انعقاد مؤتمر الصومام ١٩٥٦، والإشادة من باب الموضوعية التي يقتضيها البحث التاريخي الأكاديمي الجاد بالأدوار الريادية المميزة التي بذلها القادة الأوائل بالمنطقة في تخطي مشاكل الثورة وصعوباتها (نقص المال والسلاح) أثناء مرحلتها الأولى وتعزيز فعاليتها فيما بعد الانطلاقة، بما يجعلنا نؤكد على حنكة ونجاعة المخططات التي سطرتها قيادة الثورة في المنطقة الثالثة بصفة خاصة والقيادة الثورية بصفة عامة في بعث وتعزيز وتيرة النشاط الثوري، وتحقيق انتصاراته بالمنطقة الثالثة من خلال عقد أبرز مؤتمر وطني للقيادة الثورية في صائفة ١٩٥٦، وهو المؤتمر الذي جعل الثورة الجزائرية تدخل في مرحلة أخرى أكثر تنظيما وشمولية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٥ يوليو ٢٠٢٠

تاريخ قبـول النشـر: ٢٠ أغسطس ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الثورة الجزائرية؛ القبائل؛ مؤتمر الصومام؛ قادة الثورة؛ التسليح

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.186234

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الطاهر جبلي، سعاد يمينة شبوط، "الواقع العسكري للمنطقة الثالثة (القبائل) خلال المرحلة الأولى من الثورة الجزائرية (١٩٥٤-١٩٥٦)".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة -العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ١٨٣ – ١٩٩.

Corresponding author: djebli_tahar@yahoo.fr

Corresponding author: mimoun_62@yahoo.fr

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan

مُقدِّمَةُ

شكلت الإمكانيات المادية والبشرية ضرورة ملحة بالنسبة لقادة الثورة عشية اندلاعها في أول نوفمبر١٩٥٤، باعتبارها من المسائل الحيوية والحساسة لانطلاق واستمرارية أي عمل مسلح،وتجمع المصادر التاريخية المكتوبة والشفوية منها على أن الإمكانيات المادية والبشرية المتوفرة عند الانطلاقة بشكل عام ضئيلة جدًا، فهناك نسبة قليلة من المجاهدين لا يتجاوز عددهم ثلاثة آلاف مجاهد مسلحين ببنادق الصيد وبنادق أوتوماتيكية من مخلفات الحرب العالمية الثانية صالحة للاستعمال بنسبة العشر، أي أن طلقة واحدة من بين عشرة طلقات نارية تكون صالحة.

الأمر الذي أدى بالثورة التحريرية عشية انطلاقتها إلى مواجهة مشاكل عدة تعلقت بمتطلبات العمل العسكري كالتموين والتسليح وهياكل التنسيق والتخطيط لعمليات التسليح والتخزين وإنشاء المخابئ وتوزيع الرجال والأسلحة على كافة المناطق العسكرية بشكل محكم، وعلى هذا الأساس حاول قادة الثورة التكيف مع الظروف والمستجدات ومعالجة هذه المشاكل بدقة خصوصا في ميدان التسليح والتموين.

ويمكن القول بأن جبهة التحرير الوطني أعلنت انطلاق الثورة التحريرية بإمكانيات مادية جد ضعيفة خصوصًا إذا ما قورنت بإمكانيات العدو الضخمة المدعّمة بمليون أوروبي في الجزائر أغلبهم مسلحون بأسلحة حربية، الأمر الذي دفع بالبعض إلى القول بأن الثورة انطلقت تقريبًا من الصفر. وفي هذا الإطار سوف نحاول في هذه الدراسة عرض الواقع العسكري الذي عرفته المنطقة الثالثة (القبائل) من خلال التركيز على نشاط المنظمة الخاصة بها والظروف والأوضاع الصعبة التي واجهت قيادة الثورة عشية اندلاعها وعلى رأسها نقص الإمكانيات المادية (المال والسلاح) والإشادة من باب الموضوعية التي يقتضيها البحث التاريخي الأكاديمي الجاد بالأدوار الريادية التي بذلها القادة الأوائل بالمنطقة أمثال: حسين أيت أحمد وكريم بلقاسم وعمر أوعمران وعميروش أيت حمود وعلي ملاح وعبد الرحمن ميرة ومحند أولحاج ومحمد حماي (قاسي) وغيرهم.

أولاً: منطقة القبائل خلال فترة المنظمة الخاصة (١٩٤٧-١٩٥٠)

طرحت مسألة التسليح على المكتب السياسي لحركة الانتصار من أجل الحريات الديمقراطية MTLD منذ شهر مارس ١٩٤٧ وتم الاتفاق بين مناضلي وإطارات الحركة على أن حلها يجب البحث عنه عند الأحزاب المعادية للاستعمار والبلدان العربية والحكومات المهتمة بمعركة التحرير في الجزائر وعلى هذا الأساس أعطيت الأوامر إلى جميع النواب وعلى رأسهم الأمين دباغين المكلف بالشؤون الخارجية للحركة، كي يبحثوا عن مصادر للتزوّد بالسلاح غيران ذلك لم يكلل بنتائج تذكر حيث أن السلاح كان متوفرا،لكن الأزمة المالية التي كانت تتخبط فيها المنظمة الخاصة حالت دون تحقيق ذلك[١].

ويشير المناضل آيت أحمد في تقرير المنظمة الخاصة خلال اجتماع زدّين في ديسمبر ١٩٤٨ بأن المنظمة حددت أهدافها في مجال التسليح بشكل واضح[٢] وهو العمل على توفير الحد الأدنى من السلاح لضمان استمرارية العمل المسلح عشية انطلاقه والمقصود به من الناحية العملية إنشاء مخازن للأسلحة الخفيفة والذخيرة في كامل المناطق[٣]. وفي نفس الإطار ينفرد المجاهد قاضي بشير بشهادة أخرى يشير فيها بأن المجتمعين في مؤتمر زدين قرروا تأسيس قواعد خلفية احتياطا لعملية الحصار الاستعماري في حالة انطلاق الثورة.[٤]

تمكنت المنظمة الخاصة بعد تأسيسها من الحصول على دفعة أولى من السلاح قدرت بـ٣٠٠ قطعة من ليبيا، أما الدفعة الثانية فقد تم جمعها وشرائها من منطقتي الجزائر والقبائل ويعود ذلك إلى نشاط أعضاء ومناضلي المنظمة وفي هذا الإطار ينوه المناضل حسين آيت أحمد في مذكراته بالمبادرة التي قام بها المناضل "واعلي بناي" في شهر ديسمبر ١٩٤٧ بغرض جمع المال لشراء الأسلحة للمنظمة الخاصة، دون استشارة الحزب وفي سرية تامة اتصل ببعض الأشخاص الأغنياء والتجار في منطقة القبائل والجزائر وتمكن من جمع حوالي مليون ونصف مليون فرنك، وبمساعدة "كابا" مناضل من حي بلكور الذي احترف تجارة السوق السوداء استطاع بناي واعلي الحصول على مجموعة معتبرة من الأسلحة تمثلت في حوالي ٢٠ رشاشًا من نوع "شتاين وموزر" واثنين من نوع "تومسون" في حالة سيئة و٣٠ مسدسا جديدا من عيار ٧,٦٥ (٠٩ متساوية الصنع والبقية من نوع "الكويت" كما تحصل على خمسة بنادق حربية وصندوقين من القنابل الهجومية وتم نقل هذه الشحنة إلى منطقة داس على الواجهة البحرية للقبائل، لكي تضم هناك إلى مجموعة من الأسلحة ثم شرائها بنفس المكان[٥] وبالضبط من أماكن معروفة بتجارة السلاح كسوق بني صدقة بأربعاء بني واسيف وتيمزيرت ضواحي سيدي علي بوناب وإيعيكورن بذراع الميزان[٦] ثم تم توزيع هذه الأسلحة على عدة مخابئ بالقبائل

الكبرى منها دار المناضل مهنا السعيد بقرية تيزي ترقة[٧] ويضيف المناضل آيت أحمد في نفس السياق أن محترفي صناعة الأسلحة بقرية دارنا في جرجرة أشرفوا بأنفسهم على تصليحها وصيانتها رغم الممنوعات والرقابة المشددة من طرف المصالح الفرنسية[٨].

وباستثناء هذه الخطوات لا تشير المصادر التاريخية المتوفرة لدينا إلى عمليات بهذا الحجم أما بالنسبة للعمليات من الوزن الخفيف فقد اقتصرت على شراء قطع محدودة من السلاح من الأسواق الداخلية وفي هذا الإطار يذكر المناضل عمر أو عمران في روايته حول إحدى هذه العمليات أنه تم شراء أربع رشاشات و٦٠٠ عبوة من بلكور سنة ١٩٤٨ نقلها المناضل عثمان بلوزداد إلى الاخضرية ثم قام المتحدث بنقلها على ظهره مشيا على الأقدام لمسافة ٧٥كلم من الأخضرية إلى المكان المحدد بمنطقة القبائل[٩].

كما تمكن كل من حسين آيت أحمد ومحمد يوسفي من الحصول على جهاز إرسال واستقبال " EMETTEUR RCEPTEURS" من مقر قيادة إيزنهاور بفندق سان جورج الجزائر حاليًا وفي نفس الوقت قام مناضلون أخرون بغنم كميات معتبرة من الأجهزة الإلكترونية من معامل الطيران المدني بالدار البيضاء (هواري بومدين حاليًا) ونشير إلى أن ذلك الهدوء الصوري الذي طمأن الإدارة الاستعمارية في الفترة الواقعة بين (١٩٤٧-١٩٤٩) كان من أهم العوامل المساعدة التي استفادت من خلالها المنظمة الخاصة لتحقيق أهدافها العسكرية (التموين والتسليح)[١٠].

ثانيًا: أهمية منطقة القبائل في اهتمامات قادة الثورة (لجنة الخمسة)

إنّ الدّارس المتمعن لتطوّرات عملية التحضير للثورة التحريرية يدرك بعمق أهمية جهود لجنة الخمسة ومساعيها في ربط اتصالاتها داخليًا وخارجيًا، من أجل توحيد الصفوف وتوفير الحد الأدنى من الإمكانيات المادية وفي هذا الإطار قام رفقاء بوضياف بمحاولات للاتصال داخليا وعلى وجه الخصوص بممثلي منطقة القبائل وإقناعهم بالانضمام إلى العمل المسلح والمشاركة في تفجير الثورة، واستنادًا إلى شهادة بوضياف أن منطقة القبائل انحازت في بداية الخلاف إلى زعيم الحزب ونظرًا لصعوبة الاتصال بها لم يتمكن مع رفاقه من شرح مواقفهم لمناضليها شرحا كافيًا كما حدث مع المناطق الأخرى من البلاد.[١١] وفي نفس السياق يضيف بوضياف" نظرًا لأهمية هذا الجزء من الوطن (منطقة القبائل) سواء من حيث عدد المناضلين أو من حيث الموقع الاستراتيجي لم يخطر بالبال أن يترك بعيدًا عن الحركة الثورية ولذلك وقعت عدة محاولات للاتصال بهم[١٢]

لقد كان بوضياف يدرك بعمق مدى أهمية منطقة القبائل في عملية التحضير لانطلاق العمل المسلح واستمراريته، خصوصًا بعد التحاق كريم بلقاسم ومساعده عمر أوعمران بقمم جبال جرجرة خلال سنة ١٩٤٧ ونجاحه في إعداد جماعات من شباب المنطقة وصل تعدادها حسب تقرير شفوي وُجّه إلى بوضياف بتاريخ ٠٨ ماي ١٩٥٤ جاء فيه "بفخر واعتزاز بمستطاعي الاعتماد على أكثر من ١٥٠٠ رجل مستعد للعمل الثوري المكثف ضد السلطات الفرنسية[١٣] وهو العدد الذي تعزز في أقل من شهر بمائتي (٢٠٠) مناضل جديد وقد كشف كريم بلقاسم مرة ثانية لبوضياف في أحد اللقاءات بالعاصمة يوم ١٩٥٤/٠٦/٠٣ بأن قادة دوائره السبع بمنطقة القبائل تحوز الآن "١٧٠٠ مناضل مستعد لخوض المعركة وما يقرب من ٥٠٠ مناضل بحوزته بندقية صيد كما يمتلكون على مخابئ للسلاح تتوفر على أكثر من ٣٠٠ قطعة سلاح حربي".[١٤]

وفعلاً بدأت الاتصالات مباشرة عقب اجتماع الـ ٢٢، بعد فشلها قبله من خلال محاولات عديدة مع أواخر شهر ماي وانتهى الأمر باتصال لجنة الخمسة مع المناضل سي حمود بن يحي الذي كلف أيضًا بالاتصال بكريم بلقاسم وعمر أوعمران باعتباره من سكان المنطقة.[١٥] وقد توجت هذه الجهود بلقاء جمع ديدوش مراد ولخضر بن طوبال وعمار بن عودة من جهة وبين عمر أوعمرن من جهة أخرى لإقناعه بالانضمام إلى صفوفهم غير أنهم لم يتوصلوا إلى اتفاق، ثم عقد لقاء ثان جمع ديدوش وبن طوبال وبن مهيدي وزيرود بأوعمران في العاصمة ولم ينته بأي نتيجة تذكر، ثم وقع لقاء ثالث جمع محمد بوضياف وبن بولعيد وكريم بلقاسم[١٦] مع نهاية شهر أوت ١٩٥٤ انتهى بعد مشاورات طويلة بقبول كريم بلقاسم التحاق منطقته القبائل بصفوف الثورة بعد أن أعطى موافقته النهائية على ذلك بانضمامه إلى اللجنة (لجنة الخمسة) التي أصبح العضو السادس فيها رفقة بوضياف وديدوش وبن بولعيد، وبن مهيدي وبيطاط.[١٧] [١٨]

ثالثًا: الثورة التحريرية خلال مرحلة التحضير والانطلاقة في أول نوفمبر١٩٥٤

اغتنمت القيادة المنبثقة عن اجتماع الـ٢٢[١٩] الذي انعقد في شهر جوان ١٩٥٤ فرصة التفكير في أطوار العمل الثوري وفي أول اجتماع لهذه اللجنة في حي القصبة بالجزائر العاصمة، وضع أعضائها الخمسة قانونًا داخليًا قرروا فيه ما يلي:

١- تقوية المنظمة الجديدة عن طريق ضم الأعضاء السابقين للمنظمة الخاصة وهيكلتهم في التنظيم الثوري الجديد.
٢- استئناف التكوين العسكري بالاعتماد على منشورات المنظمة الخاصة التي أعيد طبعها.
٣- تنظيم الفرق التي تتولى جمع السلاح.[٢٠]

وفي نفس الوقت خرجت هذه اللجنة في الأخير بإقرار مبدأين اثنين واستراتيجية من ثلاثة مراحل:

- **أولاً**: اللامركزية في المبادرة والقرار لسبب اتساع الرقعة الجغرافية وضعت الإمكانيات، الأمر الذي يصعب من مهمة جهاز مركزي في عملية تسيير الكفاح بشكل فعال.
- **ثانيًا**: أولوية الداخل عن الخارج أي أن القرارات الهامة يجب أن تصدر من الثوار المقاتلين في الداخل.[٢١]

أما المراحل فهي: مرحلة بناء الهيكل السياسي (جبهة التحرير الوطني) والعسكري (جيش التحرير الوطني) لتحضير العمل المسلح وضمان اتساعه.

- مرحلة تعميم انعدام الأمن على نطاق واسع.
- مرحلة تكوين المناطق (توزيع المسؤوليات).[٢٢]

وبعد كسب تأييد كل من مسؤولي منطقة القبائل وأعضاء نواة الوفد الخارجي بالقاهرة اجتمعت لجنة الستة يوم ١٠ أكتوبر ١٩٥٤ لوضع حصيلة العمل حيث سجلت مايلي:

أ- صعوبة الحصول على الأسلحة.[٢٣]
ب- اتساع الهوة بين التيارين في حركة الانتصار من أجل الحريات الديمقراطية الذين أعلنوا حربًا كلامية بينهم عن طريق الصحافة والمناشير.
ت- فشل الاتصالات مع الشخصيات القديمة في الحزب لكسب تأييدهم.[٢٤]

وبهدف مواصلة العمل الميداني لانطلاق الثورة تم اقتراح رئاسة هذه المبادرة أي زعامة الثورة على المناضل الأمين دباغين وتغطيتها بشخصيته غير أنه رفض ذلك، فاختار أعضاء اللجنة مبدأ القيادة الجماعية وتم تحديد يوم ١٩٥٤/١٠/١٥ كأجل لاندلاع الثورة التحريرية غير أنه بسبب تسرب بعض المعلومات إلى السلطات الاستعمارية تراجع قادة اللجنة عن هذا التاريخ.[٢٥]

التقى قادة لجنة الستة مرة أخرى يوم ١٩٥٤/١٠/٢٤أين تم وضع آخر اللمسات لاندلاع الثورة التحريرية، وقد تم في هذا الاجتماع مناقشة قضايا مهمة وانتهى اللقاء في الأخير إلى القرارات التاريخية التالية:

١- تسمية المنظمة الثورية الجديدة بجبهة التحرير الوطني، حلت محل اللجنة الثورية للوحدة والعمل CRUA، وفتح باب العضوية فيها لكل من يرغب في المساهمة في تحرير الجزائر على يكون الالتحاق بصفة فردية (أي ليس في إطار جمعيات أو أحزاب).
٢- تسمية المنظمة العسكرية بجيش التحرير الوطني يدعم العمل السياسي وينفذ القرارات العسكرية.
٣- تحديد الأفكار الرئيسية لتحرير نداء سياسي يذاع ليلة أول نوفمبر، وهو الذي عرض فيما بعد بنداء أول نوفمبر.[٢٦]
٤- تحديد تاريخ اندلاع الثورة التحريرية وقد كان لاختيار هذا التاريخ وهو ليلة الأحد إلى يوم الاثنين أول نوفمبر ١٩٥٤ كتاريخ لانطلاق العمل المسلح لاعتبارات تكتيكية وعسكرية.
٥- تحديد كلمة السر ليلة أول نوفمبر ١٩٥٤ **(خالد وعقبة).**
٦- تحديد خريطة المناطق وتوزيع المسؤوليات بشكل نهائي لتقسم التراب الوطني إلى خمس مناطق كتالي:

- **المنطقة الأولى** (الأوراس النمامشة) يقودها مصطفى بن بولعيد بمساعدة بشير شيحاني.
- **المنطقة الثانية** (الشمال القسنطيني) يقودها ديدوش مراد بمساعدة زيرود يوسف.
- **المنطقة الثالثة** (القبائل)يقودها كريم بلقاسم بمساعدة عمر أوعمران.
- **المنطقة الرابعة** (الجزائر العاصمة وضواحيها) يقودها رابح بيطاط بمساعدة سويداني بوجمعة.
- **المنطقة الخامسة** (وهران)قائدها محمد العربي بن مهيدي بمساعدة بن عبد المالك رمضان.[٢٧]
- **المنطقة الجنوب (الصحراء)** فإنها تركت إلى وقت لاحق.[٢٨]

أما رئيس اللجنة محمد بوضياف فقد أسندت إليه مهمة ربط كافة هذه القيادات بأعضاء الوفد الخارجي بالإضافة إلى مسؤولية تهريب السلاح إلى المنطقة الغربية.[٢٩]

وفي القاهرة تم تعيين أحمد بن بلة مسؤولا عن إدارة مكتب الثورة (نواة الوفد الخارجي) بالدعاية للثورة الجزائرية وتنوير الرأي العام بالإضافة إلى جمع الأموال والأسلحة.[٣٠]وحول طريقة العمل الثوري يذكر محمد بوضياف في شهادته أنه حددت استراتيجية على ثلاث مراحل زاوجت بين العمل السياسي والعمل العسكري:

١. **المرحلـة الأولى**: إقامـة الجهـاز العسـكري والسـياسي للتحضير والتوسع وكان هدف هذه المرحلة سياسيا نظرا لمفاجأة الجماهير وافتقارها للأخبار. عند الاندلاع فإن مهمة الخلايا السياسية وحتى حاملي السلاح مهمتهم الرئيسية هـي شرح بُعـد وطبيعـة وأهـداف الحركـة للجماهير قصد كسب التعاطف والمساندة.[٣١]

٢. **المرحلة الثانية**: تتمثل في انعدام الأمن الشامل، وذلك بشلّ الحياة الاقتصادية للبلاد عن طريق التخريب والتهديم المتواصل وضرب البنية التحتية للاستعمار والهجوم على مراكز العدو وثكناته وإجبار السكان الأوروبيين على مغادرة البلاد.[٣٢]

٣. **المرحلة الثالثة**: هي مرحلة تكوين مناطق محررة لإيواء نواة قيادة وطنية للثورة تكون صورة مصغرة عن قيادة ما بعد الاستقلال.[٣٣]

رابعًا: الإمكانيات المادية والبشرية عشية انطلاق للثورة التحريرية ١٩٥٤

يُلاحظ الباحث في واقع الثورة العسكري في مرحلته الأولى أن جـل الكتـابات التاريخيـة ومـذكرات المجاهـدين خاليـة مـن الإحصائيات الدقيقة خصوصًا في غياب الوثائق التي تعتبر حجر الأسـاس في البحـث التـاريخي الأكـاديمي وعـلى هـذا الأسـاس سوف نحاول في سياق ضبط الإمكانيات المادية والبشرية التي انطلقت بها الثورة وفقا للتقسيم العسكري الذي وضعه قادة جبهة وجيش التحرير الوطني قبل الانطلاقة الاعتماد على المادة التاريخيـة المتاحـة عمومًا والأكاديميـة الموثقـة منهـا عـلى وجـه الخصوص.

وفي هـذا السـياق يـذكر محمـد بوضـياف بأن الأسـلحة والأموال شكلت المهمة ما قبل الأخيرة بالنسبة للجنة الستة وعلى هذا الأساس كُلفت كل منطقة لتدبير الأموال بوسائلها الخاصة أما الأسلحة فإن المخزن الرئيسي كان يوجد بالأوراس وضم حوالي ٣٠٠ قطعة إيطالية تم شراؤها من ليبيا خلال فترة المنظمة الخاصة خزنت في المرحلة الأولى بوادي سوف ثم نقلت إلى الأوراس أين خبئت في براميل مملوءة بالزيت.[٣٤]

وفي خضـم هـذه الظـروف الصـعبة، شـكلت الإمكانيـات المادية والبشرية ضرورة ملحة بالنسبة لقادة الثورة، باعتبارها من المسائل الحيوية والحساسة لانطلاق واستمرارية أي عمل ثوري. ولعل من أهم الصعوبات التي تواجه الباحث في دراسة هذا الموضوع، قلة المصادر التاريخية (الشهادات الحية والوثائق الأرشيفية) التي تعطي إحصائيات دقيقة حول التعداد المادي والبشـري الـذي انطلقـت بـه الثـورة إلى غايـة مـؤتمر الصـومام ١٩٥٦.[٣٥]

وعـلى الـرغم مـن ذلـك تجمـع الكتـابات التاريخيـة عـلى أن الإمكانيـات الماديـة والبشـرية المتـوفرة عنـد انطـلاق العمـل المسلح ضئيلة جدًا، فهناك نسبة قليلة من المجاهدين لا يتجاوز عـددهم ثلاثـة آلاف مجاهـد مسـلحين ببنـادق الصـيد وبنـادق أوتوماتيكيـة مـن مخلفـات الحـرب العالميـة الثانيـة صـالحة للاستعمال بنسبة العشر، أي أن طلقة واحدة من بين عشرة طلقات نارية تكون صالحة.[٣٦] ويعود السبب في ذلك إلى بقاء هـذه الأسـلحة مـدة طويلـة في باطـن الأرض وبالتـالي تعرضـها للصدأ بسبب الرطوبة بالإضافة إلى أن أسلحة المنظمة الخاصة هي بدورها كانت مدفونة في مطامير تحت الأرض في منطقة الأوراس منذ سنة ١٩٤٧.[٣٧]

وهناك قطع أخرى اشتراها المناضلون بأموالهم الخاصة، من مخلفات الحرب العالمية تأهبا لأي عمل مسلح[٣٨] وتذهب بعض الروايات التاريخية إلى أن عملية شراء الأسلحة لم تكن هي الأخرى معممة على كافة مناطق الجزائر بحيث لم يتمكن مناضلو الشمال القسنطيني من الحصول سوى على ٦ أو ٧ قطع من الأسلحة من مخلفات الحرب العالمية الثانية والمنطقة الوحيدة التي كانت تتربع على كمية لا بأس بها من الأسلحة الأوتوماتيكية هي منطقة الأوراس.[٣٩]

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن كمية الأسلحة التي تم جمعها إلى غاية انطلاق الثورة كانت مخبئة في كل من مخازن الأصنام والأغواط والقبائل والجزائر العاصمة وجبال الأوراس وكوندي سمندو (زيرود يوسف حاليًا)، بعد أن فشلت الشرطة الفرنسـية في الوصـول إلى هـذه المخـابئ إثـر عملياتهـا التفتيشية.[٤٠]

لكن الذي حدث ولم يكن متوقعًا أخلط حسابات محمد بوضياف ورفاقه بشأن حجم الإمكانيات المتوفرة لتفجير الثورة. حيث أن زلزال الأصنام الذي وقع في شهر سبتمبر ١٩٥٤ ترتب عنـه إتـلاف مخـزون الأسـلحة بكاملـه وفقـدان المكلفـين بحراسته،وفي الأغواط سلم السلاح إلى الشرطة الفرنسية عن طريق أحد العملاء أما مخزون منطقة القبائل فقد كان بيد الميصاليين وبذلك لم تسلم سوى مخازن السمندو والأوراس والجزائر التي لا يزيد رصيدها من الأسلحة عن ٣١٠ قطعة وهي من صنع إيطالي أكثر من ربعها غير صالح للاستعمال ويعتبر مخزن الأوراس أغناها حيث كان يتوفر على ٣٠٠ قطعة سلاح

سلمت بعضها إلى كل من منطقة القبائل ومنطقة الشمال القسنطيني في فترة كان المناضلون يترقبون قدوم أسلحة من الخارج.[٤١]

والجدير بالذكر أنه لم يتم دخول أية قطعة سلاح من خارج سواء من المغرب كما كان متفقًا عليه في لقاء برن بسويسرا أو من مصر التي كانت تنتظر قيام الثورة الجزائرية وعليه اعتمد القادة الأوائل على ما كان موجودًا داخل البلاد من الأسلحة التي تم شراءها من ليبيا سنتي ١٩٤٧،١٩٤٨ وقدرت بحوالي ٥٠٠ قطعة سلاح أدخلت إلى الجزائر على طريق غدامس ثم الواد وبسكرة ومشونش وأريس.[٤٢]

أما بخصوص الوضع المالي الذي عرفته انطلاقة الثورة المسلحة فقد كان للرواد الأوائل الدور الأساسي في عملية التمويل، وفي هذا الإطار يمكن الإشادة بالخطوة التي قام بها مصطفى بن بولعيد حيث أقدم على رهن قسم كبير من ممتلكاته الخاصة لفائدة الثورة.[٤٣] ونفس الشيء قام به ديدوش مراد وتمكن الحاج بن علا من جمع تبرعات قدرت قيمتها بـ ١٥٠٠٠٠ فرنك قديم في منطقة الظهرة.[٤٤]

وفي منطقة الشمال القسنطيني تم جمع اشتراكات المنخرطين التي كانت مجمدة من مارس إلى جويلية ١٩٥٤[٤٥] وحسب شهادة المجاهد لخضر بن طوبال أن ميزانية المنطقة الثانية لتفجير الثورة لم تتجاوز ٦٠ ألف فرنك قديم وقد كان بحوزة زيرود يوسف ١٥٠٠٠ فرنك أما عمار بن عودة الذي كان في نواحي عنابة وجد لديه ٤٥٠٠ فرنك قديم[٤٦]

أما بالنسبة لبلاد القبائل فقد احتفظ كريم بلقاسم لنفسه بمجموع الاشتراكات الخاصة بالمصاليين وحسب المناضل أحمد مزغنة أن المكتب السياسي سمح لكريم باستخلاص ١٠% من محصول الاشتراكات لشراء الأسلحة[٤٧].

إضافة إلى الاشتراكات التي كان يقدمها السكان في المدن والأرياف وهو ما يؤكده المناضل المدعو سي ناصر الذي كان مسؤولاً في الجهة الغربية من الوطن قائلاً "تم تكوين لجنة ضمن ١٢ مجاهدًا ممن يعرفون تلك الجهات معرفة صحيحة، وقد تحمل الشعب أعباء التمويل إذ فرضت عليه اشتراكات مع مراعاة طاقة كل واحد." [٤٨] ويذكر المناضل محمد بوضياف أنه بالرغم من هذه الجهود فإنه عندما اقتربت ساعة تفجير الثورة وحان وقت جلب الأسلحة من الخارج لم يتوفر لدى جبهة التحرير الوطني سوى ١٤٠٠٠٠ فرنك[٤٩].

واجهت الثورة التحريرية عشية انطلاقتها مشاكل عدة تتعلق بمتطلبات العمل العسكري كالتحويل والتموين وهياكل التنسيق والتخطيط لعمليات التسليح والتخزين وإنشاء المخابئ وتوزيع الرجال والأسلحة على كافة المناطق العسكرية بشكل محكم، وعلى هذا الأساس حاول قادة الثورة، التكيف مع الظروف والمستجدات ومعالجة هذه المشاكل بدقة خصوصًا في ميدان التسليح.[٥٠]

لقد انطلقت الثورة التحريرية يوم الاثنين أول نوفمبر ١٩٥٤ من خلال ثلاثين عملية عسكرية جريئة شملت كامل التراب الوطني، رغم الاختلاف الذي سجلته من حيث القوة والنتائج التي تمخضت عنها من منطقة إلى أخرى[٥١] الأمر الذي يدفع الباحث إلى محاولة التساؤل عن حجم الإمكانيات المادية والبشرية التي انطلقت بها الثورة عموما والمنطقة الثالثة (القبائل) بشكل خاص ومدى استعدادها وواقعها المادي والعسكري.

خامسًا: المنطقة الثالثة (القبائل): الموقع الجغرافي والأهمية العسكرية

عين على رأسها كريم بلقاسم بمساعدة أعمر أوعمران ومحمد زعموم، وتقع المنطقة الثالثة (القبائل) التي سوف تصبح الولاية الثالثة بعد مؤتمر الصومام ١٩٥٦ شرق الجزائر، وتتألف من مجموعة هامة من الجبال الوعرة، منها جبال جرجرة ووادي الصومام، وجبال البيبان، وجبال البابور، وقسم من السهول العليا السطايفية، والهضاب العليا الشرقية، وجنوب غرب جبال الحضنة، فهي تمتد من ساحل البحر شمالا من شرق أوقاس وبجاية إلى زموري حاليًا وبوسعادة جنوبًا. أما على حسب التقسيم الذي حددته قيادات الثورة بين الولايات الثورية سنة ١٩٥٦[٥٢] فقد أصبح يحدها شمالاً سوق الاثنين ومن الجنوب، خط السكة الحديدية الرابط بين قسنطينة والجزائر إلى سطيف ثم تمتد إلى برج بوعريريج والمسيلة وعين الحجل وسور الغزلان وعين بسام والأخضرية ومن الغرب الثنية وكوربي مارين ومن الشرق سطيف خراطة.[٥٣]

يتألف سطح منطقة القبائل من تضاريس متنوعة سهلية وجبلية، فالكتل الجبلية تنتمي إلى سلسلة الأطلس التلي الممتدة من الشرق إلى الغرب، وتحديدًا إلى الكتلة الجبلية الشرقية، التي يفصلها عن الكتلة الغربية جبال زكار ومليانة؛ ابتداءً من جبال البليدة والأطلس البليدي، تمتد هذه المنطقة في إطارها الجبلي ابتداء من شرق جبال بوزقزة الصعبة التي تشرف على العاصمة، ثم جبال جرجرة وجبال البابور والبيبان وهي مسطحة في جزئها الجنوبي تقريبًا. فجبال البيبان تمتد من صور الغزلان غربًا، وسطيف شرقا، وبرج بوعريريج جنوبًا، وخراطة وقرقور شمالاً، ويفصلها وادي الصومام عن جبال

جرجرة في الغرب مضايقها، وتشتهر بخوانقها العميقة والضيقة وبحدة قممها وشدة انحدارها، ومن أشهر خوانقها أبواب الحديد، وتمثل هذه الجبال صلة الوصل بين الشرق القسنطيني والجزائر العاصمة جنوبًا، كما تحتل جبال جرجرة رقعة واسعة واستراتيجية مهمة، وتمتد من وادي يسر غربًا على مشارف سهل المتيجة إلى وادي الصومام شرقًا على مشارف جبال البابور والبيبان، وهي ذات غطاء نباتي كثيف.[٥٤]

غطت المنطقة الثالثة ناحية تيزي وزو ووادي الصومام ووادي الساحل وطريق البويرة والأخضرية وبومرداس وقد عمت الثورة معظم نواحيها[٥٥] بعد أن قسمت إلى خمسة نواحي، توزعوا على قيادتها رفقاء كريم بلقاسم ومن أشهر هؤلاء كان: علي زعموم وشقيقه محمد المدعو (سي صالح) ودهيليس بن سليمان، (سي صادق) وعلي ملاح (سي شريف) ومحمدي السعيد (سي ناصر) والسعيد يازوران (بريروش) ثم انضم إليهم عميروش آيت حمود وعبد الرحمن ميرة ومحند أولحاج ومحمد حماي (قاسي) وغيرهم.

وقد شكلت منطقة القبائل المعقل الثاني للثورة[٥٦] بعد الأوراس عند انطلاقتها بالنظر إلى الثقل الكبير لهذه المنطقة من الناحيتين التنظيمية والسياسية باعتبارها أكثر مناطق البلاد كثافة بالمناضلين والإطارات السياسية في صفوف التيار الثوري من جهة وبفعل الحاجة الملحة إلى العدد والعدة بالنسبة إلى مهندسي الثورة الأوائل من جهة أخرى وقد سمحت هذه الإمكانيات المادية والبشرية وطبيعة الظروف والمستجدات لقادة منطقة القبائل من استدراك الموقف قبل ثلاثة أشهر فقط من الانطلاقة وتمكن بوضياف مع رفقائه في لجنة الخمسة من إقناعهم بإعطاء منطقتهم وضعًا تنظيميًا على قدم المساواة مع بقية المناطق التاريخية الأخرى.[٥٧]

سادسًا: الإمكانيات المادية والبشرية للمنطقة الثالثة (القبائل) عشية الانطلاقة (أول نوفمبر١٩٥٤)

إن الإحصائيات المتوفرة حول تعداد الإمكانيات المادية والبشرية في منطقة القبائل تتباين بشدة من مصدر إلى آخر وفي هذا الإطار يشير كل من مراد صديقي ومصطفى هشماوي إلى أن عدد المجاهدين في المنطقة الثالثة وصل إلى ٥٧٠ مجاهدًا، لم يتوفر لديهم سوى ٨٨ بندقية مختلفة الصنع بين إيطالية وفرنسية وسلاح صيد بالإضافة إلى ثلاثة آلاف طلقة فقط لجميع أنواع الأسلحة [٥٨] بينما يذهب كل من محمد حربي وإيف كوريار- Yves courriere إلى تقدير حجم الإمكانيات في المنطقة بـ ٤٥٠ رجل[٥٩] الأمر الذي يبين أن هذه المنطقة لوحدها كانت تشكل ٤٥% من صفوف نواة جيش التحرير عشية اندلاع الثورة حسب ما ورد في سياق إشارتهما إلى عدد مفجري الثورة في مجمل مناطق التراب الوطني، غير أن هذه التقديرات لا تجد قبولا عند جولبار مينيي Gilbert Meynies الذي يذكر بأن منطقة القبائل ضمت ما بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ رجل حيث رتبها في المرتبة الثانية بعد منطقة الأوراس التي ضمت حسب تقديراته ٥٠٠ رجل[٦٠].

إن ما مذكره جولبار مينيي يمكن أن يكون أقرب إلى الصحة مقارنة مع التقديرات التي أوردها كل من محمد حربي وإيف كوريار لأن معظم الإحصائيات المستقاة من الكتابات الوطنية ومن الشهادات الحية لعدد من المجاهدين عبر مختلف المناطق التاريخية تتقاطع فيما بينها حول فكرة جوهرية مفادها أن منطقة الأوراس اعتبرت أكثر المناطق عدة وعددًا عشية اندلاع الثورة بينما شكّلت منطقة القبائل المعقل الثاني من حيث الأهمية التنظيمية والعسكرية.

إلا أنه بعد انطلاق العمل المسلح وتطور النشاط الثوري ارتفع عدد مجاهدي المنطقة الثالثة، حيث يقدر يوسف مناصرية حجم القوات العسكرية في المنطقة الثالثة إلى غاية شهر أكتوبر ١٩٥٥ بـ ٥٠٠ رجل مسلحين بنسبة ٣٠% سلاح حربي و٧٠% سلاح صيد ولها ٥٠٠ مجاهد يتبعون المسلحين وجاهزين كذلك لحمل السلاح كما قدر رصيدها المالي بمليون فرنك[٦١].

ويتفق الكثير من قادة الثورة الأوائل على أن المنطقة الثالثة شكّلت فعلاً القلعة الثانية للثورة من حيث الأهمية التنظيمية والعسكرية بعد منطقة الأوراس التي كانت أكثر مناطق الثورة عدة وعددًا عشية الانطلاقة وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن القيادة المحلية دخلت ساحة العمل الميداني مع بداية سنة ١٩٥٥ وفي ربيع نفس السنة انتشرت أفواج شبه مسلحة تابعة لجيش التحرير الوطني في هذه المنطقة باتجاه الغرب بقيادة عمر أو عمران ونحو الجنوب أين يقع إقليم بوسعادة والجلفة بقيادة علي ملاح.[٦٢] وقد تمكن مجاهدو المنطقة بين سنتي ١٩٥٤ و١٩٥٥ من الحصول على أسلحة متنوعة داخليا وبطرق مختلف وقد ارتكزت إستراتيجية قيادة المنطقة(كريم بلقاسم- عمر أوعمران) أساسًا على تسليح المجاهدين من خلال الكمائن والهجمات على دوريات العدو ومراكزه العسكرية[٦٣] بالإضافة إلى الأسلحة التي "أهدتها" الإدارة الاستعمارية لعدد كبير من الجزائريين ودفعت

بهم لضرب الثورة واختراقها من الداخل في سياق مؤامرة دبرها لاكوست[٦٤] وشركائه.

وإذا كانت قيادة الثورة في المنطقة الثانية قد اعتمدت على عمليات الفرار من الجيش الفرنسي كتكتيك عسكري لجمع الأسلحة والذخيرة التي شكّلت أهم مصدر داخلي بالنسبة للثوار في نظر زيرود ورفقائه فإنّ الأمر كان بأسلوب آخر في المنطقة الثالثة التي نجحت في إفشال عملية "العصفور الأزرق" وغنم الكثير من الأسلحة والذخيرة دون أي عناء.

ويمكن رصد جهود قيادة المنطقة في البحث عن مصادر السلاح الداخلية انطلاقًا مما قاله كريم بلقاسم للمجاهدين الذين جمعهم له مساعده علي زعموم في إغيل إيمولن بعد مدة قصيرة من انطلاق الثورة"... جئتم للثورة عن اختيار واقتناع وإدراك وقبلتم أن تغادروا وجميع عائلاتكم وأعمالكم، وأعاهدكم بأننا سنحرر البلاد إنه عمل لا رجعة فيه... إنني أعلم بأنّ هناك حاجة تشغلكم. وعدناكم بالأسلحة، ولكنها لا توجد هنا إنها حقيقة....إن الأسلحة يمكن أن تكون قد حجزت في الطريق في بعض الأماكن من طرف قوات العدو وهي في طريقها إلينا وأمامنا جيش عسكري قوي يزّود باستمرار بالعتاد، ونحن لا نملك شيئًا فماذا نفعل؟ قولوا أنتم البعض يحارب بأسلحة متوسطة أحسن منا وبإرادة لا تحدو في بعض ثورات التحرير هناك بندقية واحدة لأثني عشر رجلاً يربطونها بحبل ويحارب بها الواحد في يسقط فيسحبها آخر بالحبل ليحارب بها، وهكذا فكروا جيدًا وبإمكانكم أن تفكروا فينا نحن رؤساء كم الذين وعدناكم بالأسلحة ونحن هنا معكم وبينكم ومن جملتكم في الجبل نخوض معًا وجميعًا الحرب بالأسلحة التي لدينا والتي سوف نغنمها من العدو، وقلت لكم أنها التضحية الكاملة وإلى النهاية، سنضحي حتى نغنم الأسلحة في الجبهة...".[٦٥]

بدأت جهود قيادة المنطقة الثالثة في عملية جمع السلاح منذ الانطلاقة في أول نوفمبر ١٩٥٤ وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى أن لجنة الستة في اجتماعها الأخير "ببوانت بيسكاد"، درست مسألة التسليح بعد تحديد الأهداف التي ينبغي مهاجمتها في أول نوفمبر وفي نفس الوقت قررت بأن الأسلحة التي ستغنم من ثكنة بيزو في البليدة وثكنة بوفاريك في إطار الهجومات المشتركة بين قياديي الثالثة والرابعة سوف تقسّم مع أقرب منطقة الأمر الذي يفسر وجود مجموعة من مجاهدي المنطقة الثالثة (القبائل) أشرف على قيادتهم عمر أو عمران بنفسه للقيام بعدة عمليات نواحي البليدة وضواحي الجزائر العاصمة لمساعدة المنطقة الرابعة وإنجاح عملية الانطلاقة من جهة وغنم الأسلحة من جهة أخرى.[٦٦]

وفي الوقت نفسه كلف كريم بلقاسم عميروش آيت حمودة بمهمة سحب كل الأسلحة الموجودة لدى الشعب في القرى والمداشر لتسليح المجاهدين والعمل على انتزاع الأسلحة والذخيرة بكل الطرق والوسائل من قوات العدو بعد أن عيّنه مسؤولاً على منطقة حوض وادي الصومام الممتدة من البويرة إلى بجاية.[٦٧] وتذهب بعض الدراسات إلى أنّ العمليات العسكرية في هذه المنطقة لم تبدأ إلاّ في ربيع ١٩٥٥ في شكل كمائن نُصبت خصيصًا للحصول على الأسلحة بالإضافة إلى أن نشاطات المجاهدين تركزّت أساسًا على إعدام الخونة وحراس الغابات و" القُيّاد" المقربين من الإدارة الاستعمارية وكلما أعدم خائن استفاد مجاهد من سلاحه.[٦٨]

وفي مقابل ذلك كان لزامًا على مجاهدي المنطقة في نفس الوقت مجابهة فلول حركة بلونيس التي اتخذت من المنطقة مرتعًا خصبا لنشاطها قبل تحركها نحو الجنوب. وعند هذا المقام لابد من الإشارة إلى موضوع جد هام ارتبطت حيثياته بروبير لاكوست يندرج ضمن الإستراتيجية الفرنسية في مواجهة الثورة لارتباطه المباشر بصلب هذه الدراسة وكما هو معروف أن الساسة والعسكريون الفرنسيون حاولوا دائمًا بشتى الطرق والوسائل اختراق الثورة والقضاء عليها بدءًا بإعلان حالة الطوارئ، وتشكيل وحدات الميليشيا الأولى من المستوطنين الأوروبيين ثم زيادة القوات العسكرية بالجزائر يدعمها سلاح الطيران والبحرية.[٦٩]

وقد أعتبر روبير لاكوست أشهر من نار على علم في البحث عن كافة السبل والوسائل التي تمكّنه من القضاء على الثورة عسكريًا، ومن بين أهم الوسائل التي اهتدى إليها لاكوست مشروع سري شرع في إعداده من قبل جاك سوستال[٧٠] عرف في تاريخ "حرب الجزائر" بعملية "الطائر الأزرق" أو"العصفور الأزرق"التي وقعت فصولها في المنطقة الثالثة[٧١]. اعتمد المشروع على فكرة تسليح عدد من الجزائريين الموالين لفرنسا من أجل إرسالهم إلى الجبال للانضمام إلى صفوف جيش التحرير الوطني بأسلحتهم بصفة الفرار من السلطات الاستعمارية والهدف من كل ذلك تصفية قادة الجبهة والقضاء على الثورة واختار لاكوست من أجل نجاح مؤامرته ثلاث شخصيات اعتقدت إدارة لاكوست بأنهم من أوفياء عملائها وهم أحمد زيدات، والطاهر عشيش ومحمد يازورن، وكلفم بتجنيد مجموعات تتشكل من ١٥ إلى ٢٠ شخصًا من الموالين لفرنسا ثم

تسليحهم تحت إشراف إدارة تتكون من ضباط فرنسيين لمحاربة قوات جيش التحرير الوطني.[٧٢]

وعلى هذا الأساس شرع هؤلاء المناضلين تنفيذ المهمة التي كلفوا بها واتصلوا سرًا بقيادة الثورة في المنطقة الثالثة التي كان على رأسها كل من كريم بلقاسم ومحمدي سعيد وأخبروهم بأهداف مخطط لاكوست ونواياه لذلك لم يتأخر كريم وكلفهم مباشرة بتلبية طلب الولاية العامة على أن تقوم الجبهة باختيار وتعيين هؤلاء الجنود سرًا[٧٣] وفي ظرف قياسي تم تجنيد وتسليح العديد من المجاهدين وفي هذا الإطار يذكر المجاهد عبد الحفيظ أمقران بأن قيادة الثورة كانت على ثقة تامة بالعناصر الثورية المخلصة وذلك طلبت منهم مواصلة الطريق والتظاهر بالوفاء وهكذا ظلّوا على اتصال بالأوساط الاستعمارية التي دأبت على تسليحهم واستمرت المؤامرة ما يقرب التسعة أشهر إلى أن وصل عدد المسلحين بهذه الطريقة إلى ما يزيد عن ٣٦٠ شخصًا. أما السلاح فقد بلغ ما يزيد عن ٤٠٠ قطعة بالإضافة إلى اللباس والمال الكثير، قدمته خزينة الاستعمار لجيش التحرير الوطني دون أن تتفطن لذلك[٧٤].

وقبل أن تتفطن الإدارة الاستعمارية إلى هذه العملية فر هؤلاء المسلحون بأسلحتهم والتحقوا كلهم بصفوف المجاهدين في المنطقة الثالثة بعد أن كشفت قيادة الثورة عن تفاصيل الخطة عقب مؤتمر الصومام في الفاتح من سبتمبر عندما أعطيت الأوامر إلى جميع الذين شاركوا في عملية الطير الأزرق بالقيام في ليلة واحدة بهجوم على مراكز العدو التي كانوا على اتصال دائم بها ثم الالتحاق بسلاحهم وعتادهم بصفوف جيش التحرير الوطني[٧٥]، الأمر الذي ساعد المجاهدين فيما بعد للحصول على الكثير من السلاح عقب هذه العملية التي عرفت عند العسكريين الفرنسيين بالطائر الأزرق[٧٦].

يمكن للباحث في هذا الموضوع أن يستشف مدى التطور الذي حققه النشاط الثوري في كامل المناطق مع مرور الوقت من خلال تنوع عملياته العسكرية التي اعتمدت أغلب الأحيان على أسلوب حرب العصابات التي سهلت في الحصول على المزيد من الأسلحة والذخيرة وفي هذا الإطار يعترف الضابط الفرنسي كلوسترمان بصفته أبرز كبار ضباط الطيران الفرنسي في "حرب الجزائر" أمام المجلس الوطني الفرنسي بهزائم جيش الاحتلال وتزوير الحكومات الفرنسية للحقائق قائلاً " بأن كل نوع من العمليات العسكرية يوزن بكمية السلاح الذي يناسبه ... وفي الجزائر يعتبر السلاح الرئيسي الذي توزن به أهمية العمليات هو البندقية الرشاشة والمدفع الرشاش عيار ٥،٧-و٣،٣ .... لقد كنا في ديسمبر ١٩٥٥ نواجه فرقًا مسلحة مبعثرة في جهات متباعدة صعبة المنال مثل القبائل والأوراس النمامشة وكان عدد الفرق بأكملها لا يتجاوز الخمسة ألاف رجل أما في بعض نواحي القبائل مثل جبال البابور كانت الفرق المسلحة في أول الأمر متكونة من رجال ينقصهم التكوين السياسي .... وقد كان المدنيون الجزائريون في أول الأمر يؤيدون الثوار تأييدًا سلبيًا أو إيجابيًا لكنه تأييد لا يتجاوز عشر السكان غير أن آمالهم التي وضعوها في الحكومة الاشتراكية تحطمت بعد حوادث ٦ فيفري وجعلت جميع الجزائريين يلتحمون بقادة الثورة..... وفي هذه الأثناء كان الثوار ينتظمون ويحصلون على مزيد من الأسلحة الآتية بالخصوص من الغنائم التي يغنمها الجزائريون من العسكريين الفرنسيين الذين يسقطون في المكامن فبين فاتح ديسمبر ١٩٥٥ وفاتح ديسمبر ١٩٥٦ نصب الجزائريون ٢٨٠ كمينًا غنموا في كل كمين ما لا يقل عن معدل ١٠ بنادق حربية وثلاث رشاشات وبندقية رشاشة مع ما يلزم من ذخائر حربية ... فإذا أضفنا إلى ذلك فرار المسلمين من الجند الفرنسي، وانضمامهم إلى الثورة فهمنا كيف استطاع الثوار أن ينتقلوا من المرحلة الثانية من تكتيكهم الحربي وهي المرحلة التي صاروا يستطيعون خلالها أن يقوموا بهجومات كبيرة...".[٧٧]

وفي نفس الإطار يشير الصحفي الإيطالي "ماريو جيوفانا" في تقرير صحفي نشرته جريدة الكوريري دي ترياسن الإيطالية بأنه لم يعد أثر للسلاح الروسي ضمن العتاد الذي يستخدمه جيش التحرير الوطني وكلها مكونة من البنادق الحربية والبنادق الرشاشة ومعظمها غنائم الثوار من الجيش الفرنسي. أما بقية الأسلحة فهي من صنع إنجليزي أو أمريكي أو إيطالي ..."[٧٨].

ومما يؤكد صحة هاتين الشهادتين ما ذكره كل من كريم بلقاسم ومحمود شريف عضوا لجنة التنسيق والتنفيذ في تصريح خاص لصحيفة المجاهد حول الوضعية العسكرية داخل الجزائر وبالخصوص عنصر العتاد والجنود أهم ما جاء فيه: إن جيش التحرير الوطني أصبح مجهز بأسلحة أوتوماتيكية حديثة ألحقت خسائر فادحة في صفوف العدو الأمر الذي دفع إلى التهرب من المواجهة قسم كبير من هذه الأسلحة يأتي من الغنائم التي يغنمها المجاهدون من العدو كما أن الانضمام الجماعية الضخمة التي يلتحق فيها الجنود بصفوف الثورة مستصحبين عتادهم وأسلحتهم التي شكلت مصدرًا من مصادر الأسلحة فالمدافع الرشاشة نوع ١٢/٧ مثلا والبنادق الرشاشة نوع ٢٩/ ٣٤ والمسدسات الرشاشة ورشاشات طومسون وبنادق قاران التي امتلكها الكثير من الثوار وكل هذه الأسلحة جاءت مباشرة

من الجيش الفرنسي. ويدّل مصدر هذه الأسلحة على أن تسعة أعشار العتاد الفرنسي يأتي من أمريكا وقسم آخر من أسلحة الثوار يتّم شراؤه من الخارج ثم ينقل إلى الداخل...".[٧٩]

سابعًا: وضعية المنطقة الثالثة (القبائل) عشية مؤتمر الصومام ٢٠ أوت ١٩٥٦

بالعودة إلى محاضر جلسات ومقتطفات الوثيقة الأساسية التي أعدّها القادة الحاضرون في مؤتمر الصومام وبعد الاستماع إلى قراءة التقارير السياسية والعسكرية للولايات (الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة)، يمكن للباحث الوقوف على حجم الإمكانيات المادية (التجنيد-التسليح-الأموال) وأخذ فكرة دقيقة بشكل كاف عن القوة المادية للثورة بعد ٢١ شهرًا من الانطلاقة:

لقد قدمت المنطقة الثالثة تقريرًا شفويًا قام بعرضه كريم بلقاسم حيث أشار بأن منطقته تمتلك حاليًا (٨٧٠٤٤) مناضل أو (٧٤٧٠) مسبلاً و(٣١٠٠) مجاهدًا، أما عن حجم الأسلحة التي بحوزتها فيشير إلى ٤٠٤ بندقية حربية و١٠٦ رشاش و٨٠ بنادق رشاش على نوعين أرن من نوع FM- Bart وأربعة أخرى من نوع ٢٩/٢٤ و٤٤٢٥ بندقية صيد. أما بالنسبة لرصيدها المالي فقد بلغ عشية المؤتمر ٤٤٥ مليون فرنك مع الملاحظة أن المداخل الشهرية بالمنطقة حاليا تبلغ معدل ١١٠ مليون فرنك والمصاريف الشهرية بمعدل ٥٥ مليون فرتك وقد قدر حجم الأسلحة المتوفرة بمختلف أنواعها ب ٤٩٤٣ قطعة.[٨٠]

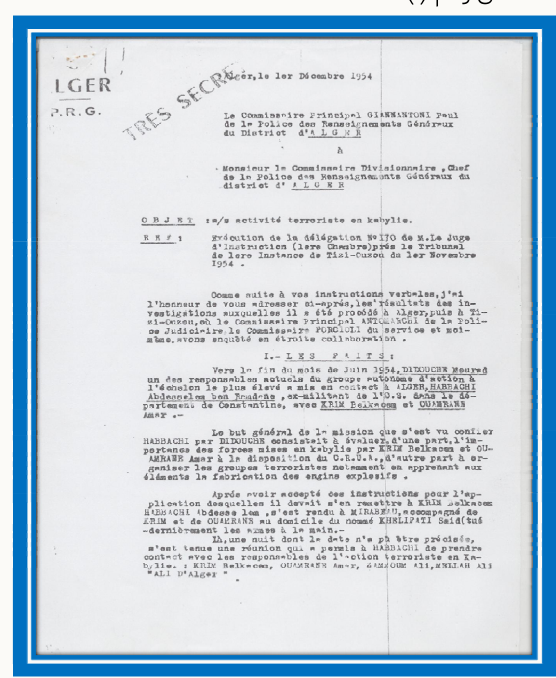
خاتِمَةٌ

مما سبق الإشارة إليه في صلب هذا البحث يبدو جليًا للباحث في هذا الموضوع (الواقع العسكري للثورة الجزائرية في المنطقة الثالثة-القبائل (١٩٥٤-١٩٥٦) الدور الذي لعبته المنطقة في المرحلة الأولى من عمر الثورة التحريرية حيث أنها كانت من أقوى المناطق في عملية التحضيرات والتعبئة المادية والمعنوية لاندلاع الثورة التحريرية عشية انطلاقتها في انوفمبر١٩٥٤باعتبارها القلعة الثانية للثورة بعد الأوراس.

وعلى الرغم من الصعوبات والمشاكل التي واجهتها الثورة في مرحلتها الأولى بفعل السياسة الاستعمارية الهادفة إلى محاولة محاصرة الثورة عن طريق جملة من المخططات والمشاريع مثل إنشاء المناطق المحرمة والمحتشدات والفروع الإدارية الخاصة لمنع الجماهير الجزائرية من التواصل أو الالتفاف حول جيش التحرير الوطني، وبعدها بدأ تفكير المكتب الخامس للجيش الفرنسي في وضع تصورات جديدة لإعادة هيكلة واستغلال العناصر العميلة في المواجهة العسكرية مثل فرق القومية والحركى والدفاع الذاتي وغيرها، وشرع في تنفيذ أولى عمليات اختراق لجيش التحرير الوطني المعروفة باسم عملية العصفور الأزرق في المنطقة الثالثة (منطقة القبائل) بهدف اختراق الثورة وخلق عملاء وخونة ومعاقل مضادة للثورة إلا أن قيادة المنطقة تمكنت من تجاوز الكثير من الأزمات وتكيفت مع الظروف الحرجة بفضل الدهاء والحنكة السياسية والعسكرية لقادتها الذين يعود لهم الفضل في بعث وتيرة النشاط الثوري وتوفير كامل الترتيبات لعقد أول مؤتمر وطني يجمع قادة الثورة التحريرية في صائفة ١٩٥٦.

الملاحق

الملحق رقم (١)



LGER
P.R.G.

TRES SECRET

Alger, le 1er Décembre 1954

Le Commissaire Principal GIANNANTONI Paul
de la Police des Renseignements Généraux
du District d'ALGER

à

Monsieur le Commissaire Divisionnaire, Chef
de la Police des Renseignements Généraux du
district d'ALGER

OBJET : s/s activité terroriste en kabylie.

REF : Exécution de la délégation N° 170 de M. Le Juge d'Instruction (1ere Chambre) prés le Tribunal de 1ere Instance de Tizi-Ouzou du 1er Novembre 1954.

Comme suite à vos instructions verbales, j'ai l'honneur de vous adresser ci-aprés, les résultats des investigations auxquelles il a été procédé à Alger, puis à Tizi-Ouzou, où le Commissaire Principal ANTOMARCHI de la Police Judiciaire, le Commissaire PORCIOLI du service et moi-même, avons enquêté en étroite collaboration.

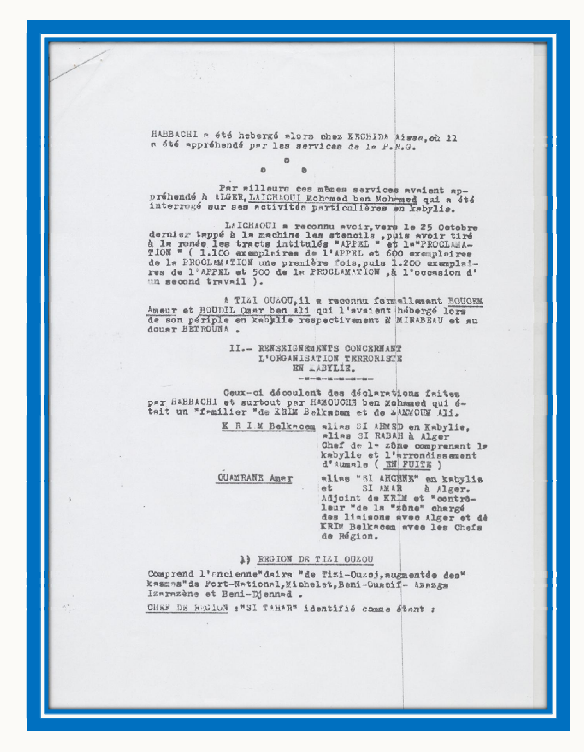
I.- LES FAITS :

Vers la fin du mois de Juin 1954, DIDOUCHE Mourad un des responsables actuels du groupe autonome d'action à l'échelon le plus élevé a mis en contact à ALGER, HABBACHI Abdesselem ben Ramdane, ex-militant de l'O.S. dans le département de Constantine, avec KRIM Belkacem et OUAMRANE Amar.-

Le but général de la mission que s'est vu confier HABBACHI par DIDOUCHE consistait à évaluer, d'une part, l'importance des forces mises en kabylie par KRIM Belkacem et OUAMRANE Amar à la disposition du C.R.U.A., d'autre part à organiser les groupes terroristes notamment en apprenant aux éléments la fabrication des engins explosifs.

Aprés avoir accepté ces instructions pour l'application desquelles il devait s'en remettre à KRIM Belkacem HABBACHI Abdesselem, s'est rendu à MIRABEAU, accompagné de KRIM et de OUAMRANE au domicile du nommé KHELIFATI Saïd (tué dernièrement les armes à la main.-

Là, une nuit dont la date n'a pû être précisée, s'est tenue une réunion qui a permis à HABBACHI de prendre contact avec les responsables de l'action terroriste en Kabylie. : KRIM Belkacem, OUAMRANE Amar, ZAMMOUM Ali, MELLAH Ali "ALI D'Alger".



HABBACHI a été hebergé alors chez KECHIDA Aissa, où il a été appréhendé par les services de la P.R.G.

Par ailleurs ces mêmes services avaient appréhendé à ALGER, LAICHAOUI Mohamed ben Mohamed qui a été interrogé sur ses activités particulières en kabylie.

LAICHAOUI a reconnu avoir, vers le 25 Octobre dernier tappé à la machine les stencils, puis avoir tiré à la ronée les tracts intitulés "APPEL" et la "PROCLAMATION" (1.100 exemplaires de l'APPEL et 600 exemplaires de la PROCLAMATION une première fois, puis 1.200 exemplaires de l'APPEL et 500 de la PROCLAMATION, à l'occasion d'un second travail).

A TIZI OUZOU, il a reconnu formellement BOUGEM Ameur et BOUDIL Omar ben Ali qui l'avaient hébergé lors de son périple en kabylie respectivement à MIRABEAU et au douar BETROUNA.

II.- RENSEIGNEMENTS CONCERNANT
L'ORGANISATION TERRORISTE
EN KABYLIE.

Ceux-ci découlent des déclarations faites par HABBACHI et surtout par HAMOUCHE ben Mohamed qui était un "familier" de KRIM Belkacem et de ZAMMOUM Ali.

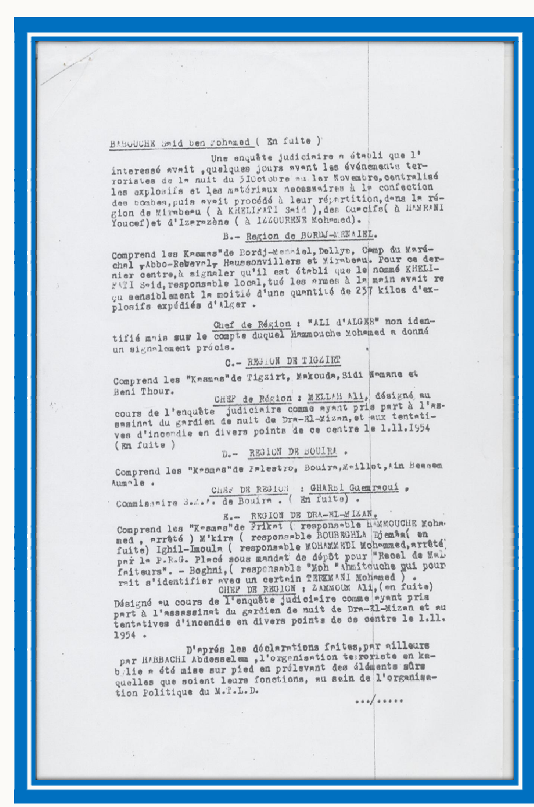
KRIM Belkacem alias SI AHMED en Kabylie, alias SI RABAH à Alger Chef de la zône comprenant la kabylie et l'arrondissement d'Aumale (EN FUITE)

OUAMRANE Amar alias "SI AHCENE" en kabylie et SI AMAR à Alger. Adjoint de KRIM et "contrôleur" de la "zône" chargé des liaisons avec Alger et de KRIM Belkacem avec les Chefs de Région.

A) REGION DE TIZI OUZOU

Comprend l'ancienne "daira" de Tizi-Ouzou, augmentée des "kasmas" de Fort-National, Michelet, Beni-Ouacif- Azazga Izarazène et Beni-Djennad.

CHEF DE REGION : "SI TAHAR" identifié comme étant :



HAMOUCHE Said ben Mohamed (En fuite)

Une enquête judiciaire a établi que l'interessé avait, quelques jours avant les événements terroristes de la nuit du 31 Octobre au 1er Novembre, centralisé les explosifs et les matériaux necessaires à la confection des bombes, puis avait procédé à leur répartition, dans la région de Mirabeau (à KHELIFATI Said), des Ouacifs (à HAMRANI Youcef) et d'Izarazène (à IZZOURENE Mohamed).

B.- Region de BORDJ-MENAIEL.

Comprend les Kasmas" de Bordj-Menaiel, Dellys, Camp du Maréchal, Abbo-Rebeval, Haussonvillers et Mirabeau. Pour ce dernier centre, à signaler qu'il est établi que le nommé KHELIFATI Said, responsable local, tué les armes à la main avait reçu sensiblement la moitié d'une quantité de 237 kilos d'explosifs expédiés d'Alger.

Chef de Région : "ALI d'ALGER" non identifié mais sur le compte duquel Hammouche Mohamed a donné un signalement précis.

C.- REGION DE TIGZIRT

Comprend les "Kasmas" de Tigzirt, Makouda, Sidi Namane et Beni Thour.

CHEF de Région : MELLAH Ali, désigné au cours de l'enquête judiciaire comme ayant pris part à l'assassinat du gardien de nuit de Dra-El-Mizan, et aux tentatives d'incendie en divers points de ce centre le 1.11.1954 (En fuite)

D.- REGION DE BOUIRA.

Comprend les "Kasmas" de Palestro, Bouira, Maillot, Ain Bessem Aumale.

CHEF DE REGION : GHARBI Guemraoui, Commissaire S.A.S. de Bouira. (En fuite).

E.- REGION DE DRA-EL-MIZAN.

Comprend les "Kasmas" de Frikat (responsable HAMMOUCHE Mohamed, arrêté) M'kira (responsable BOUBEGHLA Djemâa (en fuite) Ighil-Imoula (responsable MOHAMMEDI Mohammed, arrêté par la P.R.G. Placé sous mandat de dépôt pour "Recel de Malfaiteurs". - Boghni, (responsable "Moh "Ahmitouche qui pourrait s'identifier avec un certain TERKMANI Mohamed).

CHEF DE REGION : ZAMMOUM Ali, (en fuite)

Désigné au cours de l'enquête judiciaire comme ayant pris part à l'assassinat du gardien de nuit de Dra-El-Mizan et au tentatives d'incendie en divers points de ce centre le 1.11.1954.

D'aprés les déclarations faites, par ailleurs par HABBACHI Abdesselem, l'organisation terroriste en kabylie a été mise sur pied en prélevant des éléments sûrs quelles que soient leurs fonctions, au sein de l'organisation Politique du M.T.L.D.

.../.....

التحضيرات المادية وتنظيم الثوار وتوزيعهم في المنطقة الثالثة (منطقة القبائل) بقيادة كريم بلقاسم قبل التحاقه بركب الثورة في انوفمبر ١٩٥٤.

ملاحظة: الهيكلة والتنظيم يعود إلى التقسيم العسكري السابق الذي وضعته المنظمة الخاصة (L'OS) قبل اكتشافها في مارس ١٩٥٠.

الوثيقة صادرة عن تقارير شرطة الاستعلامات العامة الفرنسية PRG (أرشيف خاص)

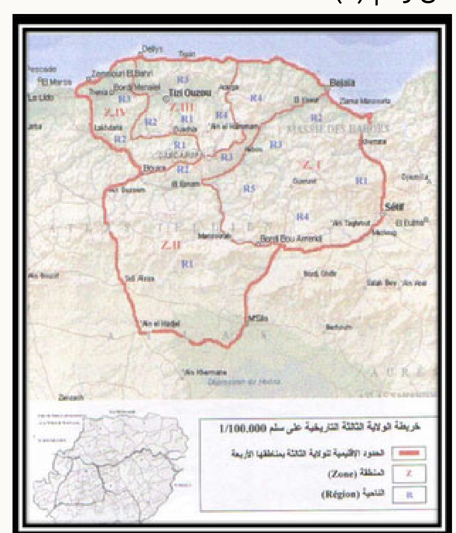
الملحق رقم (٢)



مجموعة الستة التاريخية التي فجرت الثورة التحريرية في الفاتح نوفمبر ١٩٥٤. القادة الستة وهم: مصطفى بن بولعيد والعربي بن مهيدي ومحمد بوضياف وكريم بلقاسم وديدوش مراد ورابح بيطاط.

المصدر: مكتبة المتحف الوطني للمجاهد. رياض الفتح بالجزائر العاصمة.

الملحق رقم (٣)



خريطة الولاية الثالثة التاريخية (القبائل الكبرى) التي انبثقت عن التقسيمات السياسية والإدارية التي نص عليها مشروع أرضية مؤتمر الصومام ٢٠ أوت ١٩٥٦

المصدر: مكتبة المتحف الجهوي للمجاهد بولاية تيزي وزو.

الملحق رقم (٤)



الولايات التاريخية الستة التي انبثقت عن الهيكلة السياسية والإدارية التي نص عليها مشروع أرضية مؤتمر الصومام في ٢٠أوت ١٩٥٦.

إعداد: فريد جواهر: مكتبة المتحف الجهوي للمجاهد بولاية تيزي وزو.

الملحق رقم (٥)

MUSEE NATIONAL DU MOUDJAHID
ANNEXE DE TIZI-OUZOU
المتحف الوطني للمجاهد
ملحقة تيزيوزو

Les Composantes territoriales de la wilaya III historique par Zones, Régions et Secteurs

المكونات الإقليمية للولاية الثالثة التاريخية حسب المناطق والأقاليم والقطاعات

ZONE –I- : **Limites territoriales :** Sétif , Bordj Bou Arreridj , Bougaà ,Sedouk,Amizour, Bouandas, Azrou-N-Bechar ,Barbacha, Guenzet,Beni Ourtilane,Beni-Aidel

Région 1 : Ville de Sétif,Ain Roua,Ain Messaaud ,Ain Arnat, Maghress, Ghrissia,Ain Abassa Bouira-El-Kherba, Draa –El-Kaid.
Région 2 : Oued-El-Merssa , Kherrata , AitSmail , Bouandas, Barbacha, Amizour , Ihadjadjen , Azrou-N-Bechar , Tichy , Aokas , Souk-Latnine , Tala-Hamza.
Région 3 : Ait-Aidel , Sedouk , Beni-Maouche , Bouhamza , Tamokra , El-Main , Djaafra ,et Mahfoudha.
Région 4 : Bougaa , H.Guergour, B.Ourthilane , Guenzat-Beni-Yaàla , A.Lagradj, B.Chabana , A.Taghrout , Aggar , Bir-Kasdali .
Région 5 : Ait-Abbas-El-Kalaa ,Ighil-Ali , Tizi-Lakhmis, Madjana , B.B.Ariridj , Tafrak, Manssoura , Mouka , Mezaita .

ZONE-II- : **Limites territoriales** :Béjaia , El-Ksar , Sidi Aiche , Ighzer – Amokrane , Ifri , Akbou , Tazmalt , Akfadou , Bouira , Adakar , Beni-Ouaggag , Mellouza , Sidi Aissa, Sour-El-Ghouzlane , El-Ksour , Driate .

Région 1 : Beni-Ouaggag , Tamalaht , O.Thayer , Laksour , Driate , O.S.Brahim , Ben-Mansour Mellouza –Beni-Yelmane , Sidi Aissa , Sour-El-Ghozlane .
Région 2 : Bouira , Sabkha , Haizer , Mechdelleh , Tikdjda , Bechloul , Saharidj , Takerboust Arafou .
Région 3 : Tazmalt , Beni Melikeche , Chorfa , Iouakourane , Akbou , Ighrame , Ighzar-Amokrane , Ifri , Challata .
Région 4 : Sidi – Aiche , Beni-Ouaghlis , Adekar , Akfadou , Ait-Amar , Béjaia Ville , El Ksar , Tifra ,Fennaia , Mézia ,

ZONE –III- : **Limites territoriales** : Tizi-Ouzou , Azazga , Yakourane , Azeffoune , Ain El Hammam, L.N.Iraten , Mekla , Illoulen , Illilten , Beni-Djenad

1

Région 1 : Larbaa-N-Iraten : limitée au nord par Oued Sébaou jusqu'au confluent Oued Aissi, A l'Est, Oued Boubhir- Oued Tabouda jusqu'au col de Challata , A l'Ouest ,Oued Aissi- Takhoukht ,Oued Berrakmouche jusqu'au village Ait Sidi Ahmed et jusqu'à Taouririne , puis il suit la route nationale N° 15 jusqu'au col de Tirourda , Au sud, Du col de Tirourda jusqu'au col de Challata en passant la ligne des crêtes du Djurdjura.

Secteur 1 :
Est composé des Kassamates ; Ait –Iraten , Tizi-Rached , Irdjen ,Ath Sameur Ikhlidjen , la Ville Autonome de Larabaa –N-Iraten

Secteur 2 :
Est composé des Kassamates ; Ait- Oumalou , Ait –Aggouacha , Ighalen, Ait-Fraoussen , Ait-Khelili .

Secteur 3 :
Est composé des Kassamates ; Ait Bouchaib , Ait-Yahia jusqu'au ruisseau de Takanna .
Secteur 4 :
Est composé des Kassamates ; Ait-Itsourar , Illoula (en partie) , ruisseau D'Ait-Lahcene jusqu'au Oued Tabouda , Illiten jusqu'à la ligne des crêtes.

Région 2 : Tizi-Ouzou ;est limité à l'est par Oued Aissi à partir du confluent Oued Aissi , Oued Sébaou jusqu'à Takhoukht , à l'Ouest , du confluent Oued Bougdoura – Oued Sébaou jusqu'à Mechtras (l'ancienne route de Maatkas qui longe oued Bougdoura Jusqu'à l'intersection de la route départementale de Maatkas avec la RN 30 , au nord Oued Sibaou entre les confluents Oued Bougdoura –Oued Aissi , au sud à partir du Point de l'intersection route Maatkas – RN 30 jusqu'à Takhoukht.
Elle comprend la ville Autonome de Tizi- Ou zou , Tirmitine, Beni-Arif , Maatkas , -Beni -Zmenzer , Beni- Aissi , Beni – Douala , Beni-Mahmoud , Ouadhias Tribu .

Secteur 1 : Beni Douala , Composé des Kassamates ; Ouadhias , Beni Douala , Beni-Aissi Beni-Mahmoud

Secteur 2 : Beni –Zmenzer , composé des kasmates , Beni-Zmenzer , Batrouna , Tirmitine

Secteur 3 : Maatkas-Ighil- Imoula composé des kassamates ; Maatkas , Beni-Arif , Mechtras Assif –boualma .

Secteur 4 : Ouadhias Ath Abdel Moumen

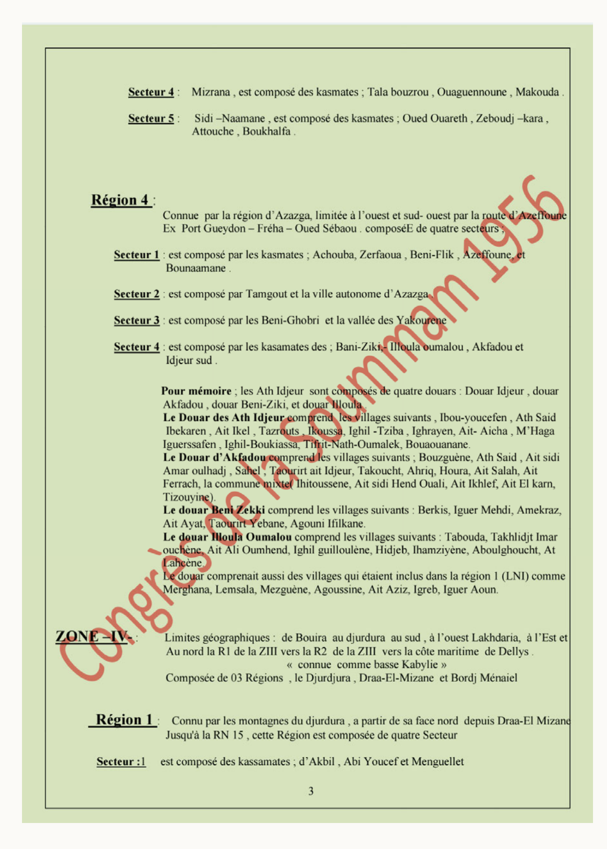
Région 3 : **Limites territoriales** , Beni-Djenad , Tigzirt au nord , au sud Oued Sebou , à l'Este route De Freha jusqu'à Azeffoune de l'Ouest Oued Taksabt –Mizrana

Secteur 1 : Izarazen , est composé des kasmates ; Izarazen , Tikoubaine, Ait-Aissa Mimoun et une partie de Yaskrene .

Secteur 2 : Beni-Djenad ,est composé des kasmates ; Tamgout Ouest , Mekla et Izarezen nord .

Secteur 3 : Iflissen , est composé des kasmates ; Taboudoucht , Ath – Zouaou , Ait Ahmed Tifra et ath Zrara , Zone autonome de Tigzirt .

2



Secteur 4 : Mizrana , est composé des kasmates ; Tala bouzrou , Ouaguennoune , Makouda .

Secteur 5 : Sidi –Naamane , est composé des kasmates ; Oued Ouareth , Zeboudj –kara , Attouche , Boukhalfa .

Région 4 :
Connue par la région d'Azazga, limitée à l'ouest et sud- ouest par la route d'Azeffoune Ex Port Gueydon – Fréha – Oued Sébaou . composéE de quatre secteurs ;

Secteur 1 : est composé par les kasmates ; Achouba, Zerfaoua , Beni-Flik , Azeffoune, et Bounaamane .

Secteur 2 : est composé par Tamgout et la ville autonome d'Azazga .

Secteur 3 : est composé par les Beni-Ghobri et la vallée des Yakourene

Secteur 4 : est composé par les kasamates des ; Bani-Ziki,- Illoula oumalou , Akfadou et Idjeur sud .

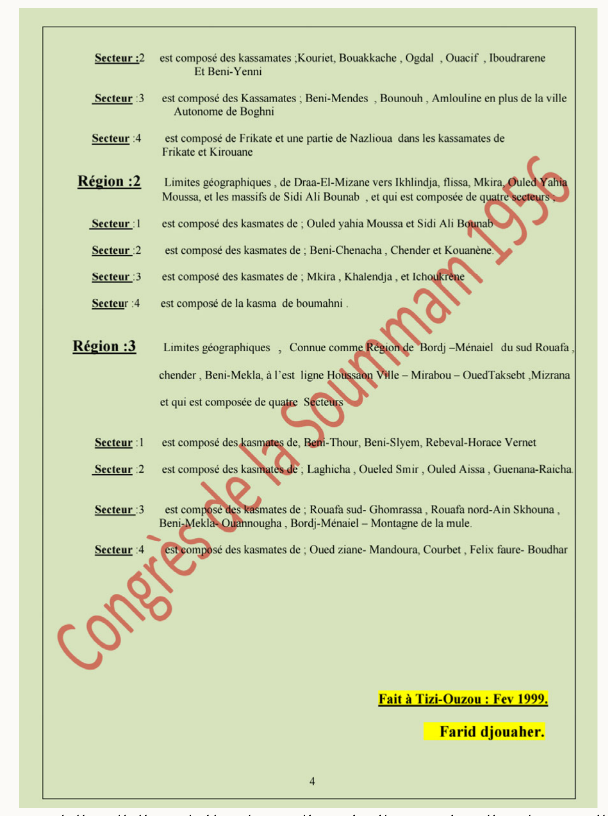
Pour mémoire ; les Ath Idjeur sont composés de quatre douars : Douar Idjeur , douar Akfadou , douar Beni-Ziki, et douar Illoula .
Le Douar des Ath Idjeur comprend les villages suivants , Ibou-youcefen , Ath Said Ibekaren , Ait Ikel , Tazrouts , Ikoussa, Ighil -Tziba , Ighrayen, Ait- Aicha , M'Haga Iguerssafen , Ighil-Boukiassa, Tifrit-Nath-Oumalek, Bouaouanane.
Le Douar d'Akfadou comprend les villages suivants ; Bouzguène, Ath Said , Ait sidi Amar oulhadj , Sahel , Taourirt ait Idjeur, Takoucht, Ahriq, Houra, Ait Salah, Ait Ferrach, la commune mixte(Ihitoussene, Ait sidi Hend Ouali, Ait Ikhlef, Ait El karn, Tizouyine).
Le douar Beni Zekki comprend les villages suivants : Berkis, Iguer Mehdi, Amekraz, Ait Ayat, Taourirt Yebane, Agouni Ifilkane.
Le douar Illoula Oumalou comprend les villages suivants : Tabouda, Takhlidjt Imar ouchène, Ait Ali Oumhend, Ighil guilloulène, Hidjeb, Ihamziyène, Aboulghoucht, At Lahcène.
Le douar comprenait aussi des villages qui étaient inclus dans la région 1 (LNI) comme Merghana, Lemsala, Mezguène, Agoussine, Ait Aziz, Igreb, Iguer Aoun.

ZONE –IV- : Limites géographiques : de Bouira au djurdura au sud , à l'ouest Lakhdaria, à l'Est et Au nord la R1 de la ZIII vers la R2 de la ZIII vers la côte maritime de Dellys .
« connue comme basse Kabylie »
Composée de 03 Régions , le Djurdjura , Draa-El-Mizane et Bordj Ménaiel

Région 1 : Connu par les montagnes du djurdura , a partir de sa face nord depuis Draa-El Mizane Jusqu'à la RN 15 , cette Région est composée de quatre Secteur

Secteur :1 est composé des kassamates ; d'Akbil , Abi Youcef et Menguellet

3



Secteur :2 est composé des kassamates ;Kouriet, Bouakkache , Ogdal , Ouacif , Iboudrarene Et Beni-Yenni

Secteur :3 est composé des Kassamates ; Beni-Mendes , Bounouh , Amlouline en plus de la ville Autonome de Boghni

Secteur :4 est composé de Frikate et une partie de Nazlioua dans les kassamates de Frikate et Kirouane

Région :2 Limites géographiques , de Draa-El-Mizane vers Ikhlindja, flissa, Mkira, Ouled Yahia Moussa, et les massifs de Sidi Ali Bounab , et qui est composée de quatre secteurs ;

Secteur :1 est composé des kasmates de ; Ouled yahia Moussa et Sidi Ali Bounab

Secteur :2 est composé des kasmates de ; Beni-Chenacha , Chender et Kouanène.

Secteur :3 est composé des kasmates de ; Mkira , Khalendja , et Ichoukrène

Secteur :4 est composé de la kasma de boumahni .

Région :3 Limites géographiques , Connue comme Région de Bordj –Ménaiel du sud Rouafa , chender , Beni-Mekla, à l'est ligne Houssaon Ville – Mirabou – OuedTaksebt ,Mizrana et qui est composée de quatre Secteurs

Secteur :1 est composé des kasmates de, Beni-Thour, Beni-Slyem, Rebeval-Horace Vernet

Secteur :2 est composé des kasmates de ; Laghicha , Oueled Smir , Ouled Aissa , Guenana-Raicha.

Secteur :3 est composé des kasmates de ; Rouafa sud- Ghomrassa , Rouafa nord-Ain Skhouna , Beni-Mekla- Ouannougha , Bordj-Ménaiel – Montagne de la mule.

Secteur :4 est composé des kasmates de ; Oued ziane- Mandoura, Courbet , Felix faure- Boudhar

Fait à Tizi-Ouzou : Fev 1999.

Farid djouaher.

4

التقسيمات السياسية والإدارية التفصيلية للولاية الثالثة التاريخية (القبائل الكبرى) الواردة في محاضر الجلسات والمنبثقة عن المشروع الأرضية النهائي الذي نص عليه مؤتمر الصومام ٢٠ أوت ١٩٥٦
إعداد: فريد جواهر: مكتبة المتحف الجهوي للمجاهد بولاية تيزي وزو.

الاحالات المرجعية:

(١) محمد حربي، **جبهة التحرير الوطني، الأسطورة والواقع**، ترجمة كميل قيصر داغر، ط١ مديرية الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٣، ص٤٩.
(٢) من أهم ما جاء في هذا التقرير ذلك النص القائل "نريد ثلاثة أشياء: الأسلحة ثم الأسلحة، ودائما الأسلحة"
(3) Mohamed Harbi, Les Archives de la révolution algérienne Ed : jeune Afrique Paris, 1980, P33.
(٤) شهادة المجاهد قاضي بشير في الملتقى الوطني حول قوافل السلاح. ولاية الوادي ١٩-٢٠مارس ١٩٩٩.شريط سمعي بصري. مكتبتي الخاصة.
(٥) حسين آيت احمد، **روح الاستقلال، مذكرات مكافح ١٩٤٢-١٩٥٢**، ترجمة سعيد جعفر، منشورات البرزخ، الجزائر ٢٠٠٢ ، ص١٥٥، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأسلحة التي تم جمعها خلال هذه المرحلة سوف تستخدم عند الانطلاقة في ١ نوفمبر ١٩٥٤.انظر محمد حربي. المصدر السابق، ص٤٩.
(6) Hocin Ait Ahmed, Ait Ahmed Hocine, Mémoire d'un combattant, l'esprit d'indépendance (1942-1952) Ed Bouchene Alger 1990, P140
(٧) أحمد محيوت، **وصف اندلاع الثورة في الوسط ومنطقة القبائل في المنظمة الوطنية للمجاهدين**، الطريق إلى نوفمبر كما يرويه المجاهدون (د س ن)، ص ٣٢٤.
(٨) حسين آيت أحمد، المصدر السابق، ص١٥٥.
(٩) شهادة المناضل عمر أو عمران لمجلة الباحث، عدد خاص سنة ١٩٨٧، ص١٣.
(١٠) محمد يوسفي، **الجزائر في ظل المسيرة النضالية**، المنظمة الخاصة، ترجمة محمد الشريف بن دالي، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال الجزائر ٢٠٠٢، ص٩٦.
(١١) محمد عباس، **اغتيال حلم**. أحاديث مع بوضياف. دار هومة.الجزائر.٢٠٠١.ص ٤٩.
(١٢) عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، **الكفاح القومي والسياسي** (من خلال مذكرات معاصر) ١٩٤٧- ١٩٥٤، ج٣ (مود) الجزائر ١٩٨٦، ص ٤٥٩.
(13) Yves Courrier, "fln.chapitre1é- la route d'Alger au Caire, ligne de force de l'insurrection" in historia magazine. Numéro spécial du 1é novembre1954.pp50.58.
وانظر أيضًا: لمحمد حربي، **جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع**، المصدر السابق، ص ١٤.
(١٤) Op.Cit. p52. Yves Courrier.
(١٥) عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، المصدر السابق، ص ٤٥٩.
(١٦) مومن العمري، **الحركة الثورية في الجزائر من نجم شمال إفريقيا إلى جبهة التحرير الوطني ١٩٢٦-١٩٥٤**، دار الطليعة. الجزائر ٢٠٠٣.ص ٢١٩.
(١٧) عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، المصدر السابق، ص ٤٦٠، وللمزيد من التفاصيل حول ظروف التحاق منطقة القبائل بالثورة انظر التفاصيل في شهادة محمد بوضياف في مجلة أول نوفمبر عدد ١٤٧- ١٩٩٥، ص٢٥، وأيضًا شهادة محمد بوضياف لمحمد عباس، ثوار عظماء، حديث الاثنين، مطبعة دحلب، الجزائر.١٩٩١، ص ٦٤- ٦٥.
(١٨) لجنة 5 + ١ بعد التحاق كريم بلقاسم في أوت ١٩٥٤.
(١٩) شرع محمد بوضياف في تشكيل لجنة مصغرة أو أمانة تنفيذية عرفت بلجنة الخمسة اختار لعضويتها كل من محمد العربي بن مهيدي، ومصطفى بن بولعيد، وديدوش مراد ورابح بيطاط مهمتها الإعداد الميداني لانطلاق العمل المسلح بكل الوسائل والمتطلبات انظر: **شهادة محمد بوضياف** في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤. تاريخ الجزائر (١٨٩٠-١٩٦٢) القرص المضغوط. وزارة المجاهدين ٢٠٠٢.
(٢٠) محمد بوضياف في حديث لجريدة الشعب يوم ١٩٨٨/١١/١٦.
(٢١) محمد عباس، "**فكرة الثورة في التجربة الجزائرية**"، مجلة الحدث العربي والدولي، عدد خاص، رقم ٢٤، نوفمبر ٢٠٠٢، ص ٢١. أما الوفد الخارجي يقتصر دوره على شراء الأسلحة والقيام بالرعاية والقرارات تصدر من القادة المحاربين داخل الجزائر.
(٢٢) محمد عباس، المرجع السابق، ص ٢١
(٢٣)يشير المجاهد المرحوم رابح بيطاط بخصوص مشكلة التسليح في إطار الإعداد للثورة في المنطقة الرابعة بأن قلة السلاح كانت أكبر مشكلة لدينا وقد تناولت قيادة الثورة التي اجتمعت في (بوانت بيسكاد.LA POINTE PESCADE) الرايس حميدو بباب الوادي حاليًا يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٥٤ عند تحديد الأهداف التي ينبغي مهاجمتها ليلة أول نوفمبر هذه المسألة وقررت بأن الأسلحة التي ستغنم من ثكنتي "بيزو في البليدة وثكنة بوفاريك تقسّم مع أقرب منطقة وهي الثالثة (القبائل) وهو ما يفسر وجود مجاهدين من هذه المنطقة معنا ليلة أول نوفمبر، انظر محمد عباس، **ثوار عظماء**، المرجع السابق، ص ٨٠.
(24) Mohamed Teguia, l'algérie en guerre, OPU, Alger, 1988. p131.
(٢٥) سليمان الشيخ، **الجزائر تحمل السلاح، دراسة في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة**، ترجمة محمد حافظ الجمالي، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال الجزائر ٢٠٠٢، ص ٧١.
(٢٦) حرر البيان من طرف محمد بوضياف وديدوش مراد حددت فيه أهداف ووسائل الكفاح.
(٢٧) أحمد مهساس، **الحركة الوطنية الثورية في الجزائر من الحرب العالمية الأولى إلى الثورة المسلحة**، ترجمة الحاج مسعود ومسعود محمد عباس، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال الجزائر ٢٠٠٢، ص٣١٧.
Mohamed harbi, la guerre commence en Algérie, Ed complexe Bruxelles, 1984, p 20. -23
(٢٨) لقد تشكلت هذه المنطقة فيما بعد خلال مؤتمر الصومام ١٩٥٦ وقبل ذلك كان خاضعة إلى مسؤولية مصطفى بن بولعيد بمساعدة عاشور زيان، انظر: أحسن بومالي،

استراتيجية الثورة في مرحلتها الأولى (١٩٥٤-١٩٥٦)، منشورات، من وللمجاهد، الجزائر ١٩٩٤، ص ٧٦-٧٧.

(٢٩) فتحي الديب، **عبد الناصر وثورة الجزائر**، ط١، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٤، ص٣٩، وانظر أيضًا: محمد عباس، **اغتيال حلم**، المرجع السابق، ص ٥٩.

(٣٠) سليمان الشيخ، المصدر السابق، ص ٧٢.

(٣١) **شهادة محمد بوضياف** لمجلة أول نوفمبر، عدد ١٤٧ سنة ١٩٩٥، ص ٢٦.

(٣٢) يوسف مناصرية، **واقع الثورة العسكرية خلال السنة الأولى ١٩٥٤، ١٩٥٥**. مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية، في جمعية أول نوفمبر مآثر الثورة في الأوراس باتنة، ١٩٩٩، ص ٣٣,٣٤.

(٣٣) **شهادة محمد بوضياف** لمجلة أول نوفمبر، المرجع السابق، ص ٢٦ وانظر أيضًا محمد حربي، جبهة التحرير، الأسطورة والواقع، المصدر السابق، ص١١١.

(٣٤) **شهادة محمد بوضياف** لمجلة أول نوفمبر، المصدر السابق، ص٢٦.

(٣٥) من الدراسات الأكاديمية تلك الدراسة التي قدمها الدكتور يوسف مناصرية خلال أعمال الملتقى الدولي حول نشأة وتطور جيش التحرير الوطني المنعقد بفندق الأوراسي٢،٣،٤ جويلية ٢٠٠٥ بالعاصمة وهي دراسة تناولت حجم الإمكانيات المادية والبشرية في كل منطقة من مناطق العمل الثوري حيث اعتمد فيها على أرشيف فانسان انظر، ص١١٩، ١٤٢.

(٣٦) محمد حربي، **الثورة الجزائرية سنوات المخاض**، ترجمة نجيب عياد. صلاح المثلوثي، الجزائر،١٩٩٤، ص٦٩، وانظر أيضًا: المديرية الفرعية للبحث والأرشيف التاريخي، **"الأسس الأولية في التنظيم العسكري لجيش التحرير الوطني"**، مجلة الجيش (وزارة الدفاع الوطني. الجزائر. نوفمبر ١٩٩٧، ص ٢٣.

(٣٧) أحسن بومالي، **استراتيجية الثورة في مرحلتها الأولى (١٩٥٤-١٩٦٢)**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ١٩٩٤، ص٧٨، وأيضًا المديرية الفرعية للبحث والأرشيف التاريخي، المرجع السابق، ص٢٣. وانظر كذلك: **شهادة المجاهد عمار بن العقون** في الندوة المفتوحة حول الشهيد مصطفى بن بولعيد ١٩٨٨/٠٣/١٧ بالمتحف الوطني للمجاهد (شريط سمعي بصري رقم ١١) بمكتبة قسم السمعي البصري. المتحف الوطني للمجاهد.

(٣٨) أحسن بومالي، المرجع السابق، ص٧٨.

(٣٩) **شهادة عبد الله بن طوبال** لمجلة الباحث جويلية ١٩٨٧، ص ٤٨-٤٩. وانظر أيضًا شهادة عبد الله بن طوبال جريدة الجمهورية يوم ١٩٨٢/٠٣/٢٩، ص٠٥. وانظر أيضًا **شهادة عبد الله بن طوبال** لمجلة الباحث عدد ٠٢، نوفمبر ١٩٨٤، ص ١٣٤، ١٣٦ ونفس الطرح ورد في شهادة عمار بن عودة لمجلة الباحث جويلية، ١٩٨٧، ص ٢٧.

(٤٠) محمد حربي، المصدر السابق، ص٧٠.

(٤١) نفسه، ص٧٠ ويؤكد المجاهد سي سالم بوبكر من المنطقة الأولى (الأوراس) بأن زلزال الأصنام كانت له خسائر كبيرة في الورشات السرية التي كانت تقوم بصناعة القنابل والمتفجرات: انظر **شهادة المجاهد سي سالم بوبكر** في ندوة حول الشهيد مصطفى بن بولعيد، المتحف الوطني للمجاهد يوم ١٩٩٨/٠٣/١٧، شريط سمعي بصري. قسم السمعي البصري بمكتبة المتحف.

(٤٢) **شهادة أحمد بن بلة** في المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، تاريخ الجزائر (١٨٣٠-١٩٦٢) القرص المضغوط، وزارة المجاهدين ٢٠٠٢.

(٤٣) انظر **شهادة المجاهد علي بن شايبة** في الندوة التاريخية حول الشهيد مصطفى بن بولعيد المنعقدة بالمتحف الوطني للمجاهد يوم ١٩٩٨/٠٣/١٧ (شريط سمعس بصري) قسم السمعي البصري. بمكتبة المتحف الوطني للمجاهد.

(٤٤) محمد حربي، المصدر السابق، ص٦٩.

(٤٥) نفسه، ص ٧٠.

(٤٦) **شهادة المجاهد لخضر بن طوبال** لمجلة الباحث، عدد ٠٢، نوفمبر ١٩٨٤ المصدر السابق، ص١٣٤.

(٤٧) محمد حربي، المصدر السابق، ص٦٩.

(٤٨) **شهادة المجاهد سي ناصر** لمجلة الباحث عدد ٠٢، نوفمبر ١٩٨٤المرجع السابق، ص ١٣٦.

(49) Mohamed Boudiaf, «la préparation du premier Novembre El jarida »Op.cit. p 9-24.

(٥٠) محمد يوسفي، **الجزائر في ظل المسيرة النضالية المنظمة الخاصة**، ترجمة محمد الشريف بن دالي. منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، الجزائر، ٢٠٠٢، ص١٦٩.

(٥١) تصدرت المنطقة الأولى (الأوراس) الريادة خلال الانطلاقة من حيث سبق التوسع والشمولية وقوة التسليح وصدى العمليات المسلحة وحصيلة نتائجها مقارنة مع بقية المناطق الأمر الذي تكشف عنها الوثائق الأرشيفية المتوفرة والشهادات الحية التي تؤكد بعضها البعض في الكثير من البحوث والمناسبات التاريخية والعلمية.

(٥٢) يحى بوعزيز. **الثورة في الولاية الثالثة**، طبعة خاصة الجزائر، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص1.

(٥٣) أحسن بومالي، المرجع السابق، ص ٧6.

(٥٤) عبد القادر حليمي، **جغرافية الجزائر**، ط1، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، 1968، ص٤٧ – ٥٠.

(٥٥) يوسف مناصرية، المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٥٦) ويعود الفضل في ذلك إلى عنصرين بارزين من قدماء التنظيم الشبه عسكري للتيار الاستقلالي وهما كريم بلقاسم وأعمر أوعمران اللذان كانا يتمتعان بسمعة ثورية منذ منتصف الأربعينات وعلى الرغم من المطاردات البوليسية الاستعمارية إلا أنهما تمكنا من تعزيز مكانتهما في المنطقة كقائدين محليين بعدما نجحا في تشكيل معقل مسلح ضم في صفوفه أكثر من ٣٠٠ رجل، ومن جهة أخرى لابد من الإشارة إلى أن هذا المعقل لم يكن بمعزل

عن الأزمة الداخلية التي شهدها التيار الثوري (١٩٥٣-١٩٥٤) وإنما كان ذو ميول مصالية في الغالب بالنسبة للقاعدة النضالية الأمر الذي جعله موضوع تحفظ شديد من طرف لجنة الخمسة التي حاولت احتواء المنطقة دون إشراكها في القيادة العسكرية. انظر: عبد النور خيثر، **تطور مؤسسة قيادة الثورة التحريرية (١٩٥٤-١٩٦٢)** أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص٢٦٧.

(٥٧) نفسه، ص٢٦٧.

(٥٨) مراد صديقي، **الثورة الجزائرية، عمليات التسلح السرية**، ترجمة أحمد الخطيب، مكتبة الحياة، بيروت (دس ن)، ص١٣، ص٢٨. وانظر أيضًا مصطفى هشماوي. **التنظيم العسكري والسياسي للثورة الجزائرية معالم بارزة في ثورة 1954**، في الملتقى الأول بباتنة 1989، مطبعة عمارة قرفي، باتنة. 990. ص ١٠٤، وانظر أيضًا: فتحي الديب، المصدر السابق، ص٣٧.

(٥٩) محمد حربي، المصدر السابق، ص ١١٤، وأيضًا: Mohamed Harbi, Op.Cit, p127.

وأيضًا:

Paris, 1991, p 88. Yves courrière, la guerre d'Algérie, les fils de la Toussaint, fayard,

ويذهب إلى نفس الطرح أحسن بومالي في كتابه **إستراتيجية الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى** حيث يذكر أن عدد المجاهدين في المنطقة الثالثة وصل إلى٤٥٠ مجاهدًا يملكون كمية من بنادق الصيد أخذت من المواطنين، ص٨٠.

(60) Gilbert Meynies, l'Histoire intérieure du FLN 1954-1962, Publisud, Paris, 2000., p 278.

(٦١) يوسف مناصرية، المرجع السابق، ص١٢٢.

(٦٢) محمد حربي، المصدر السابق، ص ١١٤.

(٦٣) حفظ الله بوبكر، **التموين والتسليح إبان الثورة التحريرية الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢**، أطروحة دكتوراه تم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص١٧٧.

(٦٤) **لاكوست روبير:** ولد بمدينة Azerat في مقاطعة Dordogne الفرنسية، درس بثانوية Brive de gaillard وكلية الحقوق بجامعة باريس، مناضل نشط في النقابة الفرنسية للعمال، وخلال الاحتلال النازي لفرنسا أسس حركة تحرير شمال فرنسا، واختاره الجنرال ديغول ممثلاً له في حركة فرنسا لمقاومة الاحتلال النازي في عام ١٩٤٤. عين وزيرًا للإنتاج الحربي في الحكومة المؤقتة الفرنسية، وانتخب نائبا للحزب الاشتراكي عن مقاطعة Dordogne من ١٩٤٦-١٩٦٨ واستلم حقيبة وزارة الصناعة في عدة حكومات فرنسية. وفي ٠٩ فيفري ١٩٥٦ عينه غي موليه وزيرًا مقيمًا في الجزائر واستمر في هذا المنصب إلى غاية ١٥ أفريل ١٩٥٨ وعمل مع حكومة بورجيس منوري وفليكس غايا وفي ٢٦ سبتمبر ١٩٧١ انتخب سيناتورا عن الحزب الاشتراكي مات في ٠٩ مارس ١٩٨٩ بمدينة Périgueux: انظر سعدي بوزيان: **جرائم فرنسا في الجزائر**، دار هومة، الجزائر، ص١١٠.

(٦٥) يحي بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين** ج٢، ط٢، منشورات والمتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، ١٩٢٦، ص ١٢٩- ١٣٠.

(٦٦) شهادة المناضل المرحوم رابح بطاط في؛ محمد عباس، ثوار عظماء، المرجع السابق، ص ٨٠.

(٦٧) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص١٣١.

(٦٨) محمد العربي الزبيرى، **تاريخ الجزائر المعاصر**(ج٢) منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٩٩، ص ٣٢.

(٦٩) تشير الإحصائيات الفرنسية إلى أن الحكومة العامة طلبت مضاعفة تعداد الجيش الفرنسي في الجزائر حيث كان عدد ٥٥٠ ألف جندي غيران الاليزيه قرر رفع التعداد إلى ٨٠ ألف في جانفي ١٩٥٥ ليرتفع إلى أكثر من ١٥٠ ألف جندي بعد هجومات ٢٠ أوت ١٩٥٥ ويبلغ أكثر من ٢٢٠ ألف في ربيع ١٩٥٦. انظر:

Philippe tripier l'Autopsie de la guerre d'Algérie. Ed France Empire, Paris 1972, P75 - 76.

(٧٠) **سوستال جاك Jaque Soustelle(١٩١٢-١٩٩٠):** ولد سنة ١٩١٢ بمدينة (Montpellier) من عائلة نقابية بروتستانتية التحق بالمدرسة العُليا للأساتذة، وتخصص في علم الفلسفة والأجناس، عُين في منصب نائب مدير بمتحف الإنسان. بدأ مشواره السياسي بانخراطه في لجنة مناهضة الفاشية سنة ١٩٣٥ التي أصبح من أبرز قادتها، انضم إلى صفوف القوى الفرنسية الحرة، وفي سنة ١٩٤٠ أصبح من المقربين للجنرال ديغول الذي كلفه بعدة مهام منها رئاسة المحافظة الوطنية للإعلام سنة ١٩٤٢ ثم الإشراف على المديرية العامة للمصالح الخاصة بالجزائر واستلم عدة حقائب وزارية منها، وزارة المستعمرات ووزارة الإعلام، وبعد تشكيل حزب تجمع الشعب الفرنسي من قبل الجنرال ديغول في أفريل ١٩٤٧ عُين سكرتيرا له وانتخب نائبًا باسم التجمع على مقاطعة الرون Rhone وفي ١٥ جانفي ١٩٥٥ عُين حاكمًا عامًا للجزائر من قبل مانديس فرانس Mendés France، خلفًا لروجيه ليونار Roger Leonard ورغم سقوط حكومة مانديس فرانس في شهر فيفري، إلا أن ادغار فور Edgar Faure أبقى جاك سوستال في منصبه وفي ٠٢ فيفري ١٩٥٦ غادر الجزائر بعد أن تم استخلافه بروبير لاكوست في عهد حكومة غي موليه، وواصل نشاطه السياسي بتأسيس الاتحاد من أجل إنقاذ الجزائر الفرنسية، وقاد حملة شرسة وعنيفة كانت وراء سقوط حكومة بورجيس مونري وفليب غايار، وبعد عودة الجنرال ديغول إلى الحكم استلم سنة ١٩٥٨ وزارة الإعلام ثم وزيرًا منتدبًا لمقاطعات الصحراء في حكومة Michel Debré وبسبب سياسة تقرير المصير التي تمسك بها الجنرال ديغول، غادر جاك سوستيل الحكومة، معلنًا المعارضة الصريحة لسياسة ديغول في الجزائر، ولعلاقته بمنظمة الجيش السري الفرنسية، نفي إلى روما ولم يعد منها إلا بعد إعلان العفو العام في أكتوبر ١٩٦٨. وبعد هذا التاريخ تفرغ للكتابة والنشاط الفكري حيث أصدر مجموعة

من الكتب أهلته لعضوية الأكاديمية الفرنسية، وتوفي في ٠٧ أوت ١٩٩٠. انظر: الغربي الغالي، المرجع، السابق، ص٢٤٣.

(٧١) خليفة الجنيدي، **حوار حول الثورة**. ج٠٢، المركز الوطني للتوثيق والصحافة والإعلام، الجزائر.١٩٨٦م، ص٣٠٧.

(٧٢) كيف اهتدى روبير لاكوست إلى تسليح الثوار في صحيفة المجاهد، عدد ٠٣ (دون تاريخ) ج١، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين، ص١٣٧.

(٧٣) المصدر نفسه، ص١٣٧.

(٧٤) خليفة الجنيدي، المصدر السابق. ص ٣٠٨.

(٧٥) نفسه، ص٣٠٩، وانظر كذلك: يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص٢١٩. وقد أحصت صحيفة المجاهد عدد الأسلحة بأكثر من ٢٨ رشاش خفيفًا وحوالي ٢٣٥ بندقية حربية. للمزيد من التفاصيل حول هذه القضية انظر **قائمة أسماء المجاهدين الذين سلحهم لاكوسط**، في صحيفة المجاهد، المصدر السابق، ص ١٣٩- ١٤٤.

(٧٦) سليمان الشيخ، المصدر السابق، ص ٧٦.

(٧٧) للمزيد من التفاصيل حول شهادة كلوسترمان، انظر: (**ضابط فرنسي كبير يكشف هزائم جيش الاحتلال وانتصارنا في الميدان العسكري**). في جريدة المجاهد عدد ٢٤ يوم الخميس ١٩٥٨/٠٥/٢٩ الجزء الأول طبعة وزارة المجاهدين، ص ٥- ٦. للمزيد من التفاصيل حول الأسلحة المسترجعة من طرف الثوار خلال المعارك إلى غاية شهر أكتوبر١٩٥٥.

(٧٨) **تحقيق صحفي جديد مع جيش التحرير الوطني** في جريدة المجاهد، عدد١٦-١٥ جانفي ١٩٥٨، الجزء الأول، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين، ص ٦- ٧.

(٧٩) للمزيد من التفاصيل حول التصريح الكامل للمجاهدين: كريم بلقاسم ومحمود شريف انظر: **بعد مؤتمر طنجة لجنة التنسيق والتنفيذ تصرح**، صحيفة المجاهد، عدد٢٣. الأربعاء ٠٧ ماي ١٩٥٨، المجلد الأول، المصدر السابق، ص ٦-٧.

(٨٠) المتحف الوطني للمجاهد. **وثـائق مؤتمر الصومـام 20 أوت 1956**، الجزائر 1996، ص١١.

وأيضًا:

Mohamed Harbi, le FLN Mirage et réalité (désorganise a la pris du pouvoir 1945-1962) Ed J.A : paris 1980, P 177.

مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

سيرة الثورات العربية
ثورة يوليو ١٩٥٢ أنموذجًا



حيدر زكي عبد الكريم

أستاذ التعليم الثانوي – وزارة التربية

كاتب وصحفي – محافظة ذي قار

جمهورية العراق

مُلَخَّص

لقد كانت حركة (ثورة) يوليو ١٩٥٢ وما زالت أهميتها محط متابعة من قبل الكثير من المؤرخين والكتّاب، فكانت أول ضربة للاستعمار في الشرق الأوسط ومصالحه ونفوذه المتعدد الأشكال الذي تحدد مع مرور الوقت باندلاع شرارة هذه الحركة (الثورة فيما بعد) بذلك التاريخ لتفتح الباب على مصراعيه أمام التغيرات السياسية مصحوبة بمساندة تحركات من النخب (العسكرية) الداخلية لتغيير واقع الشعوب العربية آنذاك. وعلى الرغم من أنها حاولت بناء نظام سياسي جديد إلا أنها تعثرت بعض الشيء بسبب الضغوط الخارجية التي واجهتها بسبب تأميم مصالحها الوطنية من قناة السويس وبناء السد العالي الإنجاز الضخم في القرن الماضي والقرارات الاشتراكية لتحقيق العدالة المجتمعية، لتصطدم بنكسة يونيو ١٩٦٧ وتفتح باب آخر أمامها، يكشف السلبيات للنظام التي حاول تصحيحها ومعالجة مكامن الخلل فيها، ولا تخلو الفترة من تأثيرات على مختلف الصعد ومنها الاقتصادية والاجتماعية والتعليم والصحة وعلى الثقافة والفن، وظلت آثارها شاخصة لأجيال لا بل هي وضعت الأساس للنظام الجمهوري في القطر المصري. إنَّ ثورة يوليو ١٩٥٢ هيّ حاصل تحصيل التراكمات السلبية التي عانت منها مصر خصوصًا والأقطار العربية عمومًا، طيلة فترات زمنية، كأقل ما نقول عنها (مُظلّمة) حتى جاء الجيل الساعي للتغيير في موعده مع القدر، ليقوم بالتحول التاريخي المعاصر ما بين مرحلة قديمة ومرحلة جديدة تحمل رياح التغيير والعدالة والتقدم ويمكن ملاحظة أن ثورة يوليو ١٩٥٢ وضعت سياقًا تاريخيًا جديدًا. وأصبحت هي أم الثورات العربية المعاصرة وبكل ما تحمله من رياح التغيير السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث:	٣٠	يونيو	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٤	أغسطس	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

القومية العربية؛ الضباط الأحرار؛ السد العالي؛ جمال عبد الناصر؛ تاريخ مصر الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي 10.21608/KAN.2020.186404 DOI

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حيدر زكي عبد الكريم، "سيرة الثورات العربية: ثورة يوليو ١٩٥٢ أنموذجا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة -العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ٢٠٠ – ٢٠٩.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: hayderzake1977@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقدِّمَةُ

لقد تناول عدد كبير من المؤرخين والباحثين أحداث الثورات العربية المعاصرة بشكل عام وثورة يوليو ١٩٥٢ بشكل خاص. فلقد عانت مصر منذ الاحتلال العثماني (التركي) والبريطاني (الإنكليزي) من مآسي لا حصر لها وعلى مجالات مختلفة، وترك أثارًا متراكمة مع السنين لم تستطع (مصر) التخلص منها إلا بعد قلع جذور تلك المراحل بحدث ٢٣يوليو ١٩٥٢. كما أن الغاية من الموضوع هو أن تطلّع الأجيال العربية المعاصرة على هكذا حدث وتأثيراته المحلية والعربية. كما أدت نتائج الحرب العالمية الثانية في مصر إلى زيادة التباعد بين الشعب المصري وحكوماته المتعاقبة وتفاقمت الأزمة الاقتصادية وساءت الأوضاع الاجتماعية للشعب وظلت الحياة السياسية أسيرة الأروقة السرية والبلاط الملكي وظل الغموض يكتنفها، الأمر الذي أدى إلى أن يسعى الجيل الجديد إلى التخلص من الجيل القديم المتمرس بشكل جيد خلف امتيازاته وولائه للأجنبي.

أصيب النظام الجديد بعد ثورة يوليو بتعثرات، انبثقت عن خلافات داخلية بين أعضاء مجلس قيادة الثورة حول شكل النظام وسماته الديمقراطية ودستوره وأسس اقتصاده المستقبلي بتلك الفترة. إن ثورة يوليو ١٩٥٢ لم تكن حدثا طارئا، بل على العكس فقد جاءت بموعدها مع القدر لأنها فتحت الباب أيضًا لباقي الشعوب العربية بمساعدة قواها الوطنية (العسكرية والمدنية) لأحداث تغيرات في شكل أنظمتها الحاكمة وبدأ التحول في القطر المصري يسير على طريق الإصلاح والعدالة الاجتماعية ليشمل تغيرات جوهرية في جميع القطاعات الإنتاجية والعمرانية يرافقها تأثيراتها على اتجاهات الثقافة والفن، لكن المرحلة لم تخلُ من مصاعب وعوائق منذ تأميم قناة السويس ١٩٥٦وتاسيس منظمة عدم الانحياز ومنظمة الوحدة الأفريقية وقيام الجمهورية العربية المتحدة لتواجه النكسة في العام ١٩٦٧ بتخطيط خارجي مستغل حالة من الهفوة يرافقها عوامل داخلية عربية إن صح التعبير.

تم الاستعانة بكتابة هذا الموضوع بمنهج البحث التاريخي مع استخدام الأسلوب السردي والاستردادي "الذي يرّد الظاهرة إلى وقت حدوثها"، لأنه شكل من أشكال الكتابة التاريخية أيضًا، ولا ندعي أننا بلغنا حد الكمال في هذا الموضوع المتواضع، فإنّ ذلك طموح يصعب الوصول إليه، لكننا سلطنا الضوء على موضوع ما زال حتى الآن ميدانًا واسعًا لكل مَنْ يرد من الباحثين معالجة جوانب تلك الأحداث من مختلف المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية الفكرية.

سيرة ثورة يوليو ١٩٥٢

بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) سّاد المجتمع العربي تفاؤل بأنه قادر على تحقيق ما أخفق في تحقيقه بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) وبعد انتصارات حقيقية حققتها معظم البلاد العربية على طريق التحرر والتقدم وتوحيد نضالها ضد أعدائها التاريخيين في الداخل والخارج.[١] إن من ابرز الأحداث التي وقعت في الوطن العربي بعد الحرب العالمية الثانية ظهور سلسلة من الثورات والانتفاضات التي عبرت عن رغبة الشعب العربي في التخلص من الاستعمار، وقد قامت القوى الوطنية والقومية التي تشكلت تلك الفترة أو من خلال تنظيمات الضباط الأحرار بتلك الثورات ومنها ثورة تموز ١٩٥٢ في مصر وثورة ١٩٥٤ في الجزائر وثورة ١٩٥٨ في العراق وثورة ١٩٥٨ في لبنان والثورة الإرترية ١٩٦١.[٢]

لقد أسهمت عدة عوامل داخلية وخارجية بقيام الثورة المصرية وملخصها: مجيء الملك فاروق للحكم عشية الحرب العالمية الثانية واصطدامه مع حزب الوفد والمجلس النيابي، التدهور الاقتصادي والاجتماعي أثناء الحرب العالمية الثانية فقد زادت الهوة بين الأغنياء والفقراء بنسبة من ٥٠ إلى ٤٠٠ وازدادت الودائع في البنوك من ٤٥ إلى ١٢٠ مليونًا من الجنيهات وغلاء الأسعار ولم يحدث معه ارتفاع في أجور العمال والفلاحين والموظفين وانتشار البطالة، والتدخل الأجنبي في سياسة الملك وإقالة حكومة الوفد بقيادة مصطفى النحاس عام ١٩٤٤، وكانت الفترة ما بين ١٩٤٥ وحرب فلسطين ١٩٤٨ فترة تنظيم وتجنيد للضباط، مجيء حكومة جديدة بقيادة إسماعيل صدقي لغرض التمهيد لإعادة معاهدة ١٩٣٦ بشكلها الجديد صدقي- بيفن ١٩٤٦. وواجهت الاتفاقية معارضة شديدة اضطرت على أثرها الوزارة إلى الاستقالة وتشكلت وزارة جديدة برئاسة محمود فهمي النقراشي والتي واجهت ظروف الحرب العربية الإسرائيلية سنة ١٩٤٨ وإزاء فشل النقراشي في تشكيل وزارة جديدة برئاسة حسين سري التي أجرت انتخابات جديدة فاز الحزب السابق بالأغلبية فيها مما أهّلهُ لتأليف وزارة برئاسة مصطفى النحاس مجددًا في عام ١٩٥٠. أقدمت الحكومة على إلغاء معاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد عام ١٩٥١ وأعلنت قيام الوحدة بين مصر والسودان، والوقت نفسه تنامى النشاط الوطني وحدثت في هذه الأثناء معركة القنال بين الفدائيين المصريين والبريطانيين قرب إحدى القواعد العسكرية، حاول الملك التخلص من الحكومة بافتعال حريق القاهرة في ١٩٥٢/١/٢٦.[٣]

الحركة العسكرية – ليلة ٢٢ إلى ٢٣ تموز ١٩٥٢ استطاعت تنظيمات الضباط الأحرار التي نشطت بعد حرب فلسطين أن تؤدي واجبها.[٤] - ليلة الحركة العسكرية– بلسان قائدها: "في ٢٢ يوليو اجتمعت اللجنة التأسيسية لتلقي الأوامر النهائية، وتم إصدارها في الساعة الخامسة، وخرج أفراد اللجنة التأسيسية للتنفيذ وهنا سجل الرئيس جمال عبدالناصر المواقف الحرجة التي واجهته ليلة ٢٣ يوليو – مرت بي مواقف حرجة كثيرة لكن احرجها هو ليلة الثورة، وكان موعد تحرك احتلال رئاسة الجيش في الساعة الأولى والنصف ١/٣٠ صباحًا حيث تتقابل القوات كلها عندها، وعند الساعة الحادية عشرة علمت أن رئاسة الجيش أحيطت خبرًا بخطتنا ووصلت الأوامر إلى الفريق حسني رئيس هيئة أركان حرب باتخاذ الإجراءات المضادة لمناهضة حركتنا والقضاء عليها وتوجهت إلى منزل أخي عبد الحكيم عامر حيث كنا على موعد لنتقابل في الساعة الثانية عشرة ونمضي معا لاعتقال قوة رئاسة الجيش وغادرنا إلى العباسية، لكننا راينا عددا كبيرا من الشرطة الحربية مما لم يكن ضمن خطتنا، ففهمنا فورًا أن الطرف الأخر قد باشر ضدنا، فتحركنا إلى سلاح الفرسان، فقد فوجئنا بالبوابة مغلقة وعليها قوات لم تستطع أن نعرف إلى أي طرف تنتسب ومن ثم توجهنا إلى ميدان الكربة، رأينا على مدى البصر أضواء عربات كثيرة تسير نحو القاهرة، وكانت الساعة حوالي منتصف الأولى، لم يكن هذا ضمن الخطة لقواتنا، وانتظرنا – عبدالحكيم عامر وانا على جانب الدرب حتى تصل إلينا هذه القوات وعند وصول أول عربة راعنا أن الفرقة الثانية تحركت لتنفيذ خطة رئيس أركان الجيش، وفي اسرع من لمح البصر، كنت وعبدالحكيم عامر محاطين بخمسة ضباط ملازمين مسلحين، لقد اعتقدت أن الخطة التي وضعناها باءت بالفشل الذريع، وبعد لحظة إذ بأحد إخواننا يناديني من العربة الثالثة ويقول – لقد أسرنا قائد الفرقة وانا مع قوتي وأحضرت جميع العربات التي قابلتها في الطريق وعرفنا أن هذا الضابط تحرك قبل الموعد المتفق عليه بساعة".[٥]

وفي هذا الاطار تحركت مجموعة الضباط الأحرار لتفوّت الفرصة على الجميع وبدا قادتها كل منهم ينفذ دوره بدقة، فالضابط يوسف صديق كان برتبة قائمقام في سلاح المشاة وهي اعلى رتبة بين ضباط تلك المجموعة وكان أيضًا قائد حامية شمال القاهرة – واحتل العاصمة المصرية وخاصة مداخلها الشمالية، وتبعه خالد محي الدين الذي كان برتبة صاغ في تلك الفترة فقاد سلاح الفرسان وسمي بعد ذلك باسم سلاح المدرعات، بينما انتشر بقية الضباط بقيادة جمال عبدالناصر ومعه الصاغ صلاح سالم والصاغ عبدالحكيم عامر والصاغ زكريا محي الدين والصاغ حسين الشافعي فسيطروا على الجيش سيطرة تامة بناء للخطة التي وضعها عبد الناصر نفسه وكانت تقضي: "تعطيل فعالية الجيش، السيطرة على العاصمة، السيطرة على الإذاعة، ثم اعتقال جميع الشخصيات الهامة".[٦]

أجبرت حركة الجيش في ٢٦ تموز١٩٥٢ الملك فاروق على التنازل عن العرش لابنه الصغير أحمد فؤاد، ووضع مجلس وصاية.[٧] وتضمن البيان – بيان الحركة وذيّل باسم اللواء محمد نجيب على الرغم من أنه لم يكن له دور تنفيذي، اعلن محمد نجيب إلغاء دستور ١٩٢٣ وتولي حكومة انتقالية السلطة، وصدر مرسوم ينص على محاكمة المسؤولين عن استغلال النفوذ وفساد الحكم، وبتاريخ ١٩٥٣/١/١٨ صدر قانون بحّل الأحزاب السياسية وفي ١٩٥٣/٢/١٠ أعلن الدستور المؤقت ونص: "على تولي مجلس الثورة بالاشتراك مع مجلس الوزراء مهمة الحكم" وفي ٢/٢٣ أعلنت الثورة قيام هيئة تحرير تحّل محّل الأحزاب المنحلة وكان هدفها – إجلاء القوات البريطانية وإقامة نظام اجتماعي يكفل حماية المواطن من البطالة والمرض ونظام اقتصادي يكفل توزيع الثروات بشكل عادل ونظام سياسي يكفل المساواة أمام القانون.[٨] وفي ١٩٥٣/٦/١٧ ألغى اللواء محمد نجيب مجلس الوصاية الذي شكل بعد رحيل الملك فاروق واعلن عن سقوط أسرة محمد علي الملكية وأصبحت مصر جمهورية وفي ٦/١٨ عيّن اللواء محمد نجيب رئيسًا للجمهورية.[٩]

إن النظام الديمقراطي الذي سارت عليه مصر قبل عام ١٩٥٢ كان يُساير الأسلوب الغربي للديمقراطية البرلمانية ولكن هذا لم يتطابق مع الديمقراطية الحقيقية ليتوافق مع الأفكار المثالية، فقد أعلنت ثورة ٢٣ تموز أهدافها ومبادئها التي تؤمن بالفرد وتنظر إليه في اسمى معاني الديمقراطية باعتباره العنصر الذي يقوم عليه المجتمع السليم، وعلى هذا الفهم تبلورت أهداف الثورة في تحطيم كل القيود كما يراها احد قادة الثورة.[١٠] كانت أخطر مرحلة مرت بها ثورة ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٢ عندما حدثت أزمه مارس/ آذار ١٩٥٤ وملخصها: "إما أن يعود رجال الثورة إلى ثكناتهم وتطلق الحريات كاملة كما قرر جناح جمال عبد الناصر وأنور السادات، وأما استمرار الثورة بطريقة الإجراءات الاستثنائية كما اقترح الأخرون وكانت هذه هي البداية.. انقسام داخل مجلس قيادة الثورة ثم صراع حاد بين المجلس ومحمد نجيب".[١١]

يرى البعض فيما يتعلق بالحياة الحزبية: "كانت قرارات ٤-١٩٥٤/٣/٥ تضمنت اتخاذ الإجراءات الفورية لعقد جمعية تأسيسية عن طريق الاقتراع العام – على أن تجتمع في يوم ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٤، وقد دار حوار حولّ ما اذا كان من المُتعيّن من الوجهة الدستورية عودة الأحزاب القديمة للوجود قبل انتخابات الجمعية التأسيسية، ولم يعّن اللواء محمد نجيب كثيرا بهذه المسألة لان اهتمامه كان منصرفا إلى مسألة الاستفتاء على رئاسة الجمهورية"، وقد انتهى سليمان حافظ والدكتور العمري إلى إعداد مشروع تنظيم مقترح لنظام الحكم ولائحته وقد تضمن الأتي: "تشكيل وزارة مدنية تتولى السلطات التنفيذية والتشريعية وفقًا للدستور المؤقت، ويتولى مجلس الثورة أعمال السيادة فيما عدا تعيين رئيس الوزراء والوزراء، يكون الفصل بين رئيس الجمهورية والمجلس في حالة وقوع خلاف عن طريق هيئة تحكيم مكونة من ستة أعضاء، وينص المشروع على إلغاء الأحكام العرفية قبل ١٩٥٤/٦/١٨، والإفراج عن جميع المعتقلين الذين لم توجه لهم تهمة معينة تباشر النيابة تحقيقها، وبالنسبة للانتخابات تكون على أساس لا حزبي من إجراء استفتاء على الجمهورية والرئيس والإصلاحات ولكنه لم يحدد موعدًا لأجراء الانتخابات".

وعلى هذا النحو تحول الموقف إلى اللواء محمد نجيب الذي أعلن في اليوم التالي لصحيفة الأهرام: "أنه ليس في نيته إنشاء حزب جديد" بينما كانت كل القوى السياسية تطالب بتصفية حركة الجيش وعودة الضباط إلى ثكناتهم وهنا تأثرت قرارات ٤-١٩٥٤/٣/٥ وهنا جاء التدخل لحسم الأمر من قبل جمال عبدالناصر في ١٩٥٤/٣/٢٥.[١٢]

أما عن تأثيرات ثورة ٢٣ تموز/ يوليو عربيًا – على الرغم من أن كلمة القومية العربية لم ترد في الأهداف الستة للثورة. فإن تاريخ هذه الثورة يعتبر فصلاً من اهم فصول صراع العرب من اجل التحرر والوحدة... وعن ثورة ٢٣تموز/ يوليو والصلات العربية كما نشرت في جريدة المصري يوم ١٩٥٣/٨/١٦: "كانت هنالك رسالة إلى محمد نجيب يستنجد فيه علال الفاسي رئيس حزب الاستقلال المغربي من خطر فرنسا في محاولة لعزل السلطان محمد الخامس، وأول رئيس عربي زار مصر بعد الثورة فقد كان أديب الشيشكلي رئيس سوريا، وفي ١٩٥٣/١٠/١٢ صدرت جريدة القاهرة المسائية بدعم من المملكة العربية السعودية، وقام صلاح سالم بجولات في العالم العربي فبدأ بزيارة السودان، ثم لبنان وبعدها اليمن وقام بزيارة العراق عام ١٩٥٤، وكانت ساعة الصفر لثورة الجزائر أعلنت من إذاعة صوت العرب بالقاهرة لأحرار الجزائر عام ١٩٥٤، وأنشئت في مصر إذاعة كردية ضد سياسة نوري السعيد رئيس وزراء العراق وحلف بغداد وكان أكراد العراق يمدونها بالأخبار والتعليقات والأسطوانات أيضًا، وأوفد الرئيس جمال عبدالناصر وزيره فتحي رضوان إلى الملك حسين في أول رحلة تقارب مع الأردن، ويقول عبدالناصر للصحفي البريطاني ديزموند ستيوارت في حديث معه يوم ١٩٥٥/٤/١: "تبلورت في ذهني فكرة القومية العربية كمذهب سياسي عندما كنا ندرس في كلية أركان حرب، المشكلات الاستراتيجية الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط".[١٣]

وكان موقف الجمهورية المصرية أو العربية المتحدة مشرفًا من ثورة العراق في ١٤تموز/ يوليو١٩٥٨، وسبق للرئيس عبد الناصر أن ابدى تأييده لها منذ العام ١٩٥٦.[١٤] وفي هذا الصدد، كان هنالك تصريح صحفي للرئيس جمال عبد الناصر لسلوين لويد أثناء زيارته للقاهرة في مارس/ أذار ١٩٥٦ والتي تصادف خلالها إقالة الجنرال كلوب واعتقاد سلوين لويد أن عبد الناصر وراء هذه الخطوة: "إذا كنت تظن أن لديّ على مكتبي أزرارًا اضغطها فتنشب ثورة في العراق أو يحدث انقلاب في بلد كذا أو تنفجر قنبلة هنا أو تقوم مظاهرة هناك فأنك تغدق على قوى خارقة لا أملكها.. فلا تبالغ في أهميتي".[١٥]

ومن الجدير بالذكر حول تأثر خلايا الضباط الأحرار العراقيين يقول الدكتور فاضل حسين في كتابه سقوط النظام الملكي في العراق، ص٤٠: "بعد أسابيع قليلة من نجاح الثورة المصرية التي أعادت الثقة للنفوس وقضت على كل تردد أو خوف".[١٦] لقد كانت تجربة مصر مع جيشها ماثلة أمام الضباط العراقيين الذين لم يملكوا سوّا أن يقارنوا بين دور الجيش المصري الرائد في ثورة ٢٣تموز/ يوليو ١٩٥٢ التي أسقطت النظام الملكي.[١٧] وعلى أي حال فقد كانت الأمور قبل ثورة ٢٣تموز/ يوليو، توجهات مصر عربيا متحفظة إزاء الفكر القومي العربي أما مع ثورة مصر فقد أعطت الدور القيادي في سياسة العالم العربي وكما حددها عبد الناصر في كتابه فلسفة الثورة.[١٨]

أما عن ثور ٢٣تموز/ يوليو وقائدها والإسلام السياسي، لم يساند جمال عبدالناصر جماعات وجمعيات دينية متعصبة، وإنما رفع راية الإسلام دون عنف أو تعصب لدين أو مذهب أو طائفة، ففي عهد الثورة والرئيس جمال عبدالناصر هو أول زعيم مسلم يتم في عهده جمع القران الكريم مسموعا في أسطوانات بصوت القراء المصريين وقام بتطوير الأزهر الشريف وجعل منه جامعة عصرية وأنشأ مدينة البعوث الإسلامية وتم ترجمة القران الكريم إلى كل لغات العالم وأنشأ

إذاعة القران الكريم وطبعت ملايين النسخ من القران وأهديت إلى البلاد الإسلامية وأصدر قانونًا بتحريم القمار واصدر قرارًا بأغلاق المحافل الماسونية ونوادي الروتاري والغى الدعارة التي كانت مقننة في العهد السابق.[١٩]

ففي هذا الزمن القصير تغيرت معالم كثيرة في حياة شعب مصر وفي حياة الشعب العربي كله فانتقلت مصر من عصر إلى عصر، وانتقل النضال العربي الثوري من مرحلة إلى مرحلة حيث انتقلت مصر: "انتقلت إلى التحرر الكامل اقتصاديًا وسياسيًا وثقافيًا، حتى وصل دخل الفرد من ٣٦ جنيهًا في العام إلى التصنيع والتقدم وخطة مضاعفة الدخل القومي في خلال سنوات ليصل دخل الفرد إلى ٨٠ جنيها، ومن الاستغلال والنظام الاجتماعي الإقطاعي إلى المساواة، ومن حياة ديمقراطية شكلية إلى سيادة وكرامة للمواطن المصري".[٢٠]

كذلك تجربة تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ لفتح موارد للبلد وللتنمية كخطوة عظيمة، وفي هذا الشأن يرى البعض وللحقيقة والتاريخ: ضربت الفأس الأولى في أعمال حفر القناة في أرض فرما "بور السعيد" حاليًا يوم ٤/٢٥ عام ١٨٥٩ ضرب الفلاح المصري المعّول الأخير في السد الذي أقيم أمام مياه البحر الأحمر في الشلوفة بالقرب من السويس.. وفي يوم ٨/١٨عام ١٨٦٩ تلاقت مياه البحرين الأبيض المتوسط والأحمر، ونتج عن هذا اللقاء ذلك الشريان الحيوي للملاحة العالمية الذي افتتح رسميًا يوم ١٨٦٩/١١/١٧م.[٢١] لقد كان تحول أوضاع البلاد على الطريق الاشتراكي ذات أهمية ولابد هنا من استعراض سريع للإجراءات والإنجازات التي تمت في مختلف الحقول السياسية الاقتصادية والتي ترسم بمجموعها حدود هذه التجربة:

– قطاع الزراعة

صدر أول قانون للإصلاح الزراعي عام ١٩٥٢ وهو القانون ١٧٨ لسنة ١٩٥٢ الذي جرى بموجبه تحديد الملكية الزراعية ونزع ملكية الأراضي الزراعية لكل شخص بما لا يزيد عن مائتي فدان غير أن قوانين عديدة قد صدرت فيما بعد وأجريت على هذا القانون بعض التعديلات لصالح الفلاحين ودون المساس بمبدأ الملكية الصغيرة فيه، وقد خفض الحد الأعلى لملكية الفرد في الأراضي الزراعية إلى مائة فدان وصدرت قوانين بإلغاء التعويض على الإقطاع وبذلك بقي قطاع الزراعة في معظمه قطاعًا خاصًا لتسوده الملكية الصغيرة والمتوسطة.

-القطاع العام

لقد بدأ تشكيل نواة هذا القطاع قبل صدور قوانين التأميم، وتشكيل عدد من المؤسسات الاقتصادية هيئ لها أن تسيطر بصورة تدريجية على جانب هام من النشاط الاقتصادي خارج القطاع الزراعي، وتم تأميم المشروعات الإنكليزية والفرنسية في البنوك والتامين والوكالات التجارية عام ١٩٥٧ والمشروعات البلجيكية عام ١٩٦٠ وجرى تشكيل مؤسسات عامة ترتبط كل منها بالوزارة المختصة واسهم القطاع بدور أساسي في التحول الاشتراكي ويتضح من خلال:

-**قطاع الصناعة**: يشرف القطاع العام على معظم المؤسسات الصناعية في البلاد وقد سارت الدولة منذ قرارات تموز/ يوليو١٩٦١ وماثلاها على أساس تأميم المشروعات الصناعية الهامة والأساسية تأميمًا كليًا أو جزئيًا وارتفع عدد العاملين وازدادت نسبة الدخل الصناعي إلى الدخل القومي وارتفع النمو السنوي خلال مدة الخطة الخمسية الأولى ١٩٦٠ - ١٩٦٥.

- **قطاع الخدمات المصرفية**: أصبح القطاع العام مسيطرًا سيطرة تامة حيث تبلغ نسبته ١٠٠.

-**قطاع التجارة**: يسيطر القطاع العام على التجارة الخارجية وتبلغ نسبته فيها ١٠٠ بينما القطاع الخاص ٨٦ من التجارة الداخلية.

-**قطاع النقل**: فتبلغ نسبته ٥٢ حيث تمتلك الدولة قطاعًا عامًا في النقل البري والبحري والجوي يمثله أسطول بحري وجوي وعدد كبير من سيارات النقل وفي هذا المجال يجدر التنويه إلى أهمية تأميم الدولة لقناة السويس التي كانت تشكل سيطرة القوى الاستعمارية عليها ركيزة أساسية والتي تشكل عائدتها جزءًا أساسيًا من الدخل الوطني.[٢٢]

-**قطاع المقاولات**: تمتلك الدولة قطاعا عاما للمقاولات ولكن هذا القطاع تعرض لمختلف عمليات المضاربة والاستغلال طوال سنوات عديدة وخاصةً من قبل المقاولين الثانويين "مقاولين الباطن" ولقد زادت عمليات الاستغلال هذه إلى ارتفاع تكاليف البناء والإنشاءات مما دفع الدولة إلى إعادة تنظيم هذا القطاع وعملت على تشكيل جمعيات تعاونية لأعمال المقاولات الحرفية لحماية مئات الألوف من العمال المهرة.

-**قطاع الإسكان**: وتقوم الدولة بتنظيم ومراقبة هذا القطاع بمختلف الطرق والإجراءات كفرض ضريبة تصاعدية على إيرادات العمارات السكنية والتدخل لخفض الإيجارات

والإسهام ببناء العمارات السكنية الشعبية وامتلاك المباني وتأجيرها.[٢٣]

ومن أهم المشرعات التنموية على سبيل المثال لا الحصر مشروع القرن العشرين – مشروع السد العالي ويتكون المشروع من شكل هندسي بارتفاع ١٨٢ مترًا وعرض ٣ أميال وقدرة خزن للمياه بحوالي ١٣ مليون متر مكعب، لقد كان من الواضح أن السد العالي الحل الوحيد لخلاص مصر من دائرة الضيق الاقتصادي التي ورثتها من العهد السابق، وقد نضج مشروع السد العالي في عقول الخبراء المصريين كمجموعة حلول لمجموعة من الحاجات والمشكلات منها: "توسيع مساحة الأراضي المزروعة لجانبي النهر، عدم ضياع أغلب مياه النهر في البحر، السيطرة على ارتفاع وانخفاض مستوى النهر خلال المواسم، أن المياه المخزونة تكفي لري مليون دونم من الأراضي المزروعة سنويًا، الاستفادة من انحدار المياه المتساقطة لتوليد الطاقة الكهرومائية، أن السد العالي القوة المحركة للصناعة لاستيعاب قوة عمالة ضخمة".[٢٤]

ولأهمية الموضوع نسلط الضوء بشكل موجز: "يرى أحد الأكاديميين المصريين – كان الشائع في العالم أن تُقام السدود من النوع البنائي، أما السدود الركامية التي تتكون بطريق الردم من المواد المفككة من الصخر والطين والرمل فلم تكن منتشرة برغم كونها أقدر على تحمل أخطار الهجوم الجوي والطوربيد المائي فضلاً عن سهولة إعادة ترميمها وأخذت الحكومة المصرية بالنوع الأخير. هذا الموقف الذي وقفته الثورة من المشروع يعكس حقيقتين الأولى – إيمانها بأن البلاد في حاجة تنمية اقتصادية متعددة الجوانب والسد العالي وهو ما يعرف باسم المشروعات المتعددة الأغراض malti-parpose، والثانية – أن الثورة غير هيابة من الأخذ بالجديد فارتفاع السد سوف يكون ١٨٢م وسوف يحّول دون تسرب قطرة من ماء النيل إلى البحر. وهنا لعبت السياسة الدولية دورًا مألوفًا في محاولة استغلال الموقف لخدمة أغراض معينة وكان سحب العرض "عرض التمويل" من جانب الولايات المتحدة وبريطانيا والبنك الدولي".

تقرر إسناد عملية بناء المرحلة الأولى للسد إلى مؤسسة مصرية هي المقاولون العرب – عثمان احمد وشركاه وكانت النتيجة أن المقاولين العرب على حد قول رئيس مجلس الإدارة عثمان أحمد عثمان في محاضرته عن السد العالي من النواحي التاريخية والهندسية والاقتصادية: قد اسهموا بالحمل الأكبر في أعمال المرحلة الأولى للسد العالي، فقد قاموا بأعمال الحفر في القناة وأعمال الحفر بمحطة الكهرباء ومداخل الإنفاق وإنشاء السدود وهذا الجهاز الضخم كان يضم ١٧٠٠٠ من الموظفين والعمال، وكان النتيجة أيضًا أن أسندت إلى هذه المؤسسة العربية أعمال المرحلة الثانية من المشروع فضلا عن تنفيذ الخط الكهربائي في المنطقة من أسوان إلى سوهاج ويبلغ طوله ٢٥٠ كيلومترًا. ولم يكن الأمر يسيرًا، بل صادف الشركة الكثير من العوائق ومشاق العمل في طرق جبلية وصحراوية وعرة غير ممهدة وسط حرارة تتجاوز ٥٠ درجة وتهبط إلى ما دونَ الصفر ليلاً وغيرها من مستلزمات العمل الميدانية.[٢٥]

ووافق الاتحاد السوفيتي (سابقًا) على تقديم سلفة أولية قيمتها ٣٢٠ مليون دولار في عام ١٩٥٨، وأسهم في جميع مراحل تصميم وبناء السد العالي، وأنشأت الحكومة المصرية هيئة إدارية خاصة للإشراف على المشروع، ونتيجة لأعمال بناء السد جرى تهجير (ترحيل) سكان النوبة الذين كانوا قد استقروا في المناطق شمالي السد وحول "كوم أمبو"، وتم حل المشكلة الناجمة عن تعرض آثار "أبو سمبل" للغرق في البحيرة التي تقرر أنشاؤها خلف السد بمشاركة (اليونسكو)، حيث نظمت حملة عالمية لجمع الأموال اللازمة لرفع ثلاث معابد كبيرة ونقلها: اثنان في "أبو سمبل" (انتقلا في ١٩٦٨)، ومعابد "فيلة" (أعيد افتتاحها في موقع جديد عام ١٩٨٠). وافتتح السد العالي رسميًا في ١٩٧١/١/١٥ (ذكرى ميلاد الرئيس جمال عبد الناصر)، وأصبح السد العالي بمدينة أسوان يتقدم واحدة من أكبر الخزانات في العالم – بحيرة ناصر – التي تغطي مساحة ٢٠٠٠ ميل مربع.[٢٦]

وعلى صعيد أخر كان لثورة يوليو ١٩٥٢ تأثيرات على اتجاهات الثقافة العربية – مع مسألة مهمة وهيّ الثقافة مع ثورة ٢٣ يوليو، من وجهة نظر البعض «ما سمّي لسنوات بأزمة المثقفين بين الثورة والمفكرين في مصر مصدره شيء واحد هو عزلة قيادة الثورة عن هذا الفريق من الشعب».[٢٧]

يمكن القول أنه منذ اللحظة الأولى لثورة ٢٣ يوليو أدرك الرئيس جمال عبد الناصر ومن معه من الضباط الأحرار أن حماية الثورة لا تكون بالسيف بل بالقلم وفي الثقافة، الضباط الآتون من أصقاع أيديولوجية متفرقة حسبوا دائما حساب الأفكار، وقرروا أن الطريق السياسية والاجتماعية التي اختاروها بعد الثورة تستلزم أن تُشق بموازاتها طريق ذهنية تشرح إنجازات الثورة، لهذا أسسوا وزارة الثقافة والإرشاد القومي واختاروا الأديب والمترجم فتحي رضوان الذي كان سجينا ومعتقلا في العهد الملكي، وأنشأت ثورة ٢٣ يوليو قصورًا للثقافة.

لقد انطلقت الثورة من دون إطار أيديولوجيا حاكم بل كانت هناك مجموعة من المبادئ والضوابط الثقافية هي المبادئ الستة التي مثلت قواعد الحركة ومؤشرات تحتاج إلى إثراء فكري وهنا برز دور عبد الناصر كإنسان عربي التوجه ومثقف تجاوز ثقافته العسكرية التقليدية إلى الاحتكاك مع الأفكار والثقافات الأخرى المطروحة في العالم. فعبد الناصر بلور نظرية ثورية للتغيير من نهج التجربة والخطأ، وهذا المنهج يستلزم ثقافة موسوعية تسمح لصاحبها باختبار الأفكار نظريًا ثم تجريب الأصلح في ارض الواقع بعكس المؤمنين بنظرية محدودة وأيديولوجيا مكتملة فهي لا تحتاج أكثر من الوعي بالأسس النظرية والإجادة في التطبيق العملي. حسبما يقول عاطف العراقي.

ويرى الدكتور حسام، عقل أستاذ النقد الأدبي في مصر: «أن أسباب نجاح الضباط في التدبير لحركة الجيش، أنه لم يكن لأي منهم أيديولوجيا خاصة فإن هذه الميزة بقدر ما كانت إيجابية في النشاط الباكوري للحركة غير أنها تحولت بمرور الوقت أصبحت أزمة خانقة».[٢٨] إن الفنان والأديب والناقد لا بد أن تكون لديه عقيدة سياسية مواكبة لتطورات الحركة الاجتماعية ومن هنا اعترف الجميع بأن ثورة ٢٣تموز- يوليو أحست بنبض الجماهير وبالتالي انطلقت ومعها ثورة الإبداع.

ويؤكد المفكر والناقد محمود أمين العالم «إن ثورة يوليو فجرت ملامح الإبداع ليس في الرواية فحسب، بل في شتى الوان الأدب والفنون وأحدثت نقل ثقافية شهدت مرحلة تغيير حقيقية في الثقافة خاصة جيل الرواد أمثال عبدالرحمن الشرقاوي ونجيب محفوظ، فالشرقاوي كتب رائعته «الأرض» قبل الثورة وعام ١٩٥٣ نشرت أما نجيب محفوظ فقد انتظر سنوات بعد الثورة كي يتمكن من استيعاب أحداثها وتناول فكرة العدالة الاجتماعية في رواية «أولاد حارتنا»* عام ١٩٥٨». ويقول الروائي سليمان فياض: «إن ثورة ١٩٥٢ كانت مرحلة حاسمة في تاريخ الثقافة العربية، لأنها عبرت بقوة عن الظلم الواقع على المواطنين في شخص الفلاح وكانت الأرض أبرز مثال على ذلك»، ونشطت الكتابات التي تنتمي إلى الواقعية الاشتراكية مثل كتابات الشرقاوي وسعد مكاوي ويوسف إدريس ونشط اتجاه الواقعية النقدية أيضًا أمثال صبري موسى وإدوارد خراط وبعد نكسة حزيران ١٩٦٧ بدأ النقد ينتقل لسلبيات الثورة.[٢٩]

وكذلك القاص سعيد الكفراوي: «عندما جاءت ثورة ٢٣ يوليو كانت تجسيدًا لحلم ظلت الحركة الوطنية تسعى لتحقيقه».

كما شهد الإبداع المسرحي مرحلة مهمة والكاتب والناقد د. حسن عطية له شهادة مهمة عن علاقة الثورة بالإبداع المسرحي وهو هنا يفسر ظاهرة مسرح الستينات كأهم ظاهرة ثقافية في العالم الثالث بقوله: «الأعمال المسرحية التي قدمها جيل كان يمثل هذه الثورة ثقافيًا وإبداعيًا مثل أعمال نعمان عاشور وسعدالدين وهبة ومحمود دياب ونجيب سرور وغيرهم والتي منحت المسرح المصري مكتبة من النصوص الدرامية التي تُعَدّ ذخيرة أساسية للمسرح العربي كلهُ».

وتبقى الأفلام التي مازلنا نتشبث بها ونعرضها في مناسباتنا القومية مثل الأرض والناصر صلاح الدين والقاهرة ٣٠ وغيرها من الأعمال السينمائية بفضل جيل من المخرجين ظهر في هذه الحقبة أمثال كمال الشيخ ويوسف شاهين وصلاح أبو سيف وغيرهم. ويقول الفنان حمدي أحمد «إنني أترحم على أيام ثورة يوليو في ظل تلك الأوضاع المتردية والحركة الفنية الغائبة، فعندما كانت مؤسسة السينما تقدم كل عام ٢٠٠ فيلم من وجدان الأدب المصري والعالمي، أترحم على ما آلت إليه السينما المصرية من تشويه للشخصية والأسرة المصرية، وعندما أسست مكتبة بها ما يقرب من ألف كتاب بأقل الأسعار التي في متناول يدي وكان راتبي لا يتعدى الـ ٢٥ جنيها، أترحم على أيام الثورة فالرجاء أن تترحموا معي»؟[٣٠]

الثقافة كما عرفها طه حسين: «تبدأ من التعليم، فالتعليم عنده هو مستقر الثقافة». فإذا أردنا أن نحسب ما للثورة وما عليها في علاقاتها بالثقافة وجب الإشارة أولاً إلى دور الثورة في فتح أبواب التعليم بالمجان لأبناء الشعب وتطويره والدخول إلى مجالات جديدة وبتلك الخطوة تثقف مئات الآلاف من أبناء الشعب. ونشير هنا حتى باقي الأعمال الأدبية والفنية التي حاولت التصدي للثورة فسُمح العمل بها أمثال «شيء من الخوف» لثروت أباظة وكتاب «بنك القلق» لتوفيق الحكيم والذي وافق على نشره جمال عبدالناصر في صحيفة الأهرام مسلسلاً رغم أن المشير عبدالحكيم عامر اعتبره مسيئًا للنظام وللمخابرات المصرية تحديدًا.[٣١]

وكذلك أشار الرئيس جمال عبد الناصر بخطابه في جامعة القاهرة بتاريخ ١٩٦٨/٤/٢٥ قائلاً: «لابد للمثقف أن يدرس أحوال المجتمع، لا بد أن يعاني ما يعانيه المجتمع، لا بد للمثقف أن يستوعب مشاكل المجتمع وأمانيه، وبهذا يكون المثقف فعلاً يؤدي دوره كمثقف ثوري ويعمل لمصلحة الجماهير ولمصلحة الشعب ولمصلحة الحياة». وقول أخر عن العصرية «قد يتصور البعض العصرية تعني الانقطاع عن الماضي والحرص على

التقاليد لا تعني الانقطاع عن المستقبل. المسألة مش مسألة أشكال ومظاهر سطحية... العصرية الحقيقية هي التجديد في الأصالة».[٣٢]

وبالنسبة للصحافة والثورة نحاول إيجاز بعض الشيء. ليس سرًا ذلك الدور العظيم والمجيد الذي لعبته الصحافة المصرية في التمهيد لقيام ثورة ٢٣يوليو ١٩٥٢، ولا أحد ينسى لـ "روز اليوسف" دورها وكاتبها إحسان عبد القدوس في حملة الأسلحة الفاسدة التي شابت معركة فلسطين. وكذلك صحف أخرى أمثال جريدة المصري واللواء الجديد والكاتب والملايين والجمهور المصري والدعوة والاشتراكية وغيرها*. أما العلاقة بين الصحافة ورجال الثورة يمكن أن يتضح من خلال المثال الاتي على سبيل الطرح: عندما خرجت روز اليوسف صباح ١٩٥٣/٥/١١ وعلى صفحتها الثالثة رسالة خطيرة كتبتها السيدة "فاطمة اليوسف" إلى " جمال عبدالناصر" ثم رد من جمال عبدالناصر نُشر في نفس العدد وتضمنت عبارة " انك باختصار – في حاجة إلى الخلاف.. تمامًا كحاجتك إلى الاتحاد. أن كل مجتمع سليم يقوم على هذين العنصرين معًا، ولا يستغنى بأحدهما عن الأخر، الاتحاد للغايات البعيدة والمعاني الكبيرة والخلاف للوسائل والتفاصيل، انظر إلى الأسرة الواحدة في البيت الواحد، قد تراها متماسكة متحابة متضامنة.. ولكن كل فرد فيها يفضل نوعا من الطعام، ويتجه إلى طراز من العمل، ويروق له من الثياب. ثم انظر إلى أسرة الوطن الكبير –أي وطن كبير- تجد هذا التباين والخلاف موجدا بينهم في أدق دقائق الحياة، وفي طريقة تذوق الحياة ذاتها". وكان رد جمال عبد الناصر على النحو التالي: "وأما إني في حاجة إلى كل رأي فقد أعلنت هذا ولن امل تكرار إعلانه ليس من أجلي وإنما من أجل مصر. وأما حاجتنا إلى الخلاف في التفاصيل قدر حاجتنا إلى الاتحاد في الغايات، فأنا مؤمن به واثق انه من أسس الحرية الصميمة بل من أسس النظام أيضًا. وأنا أكره بطبعي كل قيد على الحرية وأمقت بإحساسي كل حد على الفكر على أن تكون الحرية للبناء وليس للهدم وعلى أن يكون الفكر خالصًا لله والوطن.. لا تحرج بهما شهوات وأغراض ومطامع عن هذه المثل إلى انقلاب مدمر يصيب مصالح الوطن المقدسة ببالغ الأضرار".[٣٣]

كل هذه الإنجازات لا بد من أن تتوقف من وجهة النظر المُخالفة لتلك الإنجازات وهذا يذكرنا بعبارة: "كل حرب في التاريخ بقية مُعلقة من حرب سبقتها، والنتائج التي انتهت إليها معركة السويس سنة ١٩٥٦ هي بذاتها مقدمات الأعداد لمعركة سيناء سنة ١٩٦٧".[٣٤]

بعدما حققت مصر في ثورتها من عام ١٩٥٢ وحتى ١٩٦٧ تقدمًا هائلاً في مشروعاتها الإنتاجية ولكن الإنفاق الهائل على أغراض الدفاع وأعباء الجيش المصري في اليمن، بالإضافة إلى عمل الدول الغربية المتواصل للإطاحة بحكم جمال عبدالناصر ففي ٧نيسان/ أبريل ١٩٦٧ وقع اشتباك على الحدود السورية الإسرائيلية، وأعلنت الجمهورية العربية المتحدة (مصر) وقوفها إلى جانب سوريا مهددة بالقيام بعمليات كبيرة، وبالمقابل طلب عبدالناصر سحب القوات الدولية من مضيق تيران ومنع مرور السفن في ميناء إيلات الإسرائيلي، مما جعل أمريكا وبريطانيا تعتبران التصرف المصري مضاد للمصالح الإسرائيلية، وطلبت فك الحصار عن مضيق تيران وتحرك الأسطول السادس الأمريكي لمساعدة إسرائيل.[٣٥]

ومن الجدير بالذكر أنه في يوم ١٩٦٧/٥/١٦ أصدر نائب القائد الأعلى توجيهاته التي نصت على انه تقرر سحب قوة الطوارئ الدولية التي تعمل في أراضي مصر وجاءت بناء على طلبنا والتي تستغلها البلاد العربية المعارضة لنظامنا في معركتها السياسية الدعائية، مُدعية أن هذه القوات تحمي الجمهورية المتحدة وأضاف المشير عبد الحكيم عامر بان انسحاب القوات الدولية قد يكون مبررًا لاحتمال قيام إسرائيل بعمل عسكري خصوصا وقد بدأ ظهور تحركات إسرائيلية في اتجاه حدودنا. وختم نائب القائد الأعلى توجيهاته بانه لا خوف على شرم الشيخ؟ بل أصدر نائب القائد الأعلى توجيهاته التفصيلية الخاصة بالأعمال التعرضية التي قد تقوم بها قواتنا إذا بدأت إسرائيل بالعدوان. وتنفيذًا لتوجيهات القائد الأعلى ارسل الفريق محمد فوزي رئيس هيئة أركان حرب في نفس اليوم برقية إلى الجنرال (ريكي) قائد قوات الطوارئ.[٣٦]

أما الموقف السياسي الداخلي لمصر يرى الكاتب الصحفي العربي عبد الله إمام: "إن مراكز القوة تُهيْمن على الموقف الداخلي، لم يستطيع عبد الناصر التخلص منها إلا بعد النكسة، وعندما أراد عبد الناصر أن يُغير بعض القيادات العليا عن طريق مجلس الرئاسة اعترض المشير عامر وقدم استقالته إلى جمال عبدالناصر واختفى في مرسى مطروح وفي الوقت الذي اختفى فيه المشير كانت كل القيادات تضغط من أجل عودته حتى استطاع صلاح نصر (مدير المخابرات) أن يعثر عليه، ولم يُنفذ قرار مجلس الرئاسة وظلّت القيادات تحتل مواقعها حتى نكسة ١٩٦٧".[٣٧]

لا يسعنا إلا أن نذكر الدور البطولي للجيوش العربية وأقطار المواجهة وخاصةً الجيش المصري في حرب الاستنزاف ١٩٦٧-١٩٧٠ وكما يرى الدكتور والمؤرخ عاصم الدسوقي: "إنّ هذه الحرب أجهدت إسرائيل واضطرتها إلى استدعاء قوات الاحتياط الأمر الذي اثر سلبًا في مختلف المجالات بإسرائيل".[٣٨] وفي الشأن ذاته يذكر السيد صبحي ناظم توفيق (عميد ركن متقاعد – دكتوراه بالتاريخ العسكري)، عن ما اطلّع عليه في تلك الأيام قائلاً: "كُنا نتناول طعام الغذاء بمطعم كلية الأركان عندما صاح أحدهم أن حربًا جديدة تبدو أنها اندلعت بين العرب واليهود، قدرناها في أولى ساعاتها نوعًا من الاشتباكات بالمدافع والطائرات والرشاشات، والتي تندلع بين هذا وذاك في أحيان كثيرة وسط عاميّ ١٩٦٩-١٩٧٠، وخصوصًا قبل الاتفاق على قبول مشروع روجرز، وذلك في خروقات موضعيّة – خنادقية لوقف إطلاق النار، أطلقّت عليها حرب الاستنزاف".[٣٩]

وكانت الضربة المؤلمة لهذه الحرب إن جاز التعبير في إيلات حيث "كان كل شيء يبدو هادئًا مساء يوم السبت ١٩٦٧/١٠/٢١، إلا في قيادة القوة البحرية وقيادة القوات المسلحة المصرية، فقبل دقائق استطاع لنشا صواريخ في معركة بحرية لم تستغرق ثوان تدمير المدمرة الإسرائيلية إيلات داخل المياه الإقليمية المصرية شمال شرق بور سعيد". واستمع العالم لأول مرة إلى الخبر من بلاغ عسكري أصدرته القيادة المصرية قالت فيه: "في الساعة الخامسة مساء اليوم اقتربت قطعة من قطع أسطول العدو من شواطئنا شمال بور سعيد" وبرغم أن سرب لنشات (زوارق) الصواريخ أفاد بأنه أغرق مدمرة كبيرة فإن البلاغ الأول للقيادة لزم جانب التحفظ وأعلن عن إغراق "قطعة بحرية" للعدو ولم يذكر أنها مدمرة، واستمر الصمت الإسرائيلي لمدة ثلاث ساعات بعدها خرجت أول برقية من تل أبيب تؤكد وقوع معركة بحرية وضرب مدمرة.[٤٠] لتأتي بعدها مرحلة التجهيز لحرب التحرير العام ١٩٧٣، لقد كانت هذه الثورة في التاريخ جزء من كل ومشهد في قصة، والسؤال ماذا تبقى من هذه الثورة العظيمة؟

خاتِمَةٌ

إنَّ ثورة يوليو ١٩٥٢ هيّ حاصل تحصيل التراكمات السلبية التي عانت منها مصر خصوصًا والأقطار العربية عمومًا، طيلة فترات زمنية، كأقل ما نقول عنها (مُظلّمة) – حتى جاء الجيل الساعي للتغيير في موعده مع القدر، ليقوم بالتحول التاريخي المعاصر ما بين مرحلة قديمة ومرحلة جديدة تحمل رياح التغيير والعدالة والتقدم ويمكن ملاحظة أن ثورة يوليو ١٩٥٢ وضعت سياقًا تاريخيًا جديدًا. وأصبحت هي أم الثورات العربية المعاصرة وبكل ما تحمله من رياح التغيير السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

على الصعيد العربي تحققت الوحدة بين القطريين الشقيقين مصر وسوريا تحت مسمى الجمهورية العربية المتحدة، لتنظم إليها باقي الأقطار تباعًا ولم تتحقق الإرادة الكاملة ليحدث الانفصال في سبتمبر ١٩٦١، وكذلك أسهمت ثورة يوليو بدعم حركات التحرر العربي والأفريقية والأسيوية. لقد حققت ثورة يوليو عدالة اجتماعية منبثقة من بناء اقتصادي سليم يسير على خطى الاشتراكية العلمية من خلال مشاريع عملاقة ومصانع وخطوات التأميم المدروسة والإصلاح الزراعي ولكن في الوقت ذاته حدثت مشاكل في هذا الجانب حول مسألة الأراضي الزراعية وأدامتها وغِلتّها وصعوبة التعامل مع مساحات صغيرة، كذلك الإنفاق الحربي وحرب اليمن التي أرهقت الجيش المصري، تطلبت جميعها رؤوس أموال أسهمت بنوع من العجز المالي، يضاف لها قضية السد العالي هذا المشروع الجبار، حاول العديد عرقلة بناء السد العالي، باعتبار أن الأراضي التي ستغمرها المياه اغلبها مناطق أثرية، ولكن حرص الحكومة على شعبها ورفاهيته كان شغلها الشاغل ومع هذا نقلت المعابد المهمة عن طريق تفكيكها بمساعدة شركات عالمية إلى مناطق آمنة اكثر وكذلك مسألة مياه النيل التي سوف تسقى الأراضي الزراعية فيها ستكون من غير فائدة عضوية وما يُعرف بترحيل بعض القرى إلى مناطق مختلفة من مصر، والنتيجة أثبتت فيما بعد أهمية المشروع وتوفير القوت والحياة الكريمة للمواطن المصري.

وعلى صعيد آخر لم تكن فترة الثقافة صعبة على المثقفين والفنانين وشهدت تلك الفترة أضخم النتاجات الفكرية والأدبية والفنية والتي قلّما تكررت في وقتنا الحاضر. لقد أسهمت نكسة يونيو ١٩٦٧ بخلل كبير، وكانت بداية لمُحاربة نمو التحرر العربي أو إيقاف تمدده متمثلاً بنظرية القومية العربية التي حققت نجاحات واسعة على ارض الوطن العربي تحمل معها رياح

الاستقلال والعدالة الاجتماعية والنمو الاقتصادي بمختلف أشكاله وتطور التعليم. والغاية المخفية مما وراء الحرب هي تدمير وقتل ورهائن (أسرى) وتفكك اجتماعي واقتصادي يلحق بالطرف الأخر وتحطيم الروح المعنوية التي اكتسبها المواطن المصري خصوصًا والعربي عمومًا. إذن كان الهدف من النكسة هو سحب الثقة من النفوس وتحطيم المعنويات بأمل مُشرق ينتظر الإنسان على امتداد هذه المساحة من الأرض. إضافة إلى أنه يحدث دائمًا ما يُعرف (عدم تقدير موقف) لتداخل القرارات السياسية والعسكرية معًا أحيانًا بالرغم من دور جهاز المخابرات العامة الذي كان مُشرفًا وحددت موعد الهجوم قبل أيام على حد وصف البعض. إن رجال الثورة هم من بني البشر والبشر يصيبون ويخطئون باستثناء الأنبياء، والقول هنا أي خطأ حدث لا يحسب بالقياس المطلق ويبقى بشكل نسبي اتجاه النوايا الحسنّة والمخلصة التي حققها هؤلاء الرجال.

الاحالات المرجعية:

(١) جلال فاروق الشريف، "**حول أزمة المجتمع العربي المعاصر**"، مجلة المعرفة، دمشق، السنة ١٨، العدد ٢١١، ١٩٧٩، ص٥.
(٢) إبراهيم خليل أحمد (دكتور)، **تاريخ الوطن العربي المعاصر**، ط٢، الموصل، ٢٠٠٥، ص١٨٢.
(٣) المرجع ذاته، ص ١٨٢-١٨٣-١٨٤.
(٤) محمد علي القوزي (دكتور)، **دراسات في تاريخ العرب المعاصر**، ط١، بيروت، ١٩٩٩، ص٢٥٤.
(٥) جان نانو، **موت مشير**، ط١، بيروت، د.ت، صص٤٣-٤٤.
(٦) **مجلة الدستور**، لبنان، السنة الثالثة، العدد ١٤٧، ١٩٧٣/٨/٢٦.
(٧) إبراهيم خليل أحمد (دكتور)، جعفر عباس حميدي (دكتور)، **تاريخ العراق المعاصر**، ط١، الموصل، ١٩٨٩، ص١٨٥
(٨) إبراهيم خليل أحمد (دكتور)، **تاريخ الوطن العربي**، ص ١٨٥.
(٩) محمد علي القوزي (دكتور)، المرجع السابق، ص٢٥٥.
(١٠) كمال رفعت، **الديمقراطية في المجتمع الاشتراكي**، كراس المؤسسة الثقافية العمالية، مصر، د.ت، ص٢٤.
(١١) **مجلة صباح الخير**، مصر، العدد ١٠٥٢،٤/ ٣/ ١٩٧٦.
(١٢) المرجع ذاته.
(١٣) **مجلة صباح الخير**، مصر، العدد ١٠٧٢،٢٢/ ٧/ ١٩٧٦.
(١٤) حازم حسن العلي، **انتفاضة الموصل – ثورة الشواف ١٩٥٩**، ط١، بغداد، ١٩٨٧، ص٢٣.
(١٥) **مجلة صباح الخير**، العدد ١٠٧٢، المرجع السابق.
(١٦) فاضل حسين (دكتور)، **سقوط النظام الملكي في العراق**، ط١، بغداد، ١٩٨٦، ص٤٠.
(١٧) إسماعيل العارف، **أسرار ثورة ١٤ تموز وتأسيس الجمهورية في العراق**، لا. مط، القاهرة، د.ت، ص٧٥.
(١٨) المحامي مصطفى عجم، **"ثورة عبد الناصر والعروبة"**، مجلة الوعي العربي – موقع الفكر القومي العربي، ٢٠١٠.
(١٩) المرجع ذاته.
(٢٠) **صحيفة الحرية**، بيروت، السنة الخامسة، العدد ٢٩٩، ١٩٦٤.
(٢١) **مجلة العربي**، الكويت، العدد ٢٧١، ١٩٨١.
(٢٢) فؤاد الركابي، **ملامح التطبيق الاشتراكي في البلاد العربية**، ط١، بغداد، ١٩٦٨، ص١٨-١٩.
(٢٣) المرجع ذاته، صص٢٠-٢١.
(٢٤) حيدر زكي عبد الكريم، **صفحات من التاريخ المعاصر**، ط١، دمشق، ٢٠١٥، ص١٧.
(٢٥) **مجلة الهلال**، مصر، السنة ٧٤، العدد ١٠، ١٩٦٦.
(٢٦) **ذاكرة مصر المعاصرة** -قسم أحداث، افتتاح السد العالي، من الموقع الإلكتروني:
http://modernegypt.bibalex.org
(٢٧) **مجلة صباح الخير**، مصر، العدد ١٠٨٠، ١٦/٩/١٩٧٦.
(٢٨) عادل الجوجري، "**ثورة يوليو والثقافة**"، مجلة الوعي العربي – موقع الفكر القومي العربي، ٢٠١٠، ص٢٩-٣٠.
(٢٩) إن هذه الرواية كانت تخاطب المسائل الإلهية وسُمح بنشرها حتى لا يُفسح المجال لمن يدّعي بأنَ الحكومة تمارس الاضطهاد الفكري بتلك الفترة، وكاتب الرواية هو من يتحمل مسؤولية أفكاره ونتاجاته) (الكاتب)؛ المرجع ذاته، ص٣٢.
(٣٠) المرجع ذاته، ص٣٣-٣٤.
(٣١) المرجع ذاته، ص٣٥-٣٦.
(٣٢) **مجلة الصياد**، بيروت،٢٨/٩/ ١٩٧١.
(٣٣) كانت هناك الصحافة القومية كما عُرفت فيما بعد وهي الأساسية والرائجة بين أوساط المجتمع المصري أمثال الأهرام، والجمهورية، وأخبار اليوم، وأخر ساعة، والمصور (الكاتب)؛ رشاد كامل، الصحافة والثورة – ذكريات ومذكرات، سلسلة الأعمال الفكرية، جمعية الرعاية المتكاملة المركزية – القاهرة، ٢٠٠٢، ص١٠-١٤.
(٣٤) محمد حسنين هيكل، **سنوات الغليان**، ج١، ط١، القاهرة، ١٩٨٨، ص٣١.
(٣٥) محمد علي القوزي (دكتور)، المرجع السابق، ص٢٩٦.
(٣٦) أمين هويدي، **أضواء على أسباب نكسة ١٩٦٧ وعلى حرب الاستنزاف**، ط١، بيروت، ١٩٧٥، ص٤٥.
(٣٧) **مجلة روز اليوسف**، مصر، العدد ٢٥٥٧، ١٣/٦/١٩٧٧.
(٣٨) **صحيفة رأي اليوم**، لندن، ٥/٦/٢٠١٨.
(٣٩) صبحي ناظم توفيق (دكتور)، **مشاركة العراق في حرب تشرين/ أكتوبر ١٩٧٣** (مسودة مقال غير منشور).
(٤٠) عبده مباشر، **إغراق إيلات**، كتاب نصف شهري – جريدة الجمهورية، مصر، ١٩٨٩، ص٢٥.

جامعة كمبريدج
نشأتها وتطورها إبان العصور الوسطى المتأخرة (١٢٠٩-١٤٩٦م)

طارق شمس الدين زاكر
مدرس مساعد بقسم التـاريخ
كلية التربية - جامعة عين شمس
القاهرة - جمهورية مصر العربية

بيانات الأطروحة

أطروحة ماجستير تخصص التاريخ الوسيط
قسم التاريخ – كلية التربية
القاهرة – جامعة عين شمس ٢٠١٩م
٣٦٧ (صفحة)

الباحث: طارق شمس الدين زاكر أبو المجد
إشراف: أ.د. عبد العزيز محمد رمضان
إشراف: د. أمل يوسف عبد الله

كلمات مفتاحية:
الجامعات الأوروبية؛ كمبريدج؛ حضارة العصور الوسطى؛ التعليم الجامعي؛ تاريخ التعليم؛ التاريخ الثقافي والفكري

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.186414

مُقدِّمَة

يُعَدّ تاريخ التعليم فرعًا من فروع علم التاريخ، فرعًا ذا طبيعة خاصة ميزته في موضوعاته ومصادره عن باقي الفروع، فعلى الرغم من اعتماد هذا الفرع على الوثائق والمصادر مثل فروع التاريخ الأخرى، إلا أنه تفرد بكمية متنوعة من المصادر مثل اللوائح والقوانين والتشريعات الجامعية، ومحاضرات الطلاب ورسائلهم، والكتب والنصوص، والامتيازات، والرسائل الملكية، والبراءات البابوية، وقرارات رؤساء المجالس البلدية، مما جعله فرعًا مميزًا في موضوعاته ومصادره، ومن أهم الموضوعات التي عالجها هذا الفرع هو التعليم الجامعي ونشأته في العصور الوسطى.

لعبت الجامعات الأوروبية دورًا بارزًا وملموسًا في حياة العصور الوسطى، وتعدى هذا الدور العصور الوسطى ليمتد عبر قرون عديدة حتى الآن، فالجامعات المعاصرة بصروحها الشامخة وقبابها العالية هي وريثة العصور الوسطى بمفاهيمها ومعتقداتها وتوجهاتها، ولم تنشأ الجامعات بين ليلة وضحاها وإنما هي نتيجة تراكمات عدة من الفكر والثقافة، تمخضت وأفرزت لنا هذه المؤسسات التعليمية، التي عدها العلماء والمؤرخون أفضل ما ورثته العصور الحديثة من العصر الوسيط.

ومن هذا المنطلق، جاءت الرؤية لتناول هذه الدراسة والتي جاءت بعنوان "**جامعة كمبريدج: نشأتها وتطورها إبان العصور الوسطى المتأخرة (١٢٠٩-١٤٩٦م)**". أما عن **الحدود الزمنية للدراسة فتبدأ** من عام ١٢٠٩م وهو العام الذي بدأت فيه جامعة كمبريدج بإلقاء محاضراتها للطلاب الذين هجروا جامعة أكسفورد بعد أحداث هذا العام وسعوا إلى مكان آخر لتلقي تعليمهم، ورغم اختلاف المؤرخين حول هذا العام وهل سبقت الدراسة بالجامعة هذا التاريخ، فإن الإجماع

عرض أطروحة

جاء ليؤكد أن البداية الحقيقية للجامعة ترجع لهذا العام. **وتنتهي الدراسة** بعام ١٤٩٦م وهي السنة التي شهدت تأسيس آخر كليات جامعة كمبريدج في حقبة العصور الوسطى – مع استمرار إنشاء الكليات في العصور اللاحقة – وبانتهاء هذا القرن حققت كمبريدج تفوقًا على جميع الأصعدة، فاكتملت شخصيتها واكتمل بناؤها وهيكلها الأكاديمي والوظيفي.

أهمية موضوع الدراسة

تأتي **أهمية الموضوع** من ناحية أنه لا توجد دراسة مستقلة بذاتها تتناول جامعة كمبريدج في العصور الوسطى وأثرها على الحياة الفكرية، والثقافية، والحضارية على المجتمع الإنجليزي بصفة خاصة، والمجتمع الأوروبي بصفة عامة، مما يجعل هذه الدراسة إضافة للمكتبة العربية؛ لأنها الأولى من نوعها، كما أن هذه الدراسة تنتمي لفرع التاريخ الفكري والثقافي باعتبارها تهتم بالتعليم والتدريس والمناهج الدراسية في حقبة العصور الوسطى، وتنتمي أيضًا لفرع تاريخ المؤسسات كونها مؤسسة أكاديمية لها دورها عبر العصور.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة إلى إعادة النظر في وضع جامعة كمبريدج في العصور الوسطى، وتصحيح التصور الخاطئ والمغلوط عنها بأنها كانت أقل من مثيلتها أكسفورد، وأنها جامعة من "الدرجة الثالثة"، وهو الاعتقاد الذي ساد لسنوات؛ لذا جاءت هذه الدراسة لتثبت خطأ هذه الاعتقادات وتوضح مكانة كمبريدج في العصور الوسطى ودورها في المجتمع آنذاك، وتبرز الامتيازات التي حصلت عليها ولم تحصل عليها جامعة أخرى.

الدراسات السابقة

وفيما يتعلق بالدراسات السابقة، فإن المكتبة العربية لم تحوِ أي دراسة عن جامعة كمبريدج، بينما تحوي ثلاث دراسات عن جامعة أكسفورد في إنجلترا، ودراسة عن جامعة باريس في فرنسا، وهم على النحو التالي:

- زينب عبد المجيد: "جامعة أكسفورد في العصور الوسطى"، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مج٣، ٢٠٠٣م.
- سهى إبراهيم محمد: جامعة أكسفورد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، رسالة ماجستير، كلية البنات، جامعة عين شمس، ٢٠٠٥م.
- سناء مندور طرفاية: جامعة أكسفورد في إنجلترا في العصور الوسطى ١٢٠٠-١٣٥٠م، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠١١م.
- ياسر عبد المعبود: جامعة باريس ودورها في النهضة الفكرية بأوروبا في العصر الوسيط، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٣م.

أما الدراسات الأجنبية فلا يمكننا أن نغفل رسالة الدكتوراه للباحث "آلن كارب" *Alan Karp* والتي تحمل عنوان: *"The Academic Corporations of England in the Middle Ages: Oxford and Cambridge 1150-1509", Ph.D. thesis, Teachers College, Columbia University, 1977.* والتي تناول فيها مدارس أكسفورد وكمبريدج ودور النقابات الأكاديمية وأهميتها وتطورها في إنجلترا خلال العصور الوسطى.

محتويات الأطروحة

انقسمت الدراسة إلى ستة فصول يسبقها مقدمة، وعرض لأهم المصادر، ويعقبها خاتمة وملاحق، وقائمة بالمصادر والمراجع على النحو التالي:

تناول **الفصل الأول**، الذي جاء بعنوان: **"التعليم في كمبريدج قبل تأسيس الجامعة"** الموقع الجغرافي لمدينة كمبريدج وتأثيره على حركة النقل والتجارة في شرق إنجلترا آنذاك، بالإضافة إلى إلقاء الضوء على أوضاع التعليم في إنجلترا وأوروبا قبل نشأة الجامعات، وأشهر النهضات الأوروبية منذ القرن التاسع وحتى القرن العاشر الميلادي، كما تناول الفصل التعليم والمدارس النحوية في مدينة كمبريدج وكيف استطاعت هذه المدارس أن تمنح كمبريدج خلفية تعليمية أهلتها لتكون مقرًا لجامعة إنجليزية حملت لواء العلم والتعليم في إنجلترا منذ العصر الوسيط وحتى العصر الحديث. واخْتُتِمَ الفصل بنهضة القرن الثاني عشر التي مهدت الطريق لظهور الجامعات في أوروبا في العصور الوسطى.

جاء **الفصل الثاني** بعنوان: **"نشأة جامعة كمبريدج"**، ليوضح ملابسات نشأة الجامعة وعوامل قيامها، والقصص الخرافية التي ارتبطت بأصل الجامعة ومحاولة إرجاعها إلى عصور سحيقة ترجع لقبل الميلاد، ودحض هذه الخرافات، كما عرض الفصل لدور الدعم الملكي والبابوي في نشأة الجامعة، وكيف ساهم ملوك إنجلترا وباباوات الكنيسة في رفع شأن الجامعة وتدعيمها من خلال المواثيق والبراءات والامتيازات الممنوحة من كلا الجهتين، فضلًا عن دعم

عرض أطروحة

أفراد المجتمع الإنجليزي كالنبلاء والأرستقراطيين والنساء المتبرعات.

أما **الفصل الثالث**، فقد جاء تحت عنوان: **"كليات جامعة كمبريدج"**، وتم إفراد الحديث فيه عن كليات الجامعة البالغ عددها اثنتي عشرة كلية وقاعة، تأسست جميعها خلال ما يقرب من مائتي عام، فجاءت القاعة الأولى بعنوان "البيت البطرسي"، التي تأسست عام ١٢٨٤م على يد أسقف إيلي، لتضع كمبريدج على أولى خطوات الطريق نحو النضج الفكري والاكتمال المؤسسي، ثم توالى إنشاء الكليات على مدار القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين لينهي القرن الخامس عشر حقبة العصر الوسيط بتأسيس "كلية المسيح" عام ١٤٩٦م على يد أسقف إيلي أيضًا. واختلفت دوافع مؤسسي الكليات وفقًا لأغراضهم من هذا الوقف إما بدافع ديني أو دنيوي، ولكنها في نهاية الأمر جاءت في صالح الجامعة.

أما **الفصل الرابع** وعنوانه: **"الهيكل الإداري والتنظيمي لجامعة كمبريدج"**، فقد تناول مجلس الجامعة وسلطة المستشار أو رئيس الجامعة في إدارة مؤسسته وصلاحياته الكنسية والقضائية التي اكتسبها بحكم المنصب، وعمل على زيادتها هي، وامتيازات الجامعة يومًا بعد يوم، مما جعله في صدام دائم مع السلطتين المدنية والكنسية. كما عرض الفصل اللوائح والقوانين المنظمة للحياة الجامعية وتطور هذه التشريعات لمواجهة سلوك الطلاب، خاصة مع توافد الطلاب إلى الجامعة من مناطق شتى واختلاف أعراقهم وأصولهم، وكذلك دور الأساتذة في الجامعة والكليات على المستويين التدريسي والإداري، بالإضافة إلى موظفي الجامعة وبعض المهن التي ارتبطت بالحياة الأكاديمية.

تناول **الفصل الخامس**، الذي جاء بعنوان: **"العملية التعليمية في جامعة كمبريدج"** صُلب الجامعة وشريانها الرئيسي والهدف المرجو من تأسيسها، وهو تعليم الطلاب، فعرض شروط الالتحاق بالجامعة ومبادئ التعليم الأولي ونظام الدراسة المتبع في الجامعة، والدراسات المتقدمة للخريجين، ونظام الامتحانات، والدرجات العلمية التي منحتها الجامعة، فضلًا عن أصول الطلاب وسلوكياتهم وحياتهم الجامعية والصعوبات التي واجهتهم أثناء الإقامة في الجامعة، والمناوشات التي حدثت بين الطلاب بعضهم البعض، والطلاب وأهالي المدينة، ثم انتقل الفصل للحديث عن الرهبان ودورهم في الجامعة ومساهمتهم في الأنشطة التعليمية والتبشيرية داخل الجامعة وخارجها.

وخلُص **الفصل السادس والأخير** بعنوان: **"جامعة كمبريدج والمجتمع الإنجليزي"** إلى إبراز الدور الذي لعبته الجامعة في المجتمع، والأثر الذي تركته في أعضائه بجميع فئاته، حيث لعبت دورًا نشطًا في دوائر المجتمع بأكمله وعلى جميع الأصعدة السياسية، والدينية، والاقتصادية، والاجتماعية، وبكل تأكيد الثقافية والفكرية. وتعدى أثرها المملكة الإنجليزية ليصل إلى أوروبا، وأصبحت قادرة في القرن الخامس عشر على جذب الطلاب الأوروبيين من مختلف الأنحاء، ودخلت في منافسة جديرة بالذكر مع جامعات أخرى مثل باريس وبولونيا وغيرهم، ويكفي القول إن جامعة كمبريدج حملت لواء العلم في إنجلترا مع نظيرتها أكسفورد منفردتين منذ العصور الوسطى وحتى القرن التاسع عشر.

منهج البحث

اتبع الباحث منهج البحث التاريخي القائم على عرض الأحداث وتحليلها بهدف الوصول إلى الحقيقة وجوهر الموضوع، والتزم الباحث قدر الإمكان بالموضوعية والمنهجية في الدراسة، محاولًا تقديم عرض متسلسل ومترابط للأحداث، مستنتجًا أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

أهم نتائج الدراسة

يتضح من الدراسة أن جامعة كمبريدج امتلكت تاريخًا حافلًا وطويلًا، ولكنها لم تتعرض للبحث والدراسة الجادة، وقد تعرض هذا التاريخ للعديد من النقد والتجريح، وتحامل وإغفال كبير من قبل كثير من الباحثين الأجانب، وجاء التركيز دائمًا على جامعة أكسفورد باعتبارها أولى الجامعات الإنجليزية، على الرغم من أن كمبريدج تأسست بعدها بفترة وجيزة لا تزيد عن أربعين عامًا، كما أنها شاركت أكسفورد في العديد من قضايا العصور الوسطى، وحملت معها لواء التعليم، فكانتا الجامعتين الوحيدتين في إنجلترا حتى القرن التاسع عشر.

أبطلت الدراسة ادعاءات أحد أبرز مؤرخي التعليم الجامعي في العصور الوسطى وهو العالم راشدال، الذي انتقصت كتاباته دائمًا من جامعة كمبريدج وصنفها على أنها جامعة من الدرجة الثالثة، فكيف لجامعة من الدرجة الثالثة أن تحصل على كل هذه الامتيازات وتطور نفسها وتنظم أمورها بمثل هذه الدقة، وأن تؤسس اثنتي عشرة كلية وقاعة في

العصر الوسيط فقط؟ كما أنها استطاعت أن تسير في تطورها وتأسيس الكليات حتى في أحلك الظروف، فأسست ثلاث كليات في ظل انتشار وباء الطاعون لمواجهة العجز في نقص رجال الدين.

أثبتت الدراسة أن مدينة كمبريدج لم تكن حديثة العهد بالتعليم، وإنما شهدت أرضها وجود المدارس النحوية قبل الجامعة بفترة كبيرة وكانت متفوقة في ذلك المجال، وقد أبطل وجود هذه المدارس الاعتقادات السائدة بأنه لم يكن هناك نشاط تعليمي في كمبريدج حتى هجرة طلاب أكسفورد إليها في أوائل القرن الثالث عشر، وإذا لم يكن هناك نشاط تعليمي قادر على استيعاب طلاب في مرحلة عالية من التعليم، فلماذا هاجر إليها الطلاب؟ خاصة أن المسافة بين المدينتين تبلغ حوالي ١٠٦ كم، أي أنها مسافة ليست بالقصيرة مقارنة بالوضع آنذاك.

أصبحت جامعة كمبريدج - بلا شك - جامعة من الدرجة الأولى بحلول القرن الرابع عشر، فامتلكت جميع المقومات الداعمة لذلك، حيث تم الاعتراف بها رسميًا بابويًا وملكيًا؛ وتطورت من الممارسات العرفية إلى القوانين والتشريعات؛ وامتلكت العديد من الكليات والقاعات؛ ودرَّست مختلف ألوان المعرفة المتعارف عليها وقتئذ، وامتلكت هيكلاً إداريًا وتنظيميًا قويًا؛ أضف إلى ذلك حصولها على امتيازات كثيرة للجامعة والطلاب والممتلكات، وسلطة مستقلة عن السلطات الأسقفية والمحلية.

تسببت الجامعات في تراجع دور البيوت الدينية، وكذلك مدارس الأديرة والكاتدرائيات، فلم تستوعب هذه المدارس ألوان المعرفة الجديدة التي زاحمت الغرب الأوروبي بعد نهضة القرن الثاني عشر نتيجة الاحتكاك بالشرق الإسلامي المتقدم، وانفتاح الأوروبيين على مختلف فروع المعرفة التي لم يكن يعرفون عنها سوى النذر اليسير، ولم تكن أوروبا قبل هذا القرن مهيأة لظهور نوع جديد من التعليم ترك أثره على مدار تسعة قرون، ومثَّل خريجوه رواد الإصلاح والتقدم في كل مجال.

أوضحت الدراسة أن الجامعة لم تكن وريثة أي عصر سوى العصر الوسيط، فعلى الرغم من تفوق اليونان والرومان في مجال التعليم، إلا أنهم لم يعرفوا نظام الجامعة بمفهومها الحديث، حتى الشرق الإسلامي المتحضر والتطور الكبير الذي أحرزه في مجال التعليم لم يعرف الجامعة أيضًا، ولم تتطور مدارسه مثل مدرسة بغداد إلى مستوى الجامعة.

دعَّم الملوك الإنجليز المتعاقبون الجامعة بالعديد من الامتيازات، وحرصوا على نصرتها هي وأعضائها بكل قوتهم، لأنهم أدركوا مدى قوة الجامعة من جهة، ودورها الاقتصادي الهام في إنعاش الحياة الاقتصادية والأسواق من جهة أخرى، لذا لم تُنتقص امتيازات جامعة كمبريدج أبدًا على مدار تاريخها، كما لعبت الهبات والقروض دورها الفاعل في حفاظ الجامعة على قوامها وتدعيم جوانب القوة فيها، والعمل على مواجهة جوانب السلب، كما كان للكنيسة دورها الفاعل أيضًا في تدعيم صلاحيات الجامعة وأعضائها وخاصة في وقت الصدام مع الأسقفية أو رجال الدين.

تعددت فئات متبرعي الجامعة والكليات المختلفة، فظهرت الملكية الإنجليزية بصورة قوية في هذا الشأن، أضف إلى ذلك رجال الدين من رؤساء الأساقفة والأساقفة والقساوسة، وبرزت النساء الأرستقراطيات كمتبرعات أيضًا من خلال إنشاء الكليات، ودعم صناديق القروض، وإعالة الطلاب الفقراء، وجاء في ذيل قائمة المتبرعين النبلاء الإنجليز بسبب عدم اهتمامهم بالتعليم بصورة كبيرة واعتمادهم على أصولهم النبيلة في الحصول على الوظائف أو الترقي ونيل الحظوة في المجتمع.

اختلفت دوافع المتبرعين للجامعة حسب نواياهم من هذا التبرع، فانحصرت أغلب دوافعهم في التقرب إلى الرب وتقديم نوع من العمل الخيِّر عن طريق إعالة الطلاب الفقراء وتقديم العون والمساعدة لهم أثناء دراستهم، بالإضافة إلى إقامة الصلوات والقداديس للمتبرع أثناء حياته وعلى روحه بعد وفاته، أي أن دوافع المتبرعين لم تكن تعليمية أكاديمية على الإطلاق وإنما روحية.

اصطدمت الجامعة بالكنيسة ممثلة في الأسقفية، بسبب رغبة الأساقفة في فرض سيطرتهم على الجامعة وتأكيد الحق الأسقفي في اختيار مستشار الجامعة باعتباره تابعًا للأسقف، ويستمد سلطته منه، وهو الأمر الذي رفضه المستشار باعتباره رئيسًا منتخبًا من قبل هيئة أكاديمية تملك وحدها الحق في تعيينه أو عزله، واستمر هذ الصدام حتى الربع الأول من القرن الخامس عشر عندما حصلت الجامعة على استقلالها الكنسي والأسقفي.

أثبتت الدراسة دور جامعة كمبريدج الحيوي في المجتمع وأحداثه، وأن العلاقة بينهما اتخذت شكل التأثير والتأثر، فعملت الجامعة على تدعيم موقف

الملك ريتشارد الثاني بشأن الانشقاق الكنسي وقدمت له النصح والمشورة، ولم تتوانَ عن مساعدته، وأُرسل مستشارها سفيرًا إلى روما لحل هذه المشكلة، كما شاركت في مجمع كونستانس لإنهاء هذا الشقاق، وخرجت كمبريدج من هذه المسألة بامتياز لم تحصل عليه أي جامعة أوروبية أخرى، حيث أخطرها مجلس الكرادلة باختيار البابا الجديد، وهو ما لم يتوفر لأي جامعة أخرى مهما كان شأنها.

حققت الجامعة ما يمكن أن نسميه العالمية؛ فأرسلت طلابها للدراسة في إحدى الجامعات في أوروبا، واستقبلت هي الأخرى طلابًا من جامعات باريس وبولونيا وبادو وغيرها، فضلاً عن أكسفورد. ولقد ساهم هذا التبادل في نقل ثقافات مختلفة بين هذه الجامعات، فانتشرت العادات والأعراف الجامعية بسرعة كبيرة ودون ترتيب، وحصل الطلاب على شهادات مختلفة من جامعات مختلفة.

مهَّد التعليم الجامعي الطريق للتقدم الاجتماعي، ومنح خريجيه فرصة لنيل الحظوة والترقي، وعمل على إذابة الفوارق بين الطبقات، فأصبح بإمكان خريج الجامعة أن يشغل مناصب إدارية وكنسية من خلال تعليمه فقط، دون النظر إلى خلفيته الأرستقراطية أو الملكية، كما ساعد على تكوين شبكة قوية من العلاقات الاجتماعية بين الطلاب من مختلف المناطق الذين اجتمعوا لهدف واحد وهو الدراسة والتعلم.

احتلت الجامعة قدرًا كبيرًا من الأهمية في العصور الوسطى، ومكانة مساوية لنظائرها من الجامعات الأخرى آنذاك، صحيح أن الجامعة شهدت في فترات محددة نوعًا من البطء في تطورها، ولكنها سرعان ما عادت وبقوة وعملت على تدعيم مركزها، لقد كانت الجامعة محط أنظار العديد من الطلاب وخاصة في أواخر العصور الوسطى، وأصبحت ذائعة الصيت، وهو الأساس الذي استندت إليه الجامعة الآن في عراقتها واعتزازها بالماضي.

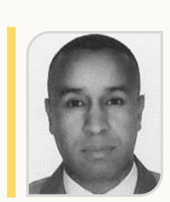
خاتمة

خلاصة القول، مرت جامعة كمبريدج بثلاث مراحل أثناء نشأتها حتى تبلورت وأخذت مكانها اللائق بين جامعات العصر الوسيط، جاءت المرحلة الأولى في القرن الثالث عشر وهي مرحلة النشأة والتأسيس، وشهدت هذه المرحلة وضع اللبنات الأولى في بناء الجامعة ماديًا وبشريًا؛ أي بناء أماكن التعليم والدراسة، وبناء هيكلها التدريسي والإداري. أما المرحلة الثانية فهي مرحلة تطور الجامعة في القرن الرابع عشر، وشهدت تأسيس كليات الجامعة التي بلغ عددها اثني عشر كلية وقاعة بنهاية القرن الخامس عشر، ووجود هيكل إداري وتنظيمي قوي للجامعة، مع وجود التشريعات والقوانين التي كانت بمثابة الإطار الحاكم لهذه المؤسسة. أما المرحلة الثالثة والأخيرة فهي مرحلة النضج والتي بلغتها الجامعة في القرن الخامس عشر، ففيها حصلت الجامعة على استقلالها الكنسي والأسقفي، كما شاركت بفاعلية في أحداث المجتمع المختلفة، كحرب المائة عام وتنمية الشعور القومي للمواطنين، والانشقاق الكبير للكنيسة الغربية، فضلاً عن إسهاماتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الإنجليزي.

احتلت الجامعة قدرًا كبيرًا من الأهمية في العصور الوسطى، وهو الأساس الذي استندت عليه الجامعة الحديثة في عراقتها واعتزازها بالماضي، لقد كانت الجامعة محط أنظار العديد من الطلاب وخاصة في أواخر العصور الوسطى، فأصبحت ذات سمعة كبيرة مساوية لأي جامعة أوروبية آنذاك، كما درَّست مختلف أنواع المعرفة والعلوم المعروفة وقتئذ.

التعليم الفلاحي في المغرب خلال الحماية الفرنسية

المدرسة المغربية للفلاحة في مكناس نموذجًا (١٩٤٥ - ١٩٥٦)



د. أحمد سوالم
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
كاتب وباحث في التاريخ الحديث والمعاصر
سلا - المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

الباحث: أحمد سوالم
إشراف: أ.د. بوجمعة رويان
إشراف: أ.د. المصطفى البوعناني

أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
القنيطرة – جامعة ابن طفيل ٢٠١٨م
٣٠٢ (صفحة)

كلمات مفتاحية:
الحرب العالمية الثانية؛ الاستعمار الفرنسي؛ الفلاحة؛ المجال الفلاحي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.186418

مُقَدِّمَة

حفل حقل الدراسات التاريخية المغربية بعديد الأبحاث الجامعية، التي درست تاريخ المغرب من جوانب مختلفة، الا أنه يغلب عليها من حيث التناول التركيز على الجوانب العسكرية والسياسية والاقتصادية، مهملة أو متناسية جانبًا مهمًا من المواضيع الاجتماعية والثقافية، التي بدونها يصعب فهم حقبة الحماية والمستعمر على حقيقته، ومن ضمنها التعليم الذي يُعَدّ من الأدوات الأساسية في صياغة السياسة الاستعمارية الفرنسية بالمغرب، باعتباره عاملاً من عوامل التجهيل ومن أدوات العمل الاستعماري.

واهتمامًا بهذا الجانب، احتضن مدرج الندوات بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة ابن طفيل بالقنيطرة، يوم 2018/7/25، مناقشة أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر تحت عنوان: "التعليم الفلاحي بالمغرب خلال الحماية الفرنسية: المدرسة المغربية للفلاحة بمكناس نموذجا (*1945 - 1956*)" للباحث أحمد سوالم، تحت إشراف الأستاذين بوجمعة رويان والمصطفى البوعناني، وتكونت لجنة المناقشة من الأساتذة:

- نعيمة الحضري كلية الآداب والعلوم الإنسانية - القنيطرة: رئيسة.
- بوجمعة رويان كلية الآداب والعلوم الإنسانية - القنيطرة: مشرفًا ومقررًا.
- محمد لغرايب كلية الآداب والعلوم الإنسانية - القنيطرة: مشرفًا ومقررًا.
- عبد العزيز بل فايدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - القنيطرة: عضوًا.
- محمد اليزيدي كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز - فاس: عضوًا.

دوافع اختيار الموضوع

لا يخلو فعل اختيار الموضوع من قصد ودوافع، تحكمها مجموعة من القناعات الذاتية والعلمية، وقد تحكم في اختيارنا لهذا الموضوع:

دوافع ذاتية:

- عملي في سلك التعليم.
- ميلي لدراسة كل ما هو تعليمي.
- رغبتي في توفير بحث عن التعليم الفلاحي.

دوافع موضوعية وعلمية:

- ندرة الدراسات التاريخية حسب علمنا، التي اختصت بدراسة التعليم الفلاحي بالمغرب زمن الحماية عامة والمدرسة المغربية للفلاحة بمكناس خاصة، بما تضعه من معطيات تاريخية، الغرض منها المساهمة في تسهيل وضع حلول مناسبة للرقي بهذا النوع التعليمي.

أنها تلبي توصية المسؤولين عن التعليم الفلاحي بالبلاد العربية بدعوة الجامعات إلى الاهتمام به، بإجراء بحوث تناقش قضاياه بجميع أشكالها وأنواعها، ونحن عالجناه من مدخلات تاريخية.

تفتح الموضوع أمام الباحثين الآخرين لإجراء بحوث مماثلة حول التعليم الفلاحي زمن الحماية الفرنسية من مدخلات مختلفة، باعتبار فترة الحماية الفرنسية، هي التي حددت تاريخ المغرب المعاصر وطبعت حياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

الإطار الزماني والمكاني

يتخذ البحث الفترة (١٩٤٥-١٩٥٦م) إطارا زمانيا، لأهميتها في تاريخ المغرب لكونها صاغت وجددت صيرورته العامة، لدرجة يمكن القول إنها صنعت المغرب المعاصر.

١٩٤٥م: سنة لها دلالات تاريخية دوليًا ومحليًا، فهي تمثل:

نهاية الحرب العالمية الثانية وما خلفته من عواقب على كافة المستويات، وأبرزت أهمية الفلاحة ودور الغذاء والتغذية في الصيرورة الإنسانية.

معاناة المغرب من تبعات الحرب، حيث عرف المجاعة الكبرى، وما خلفته من عواقب اجتماعية وسياسية واقتصادية، وما أحدثته من وعي بضرورة التركيز على الفلاحة.

سنة إصلاح زراعي بالمغرب (البيزانا).

إحداث المدرسة الفلاحية بمكناس في صيغتها الجديدة.

إحداث مصلحة خاصة بالتعليم التقني بمديرية التعليم العمومي.

١٩٥٦م: تشكل نهاية الحماية الفرنسية بالمغرب وبروز دولة الاستقلال.

أهمية موضوع البحث

أهمية موضوع الفلاحة في حياة الإنسان، باعتبارها المصدر الرئيسي لتأمين الغذاء.

قلة الدراسات العلمية التي تعالج التعليم الفلاحي بالمغرب، وحاجة المكتبة المغربية لدراسات تاريخية تعالج قضاياه، لتستفيد منها الجهات المشرفة على التعليم الفلاحي عامة والمدرسة الوطنية للفلاحة

إشكالية البحث

الإشكالية المركزية:

انغراس فلاحة عصرية وظهور التعليم الفلاحي ومدارسه، خصوصًا المدرسة المغربية للفلاحة بمكناس زمن الحماية الفرنسية، ومدى استفادة المغرب منها.

الإشكاليات الفرعية:

- ما هو التعليم الفلاحي؟
- ماهي الوضعية السوسيو اقتصادية للفلاحة المغربية زمن الحماية؟
- كيف نشأت فكرة إحداث تعليم فلاحي بالمغرب؟
- هل جاء لخدمة وتنمية البلاد اقتصاديًا واجتماعيًا، أم وفق أهداف استعمارية صرفة؟ ماهي مدارسه؟
- ماهي خصوصية سنة إحداث المدرسة المغربية للفلاحة بمكناس؟
- هل هي سنة أزمة غذائية، أم إصلاح فلاحي، أم هما معًا؟
- ماهي العوامل التي تحكمت في اختيار مكناس مقرا للمدرسة المغربية للفلاحة؟
- كيف يتأتى لمدرسة كهذه أن تؤتي ثمارها في مجتمع تقليدي متأخر، ينظر للتعليم المهني عامة والفلاحي خاصة نظرة دونية؟
- ماهي حدود استفادة المغرب منها سواء على مستوى تكوين الأطر الفلاحية العليا، أو على مستوى البحث والتجريب الفلاحي؟

منهج البحث

اعتمدنا لتفكيك التعليم الفلاحي ومدارسه والمدرسة المغربية للفلاحة بمكناس زمن الحماية، على مناهج متعددة منها:

- المنهج التاريخي.
- المنهج المقارن.
- المنهج الإحصائي.

وذلك راجع لطبيعة موضوع الأطروحة، حيث يتداخل فيه ما هو تاريخي بما هو اقتصادي، والمتنوع كذلك من حيث حقوله المعرفية المتعددة (الاقتصاد والتاريخ الاجتماعي وتاريخ المؤسسات).

هيكل البحث

فيما يخص التصميم الإجرائي لتنفيذ خطة البحث، فقد تم توزيعه إلى بابين، وعدة فصول مسبوقين بمقدمة، ومذيلين بخلاصات واستنتاجات وملحق.

الباب الأول خصصناه لدراسة التعليم الفلاحي بالمغرب خلال الحماية الفرنسية، مركزين في الفصل الأول، على دراسة الفلاحة المغربية وأهمية البادية في السياسة الاستعمارية من خلال الاستيطان الزراعي والإصلاح القروي، وبدايات دخول التعليم الفلاحي للمغرب وأهدافه ومستوياته. أما في الفصل الثاني، فقد ركزنا على المدارس التي كانت تقدم هذا النوع من التعليم زمن الحماية.

الباب الثاني خصصناه لدراسة المدرسة المغربية للفلاحة بمكناس، من خلال التركيز في الفصل الأول على خصوصية زمن ومكان إحداثها، وتطرقنا في فصله الثاني لمدى مساهمة المدرسة في تكوين الأطر الفلاحية والبحث الزراعي والنهوض بالقطاع الفلاحي خلال الحقبة الاستعمارية، ومدى حضور العنصر المغربي. وتم ختم البحث بخلاصات واستنتاجات وملحق.

خلاصات واستنتاجات

نرى من المجازفة والسابق لأوانه إصدار خلاصات وأحكام نهائية، حول التعليم الفلاحي زمن الحماية الفرنسية من جهة والمدرسة المغربية للفلاحة بمكناس من جهة ثانية، بيد أن تفاعلنا مع الموضوع طيلة مدة إنجازه مكننا من بلورة مجموعة من التصورات والاستنتاجات، يمكن إجمالها فيما يلي:

- **تنوع مدارس التعليم الفلاحي والجهات المشرفة عليه زمن الحماية، إذ تشترك فيه مديرية التعليم العمومي ومديرية الفلاحة والغابات.** ويلاحظ غياب التنسيق والتكامل والترابط بين هاته المؤسسات بمختلف مستوياتها، بسبب عدم تحديد الحاجيات من كل نوع ووظيفته في مهنة الفلاحة ام كانت وراءه أهداف استعمارية صرفه، وليس المساهمة في تنمية وتحديث الفلاحة المغربية زمن الحماية. ما يجعلنا نتساءل: **لماذا لم يتم تجميع هذا الخليط المتنوع من المدارس في نمط واحد، أم أن أهداف سلطات الحماية الفرنسية تقتضي ذلك؟**
- **على مستوى التوزيع الجغرافي لمؤسسات التعليم الفلاحي**: هل تعاملت الحماية الفرنسية عند إحداثها لهذا النوع التعليمي مع مناطق وساكنة المغرب ككتلة اجتماعية واحدة؟ أم أخذت بعين الاعتبار الأهمية الاقتصادية للمناطق والعناصر الطبقية والعرقية؟ إلا أن ما يلاحظ، فباستثناء المدارس القروية التي تمثل مرحلة تمهيدية، فإن غالبية المدارس الفلاحية المتوسطة والعُليا استفاد منها ما يصطلح عليه "**المغرب النافع**" (الدار البيضاء، مكناس، فاس، ومراكش) أكثر من المناطق الصحراوية و الجبلية النائية حيث تم التركيز على المدن التي كان يستقر بها المعمرون خدمة للاستيطان الفلاحي، ليصبح التعليم الفلاحي عنصرا من عناصر التمييز السوسيو- مجالي بالمغرب خلال الحماية الفرنسية، ووسيلة من وسائل الاستغلال الاستعماري وتحسينا لظروف عمل المعمرين، من خلال توفير الأطر الفلاحية المؤهلة لتسهيل استغلالهم لخيرات البلاد في ظروف ملائمة.
- **عدم مراعاة التسلسل والتدرج في إحداث التعليم الفلاحي أي الانطلاق من المستويات الدنيا إلى العليا**، إذ قامت فرنسا بتوفير المستوى الابتدائي، ثم أنشأت المستوى العالي خلال الحرب العالمية الثانية، ثم المستوى المتوسط في بداية الخمسينيات. ما يعكس أن إحداث هذا النوع التعليمي لم يأت في إطار برنامج مدروس، محدد الأهداف، وإنما تلبية لحاجيات وضرورات اقتصادية وأهداف استعمارية قائمة على الاستغلال البشري والاقتصادي لثروات البلاد.
- **لم يكن إحداث التعليم الفلاحي زمن الحماية، متسقا مع خطط التنمية البشرية والاقتصادية**، لكونه لم يكن يهدف لإحداث تنمية بشرية واقتصادية بالبلاد، بل يهدف لتحقيق أهداف استعمارية محضة، كما أنه لم يكن وفق تلك الأهداف الحضارية والإنسانية التي روج لها الاستعمار، بل أداة من أدوات الغزو والهيمنة. فقد تم تنظيمه قبل الحرب العالمية

الثانية، وفق المبادئ التي صاغها ليوطي وطورها هاردي القائمة على حصر الفئات الاجتماعية في وسطها، لذلك تم التركيز على المستوى الابتدائي وقد أعادت فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية النظر في سياستها التعليمية واستفاد التعليم الفلاحي من ذلك، حيث تم إحداث المدرسة المغربية للفلاحة بمكناس (١٩٤٥) والمدارس التطبيقية الفلاحية، كزافيي برنار بفضالة، وغراسة البساتين بمكناس، والسويهلة بالقرب من مراكش، في بداية الخمسينات، إلا أن ما قدمته هذه المدارس كحصيلة للفلاحة المغربية يبقى ضعيفًا ومحدودًا.

- **الإصلاح القروي "البيزانا" الذي قامت به فرنسا زمن الحماية، والذي تم الحديث فيه عن جعل المغرب كاليفورنيا جديدة، فرضته ضرورات منها فقدان المغرب لأمنه الغذائي وظهور مجاعات.** إلا أنه باء بالفشل بسبب عوامل داخلية، وأخرى مرتبطة بالمستعمر، لكون هاته المحاولة، لم توازيها عملية تحديث شامل وكلي، ولم تكن منبثقة من تطور ووعي داخلي وشعور بضرورة ووجوب الإصلاح.
- **تُعَدّ المدرسة المغربية للفلاحة بمكناس المدرسة الوحيدة بالمغرب التي كانت تقدم تعليمًا فلاحيًا عاليًا زمن الحماية،** وأحداثها لم يكن خاضعًا لمقتضيات ومتطلبات التنمية الفلاحية آنذاك، بل كان محكومًا بالمخططات والاختيارات الاستعمارية الهادفة لاستغلال خيرات البلاد وساكنتها.
- **قامت السياسة الاستعمارية العامة على رفض اتجاه الأهالي نحو المسالك التقنية، وهي سياسة نهجتها فرنسا في باقي البلدان المغاربية،** فقد وجد المغاربة صعوبة في الاستفادة منها، ما يعكس غياب العنصر المغربي عن الأطر المتخرجة من المدرسة المغربية للفلاحة، فإلى حدود سنة ١٩٥٤ تخرج (١٣٦) طالبًا منهم (٥٦) بدرجة مهندس، لا يوجد منهم أي مغربي مسلم ويمكن إرجاع ذلك لعدة أسباب منها:
  - تمركز المصالح الأساسية في الإدارة المغربية خصوصا المصالح التقنية منها في يد الفرنسيين، فقد حاولت السلطات الحامية إبعاد الأهالي عنها لتجنب الاستفادة من الخبرة الأوربية، وهو ما انعكس على سياستها التعليمية في الميدان الفلاحي، حيث عمدت فرنسا إلى الحد من ولوج المغاربة للمدرسة المغربية للفلاحة تجنبا لتكوين نخبة قادرة على معرفة التقنية العصرية.
  - غالبية الشباب المغاربة والذين يمكنهم متابعة دراستهم العليا بمثل هاته المدارس هم من العائلات التقليدية المحافظة، التي يتسم تكوينها العلمي بكونه عربيًا إسلاميًا، وهم بعيدين عن الدراسة باللغات الأجنبية أو التكوين العلمي.
  - نظرة المجتمع والنخبة المغربية المثقفة الدونية للتكوين في المجال الفلاحي لكونه يقوم على العمل اليدوي، حيث تعتبر الأسر التحاق أبنائهم بهذا النوع فشلاً في متابعة دراسات جامعية تؤهلهم ليكونوا نخبة في البلاد مما جعل الشباب المغربي خلال هاته الفترة لا يتوجه نحو الدراسات العليا الفلاحية.
  - وتمثل هذه النظرة الدونية للتعليم الفلاحي، المجتمع المغربي، واتجاهاته ونظرته إلى المهنة الزراعية نفسها والى العاملين فيها، والتي من أبرزها التحيز إلى التعليم الأكاديمي دون المهني، وللمدينة دون القرية، وللذكور دون الإناث.
  - ساهمت العوامل السالفة، في قلة العنصر المغربي بالمدرسة المغربية للفلاحة بمكناس زمن الحماية، ما جعل البلاد تعاني من ندرة وقلة الأطر العُليا إذ أن عدد المهندسين المغاربة في جميع التخصصات بعد الاستقلال، لا يتعدى ثلاثين مهندسًا، معظمهم تكونوا بالخارج، ونفس الخلاصة تنطبق على الأطر الفلاحية، لتجد البلاد نفسها بعد الاستقلال في مواجهة مشاكلها الفلاحية.

الآفاق التي يفتحها البحث

لسنا ندعي أن بحثنا استنفذ جميع القضايا المتعلقة بالتعليم الفلاحي عامة والمدرسة المغربية للفلاحة بمكناس خاصة، بل يمكن أن تكون النتائج التي توصل إليها منطلقا لأبحاث جامعية أخرى، تتولى وصف وتفسير وتفكيك التعليم الفلاحي خلال الحماية الفرنسية من زوايا مختلفة، كالأصول الاجتماعية لتلاميذ التعليم الفلاحي وغيرها. خصوصًا وأن حلقات السياسة الفرنسية بالمغرب في مجال التعليم مختلفة وجد معقدة وغير واضحة بما فيه الكفاية، تخللتها مراحل مد وجزر وصعود وهبوط، لكونه كان مرتبطاً بالمصلحة السياسية والاقتصادية والإيديولوجية للمستعمر.

المغرب والمشرق العربي (١٩٥٠ - ١٩٦٠)
صلات ومواقف





مراد المعاشي
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
الأكاديمية الجهوية لمهن التربية والتكوين
الدار البيضاء – المملكة المغربية

بيانات الكتاب

عنوان الكتاب: المغرب والمشرق العربي (١٩٥٠-١٩٦٠) صلات ومواقف
المؤلف: أحمد المكاوي
الناشر: دار فاصلة للنشر
مكان النشر: طنجة
تاريخ النشر: ٢٠٢٠
عدد الصفحات: ٢٣٣ صفحة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.186444

كلمات مفتاحية:
حرب السويس؛ التجربة الناصرية؛ محمد الخامس؛ المشرق العربي؛ الأنظمة العربية

مؤلف الكتاب

الكتاب قيد العرض والتعليق[1]، عبارة عن دراسة للباحث الدكتور أحمد المكاوي، أستاذ التاريخ المعاصر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية شعيب الدكالي بمدينة الجديدة المغربية، وقد صدرت له العديد من المؤلفات، منها:

- المغرب في تاريخه المنسي (جوانب من تاريخ المغرب بعيون عربية)، جذور للنشر، ط١، ٢٠٠٦.
- الرحالون المغاربة وأوروبا، جذور للنشر، ٢٠٠٧.
- الدور الاختراقي والاستعماري للطبابة الأوربية في المغرب، منشورات الزمن، ٢٠٠٩.
- محمد الرضى بن إدريس الفاسي، الشذرات والتقاط الفوائد وغرور الموائد، بعناية أحمد المكاوي ومحمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠١٠.
- نهضة اليابان في عهد الميجي من منظور عربي إسلامي، مفاتيح العلوم للطباعة والنشر، العراش-المغرب، ط١، ٢٠١٣.
- النظام، الجهاد والهجرة في مغرب القرن ١٩م، مجموعة البحث في الثقافة الشعبية والفكر الصوفي/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠١٥.
- قضايا المغرب في مجلة المنار للشيخ رشيد رضا (١٨٩٨-١٩٣٥)، منشورات أمل التاريخ الثقافة والمجتمع، ٢٠١٦.
- المغرب في القرنين ١٩ و٢٠ دراسات في مصادر، منشورات مختبر المغرب والبلدان المتوسطية/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠١٧.

محتويات الكتاب

يتكون الكتاب من ٢٣٣ صفحة من الحجم المتوسط، صدر عن دار فاصلة للنشر، سنة ٢٠٢٠م، يضم بين دفتيه مقدمة عامة وقسمين.

القسم الأول معنون **بأصداء المشرق العربي في المغرب (١٩٥٠ – ١٩٦٤)**، ويضم عدة عناوين فرعية هي:

- تمهيد.[٢]
- مشرق عربي مضطرب: اغتيالات وانقلابات.[٣]
- حرب السويس أو العدوان الثلاثي على مصر (١٩٥٦).[٤]
- التجربة الناصرية: تقييمات مغربية متباينة.[٥]
- الوحدة المصرية السورية (الجمهورية العربية المتحدة).[٦]
- أنظمة عربية متصارعة وتدخلات أجنبية.[٧]
- خلاصة القسم الأول.[٨]

أما القسم الثاني فمعنون **بجولة محمد الخامس في المشرق العربي (١٩٦٠)**، ويضم هو الآخر عناوين فرعية، كالآتي:

- تمهيد.[٩]
- قراءة نقدية بشأن ما كتب عن رحلة محمد الخامس للمشرق العربي.[١٠]
- ممهدات الرحلة الملكية للمشرق العربي.[١١]
- محطات جولة محمد الخامس في أقطار المشرق العربي.[١٢]
- حصيلة جولة محمد الخامس في المشرق العربي.[١٣]
- خلاصة القسم الثاني.[١٤]
- خلاصة عامة.(١٥)
- لائحة المصادر والمراجع.[١٦]
- الفهرس.[١٧]

يعتبر الباحث أحمد المكاوي من المؤرخين المغاربة المهتمين بالعلاقات المغربية المشرقية[١٨]، ومن هذا الاهتمام جاء هذا الكتاب ليسلط الضوء على مرحلة مهمة من تاريخ المغرب، ولكن هذه المرة انطلاقا من تفاعلات المغاربة مع قضايا الشرق، عكس ما هو سائد، وهذا ما عبر عنه بالقول "ما زالت دراسة علاقة المغرب بلدان المشرق العربي والتفاعل مع قضايا هذه المنطقة من منظور مغربي خارج دائرة اهتمام الباحثين المغاربة في تاريخ الزمن الراهن"[١٩]، ويعتبر الهدف الرئيس من هذه الدراسة هو "الإسهام الأولي في دراسة علاقات المغرب ببلدان المشرق العربي لا سيما تجاوب المغاربة مع قضايا هذه المنطقة في عقد الخمسينيات وبداية الستينيات، مما أثر على المغرب داخليا وفي علاقته بأقطار عربية مشرقية"[٢٠].

كما تطرق إلى الصعوبات المنهجية التي تعترض البحث في هكذا مواضيع، وهي صعوبات تواجه مؤرخ الزمن الراهن بشكل عام، وتتمثل أساسًا في نوعية الوثائق المعتمدة، والمتكونة أساسًا من تصريحات وبيانات وخطب والصحف والدوريات ورحلات ومذكرات وشهادات وسير صحافيين وسياسيين وموظفين وفاعلين في الأحداث، وغير خفي أن هذا النوع الوثائقي محط جدل بين المؤرخين، لأنها تعتبر من الذاكرة، والذاكرة تتضمن انفعالات الأشخاص مع الأحداث بشكل غير موضوعي غالبا، وعلى المؤرخ أن يكون حذرا في توظيفها[٢١]، ومن جهة ثانية، قصر المسافة الزمنية، فكثير من تلك الأحداث ما يزال العالم العربي يعيش تداعياتها، وبالتالي من الصعب جدا على المؤرخ تناولها بمعزل عن ذلك.

عرض الأفكار الرئيسة للكتاب

تناول الباحث بشكل عام في القسم الأول من الدراسة والمعنون **بأصداء المشرق العربي في المغرب (١٩٥٠-١٩٦٠)**، تفاعل المغاربة مع أحداث المشرق العربي، وتأثير تلك الأحداث والتطورات في الأوضاع الداخلية للمغرب. وميز فيها بين مرحلتين؛ مرحلة ١٩٥٠-١٩٥٦م، وهي المرحلة التي كان فيها المغرب ما يزال قابعا تحت رحمة الحمايتين الفرنسية والإسبانية، والمرحلة الثانية ١٩٥٦-١٩٦٠م، وهي مرحلة الاستقلال عن فرنسا وإسبانيا، وبداية بناء الدولة الحديثة في المغرب. كما ميز بين مستويين من التفاعل المغربي مع أحداث المشرق، مستوى التفاعل الفوري أو الآني، ومستوى التفاعل المتأخر، معتمدًا في ذلك على مادة توثيقية متنوعة.

تحت عنوان **مشرق عربي مضطرب: اغتيالات وانقلابات**، تناول الباحث مجموع الاغتيالات التي شهدها العالم العربي خلال مرحلة الخمسينيات، وتفاعل المغاربة معها، فتحدث عن انزعاج المغاربة من اغتيال رئيس الحكومة اللبنانية رياض الصلح بتاريخ ١٦ يوليوز ١٩٥١م، وملك الأردن عبد الله بن الحسين بتاريخ ٢٠ يوليوز ١٩٥١م، وذلك اعتمادًا على مذكرات عبد الهادي بوطالب[٢٢]، ومؤلف عبد اللطيف الفلالي[٢٣]. وقد جاء الرد الرسمي للمغرب على اغتيال ملك الأردن، عن طريق تنكيس الأعلام الوطنية في القصر الملكي بالرباط تعبيرًا عن الحزن نظرًا لعلاقة القرابة بين السلالتين العلوية والهاشمية. أما عن اغتيال رياض

الصلح، فيبدو أن رجال الحركة الوطنية المغربية تأثروا بشكل كبير بوفاته، نظرًا لدعمه للقضية المغربية، وبناءً عليه حضر علال الفاسي[٢٤] ومحمد التازي[٢٥] باسم حزب الاستقلال للذكرى الأولى لاغتياله. تطرق الباحث إلى انعكاس هذين الحدثين على أوضاع المغرب الداخلية، خاصة بعد التوتر الذي ميز العلاقة بين السلطان محمد بن يوسف (محمد الخامس) والإقامة العامة الفرنسية، وبداية التخطيط لنفيه من قبل فرنسا، حيث استغلت فرنسا هذه الاغتيالات لوصم العرب بكونهم شعوب فوضوية وغير قادرة على حكم نفسها بنفسها.

أوردت الدراسة ما سماه الباحث بتقييم بوطالب للانقلابات المتتالية في سورية "حكم العقداء"، تناول فيها الانقلابات العسكرية المتتالية التي شهدها القطر السوري، ابتداء من انقلاب حسني الزعيم سنة ١٩٤٩م، مرورا بانقلابي شكري القوتلي أواخر ١٩٤٩م، وانقلاب سامي الحناوي في نفس السنة. وقد تزامنت هذه الانقلابات مع زيارة بوطالب لسورية مطلع ١٩٥٠م، حيث اعتبرها انقلابات قطرية لم تكن لها نية في الانتقال إلى سيادة العالم العربي، في حين اعتبرها علال الفاسي مهمة. عرجت الدراسة على انقلاب الضباط الأحرار في مصر سنة ١٩٥٢م، حيث عبر المغاربة عن ابتهاج بهذا الانقلاب، ومن خلال مذكرات بوطالب استنتج الباحث أنه كان هنالك توقع لهذا الانقلاب قبل حدوثه، وقد حضي الانقلاب بتفاعل مغربي من قبل الطلبة المقيمين في مصر، وتجاوبوا معه بشكل كبير مقارنة بالانقلابات السورية، حتى أن هناك من المغاربة من بحث عن تبرير لهذا الانقلاب الذي أطاح بالملك فاروق، في حين تعرض الفيلالي إلى أسباب انقلاب الجيش في مصر.

في نفس المنحى شهد العراق ثورة تموز (١٤ يوليوز ١٩٥٨)، وذلك بعد الظروف الداخلية المتأزمة، وقد تفاعل علال الفاسي مع هذا الحدث مباشرة، من خلال صحيفة "صحراء المغرب"، حيث اعتبر الانقلاب ضد فيصل الثاني ونوري السعيد ثورة ضد حلف بغداد[٢٦]، وفي رسالة منه إلى الأمين العام للجامعة العربية عبر عن ابتهاجه بتغيير النظام السياسي في العراق. في حين اعتبر الفيلالي أن ما حدث في العراق ما هو إلا تصفية حسابات بين نظامين عربيين متباغضين. ومع تجدد الصراع بين عبد الناصر وحاكم العراق عبد الكريم قاسم، تبدد الابتهاج المغربي بثورة يوليوز، وكان هناك ميل لدعم عبد الناصر.

عرج الباحث في نهاية هذا المحور على تأمل المغاربة في قدرة هذه الانقلابات على تجاوز الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الدول العربية، وبالتالي قدرتها على دعم القضية المغربية، ولم يسمها المغاربة بانقلابات وإنما دعيت بالانتفاضات أو الثورات. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الانقلابات كان لها وقع سلبي على المغرب، من خلال تأثيرها على دعم دول المشرق العربي لقضية المغرب في المحافل الدولية، وخاصة في هيئة الأمم المتحدة، بحكم انشغالاتها بشؤونها الداخلية.

بعنوان **حرب السويس أو العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦م**، تطرق الباحث، إلى تفاعل المغاربة مع هذا الحدث، الذي حدث بفعل تأميم عبد الناصر لقناة السويس، وقد كانت مصر خلال هذه المرحلة حاضنة لنشاط الحركة الوطنية المغربية، من خلال مكتب المغرب العربي ولجنة تحرير المغرب العربي، إضافة إلى الدور الكبير الذي كانت تلعبه إذاعة صوت العرب في التعريف بالقضية الوطنية وحشد الدعم للمغاربة. أبدى المغاربة تعاطفًا كبيرًا مع مصر في مواجهة التآلب الثلاثي، وقد قسم الباحث ردود الفعل المغربية إلى قسمين، قسم من داخل مصر، وقسم من خارج مصر، فالقسم الأول يتعلق بالطلبة المغاربة في القاهرة، الذين تطوع بعضهم إلى حمل السلاح والمشاركة في صد العدوان الثلاثي على مصر، أما القسم الثاني، فيتعلق بداخل المغرب، حيث سجل موقف رسمي من الحكومة المغربية التي استنكرت شن الحرب على مصر، كما أثارت هذه القضية احتجاج المعارضة على وزارة الخارجية المغربية بدعوى أنها لم تصدر موقفا قويا ومعارضا للعدوان، إضافة إلى خروج العامة إلى الشوارع ورفع لافتات مؤيدة لأرض الكنانة.

اهتمت جريدة العلم لسان حال حزب الاستقلال بمواكبة أطوار الحرب، من خلال كتابات علال الفاسي، وقد أبدى تعاطفا كبيرا مع عبد الناصر، كما لم تغب القضية المغربية والجزائرية عن فكره، حيث إن هزيمة فرنسا أمام مصر من شأنه أن يعبد الطريق أمام المغرب والجزائر للاستقلال. وقد تجاوز علال الفاسي مجرد التعاطف إلى محاولة التحليل، بحيث انتقد على الحكومة المصرية اعترافها باتفاقية القسطنطينية ١٨٨٨م المتعلقة بحرية الملاحة في قناة السويس، وانتقد كذلك جمال عبد الناصر على ما سماه باعترافه الضمني بهذه الاتفاقية من خلال دعوته لمؤتمر لإعادة النظر في هذه الاتفاقية، واعتبر أن العدوان

الثلاثي على مصر محاولة لتمكين إسرائيل من التوغل في الأراضي العربية، واستنكر تشدق الغرب بحقوق الإنسان ومبادئ الحرية والكرامة لأنه لم يقم بشجب هذا العدوان، ووصلت سهام نقده إلى البابا فاتيكان وأظهر ابتهاجه من تدخل الاتحاد السوفياتي، وشماتته في الإنجليز والفرنسيين، معتبرا أن المنتصر من هذه الحرب هو الاتحاد السوفياتي، نظرا لاكتسابه تعاطفا كبيرا من الدول العربية، إضافة إلى إسرائيل التي قوت نفوذها في غزة، وعرج على تداعيات ما بعد الحرب من خلال طرحه لمجموعة من الأسئلة منها، هل ستنسحب إسرائيل من غزة؟ مبينا أن غزة تعتبر الحصن الأمامي لمصر. ولم يفت علال الفاسي أن ينتقد جامعة الدول العربية التي اكتفت بإصدار البلاغات، ودعا العرب إلى الالتفاف وتقوية الوحدة العربية، وظل علال الفاسي متابعا للقضية حتى بعد مرور سنوات عليها، حيث كان يستغل أي حدث للإشارة إلى هذا العدوان وأبعاده على العالم العربي.

في السياق نفسه تطرق الباحث إلى تباين موقفي المهدي البرجالي[٢٧] والتهامي الوزاني[٢٨] بشأن دور الاتحاد السوفياتي في الحرب، حيث اعتبر الأول أن الإنذار السوفياتي لم يكن حاسما في إنهاء العدوان على مصر، وأن العامل الرئيسي هو استبسال المصريين في الدفاع عن بلدهم، ورأى أن هذا العدوان هو مدعاة وحافز للوعي القومي العربي، وهو ما تجسد في الوحدة بين مصر وسورية. في حين أطرى الثاني على الدور السوفياتي، واعتبره منقذ مصر، حيث اعتبر أن التدخل السوفياتي جاء بعد عدم قدرة الجيش المصري على المقاومة بسبب غياب التكافؤ، كما قام هذا الأخير باستعراض مجموعة من النتائج الناجمة عن الحرب والتي كانت في مجملها لصالح مصر. كما تطرقت الدراسة إلى حصيلة حرب السويس من منظور مغربي، بالاعتماد على كتابات عبد اللطيف الفيلالي وعبد الكريم غلاب[٢٩]، اللذين أشارى إلى التقارب المصري السوفياتي، وقد رأى غلاب أن العدوان الثلاثي على مصر كان بالإضافة إلى تأميم قناة السويس بسبب دعم مصر للمغرب والجزائر.

ناقش الباحث مسألة حقيقة تضامن العرب مع مصر خلال هذه المرحلة، واعتبره مجرد تضامن لفظي لم يغير شيئا، وسماه بتضامن **لجبر الخاطر**، كما أبرز الاتهامات التي وجهت للعراق بفتح مجالها أمام الطائرات البريطانية للتزود بالبترول.

تحت عنوان **التجربة الناصرية: تقييمات مغربية متباينة**، تناول الباحث مواقف المغاربة لفترة ما بعد "ثورة الضباط الأحرار"، حيث رصد أولا خشية قسم من المغاربة من تحول الثورة إلى استبداد، وذلك بعد إقدام النظام الناصري على حل البرلمان والأحزاب، ورصد مواقف عديد من الشخصيات المنتمية لحزب الاستقلال، بدءا بالفقيه محمد غازي، الذي وصف مصر على أنها تحولت من **"ديكتاتورية ملكية إلى ديكتاتورية جمهورية ومن نظام ملكي إلى عهد جمهوري متعفن"**[٣٠]، كما عبر أبوبكر القادري[٣١] سنة ١٩٥٧م بعد زيارته لمصر عن قلقه من النهج الديكتاتوري الذي صار عليه عبد الناصر، ورغم ذلك عبر عن اقتناعه بأن مصر ماضية في الاتجاه الصحيح ألا وهو بناء الدولة على أسس صحيحة على حد تعبيره، كما تقاسم معه التهامي الوزاني نفس القناعة، وكتب محمد التازي وهو طالب وقتئذ في مصر، عن تباين آراء المصريين بين مؤيد ورافض لما فعله جمال عبد الناصر. كما سجل موقفا آخر لمحمد السلوي عزام[٣٢]، الذي اعتبر انقلاب الضباط الأحرار عبارة عن مؤامرة أمريكية.

وعرجت الدراسة على موقف التهامي الوزاني، الذي أطرى على إنجازات جمال عبد الناصر، من خلال جرده لأبرز إنجازات الثورة المصرية خلال خمس سنوات (١٩٥٢م-١٩٥٧م) في المجالات الاجتماعية والسياسية والبنية التحتية والتجهيزات، وقام بإيجاد مبررات لكل الإجراءات الدكتاتورية لحكومة الثورة وجند قلمه للدفاع عنها. كما سجل بعض الأعطاب التي تشوب المجتمع المصري كاعتماد المثقفين على التنظير بدل التطبيق، وتدني مستوى الطلبة الجامعيين. في حين سجل الباحث موقفا متوازنا لعبد الكريم غلاب، الذي رأى أن عبد الناصر وطني غير ديمقراطي، فقد عبر عن ثنائه لما قام به من طرد للقوات الأجنبية وتأميم قناة السويس ومساعدة الحركات التحررية وسعيه إلى توحيد العرب، لكن في المقابل عرض جملة من المؤاخذات على نظام عبد الناصر، منها إهمال القضايا الداخلية لمصر، كما لم يرحب بالتوجه الاشتراكي والتقارب مع الاتحاد السوفياتي، واعتبر أن هذا الاختيار جر على مصر مجموعة من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، وانتقد الطبيعة الديكتاتورية للنظام الناصري. وكانت آخر المواقف التي رصدها الباحث في هذا الباب لعبد اللطيف الفيلالي، الذي قام هو الآخر برصد أخطاء عبد الناصر، حيث اعتبر السياسة العربية لهذا الأخير ما هي إلا **"هيمنة مقنعة**

بقناع الوحدة"، واعتبر أن التجربة الناصرية في مصر كانت سلبية داخليًا وخارجيًا.

خلص صاحب الدراسة إلى أن ما تحكم في تباين المواقف هو السياقات، فإذا كان الإطراء السَمة الغالبة في الخمس سنوات الأولى، فذلك عائد إلى صد العدوان الثلاثي وتأميم قناة السويس، لكن سرعان ما تحول إلى النقيض خاصة بعد نكسة ١٩٦٧م.

بعنوان **الوحدة المصرية السورية (الجمهورية العربية المتحدة)**، تناول فيه الباحث مواقف المغاربة من الاندماج المصري السوري بتاريخ ٧ فبراير ١٩٥٨م، وبعد أن قدم مجموعة من العوامل التي أدت إلى هذه الوحدة، قسم تفاعل المغاربة مع هذه الوحدة إلى قسمين؛ قسم أول كان حماسيا بشكل مبالغ فيه، وذلك خلال الفترة ما بين (١٩٥٨-١٩٦١م) أي حينما كانت الوحدة ما تزال قائمة. وقسم ثان تفاعل مع هذه الوحدة بنقد شديد وقاس، وذلك خلال الفترة ما بعد ١٩٦١، أي بعد انحلال الوحدة.

من بين الردود التي تندرج ضمن القسم الأول، رصد الباحث مواقف لعلال الفاسي، الذي هلل كثيرا لهذا الحدث من خلال صحيفة "صحراء المغرب"، معربا عن آماله في أن تفضي هذه الوحدة إلى وحدة العالم العربي بأكمله. ومن جهة أخرى احتفت مجلة "رسالة الأديب" الحديثة التأسيس في أعدادها الأولى بهذه الوحدة، ولاحظ الباحث أن هناك تقاربا في الرؤى بين "ابن منظور" وهو اسم مستعار للمقالات المنشورة بالمجلة، وبين علال الفاسي، مما يرجح إمكانية أن يكون علال الفاسي هو نفسه "ابن منظور"، وما يؤكد أكثر هذا الأمر، أن هذا الأخير دافع عن إقامة "نظام فدرالي يوحد السياسة الخارجية للعرب"[٣٣]، بدل الوحدة الاندماجية الصعبة التحقق، وهو نفس طرح علال الفاسي.

استمر الاهتمام المغربي بقضية الوحدة السورية المصرية، وفي ذكراها الثالثة كتب المهدي البرجالي يحتفي بها ويمجدها، في الوقت الذي كانت فيه هذه الوحدة تحتضر، حيث أفاض في تحليل أسباب الوحدة ومواقف الغرب والعرب منها، بشكل يظهر مدى تفاؤله بهذه الوحدة رغم أنها كانت تعيش مراحلها الأخيرة، واستعرض حصيلة التغيرات الحاصلة في البلدين بفعل هذه الوحدة، ومنها إحباط خطة عزل مصر إقليميًا ودوليًا، وانفلات سوريا من الضغوط الدولية والتحرشات الإسرائيلية بحدودها، وتحقيق الاستقرار السياسي لسوريا بعد فترة الانقلابات السالفة الذكر، كما استشرف مستقبلاً حافلاً لهذه الوحدة من الناحية الاقتصادية والسياسية. وأشار صاحب الدراسة أن حماس البرجالي وعاطفته منعتاه من إدراك ما يروج حول سياسات عبد الناصر المانعة في حد ذاتها للوحدة، وعلى رأسها حل الأحزاب السياسية ذات التوجه القومي العروبي.

انتقلت الدراسة إلى رصد التفاعلات التي تدخل ضمن القسم الثاني، حيث تناول الكاتب بعض التفاعلات النقدية لهذه التجربة بعد نهايتها، ومنها رأي لعبد الرحيم بوعبيد[٣٤]، حيث تحدث عن عدم اطمئنانه لهذه الوحدة منذ نشأتها بفعل السياق العاطفي الذي صاحب تأسيسها، ونحى نفس المنحى عبد الهادي بوطالب حيث كان تقييمه إجمالا سلبيا لهذه التجربة الوحدوية، بحكم أنها لم يهيئ لها ولم يكن تتم بطريقة متدرجة. في حين حمل عبد اللطيف الفيلالي مسؤولية فشل الوحدة بشكل كامل لجمال عبد الناصر، وذلك من خلال فرضه لرقابة شديدة على سوريا، وغبته في تحويلها إلى "مجرد إقليم تابع لمصر"[٣٥]، وعبر عن استيائه منه واصفا إياه بالمتغطرس والمتكبر، وأضاف الفيلالي أن تردي الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في سوريا، كان عاملا مساهما في سقوط هذه الوحدة.

تحت عنوان **أنظمة عربية متصارعة وتدخلات أجنبية**، تعرضت الدراسة إلى مواقف المغاربة من الخلافات بين الأنظمة العربية خلال فترة الخمسينيات من القرن العشرين، والمغرب لم يكن بمنأى عن ذلك، خاصة الصراع الذي نشب حول حلف بغداد، بحيث انتشرت مزاعم في الصحافة المصرية على نية كل من المغرب وتونس الانضمام إلى هذا الحلف أو تشكيل حلف مواز له بغرض تطويق مصر، وهكذا تصدى علال الفاسي لهذه المزاعم بالنفي القاطع، وكتب بشكل غاضب "**لا نقبل سيطرة أحد علينا عربيًا كان أم أعجميًا، كما نرفض التفسيرات التي توحي بها أوهام أجنبية أيضًا**"[٣٦]، وقد وصل هذا النقاش إلى المجلس الوطني الاستشاري، حيث إن المغرب قدم طلبا للانضمام ثم تراجع عنه حسب تصريح أحد المسؤولين العراقيين. وبعد سقوط النظام الملكي في العراق عبر المغاربة عن ابتهاجهم، وقدم على الكتاني[٣٧] ملتمسًا للحكومة المغربية للاعتراف بالحكومة العراقية الجديدة، كما أثنى علال الفاسي على هذا الحدث أيضًا. وفي الوقت الذي تفاعل فيه المغاربة بشكل كبير جدًا مع الوحدة المصرية السورية، رصد الباحث تفاعلاً ضعيفًا مع الاتحاد الهاشمي الذي جمع بين الأردن والعراق، وكان الوحيد الذي اهتم بالموضوع ولو بشكل ضعيف هو علال

الفاسي الذي عبر عن حماسه لهذه الوحدة، ورأى فيه مقدمة للوحدة العربية الشاملة.

من بين المشاكل المشرقية التي كان لها صدى بالمغرب، التوتر الذي ميز نظامي كل من عبد الكريم قاسم رئيس العراق، وجمال عبد الناصر رئيس مصر، وبعد تسليط الإعلام المصري جام غضبه على عبد الكريم قاسم، نجد علال الفاسي يصف الاتهامات المصرية الموجهة إلى عبد الكريم قاسم بالمبالغ فيها، كما نفى عنه ميوله الشيوعي. وفي الإطار نفسه قدم عبد اللطيف الفيلالي مبررات لتبرئة عبد الكريم قاسم من التهم الموجهة إليه، في حين قام عبد الرحيم بوعبيد بمقارنة بين الزعيمين، مجد فيها عبد الناصر وسفه فيها عبد الكريم قاسم.

تناولت الدراسة كذلك، حدث الإنزال الأمريكي بلبنان صيف ١٩٥٨م، بعد طلب من الرئيس اللبناني كميل شمعون، هذا الأمر خلف ردود فعل متباينة في العالم العربي، رصد فيها الباحث مواقف المغاربة، ومنها الموقف الرسمي الذي عبر عنه الملك محمد الخامس، باحتجاجه على ذلك، أما الناطق باسم الحكومة المغربية، فاعتبر أن ما يحدث في لبنان هو شأن داخلي، وأن المغرب يعارض أي تدخل في الشؤون الداخلية للدول، وقد وصل النقاش حول هذا الحدث إضافة للتدخل البريطاني في الأردن إلى المجلس الوطني الاستشاري، حيث حاول عبد الحي العراقي[٣٨]، الضغط على الحكومة لإدانة التدخلين الأمريكي والبريطاني، ووصف رئيس لبنان بالخائن. واعتبر علال الفاسي أن هذا التدخل يتنافى مع القوانين الدولية، معتبرا أن الهدف منه هو إنقاذ مشروع إزنهاور وتهديد الأردنيين والسوريين ووئد الثورة العراقية. وكان لحدث انطلاق القوات الأمريكية إلى لبنان من قاعدة النواصر المغربية، فرصة ليطالب المغاربة بإغلاق القواعد العسكرية الأمريكية بالمغرب وجلائها عنه، نظرا لأن هذا الأمر خدش كرامة المغاربة.

خلص الباحث إلى أن تفاعل المغاربة مع أحداث الشرق العربي، نابع من الانتماء إلى المنظومة الحضارية ذاتها، وإلى الجامعة العربية، إضافة إلى دعم الدول العربية بالمشرق لنضال المغرب من أجل الاستقلال، مع الحرص على عدم التدخل في شؤون أي بلد عربي.

تناولت الدراسة في القسم الثاني المعنون **بجولة محمد الخامس في المشرق العربي ١٩٦٠م**، رحلة محمد الخامس إلى عدة دول مشرقية، واكتست هذه الرحلة أهميتها من كونها تعتبر الأولى من نوعها لعاهل مغربي، ثم شمولها على سبعة أقطار لمدة شهر كامل، وأنها جاءت بعد بضع سنوات على استقلال المغرب.

قدم الباحث **قراءة نقدية بشأن ما كتب عن هذه الرحلة**، حيث لا حظ عدم الاهتمام بها من قبل الكتاب المغاربة الذين أفردوا دراسات خاصة بمحمد الخامس، كمحمد العلمي[٣٩] وعبد الحق المريني[٤٠]، في حين لم يشر إليها بالمرة المؤرخ الإنجليزي روم لاندو[٤١] في كتابه محمد الخامس منذ اعتلائه العرش إلى يوم وفاته، وكان تناول جون وولف[٤٢] لهذه الرحلة عرضيا في كتابه حول عبد الخالق الطريس، أما بالنسبة للكتابات المشرقية العربية، فكان تناولها لهذه الرحلة مقتضبا وعرضيا، كما هو الحال لدى الأردني محمد العابدي[٤٣] والمصريين صلاح الشاهد[٤٤] ومحسين حسين[٤٥]، والسوري أحمد عسه[٤٦]. ومن الملاحظات التي رصدها الكاتب أن الحسن الثاني في كتابه التحدي لم يخصص سوى فقرة وحيدة لهذه الرحلة، ومن الأمور التي أثارتها الدراسة كذلك أن الدبلوماسيين المغاربة لم يهتموا في كتاباتهم بهذه الرحلة ومنهم عبد اللطيف الفيلالي الذي لم يشر إليها بالمرة، في حين أشار محمد التازي بشكل عرضي إليها في كتابه مذكرات سفير، ونفس الملاحظة تنسحب على كتاب محمد لومة[٤٧] حول عبد الله إبراهيم. كما أن هذه الرحلة غابت عن محرري مواد لفائدة موسوعة "معلمة المغرب" حول مواضيع ذات صلة بالمغرب والمشرق. وأخيرا هنالك كتابات مغربية وأوربية ومشرقية ارتكبت أخطاء بإسقاطها بعض المناطق من الزيارة، كما هو حال الإسباني هيرناندو دي لارامندي[٤٨] والمغربي الحسين مجذوبي[٤٩].

كان الهدف من هذه القراءة النقدية حسب الباحث **"إبراز محدودية المصادر والدراسات رغم تنوعها (مغربية، عربية وأوربية) في الإلمام بكل محطات وتفاصيل هذه الرحلة الطويلة، ومن ثم كان لزاما البحث في مظان أخرى، صحف ودوريات، مذكرات وشهادات، لسد ثغرات ورصد قضايا حساسة، لم ترد في مصادر غطت الرحلة..."**[٥٠].

تناولت الدراسة **ممهدات هذه الرحلة**، ويمكن تلخيصها في الآتي:

- فتح سفارات في عواصم مغربية: تناول فيها الباحث تأسيس مجموعة من السفارات سواء لدول عربية في المشرق أو العكس.
- تبادل الزيارات وعقد اتفاقيات: كزيارة ملك العراق فيصل الثاني سنة ١٩٥٦م، وعاهل السعودية

سعود بن عبد العزيز سنة ١٩٥٧م. كما زار الأمير الحسن مصر أكثر من مرة سنوات ١٩٥٣م و١٩٥٦م و١٩٥٩م. وكذلك للبنان سنة ١٩٥٩م...، كما وقع المغرب بعض المعاهدات مع الدول العربية المشرقية، منها معاهدة إخاء وصداقة مع السعودية سنة ١٩٥٨م، واتفاق تجاري مع الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا) في السنة ذاتها. إضافة إلى الدور الذي لعبه الطلبة المغاربة بالعديد من الأقطار المشرقية، كما كان بالمغرب العديد من الأساتذة المشارقة في مدارسه وجامعاته.

- استطلاع أوضاع بلدان عربية: حيث قام محمد الخامس بتكليف أبي بكر القادري بإنجاز تقرير حول عدد من الدول العربية المشرقية بعد أداء فريضة الحج سنة ١٩٥٧م.
- قبل التوجه إلى الرحلة، عمل محمد الخامس على التوسط في العديد من القضايا العالقة بين الدول العربية، ومنها المتعلقة بالرئيس التونسي الحبيب بورقيبة والرئيس المصري جمال عبد الناصر، وبين هذا الأخير وعبد الكريم قاسم رئيس العراق. ومن جهة أخرى كانت الأوضاع الداخلية للمغرب متوترة، حيث تصدع حزب الاستقلال وانشق عنه الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في ١١ يناير ١٩٥٩م، كما كان هناك صراع بين حكومة عب الله إبراهيم والأمير الحسن، تم على إثرها توقيف جريدة المحرر التابعة للحزب الحاكم، واعتقال عبد الرحمان اليوسفي والفقيه البصري، هذه الأوضاع المتوترة هي من جعلت حسب الباحث من محمد الخامس يبقي على الأمير الحسن في المغرب بدل أخذه معه في رحلته.
- انضمام المغرب إلى جامعة الدول العربية في فاتح أكتوبر ١٩٥٨م، وقبل هذا الانضمام رصد لنا الباحث مواقف متباينة للمغاربة من مستويات مختلفة من انضمام المغرب لهذه المؤسسة. ثم إن احتضان المغرب سنة ١٩٥٩م للدورة الثانية والثلاثين لمجلس الجامعة بالدار البيضاء، كان من بين الممهدات الأساسية لهذه الرحلة.

تحت عنوان **محطات جولة محمد الخامس في أقطار المشرق العربي**، تناول الباحث زيارات محمد الخامس لعدة بلدان مشرقية سنة، وأشار إلى أن المنهج المتبع في تناولها ليس كرونولوجيا، وإنما حسب أهمية المناطق التي زارها الملك محمد الخامس تبعا لوجهة نظره، وهكذا رتبها من الأقل أهمية إلى الأكثر أهمية كالآتي:

- **زيارة الكويت**: زار محمد الخامس الكويت يوم ٣٠ يناير ١٩٦٠م، ولم تكن الكويت قد استقلت بعد عن بريطانيا، لكن كان لها استقلال ذاتي يسمح لها بربط علاقات مع محيطها العربي. تطرقت الدراسة إلى الصلات المغربية الكويتية قبل هذه الزيارة، ومنها تردد الطلبة المغاربة على الكويت للاستفادة من منح الدراسة بها، ومشاركة وفد مغربي رسمي في مؤتمر الأدباء والكتاب العرب سنة ١٩٥٩م. كان من أبرز ما تم خلال هذه الرحلة إجراء مباحثات حول توظيف رؤوس أموال كويتية في المغرب. ومن النتائج البعدية لهذه الزيارة، وقوف المغرب إلى جانب الكويت بعد استقلاله سنة ١٩٦١م، حيث اعترض على رغبة العراق في مهاجمتها عسكريا باعتبارها جزءًا من العراق، وحسب الباحث فإن هذه الزيارة كان لها تأثير كبير على موقف المغرب.
- **زيارة الأردن**: زار محمد الخامس الأردن يوم ٢٦ يناير ١٩٦٠م، وأورد الباحث محاولة السفير المغربي بالأردن الفاطمي بن سليمان نسف الرحلة، ضدا على عبد الله إبراهيم، حيث نقل أخبارا مفادها أن الأوضاع بالأردن غير مستقرة، لكن محاولته هذه باءت بالفشل. زار محمد الخامس مدينة القدس التي كانت تحت الإدارة الأردنية، وأجملت الدراسة أن الهدف من هذه الزيارة كان تمتين الروابط بين البلدين، ومساندة المغرب للشعب الفلسطيني، إضافة إلى الاستفادة من الخبرة الأردنية في مجال التعليم.
- **زيارة لبنان**: جاءت هذه الزيارة في خضم الحملات الصحفية اللبنانية على المغرب، بسبب التوتر بين حكومة عبد الله إبراهيم اليسارية وبين الأمير الحسن. وقد كان لهذه الرحلة صدى إيجابي قلص من حدة هذه الحملة الصحفية، وحاول المغرب الاستفادة من الخبرة اللبنانية في حقل التعليم.
- **زيارة السعودية**: كان لهذه الزيارة عدة أهداف، منها ما هو ديني وأخوي كتأدية مناسك العمرة، وشكر السعودية على ما قدمته للمغرب في صراعه ضد الاستعمار، وردا كذلك على الزيارة السابقة للعاهل السعودي إلى المغرب. ومن الناحية الاقتصادية حاول الملك جلب الاستثمارات السعودية إلى المغرب. وسياسيًا تم إجراء مباحثات حول المد الناصري الذي كان يهدد العروش الملكية.

- **زيارة العراق**: تمت هذه الزيارة بتاريخ ٣١ يناير ١٩٦٠م، وقد وصف عبد الكريم قاسم محمد الخامس بالملك الشعبي كناية على ارتباطه بشعبه وبالحركة الوطنية المغربية. ودارت بينهما مباحثات تهم القضايا الثنائية للبلدين، إضافة إلى المشاكل بين الأقطار العربية، مع حرص المغرب على الاستفادة من التجربة العراقية في مجال التربية والتعليم، وتقديم منح للطلبة المغاربة لاستكمال الدراسة بالعراق، إضافة إلى استقدام أساتذة عراقيين للتدريس بالمغرب، كما حاول محمد الخامس الحصول على الدعم العراقي لقضية موريتانيا، كما أهدى الرئيس العراقي للمغرب العديد من الطائرات الحربية، الشيء الذي لن يجد الباحث ما يؤكده في المصادر المغربية.
- **زيارة الجمهورية المتحدة (مصر وسوريا)**: تناول الباحث السياق العام لهذه الزيارة، ولعل أبرزها التوجس من المد الناصري بالمغرب، حيث وجد مدرسين مصريين بالمغرب يعملون علة نقل الفكر الناصري للتلاميذ ولبعض القادة والزعماء. وأجملت الدراسة النقط التي حظيت بتغطية واسعة وهي منح محمد الخامس الدكتوراه الفخرية، ومشاركته في تدشين السد العالي، ولقائه بمحمد بن عبد الكريم الخطابي. ومن أبرز القضايا التي كانت محط نقاش بين الملك والرئيس المصري، الأوضاع المتوترة في العالم العربي، والتوجس من المد الناصري، كما طرح قضية المغرب مع موريتانيا بغية دعم الجمهورية المتحدة للمغرب، إضافة إلى رغبة المغرب في الاستغناء عن مدرسين مصريين ممن يعملون على نشر المد الناصري. بعد مصر توجه صوب سوريا الجزء الآخر من الجمهورية المتحدة، وقد حصل هناك ما نغص على الملك رحلته، حيث تفاجأ بفتح حقائبه وتفتيشها والتنصت عليه وعلى الوفد المرافق له.

بعنوان **حصيلة جولة محمد الخامس في المشرق العربي**، تناولت الدراسة ما جناه المغرب من هذه الزيارة، مقسما إياها إلى نتائج فورية وأخرى بعيدة المدى، بعضها اندثر وبعضها استمر وتعزز، ومن النتائج الفورية:

- تقليص الحملة الإعلامية في لبنان ضد السلطات المغربية، لكن هذه الحملة سرعان ما عادت إلى سابق عهدها مباشرة بعد إقالة عبد الله إبراهيم وحكومته، وتأججت بعد حرب الرمال بين المغرب والجزائر سنة ١٩٦٣م، ثم زادت تفاقما مع اختطاف المهدي بن بركة في باريس سنة ١٩٦٥م.
- تبني الدول العربية المنضوية تحت لواء الجامعة العربية للقضية المغربية بشأن موريتانيا، حيث أعلنت عدم إقرارها باستقلال موريتانيا خارج السيادة للمغربية سنة ١٩٦٠. لكن هذا المكسب سرعان ما تبدد حينما أقدم الحبيب بورقيبة الرئيس التونسي على الاعتراف بدولة موريتانيا، وشكل ذلك بداية فقدان المغرب للدعم العربي في هذا الملف.

من النتائج البعيدة المدى:

- استفادة المغرب في المجالين المالي والاقتصادي، حيث تدفقت الاستثمارات والقروض والهبات والمنح، خاصة من الكويت والسعودية.
- تدفق عدد كبير من المدرسين من مصر وسوريا والعراق ولبنان للتدريس في المغرب في كافة المستويات التعليمية.
- توطيد العلاقات السياسية بين المغرب وبعض الدول العربية، خاصة السعودية.
- انخراط المغرب في القضايا العربية، والقيام بأدوار مهمة، منها الوساطة في التوترات والأزمات بين الدول العربية، أو في الصراع العربي الإسرائيلي.

التعليق على الكتاب

(ا) من حيث الشكل:

كتبت الدراسة بلغة عربية رصينة وسلسة، ذات طابع أكاديمي تاريخي سهل وممتنع، لكن ما يمكن تسجيله من حيث الشكل:

- بعض الأخطاء المطبعية التي تكررت مرات عدة، منها على سبيل المثال (المجلس الوطني الاستشاري/ المجلس الوطني الاستشاري، مع إرهاب المغاربة/ مع إرهاب المغاربة، قبل الانتقال إلى/ قبل الانتقال إلى...).
- الطريقة التي تم اعتمادها في كتابة الإحالات، طريقة قديمة ومضيعة للوقت والجهد بالنسبة للقارئ، الذي يضطر إلى الانتقال إلى آخر كل فصل بغية مشاهدة الإحالة مرارا وتكرارا، وكان يحبذ إدراجها في أسفل كل صفحة، على اعتبار أن الإحالات أضحت جزءًا من الدراسة، ويمكن أن تتضمن تعاليق مهمة مكملة للمضمون.
- فيما يخص لائحة المصادر والمراجع نسجل سقوط كتاب محمد لومة الموسوم بسنوات الصمود وسط الإعصار، رغم الإشارة إليه في المتن، ويمكن أن

نظيف أيضا كتاب عبد الهادي بوطالب المعنون ب القضية العربية[51]، وهو كتاب صادر عن دبلوماسي مغربي تناول فيه العديد من القضايا التي تناولتها الدراسة أيضا بنوع من التفصيل، لكن الباحث استغنى عنه في دراسته هاته.

- من الأمور التي غفلت عنها الدراسة، تقديم تعريفات أو ترجمات لبعض الشخصيات المغربية غير المعروفة للقارئ العربي وربما حتى المغربي، لأن معرفة تلك الشخصيات والمهام المنوطة إليها جزء من فهم التفاعلات وسياقاتها ومواقعها، فتفاعل الدبلوماسي ليس هو تفاعل السياسي أو الكاتب العادي، كما أنه يمكن أن يقع خلط للقارئ في الأسماء، خاصة بين التهامي الوزاني ومحمد بن الحسن الوزاني، أو بين عبد الهادي التازي ومحمد التازي.

(٢) من حيث المضمون:

اعتمد الباحث على منهج كرونولوجي، محترمًا التسلسل الزمني للأحداث، خاصةً في الفصل الأول من الدراسة، مبتعدًا عن المنهج السردي، ومعتمدًا منهجًا تحليليًا تركيبيًا، كما اعتمد في أحيان كثيرة المنهج المقارن، من خلال مقارنة التفاعلات المغربية مع بعض الأحداث بالمشرق العربي، وأحيانًا وظف المنهج الاستقرائي للنصوص، مع إعطاء تحليله ووجهة نظره الخاصة، ولا ننسى أن الباحث نفسه، يعتبر شاهدًا ومصدرًا من مصادر تلك المرحلة.

جاء مضمون الكتاب غنيا بالأحداث التاريخية والسجالات والتقابلات بين الآراء، وغني بالمصادر المعايشة للحظة، خاصة أن جل مراجعه ومصادره مستقاة من شخوص فاعلين في الأحداث التي تناولتها الدراسة، مع الانفتاح على ما كتبه بعض المشارقة وكذلك بعض الغربيين، وهذا ما أغنى الدراسة، ويبقى السجل الرسمي المحتفظ به في أرشيف الدول العربية مغيبا، وبالتالي فالكشف عنه سيزيد من إغناء هذه الدراسة، وهذا الأمر كان الباحث على وعي به من خلال قوله "**...فإننا نعدم وثائق الدول العربية ومؤسساتها، إذ لا يتم الكشف عنها بسبب وضعية الأرشيف في البلدان العربية أولا ثم لحساسية ما تتضمنه هذه الوثائق بسبب طبيعة العلاقات بين الأنظمة العربية ومواقفها من بعضها البعض...**"[52]، وهذه معضلة كل الباحثين في التاريخ الراهن، خاصة في دول العالم الثالث، بسبب التداخل بين العلم بصفة عامة والسياسة.

إضافة إلى ما سبق، لم تحظ القضية الفلسطينية باهتمام كبير في الدراسة، حيث تمت الإشارة إليها بشكل عرضي فقط، وهو ما يطرح السؤال، هل ضعف التفاعل المغربي مع القضية الفلسطينية خلال هذه المرحلة؟ أم لأسباب أخرى لم تتعرض لها الدراسة بنوع من التفصيل؟

خاتمة

يمكن اعتبار هذه الدراسة، إضافة نوعية للمكتبة التاريخية المغربية بصفة خاصة والعربية عامة، لما تميزت به من جدة في الموضوع، واحترافية في التناول، فهذه الدراسة تُعَدّ من الدراسات الأولى في بابها، نظرًا لأن معظم الدراسات التاريخية المغربية في الزمن الراهن، اهتمت بالعلاقات المغربية مع أوربا الغربية وخاصة فرنسا وإسبانيا، أو بالصراعات السياسية التي عرفها المغرب بعد الاستقلال، وقلما يلتفت إلى علاقته بالمشرق، على الرغم من الأدوار الطلائعية التي لعبها المشرق في مساندة القضية المغربية، منذ زيارة شكيب أرسلان التاريخية لمدينة تطوان سنة ١٩٣٠م. وبناء عليه نقول إن هذه الدراسة فتحت أفقًا للبحث أمام الطلبة والباحثين في الجامعات المغربية والعربية، وأكيد أن مجموعة من العناوين الفرعية داخل الكتاب، تشكل موضوعًا لأبحاث مستقلة أنار الباحث بها الطريق للباحثين الشباب بالخصوص.

الإِحَالَاتُ المرجِعيَّة

(١) أحمد المكاوي، **المغرب والمشرق العربي (١٩٥٠-١٩٦٠) صلات ومواقف**، الفاصلة للنشر، ط، ٢٠٢٠.

(٢) (ص ٩-١٤).

(٣) (ص ١٥-٣٢).

(٤) (ص ٣٢-٥٥).

(٥) (ص ٥٥-٧٠).

(٦) (ص ٧٠-٩٣).

(٧) (٩٣-١١١).

(٨) (ص ١١٩).

(٩) (ص ١٤٣).

(١٠) (ص١٤٣-١٤٨).

(١١) (ص ١٤٨-١٦٤).

(١٢) (ص ١٦٤-١٩٠).

(١٣) (ص ١٩٠-٢٠١).

(١٤) (ص ٢٠٣).

(١٥) (ص ٢٢١-٢٢٤).

(١٦) (ص ٢٢٥ – ٢٣٠).

(١٧) (ص ٢٣١-٢٣٣).

(١٨) من بين هذه الكتاب نجد: **المغرب في تاريخه المنسي (جوانب من تاريخ المغرب بعيون عربية)**، جذور للنشر، ط، ٢٠٠٦. **قضايا المغرب في مجلة المنار للشيخ رشيد رضا (١٨٩٨-١٩٣٥)**، منشورات أمل التاريخ الثقافة والمجتمع، ٢٠١٦. "**جوانب من الحضور الشامي في المغرب قبيل الحماية وإبانها**"، ضمن العلاقات المغربية الشامية قضايا منهجية، تنسيق عبد المجيد بيهيني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية –الجديدة-، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط، ٢٠١٠. "**دور الحسن الثاني في الشأن العربي بين هيكل والسماك**"، مجلة رهانات، العدد ٢٢، ٢٠١٢. "**من تجليات الحضور المغربي ببلاد الشام في النصف الأول من القرن ٢٠**"، ضمن جوانب من علاقات المغرب بالبلدان المتوسطية (مصر-بلاد الشام – فرنسا)، تنسيق عبد المجيد بيهيني، منشورات مختبر المغرب والبلدان المتوسطية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - بالجديدة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر – الرباط، ط، ٢٠١٥ ص ١١١ – ١٣٥. "**نظرات مشرقية إلى الخطابي والثورة الريفية**"، مجلة أمل التاريخ الثقافة والمجتمع، العدد ٥٠، ٢٠١٨، ص١٨٠ – ١٩٢.

(١٩) المكاوي، **المغرب والمشرق العربي (١٩٥٠-١٩٦٠)** صلات ومواقف، ص ٣.

(٢٠) المكاوي، مرجع سابق، ص ٤.

(٢١) حول هذا الموضوع يمكن العودة إلى: عبد العزيز الطاهري، **الذاكرة والتاريخ المغرب خلال الفترة الاستعمارية (١٩١٢-١٩٥٦)**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ٢٠١٦.

(٢٢) من مواليد ٢٣ دجنبر ١٩٢٣م بمدينة فاس، واحد من الوجوه السياسية البارزة في المغرب، كان ينتمي إلى حزب الشورى والاستقلال الذي تزعمه محمد بن الحسن الوزاني، تقلد عدة مناصب ديبلوماسية وأكاديمية منها أستاذا في المعهد المولوي التابع للقصر الملكي، ووزيرا للشغل والشؤون الاجتماعية، وكاتب الدولة للشبيبة والرياضة...ثم سفيرا للمغرب في واشنطن والمكسيك، من بين مؤلفاته المعتمدة في هذه الدراسة: ذكريات.. شهادات.. ووجوه، الشركة السعودية للأبحاث والنشر، جدة، ج٢، ١٩٩٣م. نصف قرن في السياسة، منشورات الزمن، الرباط، ٢٠٠١.

(٢٣) ولد بتاريخ ٢٦ يناير ١٩٢٨، سياسي مغربي، تقلد عدة مناصب دبلوماسية وحكومية، منها سفير للمغرب في العديد من الدول كالصين وإسبانيا والجزائر وبريطانيا، ثم رئيسا للوزراء سنوات ١٩٩٤ و١٩٩٥م، من أهم مؤلفاته المعتدة في الدراسة: **المغرب والعالم العربي**، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ٢٠٠٨.

(٢٤) واحد من أبرز الوجوه السياسة المغربية وقادة الحركة الوطنية المغربية ضد الاستعمار، والزعيم الروحي لحزب الاستقلال، تقلد عدن مناصب حكومية، وكان غزير الإنتاج، حرر مواد صحفية عديدة في مجلة العلم، وصحراء المغرب، ومن مؤلفاته: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، دار الطباعة الحديثة، تطوان، د.ت. دفاعًا عن وحدة البلاد، ط٢، منشورات مؤسسة علال الفاسي، الرباط، ٢٠٠٩.

(٢٥) كاتب ودبلوماسي مغربي من مؤلفاته: مذكرات سفير، مطابع الأنباء، الرباط، ج١، ٢٠٠٠.- تلك الأيام، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط، ٢٠٠٥.

(٢٦) نظر إلى هذا الحلف على أنه صنيعة الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا.

(٢٧) كاتب مغربي من كتاباته: الجمهورية العربية المتحدة في ذكراها الثالثة، ضمن مجلة دعوة الحق، العددين ٧ و٨، ١٩٦١.- بعد سنتين، عبرة السويس، ضمن مجلة دعوة الحق، العدد١، السنة ٢، ١٩٥٨.

(٢٨) واحد من أبرز الوجوه السياسية المغربية وقادة الحركة الوطنية المغربية بالشمال، من مؤلفاته المعتمدة في الدراسة: الرحلة الخاطفة (مشاهدات ولقاءات في القاهرة سنة ١٩٥٧)، منشورات جمعية تطوان أسمير، تطوان، ط، ٢٠١٣.

(٢٩) كاتب وصحفي ومؤرخ وروائي مغربي، وواحد من أبرز الوجوه السياسية المنتمية لحزب الاستقلال، عين وزيرا للخارجية سنة ١٩٨٣، من أبرز مؤلفاته: مذكرات سياسية وصحافية، منشورات المعارف، الرباط، ط، ٢٠١٠.

(٣٠) المكاوي، مرجع سابق، ص ٥١.

(٣١) واحد من رجالات الحركة الوطنية المغربية، ومن الكتاب المهتمين بتاريخها، من مؤلفاته في المعتمدة في الدراسة: رحلاتي الحجازية (ارتسامات وذكريات عن ثلاث رحلات إلى الديار المقدسة)، مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء، ١٩٩٥.- مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ج٤، ٢٠٠٤.

(٣٢) صحافي وكاتب مغربي، من مواليد ١٩٣٠ بفاس، عمل مندوبا جهويا لوزارة الأنباء، ومندوبا عاما لشمال شرق

المغرب للمكتب الدائم لتسيق التعريب في الوطن العربين، من أبرز مؤلفاته: المقاومة والوجدان (عن الشعب والذات)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٠.

(٣٣) المكاوي، مرجع سابق، ص ٧٩.

(٣٤) زعيم سياسي يساري مغربي، وهو من أبرز رجالات الحركة الوطنية المغربية، وكان من بين الموقعين على وثيقة الاستقلال في ١١ يناير ١٩٤٤م، شغل منصب أمين عام حزب الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية، كما كان أول سفير للمغرب في باريس سنة ١٩٥٥ لمباشرة مفاوضات الاستقلال، من مؤلفاته: مذكرات بوعبيد، محمد الخامس والأمير الحسن (١٩٤٩-١٩٦١)، دار أبي رقراق، الرباط، ٢٠١٢.

(٣٥) المكاوي، مرجع سابق، ص ٩١.

(٣٦) نفسه، ص ٩٧.

(٣٧) واحد من رجال المعارضة المغربية، كان ينتمي إلى حزب الشورى والاستقلال.

(٣٨) فاعل سياسي مغربي، ينتمي إلى حزب الشورى والاستقلال الذي كان يشكل المعارضة وقتئذ.

(٣٩) محمد العلمي، **محمد الخامس**، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٧٥.

(٤٠) عبد الحق المريني، **ملحمة محمد الخامس**، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، ٢٠١٣.

(٤١) روم لاندو، **محمد الخامس منذ اعتلائه عرش المغرب إلى يوم وفاته**، تعريب ليلى أبو زيد، نشر المدارس، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠٠٣.

(٤٢) جان وولف، **ملحمة عبد الخالق الطريس (حقيقة الحماية الفرنسية والإسبانية بالمغرب)**، ترجمة محمد الشريف، منشورات جمعية تطوان أسمير، تطوان، ط١، ٢٠٠٣.

(٤٣) محمد العابدي، **المغرب: ملك وشعب**، مطابع الشركة الصناعية، عمان، ١٩٦٠.

(٤٤) صلاح الشاهد، **ذكرياتي في عهدين**، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٦.

(٤٥) محسن حسين، **من أوراق صحفي عراقي**، كتاب دبي للثقافة، رقم ٦٥، دبي، ط١، ٢٠١٢.

(٤٦) أحمد عسه، **المعجزة المغربية**، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٧٦-١٩٧٧.

(٤٧) محمد لومة، **سنوات الصمود وسط الإعصار** (أبرز المحطات النضالية في حياة الأستاذ عبد الله إبراهيم)، ٢٠٠٦.

(٤٨) هيرناندو دي لارماندي، **السياسة الخارجية للمغرب**، ترجمة عبد العالي بروكي، منشورات الزمن، الرباط، ط١، ٢٠٠٥.

(٤٩) حسين مجذوبي، **"الديبلوماسية المغربية بين الاحتكار الملكي والبحث عن التوازنات البراغماتية في الساحة الدولية منذ الاستقلال وحتى بداية القرن العشرين"**، مجلة وجهة نظر، العدد ٤٨، ٢٠١١.

(٥٠) المكاوي، مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٥١) عبد الهادي بوطالب، **نظرات في القضية العربية**، دار الكتاب-الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٧.

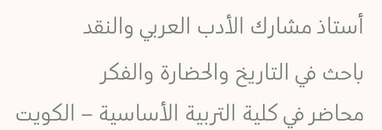
(٥٢) المكاوي، مرجع سابق، ص ٣.

ملف العدد
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

المذهبية التاريخية من منظور ما بعد الحداثة
دراسة في نقد الحداثة والهيمنة وتفكيك السرديات الكبرى



د. مصطفى عطية جمعة


أستاذ مشارك الأدب العربي والنقد
باحث في التاريخ والحضارة والفكر
محاضر في كلية التربية الأساسية – الكويت

مُلَخّص

لا شك أن حركة ما بعد الحداثة هي الحركة الفكرية الأكثر حضورًا وجدلاً على الساحة العالمية زمننا الراهن، بحكم أنها استمرار لمسيرة الفكر الغربي ذاته، وأنها نقد ومراجعة وإعادة تقييم لمآلات الحداثة الغربية التي سادت الحضارة الغربية الحديثة. وفي هذه الدراسة نسعى إلى مناقشة رؤية وفكر ما بعد الحداثة للتاريخ: أحداثًا وتدوينًا وقراءة وسردًا وتأريخًا، وذلك على مستوى نظرتها إلى الزمن التاريخي (الماضي)، وكيف يكون للتاريخ دور في فهم أحداث الحاضر وما فيه من ظواهر وإشكالات؛ كذلك علاقة العقل ما بعد الحداثي بالتاريخ القريب أو البعيد. ومن أجل تبيان موقف ما بعد الحداثة من التاريخ، وجدنا من الواجب علينا اتباع نهج المقارنة، بين رؤية فلسفات الحداثة للتاريخ، وتجليات التاريخ لدى أبرز مفكريها؛ قبل بسط القول في الموقف ما بعد الحداثي من التاريخ، لذا كان المنهج المقارن حاضرًا، جنبًا إلى جنب مع المنهج الوصفي التحليلي، مع ذكر أمثلة عديدة توضح الفكرة المطروحة وتبرهن عليها. في ضوء ذلك، جاءت خطة الدراسة على محورين أساسيين، الأول عن التاريخ في المنظور الحداثي، وكيف تعاملت فلسفات الحداثة العديدة مع التاريخ، وحرصها على تقديم رؤية شمولية، تنشد يقينًا فكريًا، وإجابات عن أسئلة عديدة، فاجأت إنسان العصر الحديث، والذي نحّى البعد الروحي عن رؤيته بشكل كبير، وقارب الدنيوية والأرضية والإنسانية، وحلم بجنة على الكوكب الأرضي المنهك بالصراعات والحروب، ولكن هيهات لما تخيل، فقد كانت القناعات الحداثية وتجمد أصحابها فكريا، وادعاؤهم اليقين المعرفي، سببًا في المزيد من التقاتل بين الشعوب والدول، مع ازدياد غربة الإنسان، وتقوقعه في ذاته، مما أوصل المشروع الحداثي إلى طريق مسدود، ومهّد للنقد الشديد الذي جاءت به حركة ما بعد الحداثة، والتي جادلت في اليقين الحداثي، لتقودنا إلى اللايقين ما بعد الحداثي، وفككت مقولات الحداثة ونجحت في ذلك، ولكنها لم تقدم بنية فكرية جديدة. ولا عجب في ذلك، فإن التفكيكية – نهجًا واستراتيجية – كانت جزءًا من مكونات الفكر ما بعد الحداثي، كما جاءت نظرتها للتاريخ مستقاة من واقع براغماتي يعيشه الإنسان المعاصر الذي يرى الزمن مسطحًا، لا يمتلك أبعادًا، ولا عمقًا، ولا يعنيه الماضي كثيرًا، فعينه على الحاضر، الذي يراه موصولا بمستقبل، تتلاحق أحداثه وأنباؤه على مدار الساعة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٨ يونيو ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ١٣ أغسطس ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

فلسفة التاريخ؛ حركة الحداثة؛ علم التاريخ؛ قراءة التاريخ؛ المؤرخ

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.186449

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

مصطفى عطية جمعة. "المذهبية التاريخية من منظور ما بعد الحداثة: دراسة في نقد الحداثة والهيمنة وتفكيك السرديات الكبرى".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد التاسع والأربعون؛ سبتمبر ٢٠٢٠. ص ٢٣٠ – ٢٤٧.

Corresponding author: mostafaateia@gmail.com
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

مُقَدِّمَةُ

تأتي أهمية هذه الدراسة في كونها تستعرض حركة ما بعد الحداثة بوصفها الحركة الفكرية الأكثر حضورًا وجدلاً، على الساحة العالمية في زمننا الراهن، وبحكم أنها استمرار لمسيرة الفكر الغربي ذاته، وأنها أيضا حركة نقد ومراجعة وإعادة تقييم لمآلات الحداثة الغربية التي سادت الحضارة الغربية الحديثة، فمن المهم بمكان السعي إلى التعرف عن موقف ما بعد الحداثة من التاريخ، وفلسفاته، ومذهبياته المختلفة، والتي هي نابعة من فلسفات الحداثة. في ضوء ذلك؛ يكون هدف الدراسة متمحورًا حول تقديم مناقشة لفكر ما بعد الحداثة ورؤيتها للتاريخ: أحداثًا وتدوينًا وقراءةً وسردًا وتأريخًا، وذلك على مستوى نظرتها إلى الزمن التاريخي (الماضي)، وكيف يكون للتاريخ دور في فهم أحداث الحاضر وما فيه من ظواهر وإشكالات؛ كذلك علاقة العقل ما بعد الحداثي بالتاريخ القريب أو البعيد. وقد اتبعنا في منهجية الدراسة العرض والتحليل والمقارنة لفلسفات الحداثة في نظرتها للتاريخ، ورؤى أبرز مفكريها للتاريخ؛ ثم بسط القول في الموقف ما بعد الحداثي من التاريخ، لذا كان المنهج المقارن حاضرًا، جنبًا إلى جنب مع المنهج الوصفي التحليلي، مع ذكر أمثلة عديدة توضح الفكرة المطروحة وتبرهن عليها.

أما خطة الدراسة فقد جاءت في مبحثين أساسيين؛ المبحث الأول وناقش عن التاريخ في المنظور الحداثي، وكيف تعاملت فلسفات الحداثة العديدة مع التاريخ، وحرصها على تقديم رؤية شمولية، تنشد يقينا فكريا، وإجابات عن أسئلة عديدة، فاجأت إنسان العصر الحديث، والذي نحّى البعد الروحي عن رؤيته بشكل كبير، وقارب الدنيوية والأرضية والإنسانية، وحلم بجنة على الكوكب الأرضي المنهك بالصراعات والحروب، ولكن هيهات لما تخيل، فقد كانت القناعات الحداثية وتجمد أصحابها فكريًا، وادعاؤهم اليقين المعرفي، سببًا في المزيد من التقاتل بين الشعوب والدول، مع ازدياد غربة الإنسان، وتقوقعه في ذاته، مما أوصل المشروع الحداثي إلى طريق مسدود، ومهّد للنقد الشديد الذي جاءت به حركة ما بعد الحداثة، وهو ما يناقشه المبحث الثاني: والذي يتطرق إلى وهم اليقين الحداثي، ويفكك مقولات الحداثة ضمن استراتيجية ما بعد الحداثة في التفكيك، وقد ونجحت في ذلك، ولكنها لم تقدم بنية فكرية جديدة. ولا عجب في ذلك، فإن التفكيكية - نهجًا واستراتيجية - كانت جزءا من مكونات الفكر ما بعد الحداثي، كما جاءت نظرتها للتاريخ مستقاة من واقع براغماتي يعيشه الإنسان المعاصر، الذي يرى الزمن مسطحا، لا يمتلك أبعادًا، ولا عمقًا، ولا يعنيه الماضي كثيرًا، فعينه على الحاضر، الذي يراه موصولاً بمستقبل، تتلاحق أحداثه وأنباؤه على مدار الساعة.

المبحث الأول: الحداثة والتاريخ
(الفلسفة والتجليات والنقد)

نستهدف -في هذا المبحث -الإجابة عن سؤال مفاده: ما موقف الحداثة وفلسفاتها من التاريخ؟ ولا يمكن اختزال الإجابة عن هذا السؤال، بعرض مفهوم الحداثة عن التاريخ ومناقشته؛ لأن مشروع الحداثة وفلسفاته متسع ومعقد للغاية، ففروعه متشعبة، وروافده متعددة، فلن نعي رؤى الحداثة للتاريخ، إلا ببسط القول عن علاقة الحداثة بالعلمانية الغربية من جهة، وكيف تجلت في نظرة الغرب إلى شعوب العالم وتسيّد الإنسان الأبيض من جهة ثانية، وانعكاس هذه النظرة على قراءة التاريخ المعاصر والحديث والقديم من جهة ثالثة، وأصداء هذه الرؤية الحداثية كما تجلت في الأفكار القومية، التي قامت على أساسها كثير من الدول في العالم العربي من جهة رابعة. فالقضية متداخلة، ولا يمكن فهمها في إطار فلسفي/ فكري فقط، وإنما لابد من ربط الوقائع بالأفكار، والشعارات بالممارسات، والنظر في امتدادات هذه الأفكار وانعكاسها في خطاب الغرب الموجه إلى شعوبه في الداخل، وفي نظرته، وخطاباته الموجهة إلى شعوب العالم خارج حدود أوروبا.

سيكون النهج في هذا المبحث معتمدًا على بعدين: العرض والنقد معا؛ للفكر الحداثي والفلسفات والأفكار التي انبثقت منه، والتي كانت سببا في تكوّنه. وذلك من أجل إجلاء الصورة وتوضيحها بعد ذلك في المبحث الثاني، الذي يتناول فكر ما بعد الحداثة ورؤيته للتاريخ، والتي شكلت مراجعة وانتقادا مباشرا للفكر الحداثي. جاءت المناقشة في هذا البحث بداية تنظيرا لفلسفة التاريخ، على اعتبار أن من أهم إضافات فلسفات الحداثة؛ جهودها في فلسفة التاريخ، وفق مذهبيات متعددة، ولكن جوهرها واحد، وهو ما تم شرحه، بالتركيز على الفكر المادي والدارويني والنزعة الإنسانية، وكيف تطورت إلى أبعاد عنصرية، تخص حضارة الرجل الأبيض، وتبرر استعماره للعالم، واستعلاءه على شعوب الأرض.

كان من المهم ذكر بعض الأمثلة الواقعية من أجل البرهنة على الفكرة المطروحة، وتبيان عاقبة النظر إلى الفكر الحداثي على أنه يقين وحقيقة، فالقضية ليست كتابات تنظيرية، ترسم جنة بالكلمات، وإنما فيما يتصل بهذه الكتابات من قناعات، تصل إلى درجة الدوجماطيقية لدى معتنقيها، وتجعلهم مستمسكين

بمقولات أثبتت الممارسة خطأها، وأبانت أن المسألة ليست تنظيرًا وإنما تنظير وتطبيق.

١/١-فلسفة التاريخ والمادية والعرقية

بدأ الاهتمام بفلسفة التاريخ في الحياة الفكرية الأوروبية منذ القرن الثامن، مع ازدهار حركة الفلسفة، وولوجها مجالات عديدة تتصل بالحياة والناس والدولة والقوانين، ضمن حركة كبرى من الانفتاح الإيجابي على الواقع والوجود. فالتأريخ عملية تتجاوز السرد التتابعي لأحداث التاريخ، لتنطوي على عملية من الانتقاء والتفسير. وقد عنيت فلسفة التاريخ بتقديم رؤية كلية حول التاريخ، تشتمل تفسيرا غائيا حول التطور التاريخي، أو دراسة القوانين الفاعلة في التاريخ [١].

فإذا كانت الإنسانية في حاجة إلى تسجيل تاريخها، وترتيب أحداثه، وتدوين حقبه وشخصياته ووقائعه، من أجل حفظها وتعليمها للأجيال المتتابعة، فإنها أيضا في حاجة إلى منطق/ رؤية لقراءة التاريخ، ومعرفة محركاته، والوقوف على أسبابه ومسبباته، أملا في المزيد من التعلم من أحداث الماضي، وفهم الحاضر. فلن نستطيع فهم كثير من الظواهر والأحداث في حياتنا الحاضرة إلا بالحفر في أعماق التاريخ، أي أن التاريخ مفسر لحاضرنا، ويساعدنا على التخطيط للمستقبل، فأمة بلا تاريخ كأنها إنسان بلا ذاكرة، يسير متخبطا، لا يعي ما يراه، ولا ما وراءه.

وقد كان لحركة الحداثة الغربية قراءات عديدة للتاريخ، بل إنها أنتجت مدارس فلسفية كبرى سعت إلى فهم التاريخ، وتقديم رؤية كلية عنه، وهو ما يحسب لها دون شك، بغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا في طبيعة التفسير، أو منطق قراءة التاريخ والأحداث، ولكنها نجحت – دون شك – في دعم الرؤية الكلية لقراءة التاريخ، ومعرفة أبعاده، وحفزت العقل البشري على أن يتجاوز نظرته إلى التاريخ من مجرد سرد الأحداث وتدوينها، إلى معرفة كنهها، وقوانين حركتها.

لقد رفعت حركة الحداثة الغربية شعارات براقة كثيرة، تتمحور حول: الفردية والعقلانية، وقدرة العقل الإنساني على الوصول إلى اليقين، وتحقيق الفردوس الأرضي، وحل مشكلات العالم، وقهر الطبيعة، باستثمار مواردها ومقدرات البشر، ومن ثم قدمت نظريات وتفسيرات بعينها نحو التاريخ الإنساني وحقبه. واستفاد المشروع الحداثي في فلسفاته العديدة، بالمنجزات العلمية والتقنية التي أسفر عنها العلم في العصر الحديث، ورآها بديلا عن العقل الغيبي، وانعكس ذلك في قراءة الحداثيين للتاريخ، والتي تجلت في أبعاد مادية، ورؤى نفعية دنيوية.

فعلى سبيل المثال، امتد تأثير " داروين " وآرائه في التطور إلى حقل التاريخ، فنظروا إلى ظواهر التاريخ وأحداثه، بمنظور مادي تطوري، يمكن دراسته من خلال دراسة بنية الظاهرة المادية ومكوناتها، مع إعلاء شأن الغرائز الطبيعية المادية المتمثلة في الطعام والشراب والجنس، وأنها من أبرز الدوافع لأحداث التاريخ وصراعاته، على اعتبار أن الجماعة البشرية لها متطلباتها البيولوجية التي تقاتل من أجلها. وتلاقى "داروين " مع الإيديولوجيات العلمانية، التي تفترض عدم وجود مخطط إلهي وراء الكون، ولكنها تفترض وجود غائية طبيعية تاريخية، تتمثل في إرادة الحياة أو القوة. وينصرف الأمر أيضا إلى انتقاد الرؤية الأخلاقية للتاريخ، فحب البقاء هو القيمة الوحيدة التي يمكن اتخاذها أساسا ماديا بيولوجيا في تحرك بني البشر ليصبح الصراع هو الآلية، والأنانية وحب الذات هما مصدرا الحركة. ولذا فإن العالم هو ساحة قتال بين الذئاب من البشر، والإنسان ذئب يفترس أخاه الإنسان، وبين الأمم التي لابد أن تصرع بعضها البعض لغاية البقاء، ولا توجد قيمة مطلقة لأي شيء، وكأن عالم البشرية غابة من الحيوانات المتصارعة.

وقد هيمنت النظرية التطورية ذات الأصل الدارويني على العلوم الاجتماعية، فالإيمان بالتقدم والحتمية التاريخية والاجتماعية هي تطبيقات في التاريخ والاجتماع[٢]. كما نرى في دراسات هربرت سبنسر، الذي صاغ ثلاثة أسانيد للواقع التطوري: قانون استمرار القوى، عدم إمكانية تدمير المادة، استمرارية حركة الأشياء، بالإضافة إلى أربعة مبادئ ثانوية وهي: استمرار علاقة القوى ببعضها، تحرك وتعادل القوى، كل قانون يسير عبر الخطوط التي تنطوي على أقل مقاومة، قياسية تتابع الحركة. كما أشار "سبنسر" إلى تصنيف المجتمعات الإنسانية مثل الكائنات العضوية، في طبقات، فكل طبقة لها مهنتها وثقافتها ووعيها ودخلها.[٣]

على جانب آخر، فإن الفكر الحداثي تشكل في أساسه من المنظور العلماني الشامل، والذي جعل الإنسان مركزا للكون، ثم اختزل الإنسان في وجوده ورغباته المادية، فأصبح إنسانا ماديا طبيعيا، غير قادر على تجاوز ذاته الطبيعية المادية، فيسري عليه مثل ما يسري على الطبيعة والمادة من مؤثرات وقوانين. ثم أُختزِل الإنسان في الإنسان الأبيض ومصالحه وأهدافه، ولم تصبح الثنائية محصورة بين الإنسان والطبيعة، وإنما هي ثنائية الإنسان الأبيض والطبيعة، وأن العبء الأكبر يقع على الإنسان

الأبيض/ المستعمر في استغلال خيرات الأرض لما لديه من علم وخبرات وتقنيات، يفوق بني البشر جميعا، ويحق له التحكم فيهم [٤].

فأصبحت الحداثة في النهاية صورة عاكسة لتصورات الغرب عن العالم من حولها، وتم اختزال الأمر كله فيما يفيد الإنسان الغربي، ويخدم مصالحه، وتأتي الكتابات التاريخية معبرة عن هذا التصور الاستعلائي على الشعوب، والذي ارتبط بشكل واضح بالمركزية الفكرية الغربية، وتقديم خطاب تاريخي فكري، موجه إلى الإنسان الغربي ذاته، يمتدح سماته وتميزه العرقي، وموجه أيضا إلى شعوب الأرض الضعيفة والمستعمَرة، لكي تتقبل فكرة تفوق الإنسان الأبيض، مما يلغي فكرة الإنسانية التي نادت بها العلمانية ثم الحداثة، وجعلتها محورا لتميز الإنسان في الكون، ومن أجل التخلص من سلطة الكنيسة والبابوات، ولكن الأمر اختلط بطابع عنصري، يتمثل في سيطرة الرجل الأبيض على العالم وغروره واستعلائه.

فقد سادت الغرب نظرية الطبائع العرقية، المعنية بتأصيل العرق الغربي، وتميزه بسمات تفوق خاصة، عن بقية شعوب العالم، وقد مارست هذه النظرية دورا فعالا في إعادة تركيب تاريخ الغرب، على أنه نتاج ميزات بشرية محددة، ومتصلة بمجموعة عرقية على وجه الخصوص، مما يعني إقصاء لشعوب العالم، والتفاخر بالانتماء إلى عرق غربي صاف نقي، يختص بالحضارة والتقدم [٥].

وقد تتطور الأمر أكثر، وانعكس في الفكر القومي المرتكز على العرق، وهي نزعة متأصلة في الغرب منذ القدم، وتجلى في افتخارهم بالرومان والإسبارطيين قديما، ثم تطور في العصر الحديث، حيث تفاخر المثقفون والفلاسفة والمجددون بأنهم يعودون إلى أصل سام نقي، فمثلا المثقفون الرومانيون يتغنون بـ " إنما نستمد أصلنا من روما "، وظهر الأمر أكثر وضوحا مع الجنس الآري، الذي شعر بتفوقه العرقي على أوروبا كلها، وعلى العالم أيضا، واستندت فكرة الجنس الآري إلى مفهوم السلف البدئي، والبطل النبيل. وفي المقابل، تم إقصاء المؤثر الشرقي في الحضارة اليونانية والرومانية، لتكون ملكا صافيا للإنسان الأبيض، بدون أية جهود ساهمت فيها الشعوب الآسيوية والإفريقية [٦] بما يخالف التاريخ الحقيقي.

وهذا ما يفسر لاحقا، ظهور النزعات القومية في الفكر الأوروبي الحديث، اقتداء بالصيحات القومية التي سادت أوروبا، وأصبحت كل جماعة عرقية تبحث عن تميز موروث لها، وتصوغ لها جذورًا ثقافيًا تخصها، وتقرأ التاريخ بما يتفق معها.

انعكس الأمر كذلك على تعامل أوروبا مع العالم من حولها، ونظرتها إلى الشعوب، وفق هذا النهج الاستعلائي الإقصائي، وتبدّى ذلك في مصطلح "رجل أوروبا المريض"، الذي كانت تنعت به الدولة العثمانية، والتي كانت تقف حامية لشعوب المسلمين من الغزو الاستعماري الغربي الذي كان سائدا في العالم خلال القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر، وحتى النصف الأول من القرن العشرين، والمصطلح المذكور يعكس تصورا غربيا، ينظر للدولة العثمانية بوصفها إرثا سيُقسَّم ويوزَّع بين القوى الغربية، وهي رؤية لا علاقة لها بحقوق شعوب المنطقة. أيضا، فإن هذا المصطلح يجعلنا نقف على حدود أوروبا، الأمر الذي ينسينا صورة مجازية أخرى، وهي صورة "رجل أوروبا النهم المفترس"، أي الامبريالية الغربية التي كانت تبيد سكان إفريقيا، وأبادت من قبلهم سكان الأمريكتين واستراليا ونيوزلندا، وكان يسوق الأفيون في الصين لتغييب وعي سكانها، ويمتص خيرات آسيا [٧].

وليست المشكلة في المنظور الأوروبي بكل غروره وأنانيته فحسب، وإنما في شيوع هذه المصطلحات في الفكر العربي المعاصر، وترديده وكأنه مسلمات، دون وعي للخلفية الحضارية الغربية الكامنة فيه. فكثير من مفكرينا، قرأوا التاريخ العربي المعاصر ونظروا إلى العالم من منظور الحضارة الغربية وفكرها، فداروا في فكلها، ورددوا مقولاتها، وأصبحوا يقيسون واقعنا بمنظور الغرب ورؤاه.

٢/١-القراءات التاريخية الحداثية

ظهرت رؤية الحداثة للتاريخ، في مختلف المشروعات الفكرية التي قرأت تاريخ الأمم، والحضارات، وفق الفلسفات الحداثية، وقدمتها إلى الشعوب على أنها قراءات : علمية وموضوعية وعقلانية وتحديثية وتحررية وثورية، تنظر إلى التاريخ الإنساني باحثة عن الروح التقدمية، وتعي مسببات وأبعاد الحركة التاريخية على مر العصور، وترجعها إلى قوى عقلانية ومادية، بعيدا عن الرؤى الغيبية، وقد تنظر إلى الدين بوصفه لونا من الأساطير التي اخترعها الإنسان في مراحل تطوره الفكري، وفي صراعه مع الطبيعة، فالدين لديهم ملاذ نفسي وأمان من قوى الطبيعة المدمرة.

إن الغرب توصل إلى الحداثة بعد خوضه صراعًا حادًا وطويلاً، مع ظلام العقول في العصور الوسطى، والصراع بين العقل والنقل (الكنيسة)، ليكتمل المشروع الحداثي بانتصار عقلانية " ديكارت"، ومنهجية "بيكون" التجريبية العلمية، وكسر أصنام العقل، التي حالت بينه وبين الوصول إلى قوانين الطبيعة،

والسيطرة عليها، وواكب ذلك انتصارات سياسية واجتماعية وسلطوية. ولكن عقلانية الحداثة، أسفرت عن هوية منغلقة على ذاتها "الكوجينو"، كما أدت إلى التخصص الدقيق في المعارف، مما أنتج ثنائيات مختلقة بين النفس والجسد، والذات والموضوع، والأنا والآخر.، وغيرها. فأصبح الفصل بين هذه الثنائيات أمرا مطلوبا، بل ومنهجا لا غنى عنه لإدراك الحقيقة باسم الموضوعية العلمية، التي تدعو دائما إلى الفصل بين الذات الباحثة، وموضوع البحث. وللأسف، بدلاً من أن يحقق هذا الانتصار الكبير وعودَ الحداثة للإنسان بالرفاهية والسعادة؛ جلب إلى البشرية النزاعات والحروب والغزو والاستعمار والنهب واختراع أدوات الحرب والدمار الشامل والعنصرية [٨]، وامتصاص خيرات الأمم والشعوب، واستعبادها.

فمشروع الحداثة حمل شعارات تنويرية وإنسانية عالية، مسبوقة بفلسفات عميقة، ولكن مآلاته على المجتمعات الحداثية وعلى بقية شعوب العالم كانت كارثية، فقد حملت الأساطيل والجيوش الأوروبية والأمريكية شعارات حداثية مبهرة، خدعت بها الشعوب ولا زالت، ومارست أبشع عمليات القتل والاستغلال وإشعال الحروب، كما أن المجتمعات الغربية الحداثية تعاني من تصدعات قيمية وأخلاقية وفكرية، وتصاعدت النزعات الشعبوية، وتحولت الروح القومية إلى أدوات للغزو والسيطرة والعنصرية البغيضة، وصار العالم كما نرى : دولا شديدة الثراء والترف، وهي أقلية، لا تزيد عن ٢٠ بالمئة من سكان العالم، وتتحكم في أكثرية شعوب العالم.

فإذا ذهبنا إلى التاريخ، وقضاياه في المنظور الحداثي، وجدنا انتقادات كثيرة موجهة إلى بنية الفكر الحداثي في قراءاته للتاريخ، ولعل أبرزها ما ذكره عالم الاجتماع الشهير "آلان تورين" عن الفكر الحداثي حيث رأى أن التاريخ الحديث تم اختصاره في مسار ضروري أحادي يتمثل في صعود العقل والعلمنة، مع ارتباط الحداثة بتيار متدفق من التغييرات يروج لمنطق السلطة، ولتصلب الهويات الثقافية، مما أدى إلى ما يسمى بـ "صلف الإيديولوجيات الحداثية"، وتعالي ذوات أصحابها، واغترارهم[٩]، ظانين أنهم حققوا الكمال الإنساني والفردوس الأرضي.

وقد واكب هذا تنظيرات تاريخية غربية، سعت إلى فصل دراسة التاريخ عن الأدب والفلسفة، وإيجاد منهجيات خاصة لقراءة التاريخ ودراسته، مستندين إلى العقل، لأن العقل يبحث عن الأسباب من خلال الأسئلة المطروحة [١٠]. ويفسر هذا وجود مذهبيات فلسفية، قرأت التاريخ بمنظورها الخاص، وهو أمر مشروع بلا شك، ولكن غير المشروع، أن هذه الفلسفات والأفكار رأت أن قراءتها هي الوحيدة التي تملك اليقين، خاصة إذا ارتبطت بسلطة حاكمة، تدعم فكرا سياسيا وفلسفيا بعينه؛ وتدعم المؤرخين المناصرين لها، وتروّج لما يطرحونه.

لتكون لدينا إشكالية أخرى، وهي احتشاد السلطة وأجهزتها، وتأييدها لمذهبية فكرية وفلسفية معينة، ومن ثم السعي إلى فرضها على الناس، وتطبيقها في المقررات الدراسية التعليمية، في مختلف مراحل التعليم. كما أن هناك بعض الأنظمة لم تسمح بأية تفسيرات تاريخية أخرى موازية، وأصرت على احتكار رواية التاريخ في منظور واحد، وتجاهلت - وناصبت العداء - الروايات الأخرى للتاريخ، مثل التاريخ من منظور الجماعات المعارضة، وتاريخ الأقليات، ونفس الأمر ينطبق على التاريخ من وجهة نظر كولونيالية/ استعمارية، والذي تم تسويقه للشعوب الأوروبية، وأيضا للشعوب المستعمَرة. ويندرج في هذا الصدد ما يسمى "تاريخ المهمشين "، وهو فهم مختلف للتاريخ، وكتابة من نوع آخر، تركز على الدهاليز والمخفي في التاريخ الرسمي (تاريخ السلطة)، وتهدف إلى تقريب حياة الأفراد العاديين الذين تركوا آثارا في أحداث التاريخ؛ وذلك من خلال تدوين تجربتهم الخاصة دون إغفال الظروف وسياق العصر الذي عاشوا فيه، كما يتوقف أمام تجربة رواة التاريخ من أسفل، من المؤرخين الإنجليز وكذا الهنود الآسيويين، والذين قاموا بتطوير هذا النوع من التاريخ لإعادة النظر في ماضيهم الكولونيالي. كما يتناول بعض القضايا التي مُنحت الأولوية في الدراسات الأكاديمية، دون إغفال امتدادات هذا النوع في ميدان التاريخ على مستوى أصعدة مختلفة [١١].

وليكون ذلك برهانا ساطعا، على صعوبة اليقين المعرفي، والاطمئنان إلى قراءة واحدة يقدمها المؤرخون وفلاسفة التاريخ. ونؤكد ثانية، على أن القضية ليست في رواية/ قراءة تاريخية بعينها، وإنما في ادعاء الحقيقة المطلقة. وقد تجلى التوجه الحداثي في قراءته للتاريخ، من خلال تطبيق تفسيرات ومذهبيات، ظنت أنها تقدم يقينا وموضوعية في تفسير التاريخ، والواقع أنها يمكن أن تكون قد أضافت منهجيات جديدة، ولكن لا يعني أبدا أن قراءتها نهائية أو تامة الموضوعية، أو يقينية، بل إنها تغافلت عن عوامل أخرى، وأحداث تاريخية.

فقد خضع التاريخ في المنظور الحداثي كما يرى "آلان تورين" إلى الرؤية الكلية الشمولية، التي حلت محل مفهوم المؤسسة والذي كان مركزيا في الفكر السابق، فالحداثة في قراءتها للتاريخ لا تنفصل عن التحديث، الذي يغير من حياة الأفراد ومظاهر

العمران، ورأت أن كل مشكلة اجتماعية هي في التحليل الأخير صراع بين الماضي والمستقبل[١٢]. سنجد أن " تورين " وضع يده على جوهر المنظور الحداثي للتاريخ، المتمثل في البحث عن القوى المغيرة لواقع الإنسان، وجعل الصراع لب حركة التاريخ، وحصره في الصراع بين الماضي والمستقبل، وهذا قد يصدق على البعض فقط. فلماذا يجب أن يكون هناك صراع؟ فيمكن أن يكون هناك استثمار للموارد، واستفادة من القدرات، وتعاون الجماعات/ الدول البشرية، دون صراعات وحروب. وفي النهاية، فإن الصراع تصور أحادي لقراءة التاريخ الإنساني، وهناك تصورات أخرى. والأدهى أن التاريخ بات محصورا في أسباب اقتصادية واجتماعية ومادية فحسب، وتم التغاضي عن أسباب أخرى في حركة التاريخ مثل الأفكار والروحانيات والقيادات.

وهو ما ينتقده " تورين " ويرى أن المنظور الحداثي يُخضع الأفراد ويختزل حياتهم وفكرهم لصالح قوى اقتصادية غير شخصية، فهذه النزعة التاريخية في أفضل نتائجها أو أسوأها نزعة إرادية أكثر منها طبيعية. ويذكر أهمية النظر إلى دور الفاعل التاريخي، وفكرة الضرورة التاريخية، ولقاء شخص أو فئة اجتماعية مع القدر، وهو ما ينطبق مع شخصية نابليون، والثورة الفرنسية وأحداثها [١٣]، وقد أعلت الحداثة من الثورة كوسيلة للتغيير المجتمعي، المستندة إلى ثلاثة عوامل: إرادة تحرير قوى الحداثة، والنضال ضد نظام قديم يعرقل التحديث وانتصار العقل، وتأكيد الإرادة الوطنية التي تتطابق مع التحديث [١٤]. أيضا، فإن الفكرة الثورية حتى في أكثر أشكالها اعتدالاً؛ دافعةٌ إلى الحركة الأكثر تكيفا، أي الأكثر قوة. فتقوم النزعة التاريخية وتعبيرها العملي بالفعل الثوري، بتعبئة الجماهير باسم الأمة والتاريخ ضد الأقلية التي تعرقل التحديث دفاعا عن مصالحها وامتيازاتها [١٥].

فعامل الثورة لا يمكن إغفاله مع عوامل أخرى في قراءة التاريخ، مع التحسب من فكرة التعميم، من خلال قراءة الحقب التاريخية، من منظور الثورة الفرنسية أو الثورات في أوروبا والاتحاد السوفيتي بشكل عام، مما يقودنا إلى تعميم فكر قد يصدق على بعض الحالات، ولا يصدق على الكل. فقراءة الحداثة للتاريخ، خضعت للتغييرات التاريخية التي عاصرها فلاسفة الحداثة ومفكروها، فاتخذوها نماذج لقراءة التاريخ الإنساني كله، وسقطوا بالطبع في التعميم، بدلا من أن تكون الثورات عاملا من عوامل، أصبحت هي العامل الأوحد، وهو ما يخالف حركة التغيير في التاريخ، بمعنى أن التغيير قد لا يكون ثوريا، أو عسكريا، وإنما يأتي بشكل سلمي، مع ظهور قوة روحية أو فكرية، تجمع حولها الأتباع، ويناصرها الشعب، ثم يحدث التغيير. والمثال على ذلك كثير من الحضارات القديمة التي قامت على أسس روحية أو فلسفات، دون ثورات دموية، وسقطت هذه الحضارات، دون ثورة مضادة تواجهها وتسقطها. أيضا، فإن النظر إلى الجماهير على أنهم كتلة واحدة/ أغلبية كاسحة تتوحد من أجل إسقاط أقلية مستبدة متحكمة وحاكمة؛ هو أمر لا يتقبله العقل والواقع بسهولة، لأن الجماهير على فئات وأعمار ومشارب واتجاهات مختلفة، ولا يمكن لكل هذه الشرائح أن تؤمن بالفعل الثوري وشعاراته وفلسفاته ورؤاه، خاصة إذا كانت الرؤية ثورية فلسفية أكثر من كونها ذات برامج وخطط إجرائية، يمكن تطبيقها، عندما يصل الثائرون إلى السلطة.

إن اللافت في فكر الحداثة، أن العقل والعقلانية، أساس في حركة هذا الفكر، والذي أطاح بالمقدس، الذي ساد المجتمع التقليدي، وكان عنصرا فاعلا في تماسكه، فلما جاءت النزعة الحداثية، أعلت من العقل، وسعت إلى أن يكون بديلا لهذا التماسك المفقود. إلا أن الحداثة سقطت في كونها اختزلت نفسها في العقلانية، مما أوصل الأمور في الغرب إلى حد الأزمة، فالعقلانية نجحت في الإدارة والاقتصاد والمؤسسات الحديثة، ولكنها لم تنجح في عقلنة وعلمنة الثقافة في المجتمعات [١٦]، وظلت الثقافة تمتاح من روافد أخرى غير عقلانية، أو أن العقل الحداثي لم يستطع مواجهة عوامل ثقافية أخرى، لا تزال تعتمل في النفوس البشرية، مثل الدين، التقاليد، المشاعر الجماعية، الموروثات الإثنية والقبلية. فنجحت العقلانية فيما يتصل بالمجتمع والمؤسسات والعلوم، وفشلت في الثقافة، بمعنى أن الرواسب الثقافية بقيت في العقول والقلوب بدرجات متفاوتة.

وهذا يجعلنا ننتبه إلى حقيقة مهمة، تتصل بواقع الفكر الغربي ذاته، لنطرح سؤالاً عن مدى تمكن الحداثة في المجتمعات الغربية، وهل طالت مختلف أوجه الحياة: المادية والمعنوية؟ والإجابة بالطبع لن تكون بالإيجاب أو النفي، لأن السؤال يتعلق بواقع معيش، أي درجات من النسبية، التي تحتمل تغييرات عديدة. وعلى صعيد التاريخ، فإن الرؤى الحداثية كانت متجاورة مع المفاهيم والطرائق الأخرى لقراءة التاريخ وتوثيقه، فظل التاريخ وفق رؤية الكنسية/ الدينية وسردياتها قائم، وله مؤمنوه، جنبا إلى جنب مع فلسفات الحداثة، صحيح أن الأخيرة لها الغلبة بحكم أنها وجدت دعما وحضورا في الجامعات ومراكز البحث، ولكن لا ينفي حضور اتجاهات وطرائق أخرى، تقرأ التاريخ، وتنتقد ما ذهبت إليه الحداثة.

٣/١-القومية والوطنية والتاريخ

أعلت حركة الحداثة من شأن العقل، والذات الفردية، والعلمنة، ورفضت/ همشت ما عداها من رؤى ومرجعيات، خاصة المرجعيات الدينية والروحية، وجعلت هويات المجتمعات الحداثية واحدة، متصلبة، ولعل المثال الأبرز يتجلى في الدولة القومية، التي أعلت من شأن التعصب الوطني/ القومي، وجعلته هوية واحدة، ونسيت أن هذا يتعارض مع حقوق أقليات، وثقافات وإثنيات، عاشت على أرض الدولة القومية/ الوطنية منذ قرون طويلة، ولا يمكن السيطرة عليها، وإلغاء هوياتها الخاصة بها، والتي جمعت طوائف الشعب خلف طروحاتها.

لقد رفعت عدد من الدول الكبرى شعار الدولة الوطنية، القائمة على أساس فكرة المواطنة، والانتماء إلى الأرض، التي هي حدود الدولة السياسية، في مواجهة الفكر القومي، المستند إلى تميز جنس ما عن بقية الأجناس. وإذا كانت فكرة المواطنة تعلي من المساواة والإخاء والترابط بين أبناء الوطن الواحد، في حدود أرضه، فإنه نظر إلى التاريخ وفق هذه الحدود المتكونة في العصر الحديث، فاعتز بالآثار الحضارية الموجودة على أرضه، وتغنى بهذه الحضارة، ونسبها إليه، على الرغم من اشتراك أقطار مجاورة له في نفس الحضارة. والمثال الأبرز هنا: الحضارة الفرعونية، فهي ممتدة في آثارها بين مصر والسودان، وكلتاهما يتنازعان في أدبياتهما التاريخية هذه الحضارة، وينسبها إليه. كما أن التطرف في فكرة المواطنة يؤدي إلى نزعة عنصرية بغيضة، تعلي من شأن حامل جنسية الدولة، وتحقر في المقابل الجنسيات الأخرى. وهو ما نراه جليا في النظرة العوراء التي تنتصر دائما لأبناء الوطن، في الداخل والخارج، وتهمل في المقابل أو تتغافل حقوق الجنسيات الأخرى، فقد تثير دولة كبرى مشكلة عظيمة بسبب اعتقال أحد مواطنيها في دولة أخرى، ولا تقيم وزنا لمظالم تعاني منها شعوب عديدة.

العديد من المؤرخين يقرأون الحرب العالمية الأولى على أنها صراع قومي/ وطني، وأنها استندت في شعاراتها إلى الوطنية المتطرفة، التي تعني محو الآخر والسيطرة عليه، وإفنائه. فبريطانيا العظمى غالت في الوطنية، والانتماء إلى التاج البريطاني، ورفعت شعارات عديدة حول ذلك، جعلت الشعب يتغنى بالوطن، ويستعلي في المقابل على الشعوب الأخرى، فلما جاءت الحرب العالمية الأولى وشاهد البريطانيون المذابح الجماعية ممثلة في ملايين القتلى من أبنائهم وأبناء الشعوب الأخرى، ورأوا أن مقولات الوطنية المتطرفة والإمبريالية المتعالية، شعروا بعمق الأزمة، فكانت الخبرة المترسبة في الوعي الجمعي، وفي المزاج الوطني العام، أنه من العبث الاستمرار في إحياء الإمبريالية المغالية في الوطنية التي شهدها العصر الفيكتوري والإدواردي السابقين، والتي كانت تصرخ بتحدي العالم، وتجعل كلا من الرجال والنساء يقومون بالتضحية بأنفسهم من أجل الإمبراطورية. الأمر الذي طرح أسئلة بقوة بعد الحرب العالمية الأولى، واستمرت الأسئلة بعد الحرب العالمية الثانية، بعدما كثرت الدماء وتعاظم التدمير، وكانت الانتقادات موجهة أيضا إلى الشخصيات السياسية صانعة القرار في الحكومة، والتي صبغت خطابها بالدين والوطنية المتطرفة [١٧]، مما مهد لمراجعات ضد الفكر الحداثي، وتطبيقاته التاريخية ورؤاه على صعيد الواقع، وكان سببا في تهاوي الإمبراطورية البريطانية.

أما الفكر القومي فمن أبرز معضلاته أنه قُدِّم للنخبة والعامة بوصفه إيديولوجيا أو عقيدة كلية، تقدم نظاما فكريا كاملا (أو هكذا يتوهمون) يتطلب من الناس الإيمان به بكليته أو الخروج عنه، ولم يقدم بوصفه فلسفة تسعى للإجابة عن تساؤلات عن الوجود والكون والبدايات والنهايات [١٨]، وأزمة الخطاب القومي المقدَّم، أنه يزعم امتلاكه يقينا في صياغة هوية الوطن، وفي التعبير عن تاريخه، وحشد الجماهير وراء شعاراته، وبالتالي لا يسمح بوجود أية معارضة له، وهو ما جعل الاستبداد قرينا للفكر القومي عندما طُبِّق في تجاربه العديدة [١٩]، وما صاحبه من نظم قمعية، ظلت تردد شعارات القومية والوحدة والحرية، وهي تمارس على الأرض أبشع مظاهر الدكتاتورية، وإلغاء الآخر/ المعارض، ومهادنة أعداء الأمة.

وتبدو الأزمة جلية في جذور الخطاب القومي العربي، مثل خطاب حزب البعث، ومؤسسه ساطع الحصري، والذي انطلق من قاعدة تفضيل العنصر العربي، وإثارة الحقد على الآخر المختلف، والغيرة منه في آن، مستغلا حالة التخلف التي يعاني منها العرب في العصر الحديث، بالمقارنة مع الآخر الأوروبي، ومستثمرا صعود الفكر القومي (القومية الطورانية) في تركيا، وغيرها من القوميات في المنطقة، مثل القومية الفارسية، والكردية. فجاء الخطاب مرتكزًا على الانتصار والاحتشاد للعنصر العربي (خطاب إقصائي)، وتحييد كل ما هو غير عربي، مشفوعا بمفردات تفخيم الذات القومية، والتغني بماض عظيم، وإنكار الأغيار، وتجاهل التنوع المجتمعي، ونبذ التشاركية، ونفي الثقافات المختلفة [٢٠].

وعندما قرأ الفكرُ القومي التاريخَ الإسلامي العربي، فإن قراءته انحازت لما هو قومي/ عنصري/ عروبي، وتجاهلت مكونات أساسية لا يمكن التغافل عنها في التاريخ، ذلك لأن العرب لم يصنعوا الحضارة الإسلامية وحدهم، وإن كانوا هم الأساس في حمل الرسالة الإسلامية وإبلاغها للشعوب الأخرى، فهناك شعوب وفئات بأكملها، غير عربية كثيرة، كان لها الفضل في المنتج الحضاري الإسلامي، فتم تجاهل كل ذلك، والإصرار على سردية واحدة للتاريخ الإسلامي يركز على العروبة وحدها، ويقرأ صعود العروبة تاريخيا وحضاريا ثم سقوطها، فيبدأ التاريخ بالنبي العربي محمد (صلى الله عليه وسلم)، ثم الخلافات الإسلامية : الراشدية، والأموية، والعباسية، لأنهم عرب، وينتهي بسقوط بغداد العربية عام ٦٥٦هـ، مغفلا القوميات الأخرى مثل الأتراك والفرس والمماليك والهنود والأفارقة وجهودها الحضارية والثقافية، بل إنه عادى القوميات الأخرى، ورأى أنها شكّلت احتلالا لأقطار العروبة مثل: الأكراد والأتراك والمماليك، علما بأن الخلافة الإسلامية بممالكها المتعددة، كانت تجمع بين هذه القوميات في إطار ديني وسياسي واحد.

فكتابة التاريخ القومي اعتمد نزعة إقصائية قائمة، بتمسك الفكر القومي بمنظور أحادي يغلّب النزعة القومية المؤسسة عليها الدولة، ويقصي كل ما يخالفها من أفكار ونزعات، كما يغض الطرف عن تاريخ الأقليات والإثنيات، ويفرض رواية واحدة، تتبناها السلطة، وتلغي ما عداها من روايات.

على صعيد آخر، وبالنظر إلى تطبيق الإيديولوجيات القومية في الصراعات السياسية المعاصرة، فإن السلطة التي اتخذت من الفكر القومي غطاء سياسيا وفكريا لها؛ انحازت إلى القطرية والفئوية على حساب البعد القومي، فتم التفاخر بكل النزعات القطرية والإقليمية، والتي قد تتعارض مع رؤيتها القومية للتاريخ، ليتحول الأمر إلى صراعات قطرية بين أقطار تتبنى فكرًا قوميًا واحدًا، مثل الصراع بين العراق وسورية، على الرغم من أن القطرين حكمهما حزب البعث القومي، وتحول إلى مناصرة سورية لإيران (ذات القومية الفارسية) في حربها ضد العراق، لنكتشف في النهاية أن القومية كانت شعارات، أكثر من كونها استراتيجية للتحرك السياسي.

كما أن الاستغراق في الإيمان بالفكر القومي والتمترس حوله، وجعله محركا للأنشطة السياسية يمكن أن يكون سببا في إشعال حروب دموية. والمثال على ذلك: حرب البلقان (١٩٩١-١٩٩٥م)، حيث وجدنا تلاقيا بين النظام الشيوعي الذي صنعه " جوزيف تيتو "، وجعل من أقاليم البلقان المختلفة في إثنياتها ولغاتها وأديانها ؛ جعل منها دولة مركزية، مؤسسة على مبدأ حكم الفرد الواحد للدولة، متأثرا بالتجربة الشيوعية في الاتحاد السوفيتي في وحدة فيدرالية، وقد جعل " تيتو " – بحكم أصله الكراوتي – قومية الكروات والصرب والسلاف ليوغسلافيا هي المسيطرة لغة وهوية على دولته، مشعلا نار القومية، من خلال إعطاء الصرب والكروات نفوذا في الدولة وفي مناطق كل منهما، وتحولت الدولة إلى صراعات مكتومة بين قومياتها وانتماءاتهم المختلفة، ولاذت كل قومية بهويتها، حتى انفجرت الأوضاع في حرب دامية، اختلطت فيها المشاعر القومية (الصربية والبوسنية والكروات والألبان..)، مع الانتماءات الدينية، باختلافاتها المذهبية بين المسلمين والأرثوذكس والكاثوليك [٣١]، فصار صراعًا إثنيا قوميًا ثقافيًا دينيًا.

لقد حرص "تيتو" الشيوعي على إشعال نار الصراعات القومية، على الرغم من رايته الماركسية المرفوعة، والتي ترفض الأممية، وتؤمن بوحدة الشعوب في سبيل غاياتها الشيوعية، واستغل " تيتو " هذه الصراعات لاستمرار حكمه، على مبدأ "فرق تسدْ"، وتحولت القومية إلى عقيدة وهوية جامدة، وبدلا من أن يحرص النظام الحاكم على دعم التعايش وفق قاعدة التنوع ؛ أصبحت القوميات والإثنيات سببًا للتنازع والتصارع، وللأسف اختلطت أوراقها مع الدين من جهة، والتهييج الشعبي من جهة أخرى، فكانت المحصلة مئات الآلاف من الضحايا، وتمزق أرض البلقان وشعوبها، ووجود ثارات وأحقاد في النفوس يصعب نسيانها لأجيال.

ومن المشكلات البنيوية في الفكر القومي غياب المضمون السياسي والاجتماعي للدولة القومية، وعدم تأسيس قوى اجتماعية حقيقية حاملة للمشروع القومي، وكذلك نظرتها إلى الأقليات والإثنيات المخالفة، وكذلك موقفها من الديمقراطية[٣٢].

بالإضافة إلى أن الدولة القومية ليست حلا لدول متعددة الإثنيات والهويات والثقافات، كما هو الحال في الهند وجنوب أفريقيا، فالحل لمثل هذه الدول النظام الديمقراطي، القائم على التعددية الثقافية والتسامح وقيم التعايش والتثاقف.

ومن نكبات الفكر القومي العربي أن مثقفين قوميين كثرًا - وحركات سياسية قومية عدة -لم يجدوا حرجًا في منح "السلطة القومية" العسكرية ولاء، وأن يروا في قيامها كدولة قومية واحدة، بغض النظر عن ماهيتها وتكوينها. وكانت كل معركتهم الفكرية أن تستمر هذه النواة وتشتد عودا فلا تنتكس أو تأفل.

لم يسائلوا هذه السلطة وهذه الدولة من الداخل، فلم يفحصوا أعطابها، ومواطن الخلل فيها، ولا الآليات المضادة التي تدفع نحو تآكلها، ولم يضعوا الدولة في الميزان لأنهم لا يملكون رؤية مكتملة حول الدولة؛ سوى أن الدولة معطى جاهز وواقعة لا ريب فيها! فقضيتهم تحقق الدولة القومية، وهذه ينبغي أن تقوم بأي شكل وبدون شروط: مثل الانقلاب العسكري، أو التوحيد القسري، أو اللاتكافؤ بين أطرافها[٢٣].

وعلى صعيد آخر فإن الفكر القومي إذا اقترن بالرغبة في إقامة دولة حامية للقومية؛ سيؤدي إلى ظهور كيانات صغيرة ضعيفة تتمسك هي الأخرى بقوميتها، وهو ما حدث في أوروبا، فوفقا لدراسة ألمانية Minderheitenrechte شارك في تحريرها من قبل Pan and Pfeil ‏(٢٠٠٢) هناك ٨٧ شعبا أوروبيا، ويشكل ثلاث وثلاثون منهم غالبية السكان في دولة واحدة على الأقل ذات سيادة، في حين ال ٥٤ المتبقية تشكل الأقلية. ويقدر العدد الإجمالي للسكان أقلية وطنية في أوروبا ١٠٥ مليون شخص، أو ١٤٪ من ٧٧٠ مليون الأوروبي[٢٤]. والمثال الأبرز صراع إقليم كتالونيا الصغير مع السلطة الحاكمة في إسبانيا، ورغبته في الاستقلال، وأيضًا صراع الأكراد في شمال العراق مع الحكومة المركزية في بغداد.

ومن هنا، كان الانتقاد لـ "فكرة الحداثة عندما تحددت بتدمير النظم القديمة وبانتصار العقلانية؛ (وبأنها) قد فقدت قوتها في التحرر وفي الإبداع، ولا تستطيع الصمود أمام الدعوات المعارضة مثل الدعوة الكريمة لحقوق الإنسان، وصعود الاختلافية والعنصرية"[٢٥]. وللأسف فإن الحداثة ارتبطت سياسيًا بحكومات سلطوية، استندت إلى الفكر القومي، أو الفكر القطري/ الوطني لتأسيس نظم حاكمة جديدة، مثل الدول في أوروبا وفي العالم العربي، وهي في غالبيتها مالت إلى الحكم الاستبدادي، المؤسس على نزعة قومية تطرفت إلى عنصرية وطنية بمرور الوقت، وأضحت سببا أساسيًا في تفكك الدول.

المبحث الثاني ما بعد الحداثة والتاريخ (النقد والتفكيك والمآلات)

في المبحث الثاني نسعى إلى مناقشة استراتيجيات ما بعد الحداثة في قراءة التاريخ، والتي انطلقت من انتقاداتها المباشرة إلى مآلات التاريخ وتمثيلاته كما تبدت في مؤلفات المؤرخين الحداثيين، والعوالم المتخيلة التي شيدوها في قراءاتهم للتاريخ. ولأن لبّ فكر ما بعد الحداثة هو المراجعة، والتقييم، والنقد، فإنه لا يقيم أبنيته الفكرية على النقد فقط، وإنما ينظر إلى الثمار المنتجة في أبحاث التاريخ الحداثي، ويقارن بينها وبين الجذور التي أنبتتها من فلسفات ومرجعيات، ومن ثم يتطلع مقارنا إلى منجزات العلوم والأبحاث الإنسانية، ليختبر فرضياته، ويناقش منطلقاته.

وعلينا الانتباه إلى أن فكر ما بعد الحداثة ليس كلا واحدًا، وإنما هو جهود عديدة، تلتقي في مجرى النهر، وكأن ما بعد الحداثة نشأت بعمل كلِّ مفكرٍ فردٍ على حدة، حتى أن بعض المفكرين ما بعد الحداثيين، يرفضون إلحاقهم بهذا التوجه، مستمسكين بجهودهم الفردية، مثل " جاك دريدا " الذي يعلن صراحة أنه لا يفهم حركة ما بعد الحداثة، ولا يستطيع الحكم على ما لا يعرف أو يفهم، على الرغم من أن تفكيك المعنى من أهم استراتيجيات ما بعد الحداثة، ورائدها هو دريدا[٢٦]، وهذا في رأينا قضية تخطاها الواقع، فتيار ما بعد الحداثة بات مستقرا في الفكر العالمي، ولا يمكن بأي حال أن نعده ضمن حركة تصحيح الحداثة لمسيرتها، لأن ما بعد الحداثة نقد ممنهج، واضح المعالم والقسمات، لما وصلت إليه حركة الحداثة في العالم، في ضوء تهاوي دول وأحلاف سياسية بنَتْ مرجعياتها الفكرية على فلسفات حداثية. وكذلك ما أسفرت عنه النظريات والانتقادات العلمية والعقلية للموروث الحداثي، وما تحقق منه على أرض الواقع في العالم.

في ضوء ذلك، سنناقش استراتيجيات ما بعد الحداثة في نقد الحداثة تاريخيا، بناء على ما ذُكِرَ في المبحث السابق، مع الربط - على قدر ما يتاح – بالأمثلة والبراهين، التي تؤكد على التقييم ما بعد الحداثي للتاريخ والتاريخانية.

٢/١-إستراتيجيات ما بعد الحداثة في قراءة التاريخ

تستند نظريات ما بعد الحداثة - في رؤيتها إلى علم التاريخ - إلى جوهر فلسفتها التي تعيد قراءة الأنساق الفكرية، والنظريات، والمرجعيات الفلسفية، التي سادت العالم في العصر الحديث، خاصة في القرون : الثامن عشر، و التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين، وأساسها المشروع الحداثي، الذي تبنته الحضارة الغربية، بكل ما انبثق عنه من فلسفات، كانت لها أبعادها وآثارها السياسية والاجتماعية والثقافية والفنية، وبكل النجاحات والإخفاقات والتقلبات التي صاحبت تطبيقه في الواقع، ولعل هذا أبرز ما يميز حركية الفكر الغربي، من حيث طرح الأسئلة المطروحة دائما على ما هو قائم، وتشريح الحاضر في ضوئها، ومن ثم التطلع إلى المستقبل، مما يدل على اتساع حرية النقد والتقويم بشكل مستمر.

فحركة ما بعد الحداثة، تمثل نقد الفكر الغربي لذاته، وإعادة تقويم وتقييم مشروع الحداثة الغربي برمته، والذي انعكس بدوره على كثير من دول العالم، بحكم أن الغرب الأوروبي والأمريكي، لهما الغلبة على مختلف الأصعدة، ومن الطبيعي النظر إليهما بوصفهما قاطرة البشرية نحو التقدم. وإن وُجِدت – بالطبع – تجارب نهضوية وتحديثية أخرى، تقاربت أو تباعدت عن التجربة الغربية، ولكنها امتاحت منها الكثير، وهذا ديدن المسيرة الإنسانية، في الاستفادة من تجاربها.

وقد وقفت ما بعد الحداثة موقف المتشكك/ المتمرد/ رافض اليقين من أي كتابات تفترض أنها تقدم الحقيقة بشكل مطلق. فالمنجز الأساسي في فكر ما بعد الحداثة، أنها غيرت من القوالب الجاهزة، وتشككت بقوة إزاء القوانين والأنظمة والقواعد التي تشكل خطابات المنتج المعرفي والأدبي والفني والتاريخي في العالم المعاصر، ورفضت ما بعد الحداثة في الوقت نفسه المسار الواحد الذي يتخذه مجتمعٌ ما نحو التاريخ، بمعنى أن يتبنى قراءة أحادية للتاريخ، تهمل/ تحارب/ تتغافل/ ترفض سائر القراءات الأخرى، والتي هي مكملة بلا شك لأبعاد التاريخ.

وهذا ما عبر عنه فيلسوف ما بعد الحداثة " إيهاب حسن "، بتأكيده أن ما بعد الحداثة تعتمد على النظر والتأمل في كثير من القضايا المتصلة بالحضور التاريخي والتفاعل اللغوي، وأبعاد المعرفة في علاقتها بالسلطة والقوة في عصرنا. فالتاريخ مثلا يتأرجح بين الاستمرارية وعدم الاستمرارية، وفق المعايير التي يمكن قراءتها في أطرها، ويدفعنا إلى معرفة الأفكار والمؤسسات، ومدى اتصالها أو انقطاعها عن مسارات التاريخ، وتشكلات حضوره ومكوناته، كما يمكن قراءة الحدث التاريخي وفق حقول ومجالات عديدة، ووفق نظريات عدة تعود إلى ماركس وفرويد وداروين وبودلير وسيزان، ضمن فلسفات العقل الغربي[٢٧].

فيمكن تفسير أحداث التاريخ ضمن معطيات ورؤى شتى، وبالتالي لا توجد معرفة تاريخية يقينية، وإنما هو خاضع إلى مؤثرات كثيرة، وليس قراءة واحدية أو أحادية، بل الانفتاح على قراءات متعددة نابعة من فلسفات الحداثة نفسها مثل القراءة القومية، أو التحليلية النفسية، أو الاجتماعية، أو المادية، أو الطبقية.. إلخ، وكلها نظريات تقدم سرديات تزعم الشمولية في قراءة التاريخ من منظورها؛ بجانب سبر أغوار المدونات التاريخية لغويا وإشاريًا، وعدم الاكتفاء بتفسير واحد في النص. في المقابل، فإن ما بعد الحداثة في سبل قراءاتها وتحليلها؛ تركز بشكل لافت على سرديات تأمل الذات والتشظي الساحر، والتركيب والخيال [٢٨]. إن استخدام مصطلح الـ " سرديات " في التأمل الذاتي، يعني عدم التوقف عند الفكرة أو الطرح النظري، وإنما قراءته ضمن الأنساق/ المظاهر/ الحوادث/ التجليات/ التطبيقات المتجسدة في الواقع، وهذه قراءة خاضعة للذات في الدرجة الأولى، لأنها تحتاج إلى طول تفحص، وعمق نظر.

أما "التشظي الساحر"، فهو الاستراتيجية المفضلة في فكر ما بعد الحداثة، حيث تعتمد التفكيك/ التشظي سبلا لفهم العالم، فلن نفهم الظواهر المتكاملة والمجسّدة في كياناتها القائمة، إلا بتفكيك أجزائها وعناصرها، وبالتالي لن يخضع العقل لإبهار الزعم بالاكتمال؛ بقدر ما يستنبط ما وراء الجزئيات، ويتعمق الأزمة فيها، ثم تأتي استراتيجية " التركيب والخيال "، والتي هي ناتج طبيعي للتشظي، فإذا فككنا ما هو مكتمل، فإن علينا تخيل ما يمكن تشكيله من جديد، فأي هدم يجب أن يتبعه بناء، وإن كانت ما بعد الحداثة برعت كثيرا في الهدم/ التشظي، إلا أنها لم تقدم بناءات كبرى، تُصلِح الخلل في الأبنية الفلسفية للحداثة، أو تبني جديدا منها. والأمر يتضح في قراءة التاريخ، حيث هاجم مفكرو ما بعد الحداثة فلسفات قراءة التاريخ المستندة للحداثة، ورأت أنها تقدم يقينيات زائفة، وأجوبة ناقصة لأسئلة كبرى.

وهو ما يحدده " إيهاب حسن " في موضع آخر، حيث يقرر أن الموقف الفكري لحركة ما بعد الحداثة من التاريخ ينطلق من رفض الفلسفات الشمولية، مع التركيز على الجزئيات والتفاصيل والرؤى المجهرية للكون والوجود. ويتبعها أيضا رفض الحتمية الطبيعية والتاريخية، التي أشاعتها فلسفات الحداثة، ولا سيما مفهوم التطور الخطي. ومناهضة كل أشكال السلطة، سواء في الخطاب أو السياسة أو الفن. وأيضا رفض اليقين المعرفي المطلق، وكذلك المنطق التقليدي، الذي يقوم على تطابق الدال والمدلول، أي تطابق الأشياء والكلمات [٢٩].

فجوهر فكر ما بعد الحداثة متمثل في نفي اليقين المعرفي الذي روّجت له فلسفات ما بعد الحداثة، وكشف ما وراء تفسيراتها من تناقضات فكرية وواقعية، من خلال تفكيك البنية الفكرية التي تشكل السردية التاريخية المقدمة. فيمكنك تقديم قراءة كبرى للتاريخ من المنظور الماركسي مثلاً، المستند إلى المادية الجدلية وصراع الطبقات، بخطاب يزعم في طياته عرض رؤى عقلانية مادية، ويقنع القارئ أنها صحيحة في منطقية أسبابها ونتائجها. وهو الشرك الذي سقط فيه الماركسيون، وتمسكوا بها، دون الالتفات إلى النقد الحيوي الموجه إلى النظرية الماركسية وقراءتها للتاريخ، والذي بدأ

مبكرًا منذ نهايات القرن التاسع عشر، واستمر من قبل المفكرين الأوروبيين طيلة القرن العشرين. فقد رفض نقاد الماركسية التاريخية التفسير الاجتماعي الاقتصادي بوصفهما عاملين وحيدين في قراءة التاريخ؛ ورفضوا تبعا لذلك نظرية الطبقتين المتناحرتين (صراع الطبقات) والنزعة التخطيطية (المتكلفة) لمراحل التطور التاريخي، ودعوا إلى التخلي عن الأيديولوجية الماركسية والعودة إلى فلسفة كانط [٣٠]؛ وجوهر هذه الفلسفة: التعرف على محدودية العقل البشري وقصوره المعرفي وبنيته ذاتها، مع نقد الميتافيزيقا التقليدية ونظرية المعرفة الكلاسيكية، وكان أجمل مساهماته وأبدعها كتابه نقد العقل العملي الذي بحث فيه جانب الأخلاق والضمير الإنساني، والانطلاق منها [٣١].

وهي فلسفة لها آثارها المهمة بلا شك، لأنها تحدّ من غرور العقل البشري، وتسلطه، والمبالغة في تقديره للأمور، وإصداره أحكاما مطلقة، وتقف أمام النزعة العقلية المتألهة، التي وضعت ربطت العلم بالعقل، وجعلتهما مضادينِ للدين، فأضحى العقل/ العلم في مواجهة مع الدين، وجعلت للفلاسفة سلطانا لا يقهر، ومنحتهما قداسة غير قابلة للنقاش، ونزعت في المقابل القداسة عن الأديان. ونظن أن فكر ما بعد الحداثة ارتكز بشكل أساسي على فلسفة كانط، لأنه أعاد النظر في العقل وآلياته وتكوينه وقصوره، ومن ثم توجه بالنقد المباشر للعقل الفلسفي المغلق على أفكار وتصورات بعينها، ويصدر أحكامًا مطلقة وفقها. وعلى الرغم من ذلك، فإن هناك البعض من مفكري الحداثة يرفضون بنية العقل في فلسفة كانط، ويرون أنها تؤسس لما يسمونه المثالية الكانطية التي تتحول فيها الذات التاريخية إلى أبنية ذهنية مطلقة [٣٢].

وقد جاء نقدهم لكانط مؤسسًا على استراتيجية فكر ما بعد الحداثة نفسها، التي ترفض أي بناء ذهني للعقل بشكل مطلق، فالعقل عندهم: قاصر، محدود، خاضع لمؤثرات كثيرة، فلا تقبل أحكامه، ولا يتم التسليم بها. أما انتقادهم لما أسموه " البناء النهائي للعقل " -كما قرأوه في فلسفة كانط - فذلك أن العقل ابن لمرحلته التاريخية، بكل ما فيها من علوم ومنجزات ومؤثرات، وهو ابن أيضا لصاحبه بكل ما تحويه ذاته من تحيزات وقناعات. وهذا معناه، أن حركة ما بعد الحداثة، وقفت مضادة تمامًا لأي بناء عقلي ذهني مغلق في تصوراته، وينتصرون في المقابل لنسبية تكوين العقل وأحكامه. وبذلك فإن نقدهم لكانط، غير مضاد له، بقدر ما يعمق جوهر العقلية الكانطية.

على جانب آخر، فقد هاجم مفكرو ما بعد الحداثة -ومعهم نقاد الفكر الماركسي -مختلف التحليلات الوصفية الضخمة التي اتبعها الماركسيون في تفسيراتهم للعالم والتاريخ، ثم استمروا في نقد ما أسموه البدائية والتبسيطية المفرطتين في وصف المراحل الأساسية لتاريخ المدنية. ولم يكن هذا إلا منظورا مكررًا من خارج مقولات الماركسية في نزوعها الأصلي ومراجعها، ومن أبرزها التركيز على الطبقة العاملة، وحصر التفسير في التصور المادي للتاريخ. ومصطلح "مادي" هنا مهتم بالطريقة التي ينفّذ بها الإنتاج المادي (تقنية الإنتاج) وفق شروط الملكية أي أن علاقات الإنتاج هي العامل المحدِّد في التنظيم السياسي وفي التمثيل الثقافي لفترة زمنية. كما وجه علماء الاقتصاد السياسي انتقادات حادة لهذا التصور المادي للتاريخ الذي لا يضم ببساطة إلا نقدًا لتمثيلات زائفة [٣٣]، مما يعني حصر قراءة التاريخ ضمن سببية واحدة تتمثل في العوامل المادية البحتة، بكل ما ينتج عنها من علاقات، وتجاهل عوامل أخرى مهمة في تفسير الأحداث. فالتاريخ أحداث ووقائع بشرية في البدء والمنتهى، مما يجعل هناك دوافع عديدة للتغيير والحركة والتأثير، مثل الدوافع الدينية، والاجتماعية، والرغبة في الزعامة الفردية، وتكوين الدولة، وبناء الأمم، وتأسيس الحضارات، وأيضا التعرض لكوارث طبيعية، ناهيك عن شروط البيئة الجغرافية، وطبيعة العصر، وخصائص الشعوب النفسية والجمعية.

لقد أقامت الفلسفة الماركسية بنية فكرية ضخمة، متكاملة في أسسها الفلسفية، وفي منطقها العقلاني المادي، المؤسس على قراءة المجتمعات طبقيا، وفق مبدأ الصراع، وهو بنية شمولية، توهم من يقرأها بحتمية منطقها، بل ووجوب الأخذ بها، لأنها مستندة إلى العقلانية بأسبابها المادية والاجتماعية. ولكن إذا أعملنا استراتيجيات ما بعد الحداثة المعتمدة على: التأمل، والتشظي، والخيال، والتركيب، فإننا سنجد بناء تاريخيا أحادي التوجه والمنطلقات والثوابت، مما يسهل تفكيكه وتشظيه، فهناك عشرات الأدلة المادية والواقعية التي ستنخر في مكوناته، وستهدم العقلانية نفسها المبني عليها، ومن ثم ستقترح أبنية أخرى، من الأدلة المتعارضة، لقراءة التاريخ، مما يعني أنها ذكرت أحداثا وتغافلت عن أخرى.

ووفق فلسفة كانط فإن العقل الماركسي نحّى الأخلاق والضمير/ الدين، واكتفى بما هو مادي، وهو تجبر من العقل الماركسي، وافتئات على الأنماط الأخرى من العقول الفلسفية،

بل ورفض لوقائع قائمة، في ضوء أن العقل الإنساني – وإن تعاظم علمه واتسعت معارفه – يظل في قصور، بحكم تحيزاته وقناعاته المسبقة، والأحاسيس المسيطرة عليه، وغير ذلك. فما يميز ما بعد الحداثة في قراءتها ونقدها، أنها تهدم بالعقل والنقد، وقد تسعى إلى التركيب من جديد، دون احتكار لتوجه معين أو التمترس خلف فلسفات سيأتي حتما من ينقدها مستقبلاً. ومن هنا، فإن ما بعد الحداثة طعنت في كل وجه من وجوه التنوير، وفي الأساس الكامل للحداثة، وتحدّت اليقين المعرفي، وتشككت في موضوعية العلم[٣٤].

وكما يشير "فرانسوا لوتار "صراحة: "إنني أعرّف ما بعد الحداثي بأنه التشكك إزاء الميتا – حكايات، هذا التشكك هو بلا شك نتاج التقدم في العلوم، لكن هذا التقدم بدوره يفترضه سلفا. وأبرز ما يناظر قَدم جهاز إضفاء المشروعية الميتا- حكائي، هو أزمة الفلسفة الميتافزيقية ومؤسسة الجامعة التي كانت تعتمد عليها في الماضي"[٣٥]. فاستراتيجية التشكك ما بعد الحداثي؛ تتشكك على أسس علمية، تنظر إلى واقع العلوم، وما كشفت عنه الأبحاث والدراسات والتجارب، في مجالاتها العديدة: الإنسانية والتطبيقية، ومن ثم توجه أسئلتها وانتقاداتها إلى الموروث الحداثي، من واقع ما أسفرت عنه التجارب في المجتمعات الغربية. وهنا نرصد أمرًا مهمًا، وهو أن ما بعد الحداثة اتخذت من العلم سبيلا لها، بمعنى أنها لم تكتف بالنقد الفلسفي والفكري لفلسفات التنوير والحداثة، فيما يسمى نقد الأفكار، وإنما استندت إلى منجزات العلم ذاته، وما تحقق على أرض الواقع من ثمرات أو نكبات، ومن ثم أعادت تقييمها للرؤية التاريخية الفلسفية الحداثية.

وكي تتضح الصورة أكثر، فإن من ثمار التنوير الأوروبي إعلاءه شأن العقل والعلم في القرن التاسع عشر؛ على حساب ما هو روحاني وقيمي وديني، فكانت المحصلة نزعة عبثية وسودواوية، وفلسفات كابية، واغتراب الإنسان الأوروبي ومادية الإنسان الأمريكي، وتخبطه في الحياة في القرن العشرين، فكان لابد من تقييم التنوير ومدارسه. وكما أوضح الفيلسوف جون ديوي هذا المنحى المادي، خلال قراءته للمجتمع الأمريكي، حيث يرى أننا نعيش بالفعل في القرن العشرين، ولكن نمط حياتنا المادي القاسي، وأفكارنا وأحاسيسنا تشابه الحياة خلال القرنين الثالث عشر والثامن عشر، فنحن نعيش في حضارة مادية نقدية، المال كل شيء فيها، فأضحى المجتمع طبقتين: عمال، ورجال أعمال، تعيش طبقة العمال في خوف دائم، من فقدان العمل، أو التقدم في السن، فتكون حياتهم دون اطمئنان[٣٦]. بنى "ديوي" رؤيته على المجتمع الأمريكي، والذي لا يختلف كثيرًا – في القرن العشرين، عن مجتمعات غرب أوروبا ووسطها: ماديًا وفكريًا ونفسيًا.

ونفس الأمر مع الفكر القومي، فما تحقق على صعيد الواقع، كان زيادة الحروب، واشتداد التعصب، والتيه بالذات الجمعية، واحتقار الآخر من الشعوب الضعيفة أو الفقيرة أو المتأخرة حضاريًا، وتقديم قراءات تاريخية تتجاهل منجزات الشعوب الأخرى المختلفة عرقيًا وقوميًا. مما يعني أنها قراءة مضللة مزيفة أو غير مكتملة؛ مما يطعن في المنهج ذاته، وأسسه الفلسفية القومية. وهو ما أشار إليه أحد القوميين العرب، عندما أدان التمترس حول الذات الفردية أو الفكرية أو الجمعية، مفرقا بين القومي والقوموي، فالأول يعتنق الفكر، ولكن يضعه في إطار إنساني بناء رحب متسامح، أما الثاني فهو يتحجر، ويختال، ويقاتل من أجل دوام رؤاه، وإن تصلبت، وصارت وثنا يعبد [٣٧].

٢/٢-التاريخ والذات

جاءت مناقشة ما بعد الحداثة للتاريخ من زوايا عديدة، وعبر طرح الكثير من الأسئلة حول ماهية التاريخ، ونوعية الكتابة التاريخية، والغرض منها، وموقف المؤرخ مما يكتب، وتقاطع التاريخ مع العلوم المختلفة. أي النظر إلى التاريخ بوصفه وثيقة ومدونة، تقبل الجدل والتفكيك والتشظي والنقد والتقييم، خاصة في التاريخ المكتوب من قبل فلسفات الحداثة ومناهجها التفسيرية له.

ولا شك أن هذا تطور كبير في مفهوم علم التاريخ، حين يصبح التاريخ خاضعا للتفسير والرؤى المتقاربة، بوصفه ملتقى للعلوم الاجتماعية، وملتقى أيضا للذات والموضوع: ذات المؤرخ، وموضوع الكتابة التاريخية ذاتها، مع التركيز على قضية التاريخ بوصفه فرعا من المعرفة (Discipline). فالتاريخ لا يقتصر على كتابة أحداث الماضي التي وقعت، وإنما هو في الواقع مجرد كتابة عن الماضي، من كتابات أخرى [٣٨]. وهذا أول ما فجرته ما بعد الحداثة، اعتبار التاريخ نصًا، قابلاً للنقاش، وأن المادة التاريخية تحتوي تفسيرات عديدة، وتتداخل في كتابتها مؤثرات كثيرة.

ونتوقف هنا عند مفهوم النص التاريخي، فثمة أمور عديدة تتصل به: زمن الكتابة، لغة النص، المؤرخ كاتب النص بكل تحيزاته الفكرية والشخصية والاجتماعية والسياسية وأيضا بحدود رؤيته واطلاعه على الحدث ذاته، وكذلك تتأثر ببيئة النص، العصر الذي صيغت فيه. ومن هنا فإن ما بعد الحداثة تستند إلى

النص التاريخي/ المدون، بوصفه وثيقة مادية، وتخضعها للدراسة العلمية الدقيقة، التي لا تكتفي بمقارنتها مع نصوص أخرى، وإنما تنظر إلى الذات المؤرخة نفسها.

ويبرر مفكرو ما بعد الحداثة هذا التوجه، بأن طبيعة الكتابة التاريخية ووظيفتها تتشكل عبر افتراضات نظرية مسبقة، والتي يعكسها المؤرخ ويدونها فيما يكتبه عن الماضي، وهذا ما يسمى الإطار الذي تصاغ منه الأدوات المفاهيمية، والتي هي الأساس العلمي في البحث التاريخي، على مستوى التفكير والتدوين، مما يفتح المجال واسعا لتفسيرات متعددة ومحتملة للنص التاريخي. وتتنوع الأدوات المفاهيمية وفق منطلقات المؤرخ وإجراءاته وهي فردية في طابعها، على مستوى الأسئلة والقضايا والمشكلات والافتراضات، التي تظل حقا مشروعا للمؤرخ [٣٩].

فعمل المؤرخ المبدئي مطروح للنقاش، والذي قد يتجاوزه بعض مفسري التاريخ ومنظريه، من أجل تقديم رؤية كلية فلسفية، فيعيدنا فكر ما بعد الحداثة إلى جوهر النص التاريخي في مراحله الأولى: تمحيصًا ونقدًا، ثم في مراحله التالي. فنزعة الشك ما بعد الحداثي تنظر بشفافية لعمل المؤرخ المنطلق من ذاته الفردية، بكل ما تشتمل عليها من انحيازات ومنهجيات وقناعات. حيث تنتقد ما بعد الحداثة الذات الحداثية لكونها تتأسس على ذاتية متكاملة تسعى إلى تحقيق تماسك داخلي، وعلاقة كاملة مرضية مع العالم الواقعي خارج الذات، على نحو ما نرى في الفلسفة الماركسية، والرؤية الفرويدية. فهي ضد المثالية الأفلاطونية التي تكمن الحقيقة فيها في فضاء شفاف من الأشكال المثالية، وهي ضد الانعكاسية الإمبريقية التي يظهر فيها العقل كزجاج شفاف، ومن ثم يحل اللايقين ما بعد الحداثي محل نزعة الشك الحداثية [٤٠].

فكثير من الادعاءات الكبرى التي روّجت لها المذاهب الحداثية أضفت أشكالا من الشرعية والسلطة على الممارسات الثقافية، وأيضا على قراءتها للتاريخ، والتي رأت فيه أن القراءة المذهبية الحداثية للتاريخ تقدمية المنحى، وأن المعرفة ستحررنا، وأشاعت ما يسمى بفكر التحرر والخلاص التدريجي للبشرية، والوصول إلى يوتوبيا أرضية، كما أكدت على انتصار العلم، ودحر كل ما عداه [٤١].

تركز فلسفة التحليل التاريخي – في منظور ما بعد الحداثة – على طبيعة الكتابة التاريخية وطرائقها بوصفها فرعًا من المعرفة، تتوزع ما بين الذاتي والموضوعي والإيديولوجي والافتراضات، ومن هنا لابد من النظر في كيفية تطبيق المؤرخين لمنهجياتهم، والدوافع والأفكار التي كانت وراء استخدامهم لها [٤٢].

ولذا، يفضل ما بعد الحداثيون استخدام مصطلح الخطاب التأريخي Historiographical Discourse، بديلا عن مصطلح كتابة التاريخ، أو الكتابة التاريخية History Writing لمناقشة مدى توافر الموضوعي والذاتي في عمل المؤرخ، مع النظر في الزمنم/ الحقبة التي عاشها المؤلف، ومجموعة العمل معه، وسيرته الذاتية، والمزاعم/ الأهداف المعلنة من قبله. كما تبحث أيضًا في كون الخطاب التأريخي ملتقى للفيلسوف والمنظر والمؤرخ [٤٣].

فمفهوم الخطاب التأريخي أو التاريخي، يضاف إلى مفهوم النص التاريخي ذاته، فكل نص يحوي خطابا ما، وعلينا إعمال الدرس والتأمل في مفردات هذا الخطاب، واتجاهاته الفكرية، ومشاعر من قاموا بصياغته. وتستفيد ما بعد الحداثة هنا من منهجيات تحليل الخطاب المختلفة، التي سبقت وواكبت صعود حركة ما بعد الحداثة، فتخضع مختلف الكتابات التاريخية والتأريخية للتحليل، وهذا التحليل لا يكتفي بمحتوى الخطاب اللغوي والمعرفي والمعلوماتي والزمني والمكاني، وإنما ينظر أيضا إلى ما وراء الخطاب، بمعنى مَن دعّم المؤرخ، ومن سانده، من السلطة، كما ينظر إلى الجمهور المستقبل لهذا الخطاب في النص التاريخي.

وقد تمسّك مفكرو ما بعد الحداثة بأهمية الوقوف عند ذاتية المؤرخ، أي أن من حق المؤرخ – في منظور ما بعد الحداثة – أن يُعمل ذاته فيما يكتب، دون الادعاء باحتكار الحقيقة فيما يقول. بمعنى آخر: اكتب التاريخ كما تشاء، ووفق والصياغة التي تريدها، دون دوجماطيقية أو اختيال أو الادعاء بامتلاك الحقيقة، ومن حق متلقي هذا الخطاب الاختلاف معك، ومناقشة مدونتك، ورفض آرائك. وهي رؤية تنتصر إلى كون المؤرخين بشرا، يتفاوتون في مهاراتهم وملكاتهم اللغوية والفكرية والتأريخية، وعلينا أن نتعامل معهم وفق هذا المنحى، لنفسح المجال للإبداع في الكتابة التاريخية من جهة، دون الإخلال بشروط المنهجية والعلمية، وفي الوقت نفسه، إخضاع التاريخ لمنهجيات التلقي الفاعل، الذي يبدأ بذات المؤرخ، ويتعمق في النص المدون، ولا يغيب عنه سياقات الكتابة.

٣/٢-في نقد المنظور التاريخي لما بعد الحداثة

من أهم المآخذ التي يوردها النقاد ضد تيار ما بعد الحداثة إليها فكرة ذاتية المؤرخ، ذلك بأن التمسك بتأمل الذات وسردياتها الخاصة، يدفع الناس إلى إسقاط عوالمهم الجمالية

الكاملة على التاريخ، مما يضفي نزعة جمالية على ممارسات ظالمة في التاريخ، مثل قبول مجازر هتلر البربرية في حقبة ألمانيا النازية. وأيضا إلى كتابة نصوص تتأمل ذاتها، ضمن ألاعيب لغوية [٤٤].

وذلك ما يؤكده "عبد الوهاب المسيري" بأن نظرة ما بعد الحداثة إلى التاريخ تسقط المركزية والأطروحات الكلية والسببية، فيستحيل الوصول إلى معرفة كلية، وتختفي الذات، ويتراجع الموضوع، وتهتز ذاكرة الإنسان التي هي مستودع التجارب والخبرات وأحداث التاريخ، فالحقائق تتغير، والإعلام يقدم التاريخ قصصا متعددة، مفرطة في تعدديتها، والقواعد تتبدل، ويختفي الإحساس بالتاريخ والاستمرار، كما تختفي النماذج الخطية المتطورة، ويختفي أي نموذج تفسيري، ويظهر ما يسمى ذاكرة الكلمات المتقاطعة، أي المعلومات المتناثرة بلا رابط، ويتكون الإحساس بأننا في حاضر أزلي، ويصبح التاريخ مجرد زمان، كزمن مسطح لا عمق فيه، ويتزامن الحاضر والماضي والمستقبل، وإن بقي تاريخ فهو كالأنتيكة، أشياء مبعثرة، ووقائع منفصلة غير قابلة للتفسير[٤٥].

ينتقد "المسيري" التاريخ كما تجلى في كتابات ما بعد الحداثيين، آخذا عليهم إسرافهم في النظر إلى التاريخ المكتوب بأنه تاريخ مؤرخي السلطة، ومن بيدهم القوة والسطوة، فلم يُقدَّم تاريخ حقيقي، وإنما التاريخ كما يريده الأقوياء، وهذا مأخذ بلا شك، ولا يمكن قبوله، لأن التاريخ هو ذاكرة البشرية، وإن كانت هناك كتابات خطأ، فهذا لا يبرر أن تتم السخرية بشكل كلي منه، ويتحول الأمر إلى مجرد نتفات ومتناثرات، لا تشكل وعيا أو تصنع معرفة. وإذا كانت ما بعد الحداثة، تهاجم الحداثة في نظرتها إلى التاريخ لأنها قدمت أنساقًا فكرية كلية يقينية الطابع في خطابها، فإن ما بعد الحداثة جنحت في بعض تصوراتها نحو التاريخ إلى درجة تحويله إلى مادة للسخرية والتندر على ما يسمونه تاريخ السلطة والحكام وأولي القوة، فكأننا انتقلنا من حافة إلى حافة، من حافة التفسير وفق أطر مذهبية وفلسفية، إلى اللاتاريخ، واللازمن، واللامرجعية، واللا معرفة، واللايقين. وتمعن هذا الاتجاه أكثر، مع سيطرة أجهزة الإعلام المرئي والقنوات الفضائية، وعالم الحاسوب، ليكون مآل التاريخ مجرد طرائف، ونوادر، ومعلومات توضح وتفسر جزئيات، دون رؤية كلية تؤطرها، ولم يعد المتلقي نفسه، لديه الرغبة في الغوص والتعمق، فهو يعيش حاضره، ولحظاته الراهنة، بكل ما فيها من جديد مبهر، بفعل وسائل الإعلام وعالم الإنترنت، وبراعتهم في جذب الجمهور لأخبار مدهشة وعجيبة، يمكن أن تتعمق تاريخيا بعض الشيء، ولكن بلا بنية معرفية حقيقية.

ويعترف ما بعد الحداثيين بهذا التوجه في التعامل مع التاريخ، ويرون أن دراسة التاريخ لا نحتاج إليها إلا لإلقاء الضوء على الحاضر، فمن الواجب تقليل الاهتمام بالدراسات التاريخية، وعدم الركون إليها في تفسير العالم، فالتاريخ عند ما بعد الحداثيين مجال للأساطير والإيديولوجيات والتحيزات، وعندما ينظرون إلى التاريخ المكتوب في العصر الكولونيالي الأوروبي، يجدونه مجرد اختراع من الأمم الغربية الحديثة لقمع شعوب العالم الثالث، وأبناء الحضارات غير الغربية، على أساس أن الفكر الغربي محوري ومركزي في العالم الإنساني، وتأتي على هامشه مختلف الحضارات والأمم، ومن ثم لم يعد الزمن التاريخي يسير في خط تراتبي، بل إن فيه الكثير من عدم الاتصال والفوضى، فالزمن الحقيقي – كما يقول عالم الفيزياء ستفين هوكنج – ليس سوى صورة من صنع خيالاتنا. وأيضا لم تعد الجغرافيا وحدودها ثابتة، فقد تخطتها الاتصالات الحديثة، وتلاقح الأفكار والثقافات[٤٦].

ولهذا يعلن مفكرو ما بعد الحداثة أنه يجب علينا الاستيقاظ من الأوهام، التي أصيبت بها الكتابات التاريخية في عصر التنوير، خاصة ما يتعلق بالتقاليد الغربية والشرقية، في التاريخ المدون، بل يصفون سيادة التصورات الغربية في الكتابات التاريخية عن العالم بأنها لون من طفولية المدرسيين، ويتخذون من الشك منهجا واستراتيجية، من أجل التنقيب في المصطلحات والرؤى المصاغة [٤٧]. وقد انتقلت الحضارة الغربية من التماسك الصلب إلى السيولة الشاملة، وتحولت الإشكالية اللغوية الهامشية إلى إشكالية فلسفية كبرى، وصار الاهتمام بالتشيؤ والتسليع، وصاحبه إغراق في الذاتية، وظهور لغة مغرقة في الذاتية، بعيدة عن الموضوعية وعالم الأشياء[٤٨].

فلا غرابة أن تتحول الرؤية التاريخية -في منظور ما بعد الحداثة- إلى رؤية ذاتية، لا تقيم وزنا للبناء الفكري، ولا تسعى إلى تشكيل رؤية شاملة وقراءة جديدة، لأن الذات ما بعد الحداثية غارقة في نفسها، أو هي امتداد للذات المغتربة المتوارثة من عصر الحداثة، وناتج لإيقاع العصر المادي وصراعاته.

٤/٢-الثورة التاريخية لما بعد الحداثة ومنجزاتها

يمكن القول إن هناك ما يسمى "الثورة التاريخية" جاءت مرادفة ومواكبة لحركة ما بعد الحداثة، هذه الثورة التاريخية صامتة حققت كثيرا من التقدم في مجال المعرفة التاريخية، في

الربع الأخير من القرن العشرين، بما لم يتحقق طوال تاريخ التاريخ بأسره منذ كان وليدًا في حجر الأسطورة إلى أن صار علما له فلسفته وتاريخه ومناهجه، وهو زمن ازدهار الفكر ما بعد الحداثي، حيث كان من نتائج "ثورة التاريخ الصامتة " أن تطورت مناهج البحث وأدواته من ناحية، وتغيرت النظرة إلى المصادر التاريخية التي يعتمد عليها الباحثون من ناحية أخرى. وتخلت النظرة القديمة للتاريخ، باعتباره مرادفا لسير الحكام وحروبهم، عن مكانها لنظرة جديدة ترى في التاريخ مرادفًا لمسيرة البشر الحضارية على هذا الكوكب عبر الزمان، وترى أن كل ما حققه الإنسان، أو تطلع إليه بأمل، أو فكر فيه، جدير بالدراسة والتسجيل والبحث والفهم. ومن ثم فإن كل الأفعال البشرية، خيرا كانت أو شرًا، حروبًا أو إنجازات، ثقافة وفنا، أو زراعة وصناعة، طموحًا أو يأسًا، رفعة أو ضعة.. كلها جديرة بأن ينظر فيها الباحثون والدارسون علّهم يفهمون قصة الوجود الإنسان[٤٩].

وبات البحث التاريخي معنيًا بسؤال عن مدى نسبية الموضوعي والعلمي في الكتابة التأريخية، من أجل إصدار حكم نهائي على طبيعة الكتابة، ونقاش آليات عمل المؤرخ والتي تكون عادة وفق ثلاثة محاور: اللامكانية، الاحتمالية، الطبيعة، وكلها تتصل بالإيديولوجيات والأفكار التي صيغت في الكتابة [٥٠].

أيضًا، لم تعد مهمة المؤرخ أن يعيد "تصوير الماضي" وأن يحكي "ماذا" حدث، وإنما صارت مهمة المؤرخ أن يفهم "لماذا" حدث ما حدث، ومدى تأثير هذا الذي حدث في الماضي على حاضر الجماعة الإنسانية ومستقبلها. ولأن الدراسات التاريخية الحديثة تحاول أن تفهم الإنسان بوصفه فردًا في جماعة إنسانية، فإن المصادر التاريخية التقليدية لم تعد كافية لتحقيق هذا الفهم، ومن ثم كان لابد من البحث في "مناطق" أخرى غير تلك التي تعود عليها المؤرخون. إذ إن المصادر التاريخية التقليدية الحوليات والمدونات التاريخية والوثائق والآثار وشهادات المعاصرين والمذكرات. وغيرها، لم تعد هي فقط المصادر التاريخية المحترمة، فقد أخذ عدد متزايد من المؤرخين يبحث في "مناطق" وجدانية وعاطفية هي ما يتضمنه الموروث الشعبي الذي يمثل "القراءة الشعبية للتاريخ"[٥١].

لقد طرحت ما بعد الحداثة أسئلة مهمة على التاريخ، تتصل بالمزاعم الحقيقية في الكتابات التاريخية، وتفسر النصوص التاريخية في ضوء العلوم الإنسانية والاجتماعية، والتحولات الجوهرية التي طالت المجتمعات على مستوى الثقافة، والنمو الصناعي، وتوقعات التقدم الاقتصادي، وأعراف الطبقة المتوسطة وتوجهاتها، كما تناقش التطورات اللغوية وما تشير إليه وظيفيا الألفاظ الجديدة[٥٢]. وقد ركّز مفكرو ما بعد الحداثة على النص التاريخي بوصفه نصا لغويا في الأساس، وانطلقوا لتحليله والتدقيق فيه، بوصفه خطابًا معرفيًا وناقشوا قضية الاستمرارية والانقطاع في التدوين التاريخي، والتمثيلات الفكرية والثقافية العديدة التي يعبر عنها، وانتقدوا في ذلك الرؤى الحداثية في التاريخ، خاصة على صعيد الدراسة العلمية المدرسية/ الرسمية، وعلى صعيد الإيديولوجية وتطبيقاتها [٥٣].

كما يرى مفكرو ما بعد الحداثة في نظرتهم إلى السردية/ الحكاية التاريخية، أن خطاب الحداثة أنتج ما أسماه "ميتا- خطاب "، ويعني صياغة حكاية/ سردية كبرى، من قبيل جدل الروح، أو تأويل المعنى، أو تحرير الذات العاقلة، أو العاملة، أو خلق الثروة..، المهم إيجاد قاعدة التلاقي بين المرسل والمستقبل/ المخاطَب، عبر منطوق حكائي له قيمة الصدق، ومن خلال صيغة إجماع اتفاقي محتمل بين أذهان عاقلة، وتلك هي حكاية التنوير، التي تهدف إلى غاية أخلاقية سياسية. ويتشكل في النهاية ما يسمى بـ " ميتا – حكاية"، والتي تتضمن فلسفة للتاريخ لإضفاء مشروعية على المعرفة، وهذا بالتالي يقودنا إلى صلاحية/ مشروعية المؤسسات التي تحكم الرابطة الاجتماعية، فهذه المؤسسات لابد من إكسابها الشرعية أيضًا عبر صياغة سردية، تدمجها في ميتا – خطاب، أي تحال العدالة إلى الحكاية الكبرى، مثلها مثل الحقيقة [٥٤].

أما إدوارد سعيد فيقدم رؤية متوازنة للتاريخ، أيا كانت طريقة كتابته، ومن يقف وراء كاتبه، يتوقف ليقول إن كتب التاريخ هي نصوص في النهاية تفيد الإنسان، فالإنسان يعود دائما إلى ذاكرته الشخصية أو الذاكرة الجماعية الشفاهية أو المدونة أو إلى الكتابات النصية التاريخية، عندنا نريد الاطلاع على شيء بعينه، أو معرفة مجتمعات مجهولة، ويقع في هذا الأمر كتب الرحلات والكتب الإرشادية بوصفها نصوصا طبيعية ومنطقية في تأليفها واستعمالها مثل أي كتاب يمكن أن يخطر على البال، وهذا سبب رجوع البشر إلى نص كتاب بشكل دائم، خاصة إذا وجدها القارئ متحققة في الواقع. ولكن المشكلة – كما يرى سعيد – أن هناك كتبا تتخطى الواقع وهي التي تصفه، وتتحول إلى معرفة، ثم إلى خطاب، يكتسب قوة وحضورا، بغض النظر عن قيمته العلمية، وتصبح أفكاره منتشرة وشائعة، وأقرب إلى المسلمات الفكرية، وهي في الواقع مجرد كتابات تحمل وجهات نظر بعينها.

ويدلل على ذلك بنظرة الغرب إلى الشرق، فالنصوص التاريخية أوجدت شرقا يتناسب مع المخيّلة الغربية، وكتبت هذه النصوص زمن القوة الثقافية العظمى للغرب، وكتبها أناس ارتبطوا بالدوائر الاستعمارية الغربية ونالوا الحظوة منها.(٥٥)

لقد مثلت كتابات إدوارد سعيد العديدة في التاريخانية الجديدة نموذجا لفكر ما بعد الحداثة عندما يقف ضد طروحات الهيمنة الفكرية والحضارية، التي بررت للغرب استغلال شعوب العالم المتأخر، والاستفادة من ثرواته، وكيف أن المستعمر الغربي صنع تاريخًا لشعوب العالم الفقير، يتناسب مع فكر المستعمر، ويتسق مع طروحاته، وكان موجها إلى الشعوب الأوروبية ذاتها، كي تقتنع بعظم رسالة الاستعمار الغربي، وتوجه أيضا إلى النخبة المتغربة من أبناء المستعمرات، كي يقنعها بخطابه وأفكاره، ومن هنا جاءت كتابات إدوارد سعيد لتقلب الطاولة على الجميع، متخذة من كتابات الاستعمار الغربي عن الشرق دليلاً دامغًا على تاريخ مزيف كُتب إرضاء للنظرة الأوروبية المستعلية على العالم. فكانت كتاباته ضد هيمنة الغرب ومركزيته الحضارية المزعومة، وضد السلطة الاستعمارية ودوائرها وجامعاتها التي موّلت الرحّالة والمؤرخين والباحثين لتقديم صورة عن الشرق تلهب مخيلة الغرب، وتشبع تصوراته وقناعاته المسبقة عن الإسلام والشرق.

فكانت فاتحة لفكر ما بعد الحداثة الذي وقف ضد السلطة والهيمنة والسرديات الكبرى والفلسفات الكلية، ولكن يبدو أن المسألة لم تنتشر بشكل كاف بين المفكرين المعاصرين، الذين ظل بعضهم على قناعاتهم المسبقة المؤسسة للنظرة الغربية الاستعلائية على شعوب العالم، فلا يزال بعض المثقفين والمفكرين، مرتبطين بالمشروع الغربي في مراحله الجديدة للهيمنة على العالم، مستندين إلى خطاب الإرث الاستعماري الذي يبرر السيطرة على شعوب العالم الفقيرة والضعيفة. لنكتشف في النهاية، أن مراجعات الفكر الغربي للحداثة كانت محدودة في مساحتها، قليلة في نتائجها، وأنها ظلت ضمن دائرة ضيقة، وإن وجدت انتشارًا لبعض طروحاتها.

يسوق إدوارد سعيد أمثلة على موقف بعض المفكرين من النزعة الاستعمارية، كما ظهر في كتاب "صدام الحضارات" لصموئيل هنتنجتون، ليثبت أن العالم في صراع مع ثلاث حضارات قائمة: الحضارة الغربية، والكونفوشيوسية، والإسلامية. مما يستوجب بقاء حلف الأطلسي، واستمرار حالة الصراع في العالم بين الحضارات المختلفة، ولتكون هذه الدعوة هي الوجه المضاد لنمو الأصوليات في العالم، خاصةً الأصولية الإسلامية، حيث تصاعدت النزعات القومية، والنظريات التي تشدد على التمايز الجذري، بل إن هناك من ينادي بعودة الاستعمار صراحة، مثل "بول جونسون"، الذي كتب مقالة في إبريل ١٩٩٣م، عنوانها: "الاستعمار عائد، وليس مبكرًا، برهة واحدة"، وينادي فيها بأهمية عودة الأمم المتحضرة لاستعمار العالم الثالث، حيث انهارت في كثير من دوله الشروط الأساسية الأدنى للحياة المتحضرة، ويتوجب القيام بذلك عن طريق الوصايات القسرية. متبنيًا نفس الخطاب الاستعماري الذي ساد أوروبا في القرن التاسع عشر(٥٦).

ولعل هذا من أبرز منجزات حركة ما بعد الحداثة في نقدها للتاريخ، أنها كشفت زيف الموروث التاريخي، ووجهت سهامًا حادة، ففككت البناءات التاريخية التي روّجتها فلسفات الحداثة وعصر التنوير، والتي ارتبطت مع المد الاستعماري الغربي، بكل ما صاحبه من تزييف تاريخي للشعوب المستعمَرة، وكان من توابعها تأجيج الصراعات في أوروبا في القرن التاسع عشر، انتهاء بالحربين العالميتين في القرن العشرين، وقد حضرت القراءات التاريخية المؤدلجة في سرديات السلطات والحكومات المقدمة إلى جماهيرها، والتي حشدت الملايين وراء طروحاتها، مثلما حشدتهم في معاركها، وكانت المحصلة ملايين المقابر.

خَاتِمَةٌ

يمكن أن نخلص في ختام هذه الدراسة إلى جملة نتائج، أبرزها:

- لا فهم لحاضرنا، ولا حتى مستقبلنا إلا بالتنقيب في التاريخ، فالحاضر ما هو إلا طبقة متراكمة على ماض وتاريخ وموروثات.
- إن التدوين التاريخي، أيا كان، ينطوي على قراءة مضمرة مبطنة تحمل وجهة نظر من سطّرها، كما تتداخل فيها سياقات ومؤثرات عديدة، مثل ضغوط السلطة والثقافة السائدة، وتحيزات المؤرخين، وإيديولوجيات الشعب وغير ذلك.
- قدمت فلسفات الحداثة أبنية متسقة في ظاهرها لقراءة التاريخ، ولكنها كانت أحادية التوجه، متجاهلة كثيرًا من الأحداث، أعلت من الإيديولوجية على حساب الحقيقة التاريخية، والواقع المعيش، ومآلات طروحات الفكر الحداثي نفسه. كما أنها ربطت التاريخ بمسببات مادية، أو أرضية، أو شعبوية، أو عرقية.
- يُعَدّ فكر ما بعد الحداثة مراجعة للمشروع الحداثي برمته، وهي مراجعة أنهت طغيان العقل الفلسفي الحداثي، من ثم إعادة تموضع العقل في إطاره الإنساني، ودراسة أوجه قصوره، وتحيزاته، والتشكيك في وهم الموضوعية الكاملة، والحيادية المطلقة، وأن المسألة نسبية، تتوقف على موقف كل مؤرخ ودارس للتاريخ.
- كانت هناك مجالات عديدة رفدت لرؤية ما بعد الحداثة التاريخية، تمثلت في منهجيات علمية واكبت نقد ما بعد الحداثة، بل ربما كان هذا الفكر ناتجًا من نواتجها، مثل منهجية تحليل الخطاب، وتحليل النص، ومنهجيات التلقي الفاعل، بجانب حركة ما بعد الاستعمار ونقدها العنيف للموروث الاستعماري، وأيضًا مآلات الماركسية، والقومية، والقطرية، وقراءاتها المنقوصة والأحادية للتاريخ، وما ترتبت عليه من حروب ونزاعات وعصبيات ضد القيم الإنسانية.
- إن فكر ما بعد الحداثة أشاع منهجيات جديدة في قراءة التاريخ مثل التاريخ المهمش، الاجتماعي، الحضاري، وناهض تاريخ السلطة، والحكام، وأولي القوة.
- أرى أن المنظور التاريخي لفكر ما بعد الحداثة سار بنهج طبيعي، قوامه النقد والنقض للفلسفات التاريخية الحداثية، من أجل تشييد أبنية جديدة ومسارات لقراءة التاريخ، من جوانبه المختلفة، دون غمط أو تجاهل أو إغفال.

الاحالات المرجعية:

(١) **تاريخ الفلسفة**، فردريك كوبلستون، ترجمة: سعيد توفيق، محمود سيد أحمد، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠١٣م، المجلد الرابع، ص٨٣، ٨٤.
(٢) **الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان**، عبد الوهاب المسيري، دار الفكر دمشق – بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م، ص١٠٣، ١٠٤.
(٣) انظر: **نظرية علم الاجتماع**، نيقولا تيماشيف، ترجمة: محمد عودة، محمد الجوهري، مطبعة الصادق، العراق، د ت، ص٦٣-٦٦.
(٤) **الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان**، المسيري، ص١٠٦، ١٠٧.
(٥) **المركزية الغربية: إشكالية التكون والتمركز حول الذات (منظور نقدي)**، د. عبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص٢٢٩.
(٦) السابق، ص٢٣٠.
(٧) **اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود**، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م، ص٢٠.
(٨) **موقع العقل في فلسفات ما بعد الحداثة**، د. مجدي عبد الحافظ، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٤١، ٢٠١٢م، ص١٦١.
(٩) **نقد الحداثة**، آلان تورين، ترجمة: أنور مغيث، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٢٣.
(١٠) **دراسات في فلسفة التاريخ النقدية**، د. جميل موسى النجار، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠١٧م، ص٢٣.
(١١) انظر تفصيلاً: **التاريخ من أسفل: في تاريخ الهامش والمهمش**، خالد اليعقوبي، خالد طحطح، منشورات الزمن، سلسلة شرفات، المغرب، العدد ٨١، ٢٠١٦، ص١١ وما بعدها.
(١٢) **نقد الحداثة**، آلان تورين، ص٩٥.
(١٣) السابق، ص٩٦.
(١٤) السابق، ص٩٨.
(١٥) السابق، ص١٠٠.
(١٦) **موقع العقل في فلسفات ما بعد الحداثة**، ص١٤٤، ١٤٥.
(١٧) ظهر هذا التوجه في كتابات عديدة أبرزها: الفيكتوريون المتفوقون (١٩١٨م)، لمؤلفه: لوتن ستراشي، وانتقد فيها بقوة الشخصيات السياسية البريطانية التقليدية، التي أعلت من الامبريالية، ومزجت شعاراتها بالروح الدينية الإنجيلية، مع زيادة رفاهية الشعب البريطاني من تدفق الأموال والخيرات من المستعمرات البريطانية. انظر تفصيلاً: **شروق الإمبراطورية البريطانية وغروبها**، لورانس جيمس، ترجمة: عبد الله عبد الرازق إبراهيم، المجلد الثاني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٦م، ص١١٩ – ١٢٣.
(١٨) **في تجديد الفكر القومي العربي: الضرورات والإمكانات**، معن باشور، دراسة ضمن أعمال مؤتمر الفكر القومي العربي: الواقع والآفاق، دمشق، ١٧ / ١٠ / ٢٠١٤م، ومنشورة في مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، عدد نوفمبر ٢٠١٤م، ص٢٢.
(١٩) السابق، ص٢٦.
(٢٠) **"الخطاب القومي العربي قرابة قن من الخديعة: محاولة نقدية لمرجعيات الفكر القومي العربي"**، أحمد يوسف، الحوار المتمدن، ٢/٤ / ٢٠١٢م، http://www.m.ahewar.org
(٢١) انظر تفصيلاً: **الصراع في منطقة البلقان (١٩٩٢- ١٩٩٥م) البوسنة والهرسك نموذجًا**، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العام

الجامعي ٢٠١٤ /٢٠١٥م، ص٢٠ – ٢٣. والجدير بالذكر أن نظام معمر القذافي الذي رفع شعارات عروبية قومية وحدوية، ساند الصرب في حربهم ضد المسلمين.

(٢٢) **الفكر القومي العربي والدولة**، د. عبد الاله بلقزيز، ٢٦ janvier 2009 مقال على موقع الكاتب، http://infobelkzizabdelillah.over-blog.com/article-27790212.html

(٢٣) المرجع السابق.

(٢٤) مجموعات عرقية في أوروبا، https://ar.wikipedia.org/wiki

(٢٥) **نقد الحداثة**، آلان تورين، ص٢٢.

(٢٦) موقع العقل في فلسفة ما بعد الحداثة، د. مجدي عبد الحافظ، مرجع سابق، ص١٤١. وهذا نفس توجه ميشيل فوكو الذي يرى أن المشكلة في الحداثة ذاتها، وفي دائرتها الفكرية، بمعنى أن الحداثة تنقد نفسها، وأن ما بعد الحداثة وهمية، وما يتم هو مراجعة وإعادة تموضع للفكر الحداثي، ليتصالح مع تياره العام، ويصحح مسيرته. ص١٤٢.

(27) The culture of postmodernism, Ihab Hassan. Theory culture and society, Vol 2 , No 3. 1985. P 119.

(٢٨) **ما بعد الحداثة**، باتريشيا ووه، ترجمة: شعبان مكاوي، في موسوعة كمبريدج للنقد الأدبي، **القرن العشرون: المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية**، تحرير: ك. نلوولف، ك. نوريس، ج. أوزبورن، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٤١٩.

(29) The culture of postmodernism, P 45.

(٣٠) **أزمة الماركسية** (١)، إبراهيم فتحي، مجلة الحوار المتمدن، العدد: ٤١٠٣ - ٢٠١٣ / ٥ / ٢٥، ص١٦-١٩.

(٣١) طرح كانط إمكانية فهم المعرفة الإنسانية والعقلية ومعرفة مصادرها وحدودها؛ مما يمكننا من طرح أي أسئلة ميتافيزيقية والحصول على أجوبه مثمرة. وسأل كانط سؤالاً خطيرًا هو: هل للأشياء والمواضيع التي نعرفها خصائص معينة سابقة على تجربتنا وعلى إحساسنا. وأجاب على ذلك بأن جميع المواضيع والأشياء التي يمكن للعقل معرفتها تتم بطريقة يختارها العقل. ويضرب مثالا على ذلك أنه إذا استعد العقل للتفكير قبل أي موضوع واختار العقل التفكير بطريقة السببية فإننا بالتالي نعلم قبل أن نتعرف على أي موضوع أن الموضوع سيكون إما سببًا أو نتيجة. ويصل كانت إلى نتيجة مفادها أن هناك مواضيع لا يمكن للعقل معرفتها عن طريق السببية. ونتيجة أخرى هي أن مبدأ السببية هو طريقة في التفكير لا يمكن أن تستقل عن التجربة والإحساس. ولا يستطيع مبدأ السببية الإجابة عن جميع الأسئلة. ويضرب مثالا للتوضيح هو هل العالم أزلي أم له مسبب. وبالتالي فإن أسئلة الميتافيزيقا الأساسية لا يستطيع العقل الإنساني الإجابة عنها، لكن العقل يفهم ويعرف ويجيب عن أسئلة العلوم العادية لأنها تخضع لقوانينه. راجع: **فلسفة كانط**، إميل بوترو، ترجمة: عثمان أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٢٧ وما بعدها، وأيضًا فصول عدة في الكتاب.

(٣٢) **ما بعد الحداثة**، باتريشيا ووه، ترجمة: شعبان مكاوي، موسوعة كمبريدج للنقد الأدبي، ص٤٢٧.

(٣٣) **أزمة الماركسية** (١)، إبراهيم فتحي، مرجع سابق.

(٣٤) **ما بعد الحداثة**، باتريشيا ووه، ص٤٢٢.

(٣٥) **الوضع ما بعد الحداثي**: تقرير عن المعرفة، جان- فرانسوا ليوتار، ترجمة: أحمد حسان، دار شرقيات، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م، ص٢٤.

(٣٦) **الفردية قديمًا وحديثًا**، جون ديوي، ترجمة خيري حماد، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م، ص١٠-١٢، وأيضًا ص٥١ – ٥٢.

(٣٧) **مقدمات في نقد الفكر القومي العربي السائد**، إلياس مرقص، ورقة منشورة ضمن أعمال ندوة: الديمقراطيون العلمانيون، بيروت، ١٣ كانون الأول، ١٩٧٩م، ص١-٥. ونُشرت أيضًا في مجلة الواقع، بيروت، العدد ١، ١٩٨١م.

(38) Postmodernist Approach to the Discipline of History, Kaya Yılmaz, Postmodernist Approach to the Discipline of History, Kocaeli Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü Dergisi (14) 2007 / 2: 176-188, P 177.

(٣٩) Ibid, p 178.

(٤٠) **ما بعد الحداثة**، باتريشيا ووه، ص٤٢٦، ٤٢٧.

(٤١) **ما بعد الحداثة: مقدمة قصيرة جدًا**، كريستوفر باتلر، ترجمة: نيفين عبد الرؤوف، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١٦م، ص١٩.

(42)Postmodernist Approach to the Discipline of History , p 178.

(43) How warped the mirrors': postmodernism and historiography, Olson, Ryan Scott, Durham University, 2002. P 9.

(٤٤) **ما بعد الحداثة**، باتريشيا ووه، ص٤٢٥.

(٤٥) **الحداثة وما بعد الحداثة**، د. عبد الوهاب المسيري، في كتاب: الحداثة وما بعد الحداثة، مع د. فتحي التريكي، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٣م، ص٩٤، ٩٥.

(٤٦) **الثورة المعرفية المعاصرة: حركة ما بعد الحداثة**، السيد ياسين، دراسة في كتاب: التحول الثقافي: كتابات مختارة في ما بعد الحداثة (١٩٨٣-١٩٩٨م)، منشورات أكاديمية الفنون، سلسلة الدراسات النقدية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص١٣، ١٤.

(47) How warped the mirrors': postmodernism and historiography. P 16.

(٤٨) **الحداثة وما بعد الحداثة**، المسيري، ص٦٨.

(٤٩) **القراءة الشعبية للتاريخ**، د. قاسم عبده قاسم، على موقع دار العين للدراسات والبحوث الإنسانية، ٢٣/ ٧ / ٢٠١٤م، http://www.dar-ein.com/articles/

(50) How warped the mirrors': postmodernism and historiography , p11.

(٥١) **القراءة الشعبية للتاريخ**، مرجع سابق.

(52) Postmodernist Approach to the Discipline of History , p. 180.

(53) Postmodernism and Historiography: A Critical Study, Chin-Shing Huang, Institute of History and Philology Significant Reserach Achievements of Academia Sinica, 2006, pp 99 -100.

(٥٤) **الوضع ما بعد الحداثي**، ص٢٣، ٢٤.

(٥٥) **الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق**، إدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥م، ص١٧٠ – ١٧٢.

(٥٦) **تعقيبات على الاستشراق**، إدوارد سعيد، ترجمة وتحرير: صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٦م، ص١٢٣-١٢٧.



Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal, indexed and abstracted in several international databases.

info@kanhistorique.org